حقوق الإنسان عبر التاريخ

« من العصر الفرعوني ... إلى العصر الحديث
مروراً بالتاريخ الإسلامي والتاريخ الأوربي »



للمستشار
محمد أحمد خضر



محمد أحمد خضر

حول هذا الكتاب

هذا الكتاب يتناول حقوق الإنسان منذ العصر الفرعوني حتى العصر الحديث. مروراً بالتاريخ الإسلامي .. والتاريخ الأوربي.

وقد ظهر من البحث الدور الكبير الذي قام به النبي إدريس. وكما تقول بعض المراجع فإن إدريس هو أوزوريس. ذلك أن إدريس هو أول من خط بالقلم. وعلم الناس القراءة والحساب. وأول من علم الزراعة والطب والفلك.

وجاء إبراهيم (عليه السلام) فدعا إلى التوحيد وعدم الشرك بالله. وأقام للناس بيتاً يحجون إليه ويعتمرون. ويمكن القول أنه إذا كان إدريس هو مفجر الحضارة. فإن إبراهيم هو معلم الطهارة.

ثم استعرض الكتاب رسالة السماء المدونة في التوراة. وأقوال المسيح (عليه السلام) المدونة في الإنجيل. وانتقل للحديث عن الأحداث والأعراف التي كانت منتشرة في العصر الجاهلي. حتى بزوغ فجر الإسلام في مكة المكرمة. ثم انتقال الرسالة إلى المدينة المنورة. ونشأة المجتمع الفاضل فيها. والذي ظل نوره يضيء أرجاء الجزيرة العربية طوال عهود الخلفاء الراشدين. ثم انتقل النظام السياسي في الإسلام من الخلافة إلى الملك. حيث تتبع الكتاب الأحداث من العصر الأموي إلى نهاية العصر العثماني.

وفي القسم التالي بدأ الحديث عن الإغريق. والرومان. والدولة البيزنطية. وتابع المؤلف تاريخ أوربا القديمة. وأوربا الوسطى. وعصر الحضارة. ثم العصر الحديث. وفي كل هذا أشار إلى التطورات المهمة مثل الحروب الصليبية. ومثل تطور الحياة النيابية.

وقد تبين في غضون ذلك. أن المجتمع الإسلامي آنذاك ساده الوفاق والأمن والتسامح الديني.

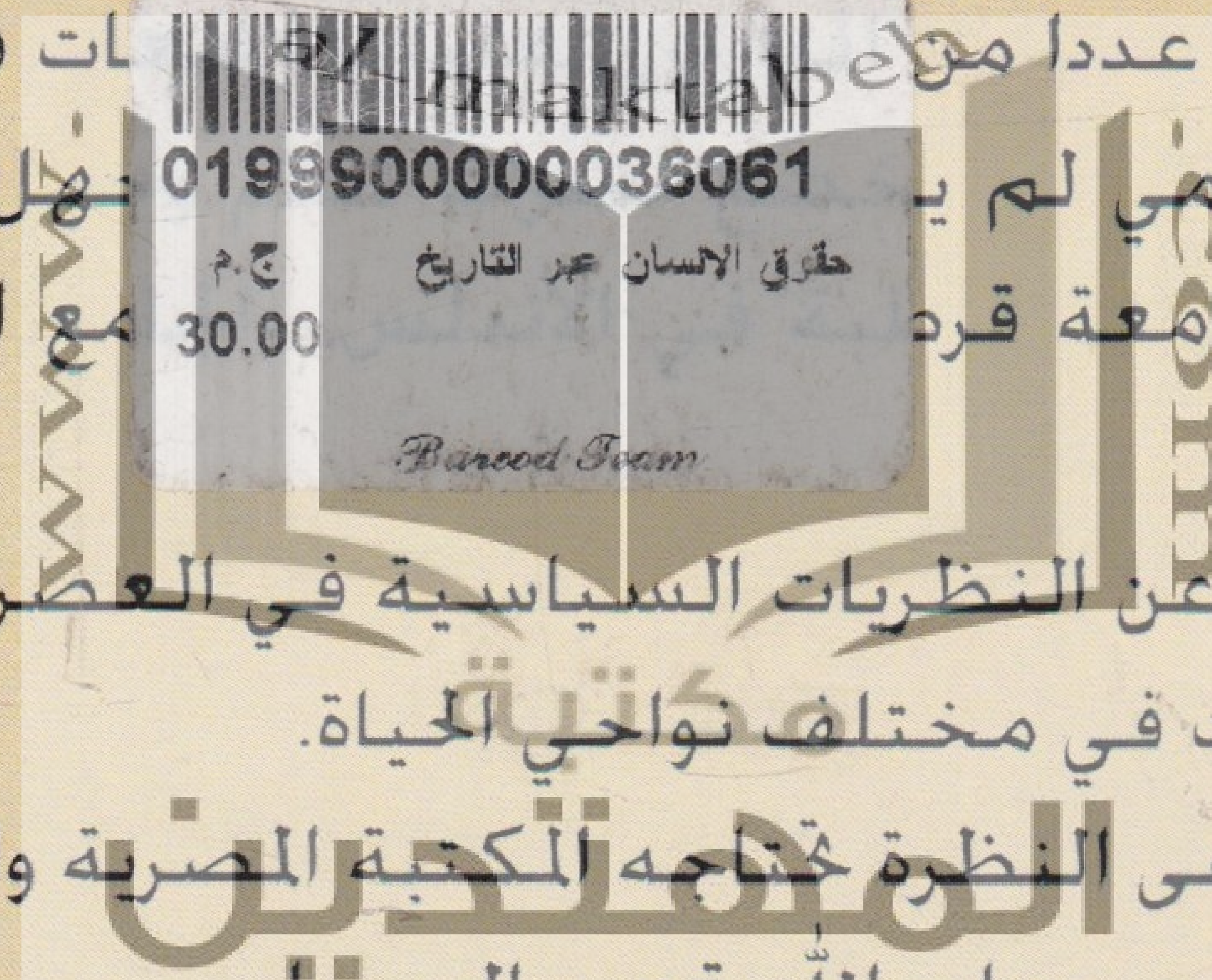
كما تبين أن الدول الإسلامية كانت أسبق في نشر العلم والثقافة من أوربا. إذ كانت - في وقت واحد تقريباً - تضم عدداً من [illegible] في مختلف [illegible] العالم الإسلامي. وأن المجتمع الإسلامي لم [illegible] نهل مثل ما [illegible] أرجاء العالم الغربي. عن طريق جامعة قر[illegible] مع الأزهر في [illegible] المدارس النظامية في العراق.

وختم الكتاب بمعلومات عن النظريات السياسية في العصر الحديث [illegible] حقوق الإنسان. والنهضة التي قامت في مختلف نواحي الحياة.

والكتاب موسوعي النظرة تحتاجه المكتبة المصرية والعربية معاً.

وعلى الله قصد السبيل





الناشر
سمير الطوبجي


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

حقـــوق الإنســان عــبر التاريــخ

«مـن العـصـر الفـرعـوني... إلى العـصـر الحـديـث
مـرورًا بالـتاريـخ الإسـلامـي والـتاريـخ الأوروبي»

المستشار

محمد أحمد خضر



حقوق الإنسان عبر التاريخ

(من العصر الفرعوني.. إلى العصر الحديث مرورًا بالتاريخ الإسلامي والتاريخ الأوروبي)

المستشار

محمد أحمد خضر

رقم الإيداع

٢٠١٠/٩١١٠

الترقيم الدولي

٩٧٧-١٧-٨٨٢٩-٩

الناشر

مؤسسة الطوبجي

للتجارة والطباعة والنشر

٢٠ شارع جامع الإسماعيلي

لاظوغلي - القاهرة

ت ٢٧٩٦٢٣٦٤

٠١١١٨٨٨٦٠٥

المدير العام

سمير الطوبجي



TOBGEY press

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم
مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

صدق الله العظيم

[الآية ٧٠ من سورة الإسراء]

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

أكرمني ربي سبحانه وتعالى، فهيأ لي تقديم عدة كتب على مدى سنوات مضت، فلم أبذل جهدًا في إعداد أي كتاب منها، كما بذلت في هذا البحث، لأنـــه يدورِ حول موضوع واسع عريض، يتناول فترة تاريخية بطول الزمن، ويتطلب تعمقًا في تناول المفردات والجزئيات.

وها أنا قد انتهيت من إعداده بعد تدبر وصبر وطول أنــاة، فتبــين لــي الكثير مما كان خافيًا قبل أن أشرع في الكتابة، إذ ظهر لي الدور الكبير الذي قام به النبي إدريس الذي رفعه الله إلى السماء، والجهاد العظيم الذي قام به إبــراهيم أبو الأنبياء. وكما تقول المراجع التي تحت أيدينا فإن إدريس عليه السلام هو أول من خط بالقلم، وعلَّم الناس القراءة والحساب، وأول من علَّم الزراعة والطب والفلك، والمقاييس والموازين، فهو أول معلم للبشرية.

ويرى البعض أن إدريس هو أوزوريس الذي قدَّم كل هذه العلوم والفنون لقدماء المصريين، وأنه كما رفع الله سبحانه إدريس إلى السماء، فإن الأســطورة تقول أن أوزوريس رُفع إلى السماء، غاية ما هناك أن قدماء المصريين حرَّفــوا الاسم إلى أوزوريس.

وبمتابعة تاريخ قدماء المصريين تبين أن ما علق بشأنهم في الأذهان، من أن عهدهم كان عهد سخرة واستبداد، كان وهمًا لا أساس له من الــصحة، فلقــد كانت لدى قدماء المصريين حضارة تذهل كل دارس لتاريخهم، فقد كانوا يقدسون الحياة، والحق في الحرية والمساواة، والعدالة واحترام القانون، وكــان التــسامح الديني يشكل أحد العلامات البارزة في الحضارة الفرعونية (كما قال أحد الباحثين الفرنسيين).

وجاء إبراهيم عليه السلام فدعا إلى التوحيد وعــدم الــشرك بــالله، والأمــر بالمعروف والنهي عن المنكر، فحطم الأصنام، وتعرض للحرق والانتقام، وأقام للناس- بإرشاد من الله- بيتًا يحجون إليه ويعتمرون. ويمكن القول أنه إذا كــان إدريس مفجر الحضارة، فإن إبراهيم هو معلم الطهارة، طهارة النفس من الشرك والأوثان، وطهارة البدن من الرجز والأدران.

وبعد أن استعرضنا رسالة السماء المدونة في التوراة، وأقوال المسيح المدونة في الإنجيل، وفيها الكثير من حقوق الإنسان، تناولنا الأحداث والأعراف التي كانت منتشرة في شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي، ثم انتقلنا للحديث عن ظهور الإسلام في مكة المكرمة، ونزول الوحي على الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ. وقد عكس أمير الشعراء أحمد شوقي مشاعره في قصيدة قال فيها:

ونُودِيَ اقرأ تعالى الله قائلها ⁂ لم تتصل قبل من قيلت له بِفَمِ

وتتبعنا تطور الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة، ثم انتقال الرسالة إلى المدينة المنورة، وقدمنا تعريفًا موجزًا عن الإسلام، وتعريفًا عن القرآن، وشرحنا نشأة المجتمع الفاضل في المدينة المنورة، وهو المجتمع الذي لم يكن له نظير من قبل ولا من بعد، في علوه وتساميه، ومكارم الأخلاق فيه، والذي ظل نوره يضيء أرجاء الجزيرة العربية وما حولها.. طوال عهود الخلفاء الراشدين: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي.

ثم انتقل النظام السياسي في الإسلام من الخلافة إلى المُلك، فذهبت مع الخلافة المُثُل والمبادئ الإسلامية العليا، في سبيل سيطرة الملوك والسلاطين على المُلك، والاستمتاع بمباهج الرئاسة وحب الحياة، حيث تحولت الخلافة إلى مُلك عضود يتوارثه الأبناء عن الآباء، ولا يتورعون في سبيل الحفاظ على كرسي العرش في تعذيب من لا يدينون بالولاء لهم، وإزهاق أرواحهم.

وكانت لنا نظرة فاحصة في حقوق الإنسان جملةً وتفصيلاً في التاريخ الإسلامي، إذ تابعنا الأحداث جملة في التاريخ الإسلامي منذ نشأة الدولة الإسلامية، حتى نهاية الدولة العثمانية، وبين هذا وذاك أوضحنا تفصيلاً حقوق الإنسان المسلم في مختلف النواحي والمجالات.



وفي القسم التالي من البحث، بدأنا بالحديث عن الإغريق، والرومان، والدولة البيزنطية، وتابعنا التاريخ في أوربا القديمة، وأوربا الوسطى، وعصر الحضارة، ثم العصر الحديث، وفي كل هذا أشرنا إلى نظام الحكم وأهم الأحداث في كل عصر، خاصةً الأحداث الكبيرة والجسيمة التي صادفت التطور التاريخي، مثل قيام الإمبراطورية الرومانية ثم انقسامها، وذهابها مع التاريخ، ومثل الحروب الصليبية، ومثل تطور الحياة النيابية، والصراع الطويل بين المسلمين والمسيحيين للسيطرة على أسبانيا.

وتبين لنا- في غضون ذلك- أن المجتمع الإسلامي ساده الوفاق والأمن والتسامح الديني مع أهل الكتاب وفقًا لقاعدة أن: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»، بينما كان النزاع والخلاف سائدًا، وأدى إلى كثير من سفك الدماء من معتنقي الديانة المسيحية، بل قامت نزاعات مسلحة بسبب الاختلاف المذهبي داخل الدين الواحد. وصدق الحق تبارك وتعالى إذ يقول في الآية (١٤) من سورة المائدة: ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ صدق الله العظيم.

كما تبين لنا أن الدول الإسلامية كانت أسبق في نشر العلم والثقافة من أوربا، إذ كانت- في وقت واحد تقريبًا- تضم عددًا من المدارس العليا والجامعات في مختلف أرجاء العالم الإسلامي. وأن المجتمع العربي الإسلامي لم يخضع لفترات ظلام وجهل مثل ما حدث في أوربا العصور الوسطى، بل إن العلم كان منتشرًا، والثقافة كانت مزدهرة، في مختلف أرجاء العالم العربي، عن طريق جامعة قرطبة في الأندلس، والجامع الأزهر في مصر، والمدارس والمعاهد النظامية في العراق.

وفي خلال كتاباتي وجدت أن قصر الكتابة بالتركيز على حقوق الإنسان في الجانبين الإسلامي والغربي.. هكذا مباشرة، سيجعل البحث جافًا وقاصرًا عن بلوغ الهدف، ومن ثم فقد فضلت أن يكون الحديث عن حقوق الإنسان مصحوبًا بالتطور التاريخي، ليتسنى الوقوف على البيئة والمناخ العام ونظام الحكم في كل فترة تاريخية، وهو ما يكون له أثر واضح على حقوق الإنسان، أي أن ازدهار أو ذبول حقوق الإنسان إنما يكون نابعًا من التطور السياسي والحضاري لأي عهد.

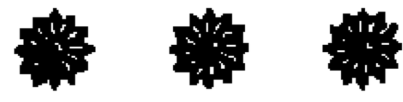
وختمنا البحث بفصلين عن حقوق الإنسان في المواثيق الدولية الحديثة، الأول عن المبادئ الخاصة بحقوق الإنسان التي أصدرتها الأمم المتحدة في القرن العشرين، والثاني عن حقوق الإنسان في المواثيق الدولية الصادرة من الوكالات الدولية المتخصصة.. خاصة منظمة العمل الدولية، ومنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو).

وقد استشهدنا في بعض المواضع بأبيات من قصائد الشعر العربي الجميل، بلغت أربعة عشر موضعًا، وقد كان العدد الكبير من هذه الأشعار من نظم أمير الشعراء أحمد شوقي، يليه شاعر النيل حافظ إبراهيم، ثم قدمنا أبياتًا للشعراء: الإمام البوصيري، الفرزدق، الشريف الرضي، أبو تمام، المتنبي،

المعري، عمر الخيام، كلٌ في المناسبة التي دفعتنا إلى الاستشهاد بالشعـر.

وتضمن البحث أربع خرائط لها أهميتها في توضيح المضمون، وهي:

- خريطة للدولة الإسلامية في أقصى اتساعها.. عند سقوط الدولة الأموية.
- خريطة توضح دولة المماليك والإمارات الصليبية في الشام.
- خريطة للإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي.
- خريطة عن انتقال الحضارة من الوطن العربي إلى أوربا.



هذا- وينقسم البحث إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: عن حقوق الإنسان قبل الإسلام، ويضم:

- النبي إدريس والحضارة الفرعونية.
- الخليل إبراهيم وعقيدة التوحيد.
- اليهودية ونزول التوراة.
- المسيحية ونزول الإنجيل.
- العصر الجاهلي.

القسم الثاني: عن بزوغ فجر الإسلام.

والباب الأول فيه يشمل:

- ظهور الإسلام في مكة.
- إقامة المجتمع الفاضل في المدينة.

والباب الثاني يتناول:

حقوق الإنسان في الإسلام.

الباب الثالث بعنوان:

من الخلافة إلى المُلك (الدولة الأموية، العصر العباسي الأول، العصر العباسي الثاني).

والباب الرابـع: عن المماليك والغزو الأجنبي.

والباب الخامس: عن الدولة العثمانية.

أما القسم الثالث: فعن حقوق الإنسان في الغرب:

ويتفرع إلى الأبواب الآتية:

الباب الأول : الإغريق والرومان والإمبراطورية البيزنطية.

الباب الثاني : أوربا في العصور الوسطى.

الباب الثالث : عصر النهضة الأوربية.

الباب الرابع : حقوق الإنسان في الغرب.

القسم الرابع: عن العصر الحديث والمواثيق الدولية:

الباب الأول: الفكر والنظم الدستورية في العصر الحديث.

الباب الثاني: المواثيق الدولية للأمم المتحدة.

الباب الثالث: الوكالات المتخصصة وحقوق الإنسان.

ختامًا.. فإني آمل أن أكون قد وُفقت في الوصول إلى ما أبتغـــي، وهـــو القربى من وجه الله سبحانه وتعالى.

وما توفيق إلا بالله.. عليه توكلت وإليه أنيب،،

محمد أحمد خضر

القاهرة في يوم ١٩ ربيع آخر سنة ١٤٣١هـ
الموافق ٤ إبريل سنة ٢٠١٠م

القسم الأول

حقوق الإنسان قبل الإسلام

الباب الأول

الدين والحضارة في المنطقة العربية
قبل الإسلام

تمهـــــيد :

نقصد بالمنطقة العربية: شبه الجزيرة العربية والبلاد المحيطة بها مــن الشمال، والتي نزحت إليها الهجرات العربية القديمة.. التي خرجت من جنــوب الجزيرة العربية، واتجهت إلى الجهات التي تقع في شمالها، وذلك فـــي فتــرات الجدب، بحثًا عن الرزق، والتماسًا لأماكن أخصب، وعيش أرغد.

وهذه الجهات هي: بلاد النهرين (العراق)، وبلاد الشام جميعها (ســـوريا ولبنان، والأردن وفلسطين)، ثم مصر. وهذه المنطقة بأكملها يطلق عليها منطقة الهلال الخصيب. وهي- في ذات الوقت- المنطقة التي داستها أقدام الأنبياء مـــن إدريس إلى عيسى، مرورًا بإبراهيم ويوسف وموسى (عليهم السلام).

وسوف نتحدث عن الدين والحضارة في هذه المنطقة، باعتبارها موطن الأنبياء، ومستقر الحضارات.

وينقسم هذا الباب إلى الفصول التالية:

الأول : عن النبي إدريس عليه السلام والحضارة الفرعونية.

الثاني : عن الخليل إبراهيم عليه السلام وعقيدة التوحيد.

الثالث: عن اليهودية ونزول التوراة.

الرابع: عن المسيحية ونزول الإنجيل.

الخامس: العصر الجاهــلي.

الفصل الأول
النبي إدريس والحضارة الفرعونية

عاش آدم عليه السلام حوالي ألف سنة، وترك بعده الكثير من الأنبياء والأحفاد، وقام بأمر الدين بعده ولده شيث عليه السلام، وكان نبيًا بنص حديث الرسول ﷺ. ولما مات تولى أمانة دعوة التوحيد النبي إدريس عليه السلام، وهو عند أهل الكتاب اسمه «خنوخ» أو «اخنوخ».

قال الله تعالى عنه في الآيتين ٥٦، ٥٧ من سورة مريم: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾.

وكان أبناء شيث يعبدون الله كما علَّمهم آدم عليه السلام، وكذلك بما وصلهم من صحف أُنزلت على شيث، ولكنهم- بمرور الزمن- ضلوا وانحرفوا عن طريق الهداية، فلزم أن يرسل الله إليهم نبيًا لهدايتهم، وكان هو إدريس عليه السلام. وقد ألهمه الله من أمور الدنيا أسس قيام الحضارة الإنسانية: من كتابة وقراءة، وحياكة ثياب، والتعامل بالمكاييل والموازين، ومعرفة الطب والهندسة والحساب.

وقد وضع الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦هـ كتابًا أسماه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» تحدث فيه عن عدد كبير من الحكماء والفلاسفة من أمثال: سقراط وأرسطو وأفلاطون، وابن حيَّان وابن رشد.. وغيرهم، بدأه بالحديث عن إدريس عليه السلام. ونحن ننقل هنا ما أورده هذا الكتاب، وإن كنا نعيب عليه أنه لم يذكر مصادر معلوماته، أو المراجع التي استقى منها أخباره، حيث يقول عن إدريس ما يلي:

«اختلف العلماء في مولده، ومنشئه، وعمن أخذ العلم قبل النبوة.

فقالت فرقة: وُلد بمصر، وسموه هرمس الهرامسة، ومولده بمنف. وقالوا: وخرج هرمس من مصر، وجاب الأرض كلها، ثم عاد إليها، ورفعه الله إليه بعد اثنتين وثمانين سنة من عمره.

وقالت أخرى: إن إدريس وُلد ببابل (في العراق) وبها نشأ، وأخذ أول عمره بعلم شيث، وهو جد جد أبيه. ولما كبر إدريس أتاه الله النبوة، فنهى المفسدين عن مخالفة شريعة آدم وشيث، فأطاعه أقلهم وخالفه جلهم، فنوى الرحلة عنهم وأمر من أطاعه منهم بذلك، فثقل عليهم الرحيل عن أوطانهم، وقالوا له: أين نجد مثل بابل إذا رحلنا، وبابل بالسريانية معناها النهر، وكأنهم عنوا بذلك

دجلة والفرات، فقال إدريس: إذا هاجرنا لله رزقنا غيره. فخرج وخرجوا، وساروا إلى أن وافوا هذا الإقليم الذي سمي «بابليون» (أو: بابل يون)، فرأوا النيل، ورأوا واديًا خاليًا من ساكن، فوقف على النيل وسبح الله، وقال لجماعته: بابليون؛ واختلف في تفسير (بابل يون) فقيل معناها: نهر كنهر، وقيل: نهر مبارك، وقيل أن يون في السريانية مثل أفعل التي للمبالغة في كلام العرب، فكأن معناها: نهر أكبر، فسمي الإقليم عند جميع الأمم: بابليون، وسائر الأمم على ذلك إلا العرب.. فإنهم يسمونه إقليم مصر نسبة إلى مصر بن حام بن نوح.. النازل به بعد الطوفان. والله أعلم بكل ذلك.

وأقام إدريس ومن معه في مصر يدعو الخلائق إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الله ﷻ، ورسم لهم تمدين المدن، وجمع طالبي العلم في كل مدينة، فعرّفهم السياسة المدنية وقرر لهم قواعدها، فبنت كل فرقة من الأمم مدنًا في أرضها، فكانت عدة المدن التي أنشئت في زمانه مائة وثمانيًا وثمانين، وعلمهم العلوم، وهو أول من استخرج الحكمة وعلم النجوم، فإن الله ﷻ أفهمه أسرار الفلك وتركيبه، ونقط اجتماع الكواكب فيه، وأفهمه عدد السين والحساب، وأقام للأمم سننًا في كل إقليم تليق بأهله، وقسّم الأرض أربعة أرباع وجعل على كل ربع ملكًا يسوس أمر المعمور من ذلك الربع، وتقدم إلى كل ملك بأن يلزم أهل كل ربع بشريعة سأذكر بعضها.

شرائع إدريس عليه السلام :

يمضي كتاب القفطي فيذكر سنن أي شرائع إدريس عليه السلام، فيقدمها فيما يلي:

١- دعا إلى دين الله والقول بالتوحيد وعبادة الخالق.
٢- تخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح في الدنيا.
٣- الحض على الزهد في الدنيا.
٤- الحض على العمل بالعدل.
٥- أمر بصلوات ذكرها لهم على صفات بينها.
٦- أمرهم بصيام أيام معروفة في كل شهر.
٧- أمرهم بزكاة الأموال معونة للضعفاء.
٨- حثّهم على الجهاد لأعداء دينهم.
٩- غلّظ عليهم في الطهارة من الجنابة ومن الكلب.

١٠-حرَّم السُكر في كل شيء من المشروبات.. وشدد فيه أعظم تشديد.
١١-جعل لهم أعيادًا كثيرة في أوقات معروفة.
١٢-جعل لهم قربانات (قرابين) في أوقات محددة.

ووعد أهل ملته بأنبياء يأتون من بعده، وعرَّفهم صفة النبي فقال: يكون بريئًا من المذمات والآفات كلها، كاملاً في الفضائل الممدوحات، لا يقصر في مسألة يُسأل عنها في الأرض والسماء، ومما فيه شفاء ودواء، وأن يكون مستجاب الدعوة في كل ما يطلبه، وأن يكون مذهبه ودعوته المذهب الذي يصلح به العالم.

وفي موضع آخر يقول القفطي: وزعم جماعة من العلماء أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان إنما صدرت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى. وقالوا أنه أول من تكلم في الجواهر العلوية والحركات النجومية، وأول من بنى الهياكل ومجَّد الله فيها، وعلَّم الناس الزراعة، وأول من نظر في علم الطب، وألَّف لأهل زمانه قصائد موزونة في الأشياء الأرضية والسماوية، وقالوا أنه أول من أنذر بالطوفان، ورأى أن آفة سماوية تلتحف الأرض من الماء والنار، فخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع، فبنى الأهرام والبرابي (المعابد والهياكل) في صعيد مصر الأعلى، وصوَّر فيها جميع الصناعات والآلات، ورسم فيها صفات العلوم.. حرصًا منه على تخليدها لمن بعده، خيفة أن يذهب رسمها من العالم.

إدريس وأوزوريس :

للأستاذ عبد الحميد جودة السحار رأي خاص ينفرد به، ذكره صراحة في كتابه بعنوان: «إبراهيم أبو الأنبياء»، فقد ذكر في أكثر من موضع في كتابه هذا، وفي سلسلة كتبه، أن إدريس عليه السلام ظهر في منف يدعو المصريين إلى عبادة رب العالمين، إلى عبادة الله الذين يجمعهم يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم في الدنيا. وأن إدريس أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط، وأول من علَّم الناس الزراعة، وأول من نظر في علم النجوم والحساب، وأنه جاء بالقوانين من السماء، ثم رُفع إلى السماء بعد أن مات. ثم أردف قائلاً في كتابه: اعتنق الصابئون دين إدريس قبل أن يبعث الله نوحًا وإبراهيم، وقبل أن تقوم في مصر دولة عرف المصريون الله قبل أن يعرفوا آمون وآتون أوزوريس.

ويضيف السحار: وقد ربطتُ بين إدريس وعقيدة أوزوريس، لأني رأيت أن إدريس كان في منف وأن أوزوريس كان في منف، ولأن كتب التاريخ تقول أن إدريس هو أول من علم الناس الزراعة، وأن أوزوريس هو أول من علم الناس الزراعة، وأن إدريس هو أول من خط بالقلم، وأن أوزوريس هو الذي علم المصريين الكتابة، وأن الله رفع إدريس مكانًا عليًا، وأن الأسطورة رفعت أوزوريس إلى السماء.

ثم يردف قائلاً: وسواء أكانت أسطورة أوزوريس نُسجت حول إدريس أم نُسجت حول حقيقة أخرى، فمما لا شك فيه أن المصريين آمنوا بالبعث بعد الموت وبالحساب وبالثواب وبالعقاب بعد دعوة إدريس، وأن الصابئين الذين كانوا في مصر قبل أن يفسد دين القوم، ثم هاجروا منها بعد أن فسد الدين إلى جنوب العراق يؤيد هذه الحقيقة، حقيقة معرفة الله والبعث والحساب قبل عصر الأسرات.

كما عرف المصريون التوحيد الصحيح قبل إخناتون بآلاف السنين.

مما سبق يتبين أن إدريس عليه السلام إما أن يكون قد وُلد ونشأ في مصر، وإما أن يكون قد وُلد ونشأ في العراق ثم هاجر إلى مصر وعاش فيها، وعلّم الناس الزراعة والكتابة والحساب، وعلوم النجوم، ولبس المخيط، كما دعاهم إلى التوحيد وإلى الصلاة والزكاة والصوم والطهارة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان بالحساب والبعث بعد الموت، وحضّهم على الزهد وعلى التمسك بالعدل، وهو مفجر العلم والحضارة في مصر، أول دولة كاملة الأركان تأسست في العالم.

في مصر القديمة :

إن المعلومات التي قدمها المؤرخون وعلماء الآثار تشير إلى أن إدريس (الذي أسماه المصريون أوزوريس) عاش في مصر قديمًا وقبل عصور الأسرات، التي بدأت في عام ٣٤٠٠ قبل الميلاد تقريبًا، عندما تمكن مينا من توحيد القطرين (البحري والقبلي) وتأسيس الملكية الفرعونية. ودولة مينا هذه لم تنشأ من فراغ، فقد كان المصريون قد تعلموا الكتابة والحساب، والزراعة والطب والفلك.. وغيرها، وظهرت آثار كل هذه المعارف في الآثار التي تركها فراعنة المملكة القديمة من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة (من ٢٩٨٠-٢٤٧٥) ق.م.

إذ تفيد المعلومات التاريخية أنه قد توفر للفراعنة المصريين الأوائل نظام من الحكم أتاح لهم إشرافًا واسعًا، وهيمنة كبيرة على موارد البلاد وإمكاناتها المادية والبشرية، أتاح للحكومات سلطانًا إداريًا واسعًا، وجعل لها الحق في أن تكلف من تشاء من السكان.. بالعمل في مشروعاتهم الدنيوية والدينية، حيثما أرادته، وهو تكليف لم يكن يعفي منه- فيما يرجح- غير طوائف المتعلمين من موظفي الحكومة، وكهنة المعابد الكبار، وربما كبار الشخصيات من أهل المدن والقرى أيضًا.

وقد أكد الفراعنة لأنفسهم، وأكد لهم أشياعهم، نصيبًا كبيرًا من القداسة الروحية والسيادة الدينية على مختلف الطوائف من رعاياهم، فالفرعون رأس الحكومة، كان يعتبر بالتالي رأس الديانة ووارث الأرباب، وكان فيما صورته مذاهب الدين يعتبر من المتحكمين في شئون الآخرة والمهيمنين على مصائر أهلها. وآزر رجال الحاشية والكهان فراعنتهم فيما ادعوه لأنفسهم من قداسة وسيادة، ورددوه في نصوصهم الدنيوية والدينية مرارًا وتكرارًا.

على أنه مهما يكن من أمر، فقد اشترك آلاف من العمال والصناع فعلاً في بناء هرم خوفو وبناء معابده (ومثله هرم خفرع وهرم منكاورع) سواء عن رغبة في تحصيل الرزق، أو بناء على تكاليف من الحكومة، أو طاعة لفرعون ذي القداسة التقليدية في مجالات الدنيا والآخرة، أو تصديقًا لما أوهمهم به الكهان عما ينتظرهم في الآخرة من الشفاعة وحسن الجزاء.

وقد تخلفت نصوص لأثرياء من عصر الأسرة الرابعة نفسها، وأثرياء عهود مختلفة أخرى من الدولة القديمة، تعمد أصحابها أن يصوّروا الظروف التي شيَّدوا فيها مقابرهم، والأساليب التي عاملوا بها من استأجروهم فيها، فقال رجل من عصر الأسرة الرابعة: «كل صانع في مقبرتي أرضيته»، وردد آخرون في نصوصهم قولهم: «أنفقت على قبري هذا من متاعي الحلال، ولم يحدث قط أي اغتصبت متاع شخص ما»، وقال آخرون في نصوصهم: «أرضيت كل الصناع الذين أتموا لي عملاً في هذا القبر بالخبز والشراب وكل شيء طيب»، وقال بعض من تولوا رياسة الأتباع والصناع: «لم أضرب إنسانًا وقع تحت يدي، ولم أستعبد أحدًا في العمل»[1].

---

(١) المرجع: الدكتور عبد العزيز صالح في كتاب: حضارة مصر القديمة وآثارها، الصفحات: ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٤٧.

وقد ذكر المؤرخون عن الملك منكاورع (باني الهرم الثالث) أنه اتصف بالتقوى والورع، ويتحدث المؤرخ هيرودوت عن عدالة هذا الملك فيقول: «... واستنكر الأمير منكاورع مسلك أبيه ففتح المعابد المغلقة، وسمح للشعب الذي وصل إلى أحط درجات التعاسة.. أن يعود كل إلى عمله، وأن يعودوا إلى تقديم القرابين، **فسبق في عدالته جميع الملوك السابقين**، وامتدحه المصريون بسبب ذلك أكثر من أي ملك آخر من ملوكهم الآخرين.

واكتشف الأثريون بردية ترجع للدولة القديمة أُطلق عليها: تعاليم بتاح حتب، ومن أهم ما ورد في هذه التعاليم من ترجمة الدكتور أحمد فخري.. نكتبها اختصارًا:

- **لا يداخلك الغرور** بسبب علمك، ولا تتعالى (وتنتفخ أوداجك) لأنك رجل عالِم.
- **ما أعظم الحق**.. فإن قيمته خالدة.
- **تمسك بالصدق** ولا تتخطاه حتى ولو كان ما تقوله قد خلا مما يرضي.
- **إذا أردت أن يحسن خلقك وتصون نفسك من كل سوء**، فاحذر من الطمع، فهو مرض عضال لا دواء له[1].

الدين في مصر القديمة :

ملوك الأسرة الرابعة (بناة الأهرامات) اضطروا إلى مسايرة دين الشمس وتشجيعه في عدة مراحل، ولم يكن دين الشمس في حد ذاته جديدًا في حياة شعوبهم، وإنما كان الجديد هو اعتراف دولتهم به على نطاق واسع. بل إن اعتراف دولتهم به لم يكن في حد ذاته أمرًا ذا خطر، ولكن الخطر كان في أن يعقبه أمران، وهما: أن ينصرف جانب من ولاء الناس إلى الإله رع المعبود الظاهر صاحب الشهرة الواسعة،على حساب ولائهم القديم للفراعنة **وربهم الخفي «حور»**، وأن ينصرف جانب من الموارد المادية إلى الديانة الجديدة، ديانة الشمس، على هيئة أوقاف وهبات وإعفاءات لمعابدها وكهنتها الذين أخذت أعدادهم تتزايد باستمرار، على حساب موارد الحكومة وخزائنها، أو على الأصح

---

(١) المرجع: الدكتور سيد توفيق في كتابه عن: معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، ص١٠٨، ١٥٦.

على حساب موارد الملكية وخزائنها[١].

وعلاوة على الآلهة الأرضية والسماوية تخيل المصري القديم آلهة أخرى ساكنة الدنيا السفلى المظلمة ومسيطرة على النيل الأسفل الذي يعبره قرص الشمس مبتدئاً من الغرب ومنتهيًا إلى الشرق، واعتقد المصريون قديمًا أن أرواح الموتى تقطن هذه الدنيا السفلية محكومة بأوزوريس. وأوزوريس- في نظرهم- معبود حكم الأرض بعد رع، وساعدته زوجته إيزيس وأخته في الوقت نفسه، فأحبه الخلق كثيرًا **لعدالته وشفقته**، لكن حكمه لم يدم طويلاً لأن أخاه ست كاد له حتى قتله، فأجهدت إيزيس نفسها حتى أنقذت جثة أوزوريس، ثم حنطتها بمساعدة أنوبيس أحد آلهة الآخرة الذي يُرسم دائمًا بشكل ابن آوى.. والمعتبر عند المصريين إله التحنيط. بعد ذلك بكت إيزيس كثيرًا من تعاويذ السحر القوية على جثة أوزوريس فأحيتها ثانية وحركت أعضاءها، إلا أن أوزوريس عجز عن استرجاع مركزه الدنيوي فعكف على الآخرة محترمًا. في ذلك الوقت حملت إيزيس من أوزوريس بابن أسمته حوريس ربته في الخفاء.. على أن يثأر لأبيه، فلما بلغ رشده ناضل ست نضالاً شديدًا، امتد من أول القطر إلى آخره، أصيب فيه كل منهما بجروح شديدة، وانتهى القتال **بانتصار حوريس** واعتلائه عرش أبيه.

ولما كان القطر المصري ممتازًا على سواه بقلة أمطاره، كانت لشمسه دائمًا مكانة عظيمة في نفوس أهله طوال حياتهم، ولذلك شاعت عبادة الشمس في القطر، وتركزت في مدينة عين شمس المسماة عند اليونان هليوبوليس، **وهناك أطلق المصريون على قرص عين الشمس** اسم «رع». وتصور القوم لهذا الكوكب سفينتين يطوف فيهما الأفق، تستعمل إحداهما صباحًا والأخرى مساءً حتى المغيب (وهي مراكب الشمس).

ولما كان المصريون يرتبون مواقيتهم على حسب سير القمر، صار لهذا النجم منزلة كبيرة عندهم، فاعتبروه إله الحساب والآداب والحكم، وتركزت عبادته بمدينة الأشمونيين (بالمنيا). وجرت العادة أن يرمز للقمر بالطائر إبيس المعروف بأبي منجل.

ولما كانت عقيدة أوزوريس آدمية في حوادثها وتطوراتها، انتشرت بسرعة بين الخلق قاطبة، لكن إيزيس بقيت لم تتعد مخيلات المصريين الذين

---

(١) المرجع: الدكتور عبد العزيز صالح في كتاب: الشرق الأدنى القديم، صفحة: ١٣٦.

اعتبروها مثل للزوجة والأم الواجب الاقتداء بها. وأما حوريس فيرجع أصله حقيقة إلى الشمس دون أوزوريس، فاعتبره القوم مثال الابن الطيب المنتصر على الباطل.

ولما اعتبر المصريون حيواناتهم المحيطة بهم رموزًا للآلهة احترموها، وثابروا على ذلك، حتى في أرقى العصور مدنية وحضارة. ويلاحظ أن هذه الحيوانات لم تعبد كآلهة إلا في آخر التاريخ المصري، وقتما دخلت البلاد في دور انحطاطها، فلم تكن عبادة الحيوانات موجودة في العصر الذي نحن بصدده (عصر مصر القديمة.. الأسرة الرابعة) وغاية ما في الأمر أن المصريين اعتبروا وقتئذ بعض الحيوانات كالنسر رمزًا لمعبوداتهم كالشمس. **وبديهي أن العقائد الدينية في وادي النيل كثيرة ومتباينة، فعبادة الشمس مثلاً كانت ذات مراكز عديدة وأشكال متعددة** واعتبارات متباينة، حتى أن أهل كل مركز اعتبروا معبودهم الشمسي مخالفًا لنظيره في المراكز الأخرى.

وقد كان لرسوخ العقيدة أو بالأحرى العقائد الخاصة بالحياة بعد الموت تأثير كبير في نفوس المصريين منذ أقدم عصورهم، فتولدت عندهم عناية كبيرة واهتمام عظيم بأمور موتاهم. ومن ثم بذل المصري مجهوده تدريجيًا في ابتكار وسائل ثابتة أمينة لصيانة قبره، حتى استعمل في تشييد لحده الأحجار وزاد في حجمه فصيّره شامخًا، وهكذا أصبحت أهرام الجيزة أكبر مقابر العالم حجمًا[١].

عصر المملكة الوسطى :

لم تكن عبادة الشمس وحدها منتشرة بين المصريين، بل حذت حذوها عبادة أخرى وهي «**عبادة أوزوريس**». وبديهي أن انتشار عبادة الشمس كان نتيجة مباشرة لفوز الحزب السياسي المنتمي إليها ولعلوّ مركزها بمصر. أما عبادة أوزوريس فيرجع الفضل في انتشارها إلى شدة توافقها مع النفسية المصرية، وإلى المجهودات التي بذلها كهنة أوزوريس كل سنة في تمثيل حياة هذا المعبود ووفاته وانتصاره الأخير.

ولما تأكد للقوم محاكمة أوزوريس في الآخرة، اعتقدوا أن كل متوفي سيحاكم مثله، فتعقد له جلسات يحاسب فيها على أعماله، وينفذ عليه كل ما يحصل لغيره من الأموات. وكان أوزوريس معتبرًا في عهد المملكة القديمة

---

(١) كتاب: تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، تأليف: جيمس هنري برستد، ترجمة: د. حسن كمال، مراجعة محمد حسنين الغمراوي، ص٤٣ وما بعدها.

إله الأموات، ولكن هذا الاعتبار لم يرسخ في الأذهان إلا في عهد المملكة الوسطى. وتتكون محكمة أوزوريس- في عقيدة القوم- من اثنين وأربعين قاضيا يجلسون أمام المعبود كالزبانية يمثل كل منهم قسمًا من أقسام مصر، فإذا دخل المتوفي أمام المحكمة، وأنكر أمام كل قاض إثمًا من آثامه، يوزن قلبه في ميزان مقابل ريشة العدالة.. للتأكد من صدق قوله. أما الآثام التي يتبرأ منها الميت أمام محكمة أوزوريس فهي بعينها الآثام المستهجنة في عهدنا هذا. وهاك بيانًا موجزًا **لتلك الآثام: السرقة والقتل والاختلاس (وبالأخص السلب) والكذب والخداع وشهادة الزور والرياء والتنابذ بالألقاب، والتجسس وعدم الاعتدال في الأمور الجنسية، وامتهان كرامة المعبودات أو الأموات كالكفر بهم وسرقة أمتعة الموتى.** ومن هذه القائمة يستدل على عظم الرادع النفسي عند المصريين وقتئذ استنكارًا للمنكرات. وعليه فالمصريون هم أول قوم اعتقدوا بترتيب الحياة الأخروية على الحياة الدنيوية، ويرجع هذا الاعتقاد في الحقيقة إلى عهد المملكة القديمة. والغريب أن هذه العقيدة انحصرت في المصريين أكثر من ألف سنة عهد، في حين أن البابليين والإسرائيليين اعتقدوا انتقال الموتى عمومًا إلى سقر. وأخذت آراء القوم في عهد المملكة الوسطى تحوم حول تطهير النفس من المعاصي والرذائل التماسا للبراءة بعد الوفاة، وتجنبًا للعقاب الأليم، فأصبحت ترى الكثير من نقوش شواهد القبور شديدة الشبه بما كان يحدث في عهد المملكة القديمة، ويتلخص في أن الميت كان يطعم الجوعان، ويروي الظمآن، ويكسي العريان، وينقل في سفينته من ليس له سفينة[1].

عصر الدولة الحديثة والإصلاحات الدينية :

بانتهاء الأسرة الثانية عشرة سقطت الدولة الوسطى ودخلت مصر مرة ثانية مرحلة تدهور واضمحلال، تميزت بالاضطراب والقلاقل والحروب الداخلية بين الملك وحكام الأقاليم، أو بين حكام الأقاليم فيما بينهم.

وقد أدى ذلك إلى تمزق البلاد وضعفها، مما جعلها تسقط غنيمة سهلة في يد الغزاة الأجانب من الهكسوس، فقد أخذت جحافلهم ترد إلى مصر واستطاعوا دون صعوبة إخضاع الوجه البحري لسيطرتهم، واتخذوا مدينة «أواريس» (صان الحجر) عاصمة لهم (وتقع في شرق الدلتا). ومدُّوا نفوذهم إلى

---

(١) كتاب: تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، تأليف: جيمس هنري برستد، ص١١، ١١٢.

مصر الوسطى، وقد بلغ عدد ملوك الهكسوس ٤٣ ملكًا، حكموا ١٥١ سنة من ١٦٧٤ق.م إلى ١٥٦٧ق.م، ومن ناحية أخرى تمكن النوبيون من فرض سيطرتهم على الجزء الجنوبي من البلاد. ولم يبق من مصر المستقلة سوى رقعة ضيقة في صعيد مصر يحكمها أمراء طيبة.

والراجح في رأينا أن الخليل إبراهيم وكذا يوسف الصديق (عليهما السلام) قد وفدوا إلى مصر **في عهد الهكسوس**، يؤكد ذلك أن قصة سيدنا يوسف عندما وردت في القرآن ذكرت حاكم البلاد باسم «الملك»، وليس باسم «فرعون» كما يُطلق على حاكم البلاد في عهد موسى ﷺ. وقد ظل الهكسوس يحكمون مصر قرابة قرن ونصف من الزمان ودالت دولتهم عندما تمكن أحمس، أحد ملوك طيبة، من طردهم من البلاد ومطاردتهم حتى جنوب فلسطين، وكان ذلك حوالي عام ١٨٥٠ق.م. وأسس أحمس الأسرة الثامنة عشرة التي كانت بداية لعصر مجيد من عصور التاريخ الفرعوني.. وهو ما يُعرف بالدولة الحديثة. وقد بلغت مصر في هذا العصر- لاسيما في عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة- درجة من القوة والازدهار لم تبلغهما في أي عصر آخر.

وقد احتفظت الأسرة الثامنة عشرة بمدينة طيبة (الأقصر) عاصمة للدولة، باعتبارها مسقط رأس ملوكها، والأتون الذي انبعثت منه شرارة التحرير، وباعتبارها مقر المعبود الأكبر «**آمون رع**» الذي استعان أوائل ملوك الأسرة به لصبغ جهادهم ضد الهكسوس بصبغة دينية مقدسة. **بيد أن الإسراف في الاهتمام بآمون ومعابده**، والإسراف في رصد الأوقاف الضخمة عليها وعلى عبادته، والإفساح لكبار كهنته في بلوغ كبرى مناصب الدولة، كل هذا **أصبح فيما بعد من عوامل حض الملك أخناتون على ضرورة التغيير الشامل في سياق دعوته الدينية الرامية إلى توحيد العبادة لإله واحد**، حتى يتخلص ضمنا من تعدد المعبودات وكثرة المعابد.. التي أصبحت تمتص خيرات الدولة بغير طائل، ويتخلص كذلك من تدخل كبار الكهنة الذين أصبحوا قبيل عهده يبدون كأنهم أصحاب دولة داخل الدولة.

والحق أن فكرة الوحدانية ظلت تراود أذهان كبار المفكرين المصريين من حين إلى حين، وبدأت لديهم على صورة الإيمان بوحدة الخالق، ثم انتقلوا بها إلى الاعتقاد بوحدة الربوبية، ثم انتهوا أخيرًا إلى الإيمان بوحدة المعبود، ذلك أن الاعتراف بوحدة الإله الخالص كانت قائمة في مذهبي عين شمس ومنف القديمين

لتفسير نشأة الوجود، في حين رد أصحاب كل مذهب منهما الوجود بطبيعته وأربابه وناسه وبقية كائناته، إلى خالق واحد دعوه في عين شمس باسم «توم» بمعنى الكامل المتناهي، ودعوه في منف باسم «بتاح» ربما بمعنى الصانع أو الفتاح أو الخلاق.

ومضى تيار الفكر الديني المتطور في طريقه، ووجد أصحابه في اتساع آفاق الدولة الحديثة ما جعلهم يتشوقون إلى الوحدانية الكاملة ويرهصون بها، فصوروا ربهم «آمون» على أنه فرد مطلق خفي، ولكنه حفاظ لكل شيء، حال في كل شيء، موجود في كل الوجود، ووصفه قائلهم بأنه: «أكبر من في السماء، وأسن من في الأرض، رب الكائنات، حفاظ كل شيء، وباق في كل شيء».

وتعمقت دعوة التوحيد في نفس الملك أمنحتب الرابع منذ عام ١٣٦٧ق.م، فانجذب منذ صغره إلى تيارات الدين الذي كان خاله من كبار كهنته، **وانتوى لنفسه منهاجًا يتزعم به دعوة آتون دعوة التوحيد**، وبدأ بالتبشير به على حذر، **فشيد معبدًا باسم «آتون»** في رحاب الكرنك.. معقل آمون، وأعلن أن العبادة يجب أن تتجه إلى: «الوالد آتون الحي»، **وأن آتون ما هو إلا الإله «رع» يتهلل في الأفق** باعتباره النور الذي في الكوكب «آتون».

وعلى الرغم من بساطة هذا الاستهلال البارع الذي بدأ به أمنحوتب دعوته، أوجس كهنة آمون خيفة منه، وقدروا أن يافعًا مثله يستطيع أن يتزعم مذهبًا في الدين ويفتي بالرأي فيه، خليق بأن يتأتى على يديه تغيير كبير، فأضمروا له العداء وخافوه، وبادلهم هو جفاء بجفاء، وسارت الأمور بينهما من سيئ إلى أسوأ.

وفي العام السادس من حكمه جهر أمنحوتب الرابع بعقيدته، وأعلن توحيده خالصًا، فنادى بإله واحد لا شريك له، ولا محل لتعدد الأرباب والربات إلى جانبه، ليس هو آمون، ولكنه آتون. وليس هو ممن تقوم عبادته خلف أستار وأسرار، لكنه إله يشهد الناس آياته دون حجاب، ولهم أن يعبدوه حيثما سقط من كوكبه على الأرض شعاع، ونزّه فنانوه ربهم هذا عن أن يرمزوا إليه بهيئة إنسان أو جسم إنسان ورأس حيوان، وآثروا له رمز كوكب الشمس بكل ما فيه من قدرة ربانية مستمرة وجسم ظاهر مضيء تصدر عنه أشعة عدة.

وبدأ أمنحوتب الرابع بنفسه، فتبرأ من لفظ آمون في اسمه (لأنه من جزئين: آمن وحوتب)، وسمى نفسه: «أخناتون»، ربما بمعنى المخلص لآتون أو

النافع لآتون، وهاجر بأهله وأتباعه من العاصمة القديمة «طيبة» إلى أرض وصفها بأنها أرض بكر طهور لم يدنسها شرك في العبادة، ولم يعبد فيها من قِبَل إله أو آلهة، تتوسط أراضي القطر، وتقوم على أنقاضها بلدة العمارنة الحالية، وسماها «أخيتاتون» بمعنى أفق آتون أو مشرق آتون.

وبلغت الدعوة غايتها القصوى حين خرجت من الإقليمية إلى العالمية، فنادت بإله رحيم في كل أمره، محبوب في كل أمره، خلق الكون عن حب ورغبة. وقال أخناتون في هذا وهو يُسبح ربه:
«ربٌ أحَدٌ.. دون شريك، بَرأت الدنيا وكنت فردا»
«خلقتَ البشر والأنعام، وكل ما يسعى على الأرض بقدم، ويحلق بجناح في الفضاء».

وتزعم أخناتون مجالس الدعوة، وأعلن نفسه نبيًّا والمصطفى لنشرها، واصطفى لنفسه حواريين يعلّمهم كما علّمه إلهه، ورأى أن تشييد دور العبادة خير سبيل لنشر الدعوة، فعمل على الإكثار منها باسم آتون في كبرى المدن المصرية، وجعل مدينته أخيتاتون مدينة فاضلة تعمل للدنيا والدين معًا، تبشر بالإيمان السمح المستبشر، وتشيد بالعدل في كل أمره، وتتردد تسابيح الشكر والصلوات لآتون في المعابد.

وعلى الرغم من ذلك كله، لم يطل الأمد بدعوة التوحيد هذه، ولم يتهيأ لها من كثرة الأتباع ما كان يُرجى لمثلها، ولم ينته الأجل بملكها حتى كان قد رأى عوامل التحلل والفشل تدب فيها من حيث ظن الخير، ومن حيث لم يحتسب، وتمثلت هذه العوامل بأن دعوته لم تأت بجديد يجذب العامة إليها، ويرقى بحياتهم الاقتصادية أو الطبقية، وأن عقائد التعدد القديمة قد تغلغلت في معاملات جموع الناس بحيث يصعب انتزاعها من نفوسهم بسهولة، وأن سمعة آمون رب الدولة القديم ونفوذ من بقي من كبار كهنته، كلاهما لم تخمد جذوته على الرغم من الرماد المؤقت الذي غطاها. ولم يكن له ولد يرثه على العرش والدعوة، وإنما كانت له ست بنات وأخَوان[1]، اتجه أكبرهما وهو «سمنخ كارع» إلى مهادنة كهنة آمون في حياة أخيه، وسلم أصغرهما وهو توت عنخ آمون ببأس خصومه

---

(١) يرى الدكتور ناصر الأنصاري في كتابه «المجمل في تاريخ مصر» أن المذكورين لم يكونا أخوين، وإنما كانا صهراه (زوجا ابنتيه)، ص٣٩.

والأمر الواقع بعد وفاة أخيه، فارتد عن ديانة آتون، وعاد إلى طيبة مقر آمون، وولي عرشها باسم «توت عنخ آمون»، وناصر عقائدها، وعمَّر معابد أربابها[١].

حقوق الإنسان في مصر الفرعونية

أصدر الدكتور محمد سلام زناتي كتابًا قيّمًا في هذا الموضوع، ونقدم موجزًا لأهم ما ورد في هذا الكتاب كما يلي:

الحق في الحياة: وهذا الحق يتمثل في عدم وأد الأطفال أو نبذهم، بينما كان وأد البنات شائعًا في جهات أخرى من العالم مثل العرب في الجاهلية، ولفترة زمنية في روما قبل المسيحية، كما كان وأد البنات شائعًا في الصين.

كما أن المشرع المصري القديم لم يكن يتوسع في تطبيق عقوبة الإعدام، على خلاف الشعوب القديمة الأخرى، فقد كانت شريعة حمورابي أشهر ملوك بلاد النهرين (العراق) تنص على عقوبة الإعدام في كثير من الجرائم. وكان يلزم- في مصر- موافقة الملك لتنفيذ عقوبة الإعدام، وكانت العقوبة تخفف في بعض الأحيان.

٢- **الحق في الحرية:** كانت مصادر الرق محددة للغاية، إذ كانت تنحصر في أسرى الحروب، وفي ارتكاب جرائم بالغة الخطورة. ومن الأحكام التي أخذ بها القانون المصري وتنطوي على حق الإنسان في الحرية، قصر حق الدائن في اقتضاء دينه على التنفيذ على أموال المدين دون شخصه، بينما كان كثير من الشرائع القديمة يسمح للدائن- في حالة عدم وفاء المدين بدينه عند حلول أجله- بالاستيلاء على شخص المدين، واستخدامه في أعماله الخاصة، إلى أن يفي بقيمة دينه. وقد بلغ المشرع المصري الغاية في التوسع في أسباب كسب الحرية بعد الرق، والسبب العادي والمألوف هو أن يعتقه سيده.

٣- **الحق في المساواة أمام القانون:** كان المجتمع المصري منقسمًا إلى طبقات، ففي القمة طبقة أرستقراطية تتكون من أفراد الأسرة المالكة وكبار الموظفين وكبار رجال الدين، والطبقة المتوسطة كانت تشمل صغار الموظفين وأصحاب الحرف والتجار، أما الطبقة الثالثة فكانت تضم العاملين في الأرض، وهي أدنى الطبقات وأقلها تنعمًا وأكثرها أعباءً، وكان من المتعارف عليه عدم

---

(١) المرجع: كتاب «الشرق الأدنى القديم» للدكتور عبد العزيز صالح (مرجع سابق ذكره)، ص٢٢٠، ٣٥٩ وما بعدها.

اعتداد المصريين بالأنساب والأحساب، ولم يكن القانون يفرق في المعاملة، فلا فرق بين غني وفقير، وبين سيد وعبد، وبين مواطن وأجنبي، فالكل أمام القانون سواء.

٤- **الحق في نظام حكم عادل:** من الأخطاء الشائعة أن الفراعنة كانوا حكامًا مستبدين، وأن نظام الحكم في مصر كان نظامًا بوليسيًا. ولعل من العوامل التي ساعدت على انتشار هذه الفكرة ما ورد في بعض الكتب المقدسة من إشارة إلى ما كان عليه بعض فراعنة مصر من تكبر، وما مارسوه من ظلم وعسف، كما أن من العوامل ما خلفوه من أهرمات ضخمة ومعابد فخمة، وافتراض أن مثل هذه العمائر الجبارة لا يمكن إقامتها إلا عن طريق السخرة. حقًا لقد عُد الملوك- في ظل الحكم الفرعوني- أربابًا وتمتعوا بسلطات واسعة، لكن ذلك لم يحل دون تقييد سلطاتهم بقيد من العدل واحترام القانون. ولم يكن الفرعون مقيدًا في حياته الخاصة فحسب، بل كان كذلك أيضًا في حياته العامة. وأول قيد يرد على سلطة الفرعون ينبع بالذات من صفة الألوهية، فالمفروض في الآلهة العدل، ولما كان الفرعون إلهًا وممثلاً للآلهة في حكم مصر، وجب أن يكون عادلاً، وكان طبيعيًا أن تؤتي سياسة الفراعنة القائمة على العدل واحترام القانون أُكلها: ولاءً شديدًا من الشعب لملوكه، ومحبة عميقة من الرعية لرعاتها.

٥- **الحق في قضاء عادل:** كان للعدالة، عند قدماء المصريين، أهمية فائقة ومكانة بارزة، سواء فيما يتصل بعقيدتهم الدينية، أو فيما يخص نظمهم المختلفة. فخالق الكون ورب الأرباب «رع» يحب العدل ويأمر به، ويكره الظلم ويجازي عليه. وقد ساد الاعتقاد بأن إغضاب رع وعصيان أوامره، من شأنه أن يلحق بالعصاة المصائب والكوارث التي من بينها عدم تطبيق القانون واختفاء العدالة. وكانوا يقولون:

إذا غضب رع على أرض عطل القانون فيها، وعطل الطهر فيها، وعطل العدالة فيها، وأضاع الثقة فيها، كما جعل أغبياءهم فوق علمائها. وقد بلغ من اهتمام قدماء المصريين بالعدالة وحرصهم على تحقيقها أن جعلوا لها ربَّة أطلقوا عليها اسم «ماعت». وصورت ماعت في هيئة امرأة رشيقة صغيرة جالسة، وتضع ريشة نعامة فوق رأسها.

ثم إنه في بداية عصر الدولة القديمة أخذ معنى كلمة «ماعت» هذه يتسع تدريجيًا، حتى صار يشمل معنى واسعًا عظيمًا، فلم تكن تعني نقيض الباطل فحسب، بل تعني نقيض الأخطاء الخلقية على وجه عام أيضًا، وكانوا يعتقدون أن

مصير الإنسان في الحياة الأخرى يتوقف على سلوكه في الحياة الدنيا، فإذا كانت أعماله في الحياة الدنيا أعمالاً خيرة، نَعِم في الآخرة بحياة طيبة، أما إذا كانت أعماله في الحياة الدنيا أعمالاً شريرة، فمصيره في الآخرة الهلاك. وتصور المصريون القدماء أن محكمة الآخرة سوف تجري عل غرار المحاكمات في الحياة الدنيا، وأنه سوف يتاح للإنسان فرصة للدفاع عن نفسه أمام قضاة الآخرة.

فيقول الإنسان عن نفسه أمام قضاء الآخرة:

«انظروا.. إني آت إليكم بدون خطيئة
إني أعيش على الحق،
وأتغذى من عدالة قلبي،
لقد فعلت ما يقول به الناس وما يُرضي الآلهة
ولقد أرضيت الإله بما يرغب فيه،
فأعطيت الجائع خبزًا،
والظمآن ماءًا
والعريان لباسًا.

وفي بردية أخرى يقول الإنسان أمام قضاة الآخرة:

إني لم أرتكب ضد الناس أي خطيئة..
إني لم آت سوءًا في مكان الحق..
وإني لم أعرف أي خطيئة..
إني لم أرتكب أي شيء خبيث.. وإني لم أفعل ما يمقته الإله.. ولم أتسبب في بكاء أي إنسان..
إني لم أرتكب القتل.. ولم آمر بالقتل..
إني لم أسبب تعاسة لأي إنسان..
إني لم أرتكب الزنا.. ولم أرتكب خطيئة تدنس نفسي..
إني لم أخسر مكيال الحبوب.. إني لم أنقص الميزان..
إني لم أنقص مقياس الأرض.. (١).

٦- **المساواة بين الجنسين:** لاحظ المؤرخون القدامى ما كان عليه وضع المرأة المصرية من سمو بالمقارنة لوضعها لدى الشعوب الأخرى،

---

(١) وردت في كتاب: معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية للدكتور سيد توفيق، ص٣٥٩.

وما كانت تتمتع به من مساواة تكاد تكون مطلقة بينها وبين الرجل. فعلى سبيل المثال يقول المؤرخ الإغريقي هيرودوت (الذي زار مصر في القرن الخامس قبل الميلاد) إن النساء عند المصريين يذهبن إلى الأسواق ويمارسن التجارة.

ويقول الباحث الفرنسي باتوريه في رسالته للدكتوراه، والتي نُشرت في عام ١٨٩٢: «كل الشعوب القديمة، في الغرب كما في الشرق، يبدو أنها اجتمعت حول فكرة واحدة: أن تجعل من المرأة كائنا أدنى من الناحية القانونية، أما مصر فإنها تعرض لنا صورة جد مختلفة، فنحن نجد المرأة فيها مساوية للرجل من الناحية القانونية، لها نفس الحقوق وتُعامل بنفس الكيفية. وعندما نتجول في قاعات متحف اللوفر أو في المتاحف المصرية، نشاهد- وذلك من الأسرات الأولى- المرأة جالسة على قدم المساواة مع الرجل، فالزوجة تجلس على نفس المقعد الذي يجلس عليه زوجها، وهي تدعى ربة البيت، والمرأة مساوية للرجل داخل الأسرة وخارجها، وهي تتمتع بأهلية قانونية كاملة بمجرد بلوغها سن الرشد.

وتصف باحثة فرنسية المساواة بين الجنسين في مصر، ثم تردف قائلة: وبذا كانت مصر في نطاق العصور القديمة، البلد الوحيد الذي خصص فعلاً للمرأة وضعًا قانونيًا يتساوى مع الرجل، وهذا يبدو واضحًا دون أي غموض، طوال فترة حكم الدولة القديمة كلها، ويتألق بوضوح ساطع خلال الدولة الحديثة.

٧- **التسامح الديني والحق في حرية الاعتقاد:** تعددت المعتقدات الدينية في مصر القديمة تعددًا بالغا، ويرجع ذلك إلى أن مصر كانت- قبل توحيدها- تتكون من دويلات عديدة، وكانت لكل هذه الدويلات معتقداتها الدينية الخالصة، ولم يستتبع توحيد البلاد توحيد معتقداتها، بل تركت لكل مقاطعة إدارية الحرية في الاحتفاظ بالمعتقدات الدينية السائدة فيها، وقد ترتب على ذلك الكثير من الاضطراب في المعتقدات الدينية المختلفة. والمحاولة الوحيدة التي استهدفت توحيد العقيدة الدينية في مصر، هي تلك المحاولة التي قام بها أخناتون في عهد الأسرة الثامنة عشرة، والتي كانت تقوم على عبادة القوة الكامنة وراء قرص الشمس، باعتبارها المعبود الوحيد خالق الكون، وبوفاة أخناتون باءت محاولته بالفشل، وارتد المصريون إلى العبادة القديمة: عبادة آمون.

ومن الجدير بالذكر أن دعوة أخناتون، سواء في قيامها أو سقوطها، لم تستتبع قيام محاكم تفتيش أو مذابح بالجملة أو حمامات دم (كما حدث في دول وأماكن أخرى)، وكل ما حدث هو القضاء على رموز التعدد عند قيامها،

والقضاء على رموزها عند سقوطها.

وعن التسامح الديني لدى قدماء المصريين تقول الباحثة الفرنسية إليزابيث لافون:

«كان التسامح يشكل أحد العلامات البارزة في الحضارة الفرعونية».

٨- الحق في عدم التعرض لعقوبات وحشية أو للتعذيب: عرفت مصر في العصر الفرعوني أشكالاً عدة للعقاب على الجرائم المختلفة، أقصاها عقوبة الإعدام، والعقوبات البدنية. وعقوبة الإعدام لم تكن مقررة إلا للجرائم الخطيرة. منها التآمر لقلب نظام الحكم، وانتهاك حرية المقابر الملكية، والقتل العمد.

وقد رأينا أن تنفيذ حكم الإعدام كان يستلزم تصديق الملك.. ولو كان قد صدر به حكم قضائي، فكان من الممكن للملك أن يخفف عقوبة الإعدام، ويستبدل بها عقوبة أدنى.

أما العقوبات البدنية فكانت تتمثل في: المثلة والضرب، والمقصود بالمثلة قطع أو تشويه أحد أعضاء الجسم، ومن صور المثلة التي نصت عليها القوانين المصرية: صلم الأذنين، وجدع الأنف، ونزع اللسان، وقطع اليدين.

ويُستخدم التعذيب، كقاعدة عامة، كوسيلة لحمل الشخص الذي تثور حوله الشبهات.. بارتكاب إحدى الجرائم لحمله على الاعتراف. لكن هذه ليست الحالة الوحيدة التي يُستخدم فيها التعذيب، فقد يُستخدم للتنكيل بالخصوم السياسيين أو المنشقين الدينيين.

ففي مجتمعات الدولة من الممكن استخدام أجهزة القهر والقمع من قِبَل حكام، ليسوا بالضرورة حكامًا طغاة، ضد أفراد يُنظر إليهم باعتبارهم خونة أو مارقين أو أعداء للمجتمع. فهناك في الواقع حالات كثيرة استخدمت فيها الأجهزة البوليسية لإلحاق أبشع أنواع التعذيب بمن اعتنقوا ديانة جديدة، أو انضموا إلى فرقة دينية تُعد منحرفة، أو بمن ارتكبوا جرائم يُفترض أنها بشعة، و بمن اتهموا بالتمرد والثورة ضد النظام الحاكم، أو التجسس لمصلحة أعداء البلاد.

وفيما يتعلق بالتعذيب للحمل على الاعتراف، فإن وسيلة الإكراه كانت الضرب بالعصا على الظهر أو القدمين، لكن لم ترد على أية صورة من الصور البشعة التي مارستها الشعوب القديمة وإلى عهد غير بعيد، ويرجع ذلك إلى فضيلة الاعتدال السائدة بين المصريين من قديم الزمان، وإلى كراهيتهم العنف بكل صوره وأشكاله.

٩- **الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية:** نتناول في هذا الجانب: الحق في التملك، والتكافل الاجتماعي، والحق في التعليم:

(أ) **الحق في التملك:** هناك من الشواهد العديدة على وجود الملكية الخاصة في مصر منذ عهد الدولة القديمة، واستمرارها خلال العصور التالية، ولم تكن الملكية الخاصة مقصورة على المنقولات، وإنما كانت تشمل أيضًا العقارات سواء كانت بيوتًا أم أراض زراعية.

وبينما يسلم المؤرخون بوجود الملكية الخاصة بالنسبة للمنقولات، نجدهم يختلفون بالنسبة للأراضي، فقد ذهب بعضهم إلى الظن بأن الأراضي كلها كانت ملكًا لفرعون، ولكن مما يدل على عدم صحة هذا الرأي الشواهد العديدة التي ترجع إلى عصور التاريخ الفرعوني المختلفة، والتي تشهد بما كان للأفراد من حقوق ملكية على الأراضي والبيوت، وكان لهم حق التصرف فيها بالبيع والإيجار والهبة وغيرها؛ فضلاً عن انتقالها بطريق الميراث إلى ذرية المالك وأقاربه.

(ب) **الحق في التكافل الاجتماعي:** تدل الشواهد العديدة على أن الثقافة المصرية القديمة كانت تقوم على أساس التكامل بين أفراد المجتمع في شتى شئون الحياة، وأساس التكافل هو مد يد المعونة إلى كل محتاج، وإغاثة الملهوف، وحماية الضعيف.بل إن التكافل الاجتماعي كان في مصر الفرعونية يُعد أحد الواجبات الدينية التي يُسأل عنها الميت عند البعث والحساب أمام قضاة الآخرة، ففي دفاعه عن نفسه أمام هؤلاء القضاة يردد الإنسان ما قدمه لبني البشر من خير أو إحسان.

(ج) **الحق في التعليم:** قامت الحضارة المصرية القديمة على أساس العلم، ولذلك حرص حكماء مصر القديمة على تمجيد التعليم وحض الناس على أن ينهلوا من العلم، ولم يتركوا وسيلة تغري الناس بالاتجاه إلى التعليم إلا أظهروها. فهناك قطعة بردي من طيبة يعود تاريخها إلى ما بعد أمنحوتب الثالث بقليل، تمتدح العلم لمجرد أنه علم ومعرفة. وكانت مصر القديمة تكرم علماءها وحكماءها أبلغ تكريم، بل كانت تضعهم في مرتبة القديسين، ولم تكن الدعوة إلى التعليم مقصورة على الذكور، بل كانت تتوجه للإناث أيضًا، وهذا ما يفسر مقولة أحد الحكماء:

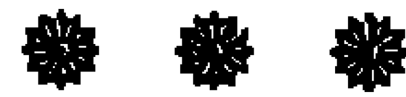
«إذا علَّمت رجلاً فإنك علَّمت فردًا، وإذا علَّمت امرأة فإنك علَّمت أسرة بأكملها».

الفصل الثاني
الخليل إبراهيم وعقيدة التوحيد

وُلد إبراهيم ﷺ (ويسمونه في الغرب إبراهام) في مدينة «أور» وهي مدينة صغيرة جنوب بلاد النهرين (العراق)، تبعد حوالي عشرين كيلو مترًا غربي البصرة، قرب مدينة الناصرة.. بالضفة الغربية لنهر الفرات، في ظل حكم ملك اسمه: النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، حاكم بابل.

وكان أهل بابل- وكل من كان على وجه الأرض وقتها- كفارًا يعبدون الكواكب والأصنام. فلقد خلق الله ﷻ آدم مؤمنا موحدًا بالله، ولكن مع مرور الزمن وانقضاء القرون، نسي الخلق عبادة التوحيد، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، فأرسل سبحانه إدريس ﷺ فهدى قومه إلى الحق وغلى طريق الرشاد، فلما ضلوا من بعده واتخذوا لله شركاء، وعبدوا من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم، أرسل الله نوحًا إلى قومه لينذرهم ويتركوا عبادة التماثيل: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، من قبل أن يأتيهم عذاب شديد بسبب الشرك بالله، فكذبوه وسخروا منه، فأغرقهم الله سبحانه وتعلى بالطوفان، ونجى نوحًا ومن آمن معه من المؤمنين، وانتهت عبادة التماثيل، وأشرقت الأرض بنور ربها، وعاد من حملتهم سفينة نوح إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم، فعادوا إلى عبادة الأصنام والكواكب، عبادة مردوخ وسين وشماس وعشتار في بابل، وبعل وعنت في بلاد الأشوريين (في الشام)، وأوزوريس وحور وآمون في وادي النيل. ولقد كان القمر أشهر الأجرام السماوية التي عُبدت قديمًا باسم: «سين»، كما عبدوا الشمس باسم: «شماس». وكانوا يرفعون الصروح ويقيمون الهياكل، وينصبون فيها التماثيل بأسماء الكواكب المعبودة، لتكن قريبة منهم، وليقدموا إليها القرابين، ومن هنا كانت عبادة الأصنام.



إلا أن إبراهيم ﷺ، عرف بصائب رأيه، وثاقب فكره، أنه لابد وأن يكون لهذا الكون إله متصرف، يهيمن على الكون، ويسيطر على العالم. وأدرك أن هذه الأصنام التي يعبدونها، والتماثيل التي ينحتونها لا تغني عنهم شيئًا، وبدأ رحلة البحث عن الحقيقة، عن الإله الأعظم، الذي يخضع له كل شيء في الأرض وفي السماء، وقد هداه الله إلى ذلك عن طريق اليقين.

الدعوة إلى التوحيد :

بدأ- من ثم- يدعو إلى التوحيد، إلى عبادة الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وترك الشرك وعبادة الكواكب والتماثيل.

ولم تكن الدعوة للتوحيد أمرًا سهلاً هينًا.. لأناس نشأوا على الشرك وتربوا في أحضانه، ووجدوا آباءهم يسجدون للشمس والقمر من دون الله ﷻ.

كما لم تكن الدعوة للتوحيد مجرد دعوة إلى اتباع دين جديد، بل إنها دعوة إلى تطهير النفس البشرية من الشرك، وإلى إسلام الوجه لله تعالى.
كما أن دعوة التوحيد يصاحبها دائمًا الدعوة إلى تزكية النفس، وإلى عمل الحسنات وترك الشرور والسيئات، وتحرير الإنسان من العبودية والأفكار والمفاهيم الخاطئة، وإقامة مجتمع العدل والمساواة، والوزن بالقسطاس المستقيم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالجملة عمل كل ما من شأنه إصلاح الأرض وعدم الإفساد فيها، والتوجيه إلى ما فيه الخير والنفع والسداد، والتمسك بكل الفضائل، والنهي عن كل الرذائل.
ومن ثم يمكن القول أن إدريس عليه السلام كان مُفجر الحضارة، بينما كان إبراهيم عليه السلام معلم الطهارة، طهارة النفس من الشرك وعبادة الأوثان، وطهارة الجسد من الجنابة والأدران.

وكان إبراهيم يبشر الناس بحياة أفضل بعد الموت، بجنات تجري من تحتها الأنهار، وما كان يقول لهم ما يقوله الكهان من أن الحياة تنتهي بالموت، وأن الميت يذهب إلى العالم السفلي، إلى الأرض التي لا رجعة فيها، بل كان يحدثهم عن الحياة الثانية، حياة الخلود، الحياة التي ينبغي أن يعمل الإنسان لها ليفوز بما أعده الله للمتقين.

راح إبراهيم يدعو إلى إله واحد رحيم غفور، إله يدرك كل شيء، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، إله فوق الكواكب والشمس والقمر، مشيئته فوق كل مشيئة، إن أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون.

وكان ما يمس قلوب الفقراء والعبيد والمساكين والمستضعفين في الأرض: أن رب إبراهيم لا يفرق بين السادة الأحرار والفقراء والعبيد، فلا فضل لأحدهم على الآخر إلا بحسن العبادة، وقد يتكئ الفقير والعبد على الأرائك في جنة النعيم، بينما يُلقى السادة ورجال الدين في الجحيم، بما كسبت أيديهم، كل بما

قدم في دنياه من عمل، لا فضل لطبقة على طبقة، ولا لجنس على جنس، ولا لأبيض على أسود.

كانت دعوة إبراهيم بيضاء ناصعة يبهر سنا نورها نور الشمس والقمر، بيد أنها تسلب أصحاب السلطان في البلاد نفوذهم، وتقضي على كهنة مردوخ وشماس وسين والآلهة الأخرى، فيستطيع المؤمن أن يخاطب إله إبراهيم دون وساطة الكهان ورجال الدين، وأن يتقرب إليه دون مراسيم الكهنة والسحرة والعرافين، ودون تقديم أي قرابين.

ولما اكتمل إيمان إبراهيم ﷺ، واستعد لنشر دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة، بدأ بتوجيه الخطاب إلى أبيه في رفق وأدب جم قائلاً: يا أبت: كيف تعبد أصنامًا لا تسمع ولا تبصر، ولا تجلب لك خيرًا، ولا تدفع عنك شرًا؟!. لم تجد دعوة إبراهيم استجابة من والده، بل أصرَّ على عبادة الأصنام، وتمسك بالخضوع للشيطان، إلا أن إبراهيم لم يداخله اليأس، ولم تلن له قناة، وظل يحاور والده، ثم يحاور قومه، يجادلهم بالحسنى، ويسعى إلى إقناعهم، عن طريق العقل السليم والفكر السديد.

هنا أحس رجال الدين بالخطر يحلق فوق رءوسهم، ويهدد بانقطاع أمواج القرابين التي تتوافد على معابدهم، ومبالغ الفضة التي تتدفق في خزائنهم، وأحمال القمح والشعير والبلح التي تغص بها مخازنهم، وخدمات السذج الذين يعتقدون أن خدمة رجال الدين تجلب بركات الآلهة وتمنع نقمتهم.

وغضب رجال الدولة لرجال الدين فسلطانهم واحد، والمنافع بينهم مشتركة، وأن بزوغ شمس الدعوة الجديدة يقضي على نفوذهم، فتحالف رجال الدين ورجال الدولة على مقاومة هذا الخطر الداهم الذي انقاد له بعض العبيد والفقراء والمستضعفين.

إبراهيم وإحياء الموتى :

كان إبراهيم ﷺ مفعم القلب بالإيمان بربه، ممتلئًا ثقة ويقينًا بقدرة خالقه، مؤمنًا بما أوحى إليه من بعث الناس بعد موتهم، ومع ذلك أراد أن يزداد بصيرة وإيمانًا، وثقة ويقينًا، وتطلع إلى أن يلمس آية بيِّنة على البعث، ويرى الحجة الواضحة على النشور، فسأل ربه أن يريه كيف يحيي الموت بعد موتهم، ويبعثهم بعد فناء أجسادهم، فقال الله تبارك وتعالى له ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ويزداد يقيني.

وقد أجاب الله طلبه، وأشار إليه أن يأخذ أربعة من الطير، ويضمها إليه ليتعرف عليها جيدًا (قال المفسرون هي: الغراب والطاووس والديك والحمامة) فلكل طائر شكل مختلف، وبعد أن يضمها يجعلها أجزاء، ويجعل على كل جبل جزءًا منها، ثم يدعوهن إليه، فيأتونه سعيًا بإذن الله جلت قدرته، فلما فرق الأجزاء على الجبال، دعاهن إليه، فصار كل جزء ينضم إلى مثله، وعادت الأشلاء كل في مكانه، وسرعان ما دبت فيها الحياة، ورجعت إليها الروح، وسعت إليه بقدرة الله، وجاءت إليه الطير سائرة، فقد نقل الله سبحانه الأمر من الطيران إلى السعي والسير على الأرض، كي يتأكد منها سيدنا إبراهيم، ويراها بعينيه، ويزداد اطمئنانًا. وهذه أبلغ دلالة على البعث بعد الموت، وأن الله قادر على أن يحيي الموتى، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون[1].

التحديات الكبرى :

لما لم يجد إبراهيم استجابة لدعوة التوحيد ونبذ الشرك، أضمر في نفسه أمرًا جللا، إذ انتهز فرصة انشغال القوم بأحد أعيادهم وتوجه إلى المعبد، وشاهد آلهتهم، ومال عليهم ضربًا باليمين لأنها الأقوى، فحطمها بقدوم في يده، كسرها كلها إلا كبيرًا لهم (لعلهم إليه يرجعون) ووضع القدوم في يد الكبير، وكأنه هو الذي حطمها غيرة منه أن تعبد معه هذه التماثيل الصغيرة.

فلما رجعوا أيقنوا أن إبراهيم هو الذي حطم التماثيل التي يعبدونها، ولما واجهوه بفعلته قال مستهزئًا: (بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون).

وأرادوا أن ينتقموا من إبراهيم وينتصروا لآلهتهم، فجمعوا حطبًا كثيرًا، وأرادوا أن يلقوه في النار، إلا أن الله سبحانه وتعالى نجاه وقال: ﴿ يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾. قال الله تعالى في الآية ٧٠ من سورة الأنبياء: ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾، وقال في الآية ٩٨ من سورة الصافات: ﴿ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴾. وهنا نلاحظ الفرق الكبير بين الحضارة الفرعونية القديمة وحضارة بابل في العراق، ففي مصر القديمة كانوا يقدسون العدل ويتمسكون بإجراء محاكمة للمتهم، بينما في العراق قرروا إزهاق نفس بشرية، دون محاكمة مسبقة.

ووصل الأمر إلى الملك نمرود، ففزع من دعوة إبراهيم عليه السلام، فاستدعاه

---

(١) المرجع: كتاب: الخليل إبراهيم وذريته»، تأليف: محمد أحمد خضر، ص٥٨.

واستنكر أن يتخذ إبراهيم إلهًا غيره، فسأله: من ربك؟ أجاب إبراهيم في ثبات جنان، وطلاقة لسان قائلا: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ فعقب الملك: ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾[١]، يعني بذلك أنه إذا أوتي بالرجلين قد تحتم قتلهما، فأمر بقتل أحدهما، وعفا عن الآخر، فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر.

والملاحظ أن نمرود لجأ إلى المراوغة، وتمادى في المحاولة، إذ إنه في رده ابتعد كثيرًا عما ذكره إبراهيم من إنشاء الحياة وخلقها، ومنحها وسلبها، وبث الروح في الإنسان والحيوان والطير. ولم يحاول إبراهيم أن يسايره في مراوغته عن الحياة والموت، وإنما انتقل إلى حقيقة أخرى ثابتة فقال للملك: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾[٢]. فسكت الملك ولم يجد جوابًا، ومن ثم ظهر ضلاله وجهله وكذبه، ولم يبق له كلام يجيب به الخليل، ولهذا قال ﷻ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣].

على أية حال، فإن الخليل إبراهيم عليه السلام، وقد تأكد أن بلاد النهرين غير صالحة لنشر دعوة التوحيد، هاجر مع أهله إلى موطنه الأصلي «حاران» في الشمال، وهناك مات والد إبراهيم ودُفن. وبوحي من الله سبحانه هاجر مرة أخرى متجهًا غربًا إلى حلب في شمال سوريا، ومنها اتجه جنوبًا- بعد ذلك- إلى أرض كنعان (فلسطين) وأقام هناك. وبدأ يتخذ هذه المنطقة وطنًا له.. جنبًا إلى جنب بجوار الكنعانيين الذين سبقوه بقرون إلى الاستقرار في هذه الأرض.

ومعروف أن إبراهيم عليه السلام سافر هو وزوجته إلى مصر، وعاد منها محملاً بالهدايا، وكانت هاجر الجارية من بين هذه الهدايا، ولما كانت زوجته سارة عاقرًا لا تلد، فقد أوعزت إليه أن يدخل على هاجر، فحملت منه وأنجبت إسماعيل، ولما اشتاقت سارة للولد أنعم الله عليها برحمته، فأنجبت إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.

هاجر ووليدها إسماعيل :

أوحى الله ﷻ إلى إبراهيم أن يذهب بهاجر ووليدها إلى مكان حدده له، ولأمر يعلمه الله ﷻ، فركب إبراهيم دابته، واصطحب الغلام وأمه، حتى وقف

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٥٨.

عند مكان محدد، فأنزل هاجر وطفلها في هذه الصحراء الجرداء، لا يملكون سوى بعض الطعام وقليل من الماء، فلما تركهما هناك، وولى ظهره عنهما، قامت إليه هاجر وتعلقت به، وقالت يا إبراهيم: أين تذهب وتتركنا هنا في هذا المكان الموحش من غير طعام ودون أنيس؟ فلم يُجبها، فلما ألحَّت عليه وهو لا يجيبها ولا يلتفت إليها، قالت: أ ألله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يُضيعنا.

أما إبراهيم فقد ابتعد عن المكان، وفي نفسه لوعة وأسى، ثم رفع يديه إلى السماء داعيًا، كما ورد في الآية ٣٧ من سورة إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾.

ولما نفد الزاد وما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، فانطلقت تبحث عن الماء، وتسعى بين مرتفع الصفا ومرتفع المروة لتكون قادرة على مشاهدة الوادي حولها، فلما أشرفت على المروة في المرة السابعة سمعت صوتًا فتلفتت فإذا هي بملَك عند موضع الطفل، وإذا بالماء ينبثق دون توقف، فشربت وأرضعت طفلها، وأصبحت زمزم- منذ ذلك الحين- عين ماء جارية تكفي لسقيا الحجيج الأعظم.

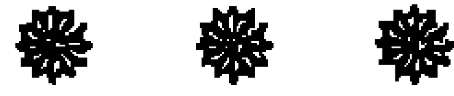
الفداء والدعاء:

لما شبَّ إسماعيل وأصبح قادرًا على السعي والعمل مع أبيه، رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ابنه هذا، ورؤيا الأنبياء وحْي.. كما جاء في الحديث الشريف. وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر، وقد طعن في السن.

ارتحل إبراهيم عليه السلام، وتوجه إلى حيث يقيم إسماعيل في مكة مع أمه هاجر، وعرض عليه الأمر، ليكون ذلك أطيب لقلبه، وأهون عليه، قائلاً له: يا بني، إني أرى في المنام أني أذبحك، فانظر ماذا ترى؟ فبادر الغلام بالطاعة، وأسرع إلى الإجابة، فقال: يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين. قال إبراهيم: نعم العون أنت يا بني على أمر الله، ثم ضمه إلى صدره، وأخذ يُقبّله، وتباكيا وانتحبا.

وفي طريقه لتنفيذ الأمر، اعترضه إبليس ليصده عن طاعة ربه، فرجمه

إبراهيم ثلاث مرات، في كل مرة بسبع حصيات. وما أن استعد لذبح إسماعيل وشحذ سكينه ليمر بها على عنقه، حتى نودي أن يا إبراهيم: ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(١) وفدى الله إسماعيل بذبح عظيم، إذ رأى إبراهيم إلى جواره كبشا أبيض أقرن، فأقبل عليه، وهوى بتلك السكينة على حلقه، فصرع لوقته، وخضب الأرض بدمه، فكان فداء لابنه، وحقنًا لدمه.



أراد الله تَعَالَى أن يكون له في الأرض بيت يحج الناس إليه، فاختار إبراهيم عليه السلام ليريه مكان البيت، وليقيم البناء في هذا المكان. يقول تَعَالَى في الآية ٢٦ من سورة الحج: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾، أي عرَّفه مكان البيت المحرم. ولما ظهرت قواعد البيت (أي أساساته) أخذ إبراهيم عليه السلام يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، ولما ارتفع البناء طلب إبراهيم حجرًا يقف عليه ليتمكن من إتمام البناء، فوضع له ولده هذا الحجر الموجود حتى الآن بجوار الكعبة.

وكان إبراهيم وولده إسماعيل يدعوان الله تعالى أثناء البناء: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الآية ١٢٧ من سورة البقرة. وهذا يدل على عمق الإيمان وشدة الإخلاص لله تعالى.

فلما انتهيا من بناء البيت، طلب إبراهيم من إسماعيل أن يأتيه بحجر حسن يضعه في ركن البيت يكون علامة للناس يبدءون عنده الطواف، فذهب إسماعيل يبحث عن حجر وتأخر قليلاً، فلما عاد وجد أباه قد وضع حجرًا في المكان المقصود عند الركن، وهو الحجر الأسود، فسأل والده عمن جاء به، فأخبره أنه جبريل عليه السلام.

وبعد انتهاء البناء أمر الله تعالى إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج، فقال: يا رب وما يبلغ صوتي؟ فقال سبحانه: عليك الأذان وعلينا البلاغ، فوقف إبراهيم عليه السلام على مكان مرتفع ونادى: يا عباد الله: «إن الله قد بنى بيتًا فحجوه.. وأجيبوا داعي الله»، فسمعه ما بين السماء والأرض، وجاء الناس من كل فج يلبون نداء إبراهيم، ويقولون: لبيك اللهم لبيك، استجابة لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ سورة آل عمران، الآية ٩٧.

---

(١) الآية ١٠٥ من سورة الصافات.

وقال الخليل إبراهيم عليه السلام في ختام دعوته: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الآية ١٢٩ من سورة البقرة. وقد أجمع المفسرون أن المراد بقوله رسولا منهم هو: محمد ﷺ.

صحف إبراهيم :

لم تذكر المراجع الدينية ولا الكتب السماوية نصًا محتويات ما ورد في صحف إبراهيم، ربما لأنها موغلة في القدم، أو لأن هذه المحتويات وردت بشكل أوسع في الكتب التي نزلت بعد إبراهيم عليه السلام وهي التوراة والإنجيل والقرآن، وإن كان القرآن الكريم قد أشار إلى هذه الصحف في إيجاز على النحو التالي:

قال الحق تبارك وتعالى في الفقرة الثانية من سورة الأعلى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم قال جلَّ وعَلاَ في سورة النجم: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) ﴾.

وهذا عما جاء في صحف موسى (التوراة) وفي صحف إبراهيم (عليهما السلام) ووصف سبحانه إبراهيم بأنه وفىً أي أنه بلغ جميع ما أمره الله به، وواظب على طاعة الله، وأدى رسالته إلى خلقه، ويشهد بهذا قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾[1] فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهي، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إمامًا يُقتدى به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله. ثم بيَّن سبحانه ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي أن كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو بشيء من الذنوب، فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ أي كما لا يُحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو نفسه. وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ أي يوم القيامة، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ

(١) الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقال أيضًا: ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ أي الأوفر[1].

ويروى أن الله ﷻ أوحى إلى إبراهيم عليه السلام: يا إبراهيم إنك سلمت مالك إلى الضيفان، وابنك إلى القربان، ونفسك إلى النيران، وقلبك إلى الرحمن.. اتخذناك خليلا.

(١) المرجع: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: تفسير سورة الأعلى وتفسير سورة النجم.

الفصل الثالث
اليهـودية ونـزول التـوراة

إن يعقوب وبنيه جاءوا إلى مصر حوالي سنة ١٧٠٦ق.م. وكان عددهم سبعين نفرا، وتوفي يوسف الصديق حوالي سنة ١٦٣٥ق.م. وعاش بنو إسرائيل من بعده في مصر، وتركوا أرض كنعان (فلسطين) كلهم وبصفة مطلقة، واستوطنوا مصر لعدة قرون، ويقدر البعض مدة إقامتهم في مصر بـ٢١٥ سنة متصلة، ويقدر البعض الآخر المدة بقرن واحد من الزمان، بينما تفيد التوراة أن مدة بقاء بني إسرائيل في مصر قد بلغت ٤٣٠ سنة.

وقد تناسل بنو إسرائيل وتكاثروا تكاثرًا عظيمًا. وخلال وجودهم في مصر ربطوا مصالحهم بوجود حكام مصر من الهكسوس المستعمرين، وأنشبوا أظافرهم في الاقتصاد المصري، واتسع نفوذهم في مجالات مختلفة. فلما انتصر المصريون على الهكسوس بقيادة أحمس، نقم الحكم الوطني على الإسرائيليين، الذين عاشوا كأقلية منعزلة، كل همها أن تثرى على حساب الشعب، فضلاً عن أن الشعب كان يعتبرهم خطرًا على أمن البلاد، فلربما كان من بينهم جواسيس يعملون لحساب الهكسوس المطرودين.

وكان بنو إسرائيل- عندما حضروا إلى مصر- يعبدون الله على ملة أبيهم إبراهيم، ولكن مع مرور الزمن، انحرفوا، وعاثوا في الأرض فسادًا، باستثناء قلة منهم تمسكوا بدينهم.. وسط هذا الفساد والطغيان، في الوقت الذي ظهر فيه ملك طاغية مستبد، ادعى الألوهية، وأمسك بقبضة قوية على زمام الأمور، في أبهة من الحكم، وفي تكبر وتعال.

وأصبح فرعون يومًا على رؤيا أزعجته وأصابته بالأرق والقلق، فقد رأى في منامه كأن نارًا أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر، وأهلكت جميع القبط (المصريين)، ولم تضر بني إسرائيل. فجمع الكهنة والسحرة وسألهم تأويل رؤياه، فقال أحدهم: لابد أنه غلام يولد من بني إسرائيل يكون سبب هلاك أهل مصر، وقال آخر: علمت أن بني إسرائيل يُبَشّرون بمولد نبي منهم يظهر في مصر، يكون على يديه رفعتهم وعلو شأنهم، وأن هذا سيكون على حساب مُلك فرعون مصر.

ازدادت كراهية فرعون- من ثم- لبني إسرائيل، وخوفه واحترازه منهم، فبدأ يسند إليهم الأعمال الشاقة والدنيئة ويكلفهم فوق ما يطيقون، ويذبح أبناءهم،

ويستحي نساءهم. وأمر بذبح كل طفل ذكر يولد لهم، حذرًا من أن تتحول رؤيا منامه إلى حقيقة ماثلة. ووصل الأمر أن نصَّب رجالاً عيونًا له، وكلف القابلات بالمرور على الحبالى، ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد سيدة منهن ذكرًا إلا تم ذبحه.

وذكر غير واحد من المفسرين أن القبط شكوا إلى فرعون قلة نسل بني إسرائيل.. بسبب قتل ولدانهم الذكور، وأوضحوا خشيتهم من أن يفنى كبارهم مع انقطاع نسلهم، فيحرمون من الخدمات الشاقة التي يؤديها بنو إسرائيل لهم، ويقومون هم أنفسهم- اضطرارًا بأداء هذه الأعمال. واستجابة لهذه الشكوى أمر فرعون بقتل أبناء بني إسرائيل عامًا، وأن يتركوا عامًا. وقيل أن هارون عليه السلام وُلد في عام السماح، وأن موسى عليه السلام وُلد في عام القتل(١).

وقصة ميلاد موسى عليه السلام ونشأته في بيت فرعون معروفة، وكذا هجرته إلى مدين في شرق سيناء وإقامته مع شيخ مدين وزواجه من ابنته.

وقرر موسى العودة إلى مصر بعد انقضاء الأجل المتفق عليه مع شيخ مدين، وفي طريق العودة تلقى النداء الإلهي في الوادي المقدس طُوىً، وأمره الحق تبارك وتعالى: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ قال موسى: ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ فرد عليه الحق تبارك وتعالى: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾(٢).

ذهب موسى وبصحبته أخاه هارون إلى قصر فرعون، ودارت المواجهة بينهما، وقدم موسى معجزة العصا التي تحولت إلى ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين. وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى في سورة طه: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾.

---

(١) يمكن الرجوع في ذلك إلى كتابنا: موسى والخضر.. عليهما السلام، من إصدارات دار الاعتصام.

(٢) الآية ٢٥ وما بعدها من سورة طه.

وفي الموعد المضروب التقى موسى والسحرة وجهًا لوجه، ألقى السحرة حبالهم وعصيهم فسحروا أعين الناس واسترهبوهم، ثم ألقى موسى عصاه فإذا هي حية عظيمة ذات شكل هائل مزعج، وإذا هي تلقف كل ما صنع السحرة من سحر، هنا خشع السحرة وأسلموا وجوههم لله وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

ولما أخذت فرعون العزة بالإثم، وتمادى في طغيانه، أراهم الله سبحانه تسع آيات، شاهدة على صدق نبوة موسى عليه السلام، وعلى قدرة الله سبحانه الذي يقول للشيء كن فيكون، وهي: العصا: واليد البيضاء، والسنين (وهي الجدب)، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم. فكانوا كلما وقع بهم عذاب، تضرعوا إلى موسى أن يدعو ربه ليكشف عنهم العذاب، وقدموا له الوعود: لئن رفع ربك العذاب نؤمن بك، ونرسل معك بني إسرائيل. وفي كل مرة يستجيب الله لدعاء موسى، ويرفع عنهم البلاء، إلا أنهم كانوا ينكثون العهد، ويخالفون الوعد.

خروج بني إسرائيل من مصر

استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم، فأذن لهم وهو كاره، وأمرهم الله تعالى- فيما ذكرت التوراة- أن يستعيروا حليًّا من المصريين بدعوى لبسها يوم العيد ثم ردها إليهم، فأعاروهم شيئًا كثيرًا. وأضافت التوراة: أن الله عز وجل قتل في تلك الليلة أبكار القبط وأبكار دوابهم، لينشغلوا عنها بأحزانهم.

وحين جاء الوحي إلى موسى بالخروج، خرجوا ليلاً مسرعين، فحملوا العجين قبل اختماره، وحملوا الزاد والطعام في الأردية وألقوها على عواتقهم يحملونها، وأخذوا معهم تابوت يوسف عليه السلام إنفاذًا لوصيته، وبعد أن وصلوا إلى الخلاء واحتفلوا بعيدهم، لم يرجعوا إلى ديارهم، ولم يردوا حُلي المصريين بل انتهبوها، واتجهوا شرقًا طالبين فلسطين (أرض كنعان).

ولما علم فرعون أنهم لم يعودوا إلى ديارهم حسب وعدهم له، وأنهم حملوا معهم حليَّ جيرانهم وأصدقائهم المصريين، ويمموا وجوههم شطر المشرق، حنق عليهم، واشتد غضبه، وشرع في تجميع الجيش ليلحق بهم ويقضي عليهم. وقد تمكن فرعون وجنوده من اللحاق بهم، فأدركهم عند شروق الشمس، وتراءى الجمعان عن بُعد، وشعر بنو إسرائيل أنهم في موقف حرج للغاية، فالبحر أمامهم، وعدو الله بجنوده وراءهم، وقالوا لموسى: إنا لمدركون، وسيتم

هلاكنا على يد فرعون وجنوده. رد موسى عليهم في ثقة: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾.

عند ذلك أوحى الحق تبارك وتعالى إلـى موسـى أن: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ فانفلق البحر بإذن الله، وأصبح كل فِرق في ناحية كالجبل العظيم، وأمر الله سبحانه الريح أن تلفح أرض البحر بشدة حتى صارت يابسة بحيث لا يعلـق الطين في سنابك الدواب. وأسرع بنو إسرائيل فاجتازوا البحر. فلما جاوز موسى البحر هو والذين آمنوا معه، أقبل جيش فرعون وهو على رأسه، فـدخلوا فـي البحر.. حتى إذا ما اقتربوا من الشاطئ الآخر أطبقت الأمواج علـيهم، وغـرق فرعون ومن معه، ولم ينج منهم أحد، وشاءت إرادة الله أن يُنجيٍّ فرعون ببدنـه ليكون لمن خلفه آية على قدرة الله سبحانه، وعلى نهاية كل متكبر جبار[١].

---

(١) المرجع: مؤلفنا عن «موسى والخضر.. عليهما السلام»، من إصدارات دار الاعتصام.

موسى وقومه في سيناء

كان غاية موسى وقومه النجاة من بطش فرعون، وكانت وجهتهم الأرض المقدسة في فلسطين لتكون مستقرًا لهم. وبعد معجزة فرق البحر، ونجاتهم وفرارهم، وغرق فرعون وجنوده، وطئت أقدامهم أرض سيناء التي كانت- إلى حد ما- بعيدة عن مراكز الحكام في مصر، واستطاعوا هناك أن يقيموا حياة جديدة متحررين فيها من الفزع ومن الخوف، ومن العبودية والسخرة. إلا أنهم ما أن اجتازوا البحر حتى وجدوا أناسًا يعكفون على أصنام لهم، فقالوا لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾. فغضب موسى غضبًا شديدًا، ووصفهم بالجهالة، وبيَّن لهم فساد ما عليه المشركون، وأن عبادة بني إسرائيل يجب أن تكون خالصة لله الواحد القهار.

وما أن ذهبت بهجة الانتصار على فرعون وجنوده، حتى بدأ بنو إسرائيل يفكرون في مصيرهم، وما آل إليه حالهم، ذلك أن المنطقة التي عبروا إليها من أرض مصر- وهي سيناء- منطقة صحراوية مكشوفة، لا أنهار فيها، ولا زرع ولا نبات، ومن ثم راحوا يشعرون بقسوة الحياة فيها متمثلاً في نضوب الماء، وانقطاع مصادر الطعام، وشدة حرارة الشمس، فشكوا لموسى ما هم عليه، وكان على موسى أن يجد سبيلاً لإزالة أسباب شكاواهم، فدعا ربه الاستسقاء، فأمره ربه أن يضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتي عشرة عينًا بقدر عدد أسباط بني إسرائيل، فعلم كل سبط موضع العين التي يشرب منها.

ثم دعا موسى ربه مرة أخرى، فظلل الله عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى.

والأصل أن سيناء كانت معبرًا من مصر إلى فلسطين، وكان مكوثهم بها وقتيًا لمجرد الراحة والاسترخاء، والاستعداد لدخول فلسطين. وقد نقل موسى إلى قومه أمر الخالق بدخول الأرض المقدسة، وذكَّرهم بنعم الله عليهم، إذ أنقذهم من فرعون وجنوده، وأيدهم بالنصر بالمعجزات، وآتاهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين. إلا أنهم رفضوا الاستجابة، وقالوا له: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

وهكذا رفض بنو إسرائيل إطاعة أوامر الله، ونكصوا عن الجهاد لاسترجاع الأرض التي يصفونها بأنها الأرض المقدسة، وبأنها أرض الميعاد التي كتبها الله لهم، ومن ثم فقد كتب الله عليهم التيه مدة أربعين سنة، يدورون

حول أماكنهم في سيناء ولا يستطيعون الخروج منها إلى أي مكان آخر.

وفي فترة التيه جرت أحداث ووقعت معجزات وآيات جديدة، فإنه لما دخل بنو إسرائيل التيه في أول فصل الصيف، نزلوا حول طور سيناء، وصعد موسى الجبل فكلمه ربه ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾، وفي اليوم الثالث- بعد التطهر والاغتسال- أنزل الله عليه الوصايا العشر(١).

الوصايا العشر:

١- لا يكن لك آلهة أخرى أمامك (بمعنى عبادة الله وحده لا شريك له).
٢- لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا (أي عدم الحلف بالله كذبًا).
٣- اذكر يوم السبت لتقدسه (بمعنى تفريغ يوم السبت من كل أسبوع للعبادة).
٤- أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك.
٥- لا تقتل. ٦- لا تزن. ٧- لا تسرق.
٨- لا تشهد على قريبك شهادة زور.
٩- لا تشته بيت قريبك (النهي عن الحسد).
١٠- لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئًا مما لقريبك (ألا يمدن عينيه إلى امرأة قريبه أو أملاكه).

هذه هي الوصايا العشر، كما نزلت على موسى ﷺ، ولنا تعليق عليها من جانبين:

الأول: الوصايا العشر وحقوق الإنسان: فإن هذه الوصايا التي أنزلها الله ﷻ تهدي للتي هي أقوم، وتأمر بحسن الخلق، وعبادة الله وحده لا شريك له، ومراعاة صلة الرحم خاصة الأب والأم إذ تأمر بإكرامهما. فضلاً عن الأوامر التي تطهر المجتمع من الجرائم ومن الدنس، إذ تنهى عن القتل وإزهاق النفس البشرية، التي حرّم الله قتلها إلا بالحق، وتنهى عن الزنا محافظة على النسل وعلى الأعراض، ودرءٍ المفاسد والبغضاء، كما تنهى عن السرقة لأنها تغتال أموال الناس، ففي تفشي السرقة لا يتسنى للمرء أن يحافظ على ماله، وعلى نتاج جهده وعرقه، وهذا علاوة على الحث على قول الحق وعدم شهادة الزور، وعدم الحسد.

---

(١) سفر الخروج- الإصحاح العشرون- الفقرات من ٣-١٧.

الثاني: الوصايا العشر وأحكام القرآن: نرى أن الله ﷻ قد أنزل على الرسول ﷺ- في أكثر من موضع- أحكاما تتفق مع الوصايا العشر، منها ما ورد في سورة الإسراء بدءًا من الآية (٢٣) التي نصها: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾.

ثم وردت الأحكام التالية على التوالي في هذه السورة:

- ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.
- ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾.
- ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾.
- ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾.
- ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾.
- ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾.
- ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾.
- ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾.
- ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾.
- ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾.
- ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾.

ثم جمع القرآن الكريم مضمون الوصايا العشر في آيات وردت في سورة الأنعام بدءًا من الآية (١٥١):

- ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾،
  ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾،
  ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾،
  ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾،
  ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾.
- ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾،
  ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾،
  ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾،
  ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾،
  ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾،
- ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

بعد ذلك- طمع موسى في رؤية الله سبحانه، واشتاق أن تُرفع كافة الحجب بينه وبين خالق الكون، فقال: رب أرني أنظر إليك، فرد الحق سبحانه: لن تراني.. ولكن انظر إلى الجبل.. فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا، وخرَّ موسى صعقا، فلما أفاق قال سبحانك.. تبت إليك، وأنا أول المؤمنين. أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة.

قال الحق تبارك وتعالى لموسى بعد أن أفاق، لتسريته والتهوين عليه عما أصابه من عدم الرؤية: يا موسى: إني اخترتك واصطفيتك على الناس برسالاتي (وهي أسفار التوراة)، وبكلامي (أي تكليمي إياك) وهي منزلة لم يصل إليها بشر، ولم تعط لأحد من قبل موسى عليه السلام، وسيكون لنا حديث عن التوراة في الفصل التالي.

ومن الأحداث الهامة في فترة التيه، أنه لما ترك موسى بني إسرائيل وذهب للقاء ربه، وأبطأ على قومه عدة أيام، عبدوا العجل وعادوا إلى الوثنية، فقد انتهز رجل يقال له السامري غيبة موسى، وأخذ من نساء بني إسرائيل الحُلي اللائي كن أخذنها من المصريات على سبيل الوديعة (ولم يقمن بردها)، وألقاها في النار، وسبك منها عجلاً جسدًا له خوار، وأخذ بنو إسرائيل يرقصون حول العجل ويمرحون، وله يهللون ويعبدون.

فلما رجع موسى إلى قومه، كان في حالة غضب شديد لما رآه من عبادة قومه للعجل، فألقى الألواح التي كانت بيده، وصبَّ جام غضبه على بني إسرائيل، فوبخهم وعنفهم وزجرهم، كما نهر أخاه هارون على سلبيته، ثم اتجه إلى السامري وأهانه، وسأله: ما حملك على ما صنعت؟! وقام موسى بحرق العجل المعبود بالنار، ونسفه، وألقاه في البحر.

وقد اختار موسى سبعين رجلاً للذهاب معه لميقات ربه، فغلبتهم طبيعتهم المادية، وتطاولهم وعقوقهم، وقالوا لموسى أرنا الله جهرة، لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فأخذتهم الصاعقة عقوبة لهم على تبجحهم وعنادهم، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾. فاستجاب الله سبحانه لمناشدة موسى، فمنَّ عليهم بلطفه ورحمته، وأحياهم بعد موتهم، وبعثهم إلى الحياة من جديد.

ولما أتى موسى عليه السلام بني إسرائيل بالتوراة وقرأها عليهم، أمرهم بقبولها، والأخذ بما فيها من التكاليف، ولكنهم أبوا ذلك، بدعوى أن فيها من

التكاليف ما يفوق طاقتهم، وراجعوا موسى في ذلك مرارًا، فأمر الله الملائكة فحركوا جبل الطورٍ من موضعه، واقتلعوه، ورفعوه فوق رؤوس بني إسرائيل حتى صار كأنه ظلّة أي غمامة على رؤوسهم. وقيل لهم اقبلوا التوراة بما فيها وإلا سقط هذا الجبل فوقكم، فقبلوا ذلك، وأمروا بالسجود فسجدوا، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم، فصارت سُنة اليهود في السجود إلى اليوم، يقولون: لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب.

ومن المعجزات الباهرة في فترة التيه: **معجزة إحياء أحد الموتى على يد موسى** عليه السلام، فقد قتلوا أحد أثرياء بني إسرائيل، واختلفوا فيمن قتله، وذهبوا إلى موسى ليحكم بينهم، فقال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، وبعد فترة تلكؤ وتردد قاموا بذبح بقرة، فقال لهم موسى عليه السلام: اضربوا القتيل بجزء من البقرة، فضربوه فأحياه الله سبحانه وأخبر عن قاتله، فظهر القاتل على حقيقته، وانتهت فتنة كادت تعصب بالأمان والسلام بين أسباط بني إسرائيل، وظهر لهم عيانًا كيف يحيي الله الأنفس بعد موتها.

التعريف بالتوراة

للتعريف بالتوراة يلزم التعريف بالعهد القديم، لأن العهد القديم هو التسمية العلمية لأسفار اليهود، وليست التوراة إلا جزءًا من العهد القديم، وقد تُطلق التوراة على الجميع من باب إطلاق الجزء على الكل، أو لأهمية التوراة ونسبتها إلى موسى.. لما له من منزلة خاصة لدى بني إسرائيل، وعنده يبدأ تاريخهم الحقيقي. وكلمة توراة معناها الشريعة أو التعاليم الدينية.

والعهد القديم مقدس عند اليهود وعند المسيحيين، ولكن أسفاره غير متفق عليها، فبعض أحبار اليهود يضيفون أسفارًا لا يقبلها يهود آخرون. فإذا جئنا إلى المسيحيين وجدنا النسخة الكاثوليكية تزيد سبعة أسفار عن النسخة البروتستانتية.

وتنقسم أسفار العهد القديم إلى ثلاثة أقسام رئيسية(١):

القسم الأول: «**التوراة**»: ويشمل خمسة أسفار، نوضحها تفصيلاً فيما بعد، وهي التي يُطلق عليها أسفار موسى، أو يُطلق عليها «التوراة» كما ذكرنا.

القسم الثاني: «**أسفار الأنبياء**»: وتشمل أسفار الأنبياء المتقدمين، وأسفار الأنبياء المتأخرين الذين أرسلهم الله إلى بني إسرائيل من بعد موسى، مثل: يوشع بن نون، صموئيل، أشعيا، أرميا، حزقيال، يونان «يونس»، ناحوم، زكريا.

القسم الثالث: «**الكتابات**»: وتشمل الكتب العظيمة، وهي أسفار المزامير «الزبور» التي نزلت على داود، وأمثال سليمان، وسفر أيوب، كما تشمل المجلات الخمس: وهي مجموعة أسفار مختلفة وأناشيد، فضلاً عن الكتب التي تشمل أسفار: دانيال، عزرا «عزير»، نحميا، وبعض الأحبار.

أسفار التوراة :

بعد هذه النظرة السريعة على الكتاب المقدس أو العهد القديم جملة، يهمنا أن نركز الآن على أسفار موسى الخمسة.. وهي أسفار التوراة، وبيانها كالآتي:

---

(١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى مؤلفنا: «موسى والخضر.. عليهما السلام»، كما يمكن الرجوع إلى كتاب «اليهودية» للدكتور أحمد شلبي، من إصدارات مكتبة النهضة المصرية.

السفر الأول: الخلق أو التكوين.. ويسمى باللاتينية (Genesis)، وسمي بهذا الاسم لاشتماله على قصة خلق العالم، وخلق الإنسان الأول، وقصة الخطيئة التي ارتكبها آدم، ونزوله إلى الأرض عقابًا له، وحياة أولاده وما جرى بينهم من شقاق، فقصة الطوفان ونشأة الشعوب بعده، وقصة إبراهيم ﷺ وتجواله ونسله إلى إسحاق ويعقوب «إسرائيل»، وأولاد يعقوب وبخاصة يوسف، وما جرى لـه إلى أن أصبح ذا شأن كبير في مصر، واستدعى إليه أباه وإخوته، وبموت يوسف ينتهي هذا السفر.

السفر الثاني: سفر الخروج: (Exodus) أي خروج أو هجرة جماعية، وسمي بذلك لتناوله خروج بني إسرائيل من مصر، ويحوي هذا السفر قصة بني إسرائيل بعد يوسف، وما عانوه من الفراعنة، وظهور موسى وخروجه بهم من مصر، ويستمر هذا السفر يقصُّ تاريخ بني إسرائيل حتى يصل بهم إلى شرق الأردن في عهد يوشع بن نون. وفي هذا السفر الوصايا العشر، وكثير من المسائل التشريعية والتعاليم الدينية.

السفر الثالث: الأحبار أو اللاويون: (Leviticus) نسبة إلى سبط لاوي من أبناء إسرائيل. وهو السبط الذي ينتمي إليه موسى وهارون، ويقال عنها أسرة لاوي بالعربية وليفي باللاتينية. ويحوي هذا السفر كثيرًا من التشريعات والوصايا والأحكام، مثل كفارات الذنوب، والأطعمة المحرمة، والأنكحة المحرمة، ومثل الطقوس والأعياد والنذر والطهارة.. وغيرها.

السفر الرابع: سفر العدد: وهو باللاتينية (Numeri) ويسمى كذلك لأنه حافل بالعد والتقسيم لأسباط بني إسرائيل، وإحصاء للذكور منهم، وسيرة بني إسرائيل في برية سيناء وما بعدها، فهو بذلك يستكمل ما ورد في سفر الخروج، وبه كذلك حديث عن بعض حروب بني إسرائيل.

السفر الخامس: سفر التثنية: (Deuteronomium) ومعناه الإعادة والتكرار لتثبيت التشريعات والتعاليم.. أي الإعادة وتثنية الشريعة. وفي هذا السفر عُرضت الوصايا العشر عرضًا جديدًا، كما أُعيد الكلام عن الأطعمة الحلال والحرام، وعن نظام القضاء، ونظام المُلك عند بني إسرائيل، وتحدث هذا السفر عن الكهنة والنبوة، كما تحدث عن اختيار يوشع بن نون خلفًا لموسى، وينتهي السفر بخبر وفاة موسى ودفنه.

الإســلام والتـوراة :

يعترف الإسلام بالتوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، ولا يعترف بسواها من أسفار العهد القديم، قال تعالى في أول سورة آل عمران: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ ﴾.

كما قال تعالى في الآية ١٧ من سورة هود: ﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةً ﴾.

وفيما عدا ما أنزله الله على موسى.. فإن الإسلام لا يعترف به، فسفر يوشع وسفر القضاء والملوك وغيرها.. ليست من الكتب المقدسة في نظر الإسلام، والأنبياء الذين ورد ذكرهم في الأسفار هم أنبياء في نظر اليهود، وقد ذكر القرآن الكريم أسماء بعضهم ولم يذكر أسماء البعض الآخر.

الفصل الرابع
المسيحية ونزول الإنـجيل

عيسى عليه السلام هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منـه. ذكر اسمه في القرآن بلفظ المسيح تارة وهو لقب له، وبلفظ عيسى تارة أخـرى وهو اسمه، وبالعبرية يسمى «يسوع» أو يشوع».

وقد وُلد بدون أب، وهي آية معجزة من الله جل وعلا، فإنه تعالى خلـق آدم من تراب من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ضلع آدم.. أي من ذكـر بلا أنثى، ثم خلق عيسى من أنثى بلا ذكر. وبهذا اكتملت الآيـات والمعجـزات الثلاث، لأن بقية الخلق يولدون من ذكر وأنثى.

وأمه مريم بنت عمران، نشأت نشأة طهـر وعفـاف، واصـطفاها الله سبحانه لمهمة جليلة، وطهَّرها من الأخلاق الرذيلة.. ومـن الـرجس والـدنس. وكانت الملائكة تزورها، وتجلب لها خيرات الدنيا، وتحثهـا علـى طاعـة الله، ومداومة العبادة، وفي هذا يقول سبحانه في الآية ٤٢ من سورة آلـة عمـران: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

وفي حديث شريف قال رسول الله ﷺ: «كَمُلَ من الرجال كثيـر ولـم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

والملاحظ في هذا الحديث- وفي غيره- كان اسم السيدة مـريم البكـر البتول يتقدم أسماء باقي النساء المكرمات.

ولما وضعت السيدة مريم، كان أول ما تفوه به عيسى وهو ما زال في المهد صبيا: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [سورة مريم، الآيات من ٣٠-٣٣].

تقول الأناجيل أن يوسف النجار (ابن خال مريم) أُمر في منامـه بـأن يذهب بالطفل (عيسى) وأمه إلى مصر، لأن الملك هيرودوس أمر بقتل كل طفل يولد في بيت لحم، فقام من فوره وأخذ الطفل وأمه وذهب بهما إلى مصر، وتنقل الثلاثة في مناطق مختلفة في مصر، من المطرية وعين شـمس إلـى أسـيوط،

مرورًا بمصر القديمة والمنيا. وقد ظلوا في مصر إلى أن هلك الملك هيرودوس، فأمر يوسف النجار في المنام بأن يعود بالطفل وأمه إلى فلسطين، فرجع وكان عيسى يبلغ من العمر وقتئذ حوالي الثانية عشر، وقيل بل سبع سنين فقط إلا أنهم لم يقيموا هذه المرة في بيت لحم، بل توجهوا إلى الناصرة وأقاموا فيها، وهي- على ما يبدو- بلدة يوسف النجار.

وقد نشأ المسيح ﷺ نشأة طيبة، فكان مولعًا بالذهاب إلى بيت المقدس، ومغرمًا بالجلوس إلى العلماء، وكان غيورًا على الدين، حريصًا على تفهم حكمه وشريعته، وكان يختلس من وقته ما يقوي به معارفه، ويثبت به علمه، كما كان يناقش العلماء ورجال الدين، فيسألهم حينًا ويجيبهم أحيانًا.

نبوة المسيح :

لم يذكر القرآن الكريم شيئًا عن بدء نبوة المسيح ﷺ، إلا أن الأناجيل تذكر أنه لما بلغ يسوع ثلاثين سنة من العمر، صعد على جبل الزيتون مع أمه ليجني زيتونا، وبينما كان يصلي في الظهيرة إذا بنور باهر قد أحاط به، ومجموعة لا تحصى من الملائكة يقولون: «ليتمجد الله» **فقدم له جبريل كتابًا كأنه مرآة براقة، فنزل إلى قلب يسوع الذي عرف به ما فعل الله وما قال الله وما يريد الله**، حتى إن كل شيء كان عريانًا ومكشوفًا له.

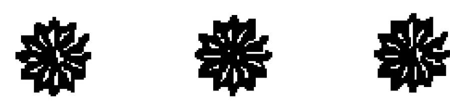
ويقال أن الكتاب الذي قدمه جبريل ﷺ لعيسى هو الكتاب المقدس: «**الإنجيل**».

وكلمة **الإنجيل** معناها: البشارة، والشواهد متضافرة على أن الله تعالى أعطى المسيح الإنجيل، وأنه كتاب تضمن الهدى والنور. وقد أهاب ببني إسرائيل أن يرجعوا إلى الله حقًا، ويعبدوه صدقًا، وأنبأهم بأحداث مستقبلية، وبشرهم باقتراب زمن النبي الذي وُعد بني إسرائيل بأن يبعثه الله، فيكون هو المسيح المُخلص لهم من الذل والعبودية، ويعيد لهم عزَّهم ومجدهم الغابر، ويعود إليهم سلطانهم.. كما كان أيام مُلك داود وسليمان عليهما السلام.

موقف اليهود من دعوة المسيح :

الحق أن بني إسرائيل كانوا قد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وحرَّفوا شريعة الله التي جاء بها موسى ﷺ، وانحرفوا عن الطريق القويم، والصراط المستقيم، وتفرقوا شيعًا وجماعات متضاربة، ونزعوا إلى الإفراط والتفريط.. في سلوكهم ومعاملاتهم.

فمن إفراطهم أنهم كانوا يتحرجون من عمل الخير في يوم السبت باعتباره يوم عطلة لا يجوز العمل فيه.. بل هو مخصص للعبادة، ففوتوا طاعات كثيرة توجب الزلفى إلى الله بتلك الحجة. ومن تفريطهم تهالكهم على المادة، واستغراق حب المال تفكيرهم، فكان كهنتهم يحرضون الفقراء والمحتاجين على النذر للهيكل ليأخذوا هذا المال لأنفسهم، بينما الناذرون في أشد الحاجة إلى بعض ما يبذلونه للصرف منه على أنفسهم وعيالهم وأهليهم، فأراد المسيح أن يخفف عنهم من هذه الأنانية في الكهنة ورجال الدين.



وكان النبي أشعيا عليه السلام قد تحدث عن المنقذ الذي سيأتي في نهاية الأيام «ذلك الذي يحل عليه روح الرب، روح الحكمة والفهم، فلا يقضي بحسب نظر عينيه، ولا يحكم بحسب سمع أذنيه، **بل يقضي بالعدل للمساكين، ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض**» [الفقرات من ١-٥ من سفر أشعيا].

وذكر أن الوعد بالخلاص **لن يكون وقفًا على من ينحدرون من سلالة يعقوب بل لكل الأمم.**

وبناء على نبوءة أشعيا هذه.. كانت غالبية اليهود تنتظر مجيء ملك من سلالة نبي الله داود، ليعيد بناء معبد القدس، ويقودهم في حكومة أبدية في هذا العالم، حيث تكون لهم السيطرة على باقي الأمم.

ولا شك أن فكرة انتظار المسيح (أي الممسوح بالزيت المقدس) وهو «المسايا» "Messias" باللغات الأوربية، كانت منتشرة في تلك الفترة من الزمان التي ظهر فيها نبي الله عيسى بن مريم، ليس فقط في فلسطين، بل في كل أرض الشام وفي مصر.

ولما بدأ عيسى عليه السلام يدعو بني إسرائيل إلى تصحيح مفاهيم الدين اليهودي، والتمسك بالجوهر، والبُعد عن الشكليات والمظاهر، والكف عن استغلال البسطاء والضعفاء، وقف منه أحبار اليهود موقف التحفظ أول الأمر، وأخذوا يراقبون ما يصدره من تعاليم وتوجيهات، فلاحظوا أنه يحارب اتجاهات تأصلت عند اليهودية وهي:

١- شغفهم بالمادة وإهمالهم الناحية الروحية.

٢- ادعاؤهم أنهم شعب مختار.

٣- ادعاء أحبارهم أنهم الصلة بين الله والناس، وبدونهم لا تتم الصلة بين الخالق والمخلوق.

ولشد ما كان ارتياع اليهود وغضبهم عندما شهدوا يسوع (عيسى) يكتسح أمامه كل ما يعتزون به من ضمانات، **إذ يعلن للناس أن الله ليس من المساومين، وأن ليس هناك شعب مختار، وأن لا أحظياء في مملكة السماء، وأن الله هو الأب المحب لكل الأحياء، وأنه لا يخص جنسًا برعاية، فهو كالشمس ترسل أشعتها للناس جميعًا سواء بسواء**[١].

وبسبب هذا الموقف تعرض عيسى عليه السلام إلى عداء بني إسرائيل وسخطهم، ولم يؤمن به إلا قليلون منهم، فقد انتظروه مسيحًا يبسط سلطانهم على العالم أجمع، ولكن خابت آمالهم فيه، لذا أغروا به الحاكم الروماني، إلا أن هؤلاء كانوا وثنيين، ولم تتصل دعوة عيسى بالسياسة، ولم تمس الحكومة من قريب أو من بعيد، ولكن اليهود تتبعوا عيسى لعلهم يجدون منه سقطة تثير عليه غضب الرومان، أو تثبت عليه خروجًا على تعاليم التوراة، وقامت مجادلات بينه وبين بني إسرائيل:

فقد دعا أحد رجال الدين من بني إسرائيل يسوع للعشاء ليختبره، فجاء يسوع إلى هناك مع تلاميذه، فجلس التلاميذ على المائدة دون أن يغسلوا أيديهم، فسأل الكتبة يسوع: لماذا لا يحفظ تلاميذك تقاليد شيوخنا.. بعدم غسل أيديهم قبل أن يأكلوا خبزًا؟! رد عليهم يسوع، وكان من بين ما قاله: «الحق أقول لكم: إن أكل الخبز بأيد غير نظيفة لا ينجس إنسانًا لأن ما يدخل الإنسان لا ينجس الإنسان، بل الذي يخرج من الإنسان ينجس الإنسان». وطال الجدل إلى أن قال المسيح: «الحق أقول لكم: لا تقول الشريعة اعبد.. بل أحب الرب إلهك بكل نفسك وبكل قلبك، وبكل عقلك» ثم قال: أصحيح هذا؟ فأجاب كل واحد: إنه صحيح.

ومثال آخر على الجدل بينه وبين بني إسرائيل.. وعلى الأخص كبار رجال الدين منهم:

فقد سألوه عن أداء الجزية أمام جمهرة من الشعب بقصد الإيقاع به، ودفعه إلى النطق بأقوال تناهض الحكم الروماني القائم، سألوه عن أداء الجزية.. هل يجوز أو لا يجوز، فكان أن قال لهم: أروني معاملة (أي عملة) الجزية،

(١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى كتاب «الأنبياء من بعد موسى» من تأليف: محمد أحمد خضر، ويُطلب من المكتبات الكبرى.

ونظر إلى الدينار الروماني فسألهم: «لمن هذه الصور والكتابة» فأجابوا: إنها لقيصر، قال لهم كلمته المشهورة: «**اعطوا ما لقيصر لقيصر.. وما لله لله**».

وقد أسكتهم جوابه لأنهم لا يرفضون العملة القيصرية مع وجود العملة اليهودية، ولو أنهم كانوا يستنكرون أداءها حقًا لأنكروا التعامل بها وكسبها وادخارها.

إلا أنه بعد أن رأى إصرار بني إسرائيل على رفض دعوته وإنكار رسالته، صرف الدعوة عنهم إلى الأمم المقيمة بينهم والمجاورة لهم، وضرب المثل لذلك بصاحب الدار الذي أقام وليمة للعرس في داره، وأرسل يدعو جيرانه وذويه، فتعللوا بمعاذير شتى وشواغل كثيرة ولم يستجيبوا لدعوته، فأطلق غلمانه وخدمه إلى أعطاف الطريق يدعون من يصادفهم من الغرباء على غير معرفة بهم، حتى امتلأت بهم الدار، ولم يبق على الموائد مكان لمن اختصهم أساسًا لدعوته.

ومن ثم فإنه لم يتعصب لقومه من بني إسرائيل، ولم يتخذهم وحدهم موضوعًا لدعوته، فقد كان يستوي في نظره الجندي الروماني التقي، والمرأة الكنعانية المخلصة، واليهودي الأصيل الذي يأتي إليه معلنًا تصديقه له، بل إن الكافر الذي يتحول قلبه إلى الإيمان كان أفضل بكثير في نظره ممن لم يصدق من بني إسرائيل.

أما عامة الشعب فقد آمنوا به والتفوا حوله، بعدما استمعوا إليه، وشاهدوا معجزاته، **ونادى بالمساواة بين الجميع دون تفرقة أو تمييز**، بل كان يعلن أن من لا ينتسب إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب قد يكونون بتقواهم أفضل ممن ينتمون إليهم نسبًا. وقال في ذلك: «إن كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب على أرائك الملكوت. وأما بنو الملكوت (ويعني بهم بني إسرائيل) فيطرحون إلى الظلمة والعراء».

وقد كانوا ينادون المسيح بالمعلم.. وذلك لأنهم كانوا يجدون في كلامه علمًا واسعًا بالكتب والأسفار، وبديهة حاضرة في الاستشهاد بها والتعقيب عليها.

رسالة المحبة والرحمة والتسامح

كانت رسالة المسيح رسالة محبة ورحمة وتسامح، محبة بين الناس بعضهم البعض، ومحبة لله الذي خلقهم، وكان يحث على التسامح وعدم أخذ

المسيء بإساءته بل الصفح عنه، واحتمال أذاه.

وروي عن السيد المسيح أنه قال: «لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء».

وقال: «طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا حتى يقتله».

وعنه عليه السلام أنه قال: «لا يستطيع أحدكم أن يتخذ على موج البحر دارًا.. فلا يتخذ الدنيا قـــرارًا».

كما كان يقول: «حب الدنيا رأس كل خطيئة، والنظر يزرع في القلـــب شهوة، ورب شهوة أورثت أهلها حزنًا طويلاً».

وقال كذلك: يا ابن آدم الضعيف: اتق الله حيث ما كنت، وكن فـــي الـــدنيا ضيفًا، واتخذ المساجد بيتًا، وعلم عينيك البكاء، وجسدك الصبر، وقلبـــك التفكيـــر، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة».

وفي حديث آخر يشرح رسالته وحكمته قال: «اعملـــوا لله ولا تعملـــوا لبطونكم.. انظروا إلى هذه الطير.. تغدو وتروح ولا تحـــصد ولا تحـــرث والله يرزقها، فإن قلتم نحن أعظم بطونًا من الطير، فانظروا إلى هـــذه الأبـــاقر مـــن الوحوش والحمر، فإنها تغدو وتروح ولا تحصد ولا تحرث والله يرزقها».

كل هذه الأحاديث توضح نظرته إلى الدنيا، ودعوته الناس إلى إنكارهـــا وعدم الجري وراء ملذاتها، وأن كل همهم الدار الآخـــرة.. لأنهـــا دار القـــرار والاستقرار.

سألوه: أيهما أعظم في الناموس؟ قال: «أن تحب ربك بجماع قلبك، ومن كل نفسك وفكرك، وأن تحب قريبك كما تحب نفسك».

وتظهر الرحمة في نفسه أكثر ما تظهر في تفسيره لشريعة موسى عليه السلام، فقد نقلت عنه الأناجيل قوله:

«قيل للقدماء **لا تقتل**، ومن يقتل وجب عليه العقاب، أما أنا فأقول لكـــم أن مـــن يبغض على أخيه باطلاً يأثم ويجزى، فإن قدمت قربانك وذكرت حقـــا لأخيـــك عليك، فدع قربانك أمام المذبح واذهب قبل فصافح أخاك».

«وقيل للقدماء **لا تزن**، أما أنا فأقول لكم: إن من ينظر إلى امرأة فيـــشتهيها فقـــد

زنى بها في قلبه، فإن كانت عينك اليمنى تلقي بك في العثرات فاقلعها وألقها عنك، فخير لك أن يهلك عضو لك من أن تهلك كلك».

«وقيل للقدماء: **لا تحنث**، أما أنا فأقول لكم: لا تحلفوا.. وليكن كلامكم كله نعم نعم.. لا لا، وما زاد على ذلك فهو من الشيطان».

«وسمعتم أنه قيل **عين بعين وسن بسن**، وأما أنا فأقول لكم: لا تقابلوا الشر بالشر، ومن لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الأيسر (أو فأدر له الأيسر)، ومن سخّرك ميلاً واحدًا فاذهب معه ميلين».

«وسمعتم أنه قيل: **تحب قريبك وتبغض عدوك**، وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وادعوا لمن يسيء إليكم ويطردكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات، فإنه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين، ويرسل غيثه للأبرار والظالمين، وأي أجر لكم إن أحببتكم من يحبونكم؟ أليس العشارون[١] يفعلون ذلك، وأي فضل تصنعون إن خصصتم إخوتكم بالسلام؟ أليس العشارون يفعلون ذلك؟! فتعلقوا أنتم بالكمال.. فإن الله كامل.. يحب الكمال».

وقد لقيت بعض توجيهات ووصايا السيد المسيح انتقادات بين المفكرين في الشرق وفي الغرب على سواء، فقالوا: إنه ليس من المنطق أو من طبيعة النفس البشرية أن تتقبل القول بأن من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، أو العمل بقول المسيح عليه السلام أحبوا أعداءكم، وباركوا لاعنيكم، أو بوصاياه التي تدعو إلى التشبه بالطير والحيوان في اعتمادهم على الغذاء.

وقد كان للمسيح «حواريون» ورد ذكرهم في الإنجيل كما ورد ذكرهم في القرآن الكريم، وهم تلاميذه الاثني عشر الذين كانوا يوجه لهم النصح والإرشاد، والوصايا التي ورد ذكرها في الأناجيل. وكان المسيح يقول لهم: أنتم ملح الأرض.. فإذا فسد الملح فأي شيء يرده ملحًا من جديد؟!. وهذا يبين مدى اعتماده عليهم في نشر دعوته وحفظ تعاليمه.

السخرية من علماء اليهود:

فضلاً عما قاله السيد المسيح عن الجرائم والأخطاء التي يقع فيها الإنسان

---

(١) العشارون: هم الذين يجمعون الجزية التي فرضها الحكام الرومان بنسبة العُشر، وقد كانوا- من ثم- مكروهين من الشعب.

مثل: القتل، والزنا، والحنث بالعهد.. وغيرها، فإن للمسيح كلام نفيس عن العلماء، فقد روي عنه أنه قال لعلماء اليهود: «يا علماء السوء: جعلتم الدنيا على رؤوسكم.. والآخرة تحت أقدامكم»، وقال: «يا علماء السوء: جلستم على أبواب الجنة فلا تدخلونها ولا تدعون المساكين يدخلونها، إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه».

وعنه أنه سُئل: مَنْ أشد الناس فتنة؟ قال: زلة العالِم.. فإن العالِم إذا زل يزل بزلته عالم كثير».

وقال عيسى للحواريين: «كلوا خبز الشعير، واشربوا الماء القراح، واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين. بحق ما أقول لكم: إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وإن عباد الله ليسوا المتنعمين. بحق ما أقول لكم: إن شركم عالِم يؤثر هواه على علمه يود لو أن الناس كلهم مثله».

الرحمة والتسامح :

أوردنا من قبل بعض أحاديث السيد المسيح التي تدعو إلى الرحمة والتسامح، ونضيف إليها واقعة المرأة الزانية التي تستحق الرجم وفقًا لشريعة موسى (أحكام التوراة).

فقد أوردت الأناجيل مثلاً واضحًا لما اتسمت به رسالة عيسى من دعوة للرحمة والتسامح، ففي صراعه مع الكهنة أرادوا إحراجه، وأن يثبتوا أنه جاء ليحطم شريعة موسى لا أن يتبعها، وكانت شريعة موسى تقضي برجم الزانية، وأحضر كهنة اليهود امرأة خاطئة تستحق الرجم، والتفوا حول عيسى يسألونه:

- ألا تقضي الشريعة برجم الخاطئة (الزانية)؟

قال عيسى: نعم.

- قالوا: هذه المرأة خاطئة.

نظر عيسى ﷺ إلى المرأة، ونظر إلى الكهنة، كان يعلم أن الكهنة أعظم خطأً من المرأة، وأنهم أشد ظلمًا منها، وكان الكهنة ينتظرون جوابه، فإن قال إنها لا تستحق القتل فهو يقف ضد شريعة موسى، وإن قال إنها تستحق الموت فقد هدم بنفسه شريعة الحب والرحمة والتسامح التي جاء بها.

فهم عيسى المؤامرة، وابتسم فأضاء وجهه، ونظر إلى الكهنة، وعاد ينظر إلى المرأة وقال لهم: **«من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر»**.

بهذا- أفهم عيسى عليه السلام كهنة اليهود، أن الدعاة إلى الله ليسوا جلادين، منتدبين لتطبيق الشريعة دون نظر إلى المجتمع الذي تجري فيه الخطيئة، إنما يجيء الدعاة إلى الله أساسًا رحمة بالناس، والرحمة هي هدف كل الدعوات الإلهية، وإن إرسال النبي هو ذاته رحمة للعالمين.

والحق فإن عيسى عليه السلام لم يأت بشريعة جديدة، بل سار على شريعة موسى (التوراة) مع الاهتمام باللب والجوهر، دون القشور والقوالب، وكانت رسالته تتجه إلى تربية الروح أساسًا بعد أن غرق اليهود في الماديات، كما كانت تتجه إلى إقناع الناس بأن يؤمنوا بالبعث والنشور، إذ كانت شريعة موسى تكاد تكون خالية من التأكيد على هذه الناحية، وهذا فضلاً عن أن عيسى عليه السلام طالب بالمساواة بين الناس وبالمعاملة بالمثل، وأن يسيروا في معاملة الناس على مقتضى القاعدة التي تقول: «كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم.. فافعلوه أنتم أيضًا بهم».

معجزات عيسى عليه السلام

نرى أنه لا ينبغي ولا يصح أن نتحدث عن رسالة عيسى عليه السلام دون أن نشير إلى معجزاته ولو بشيء من الإيجاز، فقد كانت لعيسى عليه السلام معجزات خارقة، تناسب هدف رسالته وهو كما قلنا: الدعوة إلى تربية الروح، والإيمان بالبعث والنشور، وأن هناك حياة أخرى يجازى فيها المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أكبر هذه المعجزات التي أيد بها الحق سبحانه وتعالى عيسى عليه السلام، وتأتي في مقدمة هذه المعجزات **معجزة ولادته من غير أب**، خلافًا لسُنَّة الكون في أن يكون الحمل والولادة من ذكر وأنثى.

أما باقي المعجزات فيمكن رصدها على الوجه الآتي:

٢- معجزة تكليم الناس في المهد.. وبعد الولادة مباشرة.

٣- أن الله سبحانه علّمه التوراة، كما علّمه الحكمة والبلاغة في القول.

٤- تصويره من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله.

٥- إبراؤه الأكمه (من وُلد أعمى) والأبرص (المريض مرضًا مزمنًا بجلده)، ويتصل بذلك شفاء المرضى بصفة عامة.

٦- إبراء كل من أصابه مس من الشيطان أو أي مرض نفسي.

٧- إخبار القوم بما يدخرون في بيوتهم بغير أن يدخل بيوتهم أو يحدثهم عنها أحد.

٨- معجزة إحياء الموتى، وهي معجزة خطيرة تتمثل في القدرة على دعوة الموتى من قبورهم، فإذا هم قيام يخرجون أحياء بإذن الله. وهي معجزة تلجم كل من يشك في البعث والنشور.

هذه هي المعجزات التي ذكرها القرآن الكريم في أكثر من موضع، من ذلك ما ورد في الآية (١١٠) من سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقد أوردت الأناجيل معجزات أخرى خلاف ما سبق قصَّها تلاميذ المسيح حسبما عاينوها.. وهي:

٩- معجزة تكثير الطعام.

١٠- تسكين الرياح وموج البحر.

١١- المشي على مياه البحر.

١٢- شجرة التين التي يبست نتيجة دعاء عيسى عليها.

وهناك معجزتان كبيرتان، كل منهما تحتاج إلى شرح وتفصيل لا مجال لهما هنا، وهما:

أ - معجزة نزول مائدة من السماء كطلب الحواريين.

ب- معجزة وفاته عليه السلام ورفعه إلى السماء.. كما ورد في الآية (٥٥) من سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ صدق الله العظيم.

الفصل الخامس
العصـــر الجاهـــلي

يُعرف عصر ما قبل الإسلام في الجزيرة العربية عند جمهور المؤرخين بـ«العصر الجاهلي»، ويُقصد به عادة زمن الجهل وعدم المعرفة، ويُطلق لفظ «الجاهلية» على الحال التي كانت عليها العرب قبل ظهور الإسلام، وأطلق المسلمون لفظ «الجاهلية» على الفترة الواقعة من فجر التاريخ العربي حتى ظهور الإسلام.

وينقسم العرب إلى قسمين كبيرين هما:

العرب البائدة: ويُراد بها القبائل التي هلكت ودرست آثارها وانقطعت أخبارها، وأشهرها أربعة: عاد وثمود وطسم وجديس، ويسمونها العرب العاربة.

ومن بعد.. ينقسم العرب إلى: العرب القحطانية (وهي العاربة)، والعدنانية (وهي المعربة أو المستعربة).

والقحطانيون (العرب العاربة): موطنهم الأصلي جنوب شبه الجزيرة، ومنهم ملوك اليمن وقبائل سبأ وحمير، وقد خرجت منهم جماعات وقبائل في ظروف متعددة، ونزلت بأجزاء مختلفة من الجزيرة العربية، ومن هؤلاء اللخميون الذين نزلوا الحيرة (بين الجزيرة العربية والعراق) وكونوا ملكًا بها، ومنهم أولاد جفنة.. ملوك الغساسنة (بين الجزيرة العربية والشام) كما أن منهم الأزد الذين تفرع منهم الأوس والخزرج.

أما العدنانية: فيسمون **«العرب المعرَّبة أو المستعربة»**، أي الذين دخل عليهم دم ليس عربيًا، ثم تم الاندماج بين هذا الدم الدخيل وبين العرب، وأصبحت اللغة العربية لسان المزيج الجديد، وهؤلاء عرب الحجاز، وموطنهم الأصلي مكة المكرمة، والدم الجديد الذي نزل بهم هو إسماعيل عليه السلام الذي جيء به إلى مكة وهو صغير، ونشأ بها واندمج مع قبيلة جُرهم وصاهرها، وعاش أولاده بينهم بعد أن استعربوا، ومنهم «عدنان» الذي تنسب إليه هذه الطائفة.

وقبيلة عاد: كان موطنها حضرموت التي تتاخم بلاد اليمن، على حدود الصحراء المسماة بالأحقاف، وكان قوم عاد من أشد الناس بأسًا، شيدوا أبنية شاهقة تدل على حضارتهم، وكانوا يعبدون الأصنام، ويقترفون شتى الموبقات، ويطففون الكيل والميزان، فلما بعث الله فيهم أخاهم هودا نبيًا لم يؤمن به إلا القليل، وقالوا له: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ

لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾(١). ثم نزل بهم قحط شديد، وساق الله عليهم العذاب، فأفناهم جميعًا إلا من آمن مع هود، وهي فتنة قليلة لبت نداء هود وأجابته إلى دعوته، ونبذت عبادة الأوثان.

وعلى مر الزمان ظهر شعب آخر يُدعى بقوم عاد الثانية، وكان مقرهم اليمن، ويُنسب بناء سد مأرب إلى ملكهم لقمان بن عاد، الذي حاك حوله المؤرخون العرب طائفة من الخرافات(٢).

وقبيلة ثمود: كانت تعيش في شمال بلاد العرب بين الحجاز والشام، وكانوا يسكنون بيوتًا نحتوها في الجبال، ولا تزال آثارهم المنحوتة في الصخور قائمة في مدائن صالح، على مسيرة أسبوع من شمال المدينة، والتي تدل عليها النقوش التي عُثر عليها في القبور، وكانوا قومًا من الجبارين العتاة، يشركون بالله ويعبدون الأصنام، ولما طغوا أرسل الله إليهم صالحًا نبيًا، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾(٣). فهزأت ثمود من نبيها صالح، وأبت أن تطيعه حتى يأتي بمعجزة خارقة، فدعا صالح ربه، فأخرج لهم من الصخر ناقة وأمرهم ألا يمسوها بسوء، بيد أن أحد أشرارهم عقرها وذبحها، فأرسل الله عليهم صيحة من السماء فأصبحوا في دارهم جاثمين. وسار صالح إلى فلسطين ثم إلى الحجاز مع من بقي من قومه المؤمنين.

وللحديث عن شبه الجزيرة العربية يلزم تقسيمها إلى ثلاث مناطق هي:

(أ) المنطقة الجنوبية حيث يوجد اليمن.

(ب) الأطراف الشمالية حيث وُجدت إمارتا الشمال.

(ج) الوسط حيث توجد البادية والحجاز.

(أ) اليمن

لليمن موقع ممتاز بين البحر الأحمر وبحر العرب، لذا أصبحت ملتقى الرحلات البحرية التجارية التي تأتي من الهند ومن إندونيسيا والصين، حيث تلتقي بالرحلات البرية وقوافل الجمال التي تسير بين اليمن في أقصى الجنوب

---

(١) سورة هود: من ٥٢-٥٤.

(٢) المرجع كتاب: التاريخ الإسلامي العام للدكتور علي إبراهيم حسن.

(٣) الآية ٦١ من سورة هود.

وبين الشام في شمال الجزيرة العربية، فكانت سوقًا هامة تعرض بها البضائع التي ترد من الرحلات البحرية، والبضائع التي تعود بها قوافل الجِمال من الشمال.

وقد عرفت اليمن حياة الاستقرار لخصوبة أرضها، وهطول الأمطار عليها بشكل منتظم، قياسًا بالمناطق الأخرى الصحراوية المحيطة بها، مما شجع الناس على العمل بالزراعة وتربية الماشية، ومكّنهم من المحافظة على مياه الأمطار من الضياع، فأقاموا السدود وخزنوا بها المياه، فضلاً عن أن هذه الظروف أوجدت باليمن طبقة من الحكام ذوي الغنى واليسار والقوة، وظهرت ألقاب الملك والسلطان.

ويقال أن ذا القرنين كان ملكًا باليمن، بينما يرى آخرون أن ذا القرنين المشار إليه في القرآن الكريم هو الإسكندر المقدوني، «ولكن هذا الرأي فيه نظر. ومعنى ذي القرنين: صاحب القرنين. وإذا عرفنا أن لباس الرأس عند ملوك سبأ القدماء هو الهلال ذو القرنين، وأن هذا اللباس أُخذ على الأرجح من مصر، لم يبق مجال للشك أن الإشارة الواردة في القرآن الكريم إنما تنصب على ملك من أهل البلاد قام بفتوح كثيرة»[1].

وأهم الممالك التي قامت باليمن قبل الإسلام هما: مملكة سبأ، ومملكة حِمْير، ثم وقعت اليمن فريسة الاستعمار الأجنبي.. على النحو التالي:

مملكة سبأ من (٩٥٠-١١٥ق.م):

كانت عاصمتها مأرب، وترجع شهرتها إلى سببين كبيرين، **أولهما**: ملكتها بلقيس وقصتها مع النبي سليمان والهدهد[2]. **ثانيهما**: سد مأرب: فقد كانت الأمطار تهطل على اليمن ثم تنحدر إلى البحر فلا ينتفع بها إلا في موسم نزولها، فأقام أهلها سدًا عظيمًا هو سد مأرب الشهير، وكانت فائدة هذا السد مزدوجة، وهي الاحتفاظ بالمياه للانتفاع بها وقت الحاجة، فضلاً عن حماية البلاد من أضرار السيول التي كانت تتلف المزارع والقرى.

بيد أن فترة الضعف التي نزلت بالمملكة في أواخر أيامها شغلتها عن

---

(١) قاله السيد أمير علي في كتاب «روح الإسلام»، ص٦٤. وسوف نتكلم عن الإسكندر بشكل أوسع عند الحديث عن العصر المقدوني.

(٢) ورد ذكر القصة في الآيات من ٢٠-٤٤ من سورة النمل.

رعاية السد، فبدأ يضعف ثم انهار أمام السيول، وقد سُمي هذا السيل سيل العَرِم. وبدّل هذا الحادث الحياة في اليمن، فهاجر كثير من السكان إلى الشمال، وورد ذكر السيل في القرآن الكريم في سورة سبأ (الآية ١٥)، وقد ساق الله هذا السيل على أهل اليمن جزاء كفرهم وإعراضهم عن طاعة الله. **وكانت آية كفرهم أنهم كانوا يعبدون الشمس من دون الله.**

وقد ورد في سورة النمل أن الهدهد خاطب النبي سليمان عليه السلام فقال عن بلقيس ملكة سبأ: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾[(١)].

والغالب أن هؤلاء كانوا من الصابئة.. الذين كانوا من أتباع نوح وإدريس، ولكنهم غيَّروا وبدّلوا وعبدوا من دون الله الوسائل في الكون كالشمس والقمر والكواكب. (والصابئ هو كل من مال عن دينه إلى دين آخر)، والصابئة كان لها عصبيات في بلاد العرب، فدانت العرب بهذا الدين واعتنقته، وبنوا الهياكل العظيمة وقدموا لها القرابين، وحجوا إليها وذبحوا لها الذبائح. وأول من دان بهذا الدين من العرب أهل اليمن. وقد كانت اليمن تعبد الشمس، وكنانة تعبد القمر، وقبائل أخرى تعبد المشترى والشعرى وعطارد وزحل والجوزاء والثريا.. وغيرها. وقد ورد ذكر الصابئة في أكثر من موضع في القرآن الكريم منها الآية ٦٢ من سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

وكانت الشمس أخص أنواع عبادتهم، وكانوا يسجدون لها عند شروقها وعند غروبها وعند توسطها السماء، ولهذا نهى النبي ﷺ عن صلاة النوافل في هذه الأوقات، قطعًا لمشابهة الكفار ظاهرًا، وسدًا لذريعة الشرك. أما آثار عبادتهم للكواكب، فمنها تسميتهم أنفسهم بأسماء مضافة لها بالعبودية كعبد شمس وعبد المشترى. ومن الصابئة أخذ العرب علم النجوم[(٢)].

ورغم فساد العقيدة الدينية عندهم إلا أنه كان باليمن نظام حكم رشيد، يُستدل على ذلك من رغبة ملكة سبأ استشارة أهل الرأي في المملكة قبل اتخاذ

---

(١) سورة النمل: الآية ٢٤.

(٢) الدكتور علي إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص١٦٦، ١٦٧.

أي قرار في رسالة النبي سليمان إليها، إذ تقول الآية (٣٢) من سورة النمل على لسان الملكة: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾. يُستنبط من هذا أن **الإنسان اليمني لم يكن عبدًا للملك أو الملكة كما كان في معظم الملكيات، إنما كان للإنسان رأيه، وكانت له كرامته.**

وقد انهارت دولة سبأ بعد ذلك، وخلَّفت وراءها آثارًا تدل على العظمة والرُقي، وكان لها أسطول ضخم ينقل البضائع من اليمن وإليها، وكانت تسيطر على طرق النقل التجارية التي تجتاز الحجاز متجهة شمالاً حتى موانئ البحر المتوسط، وكان لها مستعمرات أُنشئت على هذه الخطوط.

مملكة حِمْيَر (١١٥ق.م- ٥٢٥م):

قامت مملكة حِمير على أنقاض مملكة سبأ، وقام ملوك التبابعة الحميريون (ومفردها تُبَّع) بإصلاح ما فسد من نظم الزراعة والسدود، وأصبح لهم جاه وسلطان عظيم. وقد ورد ذكر قوم تُبَّع هؤلاء في القرآن، إذ قال الله تعالى متحدثًا عن كفار مكة.. في الآية (٣٧) من سورة الدخان: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾.

وكان اثنان من أحبار اليهود قد التقيا بالملك «تُبع» ملك اليمن عند عودته مظفرًا من فتوحاته خارجها، وأقنعاه ألا يمس يثرب بسوء لأنها ستكون مهجر نبي آخر الزمان، كما ورد في كتبهم الدينية، وقد تأثر الملك بقولهما وقرر اعتناق اليهودية، واصطحب الحبرين معه، وقام بنشر اليهودية في أرجاء اليمن.

بعدها وفد إلى نجران في شمال اليمن أحد القديسين الروم يدعى «كيمون» أو «خيمون»، كان يبحث عن الدين الجديد في المشرق، فأسرته قافلة في صحراء العرب، ثم باعته إلى سيد في نجران، التي كان أهلها يعبدون نخلة، وأفلح الرومي في تحويل هؤلاء القوم من الوثنية وعبادة النخلة إلى الدخول في المسيحية، ثم عظم أمر المسيحية فيها، حتى لم يبق من أهلها الوثنيين رجل ولا امرأة إلا دخل في الدين الجديد، وحتى ضاق بذلك عدد يسير من اليهود كان يقيم في المدينة.

ثم وقع صدام بين النصارى واليهود في نجران، فأسرع اليهود إلى الملك «ذي نواس» يشكون إليه تطاول النصارى عليهم، واعتداءهم على دينهم، ودخل يهودي منهم على الملك شاكيًا باكيًا مستغيثًا، ومستنجدًا به لنصرة الدين اليهودي،

وذكر للملك أن رجلاً من الروم أقبل في قافلة من القوافل فأفسد نجران وما حولها.

وقد استشاط الملك غضبًا عندما سمع ذلك، وأعلن أنه لا يسمح بغير اليهودية دينًا في بلاد اليمن، وجمع الملك أشراف نجران وأهل الرأي فيها، وخيَّرهم بين اليهودية أو الموت، ولم يدع لهم مخرجًا من هذين الأمرين، ولشد ما كانت دهشة الملك حين رآهم مصرين على عقيدتهم متمسكين بدينهم.

هنالك أمر ذو نواس فاحتفرت الأخاديد، وجُمع فيها الحطب والخشب وأُلقي فيها الزيت، وأُضرمت فيها النار، ودُفع أهل نجران إليها وأطلق ذو نواس أهل حمير في أهل نجران، يعملون فيهم القتل، ويحتازون أموالهم ونساءهم، وجرت الدماء أنهارًا بنفوس الشهداء، وقيل أنه ألقى فيها نحو عشرين ألفًا لقوا حتفهم جميعًا. **وهكذا كان انتقام اليهودية عندما تمكنت من أعدائها، فإنها لم تخضع لمبدأ حرية العقيدة، ولم تحتمل العيش مع النصارى في بلد واحد،** وإنما قررت إفناءهم وإحراقهم جميعًا في النار.

ويقول المفسرون: إن هؤلاء النصارى الذين أُلقي بهم في النار، هم الذين ورد ذكرهم في الآيات من ٤-١٠ من سورة البروج، إذ قال الله تعالى في شأنهم: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾.

وقد نجا من الحريق رجل أسرع إلى الهرب ومعه إنجيل قد مسّته النار، وأفلح في عبور البحر خلسة إلى الحبشة، وانطلق إلى النجاشي ملكها يستعينه على الثأر.

اليمن تحت الاستعمار:

استجاب النجاشي لهذا الرجل، وأرسل إلى قيصر الروم حامي المسيحية يخبره بذلك، ويطلب منه بعض السفن لنقل جيش الأحباش إلى بلاد اليمن ففعل، وعبر الجيش الحبشي البحر الأحمر بقيادة «أرياط»، واستطاع أن ينتصر على الحميريين. ولم يخلص الأمر كثيرًا لأرياط، فقد تمرد عليه «أبرهة» أحد مساعديه، وتبارز الاثنان فسقط أرياط في المبارزة، وخلص بذلك الأمر لأبرهة.

فرغ أبرهة بعد ذلك لأمور اليمن، فجدد من عمارتها، وأقام سدودها، واجتهد في نشر الدين المسيحي، وأقام كنيسة في صنعاء العاصمة أسماها «الكليس» لم يعرف أهل البلاد مثلها ضخامة وفخامة.

وفي ذات يوم رُفع إلى أبرهة أمران ضاق بهما أشدق الضيق، **أولهما:** أن سدنة الكنيسة أبلغوه أن أعرابيًا لطخ الكنيسة ليلاً بالقاذورات، وانتهك حرمتها. **ثانيهما:** أن أهل تهامة (وفيها مكة) قد قتلوا ذلك الرجل الذي أرسله أبرهة إليهم ملكًا. فثار أبرهة ثورة كبرى وأقسم أن ينتقم، وأن يهدم البيت الذي يحج إليه العرب، وقاد حملة إلى مكة لهدم الكعبة يتقدمها فيل ضخم، ولكن محاولته للانتقام وهدم الكعبة باءت بالفشل.

وكانت فارس تنقم على الأحباش والروم استعمار اليمن، وحانت الفرصة لتدخل فارس، فإن أحد ملوك حمير واسمه «سيف بن ذي يزن» فر إلى فارسٍ يطلب النجدة والعون لإخراج الأحباش من بلاده، فاستجابت فارس وأرسلت جيشًا بقيادة «وهرز»، وانتصر وهرز وتمكن من القضاء على الحكم الحبشي الذي استمر ٧٢ عامًا، ثم أرسل كسرى عددًا من الحكام إلى اليمن بالتناوب، إلى أن عين «باذان» حاكمًا لليمن. وعند بعثة الرسول ﷺ كان باذان حاكمًا لصنعاء من قِبَل فارس، وكان بجواره باليمن وحضرموت ملوك وأقيال من العرب.

(ب) إمارتا الشمال

كانت شبه جزيرة العرب قبل الإسلام تقع بين أعظم مدنيتين في العالم آنذاك: فارس شرقًا والرومان شمالاً وغربًا. وقد حاول الفرس والروم أن يخضعوا العرب لحكمهم اتقاءً لغزوهم وسلبهم، ولكنهم كانوا يعدلون عن ذلك لما يستلزمه فتح مناطق صحراوية من ضحايا الأنفس والأموال، من أجل هذا رأى الفرس والروم أن خير وسيلة لدفع شر العرب أن يساعدوا بعض القبائل المجاورة على أن يستقروا على التخوم يزرعون ويتحضرون، ثم يكونوا رداء لهم، يصدون غارات البدو الذين يغزون وينهبون، فتكوّنت إمارة الحيرة على تخوم الفرس، وإمارة الغساسنة على تخوم الرومان.

إمارة الحيرة :

أسس الفرس إمارة الحيرة حوالي سنة ٢٤٠م، وأمَّروا عليهم عمرو بن عدي. وكان النظام المتبع أن عرب الحيرة يقدمون الطاعة لملك فارس، وهو

يولي عليهم أميرًا من أنفسهم، وعليهم أن يحموا فارس من كل مغير من نواحيهم، والفرس مقابل ذلك يعفونهم من دفع الإتاوة.

وكان عرب الحيرة إذ ذاك في رخاء يحسدهم عليه غيرهم من العرب لخصب أرضهم، وغنى إقليمهم، وكانوا هم الصلة بين الفرس وعرب الجزيرة، يحملون إليهم التجارة الفارسية، ويبيعونها في أسواقهم، ويبشرون بالفرس ومدنيتهم، **وكانوا غالبًا ما يعتنقون ديانتهم المجوسية**.. التي تقدس النار، ويتعبدون حولها.

ويظهر أن الحيرة بلغت شأوًا كبيرًا أيام «المنذر الثالث» حتى يروي بعض المؤرخين، أنه لما عقد الصلح بين الفرس والرومان سنة ٥٢٢م، كان من شروطه أن يدفع الرومان قدرًا من المال لملك فارس وللمنذر أمير الحيرة. وبعده ولى النعمان بن المنذر الخامس الملقب بأبي قابوس (وهو زوج هند وصاحب النابغة الذبياني) وقد غضب عليه كسرى، ففر هاربًا، ثم استدرجه كسرى فلجأ إليه فحبسه حتى مات، وكان ذلك حوالي سنة ٦٠٢م، وقد أدى هذا الحادث إلى ثورة عاصفة بين القبائل العربية في كل شبر من شبه الجزيرة العربية، وكان معنى هذه الثورة العربية على ملك الفرس، **التضامن التام والوحدة الشاملة بين العرب، فتناسوا ما شجر بينهم من خلاف، واجتمعوا تحت راية واحدة، والتقوا بكسرى في حرب عنيفة، وعُرف يوم اللقاء بيوم «ذي قار»، وانتهت الحرب بتغلبهم عليه**، وهزيمة الفرس، لأنهم اتبعوا أسلوب الكر والفر وحرب العصابات، والتفرق في الصحراء التي لا يعرف دروبها غيرهم. وكان هذا النصر- ولا يزال- أساسًا لفخرهم على مرّ العصور. وبموت النعمان ألغت الحكومة الفارسية نظام إمارة اللخميين، وولت من قبلها حاكمًا فارسيًا يخضع له أمراء العرب، واستمر الحال على هذا المنوال حتى فتحها خالد بن الوليد.

وكانت إمارة الحيرة ملتقى الحضارات واللغات والأديان، وكانت تنقل بعضًا من هذه الحضارات، كما كان ينتقل إليها شيء من حضارة اليونان والروم وآدابهم، وكان في الحيرة مبشرون بالنصرانية.. داعون إليها، ولبى الدعوة بعضهم، ومنهم هند زوج النعمان، فقد أنشأت ديرًا يسمى بدير هند، ظل قائمًا لمدة طويلة.

إمارة غسَّان :

أسس الغساسنة إمارة في جنوب الشام.. كالتي كونها اللخميون في

الحيرة، وقد امتد حكمهم تقريبًا على مقاطعتي حوران والبلقاء، وكانت عاصمتهم في «جلق» بالقرب من دمشق. وكان بينهم وبين إمارة الحيرة عداء شديد، وكثيرًا ما وقعت بينهما الحروب المحدودة. وأهم أمراء الغساسنة «الحارث بن جبلــة»، وقد عينه الإمبراطور الروماني جوستنيان سنة ٥٢٩م أميرًا على قبائل العــرب في سوريا. ومنحه أعلى لقب بعد الإمبراطور.

وكان الحارث نصرانيًا على مذهب اليعاقبة، وكان يُعد حاميًا من حماتها، وقضى أكثر أيام حكمه في محاربة المنذر الثالث أمير الحيرة، وفي يونيو ســنة ٥٥٤م انتصر الحارث نصرًا عظيمًا على المنذر. وقد بلغت إمارة غسَّان شــأوًا كبيرًا من الرُقي، وكانوا على ما يظهر أرقى عقلية حتى مــن عــرب الحيــرة، وكانوا أشد قوة ومنعة، وكانوا أكثر اتصالاً بالثقافة اليونانية والمدنية الرومانيــة، وكان شعراء العرب يقدمون إليهم فيحسنون وفادتهم.

إلا أنه لما غزا الفرس الروم وأخذوا منهم أورشليم (القــدس) ودمــشق (٦١٣-٦١٤م) انحط شأن الغساسنة وضعف أمرهم، وكان آخر أمــرائهم هــو «جبلة بن الأيهم»، وجاء الإسلام وهو يتولى الإمارة، ولما فتح المسلمون الــشام أسلم جبلة، ثم توجه لزيارة المدينة فاستشرف أهلها لمقدمه، لكرم وفادته، وأحسن أمير المؤمنين عمر نزله، ولكن واقعة حدثت غيَّرت مجرى الأمور، إذ لطم جبلة رجلاً وطئ فضل إزاره وهو يسحبه على الأرض، فاشتكى هذا الرجل إلى عمر طالبًا القصاص، فأرسل عمر يطلب جبلة.. الذي أخذته العزة بالإثم، وهرب من المدينة رافضًا القصاص، وتوجه إلى قيصر مستنجدًا به، ولم يزل بالقسطنطينية حتى مات سنة ٢٠هـــ.

(ج) وسط شبه الجزيرة العربية

يتكون وسط شبه الجزيرة العربية من صحراء شاسعة، وسلاســل مــن الجبال المرتفعة، بينها بعض الوديان، وينقسم هذا الوسط إلــى باديــة متراميــة الأطراف، وإلى حضر تركز في منطقة الحجاز. ونتحدث فيما يلي عن كل منهما على حدة:

أولاً : البــادية

البادية عظيمة الاتساع، وهي مناطق صحراء قاحلة، لا تــسقط عليهــا الأمطار إلا قليلاً، ومن ثم كان الوسط قليل السكان، وكل سكانه رحَّلاً يبحثــون

عن مساقط الأمطار أو منابع الماء، ويبقون حولها يرعون العشب ويشربون الماء، حتى ينفد العشب ويجف الماء، حينئذٍ يبحثون عن مكان آخر.. وهكذا، فلم تكن لهم مساكن يأوون إليها، وإنما يستعملون الخيام، وكان الجمل عونهم الكبير في تنقلاتهم، أما الغنم فهي مادة حياتهم يشربون لبنها ويأكلون لحمها، ويستعملون أصوافها ملابس في البرد، ويصنعون من جلودها خيامهم وملابسهم، ولم تهيئ هذه الحياة للبدو أن يعملوا في الزراعة أو الصناعة، فهاتان الحرفتان من حِرَف الاستقرار الذي لم ينعم به سكان البادية.

ويعيش البدو في الصحراء في نظام قبلي، والوحدة في البادية هي القبيلة، وهي وحدة يربط بينها الدم والعصبية، ويعتبر من أفراد القبيلة الضعفاء والعبيد الذين يلجئون إليها، ويعيشون في جوارها وحمايتها.. ولم تكن بينهم وبين القبيلة صلة دم. وقد تطغى قبيلة على أخرى وتغلبها على أمرها، فيخضع المغلوب للغالب لمدة قصيرة أو طويلة، حتى يُتاح للقبيلة المغلوبة من أبنائها من يشهر السلاح في وجه الغالبين، وينتزع لقبيلته استقلالها.

والقبيلة العربية تخضع لدستور صارم نظمته التقاليد والأعراف، وفي ظل هذا الدستور يحس الفرد برابطته القوية، ويلتزم بتأييد مصالحها، والعمل لها بكل ما يملك من قوة، وأفراد القبيلة جميعًا متضامنون فيما يرتكبه أحدهم تضامنًا قويًا. ويتم اختيار سيد القبيلة من بين من تجمعت فيهم صفات الشجاعة والكرم والحلم، على أن مسئوليات سيد القبيلة أكثر من حقوقه، فهو في السلم جواد كريم، وفي الحرب يتقدم الصفوف ويساعد من لا عتاد له، وهو يتحمل باسم القبيلة تبعة ما قد يرتكبه أفراد القبيلة من أخطاء.

وهذا النظام القبلي كان يدفع إلى التنافس بين القبائل على النفوذ المادي والأدبي، ومن هنا كانت تسود العداوة والبغضاء بين القبائل المختلفة، وتثور الحروب وتنشب المعارك بينهم لأوهى الأسباب، وكان أفراد القبيلة يتناصرون فيما بينهم، ويدافع كل فرد عن أخيه مهما نأى عن الحق وتشبث بالباطل. وقد أدى ذلك إلى تفكك المجتمع العربي، وعدم الترابط بين أجزائه، وهو تفكك كان ينذر بالانحلال وسوء المآل. على أن هذا التفكك وعدم الترابط بين القبائل كان يزول في بعض الفترات إذا ما تعرض العرب للغزو والعدوان الخارجي، حينئذٍ يقوم شيوخ القبائل بالسعي إلى التضامن، وينسون ما بينهم من نزاع وأطماع، للوقوف في وجه العدو الغصب، كما حدث في يوم «ذي قار» الذي تحدثنا عنه.

إزاء هذه الأوضاع، لم يكن ممكنًا أن يعيش في البادية شخص أو أشخاص دون أن يكونوا أفرادًا في قبيلة يحمونها وتحميهم، فإذا وجد شخص أو أشخاص قليلون في البادية تخطفتهم القوى البدوية التي ترى من حقها أن تمتلك الضعيف وتأسره، وتبيعه عبدًا رقيقًا، **وإن كان هذا في حقيقته دليلاً على انعدام الأمن في البادية، وعلى تسلط الإنسان على حرية أخيه الإنسان واستعباده**، وقد حفلت كتب التاريخ بحالات من هذا النوع، إذ تعرض له «كيمون» الذي نشر المسيحية في نجران، والذي ذكرنا قصته، كما تعرض «سلمان الفارسي» الصحابي الجليل للأسر والغدر، بينما كان يسعى حثيثًا باحثًا عن دين جديد سيظهر في أرض العرب، ينشره نبي يُبعث بدين إبراهيم حنيفا. **علاوة على ما سبق فقد كان الثأر عادة سائدة في بادية العرب**، وهو في نظرهم أقرب ما يكون للعدالة والقصاص.

والحرية عند البدوي هي خير ما يعتز به، ولا يستطيع أن يتنازل عن أي جزء منها لقاء أي شيء، والموت أو الهجرة عن الوطن أيسر على البدوي من فقد حريته[١]. وقد تحدث بعض الكتاب عما يتصف به العربي من فضائل ونقائص، كحب العشيرة، وفرط الحمية، وقلة المبالاة بالخطر، والتعطش للأخذ بالثأر، وعدم الاكتراث بالحياة البشرية، ولكن مهما يكن الفرق بين البدوي والحضري، فإن البدوي هو وليد البيئة الصحراوية، وأن ما يشعر به من ولع شديد بالحرية، وعزة النفس، لهو ثمرة الجو الطليق الذي يتنفس فيه، والبطاح الفسيحة التي يهيم فيها مستشعرًا كرامته واستقلاله[٢].

وقد زعم بعض المؤرخين **أن العرب كانوا يكرهون المرأة ويحتقرونها**، استدلوا على ذلك **بعادة وأد البنات** التي كانت موجودة لديهم، والتي أشار الله سبحانه ﷻ إليها في سورة النحل: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ الآيتان (٥٨، ٥٩): ، وفي قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ [سورة التكوير: ٨، ٩].

يقول الدكتور محمد الطيب النجار في كتابه «دراسات في السيرة

---

(١) المرجع: كتاب السيرة النبوية العطرة للدكتور أحمد شلبي، ص٩٢.
(٢) المرجع: كتاب روح الإسلام، تأليف سيد أمير علي، ص٥٨.

النبوية»: والواقع أن هذه العادة لم تكن منتشرة بين العرب جميعًا. ولكنها كانت موجودة في بني تميم وبني أسد، وهما قبيلتان اثنتان من ثلثمائة وستين قبيلة، ومعنى ذلك أن الأكثرية الساحقة من العرب لم تكن فيها هذه العادة القبيحة.

على أنه كانت توجد لدى العرب هذه الفترة من الزمان عادات سيئة وأنكحة فاسدة، ومنها نكاح البغايا، وهو نكاح يبيح للمرأة أن تتزوج بأكثر من واحد، ويكونون معروفين لدى بعضهم البعض، ونكاح الاستبضاع، وهو أن يقول الرجل لامرأته- أحيانًا- اذهبي إلى فلان فاستبضعي منه، ويمتنع عن القرب منها حتى تحمل من هذا الأجنبي، فيعود إلى الاتصال بها، وكانوا يفعلون ذلك رغبة في تحسين النسل. وكان أصحاب هذه العادات السيئة لا يُحترمون، وقد حرَّم الإسلام- بعد ذلك- هذه العادات السيئة والشاذة[١].

ثانيًا : الحجـــاز

يقع الحجاز في وسط شبه الجزيرة العربية، وبينما وقعت اليمن فريسة للاستعمار الحبشي والفارسي، ووقعت الحيرة تحت سيطرة الفرس وتدينت بالمجوسية دين الفرس، كما وقعت غسَّان تحت سيطرة الروم، واقتبست الديانة المسيحية، فإن الحجاز حافظ على استقلاله، فلم يتعرض لغاصب أو محتل.

وأهم بلاد الحجاز ثلاثة هي: مكة، ويثرب (المدينة) والطائف. ولا شك أن مكة هي أهمها جميعًا، ونالت شهرة منذ وطئت أقدام الخليل إبراهيم أرضها، وازدادت شهرة مع مرور الزمن بعد بناء الكعبة، وبعد أن وُلد فيها المصطفى عليه الصلاة والسلام، وانبثق نور الرسالة المحمدية.

مكانة مكة التجارية :

لم يكن للزراعة نصيب وافر في وسط شبه الجزيرة العربية وفي المناطق المحيطة بمكة، وذلك نظرًا لقلة الأمطار بها على مدار السنة بصفة عامة، ولكن يحدث أحيانًا ن تسقط الأمطار بغزارة إلى الحد الذي تهدد فيه الكعبة المشرفة، فتكثر المراعي، ويزرع البدو الشعير والقمح والنخيل، ومع كثرة المراعي تنمو الأغنام والإبل وتكثر، وتعتبر من المصادر الهامة للثروة عند العرب.

---

(١) المرجع: كتاب القول المبين في سيرة سيد المرسلين للدكتور محمد الطيب النجار، ص٥٠ (طبعة دار اللواء).

وإذا ابتعدنا قليلاً عن مكة وجدنا منطقة الطائف على مقربة منها، تتميز بجو معتدل، ووفرة الأمطار، وكثرة البساتين وأشجار الفاكهة، ووجدنا يثرب على البُعد، حيث يكثر النخيل والأعناب، وحيث توجد جالية يهودية تعمل إلى جانب الزراعة بصناعات السلاح والصياغة وغيرها. وإلى جانب ذلك يوجد في شبه جزيرة العرب صيد البر في مختلف أجزائها، وصيد البحر حيث كانوا- وما زالوا- يستخرجون الأسماك من البحار، وكذا اللؤلؤ من شواطئ الخليج.

وأهمية مكة كانت ترتبط أساسًا بالتجارة.. إلى جانب العامل الروحي، إذ كانت مكة- منذ القدم- هي المركز التجاري للعرب، وساعد على أن تلعب مكة هذا الدور أسباب منها: هجرة كثير من اليمنيين في ظروف مختلفة، وهم أهل خبرة واسعة بالتجارة، ومنها شهرة مكة الدينية التي كانت تنمو يومًا بعد يوم بسبب وجود البيت الحرام، هذا فضلاً عن موقع مكة في منتصف شبه الجزيرة العربية تقريبًا، وأخيرًا فإنه مما دعم مركز مكة التجاري عدم توفر الزراعة أو الصناعة، واعتماد سكانها- من ثم- على التجارة كمصدر رئيسي للرزق.

وكانت طرق القوافل في شبه الجزيرة تتبع المسالك المعروفة.. حيث تتوافر آبار المياه على طول الطريق. ومن الطبيعي أن تقوم على طول هذه الطرق التجارية مجموعة من الأسواق تنزل بها القوافل التجارية، ويقبل عليها سكان هذه المناطق والمناطق المجاورة.

المجتمع المكي:

سببت هذه التجارة أرباحا كثيرة لعدد من تجار قريش منهم: أبو سفيان ابن حرب والوليد ابن المغيرة، وعثمان بن عفان، وأمية بن خلف.. وغيرهم، بينما كان يوجد إلى جوارهم جمهرة كبيرة من الفقراء والضعفاء والعبيد، **ومعنى ذلك أن مجتمع مكة كان يتكون من فئة تستأثر بالثروة والنفوذ، وإلى جوارها عبيد يتم بيعهم وشراؤهم، فهم لا يملكون حريتهم، ولا يعامل الواحد منهم كإنسان له الحق في حياة كريمة، ولا يملكون من حطام الدنيا شيئًا.**

وكان للعرب- ولا سيما أهل مكة- ولع شديد بالخمر والميسر، والموسيقى، واحترف الرقص والغناء طائفة من الجواري يقال لهم القيان (ومفردها قينة)، صار فجورهن ودعارتهن مضرب الأمثال، ومع ذلك كانت لهن منزلة رفيعة عند القوم، يظهر عليتهم ورؤساؤهم لهن علنًا كل تبجيل واحترام. **وكان من عادة العربي أن يتزوج ما طاب له من النساء دون عدد محدود، كما**

كان الابن يرث أرملة أبيه (غير الأم) فيما يرثه من تركته بعد وفاته، ومن عاداتهم التي تقشعر منها الأبدان وأد البنات[١]. وكانت النساء محرومات من الميراث بنتًا كانت أو زوجة.. بحجة أنها لا تصلح للقتال.

الديانة في بلاد العرب قبل الإسلام

كان العرب على دين إبراهيم عليه السلام، يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئًا، إلى أن طال الأمد فقست قلوبهم وبدّلوا وحرّفوا، واتخذوا الأصنام وعبدوها من دون الله. ويكاد يجمع المؤرخون أن لهذا التحول سببين: أحدهما يبين مبدأ دخول الوثنية في بلاد العرب، وثانيهما: يبين سبب انتشارها. فيقولون أن عمرو بن لحي الخزاعي، وكان له سدانة الكعبة، مرض مرضًا شديدًا، فذهب إلى البلقاء بالشام ليستحم في ماء هناك، فاستحم وبرأ مما كان فيه، ووجد أهل البلقاء يعبدون الأصنام فقال: ما هذه؟ قالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة.

ويقولون: أن الذي سلخ بالعرب إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن.. إلا احتمل معه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم.. وصبابة بمكة، فحيثما حلّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، وهم- في ذات الوقت- يعظمون الكعبة ويحجون إليها ويعتمرون، ثم انتهى الأمر إلى أنهم عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم.

وقد ذكر الله سبحانه في سورة النجم أسماء بعض الأصنام عندما قال: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ و«اللات» عبارة عن صخرة مربعة أُقيم عليها بناء بالطائف، وهي عند ثقيف تسبق كل الأصنام. و«العُزّى» كانت صنمًا يُعبد في الحجاز ويعظمونه، وكان أهم آلهتهم بعد «هُبل». أي أن هُبل كان أهم وأكبر آلهتهم... وكان من العقيق الأحمر على صورة إنسان، وكان مقره الكعبة المشرفة. وأما «مَناة» فصنم على ساحل البحر الأحمر بين مكة ويثرب، وكان العرب جميعًا تعظمه، وكانت الأوس والخزرج تقدم له الهدايا وتذبح له الذبائح.

---

(١) المرجع: سيد أمير علي، ص٤٦.

وكان العرب يعبدون الأصنام والأوثان والأنصاب، وكانوا فريقين في عقيدتهم، فبعضهم كان يعبدها على أنها (أي الأصنام) تشفع لهم عند الله.. وتقربهم إليه، وإذا سئلوا عن الخالق الرزاق يقولون: إنه هو الله، وإذا سئلوا عن الأصنام وغيرها يقولون- كما حكى القرآن الكريم-: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾. بينما كان بعضهم يعبدها على أنها هي الآلهة التي تضر وتنفع، وتعطي وتمنع، وهؤلاء هم عامتهم وضعفاء العقول فيهم، وهم الذين أخبر الله عنهم أنهم عجبوا من محمد ﷺ لأنه جعل الآلهة إلهًا واحدًا، وذلك في قوله حكاية عنهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾!

وتقول بعض المصادر: إن النور الذي أشرق على سيناء برسالة موسى، والنور الذي أضاء حياة الفلاحين والصيادين في الجليل برسالة عيسى، قد أشرق- من بعد- على ذرى فاران[١] برسالة محمد.

(١) فاران: جبل في مكة.

القسم الثاني

بزوغ فجر الإسلام

الباب الأول

الفصل الأول

ظهور الإسلام في مكة

مجتمع مكة قبل البعثة النبوية :

كان التطور السياسي والاجتماعي والاقتصادي في مكة قبل البعثة النبوية، قد تعرض لأزمة عنيفة، هزت أركان الحياة القبلية في شبه جزيرة العرب كلها، وكان قوام هذه الأوضاع هو الصراع بين الروح الفردية التي فطرت عليها النظم القبلية، وبين المحاولات التي قامت بها مجموعة من القبائل لبناء أحلاف تصلح نواة لمجتمعات سياسية كبرى، إذ بقيت القبيلة هي الوحدة السياسية الكبرى، وشيخها هو الرئيس الأعلى، دون أن تسمح النظرة القبلية الضيقة بانطلاق الأحلاف الكبرى، نحو بناء مجتمع واحد مترابط. وغدت صورة الحياة القبلية في بلاد العرب صورة بناء متداعي، فانهارت الممالك القبلية في بلاد اليمن بسبب التنافس بين الأقيال والأذواء، وخضعت لسلطان القوى الأجنبية، كما ذكرنا من قبل، وفقدت الإمارات القبلية على أطراف الهلال الخصيب سطوتها نتيجة ضيق الأفق السياسي لمشايخها، ودخولهم في حروب قبلية مريرة ومتواصلة، على نحو ما حدث بين إمارتي الحيرة والغساسنة، وانتهى الأمر بسيطرة القوى الكبرى من الفرس والروم على هاتين الإمارتين، وتحويل كل منهما إلى تابع خاضع لمناطق نفوذهما، وعجزت أيضًا المشيخات القبلية في مكة عن تحقيق الاستقرار، بسبب اندفاع قبيلة قريش وراء نزوات مشايخها من «الملأ» والعمل على جمع الثروات بشتى الوسائل، مشروعة كانت أو غير مشروعة، وغدت مكة، نتيجة وصولها إذ ذاك إلى المركز الديني والتجاري الأول في بلاد العرب، تضم مجتمعًا متناقضًا، ترسبت فيه نظم تلك القبائل، فقد ترسخت عبادة الأصنام والشرك بالله، وكان الفرد منهم يحتفظ بالعصبية القبلية في أبشع صورها.. من حيث السلب والنهب، والفخر بالأحساب والأنساب، ويعتز في نفس الوقت بالتمايز الطبقي الذي صاحب حياة الاستقرار في هذا المركز الديني والتجاري، فدأب القرشي من «الملأ» على الافتخار بعشيرته من جهة وبثروته من جهة أخرى، وجمع القرشي إلى جانب هذه الروح القبلية وعصبيتها الاعتزاز بما آل إليه من حياة الحضر، فاشتهر بحرصه على اكتناز الذهب والفضة، لأن المال المكنوز هو مقياس السمعة والمنزلة الاجتماعية، وأقبل على

الأخذ بأسباب الترف من الملبس، وشرب الخمر، ولعب الميسر، واقتناء الجواري، وتسخيرهم لخدمته، والتنافس على بناء الدور الواسعة في أرقى الأماكن. وعاش في مكة طبقة من أصحاب الثراء الواسع والترف العريض، إلى جانب جماعات يمثلون الفقر المدقع، من الساخطين الخاضعين لشتى مظاهر الاستغلال من الربا الفاحش وسوء المعاملة، **وغدت النظم القبلية أداة في يد «الملأ» من سادة قريش يسخرونها لما يحقق لهم حياة السعادة والنعيم، على حساب بؤس وشقاء الآخرين.**

ميلاد الرسول ونشأته :

وبدأت مظاهر التداعي في النظام القبلي تذوي ابتداء من سنة ٥٧١م، التي شهدت ميلاد الرسول الكريم. وفي مولده ﷺ الذي كان خيرًا وبركة على الإنسانية جمعاء، أنشد أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة الهمزية النبوية التي جاء في مطلعها:

وُلد الهدى فالكائناتُ ضياءُ ... وفَمُ الزمانِ تَبَسُّمٌ وثناءُ
الروحُ والملأُ الملائكُ حولَهُ ... للدين والدنيا به بُشَراءُ
والعرشُ يزهو والحظيرةُ تزدَهي ... والمنتهَى والسِّدْرَةُ العصماءُ
وحَديقةُ الفرقانِ ضاحِكَةُ الرُبا ... بالترجُمانِ شَذِيَّةٌ غنّاءُ
والوحيُ يقطر سلسَلاً من سلسلٍ ... واللوحُ والقلمُ البديع رواءُ(١)

وقد أثنى الحق ﷻ على سيدنا محمد في أكثر من موضع في القرآن الكريم، نذكر منها قوله تعالى:
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم: آية ٤].
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: آية ١٠٧].
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [من سورة الأحزاب].

وذكر الله تعالى سيدنا محمدًا بالاسم في أكثر من موضع فقال في الآية (٢) من سورة محمد: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾.

---

(١) الرواء: هو المروى: مصدر السقيا، أي راء الوجه وحسن المنظر.

كما قال جل وعلا في الآية (٢٩) من سورة الفتح: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾.



وقد شبَّ المصطفى ﷺ وسط الحياة القبلية التي تحدثنا عنها بإيجاز، ووقف على جميع نظمها عن كثب، وعن تجارب ذاتية عديدة هيأت له حمل الأمانة وأداء الرسالة.. لإخراج العرب من الظلمات إلى النور، وإعدادهم- في نفس الوقت- لنشر هذا الدين في جميع أرجاء العالم.

واشتهرت سنة ميلاد الرسول الكريم باسم «عام الفيل»، لأن أبرهة- حاكم اليمن الحبشي- امتدت به الأطماع إلى الإفادة من النزاع القبلي في الحجاز، وقاد حملة كان من عدتها فيل ضخم، وسار نحو مكة للاستيلاء عليها، وانتزاع السيادة الدينية من الكعبة المشرفة، وكذا انتزاع السيادة التجارية فيها من قبيلة قريش، وكان جد الرسول الكريم وهو عبد المطلب، سيد مكة، الذي شاءت المقادير أن تكرمه في عيد ميلاد حفيده، بتراجع الجيش الغازي قبل أن يدخل مكة بنصر مبين من الله ﷻ، سجله في سورة الفيل: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾ ﴾.

وكان والد الرسول الكريم من أشراف قريش وسادتها، فهو عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي. وقد توفي عبد الله والنبي في بطن أمه، ودُفن بالمدينة عند أخواله من بني عدي بن النجار. وأما أم النبي فهي آمنة بنت وهب، من بني زهرة (فرع من بني النجار) من مدينة يثرب. تزوجها عبد الله وهو في الرابعة والعشرين من عمره. وكان بنو زهرة من الأسر الشهيرة في يثرب، وكانت تعمل بالتجارة، فتذهب إلى بلاد الشام، وهي تشبه في ذلك بني هاشم بمكة، مما يدل على أن التجارة هي التي ربطت أواصر الأسرتين برباط المصاهرة.

وكان من عادة أسر مكة المعروفة في ذلك الوقت أن ترسل أطفالها إلى مرضعات من القبائل، لينشؤوا نشأة صحية، وليتعلموا اللغة العربية الفصحى وكان النبي ممن نَعِم بتلك العادة الطيبة، فدفعته أسرته إلى «حليمة» من بني سعد ابن بكر. وقد عُرف بنو سعد بفصاحة اللسان، وقد أقام محمد ﷺ في بني سعد

إلى الخامسة من عمره، ترضعه حليمة وتعني به عناية حسنة. وقد تأثر محمد ﷺ بجو البادية، حتى روي عنه أنه قال: «أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد».

ثم ذهبت حليمة بمحمد ﷺ وهو في الخامسة من عمره إلى أمه في مكة. وعاش الرسول في كنف أمه زهاء سنة، نَعِم فيها بحنان وعطف الأم، بعد أن حرم رعاية الأب. ثم خرجت آمنة لزيارة أهلها في يثرب، حيث وعدت أهلها مرارًا بزيارتهم، وذهبت به وبأم أيمن جاريتها التي خلفها لها زوجها عبد الله، وبقيت ومعها ابنها محمد ﷺ شهرًا في أهلها، ثم قررت العودة إلى مكة بعد انتهاء الزيارة، ولما كانت آمنة عند «الأبواء» وهي في طريقها إلى مكة مرضت مرضًا توفيت على أثره، ودُفنت في هذا المكان.

وقد تأثر عبد المطلب لما أصاب حفيده من مكروه، وأخذ يكرمه ويغدق عليه كل ضروب العطف والحنان للتخفيف من آلامه وأحزانه، وكان يأخذه معه، ويجلسه في مجلسه في ظل الكعبة. وشاءت الأقدار أن تزيد في آلام النبي وفي أحزانه، فما كاد يبلغ الثامنة من عمره حتى فجع بوفاة جده وهو على أبواب الثمانين من عمره، وانتقل واجب الجد في رعاية محمد ﷺ إلى عمه أبي طالب.. الذي كان يحب النبي حب عبد المطلب له، ويقدمه على أولاده.

شبابه وزواجه :

شارك عليه الصلاة والسلام وهو في الخامسة عشر من عمره في النزاع القبلي المعروف باسم «أيام العرب»، فشهد «**حرب الفجار**» التي قادتها قريش وحليفتها كنانة، بسبب الاعتداء على إحدى قوافل النعمان أمير الحيرة، وهي في طريقها إلى مكة في الأشهر الحرم، وكان عليه الصلاة والسلام ينبل على عمومته من سادة قريش، أي يجهز لهم النبل. وأعقب تلك الحرب سعي بعض رجال قريش إلى عقد حلف لنصرة المظلوم، ورد الحقوق الضائعة إلى أهلها. وتم عقد هذا الحلف في دار عبد الله بن جدعان، واشترك فيه بنو هاشم وبنو المطلب، وبنو زهرة، وبنو تميم وبنو الحارث، وحضر عليه الصلاة والسلام تكوين هذا الحلف الذي عُرف باسم «**حلف الفضول**» لإنصاف المظلوم. وقال عليه الصلاة والسلام فيما بعد: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حُمُر النعَم (أي أجود الأنعام)، ولو أُدعيّ به في الإسلام لأجبت».

وفي هذه الأثناء كان محمد قد نما وكبر، ونمت مداركه وملكاته، وترك رعي الإبل، وبدأ يتجه ببصره نحو التجارة، ولم يكن لعمه مال وفير ليتاجر فيه، بينما كان عمه أبو طالب يفكر في مستقبلِ ابن أخيه، فبلغه يومًا أن **السيدة الشريفة خديجة بنت خويلد** تستأجر رجالاً من قريش في تجارتها، فذهب إليها وعرض عليها أن تستأجر محمدًا، فوافقت على الفور. وخرج رسول الله في تجارة خديجة معه غلام لها يقال له «ميسرة» حتى نزل الشام، ثم باع رسول الله بضاعته التي خرج بها، واشترى بعد ذلك ما أراد. ولما عاد إلى مكة وإلى خديجة بمالها، باعت ما جاء به بضعف الثمن أو قريبًا من ذلك، وحدّثها ميسرة عن طلاقة محمد وحُسن تدبيره في البيع والشراء.

وقد ارتاحت خديجة كثيرًا لما سمعت عن محمد، وأعجبها فيه عمق تفكيره، وصدقه وأمانته، وحسن طويته، وبهاء طلعته. وتمنت أن يكون لها زوجًا، فتم لها ذلك.. عن طريق سيدة توسطت في الأمر. وكانت أول سيدة تزوجها رسول الله ﷺ وهو في سن الخامسة والعشرين، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت. فولدت لرسول الله ولده كلهم إلا إبراهيم فمن مارية القبطية، فأما أولادها فهم: القاسم وبه كان يتكنى ﷺ والطاهر أو الطيب، ورقية، وزينب، وأم كلثوم، وفاطمة.. على الترتيب.

ولا شك في أن الرسول كان بعد زواجه من السيدة خديجة يتمتع بحياة عائلية دافئة كلها دعة وهدوء واستقرار، فقد أغناه الله بمال خديجة، وكانت له نعم الزوج الوفية، وكانت عوضًا له عن حنان الوالدين، فقد بادلته حبًا بحب، ووفاء بوفاء، وعطفًا بعطف، فكانت الودود الولود التي أنجب منها الولد، وعرف معها حياة الاستقرار والدعة.

واشتهر الرسول الكريم قبل البعثة بالنبل والترفع عن الخطايا، والإقبال على الأعمال الطيبة والسجايا الحسنة، فكان الناس يألفونه ويثقون فيه، ويتركون أموالهم أمانة لديه، وأطلقوا عليه أفضل الأوصاف، منها بصفة خاصة: صفة الصادق، وصفة الأمين، وقبلوا النزول على حكمه في حسم المشاكل. وشهد عليه الصلاة والسلام وهو في الخامسة والثلاثين من عمره تجديد قريش للكعبة، واختلاف سادة مكة فيما بينهم حول من ينال شرف **وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة**. واستطاع بحكمته الفطرية أن يحل هذا التنافس الشديد، بأن بسط رداءه ووضع فيه الحجر الأسود، ثم طلب من المشايخ المتنازعين (وهم أرستقراطية قريش) أن يأخذ كل منهم بطرف من الرداء، دلالة على وقوفهم

جميعًا على قدم المساواة واشتراكهم في نقل هذا الحجر إلى موضعه ثم تناول الرسول الكريم الحجر بيده الشريفة، ووضعه في موضعه بالكعبة.

نـزول الوحـي

اتفق الباحثون على أن محمدًا لم يعبد صنمًا قط، وأبغض الله إليه الأوثان، وعبادات قومه، وكان يخلو إلى نفسه ويفكر في الكون وصانعه، ولم يكتف قبل البعثة بالبُعد عن الأصنام، بل كان ينهى عن عبادتها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ثم حبب الله إليه التحنث (أي التعبد)، فكان يختلي في غار حراء، وهو غار في جبل حراء يقع في ضواحي مكة، إنما يلقى الإنسان مشقة للصعود إليه لارتفاع قمته، هناك كان محمد يذهب كل سنة شهرًا (هو شهر رمضان) متفرغا للعبادة والذكر، والراجح أنه كان يتعبد على دين إبراهيم عليه السلام، فكان يأخذ معه ما يحتاج إليه من طعام وشراب، حتى إذا نفد عاد قافلاً إلى بيته للتزود بحاجته، مارًا بالكعبة في طريقه للطواف حولها.

وبينما كان محمد يتعبد في غار حراء في أواخر شهر رمضان إذ جاءه الروح الأمين جبريل عليه السلام فقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال عليه السلام وهو يقص ما حدث: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني، ثم أعاد الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾.

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة، فقال زملوني.. زملوني (أو دثروني.. دثروني) فزملوه (أو دثروه) حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وقد أخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: «كلا، والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتقري الضعيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق (أو الدهر)».

وقد ألهب حدث نزول الوحي خواطر الشعراء، فكان من بين ما قاله الإمام محمد البوصيري في بُردة المديح ما يلي:

هو الحبيب الذي تُرجى شفاعَتُهُ لكل هَولٍ مـن الأهـوالِ مُقـتَحَمِ
دعـا إلى الله فالمستمسكون به مستمسكون بحبلٍ غيـر مُنفَـصِمِ
فاق النبيين في خَلقٍ وفي خُلُقٍ ولم يـدانوه فـي علـمٍ ولا كـرمِ
وكلهم من رسول الله مُلـتمسٌ غرْفًا من البحـرِ أو رَشْفًا من الدِّيَمِ
وكيفِ يُدرك في الدنيا حقيقَتَـهُ قومٌ نيـامٌ تَـسلّوا عنـه بـالحُلُمِ
فمبلغ العلـمِ فيـه أنـه بَـشَرٌ وأنـه خيـرُ خَلـقِ اللهِ كلِّهـمِ
وكل آيٍ أتى الرسلُ الكرامُ بها فإنما اتـصلت مـن نـورِهِ بهـمِ
فإنه شمسُ فضلٍ هُم كواكِبُهـا يُظهِرن أنوارها للناس في الظُّلَـمِ

كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته نهج البردة:

ونودي اقرأ تعـالى الله قائلهـا لم تتصل قبل من قيلـت لـه بفـمِ
هنـاك أُذن للـرحمن فـامتلأت أسماعُ مكـةَ مـن قُدسـية الـنغَمِ
فلا تسل عن قريش كيف حيرتها وكيف نفرتها في الـسهل والعلـمِ
فاق البدور وفاق الأنبيـاء فكـم بالخلق والخلق من حُسن ومن عِظَمِ
جاء النبيون بالآيات فانـصرمت وجئتنا بحكـيم غيـر منـصـرم
آياته كلما طـال المـدى جُـدُدُ يُـزينهن جـلالُ العتـق والقِـدم
بكل قـولٍ كـريم أنـت قائلُـه تحيي القلوب وتحيي ميِّـت الهمـم

ولا شك أن الوحي جاء بأمرين عظيمين جليلين هما: الإسلام، والقرآن.

مجتمع مكة بعد الإسلام :

جاهد الرسول الكريم في مكة على أن يرسي القواعد التالية وفق ما جاء بها القرآن الكـريم:

أولاً : الدعوة إلى وحدانية الله، خالق كل شيء، واتخاذ هـذه العقيـدة الدينية الأساس لبناء مجتمع جديد، له نظمه ومثله العليا، التي تقف على طرفـي نقيض مع المجتمع القبلي، وما سيطر عليه من نظم وتقاليـد وليـدة العـصبية، واقترنت الدعوة إلى وحدانية الله بضرورة إعمال الفكر، وعدم الجري والانقيـاد الأعمى لما تدعو إليه النظم القبلية من تمسك بتراث الآباء والأجداد.. ولو كانوا على غير هدى.

ثانيًا : تأكيد فكرة البعث والحساب بعد الموت، حيث ينال الإنسان إما جنة الخلد أو عذاب النار، حسب ما قدمت يداه في الحياة الدنيا، واستهدفت هذه العقيدة الإطاحة بمفهوم بالٍ من مفاهيم الحياة القبلية، وإقرار مبدأ جديد للمجتمع الإسلامي الوليد، فمسئولية المرء في عقيدة البعث والحساب بعد الموت مسئولية فردية، حيث يجزى الإنسان بما كسبت يداه، فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره.

ثالثًا : اتخاذ التقوى أساسًا لبناء قيم أخلاقية سامية بدلاً من العصبية القبلية، وتتسع في نفس الوقت لا لتشمل العرب فحسب، بل وجميع الأمم المجاورة لهم أيضًا. فالتقوى في الإسلام تقرر مقاييس أخلاقية جديدة لبناء مجتمع لا تسوده المقاييس القبلية، والله ﷻ خلق الخلق وقال لهم: إن أكرمكم عند الله أتقاكم. قال تعالى في الآية (١٣) من سورة الحجرات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾، فالشعوب والقبائل في الإسلام ليست وحدات منعزلة، وإنما هي تكون مجتمعات يستوي الناس فيها أمام الإسلام بصرف النظر عن أصلهم وجنسهم، وأن الفارق بين الناس هو فارق أخلاقي لا يقوم على أساس الوراثة كما دعت إليه العصبية القبلية، وأن كل فرد ينال ما يشاء من رفعة، لا على أساس الحسب والنسب والثراء، ولكن على قدر كسبه وبره وتقاه.

رابعًا: التأكيد على وحدة الرسالات، وأنها تستمد تعاليمها جميعًا من نبع واحد هو الله ﷻ، وذلك للقضاء على تعدد المعتقدات في الحياة القبلية، وما صاحب نظمها الدينية من وثنية وشرك، فأوضح القرآن الكريم أن الدعوة الإسلامية تصديق لما جاء في الكتب السماوية، ودعوة للعرب خاصة باتباع ملة أبيهم إبراهيم، فقال تعالى في الآية (١٣) من سورة الشورى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾[١].

---

(١) المرجع: كتاب «تاريخ العالم الإسلامي» للدكتور إبراهيم أحمد العدوي، ص٥٠-٥٢.

الفصل الثاني
إقامة المجتمع الفاضل في المدينة

منذ أول يوم استقر فيه الرسول ﷺ في يثرب بدأ يؤسس الدولة الإسلامية الكبرى التي أذن الله لها فيما بعد أن تمتد في كل اتجاه، وتضم بين ذراعيها أقوى دولتين كانتا تتحكمان في هذا العالم وهما: دولة الفرس ودولة الروم.

وقامت الدولة على أسس متينة من الإيمان والإخاء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبدأ الرسول نشاطه في يثرب بعدد من الأعمال الهامة في تأسيس الدولة هي:

أول العهد بيثرب

اتجه نشاط الرسول إلى ما يلي بصفة خاصة:

١- بناء المسجد النبوي.
٢- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.
٣- التأليف بين الأوس والخزرج (وهما القبيلتان الأكبر في المدينة).
٤- التأريخ بالهجرة.
٥- الأذان للصلاة بصيغة معينة.
٦- تحويل القبلة إلى الكعبة الشريفة بعد أن كانت إلى بيت المقدس.
٧- عقد معاهدة مع اليهود وتحرير ما يُعرف بـ«الصحيفة».
٨- إعداد المسلمين للجهاد والإنفاق في سبيل الله.

ونعطي بيانًا موجزًا لكل من الفقرة (٧) والفقرة (٨):

المودة والتعاهد مع اليهود:

بعد أن فرغ الرسول ﷺ من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، والتأليف بين الأوس والخزرج، اتجه بصره إلى اليهود الذين يقيمون بيثرب، فقد كان يهود بني قينقاع يقيمون بالمدينة، وكان يهود بني النضير ويهود بني قريظة يقيمون على مقربة منها.

وكان اليهود قد وفدوا إلى يثرب هربًا من الاضطهادات التي حلت بهم في أزمنة مختلفة.. خاصة ما حل بهم على يدي بختنصر، وما أعقب ذلك من السبي البابلي، فقد فروا هاربين من التقتيل والأسر والاضطهاد، واختاروا وادي يثرب لأنها منطقة تصلح للزراعة وللنشاط الاقتصادي بصفة عامة، فكانوا

يمارسون الزراعة، ويمتلكون معظم بساتين يثرب، كما كانوا يشتغلون بصياغة الذهب، وصناعة المعادن خاصةً السيوف والدروع، فضلاً عن الاستغلال بالإقراض بالربا الفاحش.

وعندما حدث سيل العرم في اليمن هاجر الأوس والخزرج إلى يثرب وسكنوا في وسطها إلى جوار اليهود الذين كانوا أسبق منهم في تعمير هذه المنطقة.

ولما هاجر الرسول إلى يثرب (وتحول اسمها بعد الهجرة إلى المدينة المنورة) أحسن اليهود استقبال الرسول أول الأمر.. أملاً في استدراجه إلى صفوفهم، وقد بادر عليه الصلاة والسلام إلى رد تحيتهم بمثلها، وإلى توثيق صلاته بهم، فتحدث إلى رؤسائهم، وتقرب إلى كبرائهم، وربط بينه وبينهم برابطة المودة.. باعتبار أنهم أهل كتاب موحدون، وبلغ من ذلك أن كان يصوم صومهم (يوم عاشوراء) وكانت قِبلَته في الصلاة ما تزال إلى بيت المقدس قبلة أنظارهم، وما كانت الأيام لتزيده باليهود إلا مودة وقربى، كما أن سيرته وعظيم تواضعه، وجميل عطفه، وحسن وفائه، وفيض بره بالفقير والبائس والمحروم، كل ذلك كان دافعًا إلى عقد معاهدة صداقة وتحالف مع اليهود(١).

فقد كتب الرسول ﷺ معاهدة بيَّن فيها حقوق المسلمين وواجباتهم، وحقوق اليهود وواجباتهم، وكان أساس هذه المعاهدة الأخوة في السلم، والدفاع عن المدينة وقت الحرب، والتعاون التام بين الفريقين إذا نزلت شدة بأحدهما أو كليهما.

وقد جاء في هذه المعاهدة: «وأن اليهود أمة من المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ومن ظلم أو أثِم منهم فإنه لا يوتغ (لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته. وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة(٢)، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأن ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وأن من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثِم، وأن الله جار لمن برَّ واتقى».

وقد أقرت الصحيفة بأن الرسول هو الرئيس الأعلى لسكان المدينة، وتعرض عليه القضايا الكبرى، وصور الخلاف بين طائفة وأخرى ليفصل فيها.

---

(١) الدكتور محمد حسين هيكل في كتاب «حياة محمد».

(٢) أهل هذه الصحيفة: أي أطراف هذه المعاهدة وهم المسلمون واليهود.

وقد كتب رسول الله ﷺ بعد هذه المعاهدة معاهدات خاصة مع باقي اليهود، تتجه إلى هذه الأهداف، وتدور حول تلك الأغراض.

وقد دلّت هذه المعاهدات على سمو تفكير الرسول ﷺ وحسن سياسته وبُعد نظره، **فهي تقرر حرية العقيدة، وحرية الرأي، وحرمة المدينة، وتحرم الجرائم، وتحارب الظلم والإثم**، وقد وضعها رسول الله ﷺ في العام الأول الهجري، أي منذ ما يتجاوز أربعة عشرة قرنا من الزمان، ولكنها لا تزال إلى هذا العصر الذي نعيش فيه نبراسًا يهتدي به الساسة والقادة إذا اضطربت الأمور، واتجهت الأنظار إلى توثيق العلاقات وتدعيم الثقة بين الأطراف.

وكان يمكن أن يعيش المسلمون واليهود في سلام وأمان في ظل هذه المعاهدات، إلا أن اليهود- للأسف- غدروا وخانوا، ونقضوا العهود والمواثيق، مما حدا بالمسلمين إلى تغيير أسلوب التعامل معهم، و ردّ العدوان بالعدوان.

إعداد المسلمين للجهاد والإنفاق في سبيل الله :

جاء محمد ﷺ بدين جديد، ينشئ مجتمعًا جديدًا مثاليًا في عقيدته وعبادته ونظمه، وأخذ يدعو إلى الإسلام سرًا أول الأمر، فلما زاد عدد المسلمين، ونزل أمر الله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ جهر بالدعوة، فتصدى له المشركون من قريش يكذبونه ويؤذونه، وهو- ومن تبعه من المسلمين- يصبر على الأذى والتكذيب، ويبين لهم ما في دعوته من حق وخير.

ثم تحداهم بالقرآن أن يأتوا بسورة من مثله، فإذا عجزوا كان عجزهم برهانًا على أنه من عند الله، وأنه نبي مبعوث إليهم بهذا الدين الجديد، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يأتوا بمثله، وفي نفس الوقت لم يصدقوه، بل تمادوا في غيهم وعنادهم واستكبارهم، واتخذ الأذى والتكذيب صورًا متعددة، إلا أن الرسول الكريم صبر على الأذى، ولم يقابل التعذيب والتنكيل بمثله، وكان الرسول يقول دومًا: لم أومر بقتال، وكانت الآيات التي نزلت تؤكد أن الرسول غير مطلوب منه سوى البلاغ، وأن يترك الباقي لله.. وعلى الله!!

وبعد أن أصبح المسلمون قوة في المدينة، كان لزامًا أن يهبوا للدفاع عن أنفسهم، كما أصبح لزامًا عليهم أن يواجهوا طغيان قريش واضطهادهم وأذاهم التي كانت تتربص بهم الدوائر رغم هجرتهم وتركهم عشيرتهم وديارهم في مكة، وكانت تتوجس منهم خيفة، لئلا يقطعوا طريق تجارتهم بين مكة والشام.

ولم يكن الأمر مجرد دفاع عن الدين وعن العقيدة فحسب، بل كان فضلاً عن ذلك: جهاد في سبيل الله، وحمل السلاح لنصرة الدين، والذود عن الديار.

وقد أوضح الرسول الكريم حدود الأمر بالقتال والجهاد في سبيل الله فقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله لا الله، فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

وعندما كتب الله على المسلمين القتال، فتح أمامهم باب الجهاد، ووعد من يموت شهيدًا في سبيل الله بالجنة والثواب العظيم، ونزلت آيات كثيرة تحث على الجهاد في سبيل الله، منها قوله سبحانه في الآية (١٤٢) من سورة آل عمران: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

وقال في الآية (٢٠) من سورة التوبة: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾.

وقال في الآية (٤١) من ذات السورة: ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

ويلاحظ أنه في الآيتين طالب المسلمين بالجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، وقدم الأموال قبل الأنفس، مما يؤكد أن الجهاد يكون بالمال والنفس.

وقال في الآية (٣٥) من سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾. والجهاد - كما ذكرنا - يكون بالمال والنفس..

وعن تثبيت الرغبة في الجهاد وتقويتها.. يقول رسول الله ﷺ: «لغدوة أروحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها» ويقول: «رباط يوم في سبيل الله خير مما طلعت عليه الشمس»، ويقول: «من قاتل في سبيل الله وجبت له الجنة».

ومن الناس من لا يقوى على خوض المعارك لهرم أو ضعف أو ما شابه ذلك، وهؤلاء يحثهم الرسول على مساعدة المجاهدين ماديًا ما استطاعوا، وفي ذلك يقول ﷺ: «مَنْ جهَّز غازيًا كان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجر الغازي شيئًا»[١].

---

(١) من كتاب: محمد أعظم البشر ﷺ ، مرجع سابق.

الباب الثاني

حقـوق الإنسان في الإســـلام

تمهـــــيد :

لا شك في أن حقوق الإنسان في الإسلام كثيرة ومتنوعة، لذا رأينا- قدر الإمكان- تقسيمها عناوين عريضة، يتناول كل عنوان منها فرعًا مـــن فـــروع حقوق الإنسان، وتراءى لنا أن أفضل تقسيم هو كالآتي:

الفصل الأول : حق الحياة والحرية السياسية.

الفصل الثاني : الحريات الدينية والفكرية والمدنية.

الفصل الثالث : الحق في العدالة والمساواة والتقاضي.

الفصل الرابع : حقوق المال والاقتصاد والعمل.

الفصل الخامس: العلم.. والعلماء.

الفصل السادس: المرأة والأسرة والطفل.

الفصل السابع : الهجرة واللجوء والأقليات.

وندخل في التفاصيل- بعون الله- تبيانًا لكل حق.



مقـــــدمة:

في العام العاشر الهجري قام الرسول ﷺ بأداء فريضة الحـــج، وفـــي اليوم التاسع من ذي الحجة توجه إلى عرفات، وفي هذا اليوم الخالد، وقف رسول الله ﷺ وألقى على المسلمين خطبته الجامعة.. وهي خطبة الوداع.

خطبة الوداع:

ألقى الرسول خطبته الجامعة التي بيَّن فيها أصول الدين ومبادئه وآدابه، حيث قال: «الحمد لله.. نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله مـــن شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورســـوله، أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعد: أيها الناس: اسمعوا مني أُبيِّن لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

إن ربا الجاهلية موضوع[١]، وإن أول ربا أبدًا به ربا عمي العباس بـــن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن مآثر الجاهلية موضوعة، غير السدانة والسقاية.

والعمد قود (أي من قتل عمدًا يُقتل)، وشبه العمـــد مـــا قُتـــل بالعـــصا والحجر.. وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضـــي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس إنما النسيء[٢] زيادة في الكفر، يُضل به الذين كفروا، يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ليواطئوا عدة ما حرَّم الله. وإن الزمان قد استدار كهيئتـــه

---

(١) موضوع: أي مهدر لا قيمة له ولا يعترف الإسلام به.

(٢) النسيء: هو تأخير حرمة الشهر إلى الشهر الذي يليه، وكانت العرب تفعل ذلك.

يوم خلق السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله.. يوم خلق السماوات والأرض، منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات وواحد فرد: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت، اللهم فاشهد.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقًا، ولكم عليهن حق: ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن[١] وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان[٢]، ولا يملكن لأنفسهن شيئًا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرًا، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، فلا ترجُعن بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعدي: كتاب الله.. وسنة نبيه، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على أعجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس: إن الله قد قسَّم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا تجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش.. وللعاهر الحجر[٣]، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل[٤]، والسلام عليكم ورحمة الله»[٥].

---

(١) العضل: هو الحبس والتضييق.
(٢) عوان: جمع عانية وهي الأسيرة.
(٣) أي ينسب الولد إلى أبيه، أما العاهر وهو الزاني فليس له شيء، وقيل إن معنى وللعاهر الحجر أي الرجم بالحجارة.
(٤) الصرف هو التوبة والعدل الفدية.
(٥) المرجع: السيرة النبوية لابن هشام، ص٢٥١ من الجزء الرابع.

من هذا الحديث الشريف- وهو وثيقة هامة في مجال حقوق الإنسان- يمكن أن نستخلص منها بعض الحقوق التي دعا إليها الرسول ﷺ.. ومنها:

- حرية النفس والدماء.
- حرمة المال والعرض.
- التسامح والعفو عن الدماء في الجاهلية.
- التحرير الاقتصادي للمجتمع من آثار الربا.
- التوصية بحسن معاملة المرأة والعناية بها.
- المساواة الكاملة بين الناس في كل زمان ومكان، بصرف النظر عن اللون أو الجنس أو المكانة الاجتماعية.
- حرمة النفس البشرية والنهي عن القتل العمد وشبه العمد.
- ضرورة احترام أحكام الميراث والوصية في القرآن.

ويتبين من هذا الحديث مدى حرص الإسلام على حقوق الإنسان وكرامته، وتقديم التوجيه لما يكفل للبشر حياة سعيدة، ونظم رشيدة، تضمن للإنسان العيش في هدوء وسلام واستقرار وأمان.

ويمكننا اعتبار هذا الحديث أساسًا تنبني عليه مختلف الحقوق والحريات، التي سنتناولها تفصيلاً فيما يلي:

الفصل الأول
حق الحياة .. والحرية السياسية

نجمع في هذا الفصل بين حق الحياة وحق الحرية السياسية، ومع أن لكل منهما مجاله وتطبيقاته، إلا أنهما مرتبطان ويكمل كل منهما الآخر، وهما معًا من أهم الحقوق التي كفلها الإسلام العظيم، وبسط مظلتهما على كل إنسان على وجه الأرض، كبيرًا كان أو صغيرًا، غنيًا كان أو فقيرًا، رجلاً كان أو امرأة، من المسلمين أو من غير المسلمين.

ومع ذلك فقد رأينا أن نتحدث عن كل منهما على حدة، فنبدأ بالحق الأول وهو حق الحياة والسلامة والأمن:

(أ) حق الحياة والسلامة والأمن

وهب الله نعمة الحياة للإنسان، وجعل الحفاظ عليها وصيانتها من أي مكروه في طليعة الأهداف التي أقرها وتمسك بها، وتحدث بها القرآن الكريم، كما وردت بها السنة المطهرة على صاحبها الصلاة والسلام.

إن القرآن الكريم يعد إزهاق الروح جريمة ضد الإنسانية كلها، ويعد الحفاظ عليها من الهلاك نعمة على الإنسانية كلها.. قال تعالى في الآية (٣٢) من سورة المائدة: ﴿.. أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾.

وتوكيدًا لحق الحياة حتى لا يضار فيها أحد يقول الرسول ﷺ: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم»[١].

وقد ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة كي يغرس في النفوس تقديس حق الحياة. فإن العرب منذ بعثة إبراهيم الخليل كانوا يقدسون الكعبة، ويشدون إليها الرحال من أقصى الآفاق. فتأمل كيف وقف النبي ﷺ أمام هذه الكعبة يقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، وما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك: ماله.. ودمه»[٢].

ومرة أخرى ينوه الرسول بقداسة حق الحياة، فيعمد إلى استثارة المشاعر

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه ابن ماجه.

نحو ما تواضع المسلمون وغيرهم على إجلاله وهو الشهر الحرام والبلد الحرام، فيسمعه الناس يخطب في حجة الوداع، فكان من بين ما قاله (بعد الإشارة إلى الشهر الحرام «ذو الحجة» والبلد الحرام «مكة»): «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم. ألا لا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد».

إن أصداء هذه الصيحات الحانية الحذرة لا تزال ترن في الآذن والأفئدة، تضفي صيغة القداسة على دم الإنسان وماله وعرضه، وتجعل المحافظة على حق الحياة في مستواها الأعلى متصلة بعنوان الإسلام وحقيقته، فـ«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».

وقد اعتبر الإسلام الجماعة مسئولة عن حماية هذا الحق، ومن هنا وجب على الجماعة أن تتعاون بينها لشد أزر من يُعتدى عليه والوقوف بجانبه حتى يتم استنقاذه مما يراد به.

ولا عجب فيما ذكرناه، فإن إشقاء حيوان وإزهاق روحه ظلمًا يعده الله- العدل الرحيم- جريمة يدخل فيها الإنسان النار. قال رسول الله ﷺ : «دخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعًا، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»(١).

وعلى العكس من ذلك، فقد روى النبي ﷺ «أن رجلاً أصابه ظمأ شديد، فنزل بئرًا ليرتوي من مائها، فلما خرج منها رأى كلبًا يلهث يلحس الثرى من العطش، فقال: لقد أصاب الكلب من الظمأ مثل الذي أصابني، فنزل البئر وملأ خفَّه وسقى الكلب، فشكر الله له.. فغفر له»(٢).

أرأيت كيف أن إراحة حيوان وحفظ حياته باب إلى رضوان الله؟، وكيف أن إتعاب حيوان وإهدار حياته باب إلى سخطه؟

فإذا كانت هذه هي نظرة الإسلام إلى قيمة الحياة في المخلوقات الدنيا، فما تكون عنايته وجائزته لمن يدعم حق الحياة بين الناس؟ وما تكون نقمته

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

وعقوبته لمن يستهين بهذا الحق؟[١].



إن الحياة الكاملة مصونة، والاعتداء عليها بالقتل جريمة، وكذلك الاعتداء على جزء منها، وتعريضه للتلف أو التشويه، فذلك كله في نظر الإسلام عدوان، أساس العقوبة فيه القصاص، وإنما شرع القصاص تأمينًا للسلامة المطلقة بين الناس، وهذا معنى قوله تعالى في الآية (١٧٩) من سورة البقرة: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

وقد وصلت الشريعة الإسلامية في مبلغ حرصها على حماية الأنفس إلى شأو رفيع لم تكد تصل إلى مثله أية شريعة أخرى، ويبدو حرصها هذا أوضح ما يكون في العقوبات الدنيوية والأخروية التي تقررها في جميع حالات القتل، حتى في حالة القتل الخطأ وما في حكمه.

ففي حالة القتل العمد تقرر الشريعة الإسلامية أقسى عقوبة وهي عقوبة الإعدام (القوَد)، ولا ينظر الإسلام إلى هذه العقوبة على أنها انتقام من القاتل وقصاص للعدالة فحسب، بل ينظر إليها كذلك على أنها وسيلة للزجر، وصيانة لحياة الأفراد، وضمان لاستقرار العمران الإنساني. ولا يفرق الإسلام في ذلك بين أن يكون القتيل رجلاً أو امرأة، بالغًا أو صبيًا، عالمًا أو جاهلاً، شريفًا أو وضيعًا، مسلمًا أو ذميًا، وذلك لعموم قوله تعالى في الآية (٤٥) من سورة المائدة: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾.

وتقرر الشريعة الإسلامية بجانب عقوبة القصاص في القتل العمد عقوبات دنيوية أخرى، منها حرمان القاتل من ميراث القتيل ومن وصيته إن كان مستحقًا لأحدهما، ولا يكتفي الإسلام بهذه العقوبات الدنيوية جميعها، بل يتوعد كذلك القاتل بغضب من الله ولعنة وأشد عذاب مقيم في الآخرة، قال تعالى في الآية (٩٣) من سورة النساء: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾.

ومع أن الشريعة الإسلامية تقرر أن الفرد لا يعاقب إلا على ما يحدثه عن قصد وإرادة، وأنه قد رفع عن أمة محمد الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، فإنها تخرج عن هذه القاعدة في القتل على الأخص، فتعاقب على نوعين

---

(١) المرجع: كتاب «حقوق الإنسان» لفضيلة الشيخ محمد الغزالي، ص٤٦ وما بعدها.

من القتل غير المقصود، أحدهما: القتل الخطأ، والآخر القتل الشبيه بالخطأ.

أما القتل الخطأ فهو الذي ينجم عفوًا في صورة مباشرة عن عمل قد حدث عن قصد، كأن يرمي إنسان هدفا أو صيدًا فينحرف السهم فيصيب آدميًا فيقتله، أو كان يرمي شيئا يظنه صيدًا فإذا هو آدمي[١].

أما القتل الشبيه بالخطأ فهو ثلاثة أنواع لا مجال للدخول في تفاصيلها الآن.

والمسلم وغير المسلم سواء في حرمة واستحقاق الحياة، والاعتداء على المسالمين من أهل الكتاب هو في نكره وفحشه كالاعتداء على المسلمين، وله سوء الجزاء في الدنيا والآخرة.

وعن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة»[٢]، وفي رواية أخرى: «من قتل قتيلاً من أهل الذمة حرَّم الله عليه الجنة»[٣].

وإن تعريض المسلم لأي فزع جريمة، وحق الحياة الآمنة من المخاوف والمظالم لابد من إثباته في حياة الجماعة. قال رسول الله ﷺ : «لا يحق لمسلم أن يروع مسلمًا»[٤]. وفي رواية: «لا تروعوا المسلم فإن روعة المسلم ظلم عظيم»[٥]. وعندما يكون التخويف مقرونا بسلاح فإن الإثم يتضاعف؛ قال رسول الله ﷺ: «لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده، فيقع في حفرة من النار»[٦].

وإن خذلان المسلم شيء عظيم، وهذا التخاذل جر على المسلمين الذلة والعار، وقد حاربه الإسلام حربًا شعواء، قال رسول الله ﷺ: «لا يقفن أحدكم موقفا يُضرب فيه رجل ظلمًا، فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدافعوا عنه»[٧]. وروي عن النبي ﷺ: «من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه.. ثبَّت

---

(١) من كتاب الدكتور علي عبد الواحد وافي بعنوان: حقوق الإنسان في الإسلام، ص٢٠٠.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه النسائي.
(٤) رواه أبو داود.
(٥) رواه البزاز.
(٦) رواه البخاري.
(٧) رواه الطبراني.

الله قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام»(١).

وقد حرَّم الإسلام كل عمل ينتقص من حق الحياة، سواء أكان هذا العمل تخويفًا أو إهانة أو ضربًا أو اعتقالاً، أو تطاولاً أو طعنًا في العرض، فإن حياة الإنسان المادية والأدبية موضع الرعاية والحماية والاحترام. قال عليه الصلاة والسلام: «ظهر المسلم حمى إلا بحقه»(٢).

وليس هذا التحذير بالنسبة إلى المسلمين وحدهم، فقد روى هشام بن حكيم أنه مرّ بالشام على أناس من الأنباط، وقد أقيموا في الشمس وصُبَّ على رءوسهم الزيت، فقال: ما هذا؟

قيل: يعذبون في الخراج (أي لأنهم لم يدفعوا الخراج).

فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا»(٣).

ودخل على الأمير فحدثه فأمر بهم فحلوا.

ذلك أن الإسلام يحب إشاعة الطمأنينة التامة في أكناف المجتمع، بحيث ينال الإنسان- مسلمًا كان أو غير مسلم- نصيبًا موفورًا من طمأنينة الحياة واستقرارها(٤).



والأمن مبدأ هام في حياة الإنسان، ولا يتوفر الأمن للإنسان بمجرد ضمان أمنه على حياته فحسب، بل هو كذلك يحتاج الأمن على ممارسة شعائر عقيدته التي يؤمن بها، وعلى هويته الفكرية والثقافية، وعلى موارد حياته المادية، وعلى استقراره وسعادته في مسكنه وأولاده. فالإسلام ينظر إلى الأمن بمفهومه الشامل الذي يحتاج إليه الفرد والمجتمع، ولقد وردت كلمة الأمن وما يُشتق منها في القرآن الكريم في مواضع كثيرة. يقول الله ﷻ عن الأمن داخل الحرم الشريف كمثال للأمن.. ما جاء في الآية (٩٧) من سورة آل عمران: ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾. وقال الله تعالى عن الأمن

---

(١) رواه الأصبهاني.
(٢) رواه الطبراني.
(٣) رواه مسلم.
(٤) الإمام محمد الغزالي، مرجع سابق.

بمعنى الأمان من الخوف في سورة قريش: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾.

وقال ﷻ في الآية (٥٥) من سورة النور: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾.

بل وجعل الأمن نعمة كبرى يجنيها الإنسان بالإيمان، ويجب أن يشكر الله عليها، قال الله سبحانه في الآية (١١٢) من سورة النحل: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾.

وفي السُّنَّة النبوية الشريفة ما يؤكد أهمية الأمن في حياة الإنسان وفي الجماعة التي يعيش فيها. قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم معافى في جسده.. آمنًا في سربه.. عنده قوت يومه.. فكأنما حيزت له الدنيا»(١).

وهذا هو المفهوم الشامل للأمن، الأمن على نفس الإنسان وعلى مسكنه، فلا يقتحم في أي وقت إلا بإذنه وعلمه وبسبب واضح حتى يضمن الاستقرار، ويضمن كذلك معيشة كريمة؛ فجعل الرسول الكريم تحقيق هذا الأمن لدى الإنسان بمثابة مُلك الدنيا بأسرها. وكان من دعائه حين يصبح وحين يمسي: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي.. وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدَّي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي. (قال: يعني الخسف)»(٢).

وفي الوثيقة (الصحيفة) التي كتبها رسول الله لأهل المدينة والمهاجرين واليهود.. عند قيام الدولة الإسلامية، نصت صراحة على الأمن بمختلف أوجهه وأشكاله، فقالت الوثيقة: «من خرج من المدينة فهو آمن، ومن قعد بالمدينة آمن، إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن برَّ واتقى»، فالأمن يتحقق في الدولة الإسلامية لجميع المسلمين وغير المسلمين، في خروجهم من المدينة وسفرهم لأي جهة أو بقائهم، كل ذلك من غير ظلم ولا إثم، وهذا هو الأمن العادل، أي أن الأمن يكون من خلال العدالة الشاملة الكاملة.

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه الإمام أحمد.

حتى عند فتح مكة، التي دخلها الرسول ﷺ بعد أن هاجر منها قبل ذلك بثمانية أعوام، فلقد أعطى الأمان لأهل مكة سواء آمنوا أو لم يؤمنوا، فقال لهم ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن». فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

وفي هذا السياق نلاحظ أن العهد الذي كتبه عمر بن الخطاب لأهل القدس قال فيه ما يعني الأمان التام فقد «أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتهم، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا يُنتقص منها ولا من حيِّزها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم ولا يضار على أحد منهم، ولا يُسكن بإيلياء (القدس) معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وأن يخرجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أراد من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم». وهذا العهد يوضح منتهى الأمان لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي.. مما يُعلي من قيمة الأمن(١).

كما جاء في معاهدة عمرو بن العاص لأهل مصر: «هذا ما أعطى عمرو بن العاص لأهل مصر من الأمان على أنفسهم وأموالهم وملتهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليها شيء من ذلك ولا يُنتقص».

ومحاولة الإخلال بأمن الفرد والمجتمع عن طريق ارتكاب الجرائم والنهب والسلب وإرهاب الناس، ونزع شعورهم بالأمن، جزاؤه عظيم جدًا في الدنيا والآخرة، وهذا العذاب تعظيم من الله لقيمة الأمن والاستقرار، قال تعالى في الآية (٣٣) من سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

فذلك العقاب يكفل الأمن للفرد والمجتمع، لأنه حد قاطع فاصل قوي

---

(١) المرجع: كتاب «حقوق الإنسان العامة في الإسلام»، تأليف: الشيخ منصور عبيد والدكتور إسماعيل عبد الكافي، ص٢٤٦.

يستحقه كل من يُروع حياة الآمنين، وينغص عليهم أمنهم ويهدد استقرارهم.

وانساقًا مع هذه القواعد التي وضعها الإنسان منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، نصت المادة (٣) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر سنة ١٩٤٨ (فقط سنة ١٩٤٨) بأنه (لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه)، فانظر كيف كان الإسلام أسبق بمئات القرون في تقريره لحقوق الإنسان، والالتزام بها في التطبيق.

(ب) الحرية السياسية

يُقصد بالحرية السياسية أن تكون الأمة مصدر السلطات، ومن أهم الحقوق التي يجب أن تُمنحها الأمة حتى تكون مصدرًا للسلطات أن يكون لأفرادها- عن طريق مباشر أو عن طريق ممثليهم- الحق في اختيار الحاكم، والحق في مراقبته ومحاسبته على أعماله.

ويتبين موقف الإسلام وحرصه على الحرية السياسية، حين نجده يرسي دعائم الحكم على أساس من الشورى والحرية السياسية للجميع، فيأمر الله بها رسوله ﷺ ويقول في الآية (١٥٩) من سورة آل عمران: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾. يقول ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾، قال رسول الله ﷺ: «أما إن الله ورسوله لغنيَّان عنها، ولكن جعلها الله تعالى رحمة لأمتي، فمن استشار منهم لم يعدم رشدًا، ومن تركها لم يعدم غيا». ويقول أبو هريرة: لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله.

ويبين القرآن الكريم أن هذه الشورى وتلك الحرية من الدعائم التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي الصالح في قوله تعالى، في السورة التي سُميت «الشورى» عناية بها وتنبيهًا إلى أهميتها.. في الآيات من ٣٦-٣٩: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾.

ويروي سعيد بن المسيب عن عليّ أنه سأل رسول الله قائلاً: الأمر ينزل بنا بعدك لم ينزل فيه قرآن، ولم يُسمع منك فيه شيء، فقال: «اجمعوا له العالمين من أمتي، واجعلوه بينكم شورى، ولا تقضوا فيه برأي واحد».

وقد أقام ﷺ ركن الشورى الذي تقوم عليه الحرية السياسية، حسبما اقتضاه حال المسلمين في ذلك الوقت من حيث قلة العدد والاجتماع معه في مسجد واحد، فكان يستشير السواد الأعظم منهم، وهم الذين يكونون معه في الأمور العامة، كما يستشير خاصته من أهل الرأي والراسخين في العلم.. في الأمور الخاصة التي يضر إفشاؤها.

استشارهم يوم بدر لما علم بخروج قريش من مكة لحرب المسلمين، ولم يبرم الأمر حتى صرح الجميع بالموافقة. فقد قام أبو بكر وقال فأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فتكلم وأجاد، ثم قام المقداد بن عمر فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد- مكان باليمن- لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له الرسول خيرًا، ودعا له. ثم قال: أشيروا عليَّ أيها الناس (يريد الأنصار)، فقال سعد بن معاذ سيد الخزرج: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: أجل، فقال سعد:... امض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله.

وعندما وصل المسلمون إلى وادي بدر ونزل المسلمون في مكان منه، جاء الحباب بن المنذر وقال لرسول الله أن هذا المنزل ليس المكان المناسب للقتال، واقترح منزلاً آخر وذكر حيثيات اقتراحه، فقال الرسول: لقد أشرت بالرأي، ونهض ومن معه من الناس، وسار حتى أتى المكان المقترح.

وقد أسفرت معركة بدر عن قتل سبعين من المشركين، وأسر سبعين آخرين. فلما أسروا الأسارى أراد رسول الله ﷺ أن يستشير أصحابه في ذلك.. **عملاً بمبدأ الشورى**، وتمشيًا مع القول المأثور: «ما خاب من استشار».

فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟

فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم واستأمنهم، لعل الله أن يتوب عليهم.

وقال عمر: يا رسول الله: أخرجوك وكذبوك، قربهم فاضرب أعناقهم.

فقال عليه الصلاة والسلام معقبًا: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ﷻ ليشد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١)، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (٢). وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٣)، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ (٤).

وقد رأى النبي- بعد الاستشارة- أن يأخذ بمبدأ الفداءٍ، إذ فيه رفق أبي بكر، ونفع لجماعة المسلمين، وقد كانوا في غير غنى، ورخص في غير ذلك، فرخص لنفسه في القتل، ورخص لنفسه في المن من غير فداء. وكيفما كانت حالهم من مَنٍّ أو فداء فقد أوصى بهم خيرًا، وأنزلهم عند الأنصار وكأنهم في ضيافة لا في أسر.

وقد أخذ رسول الله ﷺ الفداء من ذوي الثراء بما فيهم بني هاشم، بل شدد في الأخذ منهم ولم يقبل غير الفداء، كما كان رسول الله ﷺ يقبل من الفداء نوعًا معنويًا، وهو تعليم الأميين من أصحاب رسول الله ﷺ، فإذا لم يكن لدى الأسير مال يفتدي به نفسه، ولكن له علم بالقراءة، كان فداؤه أن يُعلم بعض الأميين القراءة.

ثم نزل القرآن الكريم بعد ذلك ببيان الخطأ في أن المسلمين أسروا قبل أن يثخنوا، فقال تعالى في الآيتين ٦٧، ٦٨ من سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

والمعنى أنه ما صح وما استقام للنبي أن يكون له أسرى من أعدائه الذين يريدون به وبدعوته شرًا «حتى يثخنٍ في الأرض» أي حتى يبالغ في قتلهم، وإنزال الضربات الشديدة عليهم، إذلالاً للكفر وإعزازًا لدين الله. وقوله سبحانه:

---

(١) الآية ٣٦ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية ١١٨ من سورة المائدة.

(٣) الآية ٢٦ من سورة نوح.

(٤) الآية ٨٨ من سورة يونس.

﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ أي تريدون- أيها المؤمنون- بأخذكم الفداء من أعدائكم الأسرى عرض الدنيا ومتاعها الزائل، والله تعالى يريد بكم ثواب الآخرة.

ومن ثم ترك النبي ﷺ الفداء، واتبع ما نزل به القرآن الكريم.

وفي غزوة أُحُد **استشار الرسول أصحابه**، فأشار عليه بعضهم بالخروج من المدينة للقاء العدو، بينما رأى آخرون التحصن بالمدينة، فإذا جاء العدو قاتلوهم في الأفنية وأفواه السكك ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من الأبنية المرتفعة. ولم يوافق على هذا الرأي أغلب الصحابة (مع أنه رأي الرسول أيضًا)، وبعد أن لبس الرسول سلاحه، حاول أصحاب الرأي الأول إثناء الرسول عن الخروج عندما شعروا أن هذه ليست رغبته، قال النبي: لا ينبغي لنبي لبس لامته (أداة الحرب) أن يضعها حتى يحكم الله. وبذلك يكون الرسول ﷺ قد عمل برأي أكثرية الصحابة، وترك رأيه إلى رأيهم.

وعندما أحاط المشركون بالمدينة من كل جانب في غزوة الأحزاب، أخذ الرسول ﷺ برأس سلمان الفارسي بأن يحفر- في مواجهة الأعداء- خندقا حول المدينة، كما أنه في غزوة الأحزاب هذه (الخندق)، أراد الرسول ﷺ أن يحدث انقسامًا بين الأحزاب الذين تجمعوا وحاصروا المدينة المنورة، بإثارة الطمع في بعضهم فينصرفوا عن القتال، مما يفت في عضد الباقين، فأرسل إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف، قائدا غطفان التي تشارك في قتال المسلمين، طالبًا إليهما المصالحة على أن يأخذوا ثلث ثمار المدينة، فقبلوا ذلك طمعًا منهم، وأن يرجعوا عن الحرب وينفصلوا عن باقي المشركين، وكتبوا كتابًا من جانبهم، وقدموه إلى رسول الله ﷺ.

فلما جاء الكتاب بعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ سيد الأوس، وإلى سعد بن عبادة سيد الخزرج، فذكر لهما ذلك، **واستشارهما في الأمر**. قال له سعد بن معاذ: يا رسول الله: أمر تحبه فتصنعه.. أم شيء أمرك الله به لابد لنا من العمل به؟ قال رسول الله: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمر ما.

قال سعد: يا رسول اله: لقد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرًى

(ضيافة) أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزّنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك. فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجتهدوا علينا (أي ليشتدوا في حربهم ضدنا). وبذلك انتهت إرادة الصلح من جانب المسلمين، ورجع الرسول عن رأيه إلى رأيهم.

وهذه الشورى المحققة للحرية السياسية واجبة في الشريعة الإسلامية، ورأي أهل الشورى ملزم للحاكم. ويقول الإمام محمد عبده: أمر الله تعالى نبيه أن يقرن سُنّة الشورى في هذه الأمة بالعمل، فكان ﷺ يستشير أصحابه بغاية اللطف، ويصغي إلى كل قول، ويرجع عن رأيه إلى رأيهم، وقد ذهب الإمام إلى أن قول الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أول دليل على أن الحكومة الإسلامية تقوم على الشورى، وأنها أقوى في دلالتها على ذلك من قول الله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾وقوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ لأن أمر الرئيس بالمشاورة وإن كان يقتضي وجوبها عليه، إلا أنه لا يوجد ضمان لامتثال هذا الأمر، أما قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾ فيفرض على المسلمين أن يكون منهم جماعة متحدون أقوياء، يتولون الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهم أهل الشورى[١]. قال تعالى في الآيتين ٤٠، ٤١ من سورة الحج: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قامت هذه الدولة الإسلامية التي أسسها النبي ﷺ على تكوين رأي عام فاضل، ولذلك حث الإسلام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واعتبرهما عنوانًا للمجتمع الفاضل الذي يقوّم المعوج، ويمنع الضرر، ويقف في وجه الفساد والمفسدين، ولقد قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [الآية ١١٠ من سورة آل عمران]. وبيّن سبحانه في الآيتين ٧٨، ٧٩ من سورة المائدة أن اللعنة تكون على الذين لا يتناهون عن إتيان المنكر: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ

---

(١) المرجع: كتاب حقوق الإنسان في الإسلام، تأليف الأستاذ زكريا البري، ص٥٦.

دَاوُدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾.

وأوجب الإسلام على كل مسلم أن يساند الخير ويستحسنه، ويستنكر الشر ويستهجنه، ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا، أو ليضربن بقلوب بعضكم على بعض، ثم تدعون فلا يُستجاب لكم».

ولا شك أن الرأي العام الفاضل تسوده الفضيلة، وتقتل فيه الرذيلة، ولذلك يحث النبي ﷺ على الحياء الذي إذا امتلك صاحبه دفعه للظهور أمام الناس بالخير ومحاسن الأخلاق، والعزوف عن الإتيان بمكاره الأخلاق، فيقول عليه الصلاة والسلام: «الحياء خير كله» كما يقول: «لكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء». وفي نفس المعنى ورد المأثور: «إذا لم تستح فافعل ما شئت».

وأوجب الإسلام على المسلمين أن يتناصحوا فإن «الدين النصيحة»، وأن يعملوا على التصدي للمنكر من القول أو الفعل، قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

ولما كان من مقاصد دين الإسلام تعميم الخير، ودفع الشر، والهداية إلى الحق، وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان من آثار ذلك التحلي بحسن الخلق، والترفع عن الدنايا، والبُعد عن الشرور، وقد حث القرآن على ذلك في آيات كثيرة، وصرح النبي ﷺ بذلك في قوله: «بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وقوله: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم» وقوله: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا»، وقوله: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا»، وقوله: «مكارم الأخلاق من أعمال أهل الجنة».

هذا إلى أنه إذا حسنت الأخلاق، طهرت الأذواق، وكملت الآداب، وسادت المحبة، وانتشرت المودة بين أفراد المجتمع.

وأوجب الإسلام الشفقة على الرعية، والاهتمام بالضعفاء وإزالة الضرر عنهم، ففي الحديث الصحيح قوله ﷺ: «إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم»، كما قال: «من كشف عن مسلم كربة من كرب الدنيا كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»، «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»، وقال ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، كما قال: «اللهم من ولي من أمر

أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه».

ورغبة في تهذيب النفوس، وحمل الإنسان على احتمال المخاطر والصعاب، نادى الإسلام بالتذرع بالصبر، والتمسك بالحلم، وتكرر نصح القرآن الكريم للمسلمين بالصبر.. مرات عديدة.. سواء في السور المكية أو المدنية[١].

ثم إن الحاكم وكيل عن الأمة، ومقتضى الوكالة أن يعمل بإرادتها ورغبتها وتوجيهها، لا برغبته وإرادته، ورأي الأمة- ممثلة في أهل الشورى- أقرب إلى الصواب، وأبعد من الخطأ في رأي الحاكم إذا ما اختلف رأيه مع رأيها، والرسول ﷺ يقول لأبي بكر وعمر: «لو اجتمعتا في مشورة ما خالفتكما».

والإسلام يعطي الأمة الحق المطلق في اختيار حاكمها الأعلى المشرف على جميع سلطات التنفيذ، وهو الخليفة أو الإمام. ومنصب الخليفة إنما يكون بمبايعة أهل الحل والعقد، والإمام إنما هو وكيل الأمة، وأفرادها هم الذين يولونه السلطة، فمصدر قوة الخليفة هو الأمة، وهو إنما يستمد سلطانه منها، والمسلمون هم أول أمة قالت بأن الأمة مصدر السلطات.

والخلافة بيعة حرة، وهي أمانة ثقيلة، يطلب لها أعظم الناس تقى وعلمًا. فمن معاني الأمانة وضع كل شيء في المكان الجدير به، واللائق له، فلا يسند منصب إلا لصاحبه الجدير به، ولا تملأ وظيفة إلا بالرجل الذي ترفعه كفايته إليها. واعتبار الولايات والأعمال العامة أمانات مسئولة ثابت من وجوه كثيرة. فعن أبي ذر قال: يا رسول الله ألا تستعملني؟ (أي توليني عملاً) قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال: «يا أبا ذر: إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها».

ألا ترى إلى يوسف الصديق؟ إنه لم يرشح نفسه لإدارة شئون المال بنبوته وتقواه فحسب، بل بحفظه وعلمه أيضًا، قال: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ كما جاء في الآية ٥٥ من سورة يوسف.

والأمانة تقضي بأن نصطفي للأعمال أحسن الناس قيامًا بهذا، فإذا ملنا عنه إلى غيره لهوى أو رشوة أو قرابة، فقد ارتكبنا خيانة فادحة. قال رسول الله

---

(١) المرجع: كتاب محمد ﷺ أعظم البشر، تأليف: محمد أحمد خضر.

ﷺ: «من استعمل رجلاً على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين».

والأمة التي لا أمانة لها هي الأمة التي تعبث فيها الشفاعات بالمصالح المقررة، وتطيش بأقدار الرجال الأكفاء لتهملهم وتقدم مَنْ دونهم، وقد أرشدت السُّنة إلى أن هذا من مظاهر الفساد التي سوف يقع آخر الزمان: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يسأله: متى تقوم الساعة؟ فقال له: «إذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة» فقال: وكيف إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة».

وظائف الدولة في نظر الإسلام أعمال لها مواصفات معينة، من استجمعها رشحته مواهبه لها دون نظر إلى شيء آخر. والمأخوذ على الحكام المستبدين أنهم يؤثرون بالوظائف أنصارهم، أو يخصون بها بعض العصبيات، ويفقدونها معالمها العامة. والإسلام يرفض ذلك كله[1].

فالحرية السياسية تقوم على أن المناصب المختلفة وسائل لخدمة المجتمع، وأن من يشغلها يكون موضع الرقابة الدقيقة من جمهور الأمة. وليست ولاية أي وظيفة وقفًا على أسرة من الأسر، فما يزعمه الملوك من حق إلهي يتولون به شئون الناس خرافة لا أصل لها. والنبوة اصطفاء من الله، أما الخلافة عن النبوة في حكم الناس بالحق الذي بيَّنه الله، فهذا أمر موكول للمسلمين يختارون له الأكفأ والأرشد.

فكيف تم اختيار الخلفاء الراشدين؟ نجيب على ذلك بما يلي:

اختيار الخلفاء الراشدين :

عندما توفي النبي ﷺ فكر الصحابة لفورهم فيمن يخلفه على سياسة شئونهم الدينية والدنيوية: وكان هذا التفكير في نظرهم من الخطورة بحيث أعجلهم البت فيه عن دفن الجثمان الطاهر.

فلما اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة- كيما يختاروا الرئيس الأعلى للأمة- كانوا يتشاورون بحرية ظاهرة، في ترشيح أكفأ من يعرفون ليتولى الأمر بعد رسول الله ﷺ. والذي يهمنا أن الروح الذي سيطر على هذا الاجتماع الفريد كان غريبًا وسط ما يدور في العالم يومئذ من توارث السلطة أو السطو عليها

---

(١) المرجع: الشيخ محمد الغزالي، مرجع سابق.

بالسيف، وهو ما كان يحدث في أكبر دولتين جارتين في هذا الوقت، إذ كانت فارس يحكمها كسرى وارثًا عن وارث، وكانت الروم يحكمها قيصر وارثًا عن وارث.

لقد تحدث المؤتمرون فيمن يُختار خليفة، ثم انتهوا إلى **مبايعة أبي بكر**، الذي برهن في مدة حكمه القليلة أن أيامه كانت امتدادًا لعهد الرسول ﷺ نفسه، وأنه اختار الشورى أسلوبًا واضحًا للحكم إذ قال منذ اليوم الأول: «أما بعد أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمّهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله».

فهذا الخطاب التاريخي يتضمن مبادئ هامة:

أ - التواضع الجم حيث يقول أنه قد تولى الخلافة وليس خير المحكومين.

ب - أنه يطلب من المسلمين أن يراجعوه ويقوموه إذا أساء.

ج - يدعو إلى الصدق وينفر من الكذب.

د - إقامة الحق والانتصاف من الظالم.

هـ - الدعوة إلى التمسك بالجهاد في سبيل الله.

و - طاعة المحكومين تتوقف على العمل بكتاب الله وسُنَّة رسوله.

مع ملاحظة أن أبا بكر لم يكن من أسرة ذات مجد وسلطان، وإنما وقع الاختيار عليه لصحبته للرسول ﷺ، ولسبقه في الإسلام، وتضحياته الكثيرة من أجله بالنفس والمال، ولأن الله ﷻ كرّمه عندما ذكر صحبته للرسول في الهجرة، وقال إن المشركين أخرجوا الرسول من مكة ثاني اثنين، والثاني هو أبو بكر الصديق.

على أن هذا الاختيار كان مجرد ترشيح، ثم كانت البيعة العامة في المسجد.

ثم تولى إمارة المؤمنين **عمر بن الخطاب** في ظل ظروف سياسية وعسكرية صعبة للغاية، كانت تكتنف الدولة الإسلامية شرقًا وغربًا أيام أبي بكر، ومن الخطر إجراء انتخاب واسع في هذا الوقت العصيب.

لكن هل قضت تلك الظروف باغتصاب مشيئة الرأي العام، أو الميل عن طبيعة الشورى الإسلامية؟

لا، إن الخليفة الأول أدى واجبه أداءً كريمًا وسط الأعاصير التي واجهت الإسلام من قِبَل الفرس والروم جميعًا.

وإذا كان أبو بكر قد اختار عمر قبل وفاته، فما كان ذلك تعيينًا من جانبه وحده، بل إنه عهد بذلك للناس أول الأمر، وقد جمعهم من أجله، وقال لهم: إنه قد نزل بي ما ترون، ولا أظنني إلا ميتًا، فأمِّروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمَّرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي. ولكنهم لم ينتهوا إلى رأي في الأمر فردوه إلى أبي بكر، فاستشار، وانتهى إلى ترشيح عمر.

وعرض الأمر على الناس فوافقوا على اختياره، ولم يمنع ذلك من ظهور معارضين في الرأي بعد ذلك. فمما يذكر أن بعض الأفراد دخلوا على أبي بكر قبيل الوفاة، وقال له أحدهم: ما أنت بقائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته، وهو إذا ولي كان أفظ وأغلظ!

فرد أبو بكر قائلاً: أبالله تخوفني؟ خاف مَن تزود من أمركم بظلم!! أقول: اللهم إني قد استخلفت على أهلك خير أهلك.

ثم بويع عمر بالخلافة بإجماع لم ينعقد لخليفة قبله ولا بعده.

وعندما جاء دور عمر في ترك الأمانة وترك الدنيا وما فيها بعد الطعنة القاتلة التي أصابته، وبعد أن قيل له: أوصي يا أمير المؤمنين.. استخلف. قال ﵁: أأتحمل أمركم حيًّا وميتًا..؟! ثم قال: «إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني (يعني أبا بكر) وإن أترككم فقد ترككم من هو خير مني (يعني رسول الله ﷺ).

ثم ذكر أسماء ستة من كبار الصحابة قال عنهم أن النبي ﷺ توفي وهو عنهم راض هم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وأضاف إليهم ابنه عبد الله، على أن يكون له رأي دون أن تكون له الخلافة، وترك للمسلمين في النهاية البت في الأمر.

ومما أُثر عن عمر كذلك أن المغيرة بن شعبة زيَّن له يومًا أن يستخلف ابنه عبد الله على المسلمين من بعده، فأبى ذلك قائلاً: «لا إرب لنا في أموركم،

وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من بيتي، إن كان خيرًا قد أصبنا منه، وإن كان شرًا فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد».

واجتمع الصحابة الذين وضع عمر الأمانة في أعناقهم، وبادر عبد الرحمن بن عوف فخلع نفسه، ثم تنازل الزبير عن حقه لعليّ، وتنازل سعد بن أبي وقاص عن الترشيح أيضًا، وكان طلحة غائبًا عن المدينة، وهكذا انحصر الاختيار بين عثمان وعلي، وفوِّض عبد الرحمن ابن عوف في اختيار أحدهما.

وكان على عبد الرحمن أن ينجز المهمة في الأيام الثلاثة التي أوصاهم الخليفة الراحل ألا يتجاوزوها. وكان عليه خلال هذه المدة القصيرة أن يجري شورى واسعة يستطلع فيها آراء الناس، وفي نهاية الشورى رأى ترشيح عثمان لهذه المهمة الثقيلة وقد أعلن ذلك في المسجد، فازدحم الناس على عثمان يبايعونه.

وبعد أن استشهد عثمان ﷺ ذهب بعض الصحابة (من أهل الحل والعقد) إلى بيت علي ابن أبي طالب ليبايعوه خليفة للمسلمين، وألحوا عليه في قبول البيعة، قال: ففي المسجد، فإن بيعتي لا تكون خفية، ولا تكون إلا عن رضا للمسلمين. وتم له ما أراد فتمت البيعة في المسجد.

كما أنه بعد أن تولى الخلافة قرابة خمس سنوات، وطعنه عبد الرحمن بن ملجم من الخوارج، وشعر المسلمون بدنو أجله، أقبل بعضهم وقالوا: إن فقدناك- ولا نفقدك- أفنبايع الحسن؟

فقال لهم: ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر...



بعد أن تولى **الصديق** أمر خلافة رسول الله ﷺ ألقى كلمته الجامعة التي أشرنا إليها آنفا، وقال في كلمة أخرى: «إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت فقوموني».

وعن يزيد بن أبي سفيان قال: قال لي أبو بكر الصديق حين بعثني إلى الشام: يا يزيد.. إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة، وذلك أكثر ما أخاف عليك بعد ما قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ولي من أمر المسلمين شيئًا فأمَّر عليهم أحدًا محاباة فعليه لعنة الله، لا يقبل منه صرفا ولا عدلاً حتى يدخله جهنم».

وكان من أصعب وأعقد المسائل التي واجهت الصديق بعد وفاة الرسول، مشكلة ارتداد بعض القبائل من العرب، واقتناع كثير منهم عن أداء الزكاة، مع بقائها على عقيدة الإسلام. **وقد استشار أبو بكر أصحابه** في كيفية مواجهة هذا الأمر، وكان رأي معظم الصحابة- وفيهم عمر- أنه لا طاقة للمسلمين بمحاربة هذه القبائل، وأنه لا يجوز محاربة من امتنع عن أداء الزكاة مع بقائه على عقيدة الإسلام، محتجين بقوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها».

ولكن الصديق رأى أنه من الواجب محاربتهم جميعًا حتى يرد للإسلام هيبته، ويحفظ قدسية شعائره وأركانه. وقال في شأن من امتنعوا عن أداء الزكاة: «والله لو منعوني عناقا[1]، وفي رواية: عقال بعير[2] كانوا يعطونه رسول الله ﷺ لحاربتهم عليه ولو وحدي، ما استمسك السيف بيدي، لقد كمل الدين وتم الوحي، أويُنتقص وأنا حي؟!».

وبإصراره على هذا الرأي الصائب قضى على فتنة كانت تتهدد الإسلام ونظمه والمجتمع الإسلامي بشر كبير.

وسيدنا عمر الخليفة الثاني (وأول من لُقِّب بأمير المؤمنين) كان كثيرًا ما يستشير أصحابه، رغم أنه كان رجلاً ملهمًا.. وكثيرًا ما نزلت آي الذكر الحكيم تؤيد آراءه. ومن **مواقفه في الشورى** جعل أمر الخلافة من بعده شورى بين المسلمين، واستشار في التاريخ الذي أراد أن يدوِّن به بداية العام الهجري، وكانت العرب تؤرخ بعام الفيل، وتقرر أن يكون التأريخ بين المسلمين بالهجرة النبوية، واستشار في قتال الفرس ودخول الشام، والموقف من الطاعون الذي تفشى بها.

ومن أقواله في الشورى: «أنه من بايع رجل من غير مشورة المسلمين فإنه لا بيعة له.. ولا الذي بايعه» وقال أنه: «لا خير في أمر أبرم من غير شورى».

وعندما عزم عمر على محاربة الفرس، **استشار العامة** فأشاروا عليه بالمسير بنفسه لأنهم بأميرهم تكون لهم رهبة، ولخليفتهم أطوع، واستشار

---

(١) العناق هو الصغير من ولد الماعز.

(٢) العقال هو ما يُربط به رأس الإبل، ثم أصبح رباطًا لرأس العربي.

الخاصة فنهاه عليّ والعباس وعبد الرحمن بن عوف عن هذا الرأي، وأشاروا عليه بتسليم القيادة لغيره وبقائه في المدينة، لأنهم بقيمة حياته أعرف، وعلى وجوده بعيدًا عن ساحات القتال أحرص، فوافق عمر على هذا الرأي الأخير.

وعمر كان أول من ضرب في الخمر ثمانين جلدة، فالله سبحانه حرَّم الخمر في القرآن الكريم، ولكنه لم يفرض على شاربها عقابًا في الدنيا، ولم يحاول أبو بكر رضي الله عنه أن يزيد على ما كان النبي يفعله، ولكن عمر رأى ضرورة وضع عقوبة على شرب الخمر والإدمان عليها، فاستشار المسلمين فيما يجب أن يُفرض على شارب الخمر من عقاب.

فأشار عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأن يأخذ شارب الخمر بعقوبة القاذف، فيضربه ثمانين جلدة، لأنه إذا شرب سكر، وإذا سكر كان حريًا أن يفتري، فأخذ عمر بهذا الرأي وأنفذه في المدينة، بإنفاذ هذا الرأي في الأمصار.

وهناك أمثلة أخرى عديدة تؤكد انصياع عمر لرأي الجماعة، **وتمسكه بالشورى:**

خذ مثلاً أرض السواد بالعراق: فحين حرر المسلمون بلاد العراق من حكم الفرس، ودخل أكثر أهلها في دين الله أفواجا، رأى عمر ألا يقسم أرضها الزراعية (وهو ما يسمى بالسواد) بين المجاهدين، وأن تظل كما هي بأيدي أصحابها، ثم ترد الضرائب المأخوذة عليها إلى بيت المال، فتقسم بين الناس جميعًا كل منهم ونصيبه المعروض.

ولم ير الانفراد بالرأي، بل دعا إليه أكابر الصحابة، وعرض عليهم المشكلة، وفي النهاية وبعد فحص وتمحيص، كانت المحصلة النهائية تتفق مع الرأي الذي قال به عمر.

انظر إليه وهو يصعد المنبر يومًا فيقول: «يا معشر المسلمين: ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدنيا هكذا؟ فيشق الصفوف رجل ويقول وهو يلوح بذراعه كأنها حسام ممشوق: إذًا نقول بالسيف هكذا. فيسأله عمر: إياي تعني بقولك؟! فيجب الرجل: نعم إياك أعني بقولي.

فتضيء الفرحة وجه عمر ويقول: رحمك الله، والحمد لله الذي جعل فيكم من يُقوِّم اعوجاجي.

ثم انظر إليه وقد صعد المنبر ذات يوم، ليحدث المسلمين في أمر جلل،

فيبدأ خطبته بعد حمد الله بقوله: اسمعوا يرحمكم الله، ولكن أحد المسلمين ينهض قائمًا فيقول: والله لا نسمع!.. والله لا نسمع!!

فيسأله عمر في لهفة: ولِمَ يا سلمان؟! فيجيب سلمان: ميَّزت نفسك علينا في الدنيا، أعطيت كلامنا بردة واحدة، وأخذت أنت بردتين!!

فيجيل الخليفة بصرفه في صفوف الناس ثم يقول: أين عبد الله بن عمر؟ فينهض ابنه عبد الله: هاأنذا يا أمير المؤمنين.. فيسأله عمر على الملأ: مَنْ صاحب البردة الثانية؟ يجيب: أنا يا أمير المؤمنين.

ويخاطب عمر سلمان والناس معه فيقول: إنني كما تعلمون رجل طُوال، وقد جاءت بردتي قصيرة، فأعطاني عبد الله بردته، فأطلت بها بردتي.

فيقول سلمان: الحمد لله.. والآن قل نسمع ونطيع يا أمير المؤمنين.

وهذا مثال جديد في هذا المضمار:

يخطب الناس يومًا فيقول: لا تزيدوا مهور النساء على أربعين أوقية، فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال. فتنهض من صفوف النساء سيدة تقول: ما ذاك لك..

فيسألها: ولِمَ؟ فتجيبه: لأن الله تعالى يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

فيتهلل وجه عمر.. ويبتسم.. ويقول عبارته المأثورة: «أصابت امرأة.. وأخطأ عمر».

ويدور ذات يوم حوار بينه وبين واحد من الناس، ويتمسك الآخر برأيه، ويقول لأمير المؤمنين: اتق الله يا عمر، ويكررها مرات، ويزجره أحد الحاضرين قائلاً: صه.. فقد أكثرت على أمير المؤمنين.

ولكن أمير المؤمنين يقول له: «دعه، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها.. ولا خير فينا إذا لم نسمعها..!».

أجل.. لا خير في الناس إذا لم يقولوا ما يرونه حقًّا في صراحة ووضوح، ولا خير في الحاكم إذا لم يفتح صوره للنقد البنّاء، ويسمع الناس، ويصغي غليهم.

وإليكم القصة التالية:

لقي عم العباس (عم الرسول) يومًا وقال له: لقد سمعت رسول الله قبل

موته يريد أن يزيد في المسجد، وإن دارك قريبة من المسجد، فأعطنا إياها نزدها فيه، وأقطع لك أوسع منها.

قال العباس: لا أفعل   قال عمر: إذًا أغلبك عليها.

فأجاب العباس: ليس ذلك لك، فاجعل بيني وبينك من يقضي بالحق.

قال أمير المؤمنين: من تختار   قال العباس: حذيفة بن اليمان.

وبدلاً من أن يستدعي أمير المؤمنين إلى مجلسه حذيفة، انتقل هو والعباس إليه.

وأمام حذيفة بن اليمان جلس عمر والعباس، وقصا عليه الخلاف الذي بينهما.

فقال حذيفة: سمعت أن نبي الله داود عليه السلام أراد أن يزيد في بيت المقدس، فوجد بيتًا قريبًا من المسجد، وكان هذا البيت ليتيم، فطلبه منه فأبى، فأراد داود أن يأخذه قسرًا، فأوحى الله إليه: «إن أنزه البيوت عن الظلم لهو بيتي». فعدل داود وتركه لصاحبه.

فنظر العباس إلى عمر وقال: ألا تزال تريد أن تغلبني على داري؟ قال عمر: لا.

قال العباس: ومع هذا.. فقد أعطيتك الدار تزيدها في مسجد رسول الله..!![1].

وللفاروق مواقف كثيرة استشار فيها علي بن أبي طالب، نذكر بعضها فيما يلي:

- استطاع المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص أن يفتحوا أرض فارس.. بما فيا المدائن عاصمة دولة الفرس. وقام سعد بتوزيع الغنائم الضخمة على الجند الذين اشتركوا في الفتح، واستبقى الخمس وبعث به إلى أمير المؤمنين في المدينة. وقال عمر وهو يتأمل الغنائم النفيسة: إن قومًا أدوا هذا لأمناء، فقال علي: «يا أمير المؤمنين: عففت فعفت رعيتك.. ولو رتعت لرتعوا».

وجمع عمر الناس، وعرض عليهم الغنائم، ومنها بنات ملك فارس اللاتي

---

(١) من كتاب: «ما بين العُمَرين» من تأليف: محمد أحمد خضر، ص١٤٩ وما بعدها.

وقعن أسيرات، وظل عمر يفحص جواهر كسرى النادرة وتيجانه وكنوزه ويتأملها، وطلب من عبد الرحمن بن عوف أن يقسمها فهو عليم بالجواهر.

أما بنات ملك فارس، فقد أراد عمر أن يبيعهن كالجواري، ويضع ثمنهن في بيت المال، وأعطاهن للدلال ينادي عليهن بالسوق، فكشف الدلال عن وجه إحداهن فلطمته لطمة شديدة، فصاح الرجل واعمراه.. وشكا إليه، فدعاهن عمر، وأراد أن يضربهن بالعصا، فقال علي (كرم الله وجهه): «يا أمير المؤمنين: إن رسول الله ﷺ قال: «اكرموا عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر».. إن بنات الملوك لا يُبعن، ولكن قوموهن» فقوموهن وكن ثلاثة، فأعطاه ثمنهن.. ووهبهن: واحدة لمحمد بن أبي بكر، والثانية لعبد الله بن عمر، والثالثة لابنه الحسين.

- وفي أحد الأيام جمع عمر الناس وقال لهم: إني كنت امرءًا تاجرًا، يغني الله عيالي بتجارتي، وقد شغلتموني بأمركم، فماذا ترون أنه يحل لي من هذا المال؟ فأكثر القوم عليه يقترحون الإغداق، وعليّ صامت.

فلم يحفل أمير المؤمنين بما يقولون، وسأل عليًا: ما تقول يا أبا الحسن؟ قال علي: «ما أصلحك وأصلح عيالك بالمعروف، وليس لك في هذا المال غيره» فقال عمر: «الله أكبر، صدقت يا أبا الحسن، **لولا عليٌّ لهلك عمر**».

- وأُتي عمر بامرأة أجهدها العطش، فمرت على راعٍ فاستسقته، فأبى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها، ففعلت، فشاور الناس في رجمها، فقال عليّ: «هذه مضطرة إلى ذلك.. فخل سبيلها» فاستجاب عمر(١).

- ورُفعت إلى عمر قضية امرأة ولدت لستة أشهر، فأمر برجمها، فجاءت أختها إلى عليّ تستصرخه، فذهب علي إلى عمر وقال: «إن الله ﷻ يقول: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ فالفصال أربعة وعشرون شهرًا، والحمل ستة أشهر، تلك ثلاثون شهرًا».

فخلى عمر سبيلها وقال: «أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن».



ويقيني أن ما ورد في هذا الفصل عن حق الحياة.. والشورى.. وحق

(١) من كتاب: «آل بيت النبي ﷺ»، تأليف: محمد أحمد خضر، ص٧٨.

الحرية في الإسلام، كان ماثلاً أمام أمير الشعراء أحمد شوقي، عندما صاغ أبياتًا عذبة من الشعر، ترسم صورة وضّاءة صادقة لهذه المعاني، وتعكس ما سردناه من أقوال وأفعال وأمثال، إذ يقول في قصيدة الهمزية النبوية:

بك يا ابنَ عبد الله قامت سَمْحَةٌ ... بالحق من مِلَلِ الهُدَى غراءُ
بُنيت على التوحيد، وهي حقيقةٌ ... نادى بها سُقراط والقدماءُ
ومشى على وجه الزمانِ بنورها ... كُهَّان وادي النيل والعُرفاءُ
لما دعوتَ الناسَ لبَّى عاقلٌ ... وأصمَّ منك الجاهلين نداءُ
أبَوْا الخروج إليك من أوهامهم ... والناس في أوهامهم سجناءُ
فرسمتَ بعدك للعبادِ حكومةً ... لا سوقةٌ فيها ولا أمراءُ
الله فوق الخلق فيها وحدَهُ ... والناسُ تحت لوائها أكفاءُ
الدينُ يُسرٌ، والخلافةُ بيعةٌ ... والأمرُ شورى، والحقوق قضاءُ
جاءت فوحَّدت الزكاةُ سبيلَهُ ... حتى التقى الكُرماءُ والبخلاءُ
أنصفتَ أهل الفقرِ من أهل الغنى ... فالكلُّ في حقِّ الحياة سواءُ

هذا.. وقد تضمن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر سنة ١٩٤٨ نصًّا يؤكد المعاني التي أشرنا إليها من قبل، في المادة الثانية التي تقرر: (لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان، دون تمييز، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين و الرأي السياسي أو أي رأي آخر، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو الميلاد أو أي وضع آخر، دون أية تفرقة بين الرجال والنساء).

الفصل الثاني
الحريات الدينية والفكرية والمدنية

سوف نتحدث- بعون الله- عن كل حق على حدة.. حسب الترتيب الآتي:

أ - الحرية الدينية

الحرية الدينية هي الحرية التي تقتضي أن يكون لكل إنسان اختيار كامل للعقيدة التي يعتنقها ويؤمن بها، من غير ضغط ولا إكراه. وقد أورد القرآن الكريم- في سور متعددة- أن كل إنسان حر في دينه وعقيدته، لا سلطان لأحد عليه فيها، فالعقيدة اقتناع داخلي وعمل باطني، لا يجدي فيه الإكراه، ولا يحقق غرضًا صحيحًا.

يقول **الإمام محمد عبده**: «كان معهودًا عن بعض الملل- ولاسيما النصارى- حمل الناس على الدخول في دينهم بالإكراه، وهذه المسألة ألصق بالسياسة منها بالدين، لأن الإيمان- وهو أصل الدين وجوهره- عبارة عن إذعان النفس، ويستحيل أن يكون الإذعان بالإلزام والإكراه، وإنما يكون بالبيان والبرهان».

ولذلك ينفي القرآن الكريم الإكراه في الدين نفيًا شاملاً.. مستغرقًا لجميع أنواعه وصوره وأفراده، ويترتب على ذلك النهي عنه وترتيب العقاب عليه، فيقول سبحانه في الآية (٢٥٦) من سورة البقرة: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

ويبيِّن القرآن الكريم أن مشيئة الله سبحانه لم تتعلق بقهر الناس وقسرهم على الإيمان، بل بُني الأمر على الرضا والاختيار، ثم يستنكر هذا القهر فيقول ﷻ في الآية ٩٩ من سورة يونس: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ وينتهي معنى الآية إلى نفي القدرة البشرية على الإكراه أو التكليف به.

ويحدد القرآن الكريم مجال رسالة الرسول الكريم، وأنه لا يتجاوز التبليغ والبيان والتذكير، ولا يتعداه إلى الجبر والقهر والسيطرة، فيقول ﷻ في الآية ٢٩ من سورة الكهف: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾.

وتتوالى الآيات في توضيح هذا المعنى وتأكيده، فيقول سبحانه في الآيات من ٢١-٢٤ من سورة الغاشية: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ ويقول في الآية ٤٥ من سورة ق: ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ ، ويقول في الآية ٩٩ من سورة المائدة: ﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾، ويقول في الآية ٤٠ من سورة الرعد: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾.

وفي كتاب الإسلام والنصرانية يقول **الإمام الشيخ محمد عبده**: «إن الدين معاملة بين العبد وربه، والعقيدة طور من أطوار القلوب، يجب أن يكون أمرها بين علام الغيوب، فهو الذي يحاسب عليها، وأما المخلوق فلا تطول يده إليها، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه الغافل، ويعلم الجاهل، وينصح الغاوي، ويرشد الضال[1].

والتدين يتطلب الإيمان، والإيمان الصحيح المقبول يجيء وليد يقظة عقلية، وانشراح صدري، واقتناع قلبي، إنه استبانة الإنسان العاقل للحق، ثم اعتناقه عن رضا ورغبة.

وقارئ القرآن يرى أن الكتاب العزيز قد تناول المعارضين له والكافرين به بأساليب شتى، ليس من بينها قط إرغام أحد على قبول الإسلام وهو عنه صاد، كل ما ينشده الإسلام أن يُعامل في حدود النَّصَفَة والقسط، وألا تدخل عوامل الإرهاب في صرف امرئ انشرح صدره به. ولم يكن على الإسلام من بأس، ولن يكون عليه بأس أبدًا لو أصرَّ ألوف المنتسبين إلى الأديان الأخرى على البقاء في معتقداتهم.

فكلمة: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون:٦]، وكلمة: ﴿ لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾[يونس:٤١].

هذه الكلمات وأمثالها مما تردد في صدر الإسلام هي التي ظلَّت تتردد في أواخر العهد المدني، ويخاطب بها كل إنسان. فالإسلام لم يفرض على النصراني أن يترك نصرانيته، أو على اليهودي أن يترك يهوديته، بل طالب كليهما- ما دام يؤثر دينه القديم- أن يدع الإسلام وشأنه، يعتنقه من يعتنقه، دون تهجم مُر أو جدل سيئ.

---

(١) المرجع: كتاب السيد/ زكريا البري- وزير الأوقاف سابقًا، مرجع سابق، ص١٢.

يقول الحق تبارك وتعالى في الآية ١٣٩ من سورة البقرة: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾. ويقول في الآية ٢٠ من سورة آل عمران: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾.

وفي سورة التوبة، وهي التي أعلنت الحرب على طوائف من أهل الكتاب، ترى السورة ختمت بهذا التوجيه في الآية ١٢٩: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

لم يقل الحق سبحانه فإن تولوا فعليهم اللعنة، أو لابد لك من مقاتلتهم حتى يتخلّوا عن دينهم، ويدخلوا في ديننا، كلا.. إنما قال: فإن توليتم فالملجأ إلى الله من كيدكم.. إن أغراكم الشيطان بكيد أو دفعكم إلى حرب.

إن المسلم مكلف أن يؤمن بموسى مثل إيمانه بمحمد، وأن يؤمن بعيسى مثل إيمانه بمحمد، فإذا كفر بواحد منهما، أو تناوله بقالة سوء.. فقد انسلخ عن الإسلام..!! والإيمان بالتوراة والإنجيل ضميمة لابد منها للإيمان بالكتاب الخاتم.

يقول ﷻ في صدر سورة البقرة: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

ويقول سبحانه في ختام ذات السورة: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

كما يقول جلّ وعلا في الآية ١٣٦ من سورة البقرة: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (١).

وحرية الاعتقاد في الإسلام هي أول الحقوق الإنسانية التي يثبت له بها وصف إنسان، كما يقول كبار المفكرين، لأن الذي يسلب إنسانا حرية الاعتقاد إنما يسلبه إنسانيته ابتداءً، ولذلك فلا عجب أن يعتبر مفكرو الإسلام حرية الاعتقاد أسبق الحريات العامة.. لأنها بمثابة القاعدة والأساس.

والرسول ﷺ كان يخيّر الناس بين الدخول في الإسلام أو البقاء على

(١) المرجع: كتاب الشيخ محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٧٢.

دينهم.. وذلك في بداية نشر الدعوة الإسلامية، ولكن بعد أن يعقد معهم عهدًا يطمئنون به على دينهم وأعراضهم وأموالهم، ويتمتعون بذمة الله ورسوله، ولذلك سُمُو «أهل الذمة».

وفي حديث شريف عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا. وإذا لقيت **عدوك من المشركين** فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»[(١)].

فالإسلام أعطى لكل فرد في ظله حق الحرية في أن يختار بين الكفر والإيمان، كما أن التاريخ الإسلام كله يخلو من فرض المسلمين لدينهم بالقوة والإكراه على الرعايا غير المسلمين، أو حدوث اضطهاد لأي شعب لإكراه أفراد على اعتناق الدين، وهو ما يتضح جليًا في العهد الذي أعطاه عمر بن الخطاب لأهل القدس، وقد سبق لنا إيراده.

ويتبع هذه الحرية الواسعة أيضًا حرية المناقشات الدينية، فينصح الله تعالى المسلمين أن يلتزموا العقل والمنطق في مناقشاتهم مع غير المسلمين، وأن يكون أساس الاقتناع هو الحجة والدليل المنطقي، قال تعالى في الآية ١٢٥ من سورة النحل: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾.

والحرية الدينية الكاملة في الإسلام يقابلها كلام عام في المواثيق الدولية، فالمادة (١٨) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان تنص على أنه: (لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته، وحرية الإعراب عنها بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها سواء أكان ذلك سرًا أم مع الجماعة)، كما ينص الإعلان الدولي للحقوق السياسية والمدنية في المادة (١٨) على أن (لكل فرد الحق في حرية الفكر والضمير

---

(١) المرجع: كتاب الأستاذ محمد الغزالي المشار إليه آنفًا، ص٧٢.

والديانة، ويشمل هذا الحق حريته في الانتماء إلى أحد الأديان باختياره، وأن يعبّر منفردًا أو بشكل علني عن ديانته أو عقيدته سواء كان ذلك عن طريق العبادة أو التقيد أو الممارسة أو التعليم، ولا يجوز إخضاع أحد لإكراه من شأنه أن يُعَطّل حريته في الانتماء إلى أحد الأديان أو العقائد التي يختارها)[1].

ب- الحرية الفكرية

العقل خاصة الإنسان وامتيازه وشرفه، وهو مناط التكليف والخطاب الإلهي، فبالعقل كان الإنسان إنسانًا، وكان امتيازه وتفضيله على غيره. يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.. والصحيح الذي يُعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل، الذي هو عمدة التكليف، وبه يُعرف الله، ويُفهم كلامه، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعث الله الرسل، وأنزلت الكتب. فمثال الشرع الشمس، ومثال العقل العين، فإذا فتحت وكانت سليمة، رأت الشمس، وأدركت تفاصيل الأشياء[2].

والإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه خليفة الله في الأرض، مصداقًا لقوله تعالى في الآية ٣٠ من سورة البقرة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. وقد فضله الله على جميع الكائنات، وكرمه أعظم تكريم.. كما تعبّر عن ذلك آيات القرآن الكريم.. مثل قوله تعالى في الآية ٧٠ من سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾. وهذه الكرامة التي اختص الله بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة، فهي حماية إلهية للإنسان تنطوي على احترام حريته وعقله وفكره وذريته. وهذه الكرامة تعني في النهاية الحرية الحقيقية، وهي تلك الحرية الواعية المسئولة التي تدرك أهمية تحملها أمانة التكليف والمسئولية التي أشار إليها القرآن في قوله في الآية ٧٢ من سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾.

وإذا كان الله قد اختص الإنسان بالتكليف والمسئولية، فإنه من ناحية

---

(١) المرجع: كتاب الشيخ منصور عبيد والدكتور إسماعيل عبد الكافي (المرجع السابق)، ص٦٣.

(٢) المرجع: كتاب الأستاذ زكريا البري (المرجع السابق)، ص٣٣.

أخرى قد خلق هذا الكون بما فيه ليمارس فيه نشاطاته المادية والروحية على السواء، ويشير القرآن الكريم إلى ذلك في آيات عديدة منها قوله تعالى في الآية ١٣ من سورة الجاثية: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

والتفكير الذي تنص عليه الآية هنا أمر جوهري لا ينبغي أن يغيب عن الأذهان، فإنه إذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون فلا يجوز له أن يقف منه موقف اللامبالاة، بل ينبغي عليه أن يتخذ لنفسه منه موقفاً إيجابيًّا، وإيجابيته تتمثل في درسه والنظر فيه للاستفادة منه بما يعود على البشرية بالخير، والاستفادة من كل هذه المسخرات في هذا الكون لا تكون إلا بالعلم والدراسة والفهم، والنظر في ملكوت السماوات والأرض على النحو الذي سيؤدي إلى الرقي المادي، وفي الوقت نفسه إلى الرقي الروحي. يقول القرآن الكريم في الآية ٥٣ من سورة فصلت: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.

ولم يبلغ الإنسان كل هذا التكريم الذي سما به فوق كل الكائنات إلا بالعقل الذي اختصه الله به وميّزه على سائر المخلوقات، وقد نوه الإسلام بالعقل والتعويل عليه في أمور العقيدة والمسئولية والتكليف، ولا تأتي الإشارة إلى العقل في القرآن الكريم إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، وذلك ما يؤخذ من كل الآيات القرآنية التي وردت الإشارة فيها إلى العقل. ولم يكن من قبيل المصادفة أن تكون الإشارة إلى العقل في القرآن في صيغ عديدة. فتارة بلفظ القلب أو الفؤاد، وتارة ثانية في صيغة أفعال بلفظ المفرد أو بلفظ الجمع مثل: يعقلون- يفقهون- يتفكرون- ينظرون- يبصرون- يعتبرون- يتدبرون- يعلمون- يتذكرون، وتارة ثالثة في صيغة أولي الألباب أو أولي الأبصار أو أولي النهى، فقد أراد القرآن أن يعبّر بذلك عن الوظائف العقلية التي أراد الله لعقل الإنسان أن يمارسها في هذا الوجود.

والإسلام عندما يخاطب العقل فإنه يخاطبه بكل ملكاته وخصائصه.. فهو يخاطب العقل الذي يعصم الضمير، ويدرك الحقائق، ويميز بين الأمور، ويوازن بين الأضداد، ويتأمل ويعتبر ويتعظ ويتدبر، ويحسن التدبر والرؤية. وقد وعى رجال الفكر الإسلامي القيمة الكبرى التي يسبغها الإسلام على العقل، فقال عنه حجة الإسلام الغزالي في مشكاة الأنوار: «إن العقل أنموذج من نور الله»، وقال الجاحظ: «إنه وكيل الله عند الإنسان».

وإذا كانت وظيفة العقل على هذا النحو فإن محاولة تعطيله عن أداء هذه الوظيفة يُعد تعطيلاً للحكمة التي أرادها الله من خلق العقل، مثلما يعطل الإنسان حاسة من الحواس التي أنعم الله بها عليه عن أداء وظيفتها التي خُلقت من أجلها، وهؤلاء الذين يفعلون ذلك يصفهم القرآن بأنهم أحط درجة من الحيوان.. حيث يقول في الآية ١٧٩ من سورة الأعراف: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾. ومن هذا المنطلق يعتبر الإسلام عدم استعمال العقل خطيئة من الخطايا وذنبًا من الذنوب. يقول القرآن الكريم حكاية عن الكفار يوم القيامة.. كما جاء في الآيتين ١٠، ١١ من سورة الملك: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

ولهذا كانت دعوة القرآن للإنسان لاستخدام ملكاته الفكرية دعوة صريحة لا تقبل التأويل، وهكذا يجعل الإسلام التفكير واجبًا مقررًا وفريضة إسلامية، ومن هنا قرر ابن رشد أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها، وذلك أخذًا من آيات القرآن العديدة في هذا الشأن.

وإذا كانت ممارسة الوظائف العقلية تُعد واجبًا دينيًا في الإسلام، فإنها من جهة أخرى مسئولية حتمية لا يستطيع الإنسان الفكاك منها، وسيحاسب على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها.. مثلما يسأل عن استخدامه باقي وسائل الإدراك الحسية، وفي ذلك يقول القرآن الكريم في الآية ٣٦ من سورة الإسراء: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾.

ومن منطلق حرص الإسلام على ممارسة العقل لوظائفه التي أرادها الله، كان حرص الإسلام شديدًا على إزالة كافة العوائق التي تعوق العقل عن ممارسة نشاطه. ولهذا طالب الإسلام بتحطيم هذه العوائق ليشق العقل طريقه للفهم الصحيح والتفكير السليم، ويتجلى لنا ذلك واضحًا من النقاط التالية:

(أ) رفض التبعية الفكرية والتقليد الأعمى. ولهذا عاب القرآن على المشركين تقليدهم الأعمى لأعرافهم وتقاليدهم وأسلافهم مستنكرًا مثل هذا التقليد. وفي ذلك يحكي عنهم قولهم: ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ ويتساءل في استنكار: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤]. وقد حذر النبي أيضًا من التقليد الأعمى قائلاً: «لا تكونوا إمعة»[١] بمعنى لا تكونوا مقلدين

---

(١) رواه الترمذي.

للآخرين تقليدًا أعمى.

(ب) القضاء على الدجل والشعوذة والاعتقاد في الخرافات والأوهام وإبطال الكهانة، فلا كهانة في الإسلام، وليس هناك مخلوق يتحكم باسم الدين في رقاب العباد، فلا ضرر ولا نفع إلا بإذن الله الذي يقول لنا في القرآن: «إنه أقرب إلينا من حبل الوريد»، وإنه قريب يجيب دعوة من يدعوه. والرسول يقول: «إذا سألت فاسأل الله.. وإذا استعنت فاستعن بالله»(١). وعقائد الإسلام واضحة ليس فيها ما يتعارض مع مقررات العقل السليم.

(ج) تركيز الإسلام على المسئولية الفردية، فكل فرد مسئول عن أعماله مسئولية تامة. وليس في الإسلام خطيئة موروثة (خلافًا لما يقوله المسيحيون). وقد جعل الإسلام الأمن على العقل من بين المقاصد الضرورية الأساسية التي قصدت إليها الشريعة الإسلامية لقيام مصالح الدين والدنيا، وهذه المقاصد الضرورية هي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

(د) حرر الإسلام الفرد المؤمن بعقيدة التوحيد، من الخوف المهين من السلطة الدنيوية ورفعه إلى مقام العزة التي يقول القرآن فيها: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ويقول الرسول أيضًا: «اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس»، كما قرر الإسلام ألا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأن المؤمن لا يخشى في الحق لومة لائم.

وهكذا كفل الإسلام للإنسان المناخ الحقيقي الذي يستطيع فيه أن يفكر ويتأمل ويعي ويفهم، وبهذا أطلق الإسلام سلطان العقل من كل ما كان يقيده، وخلصه من كل تقليد كان يستعبده، وبهذا تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حُرِم منهما وهما: استقلال الإرادة، واستقلال الرأي والفكر.

وبالإضافة إلى ما تقدم نجد في القرآن شواهد لا حصر لها لإطلاق الطاقات الفكرية، ومن بين هذه الشواهد:

أولاً : يعرض القرآن بكل أمانة ودقة آراء المخالفين ثم يتبعها بالرد الحاسم، القائم على المنطق السليم وقوانين الفطرة السليمة، فقد ذكر وجهات نظر الوثنيين والدهريين والماديين والكفار والمنافقين، وعقب عليها تعقيبًا مقنعًا مستخدمًا في ذلك أنصع البراهين وأقوى الأدلة، فالكفار مثلاً حين ينكرون البعث

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي.

بعد الموت، ويقولون: ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ يعقب القرآن على ذلك بقوله.. كما ورد في الآية ٢٤ من سورة الجاثية: ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾. وهنا يفرق الإسلام بين الظن والعلم، موجهًا نظرنا إلى ضرورة فحص الأحكام والتأكد من مصدرها.

ويحذر القرآن من إصدار الأحكام في أمور لا علم للإنسان بها حتى لا يقع في الخطأ والتناقض، فيقول في الآية ٣٦ من سورة الإسراء: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾. وعندما زعم الكفار أن الملائكة إناث، عقب القرآن على زعمهم بقوله في الآية ١٩ من سورة الزخرف: ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾، وهنا يريد القرآن أن يقول لهم: إن هذه الفكرة التي تزعمونها إذا كانت صحيحة، فإنها لابد أن تكون مبنية على الملاحظة والمشاهدة اللتين هما وسيلتان من وسائل العلم والمعرفة الصحيحة.

ثانيًا: يعرض علينا القرآن قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه، والنقاش العقلي الذي دار بينه وبينهم حول الألوهية، وما اشتمل عليه هذا النقاش من أدلة عقلية في صورة متدرجة، في تسلسل منطقي رائع تحمل العقل على محاكاتها للوصول إلى نفس نتائجها، وهي الوصول إلى اليقين الذي تشير إليه الآية في بداية القصة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥][١].



وللأستاذ عباس محمود العقاد قول حسن في هذا المضمار، إذ يقول في مستهل كتابه: «التفكير فريضة إسلامية»: العقل في مدلول لفظه العام ملكة يناط بها الوازع الأخلاقي أو المنع عن المحظور والمنكر، ومن هنا كانت اشتقاقه من مادة «عقل» التي يؤخذ منها العقال، وتكاد شهرة العقل بهذه التسمية أن تتوارد في اللغات الإنسانية الكبرى التي يتكلم بها مئات الملايين من البشر. فإن كلمة «مايند» Mind وما خرج من مادتها الجرمانية تفيد معنى الاحتراس والمبالاة، ويُنادى بها على الغافل الذي يحتاج إلى التنبيه، ونحسب أن اللغات في فروعها الأخرى لا تخلو من كلمة في معنى العقل لها دلالة على الوازع أو على التنبيه والاحتراس..

(١) من كتاب: مقدمة في الفلسفة الإسلامية، تأليف: الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق، ص٣٢ وما بعدها.

ومن خصائص العقل ملكة الإدراك التي يناط بها الفهم والتصور، وهي على كونها لازمة لإدراك الوازع الأخلاقي وإدراك أسبابه وعواقبه، تستقل أحيانا بإدراك الأمور، فيما ليس له علاقة بالأوامر والنواهي أو بالحسنات والسيئات.

ومن خصائص العقل أنه يتأمل فيما يدركه ويقلبه على وجوهه، ويستخرج منه بواطنه وأسراره، ويبني عليها نتائجه وأحكامه، وهذه الخصائص في جملتها تجمعها ملكة «الحكم» وتتصل بها ملكة الحكمة، وتتصل كذلك بالعقل الوازع إذا انتهت حكمة الحكيم به إلى العلم بما يحسن وما يقبح، وما ينبغي له أن يطلبه وما ينبغي له أن يأباه..

ومن أعلى خصائص العقل الإنساني «الرشد» وهو مقابل لتمام التكوين في العاقل الرشيد، ووظيفة الرشد فوق وظيفة العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم، لأنها استيفاء لجميع هذه الوظائف، وعليها مزيد من النضج والتمام، والتمييز بميزة الرشاد.. حيث لا نقص ولا اختلال، وقد يؤتى الحكيم من نقص في الإدراك، وقد يؤتى العقل الوازع من نقص في الحكمة، ولكن العقل الرشيد ينجو به من هذا وذاك..

وفريضة التفكير في القرآن الكريم تشمل العقل الإنساني بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها، فهو يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد، ولا يذكر العقل عرضًا مقتضبًا بل يذكره مقصودًا مفصلاً على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان.

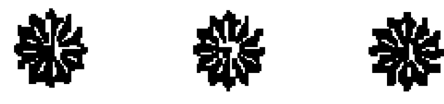
وفي موضع آخر من الكتاب يقول الأستاذ عباس العقاد(١): وموقف الإسلام من العلم- أو من العلوم عامة- يتبين من موقف علمائه المجتهدين في كل حقبة من تاريخه الذي تعاقبت به الأجيال بين القوة والضعف والتقدم والتأخر والنشاط والجمود، فقد مرّت بالأمم الإسلامية عصور متخلفة جهلت فيها الإسلام نفسه.. فجهلت فضل العلم كما جهلت فضل الدين، ولكن الإسلام لم يخل قط تاريخه بين المشرق والمغرب من أئمة مجتهدين استمدوا حرية الفكر من ينبوع تلك القوة الحيوية التي لا تستنزفها المحن والطوارق، فحفظوا رسالة هذا الدين، ولا فرق بينها وبين رسالة العلم في مقصد من مقاصده، وأوجبوا على المسلم أن يتعلم حيث وُجد العلم، وأن ينظر إلى الحكمة كأنها هي ضالته يعنيه أن يبحث

---

(١) قاله في كتاب: «التفكير فريضة إسلامية»، ص٥٨.

عنها ويجدها «وأينما وجدها فهو أحق بها» كما تعلم من رسول الله، واعتقد الأئمة المجتهدون جميعًا أنهم يؤدون أمانة الكتاب في حثهم جماعة المسلمين على طلب المعرفة حيثما وجدوها. فكل معرفة صحيحة هي معرفة قرآنية إسلامية عل اختلافهم في تفسيرها، والنسبة إلى الكتاب الكريم بين فئة ترى أن المعرفة محتواة فيه إجمالاً وتفصيلاً، وفئة ترى أن المعرفة مطلب من مطالب المؤمن بالكتاب لا يعوقه عائق منها أن يتحراها ويحققها ويهتدي بها حيثما أصابها.

فمن الحق أن نعلم أن كتابنا يأمرنا بالبحث والنظر والتعلم والإحاطة بكل معلوم يصدر عن العقل، ولكن ليس من الحق أن نزعم أن كل ما تستنبطه العقول مطابق للكتاب، مندرج في ألفاظه ومعانيه، فإن كثيرًا من آراء العلماء التي يستنبطونها أول الأمر لا يعدو أن يحسب من النظريات التي يصح منها ما يصح ويبطل منها ما يبطل، ولا تستغني على الدوام عن التعديل وإعادة النظر من حين إلى حين.



والتفكير فطرة الإنسان وعمل العقل ورسالته، حتى أن المناطقة يعرفون الإنسان بأنه حيوان ناطق، أي مفكر، والتفكير - كما ذكرنا - فريضة إسلامية، يتسع مجالها في كل ما يشمله الكون الفسيح أمر القرآن بها وحض عليها، يقول الله سبحانه في الآية ١١ من سورة الأنعام: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، ويقول في الآيتين ١٩، ٢٠ من سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ويقول في الآية ١٣٧ من سورة آل عمران: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

ويبيِّن القرآن الكريم مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته في خلق السماوات والأرض، ويسن للناس أحكامًا تحقق لهم الخير والعدل، ويعقب على ذلك بأن هذه الآيات الحسية والمعنوية لا يعقلها إلا العالمون أولو الألباب والمفكرون: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[١].. ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢].

---

(١) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت.

(٢) الآية ١٧٩ من سورة البقرة.

ولهذا ذهب العلماء إلى أن الإيمان عن تقليد محض لا اعتداد به. يقول الإمام محمد عبده في كتاب الإسلام والنصرانية: «إن التقليد بغير عقل ولا هداية شأن الكافرين، وأن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه، حتى اقتنع به. فليس القصد من الإيمان أن يُذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان، بل إن القصد أن يرتقي بعقله وترتقي نفسه بالعلم، فيعمل الخير وهو يفقه أنه الخير النافع المُرضي لله، ويترك الشر وهو يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته».

كما يقول في موضع آخر: «إن الإيمان يعتمد على اليقين، ولا يجوز الأخذ فيه بالظن، وأن العقل هو ينبوع اليقين في الإيمان بالله وعلمه وقدرته».

وإذا كان هذا هو البحث الحر في جانب العقيدة، وهي أساس الدين، فإن الشريعة- وهي الجانب العملي منه- يطلب الإسلام فيها الاجتهاد والتفكير، واستنفاد الوسع والطاقة من كل قادر على معرفة الحكم المقصود من القرآن الكريم أو السنة النبوية، ثم يطلق للعقل استنباط الأحكام غير المنصوص عليها، قياسًا على ما جاءت به النصوص، أو بناء على ما يراه في الحكم من مصلحة جاءت الشريعة لتحقيقها، أو مفسدة جاءت الشريعة لمنعها، أو تطبيقًا للقواعد الشرعية.. ونحو ذلك.

فإن أصاب المجتهد في اجتهاده كان مأجورًا على الاجتهاد وعلى الصواب، وإن أخطأ كان معذورًا ومأجورًا على الاجتهاد. يقول الرسول ﷺ لعمرو بن العاص، بعد أن طلب منه أن يحكم في بعض القضايا، وهو في حضرته، وخشيته من الخطأ فيها: «إن أصبت فلك أجران، وإن أخطأت فلك أجر».

كما يروى عن أبي سعيد الخدري أن رجلين خرجا في سفر، فحضرت الصلاة وليس معهما ماء، فتيمما وصليا، ثم وجدا الماء قبل خروج وقت الصلاة، فتوضأ أحدهما وأعاد الصلاة، إذ رأى أنه قدر على الطهارة الأصلية قبل خروج الوقت، ولم يعد الآخر بناء على أنه أدى الفرض الديني بالطهارة الممكنة، ولم يكن في مقدوره الوضوء وقتها، وبذلك برئت ذمته. ولما ذكرا ذلك لرسول الله ﷺ قال للذي لم يُعد الصلاة: أصبت السنة.. أي الطريقة الصحيحة، وأجزأتك صلاتك، وقال للآخر: لك الأجر مرتين.

ويقول الرسول ﷺ لأصحابه بعد عودته من غزوة الأحزاب إلى المدينة، وعزمه على غزو بني قريظة: من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر

إلا في بني قريظة، ويخرج الصحابة مسرعين امتثالاً للأمر النبوي، ثم تـدركهم صلاة العصر في الطريق، فيصليها بعضهم آخذًا بمفهـوم الـنص قـائلين: إن الرسول لم يرد منا إلا المسارعة إلى بني قريظة، وقد سارعنا في حدود طاقتنا، ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها، ولم يصل الباقون أخذًا بمنطوق النص إلى أن وصلوا إلى بني قريظة ليلاً، لما علم الرسول ﷺ بذلك أقرّ كلاً منهم علـى اجتهاده.

وفي غزوة ذات السلاسل كان عمرو بن العاص يقود كتيبة المـسلمين، وحدث أن عمرو احتلم في ليلة باردة، وخشي على نفسه أن اغتسل أن يمرض، فتيمم وصلى بالناس، وكأن بعض الصحابة شك في هذا الصنيع مـن عمـرو، فذهب إلى النبي ﷺ بعد العودة من القتال يقول له: إن عمروا صلى بنا وهـو جنب؟ قال الرسول: «يا عمرو.. أصليت بأصحابك وأنت جنب؟»، فأخبره بالذي منعه من الاغتسال، فقد خاف على نفسه قسوة البرد، والله يقـول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] فضحك الرسول ولم يقـل شـيئا. وهذا يعني أن الرسول لم يعترض على اجتهاد عمرو.

ثم إن أبا بكر ﵁ لما سُئل عن ميراث الكلالة قال: أقول فيها رأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمن الشيطان، الكلالة ما عدا الولد والوالـد. (وهو رأي صواب).

ويكتب أبو موسى في كتاب عن عمر: هذا ما أرى الله عمر، فيقول لـه عمر: امحه، واكتب هذا ما رأى عمر، فإن يك خطأ فمن عمر.

المذاهب الفقهية.. والاجتهاد:

وقد كانت الحرية الفكرية أساسًا لوجود المذاهب الفقهية وتعددها. يقـول أبو حنيفة: «إذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي والحسن وابن سيرين وسـعيد بن المسيب– وهم من التابعين– فلي أن أجتهد كما اجتهدوا».

ثم لم يكن أحد من الفقهاء يرى أن أقواله تلزم أحدًا، ولا أن رأيه الحـق الذي لا يأتيه الباطل، بل كان كل منهم يرى مذهبه صوابًا يحتمل الخطأ!، ومذهب مخالفه خطأ يحتمل الصواب. ولقد سُئل أبو حنيفة: هذا الذي تفتي به هـو الحـق الذي لا شك فيه؟ فيقول: والله لا أدري.. لعله الباطل الذي لا شك فيه. كما يقول: لا ينبغي لمن لا يعرف دليلي أن يفتي بكلامي.

ثم كان الإمام مالك يقول: أنا أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيـي، فمـا

وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافق فاتركوه. ويقول: كل أحد يؤخذ منه ويرد عليه، ما خلا رسول الله ﷺ.

والاجتهاد بمعنى بذل الجهد في معرفة أحكام الشرع الإسلامي حق ثابت لكل من منحه الله سبحانه أهلية النظر والبحث، بل إنه من الواجبات الكفائية التي يتوجه فيها الطلب إلى الجماعة، وتأثم الأمة كلها إذا قصرت في القيام به، ولم تقم بإعداد القادرين عليه. يقول الأستاذ الكبير الشيخ المراغي شيخ الجامع الأزهر الأسبق: «ليس الاجتهاد ممكنًا عقلاً فقط، بل هو ممكن عادة، وطرقه أيسر مما كانت الأزمنة الماضية، أيام كان يرحل المحدث إلى قطر آخر لرواية حديث.. وأيام كان يرحل الرواة لرواية بيت من الشعر أو كلمة من اللغة. وقد توافرت مواد البحث في كل فرع من فروع العلوم.. وهذا لم يكن ميسورًا لأحد في العصور الأولى، وأن الزمن لم يغير من خلقة الإنسان، وأن العقول لم تضمر، وأن الطبيعة باقية في الإنسان كما كانت في العصور الماضية».

وليس معنى فتح باب الاجتهاد في الشريعة الإسلامية في حرية فكرية، أن يتصدى له من لم يتأهل له، ولا يكون في هذا حجر على هذه الحرية الفكرية، وإنما هو الحماية لها، وليس في هذا كهنوتية إسلامية، وإنما هو التخصص والأهلية. والقول بغير ذلك يؤدي إلى الفوضى والبلبلة الفكرية لا إلى الحرية.

والعقل والنقل في ميدان النظر والبحث والتفكير صنوان لا يفترقان، ولا يستغني أحدهما عن الآخر، ويصور ذلك الإمام أبو حامد الغزالي بقوله: «الشرع عقل من الخارج، والعقل شرع من الداخل، وهما متعاضدان بل متحدان، ولكون الشرع عقلاً من الخارج سلب الله تعالى اسم العقل عن الكافر في غير موضع من القرآن نحو قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ولكن العقل شرعًا من الداخل، قال تعالى في صفة العقل: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، فسمى العقل دينًا، ولكونهما متحدين قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي نور العقل ونور الشرع[١].



وربما اختلف الأولون في كلامهم عن العقائد نفسها، فقدم بعضهم العقل على النقل، وقدم آخرون النقل على العقل. وعند التأمل نرى أن الفريقين يقدران قيمة العقل الإنساني ويعرفان له مكانته الضخمة، لكن الفريق الذي يؤخره على

---

(١) من كتاب الأستاذ زكريا البري (المرجع السابق)، ص٣٣.

النقل يحدد له مجال عمله الناجح، ويقصره على الميدان الذي يستطيع فيه ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج.

أما الزج بالفكر الإنساني في عالم ما وراء المادة ليبتكر أحكامًا وينشئ تصورات، فهذا تحميل للعقل فوق طاقته. ومن العبث انتظار خير منه في هذه المجالات. والخلاف بين المحافظين من أهل السنة (الذين يقدمون النقل) والمتطرفين من المعتزلة (الذين يقدمون العقل) يبدأ من هذه النقطة، فأهل السنة يحترمون العقل، لأنهم مسلمون يتصلون بكتاب الله الذي رفع قدره، وكرم أهله. ولكن إقحام العقل في عالم الغيب، وتكليفه بدراسة فاحصة لما وراء المادة (كما يفعل المعتزلة) ظلم للعقل وإعنات له[١].

ج- الحرية المدنية

الحرية المدنية يراد بها أن يكون للإنسان حرية التصرف في أموره الشخصية والمالية، بحيث يكون أهلاً لإجراء العقود، وتحمل الالتزامات، وتملك العقار والمنقول، والتصرف فيما يملك.

وقد أرسى الإسلام دعائم هذه الحرية، وجعل لكل فرد سيادة ذاتية، يملك ويرث، ويبيع ويشتري ويرهن ويكفل، ويهب ويقف ويوصي ويتصدق ويتزوج، ويتصرف بكل التصرفات التي تحقق المصلحة الفردية والمصلحة الجماعية. وإذا كان قد حُجر في بعض التصرفات المالية على السفيه وذي الغفلة، فإن الهدف هو صيانته والمحافظة على ماله، والحرص على مصلحته[٢].

وعلى أساس هذه الحرية يملك كل إنسان- فضلاً عما سبق- أن يقيم حيث يشاء، وأن يسافر متى شاء، وأن يجتمع بمن يريد الاجتماع بهم، وأن يحترف من المهن ما يهوى، وذلك كله وفق قانون يمنع الضرر والعدوان.. حتى لا يشتط أحد في استخدام حريته فيؤذي الآخرين، وينال من حرياتهم.

والله ﷻ خلق الإنسان كامل المسئولية، وشرع له التكاليف الدينية، ورتَّب عليه المثوبة والعقوبة، على أساس إرادته الحرة، وامتلاكه المطلق للاتجاه ذات اليمين وذات الشمال. يقول الحق تبارك وتعالى في الآية ٢٨٦ من سورة

---

(١) من كتاب فضيلة الشيخ محمد الغزالي (المرجع السابق)، ص٦٤.
(٢) الأستاذ زكريا البري (المرجع السابق)، ص٤٦.

البقرة: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾. ويقول في الآيات من ٣٩-٤١ من سورة النجم: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾.

ثم إن الأصل في الأشياء الإباحة، ودائرة الحلال التي يمرح فيها الإنسان رحبة الأكناف. جاء في الآية ٢٩ من سورة البقرة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾. وموقف الشارع من الناس أنه: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[الأعراف: ١٥٧].

فهل لأحد بعد ذلك أن يقيد حرية الآخرين أو يسلبهم إرادتهم؟ لا.. إلا أن يكون ظالمًا يستمرئ العدوان، ويتطاول فوق أخيه الإنسان دون سبب ما[1].

الإسلام والرق

وُجد الرق بوجود الإنسان، حتى لنرى آثاره ماثلة في كل عصر وفي كل أمة على مدى التاريخ. وكان اليهود واليونان والرومان والجرمان الأولون، يعرفون الرق ويمارسونه بنوعيه: رق الأرض، ورق البيت، وكان اليهود منذ أن كانوا أمة يمارسون نوعين من الرق، فكان اليهودي الذي يُضرب عليه الرق عقابًا لجرم اقترفه أو سدادًا لدين اقترضه أعلى مكانة من العبد غير اليهودي، فكانت الشريعة اليهودية تمنح الأول حريته بعد قضاء سبع سنوات في الأشغال الشاقة، إلا إذا أبى الانتفاع بهذا الحق. أما الأرقاء الأجانب، فكانوا محرومين من مزايا هذا الإجراء، وهو نظام ينبعث من روح المحاباة القومية، وما امتاز به اليهود من التعصب. وكانت حياة هؤلاء الأرقاء والإماء طافحة بالمتاعب والشدائد، كما كان أقنان الأرض وأرقاء البيت هدفًا للبغضاء والاحتقار معًا، إذ كانوا يكابدون الأعمال الشاقة بصفة دائمة في خدمة سادة لا يعرفون الرحمة.

ولم تبد المسيحية أي احتجاج على الرق، ولم تنفذ أي قانون، ولم تشرع أي قاعدة.. للتخفيف من وطأة هذه الآفة. وإذا استثنينا بعض الملاحظات القليلة التي أبداها السيد المسيح عليه السلام بشأن عصيان العبيد، وما أسداه من نصح عام لأسيادهم، بإعطائهم ما يستحقونه، لم نجد في تعاليمه ما يدل على إنكار الرق، بل نجد على العكس، أن المسحية قد فرضت على العبد والأَمَة الخضوع المطلق

(١) فضيلة الشيخ محمد الغزالي (المرجع السابق)، ص٨٤، ١٤٢ مع إضافة بسيطة.

لسيدهما. ولما وجدت المسيحية الرق نظامًا مقررًا في الدولة الرومانية أقرته دون أن تبذل أي مجهود للحد من أضراره، أو إلغائه تدريجيًا، أو تحسين حالة الأرقاء.

ولم يكن لدخول الديانة المسيحية في أوربا أي أثر في الرق البشري إلا فيما يتعلق برجال الدين، إذ كان في وسع الرقيق أن يصبح حرًا إذا ترهبن ما لم يطلبه سيده في غضون ثلاث سنوات. وفيما عدا ذلك شاع الرق بكثرة وبصور شتى، كما كان الحال أيام الحكم الوثني.

أما الإسلام فلم يفرق بين الناس بسبب السلالة أو اللون، فالأبيض والأسود والمدني والجندي، والحاكم والمحكوم، كلهم يتمتعون بالمساواة التامة نظريًا وعمليًا. وسدد الإسلام ضربة قاصمة إلى نظام الرق، وكان من الممكن أن يزول الرق من الوجود كلية بزوال الجيل الذي يمارسه، لولا تأصل جذوره في الأمم المجاورة، وميل الناس بطبعهم إلى الانحراف عن جادة العدل والإنصاف. هذا فضلاً عن أن هذه الآفة كانت متغلغلة في القوم الذين ظهر فيهم النبي ﷺ، وكان السبيل الوحيد للقضاء عليها، هو التشريع الذي يتسم بالرحمة والحكمة، لا تحرير الأرقاء تحريرًا كاملاً مفاجئًا، وهو الأمر الذي كان مستحيلاً من الناحية المادية والأدبية، ولذلك شُرعت أحكام سلبية وإيجابية لا حد لها، تفضي بالتدريج على تحرير الأرقاء، وكان من شأن أي سياسة تخالف ذلك أن تفضي إلى انهيار الدولة الناشئة انهارًا تامًا.

وأكثر النبي ﷺ من الترغيب في فك الرقاب، وجعله أفضل القربات إلى الله، وجعل العتق كفارة الفرائض التي يقصر المسلم في أدائها، وأجاز للعبد أن يشتري حريته بأجر خدمته، وإذا لم يكن لديه المال الذي كوتب عليه، وأراد كسبه عن طريق الاشتغال بعمل آخر سُمح له بترك مولاه بعد الاتفاق معه على ذلك، ونص أيضًا على دفع بعض المبالغ من بيت المال إلى الأرقاء ليشتروا بها حريتهم. ونهي السيد عن إكراه فتياته على البغاء: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فالإسلام لا يلصق بالرق ضربًا من الخزي والعار، ولكن يعده أمرًا عارضًا لا سُنّة طبيعية كما يعده القانون المدني الروماني وآباء الكنيسة، وكثيرًا ما كان زيد بن حارثة – الذي أعتقه الرسول ﷺ – يتولى إمرة الجيش دون أن يعترض كبار القادة الذين يعملون تحت إمرته، وتولى ابنه أسامة إمرة الحملة

التي سيّرها أبو بكر إلى الروم(١).

إن الإسلام لم يجئ بشرع الاسترقاق، بل جاء بشريعة الحرية، ورد الاسترقاق إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها. كما يقول الفاروق عمر: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»؟.

والقارئ للقرآن الكريم لا يجد فيه آية واحدة تبيح الاسترقاق والاستعباد، وإنما يجد الآيات المتعددة تنادي بتحرير الأرقاء وتحض على إعتاقهم، وتجعل هذا التحرير من أعظم القربات إلى الله، والطاعات الدينية، ثم تجعله كفارة تستر ما يقع فيه المسلم من بعض المخالفات الدينية، بل إنه يوجبه على الدولة الإسلامية، ويجعله عملاً من أعمالها، ومصرفًا من مصارف أموالها، ونفصل هذا الإجمال بعض التفصيل فنقول:

أولاً: يخيّر القرآن أسرى الحرب بين أمرين لا ثالث لهما: المنّ عليهم بنعمة الحرية من غير مقابل، أو المنّ عليهم بها في مقابل فداء مالي أو شخصي، وهو ما يسمى الآن: «تبادل الأسرى». يقول الله تعالى في الآية ٤ من سورة محمد: ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾. كذلك إذا رجعنا إلى السنة النبوية وجدنا أن أقوال الرسول ﷺ وأفعاله تنطق بأنه ما جاء مُسترقًا بل محررًا، يحث على العتق ويحض عليه، فيقول: «من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضوًا منه من النار». ويقول: «أيما رجل مسلم أعتق رجلاً مسلمًا.. فإن الله ﷻ جاعل وفاء كل عظم من عظامه عظمًا من عظام من حرره».

وإذا كان الصحابة قد استرقوا في حروبهم، فإنما كان ذلك ضرورة حربية لا محيص عنها، ومعاملة بالمثل، حيث كان أعداؤهم يسترقون أسرى المسلمين، وتسهيلاً لاستخلاص هؤلاء الأسرى المسلمين من يد أعدائهم عن طريق التبادل. ثم إن الله ﷻ يشير إلى قاعدة المعاملة بالمثل في قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ وفي قوله: ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ﴾ فمن انتهك حرمة من الحرمات، ولم يكن هناك مفر من مقابلته بمثل عمله، كانت المصلحة في معاملته بالمثل، وفي حدود الضرورة حتى يرتدع(٢).

---

(١) المرجع: كتاب روح الإسلام، تأليف: سيد أمير علي، الجزء الثاني، ص١٤٠ وما بعدها.
(٢) كتاب الأستاذ زكريا البري (مرجع سابق) ص٤٨.

وكانت روافد الرق في العصر الذي ظهر فيه الإسلام كثيرة متنوعة[١].

وجاء الإسلام ووقف بها وحصرها عند المعاملة بالمثل، وبقدر الضرورة من غير تجاوز ولا اعتداء.

ثانيًا: لم يكتف الإسلام بذلك، بل وضع خطة عظيمة لإنهاء الرق.. وقد كان أساسًا لنظام الحياة الاقتصادية والاجتماعية.. تدريجيًا من غير ضجة اقتصادية أو اجتماعية.

فجعل عتق الرقبة كفارة للحنث في اليمين، يقول الله تعالى في الآية ٨٩ من سورة المائدة: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾.

كما جعله كفارة في الظهار، وهو تحريم الرجل زوجته على نفسه، ثم رغبته في العودة إليها. يقول الله تعالى في الآيتين ٣، ٤ من سورة المجادلة: ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾.

ثم جعله كفارة للقتل الخطأ، يقول سبحانه في الآية ٩٢ من سورة النساء: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾.

وكفارة للإفطار المتعمد في نهار رمضان، فقد روى أبو هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: هلكت يا رسول الله، قال: ما شأنك؟ قال: وقعت على امرأتي في رمضان، قال: فهل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا، قال: فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكينًا؟ قال: لا.

ويلاحظ أن العتق هو الواجب الأول في بعض هذه الكفارات قبل الصيام

---

(١) كتاب الدكتور علي عبد الواحد وافي (مرجع سابق) ص١٥٦.

وهو من أسمى العبادات، وقبل الإطعام للفقراء، وما أشد حاجتهم إليه، وكأن رد الحرية إلى الرقيق وفيها حياته الحقيقية أولى وأهم.

ثم جعله كفارة لضرب العبد أو لطمه، يقول الرسول ﷺ: «من لطم مملوكا له أو ضربه فكفارته عتقه»(١).

ثم جعل تحرير العبيد مصرفًا من مصارف الزكاة في قوله تعالى في الآية ٦٠ من سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾.

ودعا إلى تحرير الرقاب قربة وطاعة لله، كما ورد في الآيات من ١١-١٦ من سورة البلد: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾. كما قال سبحانه في الآية ١٧٧ من سورة البقرة: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾.

فإن أبدى الرقيق رغبة في الحرية في مقابل مالي، كان على مالكه الاستجابة لرغبته في الخروج إلى ساحة الحرية وهو ما يسمى «المكاتبة» مع التخفيف عنه في هذا المال الذي يدفعه، ومعاونته ماليًا في أدائه، وفي هذا يقول الله تعالى في الآية ٣٣ من سورة النور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ ثم إن القرابة القريبة تتنافى مع الاسترقاق. ولهذا إذا ملك الشخص قريبه المحرم صار هذا القريب حرًا. يقول الرسول ﷺ: «ومن ملك ذا رحم محرم فهو حر».

وكذلك علاقة الزوجية، فإذا ملك الزوج زوجته صارت حرة، وإذا ملكت الزوجة زوجها صار حرًا. ثم إذا استولدها (أي كان له منها ولد)، كانت في سبيلها إلى الحرية، فإن شاء حررها، وإلا حرم عليه التصرف في ملكيتها حتى يموت فتكون حرة، والرسول ﷺ يقول: «أيما امرأة ولدت من سيدها فإنها حرة إذا مات».

---

(١) رواه مسلم.

وإذا أوصى المالك بعتق عبده لم يجز له الرجوع في الوصية، وكان هذا العبد حرًا بعد الوفاة، ولو تجاوزت قيمته ثلث التركة الذي تنفذ فيه الوصايا، بل إن المالك إذا جرى على لسانه هازلاً إعتاق عبده، أصبح العبد حرًا، فإن الحرية لا تتوقف على القصد والنية.

وهكذا تتعدد أسباب التحرير بصورة واضحة، وتترتب على بعض الأعمال والتصرفات المتكررة، وتكون مع ذلك في مسئولية الدولة الإسلامية والأفراد المسلمين، بحيث لو صارت سيرًا طبيعيًا ما بقي رقيق، وهو ما خطط الإسلام له.. وتطلع إليه.. كما يقول الفقهاء.

فإذا جاء العالم اليوم بعد صحوة وحرم الرق، كان مستضيئًا بنور الإسلام ومقتبسًا من روحه. تنص المادة الرابعة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على أنه: «لا يجوز استرقاق أو استعباد أي شخص، ويحظر الاسترقاق وتجارة الرقيق بكافة أوضاعها»[١].



ومع هذا حرص الإسلام على معاملة الرقيق معاملة إنسانية أخوية كريمة، إلى أن يجعل الله له مخرجًا إلى الحرية. يقول الرسول الكريم ﷺ: «إخوانكم خولكم قد ملككم الله إياهم، ولو شاء لملكهم إياكم، فأطعموهم مما تطعمون، واكسوهم مما تكسون». ويقول: «ما خففت عن خادمكم من عمله كان لك أجرًا في موازينك». ويقول: «للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل ما لا يطيق»، وفي موقف آخر يقول: «هم إخوانكم وخولكم.. جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه».

وكان من وصاياه ﷺ حين حضرته الوفاة، الوصية بالأرقاء قارنًا لها بالمحافظة على الصلاة، يقول أنس رضي الله عنه كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة، وهو يغرغر بنفسه: «الصلاة.. وما ملكت أيمانكم».

وفوق هذا كان من الأدب القرآني والأدب النبوي تسمية العبد فتى، والأَمَة فتاة، ابتعادًا عن معنى الاستعباد، يقول الله تعالى في الآية ٢٥ من سورة النساء: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾. ويقول الرسول ﷺ: «لا تقل عبدي

---

(١) من كتاب الأستاذ زكريا البري عن حقوق الإنسان، ص٥٠.

وأمتي، ولكن قل فتاي وفتاتي».

وكان من نتيجة معاملة المسلمين للأرقاء هذه المعاملة، اندماج الأرقاء في الأسر الإسلامية أخوة متحابين، حتى كأنهن بعض أفرادها[١].

مرة ثانية تقول: ماذا فعل المسلمون بما لديهم من الأسرى:

إن التعاليم التي بين أيديهم توصي بهم خيرًا، إنها تصف المؤمنين بأنهم: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

والرسول عندما يحض على مكارم الأخلاق يقول: «عُودوا المريض، وأطعموا الجائع، وفكوا العاني» أي أطلقوا سراح الأسير.

ومع أن سادة العرب الذين سقطوا في أيدي المسلمين الأولين في معركة بدر كانوا يستحقون سوء المصير، إلا أننا نجد القرآن ينصح أولئك الأسرى في أول معركة بين المسلمين والمشركين.. وكما جاء في الآيتين ٧٠، ٧١ من سورة الأنفال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

ومن هذا الخطاب ندرك الروح التي يصدر الإسلام عنها في معاملته لمن حشدوا الحشود لقتل الرسول، ولمن ظلوا بضعة عشر عامًا يوقعون المظالم الفاجعة بجمهور المسلمين، يريدون إفناءهم أو إضلالهم.

وقد أوصى النبي بالرقيق كثيرًا، وذلك منذ العهد الأول باتخاذ الأسرى إلى أواخر حياته ﷺ، فقد ثبت أنه لما وزع أسرى بدر على الصحابة قال لهم: «استوصوا بالأسرى خيرًا».

ويقول أحدهم: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداء أو عشاء خصوني بالخبز.. وأكلوا التمر، لوصية الله إياهم بنا. وروي أن النبي ﷺ أعطى أبا الهيثم أسيرًا وأوصاه بإحسان معاملته، فلما أخبر زوجته بذلك قالت له: لن نستطيع أن ننفذ وصية الرسول إلا بإعتاقه.. فأعتقه.

وقال أبو مسعود البدري: كنت أضرب غلامًا لي بالسوط، فسمعت صوتًا

---

(١) المصدر السابق، ص٥٦.

من خلفي: «اعلم أبا مسعود» فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام» فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا، وفي رواية.. فقلت: يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى، فقال: «أما لو لم تفعل للفحتك النار - أو لمستك النار».

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم فوق ذنوبهم، فإن كانت كفافا لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، فإن كانت كفافا لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل» فتنحى الرجل فأخذ يهتف ويبكي، فقال رسول الله ﷺ ما تقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فقال الرجل: يا رسول الله، ما أجد لي ولهؤلاء خيرًا من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرار.

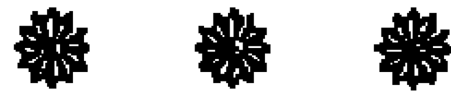
وقال ﷺ: «ما خففت من خادمك من عمله كان لك أجرًا في موازينك».

ويروى أن **عمر** ﷺ كان يذهب إلى العوالي في كل يوم سبت، فإذا وجد عبدًا في عمل لا يطيقه وضع عنه منه، وقد مرَّ يومًا بمكة فرأى العبيد وقوفا لا يأكلون مع سادتهم، فغضب وقال لمواليهم: ما لقوم يستأثرون على خدَّامهم؟ ثم دعا الخدم فأكلوا معهم.

وعندما سافر ﷺ إلى بيت المقدس للتفاوض مع البطريرك في تسليم البلد عقب حصار جيش أبي عبيدة لها، لم يكن معه هو وغلامه إلا ناقة واحدة، فكانا يتناوبان ركوبها الواحد بعد الآخر، إلى أن اقتربا من بيت المقدس، وكان الدور للغلام في الركوب، فلم يجد عمر غضاضة من المشي وغلامه راكب، حتى دخلا بيت المقدس على هذه الحال.

وروي أن **عليًا (كرم الله وجهه)** أعطى غلامه دراهم ليشتري بها ثوبين متفاوتي القيمة، فلما أحضرهما أعطاه أرقهما نسيجًا وإغلاهما قيمة، وحفظ لنفسه الآخر وقال له: أنت أحق مني بأجودهما لأنك شاب تميل نفسك للتجمل، أما أنا فيكفيني هذا.

وروي أن عثمان ﷺ ، دعك أذن عبد له على ذنب فعله، ثم قال له عثمان بعد ذلك: تقدم واقرص أذني، فامتنع العبد فألح عليه، فبدأ يقرص بخفة، فقال له: أقرص جيدًا، فإني لا أتحمل عذاب يوم القيامة، فقال العبد: وكذلك يا سيدي، اليوم الذي تخشاه.. أنا أخشاه أيضًا..(١).



ولم يكن من المعقول أن أختم القول في هذا المبحث عن «تحرير الرقيق» دون أن أشير إلى رجلين كان لكل منهما فضله ومآثره في هذا المضمار، فاق به كل أهل عصره من المؤمنين الصادقين، الذين يسعون إلى العمل بكتاب الله، وتقديم الخير في سبيل الله، وهما: الصديق العظيم أبو بكر، والصائم العابد زين العابدين علي بن الحسين:

تذكر كتب السيرة النبوية أن «بلال بن رباح» لقي من سيده «أمية بن خلف» كل أنواع الأذى وألوان التعذيب لرده إلى الشرك بعد أن آمن بالله ربًّا وبمحمد نبيًّا، فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه سيده على وجهه وظهره، ثم يضع حجرًا على صدره، ويقول له: ستظل هكذا حتى تكفر بمحمد وتؤمن باللات، لكنه احتمل كل هذه الآلام المتكررة، وصبر على الأذى والتعذيب. وكلما حاولوا إرغامه على الإيمان بآلهتهم، لا يرد عليهم إلا بتلك الكلمات التي ملكت عليه نفسه ومشاعره: «أحد.. أحد».

وقد رآه أبو بكر يومًا يقاسي أشد العذاب، فقال لسيده أمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين! فرَّد قائلاً: أنت أفسدته وفتنته عن دين آلهتنا وعبادة أصنامنا، فعرض عليه أبو بكر أن يشتريه، وما زال يساومه حتى اشتراه وأعتقه في سبيل الله، بعد أن خلصه من تعذيب سيده.

وفي هذا نزل قوله تعالى في سورة الليل (الآيات من ١٤-٢١): ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾.

وذكر المفسرون أن المقصود بالأشقى: أمية بن خلف، والأتقى هو

---

(١) المرجع: كتاب فضيلة الشيخ محمد الغزالي (مرجع سابق)، ص٨٥ وما بعدها.

أبو بكر الصديق ﷺ. وقد نبّه الله ﷻ إلى أن بذل أبي بكر لماله في سبيل الله.. في شراء بلال.. لم يكن إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، وكفى بهذا شرفًا وفضلاً.

والمعروف أن أبا بكر الصديق أعتق على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب (سابعهم بلال) منهم عامر بن فهيرة، وأم عبيس، والنهدية وبنتها، وزنيرة، وقد أُصيب بصرها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا وبيت الله، ما تضر اللات والعزى وما تنفعان. فرد الله إليها بصرها.

أما أمية بن خلف، فقد مكّن الله منه بلالاً.. فقتله يوم بدر بمعونة رجال من الأنصار(١).

وكان لزين العابدين علي بن الحسين ﷺ أريحية عتق العبيد، وتحرير الرقيق، جاوزت كل تصور، إرثًا كريمًا، وموروثًا طيبًا، تسلل إلى قلبه من جده المصطفى ﷺ، **فما عرفت البشرية إنسانًا حرر الذات الإنسانية من رق العبودية لغير الله تعالى مثل «محمد» نبي الرحمة والإنسانية.**

فكان عليٌّ زين العابدين يعتق العبد إذا أحسن جزاءً وفاقًا على إحسانه، وكان يعتقه إذا أساء ثم أناب واستغفر. وروى أنه لم يستعمل عبدًا أكثر من عام واحد، كما يروى أنه أعتق أكثر من ألف عبد على مدى عمره، كل ذلك تقربًا إلى الله تعالى.. وفي سبيل رضاه. وكان أكثر فعله هذا ليلة عيد الفطر. وكان ﷺ يطلب من العتيق أن يتوجه إلى القبلة ويدعو: (اللهم اغفر لعلي ابن الحسين) ثم يزوده بعطاء غير ممنون، ليكون للعيد لديه فرحة مضاعفة.

وذكروا أن الأمير الأموي هشام بن عبد الملك حج في عهد أخيه الوليد بن عبد الملك، فلما طاف بالبيت جهد أن يستلم الحجر الأسود، فلم يطق زحام الناس عليه، فجلس ينظر إلى الناس، إذ أقبل زين العابدين بن علي، من أحسن الناس وجهًا، وأطيبهم ريحًا، فطاف بالبيت، فكان كلما بلغ الحجر تنحى الناس عنه حتى يستلمه، فقال رجل من أهل الشام من بطانة الأمير: مَنْ هذا الذي هابه الناس هذه المهابة؟! فقال هشام: لا أعرفه، استنقاصًا من قدره، ومخافة أن يرغب الناس فيه، فقال الفرزدق الشاعر.. وكان حاضرًا: لكني أنا أعرفه، وقال قصيدة طويلة رائعة في تقدير زين العابدين وحب آل البيت، نقتطف منها الأبيات التالية:

---

(١) وردت في كتاب: محمد ﷺ أعظم البشر، تأليف: محمد أحمد خضر، ص١٢١.

هذا سليل حسين وابن فاطمة   بنت الرسول التي انجابت به الظُلَمُ
هذا ابن خير عباد الله كلّهمُ   هذا التقيّ النقيّ الطاهر العلمُ
هذا الذي تعرف البطحاءُ وطأتهُ   والبيتُ يعرفه والحل والحرمُ
إذ رأته قريشٌ قال قائلها   إلى مكارم هذا ينتهي الكرمُ
ينمى إلى ذروة العز التي قصرت   عن نيلها عَرَبُ الإسلامِ والعجمُ
يكاد يمسكه عرفان راحته   ركنُ الحطيم إذا جاء يستلمُ
مشتقةٌ من رسول الله نبقته   طابت عناصرها والخيم والشيمُ
ينجاب نور الهدى من نور غرّته   كالشمس ينجاب من إشراقها الغيمُ
حمَّال أثقال قوم إذا فدحوا   حُلو الشمائل تحلو عنده نعمُ
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهلَهُ   بجدّه أنبياء الله قد ختموا
من جدّه دان فضل الأنبياء له   وفَضل أمته دانت لها الأممُ
عَمَّ البريةَ بالإحسان فانقشعت   عنها الغواية والإملاق والظُلَمُ
كلتا يديه غياثٌ عمَّ نفعهما   يستو كفان ولا يعروهما العدمُ
سهل الخليقة لا تُخشى بوادره   يُزينه اثنتان: الحلم والكرمُ
من مَعشرٍ حبهم دين وبُغضُهُمُ   كفر وقربُهُمُ منجًى ومعتصمُ
يُستدفع السوء والبلوى بحبهمُ   ويُستزاد به الإحسان والنعمُ
مُقدَّم بعد ذكر الله ذكرُهُمُ   في كل حكم ومختوم به الكلمُ
إن عُدَّ أهل التقى كانوا أئمتهم   أو قيل من خيرُ أهل الأرض؟ قيل هُمُ
لا يستطيع جواد بُعد غايتهم   ولا يدانيهمُ قوم وإن كرموا
فليس قولك مَن هذا بضائره   العربُ تعرف من أنكرت والعجمُ

الفصل الثالث
الحق في العدالة والمساواة والتقاضي

العدل ركن في الإسلام، عليه تُربَّى الأمة وتؤسس الدولة. والعدل أمر من الله ﷻ للمؤمنين في كل حال، لأن العدل أكبر من الجميع، وفوق كل شيء، فإن العدل أساس المُلك، وأساس الحكم.

والعدل يعني العدالة في تطبيق القوانين، والعدالة في الفصل في الخصومات، وعدالة التوزيع، والعدالة الضريبية، وغيرها من أوجه العدل بين الناس، كالعدالة في تولي الوظائف، والعدالة في وضع المرتبات والأجور. وللعدل معاني أخرى أكثر من ذلك، فالعدل في اللغة العربية قد يعني التسوية بين شيئين، فيُقال عدل بين هذا الشيء وذاك إذا سوّى بينهما، وقد يكون مفهوم العدل بمعنى التوسط بين الإفراط والتفريط. فالعدل له معاني كثيرة، وكلها تمثل حقوقًا للبشرية.

والعدل بين الناس هو الغاية المقصودة من الشريعة الإسلامية، ولهذا أمر الله المسلمين أن يقوموا بالقسط ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين. وقالوا إن الله يقيم الدولة بالعدل ولو على كفر، ولا يقيمها بالظلم ولو على إسلام. وعن ذلك المعنى يحدثنا رسول الله ﷺ ، أنه قال في معنى (جعلناكم أمةً وسطا) أي عدولاً.

لذلك أكد القرآن الكريم على قيمة العدل، وبيَّن لنا أن من صفات الله ﷻ أنه: «الحكم العدل». وقال عز وجل في الآية ٥٨ من سورة النساء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾.. ولذلك تقوم سياسة الحكم في الإسلام على أساس العدل من الحكام، والطاعة من المحكومين، والشورى بين الحاكم والمحكوم، ولذلك نجد قول الحبيب المصطفى ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسًا: إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابًا إمام جائر»[1].

والعدالة لا تقتصر على السياسة والحكم فقط، بل تتعداها إلى كل ما في حياتنا، فلقد أوجب الإسلام العدل بين أبناء الأسرة جميعًا، كما جاء في الحديث: عن النعمان بن بشير أنه قال نحلني أبي (أي وهبني) نِحلة، وسأل أمي فقالت:

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذي.

لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ، فجاءه ليشهد على ذلك، فقال الرسول ﷺ: «أكل ولدك نحلت مثله؟، فقال: لا! فقال رسول الله ﷺ: «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم»، وقال: «إني لا أشهد على جور»، قال: فرجع أبي فردّ تلك الصدقة.

وفي يوم حنين تجرأ رجل اسمه أبو الخويصره التميمي، فوقف على الرسول وهو يوزع العطاء على الناس فقال: يا محمد، قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم، فقال الرسول ﷺ: «أجل.. فكيف رأيت؟» فقال: لم أرك عدلت!! فغضب رسول الله ﷺ وقال: «ويحك، إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟!»(١).

ولا يجوز أن يطلب الفرد العدالة لنفسه دون الآخرين، بل من حق الفرد في الإسلام.. ومن واجبه أيضًا أن يدافع عن حق أي فرد آخر، وعن حق الجماعة عن طريق «الحِسبة». وقال الرسول ﷺ: «ألا أخبركم بخير الشهداء.. الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها»(٢)(٣).

وقد عني الإسلام بإقامة العدل عناية عظيمة لأنه أساس المُلك وقوامه، وعدته ونظامه، فقال تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ الآية ٨ من سورة المائدة. وخاطب رسوله قائلاً: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ﴾ الآية ١٥ من سورة الشورى.

وقال: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ الآية ١٥٢ من سورة الأنعام.

وقال: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ الآية ٥٨ من سورة النساء.

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ الآية ٩٠ من سورة النحل.

يُفهم من هذه الآيات أن القرآن الكريم أمر بالعدل أمرًا عامًا، دون تخصيص جنس دون جنس، ولا طائفة دون طائفة، لأن العدل نظام الله وشرعه.

ونهى ﷻ عن اتباع الهوى، وطالب بالتزام العدل، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْ﴾ الآية ١٣٥ من سورة النساء.

---

(١) رواه ابن هشام.

(٢) رواه مسلم والترمذي وأبو داود.

(٣) من كتاب حقوق الإنسان العامة في الإسلام (مرجع سابق)، ص١٢٤ وما بعدها.

كما قال تعالى مخاطبًا نبيه داود عليه السلام: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ الآية ٢٦ من سورة (ص).

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ الآية ٨ من سورة المائدة. والمعنى المقصود من هذه الآية الكريمة هو ألا يدفعكم بغض قوم على ألا تعدلوا، بل يجب التمسك بالعدل في الرضا والغضب. ومصداقًا لذلك قال رسول الله ﷺ: «ثلاث منجيات وثلاث مهلكات: فأما المنجيات: فالعدل في الرضا والغضب، وخشية الله في السر والعلن، والقصد في الغنى والفقر، وأما المهلكات: فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه».

ورغبة منه سبحانه في حث الناس على إقامة العدل، قال في أكثر من موضع في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾. جاءت هذه الجملة في آيات عديدة، منها ما ورد في الآية ٤٢ من سورة المائدة في خطاب الرسول: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾. كما قال تبارك وتعالى مخاطبًا عباده المؤمنين: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ الآية ١٣٥ من سورة النساء. وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ الآية ٨ من سورة المائدة. ويقول الرسول ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

وسر الأمر بالعدل أن العدل الشامل يدعو إلى الطاعة، ويبعث على الألفة، ويستوجب المودة، وتعمر به البلاد، وتنمَّى به الأموال. بينما إذا اختفى العدل ساد الظلم، وتفشى الفساد، وانقلب المجتمع الآمن المستقر إلى مجتمع جائر مضطرب، أشبه بالغابة التي يفترس فيها القوي الضعيف، أو كالحيتان التي يلتهم كبيرها صغيرها، فلا استقرار ولا طمأنينة في الحياة الدنيا، أما في الآخرة فإن جزاء الظلم عذاب أليم.

قال تعالى في الآية ٢٩ من سورة الكهف: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾.

وقال في الآية ١٨ من سورة غافر: ﴿ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾.

وقال في الآية ٧١ من سورة الحج: ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾.

وتضمن القرآن الكريم آيات أخرى عن الظلم ومآله، والظالمين ومصيرهم، منها قوله تعالى في الآية ٤٢ من سورة الشورى: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. ومنها قوله سبحانه: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ الآية ٦٥ من سورة الزخرف. وكذا قوله تعالى: ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ الآية ٢٢٧ من سورة الشعراء.

وانتشار الظلم بين بعض أفراد المجتمع قد يكون سببًا في هلاك المجتمع بأسره، لذا يحذر المولى سبحانه عباده من عاقبة السكوت على الظلم في قوله سبحانه في الآية ٢٥ من سورة الأنفال: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾.

كما يحذر سبحانه من السكوت على الظالمين، وإظهار الرضا عن أفعالهم، فإن صاحب هذا الموقف يكون مصيره النار، وذلك كما ورد في الآية ١١٣ من سورة هود: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

والإمام أو الولي يجب أن يكون قدوة حسنة، لأنه هو الذي يتقدم الصفوف، وبصلاح الإمام أو الولي ينصلح حال الرعية، لذا شدد الرسول الكريم في أحاديثه على أهمية وخطورة مركز الإمام أو الولي، فقال عليه الصلاة والسلام: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم.. يرفعها الله فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، يقول سبحانه: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين».

ومن يقدم على مواجهة ولي ظالم، ومات في سبيل ذلك، فإنه يرتفع إلى منزلة الشهداء، بل يصبح في نظر الإسلام خير الشهداء، وهذا ما يؤكده الرسول العظيم في حديثه الذي يقول فيه: «خير الشهداء شهيد مات في كلمة حق قالها لولي جائر».

والعدالة في مضمونها تشمل ما يسمى «العدالة القانونية» وهي أن يكون القانون الذي يحاكم الناس به واحدًا، وأن يكون تطبيقه على الجميع واحدًا، فلا يضار فقير، ولا يحابى غني، ولا مناصرة لمسلم على غير مسلم، إنما المساواة هي الأساس في التطبيق، ولذا قال ﷺ: «كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، وقد تأسى أبو بكر الصديق بهدي النبي ﷺ

فقال: «القوي منكم ضعيف حتى أخذ الحق منه، والضعيف منكم قوي حتى آخذ الحق له».

كما تشمل العدالة في مضمونها «العدالة الاجتماعية» بأن يُمَكَّن كل إنسان من أن يعيش عيشة كريمة، وأن يكون من استغلال مواهبه ما يفيد شخصه وجماعته، وأن تهيأ الفرص لكل إنسان أن يعمل بطاقته الجسمية والعقلية.

كما تشمل العدالة في مضمونها- من جهة ثالثة- «العدالة الدولية»، وهي تقوم على أساس الوفاء بالعهد، والمعاملة بالمثل، وأن الأساس في معاملة الناس وعلاقتهم بغيرهم هو السلم.

وبالعدل تنتظم أحوال الرعية، ولذلك وجب في نظام المجتمع الإسلامي وآدابه السامية، اختيار الولاة والقادة وسائر الحكام من أهل العلم والتقوى والنزاهة، فاختيار القادة واجب، وتقييدهم بالنظام لازم، وانتقاؤهم من ذوي الاستقامة المشهود لهم بالصدق والإخلاص والعفة والحزم ضربة لازب.

والرشوة وما في حكمها هي الحرام، وأكل لأموال الناس بالباطل، وهي إذا أخذت لإحقاق باطل، كانت من أشد أنواع الظلم والجور.. الذي لا يفلت صاحبه من العقاب، وإذا دفعت لتيسير مصلحة بغير حق، كانت من أعظم أكل أموال بالناس بالباطل.

قال تعالى في النهي عن الرشوة: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الآية ١٨٨ من سورة البقرة.

ومن الكذب على الله، والافتراء على الناس، ما يقدمه المحكوم للحاكم باسم الهدية، وهي الرشوة بعينها.

جاء في صحيح البخاري ومسلم: استعمل النبي ﷺ رجلاً من الأزد على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أُهدي لي، فقال النبي ﷺ: ما «بال الرجل نستعمله على عمل مما ولانا الله، فيقول هذا لكم وهذا أهدي إليّ؟! فهلا جلس في بيت أبيه أو بيت أمه فنظر أيُهدى إليه أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأخذ منه شيئا إلا جاء يوم القيامة يحمله على رقبته: إن كان بعيرًا له رغاء، أو بقرةٍ لها خوار، أو شاة يَنْعَر (أي تصيح)، ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم.. هل بلّغت»[١].

---

(١) كتاب: محمد المثل الكامل للأستاذ محمد أحمد جاد المولى، ص٣١١.

والقاعدة في الإسلام أن لا فضل لفرد على فرد إلا بالتقوى، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

وقال الرسول في حجة الوداع: «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لقرشي على حبشي، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى».

فالإسلام يجعل الناس سواسية كأسنان المشط من حيث الحقوق والواجبات، والخضوع للأحكام والتكاليف، فلا أنساب بينهم، ولا تفاخر استنادًا إلى القبيلة أو العائلة أو الأصل أو اللون أو غير ذلك، فقد أصبح التفاخر بشيء من ذلك من الأمور التي لا يقرها الإسلام، بل هي من بقايا الجاهلية. داس أحدهم على رداء أبي ذر الغفاري فغضب الصحابي الجليل وقال لهذا الشخص: يا ابن السوداء، فنهره الرسول وقال له: «إنك امرؤ فيك جاهلية»، لماذا؟ لأن نفسه ما زالت تحمل تفرقة بسبب اللون.

والمساواة التامة بين الناس التي أتى بها الإسلام وفرضها على الخاضعين له، ليست مطلقة فإن الإسلام يقر بأن الناس منازل، وبأنه يمكن أن يكون بينهم تفاضل لسبب آخر غير التفرقة العنصرية البغيضة، كأن يكون التفاضل بسبب العلم، أو بسبب الجهاد في سبيل الله، أو بسبب التقوى، أو بسبب الإيمان والخروج من الكفر.

قال تعالى في الآية ٩ من سورة الزمر: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال تعالى في الآية ١٠٠ من سورة المائدة: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾.

وقال في الآية ٩٥ من سورة النساء: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

وقال في تفضيل المؤمنين على غيرهم.. في الآية ٢٤ من سورة هود: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وتمشيًا مع مبدأ المساواة بين البشر حث الإسلام على تحرير الرقيق وإعتاقهم وحسن معاملتهم، ولم يجعل الاسترقاق موجبًا للهوان، ولا مسقطًا للكرامة، ولم يكن عند المسلمين ذلك الفرق الجسيم الذي نتصوره الآن بين

الرقيق وسيده، بل عاملوا الموالي على أنهم من أفراد الأسرة، وخلطوهم بأنفسهم، وأوجبت الشريعة معاملتهم بالرفق واللين، قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [الآية ٣٦ من سورة النساء].

وروى عليّ كرم الله وجهه عن النبي ﷺ: «اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم». وروى ابن عمر عنه ﷺ: «اتقوا الله في الضعيفين: المملوك والمرأة».

وعن المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه مثلها، فسألته عن ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إخوانكم خولكم (أي مواليكم) جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه».

وكان عمر رضي الله عنه يقول: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا» يعني بلالاً[1].

---

(١) من كتاب: محمد ﷺ أعظم البشر (مرجع سابق)، ص٢٢٩-٢٣٥.

التقاضي في الإسلام

إن من أهم بواعث الأمن، واستتاب السكينة، والشعور بالراحة النفسية والكرامة الخاصة، أن يحس كل إنسان بأنه في حصانة تامة من أي حيف. وأن القوانين موضوعة لحمايته لا لإهانته، وأن ما ينسب إليه من خطأ أو انحراف، لا يصدق لأول وهلة، بل يأخذ طريقًا واضحًا من التحقيق والتثبت.

إن سَوْق التهم جزافًا، وإيقاع العقوبات حسب الأهواء، زلازل تدك معالم الجماعة، وتهوى بها إلى درك سحيق. وقد كان المستبدون - ولا يزالون - يتصيدون خصومهم، ثم يلصقون بين الشبهات والتهم، ويصدرون ضدهم الأحكام. فلا غرو أن يتطلع الإنسان إلى جو تسوده العدالة، وتمحص فيه القضايا تمحيصًا يقوم على النزاهة والدقة، فلا يعاقب برئ ولا يفلت من العقوبة مجرم.

إن الإسلام رسالة تستهدف إقامة العدل، وأنبياء الله كلهم بُعثوا من بدء الخليقة لإذاقة الناس حلاوته، قال تعالى في الآية ٢٥ من سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

ومعرفة أحكام الله في قضايا الناس لا تحتاج إلى جهد صعب، إنما الذي يحتاج إلى الجهد العسير معرفة قضايا الناس نفسها، واستكشاف الحقيقة من بين الألفاظ التي يصنعها الدهاء والمكر، فإن للناس حيلاً هائلة في إخفاء ما يرتكبون من آثام، وتضليل القضاء عن إيقاع العقاب في محله الصحيح. من أجل ذلك لابد للقضاء من وسائل حصيفة لإماطة النقاب عن الحق.. حتى يصدر الحكم لا ريب فيه.

وقد بيَّن القرآن الكريم أن العلم بالأحكام قدر مشترك بين كثيرين، ولكن الإحاطة بأحوال الناس هبة لا ينالها إلا الأقلون. قال تعالى في الآيتين ٧٨، ٧٩ من سورة الأنبياء: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. هذا الفهم الخاص وسيلة لاستبانة الواقع وضبط الحكم عليه.

والشريعة لم تحص كل الوسائل التي تعين على إقامة العدل، وعلى عقد محاكمات شريفة تمسك بالمجرمين وحدهم، وتطلق سراح الأبرياء، لقد تركت ذلك لاجتهاد الناس وتطور الزمان، وما دام العدل في نظر الشارع غاية تُقصد لذاتها، فكل ما يوصل إليه يُعد شريعة، وإن لم يصرح الشارع به ويذكر تفاصيله.

وبعد أن اتضحت معالم الشريعة التي يتحاكم الناس إليها، نحب أن نقرر

تساوي الجميع أمامها، فإن العدالة لا تتجزأ، وهي في نظام الدولة كالفضيلة في حياة الفرد، أو كالشعاع في طبيعة الشمس.. لا تتخلف ولا تغير.

والمؤمن والكافر أمام القانون سواء. وقد عاب القرآن الكريم على اليهود أنهم يفاوتون بين أتباع الأديان في معاملاتهم، وبيَّن أن ذلك ينافي التقوى والوفاء. يقول ﷻ في الآيتين ٧٥، ٧٦ من سورة آل عمران: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾. والآية واضحة في أن اختلاف الدين لا يجوز أن يكون مدعاة لتغابن أو تظالم.

وطالما احتكم مسلمون وغير مسلمين إلى القضاء الإسلامي، فكانت العدالة تفرض نفسها وتأخذ طريقها إلى شتى أطراف المتنازعين دون تفرقة. ذلك أن الإسلام دين يقوم على السماحة في معاملة الآخرين، وعلى احترام أواصر الإنسانية التي تجمع بين بني آدم قاطبة. وقد امتاز الإسلام بهذا المسلك النبيل في أيام كان التعصب الديني الأعمى يسود أهل الأرض قاطبة.

والقضاء- في الإسلام- «فريضة محكمة وسُنَّة متبعة»، كما جاء بكتاب سيدنا عمر إلى أبي موسى الأشعري. وهو هنا يقرر القاعدة الأساسية في فرضية القضاء ووجوبه، وفرضيته ثابتة بالقرآن والسنة والإجماع. وهو فريضة محكمة لم يطرأ عليها نسخ أو إلغاء، بل أكدها العمل على مر العصور منذ بدأ الإسلام، فأصبح سنة متبعة، وسبيل مقطوع به إلى إقرار العدل بين الناس.

والقضاء فرض كفاية كالجهاد، يتولاه من يستطيع القيام به من أفراد الأمة، فيسقط فرض القيام به عن الآخرين، ولا يكون فرض عين على أحد إلا إذا لم يوجد غيره. سُئل الإمام مالك ﵁: «أيُجبر الرجل على ولاية القضاء؟» قال نعم: «إن لم يوجد منه عوض».

يقول الماوردي في كتاب «أدب القاضي»: «الأصل في وجوب القضاء وتنفيذ الحكم بين الخصوم: كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع الأمة عليه».

وقد تهيب الفقهاء حمل أمانة القضاء في كثير من الأحيان خوفًا من المسئولية أمام الله، ومن أمثلة ذلك أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان طلب إلى عبد الله بن عمر أن يتولى القضاء فاعتذر، فقال له عثمان: وما تكره من ذلك

وكان أبوك يقضي؟ قال عبد الله: إن أبي كان يقضي، فإن أُشكل عليه شيء، سأل رسول الله ﷺ، فإن أشكل على رسول الله سأل جبريل، وإني لا أجد من أسأله.

ولقد امتنع الإمام أبو حنيفة- من قبل عهد أبي جعفر- أن يتولى القضاء في عهد الأمويين، فلما طلب منه أبو جعفر المنصور أن يتولى القضاء اعتذر، وحلف أبو جعفر عليه أن يقبل، وحلف أبو حنيفة أنه لا يقبل. وقد أصرَّ أبو حنيفة على الرفض ولم يتولى القضاء، رغم تعذيبه وسجنه (بسبب الشك في ولائه).

وقد وضع فقهاء الشريعة شروطًا يجب توافرها فيمن يتولى القضاء هي أن يكون ذكرًا بالغا حرًا مسلمًا عاقلاً عدلاً، وأن يكون من أهل الاجتهاد، عالمًا بالأصول الشرعية الأساسية، وهي القرآن والسنة والإجماع والقياس، قادرًا على فهمها، والاستنباط منها، والقياس على أحكامها، وهذا علاوة على شرط سلامة حواس السمع والبصر والنطق لحاجة عمل القاضي إليها، وقد أجاز بعض الفقهاء أن يتولى الأعمى القضاء، كما يشترط بعض الفقهاء أن يكون القاضي ذا فضيلة وكمال، ورعًا عفيفًا عن التهمة، صائن النفس عن الطمع، عالمًا بمباشرة الناس ومعاملاتهم، وأن يكون محمود السيرة.

والأصل في النظام القضائي الإسلامي هو أن الأحكام نهائية، وعلى درجة واحدة، وهذا ما يعجل بحسم المنازعات وإنهاء الخصومات. بخلاف الحال في الأنظمة الحديثة حيث تتعدد درجات التقاضي وطرق الطعن في الأحكام، مما يطول به أمد النزاع، ويتأخر الفصل في القضايا، مما يرهق أصحاب الحقوق، ويجعل العدل البطيء، نوعًا من الظلم(١).

وشرع في القضاء الإسلامي ما يشبه قضاء النقض في عصرنا هذا، فيرد حكم القاضي فيما خالف نص آية أو سنة أو إجماع، أو ما يثبت من عمل أهل المدينة، أو قياسًا لا يحتمل إلا معنى واحدًا، أو قامت بينة على أن له فيه رأيًا فحكم بغيره سهوًا. وقد يأخذ المرجع الذي يُنقض الحكم أمامه بغير هذه الأسباب أو ببعضها دون سائرها، ولكن حق النقض مسلم مشروط بالدليل القاطع الذي لا يحتمل اختلاف الآراء.

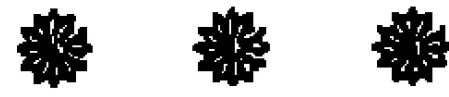
وكان الخلفاء يقترون على أنفسهم ويوسعون في أرزاق القضاة، فكان

---

(١) المرجع: كتاب: نظم الإدارة والحكم في الدولة الإسلامية للمستشار عمر حافظ شريف، ص١١٢ وما بعدها.

رزق سليمان بن ربيعة الباهلي في عهد عمر خمسمائة درهم مشاهرة، وكذلك كان رزق شريح في عهد علي، وجرت سُنَّة الخلفاء بعدهم على التوسعة في أرزاق القضاة، وترجيحهم على الولاة.

أما أدب القضاء الأكبر في الإسلام فهو تطامن القاضي واعتقاده على الدوام جواز الخطأ على أحكامه وتقديراته، ولو جاز لأحد أن يؤمن الناس بعصمة قضائه من كل خطأ لجاز ذلك للنبي ﷺ، ولكنه ﷺ كان يقول للخصوم قبل أن يقضي بينهم: «إنما أنا بشر، وإنه يأتينيَ الخصوم، فلعل أحدكم أن يكون ألحن من بعض، فأحسب أنه صادق فأقضي له بذلك، فمن قضيتُ لهُ بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها»[١].



لما بُعث نبي الرحمة سنَّ للمسلمين مكارم الأخلاق، ومسالك البر والفضل. فعن طريق البخاري عن جابر قال: مرت بنا جنازة، فقام لها النبي ﷺ وقمنا فقلنا: يا رسول الله: إنها جنازة يهودي؟ قال: «إذا رأيتم الجنازة فقوموا» وفي رواية أخرى: «أليست نفسًا ؟!!»[٢].

وقد حاول البعض في عصر الرسول الكريم أن يخدش قاعدة المساواة العامة أمام القانون، فقوبلت محاولاته بكل شدة:

ذلك أن قريشًا أهمَّها أمر المرأة المخزومية التي تقرر قطع يدها لثبوت جريمة السرقة عليها، فرأوا أن يستشفعوا بأسامة بن زيد إلى رسول الله ﷺ كي يتجاوز عن إقامة الحد.. لما لأسرة المرأة من مكانة، وكان الناس يعلمون أن رسول الله شديد الحب لأسامة ولأبيه زيد.. الذي قُتل في معركة مؤتة. فلما تحدث أسامة في الشأن الذي جاء من أجله، غضب الرسول ﷺ منه وانتهره وقال مستنكرًا: «أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟!. ثم قام في الناس خطيبًا يقول لهم: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله.. لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها»[٣].

---

(١) المرجع: كتاب الديمقراطية في الإسلام، تأليف عباس محمود العقاد، ص١١٧.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري.

وبهذا القول الحاسم أرسى حجر المساواة العامة بين الناس كلهم أمام شريعة الله.

وعلى ضوء هذا الهدي النبوي، يمكن القول بأن الإسلام كان يستطيع إبادة الجماعات القليلة التي رفضت أن تدين به بين المحيطين، ولو فعل هذا لكان متمشيًا مع منطق المعاملة بالمثل، ولكن الإسلام أبى عن ترفع ونزاهة، وبقيت ملل شتى في أرضه شاهد صدق على طبيعته. وكان يمكن أن يعامل الآخرين معاملة يظهر فيها بين الحين والحين طابع التمييز لأبنائه، والميل على غيرهم، والإغضاء عن حقوقهم... !

ويضيف **الأستاذ محمد الغزالي** في كتابه الذي نقتبس منه: ويسرنا أن نقرأ شهادة خالصة لوجه الحق كتبها الزعيم العربي المحقق **العلامة «فارس الخوري»** ينصف بها هذا الدين، ويصف بها عدالته في الداخل والخارج، ويقارن بين شرائعه والشرائع الأخرى، فتظهر المقارنة ما امتاز به الإسلام من سماحة وبر، يقول الأستاذ فارس:

وشريعة موسى تحتوي أظهر الأمثلة بين الشرائع الإلهية للشدة، فهي مبنية على القتل العام، ومحو سكان البلاد المفتوحة، سواء أكانوا أسرى حرب أو مستسلمين صلحًا، ولا فرق- عندهم- بين رجل مسلح محارب، أو شيخ أعزل، أو امرأة، أو طفل. فالكل يذهبون طعام السيوف، تمحو أسماءهم من تحت السماء.

والبون شاسع بين شريعتي موسى ومحمد (عليهما السلام)، فالأولى تأمر بالتقتيل بدون إنذار، ولا عهد، ولا صلح، ولا دعوةٍ لإيمان. فلا يُقبل من الأعداء التهود، ولا يعصمهم من القتل والفناء الإيمان خوفًا من الارتداد فيما بعد، ولا يُسمح بالرحيل والجلاء عن بلادهم لتخلو لليهود الفاتحين، خوفًا من استجماع القوى والكر على الغاصبين. والشريعة الثانية تأمر بدعوتهم إلى الإسلام، فإن قبلوا الدعوة عصموا دماءهم وأعراضهم وأموالهم. وإن أبوا فالجزية، وإن أبوا فالقتال، وهذه دعوة دينية قبل كل شيء.

قال موسى عليه السلام لقومه: «كل ما كان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان، من نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم» (تث ١١: ٢٤). وهذا أيضًا خالفته بها الشريعة الإسلامية السمحاء، فتركت الأرض لسكانها، وفرضت عليها خراجًا، كما فرضت الجزية على السكان لتمويل المحاربين في

الجيش مقابل إقرار الأمن، وإقامة العدل، وحماية البلاد. وهو عين ما تفعله كل سلطة عادلة.. حتى في هذه الأيام.

وهناك في شريعة موسى عليه السلام قاعدة أخرى تطبق على البلاد والمدن البعيدة الخارجة عن الحدود المذكورة في الفقرة السابقة مما هو ضمن تخوم إسرائيل، فقد جاء فيها: «حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك أبوابها، فكل الشعب المولود فيها يكون لك للتسخير.. ويُستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها.

وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة.. فهو غنيمتك تغتنمها لنفسك.. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة عنك جدًا التي ليست من هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تستبق منها نسمة ما.. بل تحرمها تحريما». ومعنى التحريم في هذه الآية وغيرها: القتل العام، يعني حرب الإبادة. فانظر - يا رعاك الله - إلى هذا الصلح، وإلى هذه القواعد.

أما حفظ العهود ووجوب العمل بها في شريعة موسى، فهو محصور بالعهود المعقودة بين بني إسرائيل فقط (أي بين بعضهم البعض)، ولا يجب على الإسرائيلي أن يحتفظ بعهده مع الغير التاعس، ولا مع العدو المحارب.. !!

وهذا غير ما جاءت به الشريعة الإسلامية من الوفاء بالعهد، وإنكار النكث والنقض، وأمثلة ذلك كثيرة».

ويضيف الأستاذ محمد الغزالي تعليقًا على ما سبق قائلاً:

إن موسى ومحمد - عليهما السلام - إخوة. وإذا كان القرآن الكريم قد غرس أمام المسلمين الأوائل طريقًا مليئًا بالهدى والنور، فتلك طبيعة الوحي الإلهي في كل زمان ومكان.

إن الله وصف القرآن الكريم بقوله، في الآية ٥٢ من سورة الشورى: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾. ووصف التوراة بقوله، في الآية ٤٤ من سورة المائدة: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾.

وحرب الإبادة التي قرأنا نصوصها، والتي تقوم على إهلاك الحرث والنسل، وحصد الأطفال والنساء، واجتياح البريء والمريب، ودمار الحاضر

والمستقبل، هذه الحرب المجرمة لا يمكن أن يوعز بها أو يرضى عنها موسى عليه السلام. كيف؟ وهو نبي مرسل من عند الله للإصلاح والرحمة؟!. ولا يمكن أن تتضمنها آيات التوراة، وإلا ما كانت هدًى ولا نورًا..!

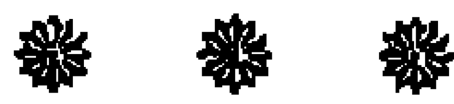
والله جل شأنه ليس ربًا محليًا لبني إسرائيل يعطف على مدينهم، فيحرم أخذ الربا منه، ويقسو على المدين من الأمم الأخرى فيبيح ماله للمرابين!!. إن هذه التعاليم من إفك اليهود.. وليست من شريعة لموسى.

وإن العقيدة الإسلامية تنزه موسى، وتسند إليه أكرم النعوت، وتجليه لنا رجلاً غيورًا على الحق، متطلعًا إلى رحمة الله يقول.. كما جاء في الآية ١٧ من سورة القصص: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾. ويقول في الآية ٢٤ من ذات السورة: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

والمفروض في أي دين سماوي أنه يعلق قلوب الناس بالدار الآخرة. فكيف يتصور أن التوراة الحاضرة لا تذكر الدار الآخرة أبدًا!! وكيف تكون هذه التعاليم شارة على دين سماوي؟!

ونستطرد بعد ذلك إلى ذكر ما قاله الأستاذ فارس الخوري: «ولم يضع السيد المسيح عليه السلام شريعة دنيوية، ولا تعرض لذلك تلاميذه الحواريون. وبقي أتباعهم في الدنيا مطلقي الأيدي، يواجهون كل زمان بما يناسبه من الشرائع والأحكام»(١).

هذا.. وسوف نستكمل صورة اتجاهات الدين المسيحي عندما نتحدث عن عصر الإغريق وعصر الرومان بمشيئة الله تعالى.



تطبيقات وأحكام:

المسلمون يعرفون من سيرة الرسول ﷺ أنه قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ». والمفاهيم التي قررها الإسلام لوظيفة الحكم وأشخاص الحاكمين كانت شيئًا جديدًا كل الجدة بالنسبة لما عُرف في دنيا الفرس والرومان يومئذ، فالإسلام سوّى بين الحاكم والمحكوم في الحقوق العامة، واعتبر الحكم وظيفة لخدمة اجتماعية محدودة

---

(١) المرجع: فضيلة الشيخ محمد الغزالي (مرجع سابق)، ص٢٦ وما بعدها.

السلطة لقاء أجر معين. وهذا المعنى كان مجهولاً كل الجهد، بل منكورًا كل النكر في الإمبراطوريات الضخمة التي تقسمت أقطار العالم.

فالقيصر المقدس في القسطنطينية، وملك الملوك الحاكم بأمره في المدائن، رجال فوق البشر، وذواتهم مصونة لا تمس، وهم لا يكلفون بخدمة الرعايا، وإنما تكلف الرعايا بخدمتهم. ومن منطلق هذه السيادة الباهرة، ما قاله فرعون مصر لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. وما قاله ملك فرنسا لقومه: «أنا الدولة».

فكيف يتصور الإسلام رئيس الدولة؟

إن الله أمر صاحب الرسالة أن يُعرّف نفسه للناس: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

فلما تولى أبو بكر الخلافة بعد رسول الله ﷺ خطب الناس فقال: «أيها الناس إني وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فتابعوني، وإن أسأت فقوموني... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم».

وجاء عمر بعده فقال: «لوددت أني وإياكم في سفينة في لجة البحر تذهب بنا شرقًا وغربًا، فلن يعجز الناس أن يولوا رجلاً منهم، فإن استقام تبعوه، وإن جنف قتلوه. فقال طلحة: وما عليك لو قلت: وإن تعوج عزلوه، فقال عمر: لا.. القتل أنكل لمن بعده». وكتب لأبي موسى الأشعري واليه على الكوفة يقول: «يا أبا موسى: إنما أنت واحد من الناس، غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً، إن ولي أمر المسلمين يجب عليه ما يجب على العبد لسيده».

وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان عندما ضاق المسلمون ببعض تصرفاته: «إني أتوب وأنزع، ولا أعود لشيء عابه المسلمون، فإذا نزلت من منبري فليأتني أشرافكم فليروني رأيهم. فو الله لئن ردني الحق عبدًا لأذلن ذل العبيد».

وقال عمر بن الخطاب للناس يومًا: ما قولكم لو أن أمير المؤمنين شاهد امرأة على معصية؟ يعني أتكفي شهادته في إقامة الحد عليها. فقال له علي بن أبي طالب: (يأتي بأربعة شهداء أو يُجلد حد القذف شأنه في ذلك شأن سائر المسلمين)[١].

---

(١) المرجع: كتاب فضيلة الشيخ محمد الغزالي (المرجع السابق)، ص٢٢ وما بعدها.

وحدث أن حضر بباب عمر سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب في جمع من السادة ينقطع ندّهم بين الأكابر، وحضر في ذات الوقت صهيب وبلال وهما موليان فقيران، ولكنهما شهدا بدرًا وصحبا رسول الله، فأذن لهما قبل علية القوم! وغضب أبو سفيان فقال لصاحبه: لم أر كاليوم قط، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه؟! أما صاحبه فكان حكيمًا فقال: أيها القوم: إني والله أرى الذي في وجوهكم، إن كنتم غضابًا فاغضبًا على أنفسكم، دُعي القوم- إلى الإسلام- ودُعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دُعُوا يوم القيامة وتُركتم؟!...

ولو غير عمر لما تقدم عنده صهيب وبلال، ولا أمن أن يغضب عليه أبو سفيان وسهيل، ولكن عمر يستوعب جيدًا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

عمر والعدل :

وكان عمر حاكمًا عادلاً، شديدًا في تمسكه بالعدل والمساواة، حتى كان عدل عمر- ولا يزال- مضرب الأمثال. ذلك أنه كان أشد عباد الله خشية لله ووجلاً من حسابه، وكان يدرك ما يقتضيه الحكم بين الناس من أناة ودقة ومحاسبة نفس، فإذا أتاه الخصمان برك على ركبتيه وقال: «اللهم أعنّي عليهما، فإن كل واحد منهما يريدني عن ديني». ولم يكن به على أهله في إقامة العدل رأفة، بل كان إذا أراد أن ينهي الناس عن شيء تقدم إلى أهله فقال: لا أعلمن أحدًا وقع في شيء مما نهيت عنه إلا أضعفت له العقوبة.

يقول الأستاذ عباس العقاد في مؤلفه «عبقرية عمر»:

لم يكن عمر عادلاً لسبب واحد بل لجملة أسباب. كان عادلاً لأنه ورث القضاء من قبيلته وآبائه، فهو من أنبه بيوت عديّ الذين تولوا السفارة والتحكيم في الجاهلية، وراضوا أنفسهم من أجل ذلك جيلاً بعد جيل على الإنصاف وفصل الخطاب، وجده نفيل بن عبد العزى هو الذي قضى لعبد المطلب على حرب بن أمية حين تنافرا إليه وتنافسا على الزعامة.

وكان عادلاً لأنه قوي مستقيم بتكوين طبعه.. وإن شئت فقل أيضًا بتكوينه الموروث، إذ كان أبوه الخطاب وجده نفيل من أهل الشدة والبأس.

وكان عادلاً لأن آله من بني عدي قد ذاقوا طعم الظلم من أقربائهم بني عبد شمس، فاستقر فيهم بغض القوي المظلوم للظلم وحبه للعدل الذي مارسوه

ودربوا عليه، وساعدت عِبَر الأيام على تمكين خليقة العدل في خلاصة هذه الأسرة، أو خلاصة هذه القبيلة، ونعني به عمر ابن الخطاب.

وكان عادلاً بتعاليم الدين الذي استمسك به وهو من أهله.. بمقدار ما حاربه وهو عدوه، فكان أقوى العادلين.. كما كان أقوى المتقين والمؤمنين.

وكذلك اجتمعت عناصر الوراثة، والقوة الفردية، وعِبَر الحوادث، وعقيدة الدين.. في صفة العدل التي أوشكت أن تستولي فيه على جميع الصفات(١).

والأمثلة على عدل عمر كثيرة. ومن أشهر هذه الأمثلة:

كان عمرو بن العاص واليًا لمصر، وكان ابنه يُجري الخيل في ميدان السباق، فنازعه بعض المصريين السبق.. واختلفا بينهما لمن يكون الفرس السابق، وغضب ابن الوالي، فضرب المصري وهو يقول: أنا ابن الأكرمين، فاستدعى عمر الوالي وابنه حين رفع إليه المصري أمره، ونادى بالمصري في جمع من الناس أن يضرب خصمه قائلاً: اضرب ابن الأكرمين!. ثم أمره أن يضرب الوالي لأن ابنه لم يجرؤ على ضرب الناس إلا بسلطانه، وصاح بالوالي مغضبًا، وقال قولته الشهيرة: بِمَ (أو متى) استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟ فما نجا الوالي من يده إلا برضى من صاحب الشكوى واعتذار مقبول.

وكان خالد بن الوليد أشهر قادة الإسلام في زمانه، فأحصى عليه عمر بعض المآخذ، ومنها إنفاقه من بيت المال في غير ما يرضاه، فأمر به أن يحاكم في مجلس عام.. كما يحاكم أصغر الجند، وعزله بعد مقاسمته فيما يملك من نقد ومتاع.

وقد نقم خالد عزله فخطب الناس ومضى يقول: «إن أمير المؤمنين استعملني على الشام حتى إذا كانت بثنية- أي حنطة- وعسلاً عزلني وآثر بها غيري». فما أتمها حتى نهض له رجل من السامعين فقال له: صبرًا يا أمير.. فإنها الفتنة، فرد خالد على الفور قائلاً: أما وابن الخطاب حيّ فلا.

وكان جبلة بن الأيهم أميرًا غسَّانيًا يعتنق المسيحية فأسلم، وأسلمت معه طائفة من قومه، ثم وطئ أعرابي إزاره، فلطمه جبلة على ملأ من حجاج بيت الله، فقضى عمر للأعرابي أن يلطم الأمير أمام الملأ، لأن الإسلام لا يفرق بين سوقة وأمير.

---

(١) المرجع: كتاب عبقرية عمر، تأليف: عباس محمود العقاد، ص٢٧.

وخطب عمر يومًا فقال: ألا وإني والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن ارسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إليّ، فو الذي نفسي بيده لأقصنه منه». فوثب عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين: أفرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته.. إنك لتقصنه منه؟!

قال: إي والذي نفس عمر بيده.. إذًا لأقصنه منه أنا، وكيف لا أقص منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه. ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم».

قَدِمَ مكة عمر رضوان الله عليه، فأقبل أهل مكة يسعون: يا أمير المؤمنين أبو سفيان حبس مسيل الماء علينا ليهدم منازلنا. فأقبل عمر ومعه الدرة، فإذا أبو سفيان قد نصب أحجارًا، فقال له: ارفع هذا، فرفعه، ثم قال: وهذا، وهذا.. حتى رفع أحجارًا كثيرة.. خمسة أو ستة. ثم استقبل عمر الكعبة فقال: الحمد لله الذي جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه.

وكان أبو بكر الصديق قد عهد إلى عمر بالحكم بين الناس والفصل في منازعاتهم، ولما ولي عمر الخلافة تولى القضاء في أيامه الأولى، ولكن نظرًا لكثرة مشاغله فقد رأى أن يسند القضاء لشخص يتفرغ للفصل في الخصومات، وفعل نفسي الشيء في الأمصار، فقد فصل مهمة القضاء عن أعمال الوالي وأسندها إلى أشخاص متفرغين من ذوي التقوى والورع، والصرامة في التمسك بالحق.

وكان يرسل إلى القضاة بتوجيهات أصبحت دستورًا للقضاء في الدولة الإسلامية على مر الزمان، من ذلك الكتاب الذي أرسله إلى عبد الله بن قيس (المعروف بأبي موسى الأشعري)، وقال له فيه:

«أما بعد.. فإن القضاء فريضة محكمة وسُنَّة متبعة، فافهم إذا أُدلي إليك، وأنفذ إذا تبين لك فإنه لا ينفع حق لا نفاذ له..

آس بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك..

البينة على من ادعًى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحلّ حرامًا أو حرم حلالاً. ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس، فراجعت فيه نفسك وهُديت لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم لا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل..

الفهم! الفهم! فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا في سُنَّة، واعرف الأشباه والأمثال، ثم قس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أحبها إلى الله، وأشبهها بالحق فيما ترى. واجعل لمن ادعى حقًا غائبًا أو بينة، أمدًا ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه.. وإلا استحللت عليه القضاء، فإن ذلك أنفى للشك، وأجلى للعمَى، وأبلغ في العذر..

وإياك والقلق والضجر والتأذي بالناس، والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر، ويحسن الذُخر، فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى، يكفيه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزيَّن للناس فيما يعلم الله خلافه منه، شانه الله (أي أبغضه) وهتك ستره وأبدى فعله، فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه، وخزائن رحمته؟.. والسلام».

وهذا الكتاب، كما هو واضح، قد أورد الكثير من القواعد المحكمة، التي ظلت نبراسًا يضيء للقضاء في كل زمان، وفي كل مكان.. من الدول الإسلامية، فقد تضمن:

(أ) أن القضاء فريضة محكمة، وسُنَّة متبعة.

(ب) أن يتبع القاضي حكمه بتنفيذ ما أصدر من أحكام، فلا نفع لحكم لا يتم تنفيذه.

(ج) أن على القاضي أن يُسَوِّي بين الخصمين في الجلوس أمامه دون تمييز لأيهما على الآخر، بسبب مركزه أو مكانته.

(د) البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر.

(هـ) الصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحًا أحلَّ حرامًا، أو حرَّم حلالاً.

(و) مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل.

(ز) الفهم! الفهم! والتبصر والتدقيق في فهم الخصومة المعروضة، فإذا لم يكن في الخصومة حكم من الكتاب أو السنة، فعلى القاضي الاجتهاد، وأن يقيس الأمور بنظائرها.

(ح) المسلمون عدول بعضهم على بعض، أي يصلحون لأداء الشهادة بعضهم على بعض، إلا من كان قد جُلد لإقامة الحد عليه، أو سبه له إن كان شاهد زور، أو كانت تربطه بأحد الخصوم صلة ولاء أو نسب.

(ط) أن يكون القاضي- وقت نظر الخصومة- مرتاح النفس، غير قلق ولا ضجر، حتى لا ينشغل عن متابعة أحداث القضية، وسماع حجج

المتخاصمين، وألا يكون غضبانًا، لأن الغضب يخرج الشخص عن طوره، ويؤثر على حسن تقديره.

وقد اعتبر هذا الكتاب دستورًا للقضاء في كل زمان لما احتوى عليه من قواعد عامة، يجب على كل قاضي أن يتوخاها ويلتزم بها، حتى يوفق إلى إحقاق الحق، والقضاء بالعدل.

في كل صفحة من صفحات هذا الفصل كانت شخصية الفاروق عمر أمير المؤمنين تطل علينا، تؤكد تمسكه بالعدل والرحمة والمساواة والشورى، وتزيدنا إيمانًا ويقينًا بأن الإسلام هو منبت الرأي الحر، وباعث حقوق الإنسان.

وقد دفعنا هذا الشعور لأن ننشد أبياتًا صاغها شاعر النيل حافظ إبراهيم يقول فيها:

حسبتُ القوافي وحسبي حين أُلقيها ... أني على ساحة الفاروق أهديها
لا هُمَّ، هب لي بيانًا أستعين به ... على قضاء حقوق نام قاضيها
قد نازعتني نفسي أن أوفيها ... وليس في طوق مثلي أن يوفيها

ثم قال عن مقتل عمر:

فأصبحت دولةُ الإسلامِ حائرةً ... تشكو الوجيعةَ لما مات آسِيها
مضى وخلَّفها كالطودِ راسخةً ... وزان بالعدل والتقوى مغانيها
رأيتَ في الدين آراءً موفقةً ... فأنزل الله قرآنًا يُزكِّيها
وكنتَ أولَ من قرَّت بِصُحبته ... عينُ الحنيفةِ واجتازت أمانيها
قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها ... بنعمةِ الله حصنًا من أعاديها
إن الذي بَرأَ الفاروق نَزَّهه ... عن النَّقائصِ والأغراضِ تنزيها
فذاك خلقٌ من الفردوس طِينتُه ... الله أودع فيها ما يُنقِّيها
لا الكِبرُ يسكنها، لا الظلم يصحبها، ... لا الحِقد يعرفها، لا الحرص يُغويها
وراع صاحبَ كسرى أن رأى عمرا ... بين الرعيةِ عُطلاً وهو راعيها
رآه مستغرقًا في نومه فرأى ... فيه الجلالةَ في أسمى معانيها
فوق الثرَى تحت ظِل الدوحِ مشتملاً ... ببُردَةٍ كاد طولُ العهدِ يُبليها
وقال قولةَ حقٍ أصبحت مَثَلا ... وأصبح الجيلُ بعد الجيلِ يرويها:
أمنتَ لمَّا أقمتَ العدل بينهمُ ... فنمتَ قريرَ العين هانيها
يا رافعًا رايةَ الشُّورَى وحارسُها ... جزاك ربُّك خيرًا عن مُحبِّيها

لم يُلهكَ النزعُ عن تأييـد دولتِهـا ... وللمنيــــةِ آلامٌ تُعانيهــــا
وما اســتبدَّ بــرأيٍ فــي حكومتــهِ ... إن الحكومَــة تُغــري مُــستبدِّيها
رأيُ الجماعةِ لا تشقى الـبلادُ بــه ... رغم الخلافِ ورأيُ الفرد يُـشقيها

ونورد فيما يلي المبادئ التي وردت بالإعلان العالمي لحقوق الإنــسان الصادر سنة ١٩٤٨، والتي تطابق ما جرى عليه العمل في الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا:

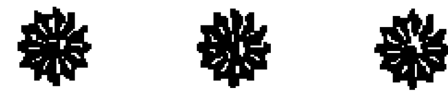
- الناس جميعًا سواء أمام القانون دون أي تمييز.
- لكل شخص حق اللجوء إلى المحاكم الوطنية المختصة لإنصافه.
- لا يجوز اعتقال أي إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفيًا.
- لكل إنسان، على قدم المساواة مع الآخرين، الحق في أن تنظر قضيته محكمة مستقلة ومحايدة.
- كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئًا إلى أن تثبت إدانته.

الفصل الرابع
المـال والاقتصاد والعمـل

للمال في الإسلام قيمة كبيرة، ومكانًا مرموقًا، ذلك لأن المـــال عـــصب الحياة، ولأن سعادة الدنيا وعزها، من علم وصحة وقــوة ومركـــز اجتمـــاعي، واتساع عمران وبناء، لا سبيل إليه إلا بالمـــال.

وقد ظل القرآن- أول نزوله- يدفع المؤمنين بأساليب قوية إلى الإنفاق في سبيل الله، دون أن يحدد الأنواع المالية التي ينفقون فيها، والمقادير التي لا ينفقون، حتى إذا ما تركز المسلمون واتسع نطاق حياتهم بالهجرة إلى المدينة، وصاروا جماعة متميزة، امتد بيان الرسول عليه الصلاة والسلام إلى هذا العنصر بالتنظيم والتحديد، فأعلنت فريضة الزكاة، وقرنت بالصلاة وشهادة التوحيد، وكانت ثلاثتها عنوان الدخول في الإسلام، والأخوة الدينية، كما ورد في قوله تعالى في الآية ٥ من سورة التوبة: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾، وفي قوله في الآية ١١: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى الدِّينِ ﴾.

ويجب إخراج الزكاة من الأموال بصفة عامة، وكلمة الأموال تشمل كل ما يملكه الإنسان من النقود والذهب والفضة والثمار والمواشي وغيرها، وفي هذا يقول الحق سبحانه في الآية ١٠٣ من سورة التوبة: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، ويقول في الآيتين ٢٤، ٢٥ من سورة المعارج عن المؤمنين: ﴿ وَالَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾[1].



قال تعالى في الآية ١٥ من سورة الملك: ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾.

فالله سبحانه خلق الإنسان وأنزله إلى الأرض ليعمرها، وليأكل من طيبات ما رزقه الله، لا قيد عليه في ذلك إلا أن يكون الرزق مباحًا مشروعًا، وفي الأموال نهى سبحانه عن الإسراف فيها، والضن بها، وجعل الاعتدال في

(١) المرجع: كتاب: الإسلام عقيدة وشريعة للإمام الأكبر محمود شلتوت.

إنفاقها من صفات المقربين عباد الرحمن، فقال سبحانه في الآية ٦٧ من سورة الفرقان: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾. وقال: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ الآية ٢٩ من سورة الإسراء.

والقرآن كما طلب السعي في تحصيل الأموال، وطلب الاعتدال في إنفاقها، نهى عن تحصيلها بالطرق التي لا خير للناس فيها، وفيها الشر والفساد، نهى عن تحصيلها بطريق الربا الذي يؤخذ استغلالاً لحاجة الضعيف والمحتاج، وبطريق السرقة والنهب والتسول التي تزعزع الأمن والاستقرار، وبطريق التجارة فيما يفسد العقل والصحة كالخمر والخنزير، وبطريق الميسر والرقص، وبيع الأعراض، ومن كل ما يفسد الأخلاق، ويعبث بالإنسانية، وبطريق الرشوة التي تذهب بالحقوق والكفايات، وفي هذا وأمثاله يقول القرآن الكريم: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(١).

والنهي عن الربا وأكل أموال الناس بالباطل شرعة قديمة، وقد قصّ علينا القرآن أن الله عاقب بعض خلقه الذين أحلوا ما حرم الله، فقال سبحانه في الآيتين ١٦٠، ١٦١ من سورة النساء: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾.

وقد حرَّم اله الربا تحريمًا قاطعًا فقال في الآيتين ٢٧٦، ٢٧٨ من سورة البقرة: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

وتحقيقًا لإنتفاع الجميع بالمال، وتطهيرًا للنفوس من بواعث الأثرة فيها، حارب الإسلام خلق الشح الذي يمنع من البذل والإنفاق، كما حارب السفه الذي يؤدي بالمال في غير وجوه النفع وإقامة المصالح، يقول الله سبحانه في الآية ١٦ من سورة التغابن: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

وفي البخل وهو وليد الشح يقول في الآية ١٨٠ من سورة آل عمران: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ

---

(١) الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت، المرجع السابق، ص٢٥٧.

سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

ويقول سبحانه في الآية ٣٧ من سورة النساء: ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾.

ويقول سبحانه في الآيتين ٣٤، ٣٥ من سورة التوبة: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾.

ويقول الرسول ﷺ في التحذير من الشُحّ: «إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»، ويقول: «اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم».

وكما وقف القرآن، وبجانبه أقوال الرسول ﷺ من الشح بالأموال هذا الموقف، وقف أيضًا الموقف عينه، من التبذير، وإضاعتها فيما لا يعود بخير على الأمة: ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ الآية ٢٧ من سورة الإسراء. ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ الآية ٢٩ من سورة الإسراء.

وبينما حارب الإسلام خلال الشح والإسراف، أعد النفوس للبذل والعطاء، فلا نكاد نجد في القرآن الكريم ذكرًا للإيمان بالله، إلا مقرونا بالإنفاق في سبيله، وإطعام البائس الفقير، فسورة البقرة تبدأ ببيان أوصاف المتقين الذين ينتفعون بالقرآن وهديه، ويكون منها: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

ثم تعرض السورة لأصول البر الذي يطلبه الله من العباد، ويكون منها بعد الإيمان: ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ الآية ١٧٧ من سورة البقرة، والآية ٣ من سورة الأنفال تذكر مقومات الإيمان، ويكون منها بعد وجل القلوب من ذكر الله، وزيادة الإيمان بآياته: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾. والآية ٤ من نفس السورة تقول: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

ونرى سورتي النساء والحجرات تذكران الإيمان، ولا تذكران معه سوى الإنفاق في سبيل الله، ففي الآية ٣٩ من سورة النساء: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾. وفي الآية ١٥ من سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾.

وإذا قلبنا صفحات القرآن لم نجده وضع علاجًا للعقبة التي تحول بين الإنسان وسعادته سوى إطعام اليتيم والمسكين، وذلك في الآيات من ١١-١٦ من سورة البلد: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾.

وأساليب الترغيب في الإنفاق كثيرة، وحسبنا أن نقرأ فيها الآيات الواردة في سورة البقرة: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾[1]. ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2]. ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[3].

وفي مجال الترغيب قال رسول الله ﷺ: «الصدقة تطفئ الخطيئة.. كما يطفئ الماء النار».



ولقد عرضت الشريعة الإسلامية لجانب آخر من الجوانب التي تتعلق بشئون الأموال ومعاملاتها، ذلك هو باب النظم التي تبنى عليها المبادلات المالية، وفيها أحكام البيع والإجارة، وبيان ما يجوز بيعه وإجارته وما لا يجوز، وتشمل طرق استثمار الأموال والمضاربة، والشركة، وأحكام الأمانات، وطرق الاستيثاق في الديون، وغير ذلك مما يجري بين الناس، ويحتاجون إلى ضبطه في انتظام

---

(١) الآية ٢٤٥ من سورة البقرة.
(٢) الآيتان ٢٦١، ٢٦٢ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٢٦٥ من سورة البقرة.

حياتهم، وحفظ حقوقهم ومصالحهم.

والمبادلات المالية عمدتها في الإسلام وأساسها: الارتباط بالالتزامات، والوفاء بالحقوق، وعدم أكل أموال الناس بالباطل، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾الآية الأولى من سورة المائدة. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾[1].

وقد وصلت الشريعة في مبلغ حرصها على حق الإنسان في ماله وملكيته، وثمرة جهوده وحمايتها لهذا الحق إلى شأو رفيع لم تكن تصل إلى مثله شريعة أخرى من شرائع العالم. ويبدو ذلك أوضح ما يكون فيما يضفيه الإسلام على حق الملكية من قدسية، وما يشمل به العمل الإنساني من رعاية.

فقد أحاط الإسلام ملكية المسلم والذمي بسياج قوي من الحماية، وفرض عقوبات قاسية على كل معتد عليها أيًا كانت صورة هذا الاعتداء. فقرر عقوبة قطع اليد في السرقة، قال تعالى في الآية ٣٨ من سورة المائدة: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾.

صحيح أن عقوبة القطع لا توقع إلا بشروط كثيرة، وصحيح أن هذه الشروط يندر توافرها، وصحيح أنه لا توقع عقوبة القطع إلا حيث تنتفي جميع الشبهات. ولكن سقوط القطع لعدم توافر الشروط أو لقيام شبهة ما لا يعفي السارق من العقوبة. فالشريعة الإسلامية تقرر عقوبة التعزير في كل حالة يسقط فيها الحد متى ثبتت الجريمة. والتعزير عقوبة يقدرها القاضي، وتكون بالحبس والجلد والتأنيب.. وما إلى ذلك.

وهذا كله في السرقة العادية أو ما يسميه فقهاء المسلمين بالسرقة الصغرى. وأما قطع الطريق أو ما يسميه فقهاء المسلمين بالسرقة الكبرى أو الحرابة، فعقوبته أشد من ذلك كثيرًا، فقد قرر الإسلام أن يعاقب قطاع الطريق بالقتل أو الصلب أو كليهما معًا، إن قُبض عليهم بعد أن سلبوا المال وقتلوا النفس، وبالقتل فقط إن كانوا قد قتلوا النفس ولم يكونوا قد سلبوا مالاً بعد، وبقطع الأيدي والأرجل من خلاف، بأن تقطع من كل واحد منهم يده اليمنى ورجله اليسرى إذا كانوا قد سلبوا المال فقط، والحبس إذا كان القبض عليهم قد تم من قبل أن يقتلوا نفسًا ولا يأخذوا مالاً، هذا إلى جانب ما توعدهم الله من عذاب

---

(١) الآية ٢٩ من سورة النساء.

عظيم في الآخرة. وقد وردت هذه الأحكام في الآية ٣٣ من سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

والغصب اغتيال لأموال الناس جهرًا وقهرًا، ويغلب أن يكون بنقل حدود الأرض المزروعة، فمجترحها ملعون في نظر الإسلام، ومحروم من رحمة الله، وفي هذا يقول عليه السلام: «من غصب شبرًا من أرض طوقه الله تعالى من سبع أرضين يوم القيامة»[1]. ويقول: «من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان»[2]. وتوجب الشريعة الإسلامية على الغاصب أن يرد الشيء المغصوب و يرد قيمته إذا بدده أو أتلفه.

وإن الله لا يقبل توبة من يمسك بحقوق الآخرين عنده، ويجتاحها دون مبالاة.. مهما أكثر من العبادات، وقدَّم من صلوات وصدقات.

فعن عدد من الصحابة أن النبي ﷺ قال: «إن الرجل لتُرفع يوم القيامة صحيفته حتى يرى أنه ناج، فما تزال مظالم بني آدم تتبعه حتى ما يبقى له حسنة ويُحمل عليه من سيئاتهم»[3].

ومعنى هذا أن المكاسب السيئة تحرق العبادات. وهذا غير ما يفهمه البعض- ضلالاً من الدين- أن الإنسان يمكنه ببعض المراسم أن ينال الرضا الأعلى وهو آكل لأموال الناس بالباطل..!!

والحرام لا يبقى بيد صاحبه أبدًا..[4].

حق الملكية الفردية :

يقرر الإسلام حق الملكية الفردية للمال، بوسائل التملك المشروعة، ويجعلها هي قاعدة نظامه، ويرتب على هذا التقرير نتائجه الطبيعية في حفظ هذا الحق لصاحبه، وصيانته له عن السرقة أو النهب أو السلب أو الاختلاس بأية

---

(١) البدائع، الجزء السابع، ص١٤٨.

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه البيهقي.

(٤) محمد الغزالي (مرجع سابق)، ص١٥٧.

طريقة من الطرق، أو المصادرة بدون ضرورة عامة مع التعويض المجزي الذي لا غبن فيه، وضع الحدود الرادعة لكفالة هذا الحق، كما يرتب عليه نتائجه الأخرى، وهي حق التصرف في المال بالبيع والإجارة والرهن والهبة والوصية.. إلى آخر حدود التصرف الحلال، وفي نطاق الحدود التي سنها للتصرفات.

ولا شبهة في تقرير هذا الحق الواضح الصريح في الإسلام، ولا شبهة كذلك في أنه قاعدة الحياة الإسلامية، وقاعدة الاقتصاد الإسلامي. قال ﷻ في الآية ٣٢ من سورة النساء ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾. وقال في الآة ٢ من ذات السورة: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾. وقد جاء في الحديث: «من قُتل دون ماله فهو شهيد»[١].

وكحق الملكية حق الإرث والتوريث، وقد وردت أحكام الميراث في سورة النساء: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾.. ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.. ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾.. الخ.

وحق الملكية الفردية يحقق العدالة بين الجهد والجزاء، فوق مسايرته للفطرة، واتفاقه مع الميول الأصيلة في النفس البشرية، تلك الميول التي يحسب الإسلام حسابها في إقامة نظام المجتمع، وفي الوقت ذاته يتفق مع مصلحة الجماعة بإغراء الفرد على بذل أقصى جهد في طوقه لتنمية الحياة، فوق ما يحقق من العزة والكرامة والاستقلال ونمو الشخصية للأفراد بحيث يصلحون أن يكونوا أمناء على هذا الدين، يقفون في وجه المنكر، ويحاسبون الحاكم وينصحونه، دون خوف من انقطاع أرزاقهم لو كانت في يديه!

ولكن الإسلام لا يدع حق الملكية الفردية مطلقًا بلا قيود ولا حدود- كالنظام الرأسمالي- فهو يقرره، ويقرر بجواره مبادئ أخرى، تجعله أداة لتحقيق مصلحة الجماعة بنفس الدرجة التي تحقق بها مصلحة الفرد المالك سواء بسواء! وهو يشرعه ويشرع له الحدود والقيود.. التي ترسم لصاحبه طرقًا معينة في تنميته وإنفاقه وتداوله، ومصلحة الجماعة كامنة من وراء هذا كله، ومصلحة الفرد ذاته كذلك، في حدود الأهداف الخلقية التي يقيم الإسلام عليها الحياة.

---

(١) أخرجه الشيخان.

وأول مبدأ يقرره الإسلام- بجوار الملكية الفردية- أن الفرد أشبه شيء بالوكيل في هذا المال عن الجماعة، وأن حيازته له إنما هي وظيفة أكثر منه امتلاكا، وأن المال في عمومه إنما هو أصلاً حق للجماعة، والجماعة مستخلفة فيه عن الله، الذي لا مالك لشيء سواه. والملكية الفردية تنشأ من بذل الفرد جهدًا خاصًا لحيازة شيء معين من هذه الملكية العامة التي استخلف الله فيها جنس الإنسان.

جاء في القرآن الكريم.. في الآية ٧ من سورة الحديد: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ ﴾. ولا يحتاج نص الآية إلى تأويل ليؤدي المعنى الذي فهمناه منه، وهو أن المال الذي في أيدي البشر هو مال الله، وهم فيه خلفاء لا أصلاء، وفي آية أخرى في صدد المكاتبين من الأرقاء (وهي الآية ٣٣ من سورة النور) يقول الحق سبحانه: ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ ﴾، فما يعطونهم هذا المال من ملكهم، ولكنهم يعطونهم من مال الله وهم فيه وسطاء.

ومبدأ آخر يقرره الإسلام في ملكية المال، وهو كراهيته لأن يُحبس في أيدي فئة خاصة من الناس، يُتداول بينهم، ولا يجده الآخرون: ﴿ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ ﴾ [الآية ٧ من سورة الحشر]. ومعنى هذا أن يؤخذ بعض المال من الأغنياء فيملك بالفعل للفقراء.

على أن هناك نوعًا من الأموال التي لا يجوز احتجازها للأفراد، عدد الرسول منها ثلاثة: الماء، والكلأ، والنار: «الناس شركاء في ثلاث: في الماء والكلأ والنار» بوصفها موارد ومرافق عامة ضرورية لحياة الجماعة في البيئة العربية، فالانتفاع بها للجماعة كلها على وجه الشيوع والمشاركة العامة.

وهناك جزء من المال هو حق لبعض المحتاجين في الجماعة، وهو المفروض في صورة زكاة، قال تعالى في الآيتين ٢٤، ٢٥ من سورة المعارج: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾.. وهو يخرج من ملكية دافعي الزكاة إلى ملكية مستحقي الزكاة: «إنما الصدقات للفقراء والمساكين.. الخ». وهو حق تأخذه الجماعة ثم ترده مرة أخرى إلى الأفراد المحددين، فتكون وظيفة الجماعة حينئذٍ هي نقل الملكية الفردية من جهة إلى جهة، ومن يد إلى يد أخرى.

وينتقل المال بالإرث حسب النظام المبين في آيتي الميراث. والمبدأ العام في الأنصبة: أن للذكر مثل حظ الأنثيين، وأن الوريث العاصب مقدم على ذي الرحم كقاعدة عامة.

وعن حكمة نظام الميراث في الجماعة نقول: لقد رأينا أن الإسلام يكره تكدس الثروات، وانحصارها في أيد قليلة. ونظام الإرث الإسلامي أداة لتفتيت

الثروات المتضخمة على توالي الأجيال. فالملكية الواحدة تنتقل إلى العديد من الذرية والأقارب بمجرد وفاة المالك، فتستحيل إلى ثروات متوسطة أو صغيرة، وقلما تبقى كتلتها موحدة مع هذا النظام.. إلا في حالات نادرة لا يُقاس عليها، كأن يموت المالك وليس له إلا ولد يرث التركة كلها، لأنه ليس له أب ولا أم ولا زوجة ولا بنت! أما في الأحوال الغالبة فالثروة تتوزع على عدة أفراد.

ولكل فرد الحرية في تنمية أمواله، ولكن في الحدود المشروعة، فله أن يفلح الأرض، وأن يحول المادة الخام إلى مصنوعات، وله أن يتجر... الخ، ولكن ليس له أن يغش، أو يحتكر ضرورات الناس، أو أن يعطي أمواله بالربا، أو أن يظلم في أجور العمال.. ليزيد في أرباحه، فذلك كله حرام. إنما هي الوسائل النظيفة وحدها التي يبيحها الإسلام لتنمية المال، والوسائل النظيفة عادة لا تضخم رؤوس الأموال إلى الحد الذي يباعد الفوارق بين الطبقات. إنما تتضخم رؤوس الأموال ذلك التضخم الفاحش الذي نراه في النظام الرأسمالي، بالغش والربا وأكل الأجور والاحتكار واستغلال الحاجات والابتزاز والنهب والسلب والاغتصاب.. إلى آخر الجرائم الكامنة وراء طرق الاستغلال المعاصرة. وهذا ما لا يسمح به الإسلام.. فلنأخذ الآن في بيان حكم الإسلام وحكمته في وسائل تنمية المال:

(أ) يُحرِّم الإسلام الغش في المعاملة: «مَنْ غشَّنا فليس منا»[(١)].. «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما»[(٢)]، فلك أن تبيع وتشتري، على ألا تغش في السلعة أو في العملة، فإن كان بها عيب فعليك بيانه، وإلا فأنت غاش وربحك عليك حرام؛ ولن ينجيك من المؤاخذة أن تتصدق بهذا الربح الحرام، فالصدقة لا تحسب لك إلا من مالك الحلال، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يكسب عبدٌ مالاً حرامًا فيتصدق منه، فيقبل منه، ولا ينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار. إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»[(٣)].. وقال: «إنه لا يربو لحم نبت من سُحت إلا كانت النار أولى به»[(٤)].

---

(١) أصحاب السنن.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) عن ابن مسعود: من الصحاح.

(٤) أخرجه الترمذي والنسائي.

(ب) واحتكار ضرورات الناس لا يعترف به الإسلام وسيلة من وسائل الكسب وتنمية المال: «من احتكر فهو خاطئ»[١]. ذلك أن الاحتكار إهدار لحرية التجارة والصناعة، فالمحتكر يتحكم في السوق، ويفرض على الناس ما يشاء من أسعار، فيكلفهم عنتًا، ويحملهم مشقة، ويضارهم في حياتهم وضرورياتهم. وقد بلغ حرص الإسلام على منع هذه الوسيلة من وسائل تنمية المال، أن جعل الاحتكار مبعدًا للمحتكرين من دائرة الدين: «من احتكر طعامًا أربعين يومًا فقد برئ من الله، وبرئ الله منه»[٢]. فما هو بمسلم ذلك الذي يضار الجماعة هذه المضارة، ليحصل منها على كسب حرام يزيد به ماله الخاص على حساب الصالح العام.

(ج) والربا وسيلة محرَّمة يكرهها الإسلام كراهية واضحة، ويبشعها تبشيعًا شديدًا، وينذر أصحابها بأبشع مصير. ويبلغ الإسلام في تفظيع الربا إلى حد أن يلعن كل من شارك في صفقة من صفقاته ولو كان كاتبًا و شاهدًا. عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء[٣][٤].

وقد تحدثنا من قبل في موضوع الربا وأوردنا الآيات القرآنية التي نزلت بشأنه، فيمكن الرجوع إليها في مقدمة هذا الفصل.

النظام الاقتصادي في الإسلام :

وضع الإسلام في شئون الاقتصاد نظمًا حكيمة تقر الملكية الفردية وتحيطها بسياج من الحماية، وتذلل أمام الفرد سبل التملك والحصول على المال، وتشجع على العمل، وتعطي كل مجتهد جزاء اجتهاده من ثمرات الحياة الدنيا، وتفسح المجال أمام المنافسة والعمل على التفوق وبذلك تحقق تكافؤ الفرص بين الناس في هذه الميادين. ولكنها من جهة أخرى تقلم أظافر رأس المال، وتجرده من وسائل السيطرة والنفوذ، بدون أن تشل حركته وتعوقه عن القيام بوظيفته بوصفه عاملاً هامًا من عوامل الإنتاج، وتعمل على استقرار التوازن الاقتصادي، وتقليل الفروق بين الطبقات، وتقر بها بعضها من بعض، وتحول دون تضخم

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي.
(٢) مسند الإمام أحمد.
(٣) رواه مسلم.
(٤) المرجع: سيد قطب في كتاب العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص٨٨ وما بعدها.

الثروات ودون تجمعها في أيدٍ قليلة. وهي تعمل من جهة ثالثة على أن تقوم العلاقات الاقتصادية بين الناس على دعائم متينة من التكافل والتعاون والتواصي بالبر والعدل والإحسان، وتضع أمثل نظم للضمان الاجتماعي، وتكفل لكل فرد حياة إنسانية كريمة.

فالنظام الاقتصادي في الإسلام ليس إذن نظامًا شيوعيًا، لأنه يقر الملكية الفردية ويحميها، وليس نظامًا رأسماليًا لأنه لا يطلق العنان لرأس المال، بل يحرص على تجريده من وسائل السيطرة والنفوذ.

وهو نظام نسيج وحده، منقطع النظير بين النظم الاقتصادية السائدة في الوقت الحاضر، لا يدانيه نظام منها في سموه ودقته ومبلغ تحقيقه لخير الأفراد والجماعات، له مقوماته ومثاليته الخاصة به، وإذا كان لابد من وصفه بصفة من الصفات المتداول استعمالها على ألسنة المحدثين من علماء الاقتصاد فإننا نصفه بأنه نظام اشتراكي معتدل.

وقد أقام الإسلام بنيان نظامه الاقتصادي على ثلاث دعائم رئيسية تعمل متضافرة على تحقيق المساواة في شئون الاقتصاد:

(الدعامة الأولى) تتمثل في إقرار الملكية الفردية وحمايتها وحماية ثمرات العمل الإنساني (وقد تعرضنا لشرح هذه الدعامة من قبل).

(الدعامة الثانية): تتمثل فيما يدخله الإسلام على حقوق الملكية الفردية من قيود وما يضعه على كاهل مالكها من واجبات، كي يحقق ما يهدف إليه من إقرار العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصادي، وتقليل الفروق بين الطبقات وتقريبها بعضها من بعض، واتقاء تضخم الثروات وتجمعها في أيدٍ قليلة، وتجريد رأس المال من وسائل الجبروت والطغيان والسيطرة على شئون الحياة، وضمان حياة إنسانية كريمة لأفراد الطبقات الدنيا والطوائف الكادحة.

(الدعامة الثالثة) تتمثل في الأسس العامة التي يقيم عليه الإسلام العلاقات الاقتصادية بين الناس. فالإسلام لا يقيم هذه العلاقات على أسس نفعية مادية كما تفعل النظم الأخرى، وإنما يقيمها على أسس إنسانية خلقية، يتحقق بفضلها التكافل والتعاون والتحاب والتواد والتراحم بين الناس بعضهم مع بعض، والتواصل بالبر والخير والعدل والإحسان، واحترام الشخصية الإنسانية التي كرّمها الله، فينظر كل فرد إلى الآخر على أنه غاية لا على أنه وسيلة تستخدم

لجلب المنفعة، ويحب كل فرد لغيره ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه[١].



ولا شك في أن الغنى والفقر حقيقتان واقعتان في كل مجتمع: فقد قال الله تعالى في الآية ٣٢ من سورة الزخرف: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾. ذلك أن الناس يتفاوتون حتمًا في قدراتهم الفكرية والمادية، وفيما يتاح لهم من أسباب الرزق، وفيما يحيط بهم من ظروف.

من أجل ذلك عملت الشريعة على علاج الفقر، بالقضاء على أسبابه، حتى تضيق المسافة ما أمكن بين الغني والفقير، وذلك بعدة وسائل نذكر منها:

(أ) أن الشريعة تحث على السعي لطلب الرزق، قال تعالى في سورة تبارك: ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾. وقال ﷺ : «من الذنوب ما لا يكفره إلا السعي على العيال». وتعتبر الشريعة العمل للضعفاء كالجهاد في سبيل الله، حيث قال ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله».

(ب) أن الشريعة تكرم العمل اليدوي وتشجع عليه، وقد قال ﷺ: «ما أكل ابن آدم طعامًا خيرًا من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده».

(ج) أن الشريعة تنفر من تكديس الثروة في أيدي فئة قليل يتداولون المال دون غيرهم ممن لا يجدونه. فإن الله تبارك وتعالى جعل ذلك علة لقسمة ما يفيئه على رسوله من أهل القرى بين أرباب الحاجات، حيث قال في سورة الحشر: ﴿ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾.

(د) أن الله تعالى شرع كفارات للذنوب أو لدرء التقصيرات، فهي في الحالة الأولى عقوبة، وفي الحالة الثانية عبادة، وهي واجبة في الحالين، وتنتهي في الغالب إلي وجوب إطعام الفقراء بمقادير محددة. وفي هذه الحالة تصبح الكفارات ديونًا تتعلق بذمة من تجب عليه حتى يؤديها. وقد ترك أمرها لمن يجب عليه أداؤها، لأنها علاج للفقر والعجز الذي قد لا يصل إلى ولي الأمر وعلمه.

(هـ) ومن هذه الوسائل ما تقضي به الشريعة من وجوب الوفاء بالنذور، فإذا نذر شخص صدقة معينة إذا تم له أمر يبغيه، كان هذا النذر واجب الوفاء،

---

(١) كتاب الدكتور علي عبد الواحد وافي (المرجع السابق)، ص٤٣ وما بعدها.

فقد قال ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه». وقال ﷺ محرضًا على الوفاء بالنذر ما دام في طاعة وذلك في سورة البقرة: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وتجعل الشريعة لولي الأمر حق الحجر على السفيه المبذر، وحق القيام على أموال الضعفاء من عديمي الأهلية وناقصيها، وحق منع الاحتكار، وحق نزع ملكية الفرد للمصلحة العامة.

وتوجب الشريعة على المالك ألا يغلو في استعمال حقه إلى حد التعسف في استعمال الحق، أو إلى حد يلحق بالجار ضررًا فاحشًا، وتورد الشريعة قيودًا على حق الملكية في الشرب والمجرى والمسيل والمرور وملكية الطبقات[١].

واجبات وأعباء مالية :

لا يكتفي الإسلام بتقييد حقوق الملكية الفردية على النحو الذي ذكرناه، بل يضع كذلك على كاهل المالك واجبات وأعباء في مقابل تمتعه بما بقي له من هذه الحقوق. ونوضح فيما يلي طائفة من هذه الأعباء تجمعها صفات مشتركة، وهي أنها أعباء مفروضة محددة المقادير، وهي: الزكاة والخراج والضرائب والصدقات الرسمية والكفارات.

١- أما فيما يتعلق بالزكاة: فقد فرض الإسلام على مختلف فروع الثروة وشتى مظاهر النشاط الاقتصادي من أنواع الزكاة ما يكفل تحقيق العدالة الاجتماعية، ويسد حاجات المعوزين، ويحول دون تضخم الثروات ودون تجمعها في أيدٍ قليلة، ويؤدي إلى تقليل الفروق بين الطبقات وتقريبها بعضها من بعض.

ففرض الإسلام الزكاة فيما تنتجه الأرض، وفيما يملكه الفرد من الذهب والفضة والأنعام، وعروض التجارة.. بالشروط والمقادير المبينة في كتب الفقه الإسلامي.

والأصل في الزكاة بجميع أنواعها أن تُدفع إلى بيت المال، وبيت المال

---

(١) المرجع: كتاب الدكتور: عبد المنعم فرج الصده، بعنوان: دراسة مقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي في المعاملات المالية، ص٦٧.

يقوم بصرفها في مصارفها التي حددتها الشريعة الإسلامية، ومن بينها الإنفاق على الفقراء والمساكين.. وفي سبيل الله. وقد حددت الآية ٦٠ من سورة التوبة مصارف الزكاة على الوجه التالي: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقد جعل الإسلام الزكاة من أهم أركانه وقرنها بالإيمان بالله وبالصلاة، لما لها من وظيفة هامة في حفظ التوازن الاقتصادي، وتقليل الفوارق بين الطبقات، وإشاعة روح التكافل والتواصي بالخير والبر والإحسان للمسلمين. وبلغ من اهتمام الإسلام بأمرها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قد حارب القبائل التي امتنعت بعد وفاة الرسول عليه السلام عن أداء الزكاة، حتى ما ظل منها باقيًا على إسلامه، واعتبر هؤلاء في حكم المرتدين عن الإسلام، وقال في ذلك قولته المشهورة: «والله لو منعوني عناقا (وهي الأنثى الصغيرة من ولد الماعز- وفي رواية: عقال بعير) كانوا يعطونه رسول الله لقاتلتهم عليه ولو وحدي ما استمسك السيف في يدي. لقد اكتمل الدين وتم الوحي.. أوَ ينتقص وأنا حيّ؟! فقضى بذلك على أكبر فتنة كانت تهدد الإسلام ونظمه الاقتصادية القويمة.

٢- وفي **عهد عمر بن الخطاب** رضي الله عنه فُرضت ضريبة الخراج (وهو ما نسميه بالأموال الأميرية) على بعض الأراضي الزراعية. وذلك أنه لما فتحت في عهده أرض العراق رغب بعض الصحابة أن توزع على الفاتحين، فأبى عليهم ذاهبًا إلى أنها بهذا التوزيع تؤول لقلة من الناس، بينما الدولة تحتاج في المستقبل إلى المال لكفالة المجتمع وحماية الثغور والمرافق العامة. فأبقى حق الرقبة للدولة وترك الزراع يعملون على أن يلتزموا للدولة بدفع الخراج، ويخصص الخراج للمصالح العامة للمسلمين. ويدخل في ذلك «إصلاح حال المسلمين وأرزاق (أي مرتبات) الجند والموظفين والولاة والقضاة وأهل الفتوى من العلماء ورجال الجيش، وتعبيد الطرق، وعمارة المساجد، والرباطات والقناطر والجسور وإصلاح الأنهار... وما إلى ذلك».

٣- ويجيز الفقه الإسلامي للإمام أن يفرض من الضرائب الدائمة أو المؤقتة ما تدعو إليه الحاجة وتستقيم به أحوال المسلمين. وعلى هذا الأساس فُرضت في عهود الخلافة ضرائب على الواردات، وعلى التجار الذين يمرون ببعض نقط المراقبة في البلاد الإسلامية، وعلى السفن التي تمر بموانئ هذه

البلاد، وعلى الحوانيت ودور سك النقود... وعلى نواح أخرى كثيرة من هذا القبيل.

ولما أخذ ملك مصر المظفر قطز يعد العدة لحرب التتار وإجلائهم عن دمشق وما احتلوه من مدن سوريا، وجد بيت المال خاويًا، فاتجه إلى العز بن عبد السلام كبير فقهاء عصره وقاضي قضاة الشافعية، يستفتيه في ضرائب يفرضها على الناس لحماية الدولة وتجهيز الجيش، فأفتاه بجواز ذلك، وكانت الفتوى تدل على مقدار اتساع الأفق الإسلامي، فإنه مما أجمع عليه كثير من أئمة الفقهاء أنه إذا كانت حرب ولم يكن مال، جاز للإمام فرض ضرائب غير الزكاة والخراج، وقد فرض الملك المظفر قطز بعد هذه الفتوى ضريبة دفاع مقدارها دينار على كل رجل وامرأة، وأخذ أجور الأوقاف الخيرة قبل ميقاتها بشهر، وعجّل الزكاة سنة، وأخذ من التركات ثلثها. وبفضل ذلك كتب للجيش المصري النصر والظفر على جيوش التتار في موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ، فأنقذ بذلك الإسلام والحضارة الإنسانية من شرور أولئك الوحوش.

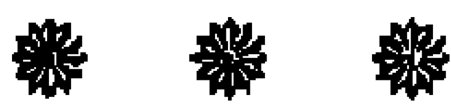
٤- وأوجب الإسلام على الأغنياء في بعض مواسم تتكرر كل عام وفي بعض أعياد ومناسبات.. أن يخرجوا من أموالهم صدقات للفقراء والمساكين، أو جعل ذلك سنة مؤكدة. ومن أهم هذه الصدقات زكاة الفطر التي يخرجها رب الأسرة في يوم عيد الفطر عن نفسه وخدمه وأسرته الذين تجب عليه نفقتهم، ويتصدق بذلك على الفقراء والمساكين وذوي الحاجة، أو يدفع بها إلى بيت المال ويتولى بيت المال إنفاقها في مصارفها.

ومن هذه الصدقات كذلك الضحايا التي تُنحر في عيد الأضحى والهدي الذي يجب أو يستحب للحاج نحره، وكلاهما خصص كله أو معظمه أو قسم منه للفقراء والمساكين. قال تعالى في بيان طريقة الانتفاع ببعض ذبائح الهدي.. في الآية ٣٦ من سورة الحج: ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾، وقال في الآية ٣٧: ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ (والقانع: السائل، والمعتر: الذي يطيف ولا يسأل).

٥- وعمد الإسلام إلى طائفة من الجرائم والخطايا التي يكثر حدوثها وجعل كفارتها إخراج الأموال والتصدق بها على الفقراء. وفي التعبير هنا بالتصدق مجاز، لأننا لسنا بصدد صدقة ولا إحسان، بل بصدد أمر واجب حتمي. فجعل الإسلام ذلك كفارة للحنث في اليمين، وكفارة للظهار (وهو أن يقول الرجل

لزوجته أنت عليَّ كظهر أمي، ثم يرغب في مراجعتها. وكانت هذه العبارات كثيرة التردد على ألسنة العرب)، وجعله كفارة لمعظم أنواع الفطر في رمضان، ولبعض المخالفات التي تحدث في مناسك الحج. قال تعالى في كفارة اليمين.. في الآية ٨٩ من سورة المائدة: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾. وقال في كفارة الظهار.. في الآيتين ٣، ٤ من سورة المجادلة: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾. وقال في بعض أنواع الفطر في رمضان في الآية ١٨٤ من سورة البقرة: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ (أي **لا يستطيعون الصوم لشيخوخة و مرض لا يُرجى برؤه.. وما إلى ذلك)** طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾.

وقال سبحانه في مخالفات الحج وما يعرض فيه من ضروريات.. في الآية ١٩٦ من سورة البقرة: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ.. ﴾. ويقول في الآية ٩٥ من سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ.. ﴾[1].



وقد كان عمر بن الخطاب ينظر في ثروات الولاة، فما ظنه منها جاء عن استغلال نفوذ أمر بمصادرته للفور. ولو أن هذه السياسة العمرية نفذت في كل عصر ومصر لاستراحت الشعوب من بلاء جسيم عظيم. وظل عمر يصادر ما كان يكسبه الولاة من أعمال لا يجوز لهم الاشتغال بها كالتجارة وما إليها، أو كان يأتيهم من هدايا أو أموال نتيجة لاستغلال نفوذهم وجاههم.

فعل ذلك ﷺ مع ولاته على البصرة، وفعله مع أبي هريرة نفسه عامله على البحرين، فقد أبلغه أن أثرى أثناء ولايته، فأحصى ثروته وصادر جميع ما شك

---

(١) من كتاب: حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي (مرجع سابق)، ص٥٩.

في مصدره منها وألحقه ببيت المال. وحدث مثل ذلك مع سعد بن أبي وقاص لما ولاه عمر على الكوفة، فقد قاسمه عمر ماله حينما شك في مصدره.

وفعل ذلك أيضًا مع عمرو بن العاص واليه على مصر، فقد كتب إليه: «إنه فشت لك فاشية عن متاع ورقيق وآنية وحيوان، لم تكن لك حين وُليت مصر». فكتب إليه عمرو: إن أرضنا أرض مزرع ومتجر، فنحن نصيب فضلاً عما تحتاج إليه نفقتنا».

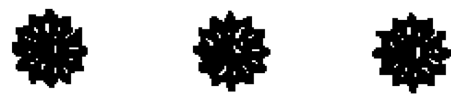
فكتب إليه عمر: «إني قد خبرت من عمال السوء ما كفى، وكتابك إليَّ كتاب من أقلقه الأخذ بالحق، وقد سئت بك ظنًا ووجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك، فأطلعه وأطعمه، وأخرج إليه ما يطالبك به، وأعفه من الغلظة عليك، فإنه برح الخفاء».

فأذعن عمرو للأمر وترك محمد بن مسلمة يقاسمه المال.

وقال عمر بن الخطاب: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت، لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين».

ويقول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إن الله تعالى فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم، فإن جاعوا أو عروا وجهدوا فبمنع الأغنياء، وحق على الله تعالى أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه.

وعن ابن عمر أنه قال: في مالك حق سوى الزكاة[١].



وقد أقرَّ النبي والخلفاء من بعده هذه القواعد التي تحدثنا عنها عن المال وحق التملك. وبعد ذلك بقرون عديدة.. جاء الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لسنة ١٩٤٨ متضمنًا ما يلي:

مادة (١٧): ١- لكل فرد حق في التملك.. بمفرده أو بالاشتراك مع غيره.
٢- لا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسفًا.

---

(١) رواه البخاري.

حـق العمـل

عندما ذرأ الله الحياة الإنسانية عل ظهر هذه الأرض، هيأ شتى العناصر لخدمة الإنسان، ثم أمر الإنسان أن يتزود بالخير الذي ينفعه من هذه المـصادر المتاحة.

قال تعالى في الآية ١٠ من سورة الأعراف: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾. وقال في الآيتين ٥٣، ٥٤ من سورة طه: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾.

ووصف الأرض بأنها مَهْد للإنسان تارة، وبأنه مستعمر فيهـا، أي مـن حكمة وجوده تعميرها، كل ذلك يشرح الصلة الوثقى بين الإنسان وبين العمل في هذه الحياة، عملاً متصلاً مثمرًا يتجه إليه بقلبه ولبه جميعًا.

العمل إذن وسيلة للبقاء، والوسيلة تتبع الغاية في شرفها وخستها. فمـن كرَّس حياته للحق والخير فعمله عبادة، وكل قطرة عرق تبذل فيه فهي آية جهاد، توضع في موازين المرء مع صلاته وزكاته.

وقد نبّه النبي ﷺ إلى أن العمل للدنيا من الدين، وأنه شـيمة الأنبيـاء والمرسلين، سواء أكان هذا العمل زراعة أو صـناعة أو تجـارة أو حرفـة أو وظيفـة.

عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل مـن عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»(١).

وقال: «أيما رجل كسب مالاً من حلال فأطعم نفسه- أو كساها- فمـن دونه من خلق الله فإن له به زكاة»(٢).

وسُئل ﷺ أي الكسب أفضل؟ قال: «عمل الرجل بيده»(٣).

وروي عنه ﷺ أنه قال: «إن الله يحب المؤمن المحترف»(٤).

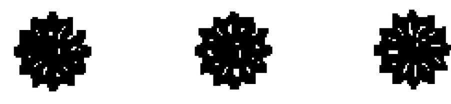
---

(١) رواه الطبراني.
(٢) رواه ابن حبَّان.
(٣) رواه الطبراني.
(٤) رواه البيهقي.

وعندما يسَّر الله لعباده خيرات هذه الأرض نبههم إلى أن ذلك لا يجوز أن يعدو الحلال الطيب. فليس الإنسان وحشًا منطلقًا في البرية يلتهم مما وقع في براثنه، كلا، إنه إنسان محاسب على سلوكه، مسئول عن نيته ووسيلته وغايته. ولذلك لا يجوز أن يقع فريسة الغرائز الخسيسة والوساوس الدنيا. قال تعالى في الآية ١٦٨ من سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

ويقول رسول الله ﷺ لهذا الإنسان: «لأن يأخذ ترابًا- يجعله في فيه- خير له من أن يجعل في فيه ما حرّم الله عليه»[١].

والعمل الصحيح هو السبب الأول للملكية الصحيحة. والإسلام يحترم هذا العمل ويصون ثمراتهن ويجعل العدوان عليها جريمة. أما الكسب السيئ فلا حرمة له، بل إن الإسلام يطلب من كل امرئ حصل على القليل أو الكثير من المال الحرام أن يتخلص منه فورًا حتى تكون علاقته بالله سليمة، وتوبته إلى الله مقبولة[٢].



وإذ حث الإسلام على العمل بكافة صوره وأنواعه المشروعة، جعله سببًا من أسباب الحصول على الأموال وتملكها، فالصيد، وإحياء الأرض الموات، والزراعة، والتجارة، والصناعة.. وغيرها، كلها مجالات للعمل حث عليها الإسلام. يقول تعالى في الآية ١٠ من سورة الجمعة: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾. ويقول في الآية ١٥ من سورة الملك: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾. ويقول في الآيتين ١٠، ١١ من سورة النبأ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾.

ففي هذه الآيات دليل على أن الإسلام ليس مجرد إقامة شعائر، وإنما هو عبادة وعمل في نفس الوقت، بل إن العمل ذاته عبادة، يقول النبي ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار»[٣].. كما روي عن أنس رضي الله عنه أنه قال: كنا مع النبي في سفر، فمنا الصائم

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) محمد الغزالي (المرجع السابق)، ص١٥٣.

(٣) رواه الشيخان.

ومنا المفطر. قال: فنزلنا منزلاً في يوم حار، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، فمنا من يتقي الشمس بيده. قال: فسقط الصوام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية، وسقوا الركاب. فقال الرسول ﷺ: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله»(١).

والواقع أن الإسلام يولي العمل أهمية كبرى في النظام الاقتصادي، والدليل على ذلك أن القرآن الكريم أورد العمل بتصريفاته المختلفة فيما يزيد عن ثلثمائة وخمسين موضعًا، كما أن الرسول عليه السلام كان يحث أتباعه دائمًا على العمل، ويشدد النكير على ظواهر البطالة والكسل والتواكل، التي تتناقض أساسًا مع صورة المجتمع الإسلامي.. الذي يمثل مجتمع الحركة والحياة، فنراه يقول: «والذي نفسي بيده لئن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه». ويقول: «ما أكل أحد طعامًا قط خير من أن يأكل من عمل يده». ويقول: «على كل مسلم صدقة» قالوا: يا نبي الله فمن لم يجد؟ قال: «يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق». ويقول: «العمل عبادة». ويقول: «إن أشرف الكسب كسب الرجل من يده». ويقول: «ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة».

وحرية العمل مكفولة في الإسلام، فكل فرد له الحق في اختيار العمل المناسب له، وله أن يباشر كافة أوجه النشاط الاقتصادي دون إكراه أو إجبار أو منع. وإن كان يحق للدولة تقويم وتقييد هذه الحرية إذا انحرف بها الفرد عن الطريق المباح. أي أن الأصل هو تقرير مبدأ حرية العمل للإنسان، والاستثناء هو تقييد هذه الحرية عند الضرورة، إما للمحافظة على القيم الدينية السائدة في المجتمع، أو للمحافظة على مصلحة الجماعة.

ولا شك أن مبدأ حرية العمل له نتائجه الهامة في الحياة الاقتصادية هي:

- إنماء مواهب الفرد وكفاءته وقدرته، ذلك أن اختيار الإنسان لعمله يكون بدافع الرغبة والميل الفطري، ومن ثم فإنه يقدم على عمله بشغف واهتمام، فيتقن أداءه، ويسعى إلى تحسينه والارتقاء به.

- وجود التنافس المشروع بين الأفراد في إطار من الأخلاق الحميدة، فلا يجوز مثلاً استخدام وسائل الغش والخداع، أو الإضرار بالآخرين المنافسين عن طريق تنزيل الأسعار إلى حد الخسارة، أو احتكار بيع السلع بما يضر الناس.

---

(١) متفق عليه.

- التفاوت في الأرباح والمكاسب المالية، تبعًا لاختلاف المواهب والكفاءات، ومقدار الجهد المبذول.. والمنافسة المشروعة، والإسلام يقر هذا التفاوت الطبيعي، طالما كانت أسبابه مشروعة ولا شبهة فيه. ولذلك نجد الإسلام يؤكد هذا المعنى، ويحذر في نفس الوقت- بطريق غير مباشر- من أن يكون هذا التفاوت سببًا للطبقية المقيتة، فيقول ﷻ في الآية ١٦٥ من سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

على أن العمل- مهما كانت طبيعته- هو أمانة للقائم به، ويجب أن يؤديه بذمة وإخلاص، ويبذل قصارى جهده في أدائه والارتفاع بمستواه.. عملاً بقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»(١).



والإسلام يقدر العمل حق قدره، ويحترمه ويعظمه، ويحيطه بقداسة، ويمنح اليد العاملة توقيرًا، فنجد أن رسول الله ﷺ يقبل يدًا تورمت من العمل ويقول: «هذه يد يحبها الله ورسوله».

وقد ذُكر للرسول ﷺ أن رجلاً كثير العبادة- لا يعمل- فقال: من يقوم به؟ قال: أخوه، قال: «أخوه أعبد منه».

وكان رسول الله ﷺ جالسًا مع أصحابه يومًا، فنظر إلى شاب جلد قوي وقد بكّر يسعى، فقالوا: ويح هذا، لو كان شبابه وجلده في سبيل الله؟ فقال عليه السلام: «لا تقولوا هذا، فإنه إن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعافا ليغنيهم ويكفيهم.. فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى تفاخرًا وتكاثرًا فهو في سبيل الشيطان».

هكذا يقدس الإسلام العمل ويدعو إليه، ويعتبره شرفًا كبيرًا، بل ويعده واجبًا مقدسًا. وأهم وسائل تملك المال في نظر الإسلام هو العمل- كما ذكرنا من قبل- حيث يقول رسول الله ﷺ: «أطيب الكسب عمل الرجل بيده». ونستطيع أن نقول أن الإسلام يعتبر العمل من الشعائر الواجبة، بل هو فرض على كل مسلم قادر، سليم الجسم كامل العقل، ولا يُعفى من هذا الفرض إلا المريض أو الشيخ الطاعن في السن. فالعمل فرض واجب لأنه يزيد عمارة الأرض، ويجعلها زاهرة عامرة.

---

(١) المرجع: كتاب قانون حقوق الإنسان للدكتور عبد الواحد محمد الفار، ص١٧٤.

فقد قال الجصاص في كتابه: «أحكام القرآن» عند تفسير قوله تعالى في سورة هود: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي أمدكم من عمارتها بما تحتاجون إليه، وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض الزراعة والغراس والأبنية.

فالعمل إذن ليس للمعاش والمنفعة الذاتية للعامل فحسب، والعمل في نظر الإسلام ليس لكسب القوت وكفاية حاجة الفرد وعائلته فقط، ولكن العمل يقصد به أيضًا ابتغاء مرضات الله، ومرضاة الناس، ومرضاة خير الجماعة، وعلى حسب هذا يكون التقدير.

ونستطيع أن ندرك قدر العمل في الإسلام، حين نجد أن عمر بن الخطاب ﷺ يذهب في تقدير العمل إلى حد ما بعده مزيد حين يقول: «والله إن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل.. فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة».

يقول الله ﷻ في آخر سورة المزمل: ﴿ ..فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ .. ﴾ هكذا يرتفع الإسلام بالعمل إلى مرتبة العبادات، فالضرب في الأرض هو سعي لابتغاء الرزق، وهو عمل دنيوي، فلا حرج على المسلم الذي لا يعكف على قراءة القرآن حين يكون مريضًا، أو منشغلاً بأداء عمله، أو يجاهد في سبيل الله.

والإسلام حين ينادي بأن يقوم كل فرد بما يشاء من الأعمال كلٌّ على حسب قدرته، وعلى حسب استعداده وكفاءته، إنما يطالب بالسعي إلى ابتغاء الكسب النظيف عن طريق التجارة، حيث يقول ﷻ في سورة قريش: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ (١) إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ (٣) ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾.

وعن طريق الزراعة حيث يقول الله تعالى في الآيات من ٢٤-٣٢ من سورة عبس: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾.

وعن طريق الصناعة حين يشير إلى أهمية الحديد وصناعته في الآية ٢٥ من سورة الحديد ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ .. ﴾. وحين

يشير إلى نبي الله داود عليه السلام في الآية ٨٠ من سورة الأنبياء: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾.

كما نستطيع أن نجد في أحاديثه ﷺ الدعوة إلى العمل: التجاري والزراعي والصناعي، فنجده يحث على الأعمال التجارية فيقول: «كل بيع مبرور». ويقول: «التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين». ونجده يحث على القيام بأعمال الزراعة فيقول: «ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان إلا كان له به صدقة». ويقول: «من غرس شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر.. كان له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عزّ وجل». ونجد الرسول الكريم يدعو الناس إلى تأدية الأعمال الصناعية فيقول: «خير الكسب كسب الصانع إذا نصح»[1].

وإنا لا نجد نبيًّا أرسله الله إلا كان له عمل، منذ خُلقت الحياة على وجه الأرض، فإن أبانا آدم عليه السلام تعلم أسماء الأشياء بإلهام من الله، وعلمها لأبنائه، كما علَّم أبناءه الزراعة والحصاد وصناعة الخبز، وصناعة النسيج.

وإدريس عليه السلام تعلم القراءة والكتابة والحساب والعمارة والمقاييس والموازين، وعلمها لقدماء المصريين الذين كان يعيش بينهم.

وكان نوح عليه السلام نجارًا ماهرًا. يقول تعالى في الآية ٣٧ من سورة هود: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾.

وقد عمل يوسف عليه السلام أمينًا لخزائن مصر، وكانت آراؤه ومشوراته سببًا في حفظ مصر من مخاطر القحط وغائلة الجوع لسنوات طويلة.. حيث قال للملك.. كما جاء في الآيتين ٥٥، ٥٦ من سورة يوسف: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

كذلك عمل موسى عليه السلام أجيرًا في مدين، إذ قال له من أصبح حماه: ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الآية ٢٧ من سورة القصص].

---

(١) المرجع: كتاب «العمل في الإسلام» للأستاذ محمد حسني السيد، ص٩.

ويقول الرسول ﷺ: «كان زكريا عليه السلام نجارًا».

وهذا نبي الله ﷺ يقول: **«ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم»** فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة».

ويعتبر نبي الإسلام ﷺ من صميم العمال بسيرته المأثورة عنه، فقد كان في صباه راعيًا للغنم، يرعاها لغيره لقاء أجر، وكان عاملاً في التجارة بمال غيره، ثم كان تاجرًا بماله بعد ذلك، فكان نِعم التاجر الصدوق.

وكان يرقع ثوبه بيده، ويخصف نعله بيده. وكان في بيته لا يكسل ولا يتكبر على أهله، بل كان يشاركهم في أعمال البيت، فهو يحلب الشاة، ويساعد أهله في كثير من العمال، وكان الخدم ربما يقصدونه ليعينهم على شراء ما كلِّفوا بشرائه من السوق، فكان يذهب معهم، وينفذ لهم ما يشاءون.

وكان معظم أنصاره ﷺ في دعوته الكبرى.. من شباب العمال: حدادين ونجارين وخياطين وجزارين.. وغير ذلك من أنواع الحِرف والمهن، حتى كان المتكبرون من ملأ قريش يعيبون عليه أن المستضعفين والعبيد والأجراء من أنصاره. وكان ﷺ ربما تحدث إلى العامل بما يحبب إليه حرفته. وقد روى الإمام الغزالي أن عاملاً جاءه فقال: يا رسول الله: ما تقول في حرفتي؟ قال: وما حرفتك؟ قال: حائك، قال: «حرفتك حرفة أبينا آدم عليه السلام، كان أول من نسج، وكان جبريل يُعلِّمه».

وكان معظم الرعيل الأول من الصحابة من العمال؛ فقد كان خباب بن الأرت حدادًا، وكان عبد الله بن مسعود راعيًا، وسعد بن أبي وقاص صانعًا للنبال، وبلال بن رباح خادمًا.

وهذا.. أبو بكر الصديق رضي الله عنه تراه في اليوم الأول لتولي الخلافة، يخرج إلى السوق ليتاجر، حتى يكسب قوته وقوت أولاده، ولم تغره الخلافة، ولم تمنعه عن العمل، حتى رآه عمر ابن الخطاب، واقترح عليه أن يترك العمل الخاص، ويتفرغ للعمل العام.. في مصلحة المسلمين، وعلى أن يأخذ من بيت المال ما يلزمه ويلزم نفقة عياله، ولم يكن ذلك إنكارًا من عمر لقيمة العمل، أو تعاليًا بالخليفة عن العمل، ولكنه الحرص على أن يتفرغ الخليفة لمصالح المسلمين، وحتى لا يشغله العمل الخاص عن العمل العام.

الأجر ومواعيد العمل :

ليس من الدين أن يُمنح الموظف راتبًا دون كفايته، أو أن يُعطى العامل أجرًا دون مهارته، ولو تم ذلك على أساس عقد مبرم بين الطرفين. فإن إرادة المحوج تنقصها الحرية، ورضاه الظاهر إنما هو خضوع المحتاج لمن يملك البت في أمره.

والواجب أن يكون المرتب المدفوع مكافئًا للجهد المبذول، قال تعالى في الآية ٨٥ من سورة الأعراف: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

إن إيتاء كل ذي فضل فضله أول مظاهر العدالة، ودعائم الاستقرار في المجتمع، وللنفس البشرية حيل شتى في الافتيات على الآخرين ومحاولة إرضاء الله في الوقت نفسه. فقد ترى الغني يستأجر عاملاً بثلاثين جنيهًا في الأسبوع، في حين أن الثمن الحقيقي لجهده خمسون جنيهًا، ثم بعد أن يحبس لنفسه العشرين جنيهًا الباقية يتصدق بمبالغ قليلة على الفقراء والمساكين، ويشعر بعد العطاء الذي أسداه أنه رجل صالح أرضى الله وأرضى العباد.

إن أغلب كبار الملاك- للأسف- ضاعف ثروته عن هذا الطريق!!

وما نحسب هذا إلا ضربًا من أكل أموال الناس بالباطل.

وهنا يثور سؤال وجيه: كيف يقدر الأجر العادل؟

والجواب: أن ذلك ليس أمرًا مستحيلاً إن صلحت النية وقدرت الحقوق، لكن تقدير هذا الأجر يجب أن تراعى فيه عدة اعتبارات.. منها أن العامل لابد أن يحيا كريم الجانب مصون الحرمة موفور الكرامة.

ولا عجب، فإن الرغبة في رفع مستوى معيشة العامل لا يقف عند حد، وأيًا ما كان الأمر، فإن المنازعات حول الأجور يجب أن تنتهي عند تسوية مرضية، أي عند سعر معين للعمل تقرره إرادات حرة متكافئة.

ومن الناس من يرفض مبدأ التسعير للجهود والسلع رفضًا باتًا، ويرى ترك الحياة الاقتصادية والاجتماعية تسير سيرها المعتاد، وفق قوانين العرض والطلب وحدها. ويستدل لوجهة نظره بأن الرسول ﷺ رفض التسعير قولاً وعملاً[١].

---

(١) محمد الغزالي (المرجع السابق) مع إضافات بسيطة، ص١٦٠.

وقد جعل الإسلام لكل عمل أجرًا يقابله، فلا عمل بدون أجر، يقول الحق تبارك وتعالى في الآية ٨ من سورة فصلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾. ونستطيع أن ندرك حق العامل في الأجر والتزام صاحب العمل بدفعه من حديث الرسول الكريم الذي حكى فيه أن رجالاً أواهم المبيت إلى غار، فانحدرت صخرة من الجبل فسدته عليهم، فدعا كل منهم ربه بأحسن عملٍ قدمه في حياته كي ينقذه من ورطته، فكان الأول بارًا بوالديه، وكان الثاني حفيظاً على الأعراض، وتوجه كلاهما إلى الله بصالح عمله، فانفرجت الصخرة قليلاً عن فم الكهف، غير أن ذلك لم يمكنهم من الخروج، حتى قال الثالث: «اللهم ني استأجرت أجراء وأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال لي: يا عبد الله أدِّ إليَّ أجري، فقلت له: كل ما ترى من الإبل والبقر والغنم فهو من أجرك، فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه أمامه فلم يترك منه شيئًا. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك.. فأفرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون.

ورسول الله ﷺ تنبه إلى أن هناك بعض الضمائر الميتة تسول لأصحابها أن يستحلوا أجر العامل أو بعض هذا الأجر، فأعلن عليهم خصومة عنيفة حين قال في حديث قدسي شريف: «يقول الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة.. ومن كنت خصمه خصمته، رجل أعطى بي ثم غدر، ورجع باع حرًا وأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره». ويدعو الإسلام بتعديل أداء الجر، فلا يكفي أداؤه كاملاً، بل لابد من أدائه عاجلاً، فيقول رسول الله ﷺ: «أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه».

ويوجب الإسلام أن يكون الجر موازيًا ومعادلاً للعمل الذي قدمه الأجير دون ظلم أو بخس، فيقول الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾. وقد أجمع فقهاء المسلمين على أن كل ما عمل الأجير شيئًا مما استؤجر لعمله، استحق من الأجر بقدر ما عمل، فله طلب ذلك وأخذه، وله تأخيره بغير شرط حتى يتم عمله أو يتم منه جملة ما، لأن الأجر إنما هو على العمل، فلكل جزء من العمل جزء من الأجر.

ويجب أن تكون قيمة الأجرة معلومة محددة، فيقول الرسول ﷺ: «من استأجر أجيرًا فَلْيُسَمِّ له أجرته»، وذلك حتى يطمئن خاطره إلى قيمة ماله من

البداية، ولا يتعرض فيما بعد لأي احتمال للغبن[1].



ويقرر الإسلام أن العمل يجب أن يكون على قدر الطاقة، فيقول تعالى في ختام سورة البقرة: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ، ويقول الرسول الكريم: «ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فإن كلفتموهم فأعينوهم». فإذا أراد صاحب العمل تشغيل العامل أكثر من المقرر، وجب عليه إعطاء العامل أجرًا إضافيًا نظير ذلك العمل الإضافي، وإعطاء الأجر الإضافي إعانة بلا ريب.

ويقول الرسول ﷺ: «إن لنفسك عليك حقا، وإن لجسدك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا». يبين لنا هذا الحديث الشريف أن للعامل حقه في الراحة وأداء العبادة والقيام بحق الزوجية، والأبوة. فالإسلام لا يقر أن يظل العامل في عمله إلى حد الإرهاق، فيقول الرسول الكريم: «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلت عميت». والإسلام حين ينادي بعدم الإرهاق في العمل إنما ينظر إلى العمالة نظرة إنسانية، فهم أناس لهم مشاعر وعواطف تستحق الاحترام، ولهم مطلق الحرية في أن يستمتعوا بزينة الدنيا ومباهج الحياة التي خلقها الله لعباده، وأن يتركوا جو العمل الجاد ليتنفسوا جو الحياة المرحة، ويطرقوا مواطن اللهو المباح.

والمأثور عن أخلاق الرسول الكريم أنه ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه، والمعروف عن وصاياه لأصحابه أنه كان يقول: «يَسِّروا ولا تُعسِّروا.. وبشِّروا ولا تنفروا».

والله ﷻ يبين للرسول الكريم منهاج حياته، ولنا فيه أسوة حسنة، فيقول له في مستهل سورة طه: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾. وهكذا، فإن قواعد الدين إذا استهديناها، وروحها إذا استوحيناها تشير إلى أن الاستمرار في العمل إلى حد الإرهاق أمر لا يبيحه الإسلام ولا يرضى عنه، حتى أننا نجد الإسلام ينهى عن الإرهاق في العبادة، فكان رسول الله ﷺ يقول: «لا تشددوا على أنفسكم فيُشدد عليكم، فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم».

---

(١) محمد حسني السيد (المرجع السابق)، ص٣٢.

فالإسلام قد راعى النواحي النفسية للعامل وأهمية الراحة له، وتأثير ذلك على العمل نفسه، وقد قيل في الأثر: «مَن لا راحة له لا عمل له»[١].

وقد أثبت علماء النفس أن لكل إنسان طاقة معينة، يستطيع أن يؤدي في نطاقها ما يُكلف من أعمال تأدية حسنة، فإذا تواصلت جهوده ونفذت طاقته وأدركه الكلال، فإنه يفقد السيطرة على أعصابه، ويفلت منه زمام التفكير، وتكثر أخطاؤه، حتى يصل إلى حد يصبح معه عمله" - إن استطاع عملاً- لا جدوى منه، فالانقطاع عنه أفضل.

والإسلام فيما افترض على الناس من عبادات يراعي هذه الحقيقة، ويأبى على المؤمنين أن يأخذهم الحماس فيكلفوا أنفسهم فوق وسعها، ثم تكون العقبى أن يتأدى بهم النصَب إلى التعب ثم إلى الانقطاع. وفي هذا يقول ﷺ : «إن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى». إن التعبد الحق أن يحسن الإنسان قياد نفسه فلا يجشمها ما تقبله اليوم وتنفر منه غدًا.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إذا نعس أحدكم في الصلاة فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه».

فإذا كان الله قد استن لعباده الترويح والتيسير في شئون الدين، فكيف يرضى لهم الإرهاق واللغوب في شئون الدنيا !!

إن الراحة من حق النفس والبدن والأهل والولد[٢].

كفالة المتعطلين والعاجزين :

إذا كان الإسلام يأخذ بمبدأ حرية العمل بالمعنى الواسع، فإنه في ذات الوقت يحتم إيجاد عمل لكل فرد قادر عليه، ويروى في ذلك أن الرسول عليه السلام جاءه فقير يسأله حاجة فقال له: أما لك مال؟» فقال لا، فأعاد عليه السؤال مؤكدًا فقال: عندي حلس (أي بساط) نجلس على بعضه ونتغطى ببعضه، وقدح نشرب به، فقال: ائتني بهما، فجاءه بهما، فعرضهما على من كان عنده.. قائلاً: من يشتري مني هذين؟ إلى أن باعهما بدرهمين، فأعطاه إياهما وقال: اشتر بأحدهما طعامًا لعيالك، واشترى بالآخر فأسًا، وأمره بأن يعود إليه، فعاد إليه، فوضع له

---

(١) محمد حسني السيد، المرجع السابق، ص٣٧.

(٢) محمد الغزالي، المرجع السابق، ص١٧٣.

خشبة في الفأس وقال: اذهب واحتطب ولا أرينك خمسة عشر يومًا. فذهب ثم عاد إليه بعد خمسة عشر يومًا ومعه عشرة دراهم، فقال: يا رسول الله بارك الله لي فيما أمرتني به، فقال: هذا خير من أن تأتي يوم القيامة وفي وجهك نكتة المسألة.

فالعمل واجب على كل مسلم قادر عليه، وحق لكل قادر، ويتعين على الدولة أن تكفله للجميع في نطاق مبدأ تكافؤ الفرص(١).

وقد أعطى الإسلام للعامل حق تأمين نفقاته العائلية، لأن ذلك من كرامته: «ولقد كرمنا بني آدم..» وكان رسول الله ﷺ يعطي المتزوج ضعف نصيب الأعزب، ويقول عيه السلام: «من ولي لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً، أو ليس له زوجة فليتزوج، أو ليس له دابة فليتخذ دابة».

وإن كان الإسلام قد اعتبر العمل وسيلة التملك ووسيلة ضمان الحياة المعيشية، فإنه لم يغفل الحالات التي يعجز فيها الإنسان عن كفالة نفسه وعائلته، وهي حالات التعطل والعجز.

وقد حثّ الإسلام على الاستغناء عن طريق العمل، قال رسول الله ﷺ: «اليد العليا خير وأحب إلى الله من اليد السفلى». وجعل واجب الجماعة الأول أن تهيئ العمل لكل فرد.

وقد فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمولود مائة درهم، فإذا نما وكبر بلغ به مائتين، فإذا بلغ زاده، وكان يفرض للقيط مائة درهم، ولوليه كل شهر رزقًا يُعينه عليه، ويجعل رضاعه ونفقته من بيت المال، فإذا كبر سوّاه بغيره من الأطفال. وكذلك جعل لعجزة اليهود والنصارى فريضة من بيت المال بوصفهم أعضاء في المجتمع.. عاجزين عن الكسب بسبب الشيخوخة أو العاهة.

فإذا كان العمل لا يسد الحاجة، فبيت المال في الدولة الإسلامية هو الكفيل، كما في حالة الفقير وهو الذي يملك أقل من نصاب الزكاة، والمسكين الذي لا يملك شيئًا، وابن السبيل المنقطع عن ماله، والمدين الذي ذهب الدين بماله ما لم يكن قد أنفقه في معصية، فهؤلاء قد شملتهم جميعًا مصارف الزكاة التي تجبيها الدولة من القادرين وتنفقها على المحتاجين(٢).

---

(١) المرجع: الدكتور عبد الواحد محمد الفار في مؤلفه: قانون حقوق الإنسان (مرجع سابق) ص١٧٨.

(٢) المرجع: محمد حسني السيد في مؤلفه: العمل في الإسلام، ص٤٠.

الفصل الخامس
العلم والعلماء

يولد الإنسان طفلاً ضعيف البدن، قاصر الفكر، ثم يأخذ على مر الزمن طريقه إلى النماء البدني والارتقاء الفكري.. حتى يبلغ أشده. وهو لا يكبر جسمًا وعقلاً من تلقاء نفسه، بل يتزود بمقادير منتظمة من الأغذية تكفل لعظامه أن تمتد ولعضلاته أن تكتنز.

وهو محتاج إلى أقساط منتظمة كذلك من المعرفة، حتى يتفتق ذهنه، وتتسع مداركه، ويبصر حقيقة ما يحيط به من الأشخاص والأشياء، ويعي ما يُطلب منه وما يجب عليه. يقول تعالى في الآية ٧٨ من سورة النحل: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

والإسلام يوثق العلاقات بين الإنسان وبين هذا الكون الذي يحيا بين أرضه وسمائه، ويشد حواسه وبصيرته إلى ما يحفل به هذا العالم من أسرار وقوانين، حتى لا يعيش محجوبًا ولا جاهلاً.

ولنستمع إلى هذا الدرس من عشرات الدروس التي امتلأ بها القرآن الكريم، وهو يصل الإنسان بالكون ورب الكون. يقول سبحانه في الآية ٩٥ من سورة الأنعام: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾.

وإن الذي جعل الحبة في التربة تنفلق عن هذا الخير المكنون.. هو صاحب القدرة التي تجعل الليل يلد الفجر، فإذا أشعته تغمر الآفاق إثر حركات الفلك في فضائه، تلك الحركات التي لا نحسها ونحن نيام أو أيقاظ، ولكننا نعرفها بطول التأمل، ونضبط مواقيتها التي لا تختلف أبدًا. يقول تعالى في الآية ٩٦ من سورة الأنعام: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

ومن هنا كان العلم والدين متلازمين، بل إن أحدهما- في منطق القرآن الكريم- سبب ونتيجة للآخر. ومن هنا يقال: إن أساس الثقافة الإنسانية معرفة الكون والحياة، بيد أن هذه المعرفة وسيلة إلى معرفة أعظم، هي معرفة خالق الكون والحياة، ورب كل شيء ومليكه.. رب العالمين. وإننا لم نر كتابًا مثل

القرآن الكريم يربط الإنسان بالكون، والعقل بالعلم، والضمير بالتقوى، والسلوك بالخلق. ولذلك لا عجب إذا وجدنا في صعيد واحد حديثًا متماسكًا متلاحقًا عن الإنسان والقرآن والنبات والكواكب وقوانين الكون وموازين العدل.

تدبر قوله تعالى في مستهل سورة الرحمن: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾.

ما معنى هذا كله؟

معناه أن البصيرة الإنسانية مرآة تمسك الحقائق كلها على اختلاف مصادرها. وأن الإنسان عندما يكتمل عقلاً وخلقًا يتجاوب مع كل شيء في الوجود تجاوبًا صحيحًا صادقًا. وسبيل ذلك العلم والدين جميعًا، فهما سلم الارتقاء للإنسان.

ولأمر ما كان أول ما نزل من القرآن إشعارًا بفضل العلم وأثره وقيمة القلم وخطره: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.

أما الأحاديث المشيرة إلى التزود من المعارف أيًا كانت فكثيرة، منها قول رسول الله ﷺ: «ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردى، وما استقام دينه حتى يستقيم عقله»[١].

وقال: «لا حسد إلا في اثنين، رجل أتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل أتاه الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[٢].

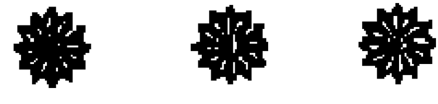
وقال: «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في جوف البحر.. ليصلّون على معلم الناس الخير»[٣].

وتخصيص العلم بلون معين من الثقافة كتخصيص المال بنوع معين من الأملاك لا وجه له، ولا شك في أن في طليعة ما تجب معرفته حق الله على الناس، وحق الناس بعضهم على بعض، فإن هداية السلوك إلى الصالح العام كبيرة الأثر في تنظيم الجماعات وتوجيه السياسات.

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري.

وإن نصوص القرآن الكريم، والألوف من السنن المأثورة عن صاحب الرسالة، تشكل مادة علمية تتصل بفروع الثقافة الإنسانية كلها، وذاك عدا ما تميزت به من علوم العقائد والعبادات التي ليس لها مصدر يوثق به غير الوحي الأعلى[١].



والعلم الذي أمر به القرآن الكريم هو جملة المعارف التي يدركها الإنسان بالنظر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق من شيء.. ويشمل الخلق هنا كل موجود في هذا الكون ذي حياة أو غير ذي حياة.

يقول ﷻ في الآية ١٨٥ من سورة الأعراف: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾. ويقول في الآية ١٦٤ من سورة البقرة: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

فالعلم في الإسلام يتناول كل موجود، وكل ما يوجد، فمن الواجب أن يُعلم، فهو علم أعم من العلم الذي يُراد لأداء الفرائض والشعائر، لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام، إذ كان خير عبادة الله أن يهتدي الإنسان إلى سر الله في خلقه، وأن يعرف حقائق الوجود في نفسه ومن حوله.

ولهذا قال النبي ﷺ في فضل هذه العبادة: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد..».

وقال: «إن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء».

وقال: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»[٢].

وقد قام الإسلام بتوفير كل الشروط الضرورية لقيام حركة فكرية في أوساط المسلمين، وقامت هذه الحركة الفكرية بالفعل، وازدهرت في جميع بلاد المسلمين، وانتشرت بينهم كل ألوان الثقافات، وتفاعل الفكر الإسلامي مع هذه

---

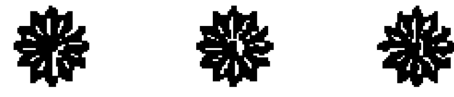
(١) كتاب محمد الغزالي (المرجع السابق)، ص١٧٧.

(٢) المرجع: كتاب عباس محمود العقاد: «التفكير فريضة إسلامية»، ص٥٧.

الثقافات المختلفة، ولم يرفض المسلمون ثقافة من الثقافات لمجرد الرفض، وإنما ساروا في ذلك على مبدأ قرآني ورد في الآية ١٧ من سورة الرعد يقول: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، وهذا يعني قبول كل ما هو إيجابي نافع، ورفض كل ما هو سلبي لا خير فيه. وقد كانت كلمات الرسول ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»[١]، وقوله: «الحكمة ضالة المؤمن»[٢] أي هي ذلك الشيء الذي ينشده المؤمن، فإذا وجدها في أي مكان أخذها.. كانت هذه الكلمات نبراسًا يضيء للعقول طريقها نحو العلم والمعرفة بلا حدود.

وقد رفع القرآن من شأن العلم والعلماء في آيات صريحة، وأشادت أول كلمات نزلت من السماء على محمد ﷺ بالعلم، واعتبر القرآن العلماء أخشى الناس لله.. لأنهم الذين يدركون أسرار الله في خلقه، ويعون روعة الكون وجمال الخلق وجلال الخالق، وجعل الإسلام مداد العلماء كدماء الشهداء.

ولم تكن الأسس التي وضعها الإسلام لتطوير الفكر والنهوض به مجرد أسس نظرية، وإنما كانت خطوات عملية أثمرت ثمارها في المجتمع الإسلامي، فكانت دولة الإسلام أرحب الدول صدرًا وأسمحها فكرًا مع الفلسفة والفلاسفة، ومن أصيب من الفلاسفة المسلمين يومًا بمكروه، فإنما كان ذلك من كيد السياسة، ولم يكن من حرج بالفلسفة أو حجر على الأفكار. فالإسلام بتعاليمه يستطيع أن يواجه أية ثقافة فكرية إنسانية دون أن يُخشى عليه طالما وجد من المنتسبين إليه من يستطيع فهمه في أصوله وغايته. ولم يحدث أن وقف الدين الإسلامي عقبة في سبيل البحث في العلوم الطبيعية على النحو الذي شهدته أوربا في العصور الوسطى، بل كان الإسلام دائمًا وراء كل إنجاز حققه العلماء المسلمون في هذا المجال[٣].



ونود أن نشير هنا إلى أن معركة بدر الكبرى انتهت بنصر مبين للمسلمين، وهزيمة ساحقة للمشركين، فولى البقية منهم مدبرين، بعد أن قتل منهم سبعون، وأسر سبعون. وقد رأى النبي ﷺ- بعد الاستشارة- أن يأخذ بمبدأ

---

(١) رواه ابن ماجه.

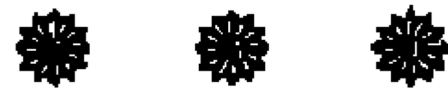
(٢) رواه الترمذي وابن ماجه.

(٣) المرجع: كتاب «مقدمة في الفلسفة الإسلامية»، للدكتور محمود حمدي زقزوق، ص٣٧.

الفداء، إذ فيه رفق بالأهل من جماعة قريش، ونفع لجماعة المسلمين.. الذين كانوا في حاجة ماسة إلى المال.

وقد أخذ رسول الله ﷺ الفداء من ذوي الثراء من المشركين بما فيهم بني هاشم، بل شدد في الأخذ منهم ولم يقبل غير الفداء. كما كان رسول الله ﷺ يقبل من الفداء نوعًا معنويًا، وهو تعليم الأميين من أصحاب رسول الله ﷺ، فإذا لم يكن لدى الأسير مال يفتدي به نفسه، ولكن له علم بالقراءة، كان فداؤه أن يُعلِّم بعض الأميين المسلمين القراءة والكتابة.

وهذا يوضح بجلاء مدى اهتمام الرسول العظيم بالتعلُّم ونشر القراءة، وانتهاز أول فرصة تسنح لنشر العلم بين المسلمين.



ويستطيع الإنسان أن يقرر دون تردد ولا هوى أن فرص التعليم في العالم الإسلامي كانت مكفولة للغني والفقير على حد سواء، وأن الفقر لم يكن عائقًا أمام الراغب في العلم أو الساعي لارتشاف المعرفة.

لقد بدأ التعليم الإسلامي في المسجد، ولا شك في أن المسجد كان مفتوحًا للناس جميعًا، وكانت حلقاته معدة لاستقبال الطلاب لتعليمهم بالمجان دون قيد أو شرط.

وقد كانت الكتاتيب أسبق أنواع المعاهد التعليمية وجودًا في العالم الإسلامي، وقد اشتق اسم هذا المعهد «الكُتّاب» من التكتيب وتعليم الكتابة، وكانت توجد كتاتيب لتعليم القرآن والدين، وكتاتيب لتعليم القراءة والكتابة، ومع مرور الزمن اندمج المعهدان، وأصبح الكُتّاب يُعلِّم الدين كما يُعلِّم القراءة والكتابة.

وكان تعليم الصبيان يتم في المسجد أولاً، ولكن ظهرت توصيات- بعد ذلك- بأنه لا يصح أن يكون تعليم الصبية الصغار في المساجد، من ذلك ما قاله الإمام مالك حين سئل عن ذلك: «لا أرى ذلك يجوز، لأن الأطفال لا يتحفظون من النجاسة» ومن ثم فقد أصبح التعليم في الكتاتيب مستقلاً عن المسجد.

ثم انتقل التعليم إلى المدارس، وكان من أهم خواص المدارس: الإيوان، وهو الاسم الذي يرادف قاعة المحاضرات في التعبير الحديث، وما كانت المدرسة تخلو منه، فهو أبرز مرافقها وأهمها. ومن خواص المدرسة أيضًا: المساكن التي تُبنى ليعيش فيها الطلاب والمدرسون الذين ينتسبون إليها، وقد حفلت أغلب مدارس المسلمين بهذه المساكن وبما يتبعها من مرافق كالمطبخ

وحجرة الطعام وما شابهها. وكانت كل مدرسة تدرس العلوم الدينية، وبخاصة الفقه على مذهب من المذاهب الأربعة الشهيرة، أو على المذاهب جميعًا. ومع مرور الزمن بدأ الاهتمام بعلم الطب بصفة خاصة، ثم اتسعت الدراسات لتشمل كافة علوم الدنيا والدين.

وقد برهن الطالب المسلم على حماسة منقطعة النظير في طلب العلم، وكان الدافع القوي إلى ذلك آيات القرآن الكريم التي تمجد العلم والعلماء، وأحاديث الرسول الكريم ﷺ التي تحث على طلب العلم.

وظل المسجد يقدم رسالته للكبار، فكان ولا يزال تُعقد به دروس وحلقات لشرح علوم الدين والتفقه فيه(١).



وقد قامت الدولة الإسلامية التي أسسها الرسول العظيم على العلم والمعرفة، فحببت للمسلمين طلب العلم، وألزمتهم احترام العلماء وتوقيرهم، وجعلت لهم منزلة سامية لا تدانيها منزلة. يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة». فالنبي بذلك يرفع من منزلة العلم ومكانته.. إلى الحد الذي يجعله فريضة، تتساوى مع فرائض الإسلام الكبرى من صلاة وزكاة وصيام. واستمع إلى قوله تعالى في الآيتين ١٨، ١٩ من سورة آل عمران: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

والمعنى المقصود أن شهد الله سبحانه، وشهدت الملائكة، وشهد أولو العلم: أنه لا إله إلا هو سبحانه.. إله واحد، فرد صمد، لا شريك له ولا ولد، قائمًا بالقسط، أي يقوم بإجراء الأمور، وتدابير الخلق، وجزاء الأعمال بالعدل، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

وتضمنت الآية الأولى الإبانة عن فضل العلم والعلماء، لأنه تعالى قرن العلماء بالملائكة، وشهادتهم بشهادة الملائكة، وخصّهم بالذكر كأنه لم يعتد بغيرهم، والمراد بهذا العلم التوحيد وما يتعلق به من أمور الدين.

---

(١) المرجع: كتاب الدكتور أحمد شلبي بعنوان: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي، ص٤٧ وما بعدها.

وفي الآية الثانية يقرر الحق تبارك وتعالى أن الدين الحق، المقبول عند الله، هو الإسلام، وقد أراد الله تعالى بالدين أن يحكم أرواح الناس وعواطفهم، ويمتلك نفوسهم وقلوبهم، فتنقاد إليه أفئدتهم قبل جوارحهم، لا أن يصبح في نظر معتنقيه أمرًا يألف إليه الناس بحكم الإرث والعادة، لا بحكم الإيمان والعقيدة.

ثم بيَّن سبحانه وتعالى أن اختلاف أهل الكتاب من اليهود والنصارى في شأن ما جاءهم من العلم وهو الدين الحق الذي علموا به ولم يجهلوه إنما كان سببه البغي والحسد وطلب الدنيا. وختم الآية بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

وفيما قدمنا دليل على فضل العلم وشرف العلماء في الدولة الإسلامية ويساير هذا ما قاله سبحانه لنبيه في شرف العلم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ من الآية ١١٤ في سورة طه، فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله نبيه أن يسأله المزيد منه كما أمره أن يستزيد من العلم.

وفي الآية ١١ من سورة المجادلة يقول تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وذكر المفسرون أن المعنى المقصود هو أن الله يرفع الذين آمنوا درجة، ويرفع الذين أوتوا العلم درجات في الجنة بفضل علمهم وسابقتهم، فبيَّن سبحانه بذلك فضل العلماء على غيرهم.

وقد ورد في الحديث الشريف: «فضل العالم على الشهيد درجة، وفضل الشهيد على العابد درجة».

كما جاء في الحديث أن «العالم يستغفر له كل شيء، حتى الحوت في الماء، والطير في الهواء».

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: «ساعة من عالم يتكئ على فراشه ينظر في علمه خير من عبادة العابد سبعين عامًا».

كما قال ﷺ: «تعلموا العلم، فإن تعلمه لله حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وتذكره لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل الجنة، والأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والقرب عند الغرباء، يرفع الله به أقوامًا.. فيجعلهم في الخير قادة يُقتدى بهم، وتُقتفى آثارهم، ويُنتهى إلى رأيهم، وترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وفي صلاتهم تستغفر لهم، وكل رطب ويابس يستغفر لهم، حتى حيتان

البحر وهوامها، وسباع الأرض وأنعامها، والسماء ونجومها. ألا وإن العلم حياة القلوب، ونور الأبصار، وقوة الأبدان، يبلغ بالعبد منازل الأحرار، ومجالس الملوك، والفكر فيه يعدل بالصيام.. ومدارسته بالقيام».

يقول الحق تبارك وتعالى في الآية ٢٨ من سورة فاطر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

والمعنى المقصود أنه إنما يخشى الله حق خشيته، ويعرفه حق معرفته من عباده العلماء، لنهم يعلمون رحمته ونقمته، وعفوه وبطشه، وحلمه وقهره، ومغفرته وعذابه، ويعلمون أنه تعالى على كل شيء قدير، فالعلم هو في نفسه غاية الغايات، ونهاية النهايات، فبالعلم يستطيع الإنسان أن يدافع عن نفسه، ويدفع عنه عدوان المعتدين، وإيذاء الآخرين، وبالعلم استطاع الإنسان أن يسخر الماء والهواء، والبخار والكهرباء، والذرّة والكيمياء، وأن يجعل العلم وسيلة للعمران والبناء، أو للزوال والفناء.

ووردت آيات أخرى في فضل العلماء ومكانتهم وخشيتهم لله تبارك وتعالى: منها الآية ٦ من سورة سبأ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾.

ومنها الآية ٤٩ من سورة العنكبوت: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾.

ومنها الآية ٧ من سورة آل عمران: ﴿.. وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وكان التحدي بالعلم هو التحدي الأكبر، والسلاح الأمضى في مواجهة المشركين والكافرين من أهل الكتاب، فتحداهم الحق سبحانه في الآية ١٤٨ من سورة الأنعام قائلاً: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾، كما قال ﷻ في شأن الروح متحديًا اليهود، وذلك في الآية ٨٥ من سورة الإسراء: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

والرسول الكريم حث الناس على الرجوع إلى العلماء لتدبر معاني القرآن الكريم، وتفسير ما يكون قد غمض من آياته، فيقول ﷺ: «أنزل القرآن على أربعة أحرف: حلال وحرام.. لا يعذر أحد بالجهالة به، وتفسير تفسره العرب، وتفسير تفسره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا الله عز وجل، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب».

وفي ذات الوقت فإن العلماء مطالبون بإظهار علمهم للناس، وألا يكتمون ما يعلمون، أو ينبذوه وراء ظهورهم، فقال الرسول ﷺ: «من سُئل عن علم فكتمه، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار».

والعلم شفيع لصاحبه بعد موته، فضلاً عن رفع العالم درجات في الجنة، ففي حديث شريف: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

كما قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده: إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي».

ويقول النبي ﷺ: «لكل شيء عماد.. وعماد الإسلام العلم».

ويقول: «اطلبوا العلم ولو في الصين».

ويقول كذلك: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا.. سهل الله به طريقًا إلى الجنة».

كما يقول: «من تفقه في دين الله كفاه مهمته.. ورزقه من حيث لا يحتسب».

هذا- وبالعلم وحده صار آدم أبو البشر أفضل من الملائكة، واستحق من الله التكريم ومن الملائكة السجود، حيث قال الحق تبارك وتعالى في الآيات من ٣١ إلى ٣٣ من سورة البقرة: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾.

وبالعلم وحده أصبح الأنبياء أفضل من سائر البشر دون استثناء، واقرأ إن شئت الآية ٤٣ من سورة مريم، إذ قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾.

وقال تبارك وتعالى عن سيدنا يعقوب عليه السلام في الآية ٦٨ من سورة يوسف: ﴿ ..وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وقال تعالى في الآية ٢٢ عن سيدنا يوسف عليه السلام في السورة التي تحمل اسمه: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

وقال سبحانه في الآية ١٤ من سورة القصص عن سيدنا موسى عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

وقال عن سيدنا داود وسليمان عليهما السلام في الآية ١٥ من سورة النمل: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾.

وقال عن سيدنا عيسى عليه السلام في الآية ٤٨ من سورة آل عمران: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾.

ولقد كرَّم الرسول الكريم العلماء أفضل تكريم، ورفعهم إلى أعلى منزلة عندما قال: «العلماء ورثة الأنبياء»، ولما كان الرسول أفاد بأن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما يورثوا العلم، كان مؤدى ذلك أن العلماء هم ورثة الأنبياء في العلم، وهم همزة الوصل، وحلقة الصلة بين العلم وأفراد الناس، فهم يشرحون لهم الدين ويوضحون لهم أحكامه ومراميه وغاياته، وتأكيدًا لهذه المعاني الجليلة، قال ﷺ : «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل».

وفي قصة سيدنا سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ، ذكر الكتاب الحكيم في سورة النمل أن سليمان سأل المحيطين به من الكبراء والعلماء: أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين؟ قال الذي عنده علم من الكتاب: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾. وفعلاً أتم وأنجز ما وعد، وكان الفضل في ذلك للعلم الذي منحه الله إياه.

وفي سورة الكهف.. كان هناك لقاء موسى والعبد الصالح الذي تعلم موسى على يديه، بماذا وصف الله هذا العبد الصالح؟ قال عنه في الآية ٦٥ من سورة الكهف أن موسى وفتاه توجها إليه: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾. وبسبب هذا العلم الذي آتاه الله هذا العبد تواضع له موسى وهو نبي، واقترب منه في تواضع جم قائلاً له: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ فأصبح موسى النبي.. كليم الله.. وأحد أولي العزم من الرسل تابعًا لعبد فقير إلى الله، وإنما كان ذلك لأن هذا العبد يحظى بعلم من عند الله يفوق ما يحظى به الأنبياء.

والقرآن الكريم إذ يحكي هذه الحكايات ويوضح هذه الحقائق، إنما يريد بذلك أن يغرس في نفوس المسلمين احترام العلم، وخفض الجناح لأولي العلم، وتكريم العلماء، أفضل خلق الله بعد الأنبياء.

ولا غرابة في دين يهتم بالعلم إلى هذا الحد، فإن أول ما نزل من الوحي كان: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾. وأول قسم نزل في القرآن الكريم كان: ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾.

ثمار العلم عند المسلمين

أدرك المسلمون الأوائل جلال وعظمة العلم، وكان لنداءات الله ورسوله ثمارها لدى المسلمين، بالاهتمام بالعلم واحترام العلماء، فبرز منهم علماء كبار في مختلف العلوم والفنون، أشعلوا مصابيح النور والهدى في مختلف الأرجاء والآفاق، بينما كانت أوربا ترزح تحت ظلام دامس فترة العصور الوسطى.

ويُعد الطب والكيمياء والفلك والرياضيات والفلسفة أهم الفروع التي عني بها المسلمون، وأثمر أعظم اكتشافاتهم، وكان «**الرازي**» المتوفى سنة ٩٣٢م من علماء الكيمياء والطب على حد سواء.. بل والصيدلة كذلك، فقد زاول الطب في بغداد خمسين سنة، وألَّف في شتى الموضوعات كالفلسفة والتاريخ والكيمياء والطب والصيدلة، وظلت كتبه في الحميات كالحصبة والجدري من المراجع الأساسية التي اعتمد عليها الأطباء في غرب أوربا زمنًا طويلاً، كما أن كتابه في أمراض الأطفال يعتبر الأول من نوعه. وأشهر كتب الرازي كتابه «الحاوي» وكتابه «المنصوري»، والكتاب الأول هو أهم مؤلفاته، وقد ترجمت كتبه إلى اللاتينية وطُبعت عدة مرات ولاسيما في إيطاليا وفرنسا، وظلت جامعات الطب في أوربا تعتمد على كتبه زمنًا طويلاً، وما زال الغربيون يعترفون بفضله ويقدرون أثره، حتى أن جامعة بريستون في الولايات المتحدة أطلقت اسمه على أفخم أجنحتها تقديرًا لفضله.

أما «**ابن سينا**» المتوفى سنة ١٠٣٧م فهو أشهر أطباء العرب على الإطلاق وأبعدهم أثرًا، وحسبنا أن كلية الطب بجامعة باريس تحتفظ حتى اليوم بصورتين كبيرتين في قاعتها الكبرى. إحداهما للرازي والأخرى لابن سينا، وقد بلغ من تقدير المعاصرين لابن سينا أن لقبوه بالشيخ الرئيس، وترجع أهمية ابن سينا إلى براعته في كثير من العلوم.. وبخاصة في الفلسفة والطب، وكذا في الفلك والإلهيات وفقه اللغة والفنون، وبلغت مؤلفاته قرابة المائة، وكتاب «القانون» هو أشهر كتب ابن سينا في الطب، حتى اعتبره الأوربيون خير ما أنتجته القريحة الإسلامية، ويشتمل هذا الكتاب على علم وظائف الأعضاء وعلم الصحة وعلم الأمراض وعلم المعالجة، ووصفت فيه الأمراض بأحسن مما

وصفت به في الكتب التي أُلفت قبله، ونُقلت كتب ابن سينا إلى أكثر لغات العالم، وظلت مرجعًا عامًا للطب ستة قرون، وبقيت أساسًا للمباحث الطبية في جميع جامعات فرنسا وإيطاليا، وكان طبعها يُعاد كل فترة من الزمن.

وألّف «ابن رشد» الأندلسي المتوفى سنة ١١٨٨م في الطب أيضًا، وإن اشتهر فيلسوفًا شارحًا لكتب أرسطو أكثر من اشتهاره طبيبًا، ذلك أن كتب أرسطو كانت قد ضاعت فلم يُعثر لها على أثر.. إلا عن طريق الترجمة العربية التي احتفظ بها المسلمون، والتي اعتنى بها ابن رشد، وكانت له كذلك تفاسير لكتب ابن سينا، وكتابًا في المداواة، وآخر في السموم وفي الحميات.. الخ، وطُبعت كتب ابن رشد في الطب وفي الفلسفة كثيرًا في أوربا، وكانت محلاً للدراسة والبحث، والنقل منها والاستفادة بها.

أما في الجراحة، فإن أشهر جراحي العرب هو «أبو القاسم» القرطبي المتوفى سنة ١١٠٧م، الذي اخترع كثيرًا من العمليات الجراحية الدقيقة في العيون والأسنان والولادة، وكان يتخذ الخيوط اللازمة لخياطة الجروح من أمعاء بعض الحيوانات وبخاصة القطط، وقد وضع أبو القاسم ثمرة خبرته في كتاب أسماه: «التصريف لمن عجز عن التأليف»، وظل هذا الكتاب بمثابة المرجع الأساسي الذي يعتمد عليه الأوربيون في الجراحة وتجبير العظام طوال عدة قرون، وذلك بعد أن ترجموه إلى اللاتينية.

ولم يجهل العرب أهمية علم الصحة، وكانوا يعرفون جيدًا أن علم الصحة يعلمنا طرق الوقاية من الأمراض التي لا يستطيع الطب شفاءها. وكان من عادة مؤلفي العرب أن يوجزوا وصاياهم الصحية في كلمات جامعة يسهل حفظها، ومن ذلك ما قاله طبيب عربي في القرن التاسع من الميلاد: «ليس شيء أضر بالشيخ من أن تكون له جارية حسناء وطباخ ماهر».

العلم والشعر

صيغت قصائد في فضل العلم.. ومكانة المعلمين والعلماء، اخترنا منها:

(أ) قصيد أحمد شوقي عن العلم والتعليم والمعلم، جاء فيها:

قـم للمعلـم وفِّـه التبجـيلا ... كاد المعلمُ أن يكون رسُـولا
أعلمتَ أشرفَ أو جلَّ من الذي ... يبني ويُنشئ أنفسًا وعقـولا؟

سُــبحانك اللهــم خيــر مُعلّــمٍ علَّمت بالقلم القرون الأوُلَــى
أخرجت هذا العقلَ من ظلماتــهُ وهديته النورَ المبــينَ ســبيلا
وإذا أُصيب القومُ في أخلاقهــم فأقم علــيهم مأتمًــا وعــويلا
وإذا النساءُ نــشأن فــي أُميــةٍ رضع الرجالُ جهالةً وخمولا
ليس اليتيم من انتهى أبواه مــن همِّ الحيــاة.. وخلَّفــاهُ ذلــيلا
إنَّ اليتيمَ هو الــذي تلقــى لــه أمًّا تخلت.. أو أبًــا مــشغولا

(ب) قصيدة حافظ إبراهيم بعنوان: مدرسة البنات ببورسعيد، جاء فيها:

كَمْ ذا يكابِــدُ عاشــقٌ ويلاقــيِ في حب مصرَ كثيــرةِ العــشّاق
إن لأحملُ فــي هــواك صــبابةً يا مصرُ قد خرجت عن الأطواق
إني لَتُطربنــي الخــلالُ كريمــةً طرب الغريب بأوبــةٍ وتلاقــي
وتهزُّوني ذكرى المروءةِ والندَى بين الــشمائلِ هِــزَّة المــشتاق
فالناس هــذا حظُّــه مــال.. وذا علمٌ.. وذاك مَكــارمُ الأخــلاق
والمال إن لم تــدخره مُحــصَّنا بــالعلم كــان نهايــة الإمــلاق
لا تحسبن العلــم ينفــع وحــده مــا لــم يُتَــوَّج ربُّــه بخَــلاق

الفصل السادس
المـرأة والأسرة والطفل

إن المتدبر للقرآن الكريم، يراه قد خصّ المرأة بحديث مستفيض، بيَّن فيه حقوقها وواجباتها، ورفع من شأنها، وأثنى عليها بما تستحقه من تكريم، وشملها في جميع تشريعاته بالرحمة والعدل، ووكل إليها أمورًا هامة في حياة المجتمـــع، وسوَّى بينها وبين الرجل في معظم شئون الحياة، ولم يفرق بينهما إلا حيث تدعو إلى هذه التفرق طبيعة كل من الجنسين، ومراعاة المصلحة العامة للأمة، والحفاظ على تماسك الأسرة واستقامة أحوالها، بل ومنفعة المرأة ذاتها.

المرأة في القرآن والسنة

من أبرز مظاهر تكريم القرآن للمرأة، ووجوه المـــساواة بينهـــا وبـــين الرجل، أن المرأة والرجل من أصل واحد. وهذه الحقيقة نراها في آيات متعددة، منها قوله تعالى في أول سورة النـــساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ .. ﴾.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى في الآية ١٣ من سورة الحجرات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ .. ﴾، وقوله سبحانه في الآية ١٩٥ من سورة آل عمران: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ .. ﴾.

وقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة، فأكدت هـــذه الحقيقـــة، وهـــي أن الرجل والمرأة من أصل واحد. ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الإمام أحمد فـــي مسنده، وأبو داود والترمذي في سننهما، عن عائشة رضي الله عنها أن رســـول الله ﷺ قال: «إنما النساء شقائق الرجال».

وقد حرَّم القرآن الكريم تحريمًا قاطعًا، ما كان شائعًا بين بعـــض قبائـــل العرب في الجاهلية، من تفضيل الذكور على الإناث، ومن وأد البنات وهن صغار، ومن الأحاديث التي وردت في ذلك قوله تعالى في الآيتـــين ٨، ٩ مـــن ســـورة التكوير: ﴿ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴾. ولفظ الموءودة من الوأد، وهو دفن الطفلة حية. أي: وإذا الموءودة سُئلت، على سبيل التبكيت والتقريع لمن قتلها، لأي سبب من الأسباب قتلك قاتلك؟! ولا شك أنها لم ترتكب ما يوجب قتلها، وإنما القصد من ذلك إلزام قاتلها الحجة، حتى يزداد افتضاحًا على افتضاحه.

وقد حكى القرآن الكريم في آيات أخرى، ما كان يفعله بعض أهل الجاهلية من قتلهم للبنات وكراهيتهم لهن، وذمهم على ذلك ذمًا شديدًا، فقال تعالى في الآيتين ٥٨، ٥٩ من سورة النحل: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي وهو كئيب حزين، ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ ﴾ أي يمسكه على هوان ومذلة، ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

وبيَّن سبحانه أنه وحده الذي يملك أن يمنح لمن يشاء الذكور، وأن يمنح لمن يشاء الإناث، فقال تعالى في الآيتين ٤٩، ٥٠ من سورة الشورى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾.

ومن كل ذلك يتبين لنا أن الرجل والمرأة من أصل واحد، وأنهما متساويان في طبيعتهما البشرية، وأنه ليس لأحدهما من مقومات الإنسانية أكثر مما للآخر، وأنه لا فضل لأحدهما على الآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح، وأن المفاضلة بين أي رجل وأية امرأة إنما يقوم على أمور أخرى خارجة عن طبيعتهما، وهي الأمور المتعلقة بالكفاية، والعلم، ومكارم الأخلاق، وما إلى ذلك، كما هو شأن المفاضلة بين الرجال أنفسهم بعضهم مع بعض.

وقد جاءت أحاديث النبي ﷺ فأكدت هذه الحقيقة: وهي أن المرأة من الرجل والرجل من المرأة، وأمر ﷺ بإكرام النساء في أحاديث كثيرة، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال أن رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيرًا». وروى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما أكرم النساء إلا كريم، وما أهان النساء إلا لئيم»، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من ابتلي - أي اختبر - من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كنَّ له سترًا من النار».

ولقد تغنى الأدباء والشعراء بمناقب النساء، ورقة إحساسهن، وحنان قلوبهن، وجميل صبرهن. وانظر إلى أمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله وهو يرثي مصطفى باشا فهمي، وقد توفي وترك عددًا من البنات ليس من بينهن رجل.. فيقول:

أبا البنات، رزقتهن كرائما ... ورُزقت في أصهارك الكرماء
لا تذهبن على الذكور بحسرةٍ ... الذكرُ نعم سلالةُ العظماء
إن البنات ذخائرٌ من رحمة ... وكنوز حب صادقٍ ووفاء

والـــساهرات لعلـــة أو كَبْـــرَةٍ والـــصابرات لـــشدة وبـــلاء
والباكيات حين ينقطـــع البكـــا والزائراتك في العراء النـــائي
والذاكراتك مـــا حَيــين تحـــدُّثا بـــسوالف الحرمـــاتِ والآلاء
عذرًا لهن إذا ذَهَبْنَ مع الأســـى وطلبن عند الدمعِ بعضَ عزاء

المساواة في التكاليف الشرعية :

كثيرًا ما نرى القرآن الكريم يجمع بين الرجال والنساء في التكاليف الشرعية، وفي الأوامر الدينية، وفي الثواب على الإحسان، وفي العقاب على المعصية، وفي توجيه الخطاب إليهما. ومن الآيات القرآنية التي تدل على ذلك.. الآية ٣٥ من سورة الأحزاب فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

فهذه الآية الكريمة قد اشتملت على عشر فضائل جمع الله تعالى فيها بين الرجال والنساء، وبيَّن أن الثواب العظيم كائن لمن يتحلى بها، سواء كـــان مـــن الذكور أو من الإناث.

وقال تعالى في الآية ٩٧ من سورة النحل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾. وقال تعالى في الآيتين ٧١، ٧٢ من سورة التوبة: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

وقال سبحانه في الآيتين ٣٠، ٣١ من سورة النور: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ

بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾.

ومع أن النساء يدخلن في خطاب الرجال على سبيل التغليب، إلا أن الله تعالى خصهن بالخطاب هنا بعد الرجال، لتأكيد الأمر بغض البصر، وحفظ الفرج، وبيان أنه كما لا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة إلا في حدود ما شرعه الله، فإنه لا يحل للمرأة- أيضًا- أن تنظر إلى الرجل إلا في الحدود المشروعة، لأن علاقته بها كعلاقتها به. وقوله تعالى: ﴿ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ بيان لكيفية إخفاء بعض مواضع الزينة بعد النهي عن إبدائها.

والخُمُر- بضم الخاء والميم- جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها وعنقها وصدرها، والجيوب جمع جيب، وهو فتحة في أعلى الثياب يبدو منها بعض صدر المرأة وعنقها، والمراد به هنا: محله، وهو أعلى الصدر. أي: وعلى النساء المؤمنات أن يسترن رءوسهن وأعناقهن وصدورهن بخمرهن، حتى لا يطلع أحد من الأجانب على شيء من ذلك. والمقصود بزينتهن في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾: الزينة الخفية، وهي ما عدا الوجه والكفين، كشعر الرأس والذراعين والساقين.. إلا لمن استثناهم سبحانه بعد ذلك، وهم اثنا عشر نوعًا. أي وعلى النساء المؤمنات أن يلتزمن الاحتشام في مظهرهن، ولا يبدين مواضع الزينة الخفية منهن إلا لأزواجهن، أو آبائهن، أو آباء أزواجهن، أو أبنائهن، أو أبناء أزواجهن، أو إخوانهن، أو أبناء إخوانهن.. وقوله: ﴿ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ ﴾ بيان لباقي الأفراد الذين يجوز للمرأة أن تبدي زينتها الخفية أمامهم، وهم: النساء المختصات بخدمتهن، وما ملكت أيمانهن من الإماء، وأمام الرجال التابعين لهن طلبًا للإحسان والمعاونة.. والذين في الوقت نفسه قد تقدمت بهم السن، ولا رغبة لهم في النساء.

وقال تعالى في الآية ٣٦ من سورة الأحزاب: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴾. قال الإمام ابن كثير: هذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد من الرجال أو النساء مخالفته، ولا اختيار لأحد فيما قضى الله تعالى به.

في طلب العلم والمعرفة :

ولم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة في طل العلم والمعرفة، وإنما طلب منهما التزود بالعلم النافع، وبالثقافة المفيدة، وبالمعرفة التي تعود عليهم وعلى أمتهم بالخير. ولقد شرف الله تعالى أهل العلم.. سواء كانوا من الرجال أم من النساء.. تشريفا عظيمًا. ومن مظاهر ذلك أنه سبحانه قرنهم بالملائكة في الشهادة له بالوحدانية، فقال في الآية ١٨ من سورة آل عمران: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾. وأنه قصر خشيته والخوف منه عليهم، فقال تعالى في الآية ٢٨ من سورة فاطر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾.

وبيَّن سبحانه أن العلماء وحدهم هم الذين يعقلون ما يضر به للناس من أمثال، فقال في الآية ٤٣ من سورة العنكبوت: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾. ونفى ﷻ التسوية بينهم وبين غيرهم، فقال في الآية ٩ من سورة الزمر: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وقد سوَّى الإسلام بين الرجل والمرأة في حق التعليم والثقافة لكل منهما، فقد أعطى المرأة الحق نفسه الذي أعطاه للرجل في هذه الشئون، فأباح لها أن تحصل على ما تشاء أن تحصل عليه من علم نافع، وأدب رفيع، وثقافة متنوعة، بل إن الشريعة الإسلامية لتوجب عليها ذلك في الحدود اللازمة لوقوفها على أمور دينها، وحسن قيامها بوظائفها. وقد حث الرسول ﷺ على طلب العلم، وجعله فريضة عليهن في هذه الحدود، فقال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» أي على كل فرد مسلم، رجلاً كان أو امرأة بدون تفرقة بينهما، ولقد كان النبي ﷺ يجعل وقتًا للنساء يخصهن فيه بالإرشاد والتوجيه والتعليم، والإجابة على أسئلتهن.

وفي المجتمع الإسلامي الأول كان على نساء النبي ﷺ مسئولية التعلم والتعليم، قال تعالى مخاطبًا أمهات المؤمنين.. في الآية ٣٤ من سورة الأحزاب: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾، وآيات الله تعالى: هي القرآن الكريم، والحكمة: هي السنة النبوية الشريفة. وكان بيت الرسول ﷺ مدرسة تعاونه فيها نساؤه، وبخاصة فيما يتعلق بأمور المرأة المسلمة، وشئونها الخاصة، فضلاً عن متابعتهن الدقيقة للكتاب والسنة المطهرة.

وقد ذكرت أمهات المؤمنين وغيرهن من الصحابيات، كثيرًا من الأحاديث النبوية في موضوعات شتى، وكان للسيدة عائشة رضي الله عنها النصيب الأكبر في ذلك، بل كان بعض الصحابة يرجعون إليها إذا ما خفي عليهم شيء يتعلق بالسنة النبوية المطهرة أو بغيرها.

وفي السنة السادسة من الهجرة استنفر الرسول ﷺ المسلمين لأداء العمرة، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت، وعندما علمت قريش بقدوم النبي ﷺ والمسلمين للعمرة، امتلأت نفوسهم غيظًا وقلوبهم حمية، وصمموا على منع المسلمين من دخول مكة والوقوف في طريقهم، وجهزوا لذلك جيشًا قويًا للقتال.

ووقف المسلمون- من ثم- عند الحديبية، وجرت مفاوضات بين المسمين والمشركين انتهت بصلح الحديبية.. الذي وافق فيه المسلمون على تأجيل القيام بالعمرة إلى قابل (أي السنة المقبلة). إلا أن هذا الصلح لم يرق لبعض المسلمين الذين كانوا قد استعدوا لأداء العمرة، وكان عمر بن الخطاب من بين هؤلاء الذين لم يوافقوا على هذا الصلح أول الأمر.

ولما انتهى أمر الصلح، أشار عليه السلام على أصحابه أن يحلقوا رءوسهم، وينحروا الهدي، ليتحللوا من الإحرام بالعمرة، فكان ذلك صدمة عنيفة للمسلمين في جملتهم، إذ كانوا مدفوعين بحماس بالغ ضد قريش، وكانوا يرون أن شروط الصلح في مجملها جاءت مجحفة، لا تحقق العدل والإنصاف للرسول والمسلمين، ولذلك لم يبادروا بالامتثال لأمر الرسول.

فدخل عليه السلام على أم سلمة رضي الله عنها وقال: هلك المسلمون.. أمرتهم فلم يمتثلوا، فألهمها الله سبحانه أن قالت: يا رسول الله: اعذرهم، فقد حمَّلت نفسك أمرًا عظيمًا في الصلح، ورجع المسلمون من غير فتح، فهم لذلك مكروبون، ولكن اخرج يا رسول الله وابدأهم بما تريد، فإذا رأوك فعلت اتبعوك.

فتقدم عليه السلام إلى هديه فنحره، ودعا بالحلاق فحلق رأسه، فلما رآه المسلمون تواثبوا على الهدي فنحروا وحلقوا، ثم رجع المسلمون إلى المدينة، وهم مؤمنون بأن الله قد أراد الخير بهم، حيث لم يتعرضوا للحرب والقتال في مثل هذه الظروف القاسية.

وهكذا فإن مشورة أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قد عالجت الأمر بمنتهى الحكمة، وأنقذت المسلمين من موقف صعب، كان يمكن أن يؤدي إلى فتنة لا يعلم مداها إلا الله.

والأمم العاقلة الرشيدة في كل زمان ومكان، هي التي تحرص على نشر العلم النافع بين الرجال والنساء على السواء بدون تفرقة بينهم. ورحم الله شاعر النيل حافظ إبراهيم، إذ يقول:

من لي بتربية النساء فإنها ... في الشرق علّةُ ذلك الإخفاق
الأم مدرسةٌ إذا أعددتها ... أعددت شعبًا طيبَ الأعراق
الأم رَوْضٌ إن تعهده الحيا ... بالريِّ أورَق أيما إيراق
الأم أستاذ الأساتذة الأُلى ... شغلت مآثرهُم مدَى الآفاق
ربُّوا البناتِ على الفضيلة إنها ... في الموقفين لهن خيرُ وثاق
وعليكمُ أن تستبين بناتكم ... نورَ الهدَى، وعلى الحياء الباقي

المساواة في الحقوق المدنية:

إن الذي يتأمل في شريعة الإسلام، يراها قد سوّت بين الرجل والمرأة في الحقوق المدنية على اختلاف أنواعها، فأعطت المرأة الحقوق المدنية التي أعطتها للرجل، لا فرق في ذلك بين حالها قبل الزواج، وحالها بعده، ومن أهم مظاهر ذلك أن شريعة الإسلام أحاطت حقوق القاصرات من البنات بسياج من الرعاية والحماية، فإن كان لها مال خاص انتقل إليها عن أي طريق من طرق التملك المشروعة، كالميراث والهبة والوصية وما يشبه ذلك، وجب على وليها أن يحافظ على هذا المال، وأن يعمل على تنميته واستثماره حتى تكبر، فيؤديه إليها كاملاً غير منقوص.

ومتى كانت المرأة بالغة عاقلة، أباحت لها شريعة الإسلام أن تتعاقد عن طريق البيع أو الشراء أو الهبة أو الوصية، أو ما يشبه ذلك من العقود، وأعطتها كامل الأهلية في تحمل الالتزامات، وفي تملك ما تريد أن تتملكه من أموال أو عقارات أو منقولات، وأن تتصرف فيما تملكه بالطريقة التي تختارها، ولا يصح لوليها أو زوجها، أن يتصرف في أموالها إلا بإذنها، أو بتوكيلها إياه في التصرف نيابة عنها، ويجوز لها أن تسقط هذه الولاية متى شاءت، وهي في كل ذلك مثلها مثل الرجل سواء بسواء دون أي تفرقة بينهما، وهذا مما اتفقت عليه كلمة الفقهاء.

وأباحت الشريعة للمرأة أن تختار الزوج الذي تريده اختيارًا حرًا لا إكراه معه ولا إجبار، وأوجبت على وليها أن يبدأ بأخذ رأيها عند زواجها، وأن يعرف رأيها قبل العقد، لأن الزواج معاشرة دائمة، ولا يدوم الوئام، ويبقى الود والانسجام، ما لم تكن راضية.

ومن هنا منعت الشريعة إكراه المرأة- بكرًا كانت أو ثيبًا- على الزواج ممن لا تريد الارتباط به، وجعلت العقد عليها دون استئذانها غير صحيح، وأباحت لها حق المطالبة بفسخ عقد الزواج، إبطالاً لتصرفات الولي المستبد.. الذي عقد عليها بدون إذنها أو رضاها.

وقد ورد في وجوب استئذان المرأة قبل زواجها أحاديث متعددة، منها ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «الثيب أحق بنفسها من وليها». أي أحق بنفسها في أن وليها لا يعقد عليها إلا برضاها، والبكر تُستأذن في نفسها، وإذنها صُماتها: أي سكوتها. وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنكح الأيم- أي التي سبق لها الزواج- حتى تُستأمر.. أي حتى تصرح برضاها، ولا البكر حتى تُستأذن، قالوا: يا رسول الله: كيف إذنها؟ قال: أن تسكت».

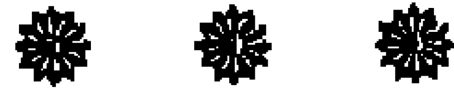
وأخرج البخاري وغيره، عن خنساء بنت خزام، «أن أباها زوجها وهي ثيب، فأتت رسول الله ﷺ فردّ نكاحها».

وإذا اختارت المرأة زوجًا، ولم يرض وليها به لغير سبب شرعي، فلها أن ترفع الأمر إلى القاضي ليتولى عقد زواجها مع من اختارته زوجًا.

بل لقد ذهب الإمام أبو حنيفة إلى أكثر من ذلك، فقرر أن للمرأة البالغة الرشيدة، أن تزوج نفسها بمن تشاء، بشرط أن يكون كفأً لها، وليس لوليها حق الاعتراض عليها إلا إذا زوجت نفسها من غير كفء، أو كان مهرها أقل من مهر مثلها، ومن حجج الإمام أبي حنيفة في ذلك: أنها ما دامت تستقل بعقد البيع وغيره من العقود، فمن حقها أن تستقل بعقد زواجها، إذ لا فرق بين عقد وعقد.

وأمرت شريعة الإسلام كل من له علاقة بالنساء من الأزواج والآباء وغيرهم، أن يسلموا الزوجة حقوقها كاملة غير منقوصة، سواء أكانت تلك الحقوق تتعلق بالمهور أو بغيرها. ومن الآيات القرآنية التي قررت هذا المعنى قوله تعالى في الآية ٤ من سورة النساء: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ وقوله «صدقاتهن» جمع صَدُقَة (بضم الدال) وهي ما يُعطى للمرأة من المهر (الصداق)، وقوله «نحلة» أي: عطية واجبة عن طيب نفس. وقد كان بعض الأزواج في الجاهلية لا يعطي الزوجة شيئًا من مهرها، ويقول لها: أرثك وترثيني؟ فتقول له نعم، فأبطل الإسلام ذلك. وقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾: بيان للحكم الشرعي،

فيما لو تنازلت الزوجة عن شيء من مهرها لزوجا أو لأبيها عن طيب خاطر.. فكلوه أكلاً سائغاً هنيئاً، خاليًا من شبهة الحرام. ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية: أنه لابد في الزواج من مهر يُعطى للمرأة، وهو أمر لا خلاف فيه بين العلماء، وأن هذا المهر ملك لها، ومن حقها أن تتصرف فيه كما شاءت، ولا يجوز لأحد أن يأخذ منه شيئًا إلا بإذنها ورضاها.



ولقد حكى لنا القرآن الكريم، قصة تلك المرأة، التي أتت إلى النبي ﷺ وأخذت تجادله في شأن ما دار بينها وبين زوجها، وتراجعه القول مرة ومرة، قال تعالى في الآيات من ١-٤ من سورة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقد ذكر المفسرون أن سبب نزول هذه الآيات ما جاء عن خولة بنت ثعلبة قالت: في شأني وفي شأن زوجي- أوس بن الصامت- أنزل الله هذه الآيات.

قالت: كنت عنده، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه، فدخل عليَّ يومًا فراجعته في شيء فغضب وقال: أنت عليَّ كظهر أمي.

قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم رجع، فإذا هو يريدني، فقلت له: كلا والله لا تصل إليّ وقد قلت ما قلت، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه..

قالت: ثم ذهبت إلى رسول الله ﷺ وحكيت له ما قاله، فقال ﷺ ما أُمرت بشيء في شأنك حتى الآن، وما أراك إلا قد حُرِّمت عليه. (وكان الرجل إذا قال هذا اللفظ لا تحل له امرأته حتى تنكح زوجًا غيره).

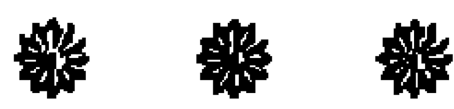
قالت: «فأخذت أجادل النبي ﷺ وأراجع وأقول: يا رسول الله إنه ما ذكر طلاقًا، ثم تضرعت إلى الله وقلت: اللهم إنك تعلم أن زوجي شيخ كبير، وأنا امرأة عجوز، ولا غنى له عني ولا غنى لي عنه، وإن لي منه أولادًا، إن تركتهم عنده ضاعوا، وإن أخذتهم معي جاعوا. اللهم ففرج كربتي وأحلل عقدتي».

قالت: وما برحت من جانب الرسول ﷺ حتى نزلت هذه الآيات.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ما كان يجري بين الرسول ﷺ وبين نسائه من مناقشات تدل على إفساح صدره ﷺ لآرائهن عندما كن يطلبن منه الزيادة في النفقة. ومن الآيات التي أشارت إلى ذلك قوله تعالى ما ورد في الآيتين ٢٨، ٢٩ من سورة الأحزاب: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

ذلك أن زوجات الرسول لم تكن تستطعن ما استطاعه الرسول من العزوف عن الدنيا، فاجتمعت الزوجات حول الرسول يسألنه زيادة النفقة، فكره الرسول ذلك، وفي هذه الأثناء حضر أبو بكر ثم حضر عمر. فقال الرسول لهما: هن حولي يسألني النفقة، فقام أبو بكر إلى ابنته عائشة ليضربها، وقام عمر إلى ابنته حفصة ليضربها، وكلاهما يقول: تسألنَّ رسول الله ما ليس عنده؟!، فقلن: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده. ثم أنزل الله سبحانه الآيتين سالفتي الذكر. عندها أراد الرسول ﷺ أن يسأل زوجاته ويخبرهن، فبدأ بعائشة فقال لها: «يا عائشة: إني أريد أن أعرض عليك أمرًا، أحب ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك. قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها هاتين الآيتين، فقالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبويّ!! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وفعل أزواج النبي مثل ما فعلت عائشة.

وهكذا نرى أن حرية الرأي كانت مكفولة للمرأة.. حتى في مناقشة رسول الله ﷺ .



حرية العمل للمرأة :

وأما حرية العمل للمرأة، فشأنها في ذلك شأن الرجل، إذ العمل حق مشروع لكل من الرجل والمرأة. وصدق الله إذ يقول في الآية ١٩٥ من سورة آل عمران: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ .. ﴾، وقال سبحانه في الآية ٩٧ من سورة النحل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

وليس في شريعة الإسلام ما يمنع المرأة من أن تكون طبيبة، أو مدرسة، أو تاجرة، أو أي عمل شريف حلال، تبغي من ورائه الرزق الحلال الذي يغنيها عن سؤال الناس، وتؤديه بعفاف واحتشام.. وستر لما أمر الله بستره منها.

والمتدبر لأحوال المجتمع الإسلامي في العهد النبوي وفي عهود الصحابة، يرى أن النساء كن يقمن بكثير من الأعمال داخل بيوتهن وخارجها. وهذه عائشة وأم سليم رضي الله عنهما كانا يخدمان المجاهدين في غزوة أحد. ففي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم، حين انهزم الناس يوم أحد، وإنهما لمشمرتان، تحملان القرب على متونهما، تفرغانها في أقوام القوم.

وهكذا نرى الإسلام لم يمنع المرأة من أي عمل شريف، يعود عليها وعلى أمتها بالخير.

صيانة العرض وتحمل المسئولية:

والمرأة كالرجل في وجوب صيانة عرضها، ووجوب عقوبة من يقذفها بالتهم الباطلة. قال تعالى في الآية ٥٨ من سورة الأحزاب ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾. وقال تعالى في الآية ٢٣ من سورة النور: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ (أي بالفاحشة) ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾. وقال تعالى في الآية ٤ من سورة النور: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

وما عاقب الله تعالى هؤلاء القاذفين في أعراض المؤمنين والمؤمنات، بتلك العقوبات الرادعة، إلا لحماية الأعراض من ألسنة السوء، وصيانتها من كل ما يخدش كرامتهم، ويجرح عفافهم.

والمرأة كالرجل في تحمل مسئولية ما تُكلف به من أعمال. وفي الصحيحين عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «كلكم راع ومسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

وهكذا نرى بوضوح أن شريعة الإسلام قد قررت مبدأ المساواة بين

الرجل والمرأة في كثير من الأمور:
فهما متساويان في أنهما من أصل واحد هو آدم وحواء.
وهما متساويان في التكاليف الشرعية التي أوجبها سبحانه عليهم.
وهما متساويان في طلب العلم، وفي التزود بالمعرفة النافعة.
وهما متساويان في حق التملك، والتصرف، والتعبير، والعمل.
وهما متساويان في تحمل المسئولية وفي الكرامة الإنسانية.
ولا فضل لأحدهما على الآخر إلا بالإيمان والعمل الصالح، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١).

حقوق المرأة وواجباتها:

فصّلت السُنّة المطهرة- على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم- حقوق المرأة وواجباتها، حيث قال ﷺ: «إن لكم على نسائكم حقا، ولنسائكم عليكم حقا، فحقكم عليهن ألا يوطئن فُرُشكم من تكرهون، ولا يأذنّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن».

وعن معاوية بن حَيدة ؓ قال: قلت: يا رسول الله: «ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تُقَبِّح، ولا تهجر إلا في البيت».

وعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم». وإذا كان الإسلام قد شرع للمرأة هذه الحقوق، وأعطاها مكانة عظيمة، فإنه أمر الزوجة بطاعة زوجها.

ولم يفرق الإسلام فيما منحه من حق «التعلم» للمرأة المسلمة بين أن تكون حرة أو أمة، بل إن توجيهات الإسلام فيما يتصل بشأن الأمة كانت أكيدة، عن أبي بردة قال: قال رسول الله ﷺ «أيما رجل كانت عنده وليدة- أي جارية- فعلّمها فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران». وبهذا رغب الإسلام في تعليم المرأة، وحث عليه، ووضّح ما له من أثر هام ومثوبة كريمة.

---

(١) المرجع: الإمام الدكتور محمد سيد طنطاوي قدمها في كتيب صدر عن مطبوعات أخبار اليوم بعنوان «المرأة في الإسلام» (بدون تاريخ، غير أن الإيداع يعود إلى سنة ١٩٩١) ص٤٣، مع مراعاة الاختصار في مواضع وإضافة في مواضع أخرى.

وكانت السيدة سكينة بنت الحسين تعقد مجالس للعلم يحضرها كبار العلماء والصالحين، كما كانت السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن بن علي بن أبي طالب لها بمصر مجالس علم، حضر بعضها الإمام الشافعي نفسه، وسمع عليها فيها الحديث، وكان كلما مرض توجه إلى منزلها، وطلب منها أن تدعو له بالشفاء.

وهكذا كان النساء في صدر الإسلام. فهذه أسماء بنت أبي بكر الصديق تقول: «كنت أخدم الزبير (زوجها) خدمة البيت كله، وكنت أسوس فرسه وأعلفه وأحتش له.. وكنت أخرز الدلو وأسقي الماء، وأحمل النوى على رأسي من أرض له على ثلثي فرسخ».

ومن الوصايا الحكيمة للمرأة، وصية أمامة بنت الحارث التي وصت بها ابنتها في ليلة عرسها، حيث قالت:

«أي بنية، إنه لو استغنت المرأة بغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها، لكنت أغنى الناس عن الزوج، ولكن للرجال خلق النساء، كما لهن خلق الرجال».

«أي بنية، إنك قد فارقت الحواء الذي منه درجت إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليكِ مِلكا، فكوني له أَمَة يكون لك عبدًا، واحفظي عني خلالاً عشرًا تكن لك دركًا وذكرًا.

«فأما الأولى والثانية»: فالمعاشرة له بالقناعة وحسن السمع والطاعة، فإن القناعة راحة القلب وحسن السمع، والطاعة رأفت الرب.

«وأما الثالثة والرابعة»: فلا تقع عيناه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا طيب الريح، واعلمي أي بنية أن الماء أطيب الطيب المفقود، وأن الكحل أحسن الحسن الموجود.

«وأما الخامسة والسابعة»: فالتعهد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النومة مغضبة.

«وأما السابعة والثامنة»: فالاحتفاظ بماله، والرعاية على حشمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال من حسن التقدير، والرعاية على الحشم والعيال من حسن التدبير.

«وأما التاسعة والعاشرة»: فلا تفشي له سرًا، ولا تعصي له أمرًا، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره. واتقي الفرح لديه

إن كان تَرِحًا، والاكتئاب عنده إذا كان فرحًا، فإن الأُولى من التقصير، والثانية من التكدير.

«واعلمي أنك لن تصلي إلى ذلك منه حتى تؤثري هواه على هواك، ورضاه على رضاك، فيما أحببت وكرهت»(١).

الأسرة دعامة المجتمع

إن إقامة المجتمع الفاضل القوي، لا تكون من السطح الخارجي، دون إرساء دائم البناء، وإقامة الأساس الذي يُبنى عليه المجتمع.

والأسرة هي دعامة المجتمع، وهي الخلية الأولى الحية التي يتكون منها أفراده، وتتلاقى فيها خلاياه، القائمة على أسس سليمة صادرة من قيم فاضلة، والقائمة برسالتها خير قيام.

وقد عني الإسلام عناية خاصة بشئون الأسرة، وبكل ما يتعلق بها من مبادئ تنهض على هداها، كما عني بما يتصل بها من حقوق وواجبات، وبما لها وما عليها.

وقد ذكر الله ﷻ في القرآن الكريم كل ما يتصل بشأن الأسرة، وما يتعلق بها من حقوق وواجبات، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [الآية ٢٣٥ من سورة البقرة].

والخطاب في هذه الآية للرجال الذين يرغبون في الزواج، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ﴾: أي إذا كانت المرأة سبق لها الزواج، فلا يجوز للرجل أن يصمم على الزواج إلا بعد أن يبلغ الكتاب أجله أي بعد انتهاء العدة.

وقد عني الإسلام على توضيح كل التفاصيل في القرآن الكريم، من أول لحظة تكوين الزواج وإنشائه إلى أن يتفرق كل منهما بالموت أو بالطلاق، وما يتصل بكل الأحوال من أحكام.

---

(١) الدكتور أحمد عمر هاشم في كتاب «المرأة في الإسلام»، ص٨٣.

يقول الأستاذ الشيخ محمد أبــو زهــرة رحمه الله: «وإن كانــت عنايــة الله بالعبادات جعلت أحكامها عملية يتولى النبي ﷺ تفصيلها لتربى النفوس عليهــا بالدربة والتهذيب لا بمجرد التلقين، فعناية الإسلام بالأسرة كانت بالنص الكامــل على نظامها، لكيلا ينصرف الناس بأهوائهم عنها، ولكــيلا ينكــروا تطبيقهــا، ويجعلوا لعقولهم سبيلاً للتحكم في أحوالها ونظامها، ولأنهــا متــصلة بالرضــا والغضب بين الزوجين والأقارب، فكان لابد من ميزان مقرر ثابت يحكم الأهواء ويضع الأمور في نصابها».

وإذا كان على الوالدين بالنسبة للأبناء حقوق تتمثل في حسن تربيتهم وتنشئتهم وحسن مراعاتهم، وتوفير كل أسباب الراحة والتكوين لهم، فإن على الأبناء حقوقًا كذلك بالنسبة للوالدين، وهذه الحقوق تتمثل في البر بهما والإحسان إليهما. وقد أمر الله ﷻ بالإحسان إلى الوالدين بعد الأمر بعبادته، إذ يقول سبحانه: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء: ٣٦]. وقال: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[الإسراء: ٢٣]. وقال: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الأنعام: ١٥١].

بل إن الله ﷻ بعد أمره وقوله: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ أضاف إلى تعاليمه المشددة: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾. وللوالدين على أولادهما حق كفالتهما ماديًا ورعايتهما بدنيًا وصحيًا، قال رسول الله ﷺ: «أنت ومالك لوالــدك».



وتقوى الأسرة ويشتد أزرها بتقوية روابطها وثبات أصولها، وكلما اتسعت الأسرة وكثر أعضاؤها كانت أكثر قوة، وأعظم نفعًا. وإذا ألقينا نظرة إلى ما شرعه الإسلام من وسائل تكوين الأسرة.. لرأينا إنه يدعو إلى اتساعها وانتشارها وزيادة أعدادها عن طريق النسب والمصاهرة. قال تعالى في الآية ٥٤ من سورة الفرقان: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾.

ويقول الأستاذ عباس محمود العقــاد رحمه الله: «وتتحقــق ســعة الأســرة

وامتدادها ووئامها بنظامين من النظم التي شرعها لها الإسلام، وهما نظام المحارم في الزواج، ونظام الميراث. فالإسلام يحرم الزواج بالأقربين: ولا يبيح من ذوي القرابة إلا من أوشكوا أن يكونوا غرباء، فالزواج يجمع منهم في الأسرة من أوشكوا أن يتفرقوا كأبناء العمومة والخؤولة».

«وتأكيدًا لطلب اتساع الأسرة وكثرة أعدادها وزيادة قوتها، رغَّب الإسلام في اختيار الودود الولود، لأنها التي يمكن أن يحصل بها مقاصد الزواج، ويمكن معرفة ذلك بالنسبة للبكر بمعرفة أقاربها. وقد خطب رجل امرأة عقيمًا فقال لرسول الله ﷺ : إني خطبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، فنهاه رسول الله ﷺ وقال: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة».

وقد دعا الإسلام إلى الزواج وحث عليه ورغَّب فيه كل من كان مستطيعًا قادرًا عليه، وفي الزواج عصمة للشباب من الزلل والخطيئة، ثم هو إلى جانب هذا فيه المودة والسكن.. والرحمة والسعادة، والطمأنينة للأسرة، والأمان والاستقرار للبيت الزوجي.

قال تعالى في الآية ٢١ من سورة الروم: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾.

وقال الرسول الكريم في الحث على الزواج: «من استطاع منكم الباءة (القدرة على الإنفاق) فليتزوج، فإنه أحصن للفرج وأغض للبصر».

وقد أرشد الله تعالى العاجزين عن مؤن الزواج إلى العفة، ووعدهم بعد ذلك إن عفّوا أنفسهم أن يغنيهم من فضله، لأن فضله أولى بأهل العفة الصالحين، قال تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[النور: ٣٣].

الزواج بين التحليل والتحريم:

وضع القرآن الكريم، نظم العلاقات الزوجية، وبيَّن الحلال والحرام، حتى يكون الرباط الأسري موثقًا وأكيدًا ومحترمًا ومصونًا من كل دنس وهوى، نقيًا من أية شائبة من الشوائب. وبيَّن الله تعالى بعض ما كان معمولاً به في الجاهلية فجاء الإسلام فقضى عليه، ونقى مناخ الأسرة من كل فساد وانحراف حتى تقوى أسس البيئة الأسرية من أول وهلة. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٢٢].

ثم ذكر القرآن الكريم بعد ذلك المحرمات من النسب ومن الرضاع، والمحرمات بالمصاهرة، وذلك في قوله تعالى في الآية ٢٣ من سورة النساء: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

ومن أنواع المحرمات المشركات من عبدة الأصنام، بينما أباح الزواج من نساء أهل الذمة (الكتابيات)، ومن أنواع المحرمات كذلك البغايا اللاتي يجاهرن بالفاحشة ويتكسبن منها.

وأما بالنسبة لما أحلَّه الله تعالى من النساء، فقد ذكره الله سبحانه بعد بيان المحرمات، وذلك في الآية ٢٤ من سورة النساء: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

والمسلمة ذات الدين والخلق أفضل من أي مسلمة لا خلق لها ولا دين. وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة وأخرجه البخاري، قال النبي ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك» أي افتقرتا إن خالفت ما أمرتك به.

المعاشرة بالمعروف :

أمر الله تعالى بالمعاشرة بالمعروف في قوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ، وأشار إلى تعظيم حقوقهن في قوله: ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾. وكان آخر ما وصى به رسول الله ﷺ ثلاثا، كان يتكلم بهن حين تلجلج لسانه وخفي كلامه جعل يقول: «الصلاة.. الصلاة، وما ملكت أيمانكم، لا تكلفوهم ما لا يطيقون. الله.. الله في النساء، فإنهن عوان في أيديكم (يعني أسراء) أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

ومن جانب آخر، جاء تأكيد الإسلام على حقوق الزوج بصورة حاسمة

واضحة غاية في التأكيد على وجوب طاعته، ففي الحديث يقول الرسول ﷺ: «لو أمرتُ أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها». ومعلوم أن السجود لا يكون إلا لله رب العالمين، ولكن الحديث يؤكد الوصية بحقوق الزوج وطاعته وعدم إهمال حقه بحال من الأحوال.

ومن الواجبات على المرأة أن تحفظ مال زوجها، وإذا أنفقت في غير إفساد كان لها أجرها على الإنفاق، ولزوجها أجره بما كسب، كما جاء في الحديث: «إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها أجره بما كسب». وفي الحديث: «أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة». ويعد الإسلام رضا الزوج من أهم أسباب دخول المرأة الجنة، ولكن ينبغي أن نقيد هذا الرضا، حيث لا يتعارض مع أمور الدين، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإنما المقصود برضا الزوج على المرأة، هو حسن معاملتها وأدبها، والتزامها بمبادئ الإسلام التي قررها للحياة الزوجية التي تشرق بالمودة والوئام والتفاهم والانسجام، وتتجاوب فيها العواطف المخلصة إلى أنبل المقاصد وأسمى الأهداف الكريمة.

وقد أباح الإسلام التعدد لحِكَم عالية، كان التشريع الإسلامي أقوم وأحكم وأدق ما يكون فيها. فمن الرجال من قد تكون امرأته لا تنجب، أو بها مرض ويكون هو شديد الرغبة لتلبية حاجته في الحلال، وقد يكثر النساء حتى يصبح عددهن أكثر من عدد الرجال لاسيما في وقت الحروب. وعندئذ يكون العدد حلا لمشاكل عديدة قد تطفو على سطح الحياة الزوجية والأخلاقية بعد ذلك.

ولكن الإسلام حين أباح التعدد، أباحه في حدود، واشترط له ما تسكن به حياة الأسرة وتطمئن. فقد كان التعدد في أمم أخرى غير مقيد ولا محدد قبل الإسلام، قد يبلغ أكثر من أربع زوجات، ولكن الإسلام حدده بحيث لا يزيد العدد عن أربع، ومن دخل الإسلام ومعه أكثر من أربع أمر بفراق ما زاد عن العدد، واختيار أربع فقط. فعندما اسلم غيلان الثقفي، وتحته عشرة نسوة قال له النبي ﷺ: «اختر منهن أربعًا وفارق سائرهن».

ثم إن الإسلام اشترط لمن يريد أن يتزوج بأكثر من واحدة أن يأنس في نفسه القدرة على القيام بالعدل بين الزوجات: العدل في المسكن والملبس والمطعم والنفقة والمبيت ونحو ذلك. ومن لم يأنس في نفسه القدرة على العدل بين زوجاته فليس له أن يعدد، لأن الظلم حرام، وتفريطه في الحقوق حرام، لأن الله تعالى يقول: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾. وحذر الإسلام من التفريط في حقوق

الزوجات.. ومن الظلم، وأن عاقبة الظلم وعدم العدل أليمة ونهايته سيئة في الدنيا وفي الآخرة. عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له امرأتان ولم يعدل بينهما، جاء يوم القيامة وشقه ساقط» وفي رواية أخرى: وشقه مائل. رواه أصحاب السنن. وكل أمر يستطيع أن يعدل الزوج فيه بين نسائه فلا يعدل فيه.. يدخل في نطاق هذا التحذير والتهديد الوارد في الحديث.

وأما الأمر الذي لا يُستطاع العدل فيه فإنه مَعْفُوٌّ عنه، وذلك هو الميل القلبي، يقول الله ﷻ في الآية ١٢٩ من سورة النساء: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾. ورسول الله ﷺ وهو القدوة كان يعدل بين نسائه غاية العدل، وكان إذا أراد سفر أقرع بينهن (أي أجرى القرعة) بين أمهات المؤمنين، فأيتهن خرج سهمها سافر بها. وكان رسول الله ﷺ يقسم ويعدل ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك.. فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يعني القلب.

وتكشف لنا آيات القرآن الكريم عن ظاهرة النشوز في بعض أشكالها، فإنها كما تكون في المرأة تكون في الرجل. فما حُكم من توقعت من زوجها نشوزًا.. وخافت ترفعَّه عليها والتقصير فيها لبغضها أو الإعراض عنها بوجهه؟. عن هذا يجيب القرآن الكريم في قوله تعالى في الآية ١٢٨ من سورة النساء: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾. فيوضح الله تعالى أن الصلح أفضل الحلول، وخير من الفرقة ومن الإعراض والنشوز، كما يكشف القرآن عما طبعت عليه النفس البشرية، وما هو كامن في جبلتها من شدة الحرص والشح: «وأحضرت الأنفس الشح»، ولكن ليس معنى هذا الوقوف عند حدود هذا الجانب المادي.. ولا أن يكون التعامل باعتبار ذلك فحسب، فهناك جانب آخر أسمى وأرقى.. إنه جانب الإحسان والتقوى.

وللعلاقة الزوجية حرمتها ومكانتها، لذلك كانت جديرة بأن تُحاط برعاية فائقة وعناية بالغة، فكل من الزوجين زينة وستار للآخر، وسكن ولباس، كما قال الله سبحانه: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾[البقرة: ١٨٧]. ولهذا الرباط المقدس حرمته التي يجب أن تصان وأن تحفظ، وتستمر بحيث يُصان البيت الزوجي عن كشف شيء منه، بل يظل داخل هالة المودة والرحمة والمحافظة والرعاية.

فالمرأة المسلمة الصالحة مطيعة لزوجها، تحفظه في غيبته في نفسها ومـــاله[١].

الرجال قوامون على النساء:

جعلت الشريعة الإسلامية حق القوامة والرياسة للرجل لا للمرأة، لأنه هو المكلف بالإنفاق، وهو الأقوى على تحمل هذه المسئولية.. وهذه القوامة والرياسة للرجل في الأسرة، تقوم على المودة والرحمة، لا على الاستبداد والقسوة.

وقد قرر القرآن الكريم هذه القوامة والرياسة للرجل في آيات منها الآية ٢٢٨ من سورة البقـــرة: . ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: وللنساء على الرجال، مثل ما للرجال على النساء، فليـــؤد كـــل واحد منهما ما يجب عليه نحو الآخر بالمعروف، وقوله تعـــالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي: أن للرجال على النساء مزية وزيادة في الحق، بسبب حمايتهم لهن، وقيامهم بشئونهن ونفقتهن.. وغير ذلك من واجبات ومسئوليات. وهذه الدرجـــة التي جعلها الإسلام للرجل، هي درجة تجعل له حقوقا، وتجعل عليـــه واجبـــات أكثر، فهي موائمة كل المواءمة لصدر الآية، فإذا كان للرجل فضل درجة، فعليه فضل واجب.

وقال سبحانه في الآية ٣٤ من سورة النساء: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ أي: الرجال يقومون على شئون النساء بالحفظ والرعاية، والنفقة والتأديب، وغير ذلك مما تقتضيه مصلحتهن، ثم ذكر سبحانه سببين لهذه القوامـــة:

أولهما: وهبي، وقد بيَّنه ســـبحانه بقولـــه: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: أن حكمة الله اقتضت أن يكون الرجال قوامين على النساء، بـــسبب ما فضل الله به الرجال على النساء، من قوة في الجسم، ومن زيادة فـــي العلـــم، ومن قدرة على تحمل أعباء الحياة وتكاليفها، وما يستتبع ذلك من دفاع عنهن إذا ما تعرضن للأخطار.

---

(١) المرَجع: الدكتور أحمد عمر هاشم في كتاب «المرأة في الإسلام» ص٨٣، مع اختصار في مواضع، وإضافة في مواضع أخرى.

وأما السبب الثاني فهو كسبي، وقد بيَّنه سبحانه بقوله: «وبما أنفقوا من أموالهم». أي أن الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء، بسبب ما فضل به الرجال على النساء من علم وقدرة، وبسبب ما ألزم به الرجال من إنفاق على النساء، ومن تقديم المهور لهن عند الزواج، ومن القيام برعايتهن وصيانتهن.

ثم شرع سبحانه في تفصيل أحوال النساء، وفي بيان كيفية القيام عليهن بحسب اختلاف أحوالهن، فقسمهن إلى قسمين، فقال في شأن القسم الأول: «فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله». أي فالنساء الصالحات من صفاتهن أنهن «قانتات» أي مطيعات لله ولأزواجهن عن طيب نفس واطمئنان قلب، ومن صفاتهن كذلك، أنهن يحفظن في غيبة أزواجهن ما يجب حفظه من عفاف ومال وغير ذلك مما تقتضيه الحياة الزوجية.

أما القسم الثاني منهن، فقد قال سبحانه في حقه: «واللاتي تخافون نشوزهن، فعظوهن، واهجروهن في المضاجع، واضربوهن..» والمراد بقوله: «نشوزهن» أي معصيتهن وخروجهن عما توجبه الحياة الزوجية من طاعة الزوجة لزوجها. يقال: نشزت المرأة نشوزا، إذا عصيت زوجها وامتنعت عليه.

بمعنى: أما النساء اللاتي تخافون عصيانهن لكم، وترفعهن عن مطاوعتكم، فعظوهن بالقول الذي يؤثر في القلب، ويوجهن نحو الخير والفضيلة، بأن تذكروهن بحسن عاقبة الطاعة للزوج، وسوء عاقبة النشوز والمعصية، فإن لم ينفع معهن الوعظ فاهجروهن، واتركوهن منفردات في مكان النوم، فإن ذلك له أثره النفسي في نفوس الحرائر من النساء، فإن لم ينفع معهن الوعظ والهجر، فاضربوهن ضربًا غير شديد ولا مشين، بحيث لا يكسر عظمًا، ولا يشوه جارحة.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع: «واتقوا الله في النساء، فإنهن عوان عندكم- أي: أسيرات عندكم- ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضربًا غير مبرح.. (أي غير شديد).

وأخرج أبو داود في سننه عن معاوية بن حَيده القشيري، أنه قال: يا رسول الله: ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت: أي في مكان النوم. ثم بيَّن سبحانه ما يجب على الرجال نحو النساء إذا أطعنهم وتركن النشوز والعصيان فقال: «فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، إن الله كان عليًّا كبيرا»(١).

---

(١) الدكتور محمد سيد طنطاوي، المرجع السابق، ص٧٨.

وللأم حق في رعاية خاصة من الأسرة، قيل: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ «قال: أمك، قال السائل: ثم مَنْ؟ قال أمك، قال: ثم مَنْ؟ قال: أبوك»(١).

نظام الأسرة والمواريث :

عني الإسلام- عند تأسيس الدولة الإسلامية- بأحكام الأسرة والمواريث عناية كبيرة، فقد تولى الله ﷻ بيانها تفصيلاً في كتابه الكريم.

ذلك لأن الأسرة نواة المجتمع، ولبنة من لبنات الأمة، التي تتكون من مجموعة أسر، ولقد كرّم الحق ﷻ الإنسان، وفضله على كثير من الخلائق، مصداقًا لقوله تبارك وتعالى في الآية ٧٠ من سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾. ولذلك- وإعلاءً لشأن الإنسان نظم الله ﷻ شئون الأسرة، بما في ذلك الزواج، لأن الزواج في حقيقته ما هو إلا ظاهرة من ظواهر التنظيم لفطرة، أودعت في الإنسان، كما أودعت في غيره من الحيوان، ولولا الزواج الذي هو تنظيم لتلك الفطرة المشتركة بين الإنسان والحيوان، لتساوى الإنسان مع غيره من أنواع الحيوان في سبيل تلبية هذه الفطرة عن طريق الفوضى والشيوع.

والإنسان- من جهة أخرى- مطبوع على حب البقاء، ويرى أن سبيله إلى البقاء، إنما هو النسل، المعروف نسبته إليه، يراه امتدادًا في بقائه، واستمرارًا لذكراه، وخلودًا لحياته، ومن هنا كان تنظيم الفطرة البشرية عن طريق الزواج، المحقق لهذه النسبة، أمرًا لابد منه في حصول الإنسان على ما طُبع عليه من محبة استمرار وجوده. وإلى ذلك يشير الحق سبحانه في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الآية ٢١ من سورة الروم. ويذكر دعاء عباده المقربين حيث يقولون كما ورد في الآية ٧٤ من سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾. قال رسول الله ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، وإلا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» معنى هذا أن الإسلام حذر من الاغترار بالثراء والجمال وتقديمهما على الدين والأخلاق الفاضلة.

وقد نظر القرآن الكريم إلى ما للزواج من هذه المكانة السامية في حياة

---

(١) رواه الشيخان.

الفرد والأسرة والأمة، فنوه بشأنه، ورفعه عن أن يكون عقدًا تتم التزاماته بالإيجاب والقبول، وشهادة الشهود، فجعله «ميثاقا» تتحمل الضمائر التي تعرف معنى الميثاق مسئوليته، وتكافح جهدها في سبيل المحافظة عليه، والوفاء بما قد يعترضه من شدائد وصعوبات، ثم لا يكتفي بجعله ميثاقًا كيفما يكون، بل جعله «ميثاقا غليظًا» و«عهدًا قويًا» يتعذر حله فيربط القلوب، ويندمج به كل من الطرفين في صاحبه، فيتحد شعورهما، وتلتقي رغباتهما، ولا يمكن تناسيه حتى بعد انتهاء أجله. واقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [١] الآيتان ٢٠، ٢١ من سورة النساء.

وقد تطلبت الشريعة في الرابطة الزوجية وجوب التعارف والاختبار، وأوجبت تمام الرضا بين الطرفين، وقررت التقيد بالكفاءة والالتزام بالمهر، وكل ذلك لضمان بناء زواج سعيد، وأسرة مستقرة. قال تعالى في الآية ١٩ من سورة النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

ودعت الآيات القرآنية إلى الصلح لأن «الصلح خير»، وإذا تعذر الصلح وتفاقم الخلاف، جاءت الآية الكريمة (٣٥ من سورة النساء) ترسم العلاج في حالة التفاقم وشدة الخلاف، وعجز الزوجين بأنفسهما عن إزالته: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

فإذا ما نفدت الوسائل الإصلاحية كلها، واشتد الخلاف، وتحولت المودة إلى بغض وكراهية، كان الانفصال بالطلاق لاستحالة العشرة. وهنا نشير إلى أن الإسلام إنما شرع الطلاق- على بغض له- علاجًا للحياة الزوجية نفسها، وجعله على وضع يمكن الزوجين من مراجعة أنفسهما، وتدبر عاقبة أمرهما، وأمر ما قد يكون بينهما من أبناء وارتباطات، تحملهما على شدة التبصر في الأمر، وإعادة المياه إلى مجاريها.

---

(١) من كتاب «الإسلام عقيدة وشريعة» لفضيلة الإمام الشيخ محمود شلتوت، الطبعة التاسعة، ص١٤١.

فلم يجعل الطلاق كلمة يلقيها الزوج على زوجته فتحرم أحدهما على الآخر تحريمًا أبديًا لا رجعة فيه، وإنما سلك به طريق العلاج، وكرر في مراحله حتى يمتد أمد النظر والتبصر، فشرعه أولاً مفرقًا مرة بعد أخرى، دفعات متعددة ليجرب الرجل نفسه بعد المرة الأولى والثانية، ويروضها على الصبر والاحتمال، ولتجرب المرأة أيضًا نفسها، حتى إذا لم تفد التجارب، وأوقع الطلقة الثالثة وضع أمامها حاجزًا، وهو أنه لا يباح لهما الرجوع إلى الحياة الزوجية إلا بعد شرط.. هو أن تنكح زوجًا غيره، وما دام الرجل لم يصل إلى الطلقة الثالثة فإن الإسلام يغريه بالرجوع إلى زوجه. وقد قال رسول الله ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق».

واهتم الإسلام بالميراث، ووضع له قواعد محددة، وبالرجوع إلى آيات الميراث في سورة النساء يتبين أن الميراث في الإسلام ينبني على علاقتي القرابة والزوجية، وعلى إلغاء صفات الذكورة والأنوثة، والصغر والكبر.. في أصل الاستحقاق، فكان للصغير والكبير، والذكر والأنثى حق في الميراث.

كما ينبني الاستحقاق في الميراث على أن الآباء والأبناء- وهم الأصول والفروع- لا يسقطون في أصل الاستحقاق بحال ما، وإن كان يؤثر عليهم وجود غيرهم في كمية النصيب، وعلى أنه لا إرث للإخوة والأخوات مع وجود الأبوين، وإن كانوا ينزلون بنصيب الأم من الثلث إلى السدس.

وأخيرًا فإن القاعدة في المواريث أنه متى اجتمع في الوارثين ذكور وإناث، أخذ الذكر ضعف الأنثى. والمقرر في أحكام المواريث أنه لا ميراث إلا بعد وصية يوصي بها أو دين، عملاً بنص الآية ١٢ من سورة النساء.

وقد بنت الشريعة الإسلامية هذا الميراث على قواعد في غاية العدل والحكمة، وتولى الله في كتابه تنظيم أنصبته وتوزيعها بنفسه: ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

أسئلة وأجوبة :

في نهاية هذا البحث عن المرأة والأسرة المسلمة، رأينا تغطية بعض الجوانب التي لم يتطرق إليها البحث، وذلك في شكل أسئلة مباشرة ثم الرد عليها. وقد تكفل بذلك الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق، وأوردها في كتاب بعنوان: «الإسلام في مواجهة حملات التشكيك»، فكانت الأسئلة التي تدور في خلدنا بين الأسئلة التي أثارها الدكتور زقزوق وقام بالرد عليها، والأسئلة هي:

(أ) لماذا تأخذ المرأة نصيبًا أقل من الرجل في الميراث؟

١- لقد كانت المرأة قبل الإسلام محرومة من حقها في الميراث، فأنصفها الإسلام وجعل لها حقا مقررًا فيه على الرغم من تذمر الكثيرين من العرب حينذاك ممن كانوا يعتقدون أن الرجال وحدهم لهم الحق بالميراث.. لأنهم هم الذين يقاتلون الأعداء.

وقد جعل الإسلام في أغلب الحالات للذكر ضعف نصيب الأنثى في الميراث، كما جاء ذلك في القرآن الكريم.. في الآية ١١ من سورة النساء: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾. والنظرة المتعجلة للأمور ربما تعتبر ذلك انتقاصًا من شأن المرأة، وهضمًا لحقها كإنسان له حقوق متساوية مع الرجل. والواقع أن الإسلام أبعد ما يكون عن أن يجعل من ذلك مبررًا للنظر إلى المرأة نظرة متدنية. فسبب هذه التفرقة في الميراث لا صلة له إطلاقًا بمكانة كل من الرجل والمرأة، ولكنه يرجع إلى الالتزامات التي تقع على كاهل كل منهما.

٢- فالإسلام يلزم الرجل بالإنفاق على زوجته وأفراد أسرته. وفي الوقت نفسه لا يلزم المرأة بأية التزامات مالية لغيرها. فإذا قمنا بعملية حسابية بسيطة سيتضح لنا أن المرأة عندما تأخذ النصف فإنها تكون في وضع مالي أفضل من وضع الرجل، وذلك لأن ما يأخذه الرجل يجب عليه أن ينفق منه على زوجته وأسرته من البنين والبنات، وعلى أمه وأبيه إذا لم يكن لهما مورد رزق، وعلى أخواته إذا لم يكن لهن عائل. ومعنى هذا أن ما يأخذه الرجل من ميراث يكون في تناقص مستمر بسبب هذه الالتزامات والأشياء الكثيرة. أما المرأة فإنها لا تسأل إلا عن نفسها. وهي حرة في ميراثها حيث تستطيع أن تنميه في استقلال عن الرجل، وليس عليها أية التزامات مالية تجاه أفراد الأسرة، وزوجها ملزم بنفقتها حتى وإن كانت ذات ثراء، وهذا يعني أن ميراثها سيكون في ازدياد مستمر.

ومن ذلك يتضح أنه ليس هناك ظلم للمرأة على الإطلاق، أو انتقاص من شأنها، بل لعل الميزان هنا يميل إلى صالحها.

٣- هناك حالات أخرى قد أشار إليها القرآن الكريم وفصلتها الشريعة الإسلامية يستوي فيها الذكور مع الإناث في الميراث.. كما جاء في الآية ١٢ من سورة النساء: ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ﴾، وذلك في حالة إذا ما مات رجل أو امرأة وليس لها والد أو ولد (ذكرًا كان أو

أنثى) وله أو لها أخ أو أخت من ناحية الأم، ففي هذه الحالة يستوي الأخ والأخت في الميراث. كما أن الزوج إذا ماتت زوجته ولها بنت منه أو من غيره ترث البنت ضعف نصيب الزوج، وهكذا في حالات أخرى. وهذه الأنصبة محددة في القرآن الكريم وتقضي على جميع أشكال المنازعات بين أفراد الأسرة. ودار الإفتاء المصرية تشهد بأن كثيرًا من الأقباط في مصر يحتكمون إلى نظام المواريث الإسلامية لما له من أثر كبير في حسم المنازعات والقضاء على أسباب الخلاف بين المستحقين للميراث.

(ب) لماذا الانتقاص من شأن المرأة في الشهادة ؟

١- الإسلام لم يجعل شهادة الرجل مساوية لشهادة امرأتين بصفة مطلقة، فهناك أمور لا تُقبل فيها شهادة الرجال على الإطلاق، وذلك في كل الأمور التي تتصل بالمرأة مما لا يطلع عليه الرجال، وهذا يدلنا على أن الشهادة مبنية على أساس من الخبرة والمعرفة، وليس على أساس من الذكورة أو الأنوثة.

٢- في أمور البيع والشراء والتعاملات في المجالات الاقتصادية بصفة عامة كان ولا يزال اشتغال المرأة بها محدودًا، وخبراتها فيها قليلة بالمقارنة إلى خبرات الرجل المنغمس فيها يوميًا بصفة مستمرة، ولذلك كان التوجيه القرآني هنا أن شهادة الرجل الواحد تعادل شهادة امرأتين من منطلق أن خبرة الرجل هنا تعادل خبرة امرأتين. فليست القضية عدم ثقة في المرأة أو انتقاص من شأنها، ولكنها مسألة خبرة بالحياة العملية. ويمكن للمرأة أن تكتسب مثل هذه الخبرات، ويمكن للقاضي أن يقبل شهادة المرأة الواحدة طالما اطمأن إلى ذلك، إذ لا يُعقل أن يقبل شهادة رجل أمي ذا خبرة محدودة ويرفض شهادة امرأة متعلمة ومتمرسة بالحياة العملية.

٣- هناك جانب آخر يلحظه الإسلام في قضية الشهادة بالنسبة للرجل والمرأة، ويتلخص في أن المرأة تتعرض للعادة الشهرية، وهذا أمر قد يؤثر أثناء ذلك على مزاجها وانفعالاتها، وبالتالي يمكن أن يؤثر على شهادتها إذا تمت الشهادة في أثناء تلك الفترات. وفضلاً عن ذلك فالمرأة عاطفية أكثر من الرجل، فربما تتأثر بحال أي من طرفي الدعوى، وترق لحاله، فيؤثر ذلك أيضًا على شهادتها دون قصد منها. ولذلك أشار الإسلام بشهادة امرأتين حتى إذا نسيت إحداهما، أو أخطأت، فيمكن أن تتلافى الأخرى هذا النقص أو الخطأ.

يقول ﷻ في الآية ٢٨٢ من سورة البقرة: ﴿ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن

رِجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ﴾.

ولكن القاضي له هنا أيضًا أن يأخذ بشهادة المرأة الواحدة إذا ما اطمأن إلى شهادتها.

(ج) هل تحريم زواج المسلمة بغير المسلم يُعَد نزعة عنصرية ؟

١- صحيح أن الإسلام يجيز زواج المسلم من غير المسلمة (مسيحية أو يهودية) ولا يجيز زواج المسلمة من غير المسلم. وللوهلة الأولى يُعد ذلك من قبيل عدم المساواة، ولكن إذا عُرف السبب الحقيقي لذلك انتفى العجب، وزال وَهْمُ انعدام المساواة. فهناك وجهة نظر إسلامية في هذا الصدد توضح الحكمة في ذلك. وكل تشريعات الإسلام مبنية على حكمة معينة ومصلحة حقيقية لكل الأطراف.

٢- الزواج في الإسلام يقوم على «المودة والرحمة» والسكن النفسي، ويحرص الإسلام على أن تبنى الأسرة على أسس سليمة تضمن الاستمرار للعلاقة الزوجية. والإسلام دين يحترم كل الأديان السماوية السابقة، ويجعل الإيمان بالأنبياء السابقين جميعًا جزءًا لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية، وإذا تزوج مسلم من مسيحية أو يهودية فإن المسلم مأمور باحترام عقيدتها، ولا يجوز له- من وجهة النظر الإسلامية- أن يمنعها من ممارسة شعائر دينها، والذهاب من أجل ذلك إلى الكنيسة أو المعبد.

٣- أما إذا تزوج غير المسلم من مسلمة فإن عنصر الاحترام لعقيدة الزوجة يكون مفقودًا، فالمسلم يؤمن بالأديان السابقة، وبأنبياء الله السابقين، ويحترمهم ويوقرهم. ولكن غير المسلم لا يؤمن بنبي الإسلام.. ولا يعترف به، بل يعتبره نبيًا زائفا، ويُصدِّق في العادة كل ما يُشاع ضد الإسلام أو ضد نبي الإسلام من افتراءات وأكاذيب، وما أكثر ما يُشاع. وحتى إذا لم يصرح الزوج غير المسلم بذلك أمام زوجته فإنها ستظل تعيش تحت وطأة شعور عدم الاحترام من جانب زوجها لعقيدتها، وهذا أمر لا تجدي فيه كلمات الترضية والمجاملة. فالقضية قضية مبدأ. وعنصر الاحترام المتبادل بين الزوج والزوجة أساس لاستمرار العلاقة الزوجية.

٤- وقد كان الإسلام منطقيًا مع نفسه حين حرَّم زواج المسلم من غير

المسلمة التي تدين بدين غير المسيحية واليهودية. وذلك لنفس السبب الذي من أجله حرَّم زواج المسلمة من غير المسلم.

فالمسلم لا يؤمن إلا بالأديان السماوية وما عداها تُعد أدياناً بشرية. فعنصر التوقير والاحترام لعقيدة الزوجة في هذه الحالة- بعيدًا عن المجاملات- يكون مفقودًا. وهذا يؤثر سلبًا على العلاقة الزوجية، ولا يحقق «المودة والرحمة» المطلوبة في العلاقات الزوجية.

حقوق الطفل

حق الأطفال في الإسلام هو بالفعل حق الحياة. ولذا اهتم الإسلام بالطفل من قبل أن يولد. فالبداية الحقيقة تبدأ باختيار الزوجة الصالحة المؤمنة والملتزمة بدينها، والراعية لحقوق ربها عليها، والمحافظة لحقوق زوجها، والقادرة على الرعاية السليمة والمتكاملة لأولادها، لأن ذلك أسمى رسالة للمرأة في الحياة!

فإذا خرج المولود إلى الحياة، فإن رسول الله ﷺ وجهنا إلى حسن استقباله ورعايته.. بصرف النظر عن الجنس، لأنه هدية وعطاء من عند الله ﷻ. ولأن المولد خامة طيبة على الفطرة، فيسهل تشكيله، كان التنبيه بالآذان في الأذن اليمنى وبالإقامة في الأذن اليسرى، طردًا للشيطان، وحفظًا للمولود. وعن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ أذّن في أذن الحسن بن علي حين ولدته فاطمة بالصلاة[١]. وقال ﷺ: «مَنْ وُلد له مولود فأذّن في أذنه اليمنى، وأقام في أذنه اليسرى لم تضره أم الصبيان»[٢].

ومن حق الطفل على من يتولى أمره أن يختار له اسمًا حسنًا يفتخر به بين أقرانه وزملائه، فقد دعانا الإسلام الحنيف إلى اختيار الأسماء الحسنة لأبنائنا، ليكون الاسم نداءً طيبًا محببًا إلى النفس، فهو حق من حقوق المولود لاختيار الأسماء الحسنة له، وتجنب الأسماء المكروهة والمحرمة، وفي الحديث: «خير الأسماء ما حُمِّد وما عُبِّد» ما حُمِّد مثل: محمد، وأحمد، ومحمود، وما عُبِّد مثل: عبد الله وعبد الرحمن، وما يُبَشِّر به ولا يُنفر منه. وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تُدْعَون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم»[٣].

ومن حقوق الطفل الإرضاع، وأقصى مدة حولين قمريين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة، وإرضاع الطفل من ثدي أمه هو الواجب، لأن لبن الأم هو الذي يناسب نمو الطفل ساعة بساعة ويومًا بيوم. أما إذا طُلّقت الزوجة وهي حامل أو وهي مرضع فإن إرضاعها للطفل يكون بأجر لها على أبيه، كما قال ﷻ في الآية ٢٣٣ من سورة البقرة: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾،

---

(١) رواه الترمذي وأحمد وأبو داود.

(٢) رواه البيهقي.

(٣) رواه أبو داود والدارمي.

إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه. وفي مدة الرضاعة يقول الحق تبارك وتعالى في ذات الآية: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾.

والقرآن الكريم والإسلام العظيم حثنا على المساواة في معاملة البنات مثل معاملة البنين، مصداقًا لقول الرسول الكريم: «من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يَهنها ولم يؤثر عليها ولده أدخله الله الجنة»[١]. وفي حديث شريف عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوَّجهن وأحسن إليهن فله الجنة». كما دعانا الإسلام إلى منح الأطفال العطف والحنان من غير تفريط في التربية أو تدليل يؤذي أكثر مما يفيد، فالرحمة بالأطفال من أهم الحقوق الإسلامية، كما جاء ذلك في الأحاديث النبوية. فعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «مَنْ لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا»[٢][٣].

الرسول مع الحسن والحسين :

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يحب الحسن والحسين حبًا جمًّا، وكان يقول «أحب أهل بيتي إليَّ الحسن والحسين» وكان يقول عنهما: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»!

وكان المسلمون كثيرًا ما يشاهدون الرسول ﷺ حاملاً أحد حفيديه على كتفه، حتى إذا بلغ المسجد وقام للصلاة، وضعه إلى جانبه في رِفق، وأقبل يؤم القوم، فأطال الرسول- في يوم- السجود على غير عادته، فلما قضيت الصلاة قيل له: يا رسول الله: إنك سجدت سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمرًا أو أنه يوحى إليك، فقال: «كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهتُ أن أعجله حتى يقضي حاجته».

وفي يوم وقف الرسول ﷺ يخطب في المسلمين، فجاءه الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل النبي ﷺ من المنبر، فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال يخاطب القوم: «صدق الله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(٢) رواه أحمد وأبو داود.

(٣) المرجع: كتاب حقوق الإنسان العامة في الإسلام للشيخ منصور الرفاعي عبيد وآخر، ص٢٧٨.

أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨]، نظرتُ إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما».

وعن أبي هريرة قال: قَبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحدا، فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال: «من لا يرحم لا يُرحم».

وعن الزبير بن العوام أن رسول الله قبّل حسنًا وضمَّه إليه.. وجعل يشمه.. وعنده رجل من الأنصار، فقال الأنصاري: إن لي ابنًا قد بلغ ما قبّلتُهُ قط، فقال رسول الله ﷺ: «أرأيت إن كان الله نزع الرحمة من قلبك.. فما ذنبي»!![١].

حسن التربية :

من حقوق الطفل في الإسلام حسن التربية، وهذا واجب على الآباء، ونعني بحسن التربية ما يأتي:

- تربية الأجسام: وذلك يكون بالتغذية المناسبة لهم في جميع مراحل نموهم، وأن يكون الإنفاق عليهم من كسب حلال. ومن التربية الجسمية الرعاية الصحية بكل أنواعها كلما احتاج الطفل إليها، حتى يشب خاليًا من الأمراض والعلل، سليم البدن.
- التربية العلمية: وتبدأ بما يسهل على الطفل فهمه وتحصيله، ويُتدرج به في السلم التعليمي شيئًا فشيئًا.
- التربية الدينية: وقد رسم رسول الله ﷺ أبرز خطوط هذه التربية في قوله: «مُروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع».
- التربية الأخلاقية: ومن حقوق الأطفال في الإسلام تنشئتهم على الأخلاق النبيلة الفاضلة. والأخلاق هي ثمرة رسالات السماء كلها، وفيها يقول الرسول الخاتم: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

حقوق الطفل اليتيم :

في الحياة طائفة من الأطفال، ضَمُّوا إلى ضعف الطفولة ضعفًا آخر أشد، هم الأطفال اليتامى الذين فقدوا آباءهم بالموت، والأب هو عصب الحياة بالنسبة

---

(١) من كتاب: «آل بيت النبي ﷺ» تأليف: محمد أحمد خضر.

للأطفال، وقد يجمعون بين اليتم من جهة الأب، وهو اليتم الشرعي، واليتم من جهة الم، فيزدادون ضعفا فوق ضعف.

هؤلاء الأطفال اليتامى أولاهم الإسلام رعاية شديدة، فأقر لهم من الحقوق ما أقره لجميع الأطفال التي ذكرناها من قبل، ثم اختصهم بحقوق أخرى نظرًا لشدة ضعفهم، لأنهم في أشد الحاجة إلى من يرعى حاضرهم ومستقبلهم. ونوضح هذه الحقوق فيما يلي:

أولاً: التوصية بالإحسان إليهم والبر بهم، وقد نوه عن ذلك القرآن في آيات كثيرة. ففي الآية الجامعة لمقومات البر في أصول الإيمان وفروعه، ورد قوله تعالى في الآية ١٧٧ من سورة البقرة: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ ﴾ فجعل سبحانه إنفاق المال على اليتامى نوعًا من أعمال البر، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن الكريم مرات ومرات. ثم جعله في آية أخرى في ذروة الأعمال الصالحة التي لا تصدر إلا عن مؤمنين صادقين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥].

أما التهديد والوعيد لمن يسيء إليهم، فيكفي أن نذكر قوله تعالى في الآية ١٠ من سورة النساء: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾.

أما ما يتصل بتأمين حاضر اليتيم ومستقبله، فقد شرع الإسلام نظام الأوصياء على أموال اليتامى ورعاية مصالحهم، من العقلاء أصحاب السيرة الحسنة والسلوك الطيب من أقرباء اليتامى أو من غيرهم، فقد جاء في سورة الماعون: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾.

ثم شدد النكير على التقصير في رعاية مصالح اليتامى أو الاعتداء على أموالهم، ومن ذلك خطاب الله للأوصياء في الآية ٢ من سورة النساء: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾.

ثم يعود القرآن فيذكر الأوصياء بأن أموال اليتامى أمانة في أيديهم، والأمانات بعد المحافظة عليها ينبغي ردّها إلى أصحابها، ثم ينهاهم عن أن

يستغلوا سذاجة الأيتام ويبددوا بعض أموالهم قبل بلوغهم سن الرشد، مع إباحة أن يأخذوا منها بعض ما يساعدهم على التفرغ لإدارة شؤون اليتامى.. كأجر معتدل للعمل الذي يبذلونه في رعاية مصالح اليتامى، كما نهاهم في الآية الأولى أن يبدلوا الطيب من مال اليتامى بالخبيث من أموالهم هم- الأوصياء- وفي هذا أنزل الله قوله الحكيم من الآية ٦ من سورة النساء: ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾.

وتبين السنة الشريفة منزلة كافل اليتيم فيقول ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة»[1] وجمع بين أصبعيه الوسطى والسبابة، يعني يدخلان الجنة في وقت واحد، قبل أن يدخلها غيرهم من عباد الله الصالحين[2].

---

(١) أورده الترمذي.

(٢) المرجع: كتاب «حقوق المرأة والطفل»، تأليف الأستاذ الدكتور عبد العظيم المطعني، ص١٨٠.

الفصل السابع
الهجـرة واللجـوء والأقليـات

الـهجـرة واللـجــوء :

من حق أي إنسان وقع عليه ظلم أو ضيم في بلد ما، ولم يستطع دفعه أن يهجر هذا الوطن الظالم، وأن يلجأ إلى بلد آخر، يجد فيه حريته وكرامته. والمولى ﷻ في الآية ٧٥ من سورة النساء، يدعو المسلمين للجهاد والقتال في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين حبسهم ظلم الكفار ويقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾.

والإسلام يقدر دوافع الإباء التي تجعل الإنسان الحر يرفض قبول الدنية، ويهيب بالأحرار من شعوب البلدان الأخــرى أن يكرمــوا وفادتــه، ويحــسنوا مواساته..

ومن تعاليم الإسلام المقررة أنه يوصي المؤمن بمقاومة الطغيان، فــإن عجز عن ذلك ماديًا، فلن يعجز عنه نفسيًا. والمقاومة النفسية أن يقاطع الطغــاة ويأبى موالاتهم، ولو عكروا عليه مقامه، فليس الظلم فقط أن يلطمك معتدٍ أثــيم. ولكن الظلم أن تقبل هذه اللطمة وتستكين لوقعها، وتتودد لصاحبها. ومن يصادق المعتدين ظالم؛ بل هو الجدير باللوم والتقريع، لأن انكسار نفسه هو الذي يغري الآخرين بالجبروت(١).

وقد هاجر المسلمون الأوائل طورًا إلى الحبشة، وطورًا إلى المدينة، وهذه الهجرة تمثل ما يسمى الآن باللجوء السياسي. وقد نوّه القرآن ببسالة المهاجرين وتضحياتهم، كما نوه بسماحة الذين آووهم، وأحسنوا مثواهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٤].

إن لقاء اللاجئ المحزون بصدر مفتوح عمل صالح، وفضيلة مــشكورة، فإذا منيت قطعة من الأرض بحاكم أثيم يضطهد خصومه في الدين أو في الرأي، ويضيق عليهم الخناق، فلتكن أبواب البلاد الأخرى مفتوحــة لتكــريم الإنــسانية

---

(١) فضيلة الشيخ محمد الغزالي (المرجع السابق)، ص١٤٢.

المهانة وإشعارها بالأخوة العامة، وبأن هناك أهل صلاح ووفاء يكرهون أولئك الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل.

وعلى هذا الأساس نفهم قول الله جل شأنه في الآية ٥٦ من سورة العنكبوت: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ ، وقوله في الآية ١٠ من سورة الزمر: ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾. وقوله سبحانه في الآية ١٠٠ من سورة النساء: ﴿ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗ ﴾.

وبديهي أن الذي يظفر بتقدير العالم، من يقع عليه الحيف لعقيدته ورأيه. أما الفار لجُرم ارتكبه، أو الهارب من عقاب يستحقه، فليس بلاجئ سياسي، ولا يجوز لأحد إيواؤه، بل إن تسليمه للعدالة حق على كل قادر.

ودار الإسلام مفتوحة لطلاب الأمن من كل جنس ولون، فأي مضطهد يستطيع أن يجد فيها ما ينشد من سكينة نفس وراحة بال. وأي قادم إلى المسلمين من مخالفيهم في الدين، له حق الأمان ما دام طالب أمان. وفي هذا تقرأ قوله تعالى في الآية ٦ من سورة التوبة: ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾. والآية مشرقة الدلالة فيما ينطوي عليه الإسلام من ثقة بتعاليمه، واطمئنان إلى وجاهتها وقدرتها على إقناع الخصوم.

فلا جرم أن اللاجئين إلى دار الإسلام فرارًا من أي عنت، يلقون من أهل الإسلام الأمان المطلق لذواتهم وأولادهم وأموالهم. يلقون ذلك مبذولاً دون عَرَض مرجو، إنما هي طبيعة الإسلام في إحقاق الحق وإبطال الباطل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

معاملة الأقليات (أهل الذمة)

إن اختلاف الدين في دولة الإسلام هو مثل اختلاف الجنسية في هذا العصر، والإسلام جنسية عامة لكل المسلمين في دار الإسلام.

ونصوص الشريعة الإسلامية عن معاملة غير المسلمين في دار الإسلام كثيرة، حتى أن أهل الذمة بقيت لهم محاكمهم المذهبية، تفصل في النزاع بينهم في أمور الزواج والطلاق والنفقة والنسب والوصية والوقف والحضانة والإرث، وسائر ما هو من الأحوال الشخصية، أو من الخصومات الطائفية الصرفة- التي لا تهم المسلمين- ولا تمس كيان الدولة.

ولقد كان للبطريرك في دمشق سجن متصل بالكنيسة يحبس فيه من يستحق التأديب من النصارى. ومرة حبس الأخطل شاعر بني أمية وقيده، بسبب كثرة سُكره، ولم يطلقه حتى شفع فيه الخليفة نفسه.

وأوصى سيدنا محمد ﷺ بأهل الذمة فقال: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا. ومن آذى ذميًا كنت خصمه يوم القيامة».

وأما سيدنا موسى فقد جعل فروقًا عظيمة في المعاملة والحقوق بين اليهودي وغير اليهودي، فقال في التوراة: «لا تقرض أخاك الإسرائيلي بربا فضة، أو ربا طعام، أو ربا شيء مما يُقرض بربا.. للأجنبي تقرض بربا.. ولكن لأخيك لا تقرض بربا». وقس على هذه القاعدة سائر القواعد الاجتماعية في المعاملات والعقوبات.

فكأن الحكم في الشريعة الموسوية يختلف باختلاف أشخاص الخصوم، والعقوبة تخف على اليهودي وتشتد على الأجنبي مع وحدة الجُرم. وجاء في موضع آخر من التوراة: «اليهود يقرضون أممًا كثيرة- يعني بالربا- وهم لا يُقرضون.. ويسقط الدين بمرور الزمن بعد سبع سنين عن العبراني (اليهودي)، وأما عن الأجنبي فلا يسقط أبدًا ولا يمر عليه الزمن.

ثم إن شريعة موسى الكليم استهدفت أمور الدنيا فقط، وليس في التوراة إشارة ما إلى الخلود بعد الموت أو ثواب في الآخرة على عمل صالح في الدنيا. بل كل ما فيها من هذا القبيل: وعود بالمكافأة في الدنيا، كالوعد بطول العمر، والشفاء من الأمراض، وإعطاء النسل الصالح، وتكثير المال وغلة الأرض، والانتصار على الأعداء، وتوطئة أكناف المعيشة، وتمهيد سبل الرفاهية، والتسلط على الغير، وأمثال ذلك من الوعود الدنيوية الصرفية.

أما الذين يعبدون غير الرب أو يرتكبون المنكرات المعدودة في التوراة، فهناك وعيد وتهديد بتسليط الأعداء عليهم، يغلبونهم ويسلبونهم أموالهم ونساءهم، ومنع الأرض من إعطائهم غلتها، والسماء عن صب أمطارها، وإرسال الأوبئة إليهم لتهلكهم، وأمثال ذلك من مصائب الدنيا وآفاتها.



ومن أحسن ما نذكره عن العدل والرحمة في الإسلام أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد ابن أبي وقاص ومن معه من الجند يقول: «.. ونح

منازلهم (جنودك) عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه. ولا يرزأ أحدًا من أهلها شيئا.. فإن لهم حرمة وذمة، ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فوفوا لهم».

ففي هذا الأمر الصريح لا يكتفي أمير المؤمنين بالتوصية الحسنة بأهل الذمة، بل تجاوز في الرفق بهم العهود المقطوعة لهم.

إن عمر كان رافدًا من روافد الرحمة العامة التي بُعث بها نبي الرحمة. وعندما أرسل جيوش الإسلام إلى البلاد المجاورة لم يكن يرسل الجيوش لتسلب دولاً مستقلة استقلالها، أو دولاً مستقيمة استقامتها. إنه حرر المستعمرات الرومانية في آسيا وأفريقيا من أولئك الرومان الدخلاء، ورد إلى الشعوب الأصلية حرياتها كلها، الدينية والاقتصادية على سواء. كما أسقط حكم الأكاسرة، ومنع الوثنيات السياسية من الاستعلاء في الأرض. ولم تمض سنون قلائل حتى كان أولئك الفرس مساوين للعرب- باسم الإسلام- أو قادة لهم[1].

إن التسامح والصبر الجميل هو السياسة التي وضعها النبي ﷺ في العلاقة بين الناس بعضهم مع بعض، وخصوصًا بين المسلمين وغيرهم، وهي السياسة المطلقة في حال السلم، والسياسة الشافية للقلوب المجروحة في أعقاب الحرب.

فقد حارب الإسلام كل لون من ألوان العصبية، لأن العصبية تدعو إلى الصراع الاجتماعي، وإلى التفرقة بين الناس، بينما يدعو الإسلام إلى أن يعيش العالم كله بشعوبه وعناصره في مجتمع واحد متعاون ومتكافل، في ظل مبادئ الأمن والسلام، والحرية والإخاء.

وقد تحدثنا آنفًا عن سماحة الإسلام كقاعدة.. بصفة عامة، والآن نتناول الموضوع بالنسبة لعلاقة المسلمين بأهل الذمة بصفة خاصة، فإن الإسلام يعتبر الناس جميعًا أمة واحدة لا تفرقها الألوان، ولا الأقاليم، ولا الجنسية. وإذا اختلفت الأديان فإن أهل كل دين لهم الدعوة إلى دينهم بالحكمة والموعظة الحسنة، من غير تعصب أو إكراه. والأمثلة على ذلك كثيرة، واضحة جليّة.

فعندما دخل الفاتحون العرب بلاد الشام وجدوا قوميات مختلفة، فقد

---

(١) الشيخ محمد الغزالي، المرجع السابق، ص٤٠.

تعاقبت على هذه البلاد مدنيات كثيرة، فأورثتها علمها وحضارتها وعقائدها، وأمَّن الفاتحون العرب أهالي الشام، على اختلاف اتجاهاتهم، على أنفسهم وأموالهم.. ومعابدهم، وكانت كتب الصلح العديدة توضح تمامًا هذه السياسة.

فإنه لما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن، كتب الأهالي المسيحيون إلى المسلمين يقولون: «يا معشر المسلمين: أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا». وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الروم وتعسفهم.

ولما عقدت دمشق الصلح مع العرب المسلمين، ولمست سائر مدن الشام تسامحهم وعدلهم، أسرع أهالي هذه المدن إلى طلب الصلح مع العرب.

بل إن العرب المسلمين لم يكونوا قساة مع الروم، وهم الذين جابهوهم بالحرب، وقابلوهم بالقوة، فإنهم لم يخرجوهم من الشام أسرى مقيدين، بل وتركوا للأهالي حرية مغادرة البلاد مع الروم إن شاءوا، أو الإقامة في البلاد إذا شاءوا، كما ظهر ذلك من الوثيقة التي حررها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع بطريق القدس. ولا شك أن هذا التسامح قام بدور كبير في التقريب بين الفاتحين والأهالي، فلم يشعر السكان أن هناك طبقة من فوقهم، لها امتيازات خاصة قاصرة عليهم، مما أدى إلى اقتراب القوميات ثم امتزاجها، كما مهّد الطريق أمام انتشار الإسلام، والتقريب الجنسي واللغوي.

وكان للفتح العربي الإسلامي لبلاد العراق أثر كبير في أهالي هذه البلاد، فقد رحبوا بالعرب المسلمين كل الترحيب، ووجدوا فيهم المنقذ الذي يخلصهم من ظلم دولة الأكاسرة الساسانيين، كما ذكر ذلك جوستاف لوبون في كتابه عن حضارة العرب، وإن كان بعض الفرس قد وقفوا إلى جانب كسرى في قتاله للعرب، إلا أن غالبية الفرس كانوا زاهدين في المظاهر القومية، إذ ضعفت معاني الاستقلال في نفوسهم، وهم بما صاروا إليه من سوء الحال حاولوا أن يضعوا أيديهم في يد كل من يعمل على تيسير سُبُل المعيشة لهم[١].



(١) المرجع: الأستاذ الدكتور علي حسني الخربوطلي في كتابه بعنوان: «الإسلام وأهل الذمة».

ورحب **أهل مصر** بالفتح الإسلامي، واتبع الفاتحون العرب سياسة التسامح.. حتى يحببوا سكان مصر في الحكم العربي الإسلامي الجديد.

ومن المعلوم- تاريخيًا- أن شعب مصر من الأقباط، لشدة كراهيته للحكم الروماني قد وقف إلى جانب الجيش الإسلامي الفاتح، وساعده في تقدمه، وقدم له المعلومات الوفيرة، وأقام له الجسور، وزوده بما يحتاج إليه من خدمات.

وبعد أن تم فتح مصر رأى عمرو بن العاص أمير مصر أن يزيل ما يشكو منه المصريون، وما كانوا يثورون من جرائه، فقد كان الاضطهاد الديني أول سبب لتذمر الناس وشكواهم. لذا كان أول أمر أذاعه عمرو بن العاص على الناس جميعًا: أن لا إكراه في الدين، وأن حرية العقيدة مكفولة للجميع، فلن يُضار أحد في حريته أو في ماله بسبب دينه أو مذهبه، فمن شاء أن يبقى ملكانيًا (مذهب الروم) أو يعقوبيًا (مذهب القبط) فله ما يشاء. ومن شاء أن ينتقل من دين إلى دين أو من مذهب إلى مذهبٍ فلن يصاب لذلك بسوء، ومَنْ أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم. وقد نفذت هذه السياسة المعلن عنها بمنتهى الدقة، وبقيت كافة الكنائس قائمة تؤدى فيها الشعائر الدينية. ومن اليسير الوقوف على ما كان لهذه السياسة من أثر بعيد المدى في نفوس المصريين الذين ذاقوا الهوان والاضطهاد والنفي والتشريد من الروم في سبيل مذهبهم. ولما عرف رهبان القبط هذا الأمر وتيقنوا منه خرج عدد كبير منهم من الأديرة التي كانوا قد اعتصموا بها من الاضطهاد، وساروا إلى عمرو يعلنون له الطاعة.

وكان عمرو- فضلاً عن ذلك- حريصًا على أن يعود البطريرك «بنيامين» إلى رياسته الدينية.. لما عرفه من محبة القبط له وتعلقهم به، ومن ازدياد هذه المحبة في نفوسهم بعد فرار بنيامين إلى أقصى الصعيد واعتصامه بالصحراء. لذا كتب للقبط جميعًا أمانًا خصَّ فيه بنيامين بمزيد من الاهتمام. ولم يلبث عهد الأمان أن بلغ بنيامين، فعاد من مخبئه ودخل الإسكندرية دخول الظافرين، وفرح الناس بعودته فرحًا عظيمًا، بعد أن بلغت مدة غيابه ثلاثة عشر عامًا، وكان في كل هذه المدة يتنقل خفية بين أصحاب مذهبه، أو يقيم مختبئًا في أديرة الصحراء.



يتبين مما سبق أن أهل الذمة قد تمتعوا بالحرية والعدل والتسامح، مقابل أداء جزية عادلة معقولة نظير حمايتهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية، وإقامة

المشاريع النافعة. ولم تُطبق عليهم أحكام الشريعة الإسلامية كمبدأ عام لأنها لم توضع لهم، بل ترك لهم تطبيق شرائعهم، خاصةً في مسائل الأحوال الشخصية، وكانت الجزية تساوي ما يدفعه المسلم من الزكاة، وأُعفي منها الشيوخ والنساء والصبيان والمساكين وذوي العاهات والرهبان، كما سيأتي بيانه فيما بعد.

كتب ميخائيل الأكبر بطريق أنطاكية اليعقوبي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، يشيد بمعاملة المسلمين للمسيحيين وقت الفتوحات الإسلامية، فتحدث عن اضطهاد هرقل لأهالي الشام.. ثم قال:

«.. هذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرد بالقوة وبالجبروت والذي يديل دولة الشر كما يشاء، فيؤتيها من يشاء. لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا، وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب في غير شفقة ولا رحمة، **أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصونا من قبضة الروم. ولم يكن كسبًا هينًا أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام».**

وقد حوى تاريخ الخلفاء الراشدين أمثلة كثيرة للتسامح الديني نحو أهل الذمة، وكثيرًا ما كان هؤلاء الخلفاء يوصون الجند الفاتحين بالتعاليم الحكيمة، وهم في ذلك يحتذون حذو الرسول الكريم ﷺ، فقد منح الرسول أهالي نجران من النصارى عهدًا تضمن احترام منشآت النصارى، ثم قال لمعاذ بن جبل عند توجهه إلى اليمن: «لا يُزعج يهودي في يهوديته».

وضرب المؤرخ «أرنولد» في كتابه: «الدعوة إلى الإسلام» كثيرًا من الأمثلة التي تؤكد تسامح المسلمين، ثم قال: «ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفًا عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون إلى العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على ذلك التسامح».

ويصف أرنولد موقف المجتمع الإسلامي من المسيحيين فيقول: «ولما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني، تمتعوا بحالة من الرفاهية والرخاء».

ولقد كانت أهداف الدولة الإسلامية تخالف أهداف غيرها من الدول،

فالدول كانت- ولا تزال- تهدف إلى سيادة شعبها على غيره من الشعوب، مما يؤدي إلى الحروب والصراعات. أما الدولة الإسلامية فكانت لا ترمي إلا إلى تبليغ الدعوة الإسلامية، ولم يكن يُقصد من هذه الدعوة سيادة شعب على شعب، ولا طمع في مُلك أو إمارة، وإنما كان يُقصد منها الدعوة إلى توحيد الله، وإلى الحكم بالعدل بين الناس، وهما غايتان من أشرف الغايات(١).

وقد اعترف معظم المفكرين المسيحيين بأن العرب المسلمين عاملوا دائمًا غير المسلمين معاملة تنطوي على التسامح، وقد عاش المسلمون والذميون جنبًا إلى جنب في مجتمع واحد تربطه صلات المودة والرحمة والتعاون. وأورد الدكتور علي الخربوطلي في كتابه الذي أشرنا إليه من قبل، آراء عدد من المفكرين المسيحيين المنصفين، فذكر أن «جولد تسيهر» قال: إن ما نشاهده اليوم من تسامح الحكومات الإسلامية يرجع إلى ما كان في النصف الأول من القرن السابع الميلادي من مبادئ الحرية الدينية، التي مُنحت لأهل الكتاب في مباشرة أعمالهم الدينية. وروح التسامح في الإسلام قديمًا، وهي تلك الروح التي اعترف بها المسيحيون المعاصرون أيضًا، كان لها أصلها في القرآن: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾. ويقول «أرنولد» إن المسلمين لم يألوا جهدًا في حُسن معاملة رعاياهم من المسيحيين. كما أكد «باروتولد» أن النصارى كانوا أحسن حالاً تحت حكم المسلمين، إذ أن المسلمين اتبعوا في معاملاتهم المدنية والاقتصادية لأهل الذمة مبدأ الرعاية والتساهل. ويذكر «شد» أن العرب عاملوا النصارى واليهود معاملة تمتاز بالتسامح. وذكر «فون كريمر» أنه لم يلاحظ في نظام الضرائب شيئًا مجحفًا. ويرى «فان فلوتن» أن الضرائب ليست فادحة بالنسبة لما كانت تقوم به الحكومة العربية من بناء الطرق وحفر الترع وتوطيد الأمن وما إلى ذلك من ضروب الإصلاح. والحقيقة أن الجزية لم تكن عقابًا لأهل الذمة، فهي نظير إعفائهم من الجندية، ومقابل حماية المسلمين لهم(٢).



وفي تطبيق مبادئ العدل والمساواة لم يفرق الإسلام بين المسلمين وغير المسلمين، فيقرر أن الذميين في بلد إسلامي أو في بلد خاضع للمسلمين لهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما على المسلمين، ويجب على الدولة أن تقاتل عنهم

---

(١) كتاب الدكتور علي الخربوطلي (المرجع السابق).
(٢) من بحث بعنوان «التعامل مع غير المسلمين» قدّمه: محمد أحمد خضر.

كما تقاتل عن رعاياها المسلمين، وتطبق عليم القوانين القضائية التي تُطبق على هؤلاء، إلا ما تعلق منها بشئون الدين فتحترم فيه عقائدهم، فلا توقع عليهم الحدود الإسلامية فيما لا يحرمونه، ولا يدعون إلى القضاء في أيام أعيادهم، لقوله عليه الصلاة والسلام: «أنتم يهود، عليكم خاصة ألا تعدو في السبت».

ولا يقف الأمر في معاملة الذميين عند نصوص الشرع والقانون، بل إن الحاكم المسلم لمطالب فوق ذلك بالمجاملة وحسن المعاملة في غير ما بينته النصوص وفصّلته العهود، وفي هذا يقول ﷺ: «من قذف ذميًا حُدَّ له يوم القيامة بسياط من نار»، ويقول: «من آذى ذميًا فقد آذاني»، ويقول: «من ظلم معاهدًا أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس.. فأنا خصمه يوم القيامة».

ويقول عمر بن الخطاب في كتاب له إلى عمرو بن العاص في أثناء ولايته على مصر مشيرًا إلى الحديث السابق ذكره: «إن معك أهل الذمة والعهد، فاحذر يا عمرو أن يكون رسول الله خصمك». ويقول في عهده لأهل بيت المقدس عقب فتح المسلمين له: «هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيليا: أعطاهم أمنًا لأنفسهم وكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم ولا يُنتقص منها ولا من حيِّزها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم».

وروى يحيى بن آدم في كتاب الخراج (الذي وضعه الإمام أبو يوسف) أن عمر لما تدانى أجله أوصى من يلي الخلافة بعده، وهو على فراش الموت، بقوله: «أوصي الخليفة بعدي بأهل الذمة خيرًا، وأن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفهم فوق طاقتهم»[1].

---

(١) الدكتور علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص١٧.

الباب الثالث

من الخـلافة إلى المُـــلك

تمهـــــيد :

نتحدث في هذا الباب (الرابع) عن التطورات التي حـــدثت فـــي الدولـــة الإسلامية بعد انقضاء عهد الخلفاء الراشدين، مع التركيز على مجـــال حقـــوق الإنسان بصفة خاصة. وسوف نجمع في هذا الباب كل نظم الحكم والأسر التـــي تولت الحكم أو توارثته.. على مدى تاريخ الدولة الإسلامية.

ومن ثم سوف نقسم هذا الباب إلى الفصول الآتية:

الفصل الأول : عصر الدولة الأموية.

الفصل الثاني : العصر العباسي الأول.

الفصل الثالث : العصر العباسي الثاني.

الفصل الرابع : الدول التي قامت في مصر.

الفصل الخامس: الحملات الصليبية والغزو المغولي.

الفصل السادس: عصر الدولة العثمانية.

والله ولي التوفيق ،،

الفصل الأول
عصر الدولة الأموية

وصول معاوية إلى الحكم :

استطاع معاوية بن أبي سفيان أن يتولى في خلافة عثمان بن عفان زعامة البيت الأموي، ذلك أن طول حكم معاوية لبلاد الشام، أتاح له السبيل لتأكيد سلطانه في تلك البلاد، وتكوين قوة عسكرية موالية له. ولما قامت الثورة ضد عثمان وانتهت إلى اغتياله، استغل معاوية هذه الظروف، وتزعم البيت الأموي في المطالبة بدم عثمان.

وسارت الأمور على نحو ما هو معروف من الخلاف بين الخليفة الجديد الإمام عليّ بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان والي الشام، فقد رفض معاوية مبايعة عليّ بالخلافة، وطالبه بتسليمه قتلة عثمان للثأر منهم، الأمر الذي أدى إلى أن يسير عليّ بجيشه لمواجهة جيش معاوية، وقد التقى الجيشان عند صفين، حيث دارت رحى المعارك في صالح جيش عليّ، وعندئذٍ أشار عمرو بن العاص على معاوية أن يرفع المصاحف على أسنة الرماح، مطالبين بتحكيم كتاب الله وسنة نبيه، وكانت خدعة التحكيم التي جاءت نصرًا سياسيًا لمعاوية، إذ حمل التحكيم في معناه تنازل علي بن أبي طالب عن حقه في الخلافة، فضلاً عما أدى إليه التحكيم من انقسام في صفوف أنصار عليّ، وظهور جبهة الخوارج.. الذين انتقصوا كثيرًا من قوة عليّ ومن جهده.

ثم جاءت حادثة قتل عليّ بن أبي طالب على يد عبد الرحمن بن ملجم أحد الخوارج، فخلا الجو لمعاوية، واستطاع- من بعد- أن يعقد صلحًا مع الحسن بن عليّ الذي تنازل لمعاوية عن الخلافة، وأمسك معاوية- من ثم- بزمام السلطة في كافة أنحاء الدولة الإسلامية بلا منازع عام ٤١ هجرية.. الذي يُعرف بعام الجماعة. ولكن هذا العام في الوقت نفسه هو تاريخ الميلاد لقيام الدولة الأموية، وما صاحب ذلك من تحول الخلافة الرشيدة إلى مُلك عضوض. وقد نظر الرسول بعين الغيب إلى هذا المصير، فقال: «الخلافة ثلاثون عامًا ثم يكون بعد ذلك المُلك». وأنبأ بانقسام المسلمين إلى فرق متقاتلة يضرب بعضها بعضا.

ولم يبتكر معاوية الاستيلاء على الحكم بالإكراه والغصب فحسب بدلاً من الشورى والبيعة، بل ابتكر في خلافته أشياء لم يُسبق إليها، فهو الذي أمر أن تُرفع الحراب بينه وبين الناس، وهو الذي وضع المقصورة ليصلي بداخلها في

المسجد ليأمن هجمات الأعداء عليه حين يصلي، **واستغل أموال المسلمين فبنى لنفسه قصرًا** سماه الخضراء، واتخذ فيه السرير للجلوس، وهو المكان المرتفع، أو ما يُعرف في الوقت الحاضر بكرسي العرش، ثم وضع حول هذا السرير الستائر، كما أحاط نفسه بالحُجَّاب وجعل الحراس تمشي بين يديه، وأوجد الشرطة لحراسته. **وجعلت هذه التقاليد والمبتكرات الخلافة الأموية ذات طابع سياسي أكثر منه ديني، وذلك خلافًا لما كان عليه الحال زمن الخلفاء الراشدين.. الزاهدين.. الصالحين. وقد أصبحت الخلافة في عهده- وعهد ورثته- ملكية، ويُنسب إلى معاوية قوله: «أنا أول الملوك» في الدولة الإسلامية طبعًا.**

واتخذ معاوية مدينة دمشق مقرًا لخلافته ولآل بيته من بعده، وكان اختيارًا موفقًا لأكثر من سبب.

أخذ البيعة ليزيد :

كان سعي معاوية لتوريث ابنه يزيد الخلافة من بعده تقليدًا جديدًا من التقاليد التي استحدثها معاوية. وكان يزيد فتى صاحب لهو وعبث، مسرفًا على نفسه في ملذاته، مستهترًا لا يتحفظ، وكان ربما أضاع الصلاة، فأخذه أبوه بالحزم تارة، وبالتدليل تارة أخرى.

وقد كتب معاوية لواليه على المدينة مروان بن الحكم، يطلب منه أخذ البيعة ليزيد، ولكن المسلمين في المدينة رفضوا ذلك.

وقدم معاوية المدينة بعد أداء العمرة، وحاول أن يقنع كبار الصحابة فيها، فخاطبهم في شأن البيعة لابنه، ولكنهم رفضوا جميعًا، فلما رأى منهم إصرارًا وعنادًا، أرسل في طلبهم، وفيهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسين بن عليّ، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وقد عهد هؤلاء إلى ابن الزبير أن يتحدث بلسانهم، وقد دار حوار طويل بينه وبين معاوية حاول فيه الأخير أن يقنع ابن الزبير بالموافقة على البيعة ليزيد، ولكن الحوار لم يسفر عن اتفاق.

هنالك توعدهم معاوية، وصاح فيهم: «إني كنت أخطب فيكم فيقوم إليّ القائم منكم فيكذبني على رءوس الناس فأصفح، وإني اليوم قائم بمقالة، وأقسم بالله لئن ردَّ عليَّ أحد منكم كلمة في مقامي لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يبقين رجل إلا على نفسه». ثم دعا صاحب حرسه أمامهم

فقال له: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل منهما سيف، فإن ذهب رجل منهم يرد عليّ وأنا أخطب بكلمة تصديق أو تكذيب فيضرباه بسيفهما، ثم خرج إلى المسجد وأخذهم معه، ورقي المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، لا يبتز أمر دونهم، ولا يُقضى إلا عن مشورتهم، وأنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله». ولما سمع الناس هذا القول اعتقدوا أن زعماءهم بايعوا، فأقبلوا وبايعوا.

وهكذا استطاع معاوية بالإكراه والحيلة معًا، أن يأخذ البيعة لابنه يزيد من أهل الحجاز.

يقول الدكتور طه حسين تعقيبًا على ذلك (في نهاية كتاب الفتنة الكبرى):

«وكذلك استقر في الإسلام لأول مرة هذا الملك الذي يقوم على البأس والبطش والخوف، والذي يرثه الأبناء عن الآباء، وأصبحت الأمة كأنها- ضيعة- ملك لصاحب السلطان ينقله إلى من أحب من أبنائه، كما ينقل إليه ما يملك من سائل المال وجامده».

ويضيف: «والذي يعنيني هو أن معاوية قد استحدث في المسلمين بدعة جديدة طالما أنكروها من قبل، وهي توريث الملك. وكانت عاقبة هذه البدعة وبالاً على المسلمين أي وبال، فما أكثر ما استحل الملوك من المحارم، وما أكثر ما سفكوا من الدماء، وأهدروا من الحقوق، وضحُّوا بمصالح الأمة في سبيل ولاية العهد، وما أكثر ما كاد بعض الأمراء من أبناء الملوك لبعض، في سبيل هذا التراث الذي لم يبحه لهم كتاب ولا سنة، ولا عرف مألوف من صالح المسلمين».

موقف معاوية من الخوارج والشيعة:

كانت الأمة الإسلامية حين ولي معاوية الخلافة ثلاثة أحزاب: أتباع بني أمية، وشيعة عليّ ﷺ والخوارج الذين هم أعداء الفريقين السابقين، وكانت بلاد المشرق: العراق وفارس، مركزًا لنشاط الخوارج الذين كانوا يثورون كلما أمكنتهم الفرصة. وقد اتبع معهم معاوية طريق الشدة والقمع ليأمن شرهم، وأرسل إليهم جيشًا فرّقهم وشتت شملهم.

أما الشيعة: فإن مقاومتهم لم تكلف معاوية عناءً كبيرًا كالخوارج، وقد خمدت روح التشيع في نفوس أهل الكوفة، وانضووا تحت لواء معاوية.. على

إثر تنازل الحسن بن علي. إلا أن الشيعة في الكوفة غضبت عندما رأت أمير الكوفة المعين من قِبَل معاوية يلعن عليًّا كلما قام خطيبًا، ولما تكرر منه ذلك تصدى له زعيمهم «**حجر بن عدي**»، وقد تأزم الموقف فأرسل الأمير صاحب الشرطة فقبض على حجر، وأرسله هو وأصحابه إلى معاوية، فقتله هو ومن ثبت ولاؤه لعليّ دون مواجهة أو محاكمة ودون ذنب جنوه سوى الولاء للإمام عليّ (كرم الله وجهه)، وأما من تبرأ من عليّ فقد عفا عنه، وكان ذلك في سنة ٥١هـ. **وهكذا استباح إمام من أئمة المسلمين لنفسه أن يقضي بالموت على نفر من الذين عصم الله دماءهم، دون أن يراهم أو يسمع منهم، أو يأذن لهم في الدفاع عن أنفسهم.**

يزيد بن معاوية ومصرع الحسين :

لما مات معاوية تجددت البيعة ليزيد رضي الناس أو كرهوا، وامتنع عن البيعة- مرة أخرى- زعماء المدينة الذين سبق أن عارضوا معاوية، فكتب يزيد إلى واليه في المدينة أن يشدد على هؤلاء النفر، أما عبد الرحمن بن أبي بكر فكان قد مات في حياة معاوية، وبايع ابن عمر وابن عباس، وامتنع الحسين وعبد الله بن الزبير، وظلا على عنادهما، ثم تسللا من المدينة وتوجها إلى مكة لبدء الجهاد ضد يزيد، وأخذ عبد الله يعمل على بث الدعوة لنفسه، ولكنه وجد في الحسين منافسًا قويًا، فلم يجرؤ على مناوأته.

وبينما كان الحسين في مكة، اجتمع الشيعة في الكوفة وأرسلوا إليه الكتاب تلو الكتاب يهاجمون فيه حكم بني أمية، ويعلنون أنهم غير راضين عن الحاكم الأموي، ويقولون للحسين: «أنه ليس علينا إمام فأقدم علينا لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى».

وكان الحسين- منذ البداية- يبغض سياسة معاوية وأسلوبه في معاداة أبيه، ورفض البيعة ليزيد في عهد معاوية، ونظر فوجد أن معاوية قد نقض الصلح الذي تم بينه وبين أخيه الحسن، نقضه مرتين: إحداهما حين قتل من قتل من أهل الكوفة بمعرفة عماله الذين ولاهم عليها، مخالفًا ما كان قد اتفق عليه مع الحسن من عدم التعرض للشيعة، والثانية: حين بايع بولاية العهد لابنه يزيد، وجعل الخلافة وراثة ينقلها لابنه كما ينقل إليه ماله، مع أنه سبق لمعاوية أن وافق على ما اشترطه الحسن- ضمن شروط الصلح- على أن تكون الخلافة من بعد معاوية شورى بين المسلمين.

مع هذه الظروف، اهتم الحسين بدعوة الشيعة، ومضى متوجهًا إلى الكوفة، مع نفر من آل البيت وصحابته، ولما علم ابن زياد (الملعون) حاكم الكوفة بقدوم الحسين ندب لحربه رجلاً من أقرب الناس إليه هو عمر.. ابن سعد بن أبي وقاص على رأس جيش من ثلاثة أو أربعة آلاف، فمضى عمر حتى لقي الحسين.. وطلب منه الاستسلام وأن يبايع يزيد فرفض الحسين، ودارت معركة غير متكافئة، حيث زحف عمر بجيشه على الحسين وأصحابه في كربلاء، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً لا غير، فقاتلوهم أكثر من نصف النهار حتى قضوا عليهم جميعًا، وقد قتل فعلاً في كربلاء كل كبير وصغير من سلالة عليّ ﷺ وعدد من شباب بني هاشم، ولم ينج من ذكورهم غير الصبي عليّ بن الحسين (عليّ زين العابدين) لأنه كان مريضًا فلم يشترك في القتال.

ونجح ابن زياد- كما كان يريد- في القضاء على ذرية رسول الله ﷺ وذوي قرباه، ولم يمض على وفاته ﷺ أكثر من خمسين عامًا. إن ابن زياد وزبانيته **أبوا للحسين إلا الاستسلام والبيعة أو القتل..** له ولجميع أهل بيته وصحابته الذين رافقوه ووقفوا إلى جانبه.

الاعتداء على حُرمة المدينة ومكة:

أراد يزيد بن معاوية تأديب أهل الحجاز لعدم إطاعتهم أوامره وعصيانهم، فأرسل جيشًا إلى المدينة المنورة اعتدى على حرمتها، وعندما وصل الجيش الأموي إلى شمال المدينة دارت معركة هائلة هي «واقعة الحرة» أسفرت عن هزيمة أهل المدينة وقتل عدد كبير منهم، وقتل في هذه الموقعة ألف وسبعمائة من قريش والأنصار ووجوه الناس، وكان من بينهم ثمانين رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، كما قُتل عشرة آلاف من سائر الناس (من الموالي والعرب) سوى النساء والصبيان.

ثم أمر يزيد قائد الجيش بالتوجه إلى مكة حيث يقيم عبد الله بن الزبير المتمرد على حكم بني أمية، ولما وصل الجيش إلى مكة حاصرها في أوائل سنة ٦٤هـ. وكانت هذه أول مرة تحاصر فيها مكة في التاريخ الإسلامي، وكان ابن الزبير قد أوى إليها واعتصم بها، على اعتبار أنها حرم مقدس لا يحل فيه القتال، ونصب الجيش الأموي على جبل أبي قبيس المواجه للكعبة المجانيق. أما ابن الزبير وأصحابه فتحصنوا في بيت الله الحرام، ودار القتال فأصابت المجانيق الكعبة وهدمت الحجارة، واحترقت الكعبة بسبب شرارة تطايرت إليها. ولم يتوقف القتال إلا عندما جاء الخبر بموت يزيد.

اعترافات معاوية الثاني :

بوفاة يزيد انتقل المُلك إلى ابنه معاوية المعروف بمعاوية الثاني، وذلك في عام ٦٤هـ، وكانت سنه آنذاك ثمانية عشر عامًا، ولم يزد عهده في الخلافة عن أربعين يومًا. يقول عنه المؤرخون أنه كان شابًا مريضًا ضعيف الإرادة، بينما يقول عنه رجال الدين أنه كان شابًا صالحًا زاهدًا في الدنيا، أراد أن يرجع بنظام الحكم إلى زمن الخلفاء الراشدين، فلم تسمح له الظروف، وهم في هذا يحكمون عليه من خطبته التي قال فيها:
«يا أيها الناس: إن جدي معاوية نازع الأمر أهله، ومن هو أحق به منه لقرابته لرسول الله ﷺ وهو عليّ بن أبي طالب، وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته، فصار في قبره رهينا بذنوبه، وأسيرًا بخطاياه، ثم قلد أبي الأمر فكان غير أهل لذلك، وركب هواه وأخلفه الأمل، وقصر عنه الأجل، وصار في قبره رهينا بذنوبه وأسيرًا بجرمه». ثم بكى حتى جرت دموعه على خديه، وقال: «إن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وبئس منقلبه، وقد قتل عترة رسول الله ﷺ، وأباح الحرم وخرب الكعبة، وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم، فشأنكم وأمركم، والله لئن كانت الدنيا خيرًا.. فقد نلنا منها حظا، ولئن كانت شرًا فكفى ذرية أبي سفيان ما أصابوا منها». وكان من بين ما قاله: «إني قد ضعفت عن أمركم، فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له من أحببتم، فما كنت لأتزودها ميتا، وما استمتعت بها حيًا».

عند ذلك قالوا له: ولِّ أخاك خالد، فقال: والله ما ذقت حلاوة خلافتكم، فلِمَ أتحمل مرارتها!!

وهكذا شهد شاهد من أهلها على طغيان وجرائم بني أمية!!

اهتمامات خالد بن يزيد :

عندما تنحى معاوية بن يزيد كان أخوه خالد بن يزيد لا يزال صبيًا، فآلت الخلافة إلى مروان بن الحكم كما سيأتي بيانه، إلا أن خالدًا كانت له اهتمامات خاصة وآثار مهمة في مجال الترجمة والطب والصنعة (الكيمياء)، فيعتبر أول مسلم اهتم بهذه العلوم.. حيث كان المسلمون يهملونها إهمالاً تامًا، فقد انكب على دراسة علوم الحكمة، لأنه لم يجد من أمور المُلك ما يشغله، فسبق المسلمين جميعًا إلى هذه الناحية، ولفتهم إلى العناية بعلوم الحكمة، ولا يكونوا في علوم الحكمة (الفلسفة والطب وغيرها) عالة على الأمم الأخرى.

انتقال الخلافة إلى الفرع المرواني

اعتزل معاوية بن يزيد في فترة عصيبة، كانت الدولة الأموية تتعرض فيها إلى فتن تهدد وجودها ذاته، ولكي يتدارك أبناء البيت الأموي هذا الموقف، عقدوا اجتماعًا في الجابية سنة ٦٤هـ. بايعوا فيه مروان بن الحكم بالخلافة، وجعلوا ولاية الحكم من بعده لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص، وبهذه الطريقة أرضوا جميع الذين كانت تتوق نفوسهم للخلافة.

ومروان بن الحكم كان شيخًا جديرًا بمواجهة الموقف الصعب الذي تعرضت له الدولة الأموية، وهو ينتمي إلى فرع آخر غير فرع معاوية.. وجميعهم من بني أمية، (فكأن الخلافة انتقلت من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني).

ويعتبر مروان بن الحكم هو مؤسس هذا الفرع المرواني، ولما مات ورثة ابنه عبد الملك ابن مروان الذي وطّد أركان الحكم وجعل الخلافة وراثة بين أبنائه، فقد خلفه ابنه الوليد ومن بعده سليمان بن عبد الملك.. وهكذا.

ولم يحكم مروان فترة طويلة، فقد كان شيخًا مسنًا، ومات بعد أن ضمن أن تتولى ذريته زمام الحكم من بعده. وقد أصبح عبد الملك بن مروان هو الخليفة ومقره في دمشق، بينما اختص عبد العزيز بن مروان بحكم مصر، واتخذ من حلوان عاصمة للدولة.

عهد عبد الملك بن مروان (من ٦٥-٨٦هـ):

نشأ عبد الملك في محيط علمي، وعُرف بالشجاعة والإقدام، وكان فصيحًا بليغًا، صريحًا في الحق. وقد حفظ القرآن الكريم، وقرأ العلوم الدينية على مشيخة الحجازيين في المدينة، وكان يُعد أحد فقهاء المدينة من طبقة سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير، أي أنه كان في القمة بين المجتهدين، ثم ضاع منه هذا الاتجاه العلمي والديني بعد أن تولى المُلك، ويروى- للأسف- أن الخلافة آلت إليه والمصحف في حجره، فأطبقه وقال: هذا آخر العهد بك.

وفضلاً عن تثبيت أركان الدولة فقد عرّب الدواوين: من اليونانية والفارسية، والقبطية في مصر إلى اللغة العربية، ومن أعماله الجليلة سك النقود الإسلامية، فقد كان التعامل منذ الجاهلية يتم بالدرهم الفارسي والدينار الروماني، ثم بدأ المسلمون سك نقودهم بأمر من عبد الملك: وكانت النقود ثلاثة أنواع هي الدينار وأجزاؤه وكانت من الذهب، والدرهم وكان من الفضة، والفلس من النحاس.

وفي سنة ٧٢هـ بنى عبد الملك قبة الصخرة بالقدس، وهي قبة عظيمة فوق الصخرة التي يقال أن النبي ﷺ قد أسرى إليها وعُرج به إلى السماء السابعة ليلة الإسراء والمعراج.

وقد تمكن عبد الملك بن مروان من التغلب على التمرد والثورات التي قامت ضده من التوابين والمختار في العراق، وثورة عمر بن سعيد في الشام، والانتصار على عبد الله بن الزبير في الحجاز بمعرفة **الحجاج بن يوسف الثقفي**، وهذا الأخير كان له فضل إدخال التشكيل والنقط في الخط العربي، وإن كان قد استبد بالعراق وعامل أهلها بمنتهى القسوة والشدة وصلت إلى حد القتل مع الأخذ بالشبهة. وفضلاً عن أن الحجاج كان يسرف في القتل، فإنه كان يسرف في توزيع الأموال على الموالين له.

وكان ممن قتلهم الحجاج **سعيد بن جبير**، وكان قد لجأ إلى مكة وعمر بن عبد العزيز أميرًا على الحجاز، فتركه عمر بل أكرمه لعلمه، فعلم بذلك الحجاج، فأخبر الوليد بن عبد الملك بأن عمر يأوي أعداء الدولة ويحسن إليهم، وفي طليعتهم سعيد بن جبير. وما كانوا في الحق أعداء الدولة، ولكنهم جهروا بأن الحجج ظالم جبار فلا طاعة له، وأن وليّ الأمر الذي يحميه ظالم مثله، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وقد جيء بسعيد في قيوده إلى الحجاج.. بينما كان يهم بركوب دابته، وقد وضع إحدى رجليه في ركاب السرج، فقال لسعيد: «والله لا أركب حتى تتبوأ مقعدك من النار، اضربوا عنقه»، فضربوا عنقه.

وما أن سقط رأس سعيد أمام قدمي الحجاج وهو ينظر إليه مغتاظًا، حتى أصيب الحجاج من فوره بهياج، وأخذ يتخبط بين الجدران، ولم يعرف الراحة منذ قتل سعيدًا، على الرغم من أنه قتل من قبله آلافًا، منهم مئات من الصحابة والتابعين والصالحين، وكان ينتحب ويقول: «ويلي من سعيد بن جبير، ما لي ولسعيد بن جبير».

ومن بعد قال الإمام أحمد بن حنبل: «قُتل سعيد بن جبير.. وما على الأرض أحد إلا وهو محتاج إليه: إلى علمه».

وكان عبد الملك أول من تجبر من الملوك، وأظهر أبهة الحكم بخلاف من سبقوه، إذ تشبه بملوك الفرس وقياصرة الروم، فقد منع الناس من الدخول عليه، ومن التكلم بحرية أمامه. وصار عبد الملك كما وصفه البلاذري المؤرخ: «أول من تجبر من الخلفاء». خطب الناس يومًا فقال: «أيها الناس، إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف- يريد عثمان بن عفان- ولا بالخليفة المداهن- يريد

معاوية- ولا بالخليفة المأفون (أي الضعيف)- يريد يزيد بن معاوية، فمن مال برأسه كذا قلنا بسيفنا كذا.. ثم نزل. وخطب أيضًا على المنبر: «أيها الناس: إن الله حدَّ حدودًا وفرض فروضًا، فما زلتم تزدادون في الذنوب نزداد في العقوبة، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف». ثم نزل.

وجاء يوم طلب فيه عبد الملك ألا يتكلم أحد في حضرته إلا إن طلب منه ذلك، بل أمر الناس ألا ينصحوه، فقال: «لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه». ولم يعد أحد من الناس- حتى أولاده- يجسر على أن يبادره بكلام أو يراجعه.

وهكذا كان عبد الملك بن مروان يحتكم إلى السلطان وإلى السطوة وإلى السيف، لا إلى كتاب الله وسنة رسوله، وسوابق الخلفاء الراشدين.. الذين حملوا مسئوليات المسلمين من قبل بكل صدق وأمانة.

عهد الوليد بن عبد الملك (من ٨٦-٩٦هـ):

كان عهده عصر التوسع والفتح من جهة، وعصر الإصلاحات الداخلية من جهة أخرى.

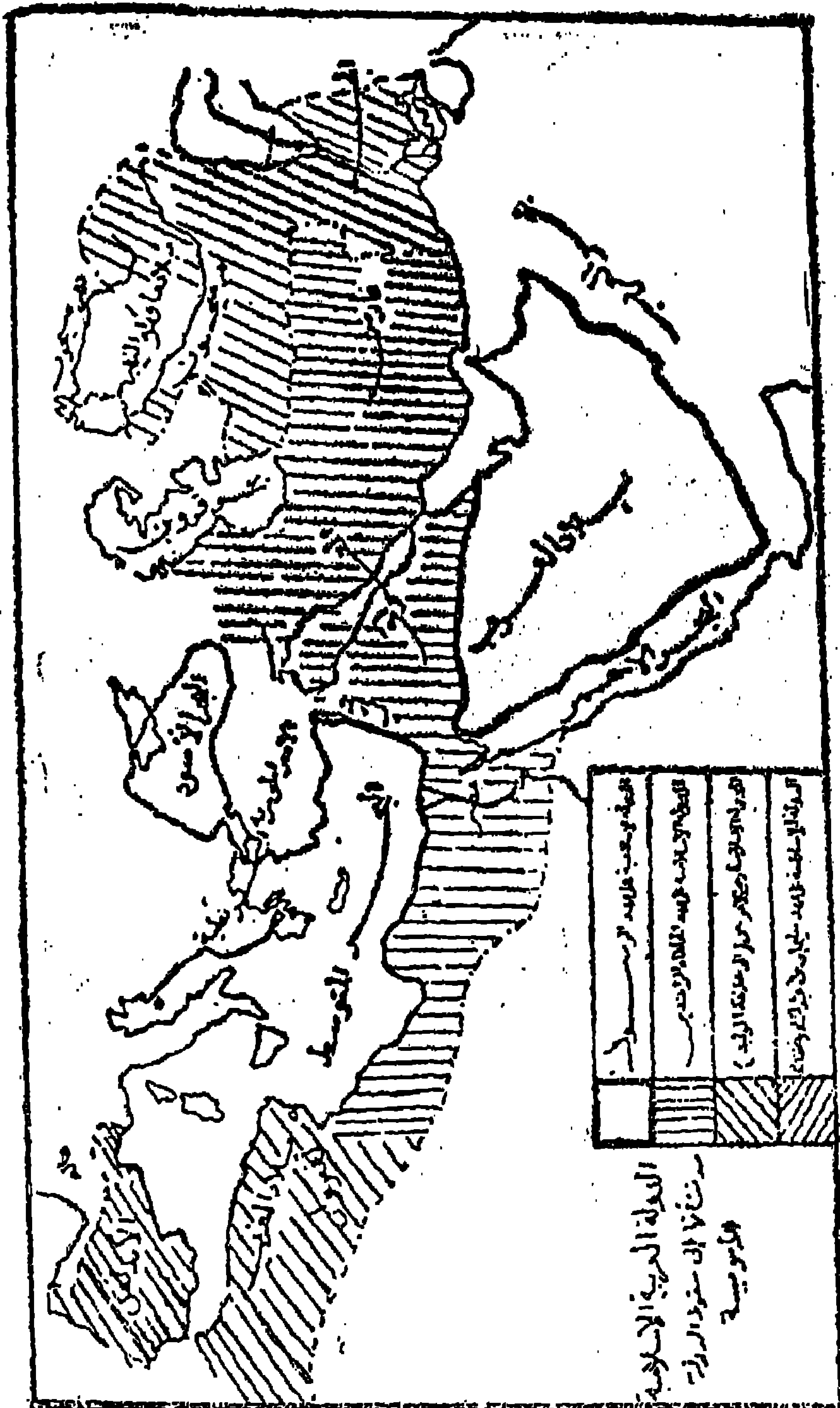
وقد تركز النشاط الحربي الأموي في ميادين ثلاثة:

أولها: الميدان البيزنطي.. ضد القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية (الرومانية الشرقية).

ثانيها: في اتجاه الشرق.. وذلك لنشر الإسلام في بلاد ما وراء النهر والهند، وكانت القوات في معظم الحملات بقيادة محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم الباهلي.

ثالثها: في اتجاه الغرب.. وغزو شمال أفريقيا، وغرب أوربا، وبسط سيادة الإسلام على تلك البلاد، وقد تناوب على قيادة الجيش: عقبة بن نافع الفهري وأبو المهاجر دينار ثم حسان ابن النعمان الغساني، وموسى بن نصير، وطارق بن زياد، وقد تم لهم الوصول إلى الأندلس.. وكانت جزءًا جغرافيًا من شبه جزيرة أيبريا (أسبانيا والبرتغال الآن). على أن أعظم المعارك خطرًا حدثت عندما تولى عبد الرحمن الخافقي قيادة المسلمين سنة ١١٢هـ/٧٣٠م، فقد تقدم عبد الرحمن في فرنسا تقدمًا محسوبًا.

وهذه خريطة توضح مدى اتساع الدولة الإسلامية في أواخر القرن الأول الهجري:



وقام الوليد بإصلاحات داخلية واسعة، منها أنه تعهد الأيتام وكفلهم ورتّب لهم المؤدبين، كما رتب للزمنى من يخدمهم، وللمكفوفين من يقودهم، ورتب لهؤلاء جميعًا الأرزاق المنتظمة، كما وضع العجزة في بيت يرعاهم طبيب حتى لا يخرجوا على الناس بعاهاتهم، ورتّب لهم الأرزاق الوافية، وأعطى كل مُقْعَد خادمًا يهتم بأمره.

واهتم الوليد كذلك بالعمران فأنشأ الطرق ومهّدها: وبخاصة الطرق المؤدية إلى الحجاز، كما حفر الآبار على طول هذه الطرق، ووظف من يعني بهذه الآبار ويمد الناس بمائها. ومن آثار الوليد الخالدة في العمارة تشييد المسجد الأموي في دمشق، وكان يُعد أحد عجائب الدنيا. ومن آثاره كذلك عمارة المسجد النبوي، وقد قام بذلك والي المدينة آنذاك عمر بن عبد العزيز بأوامر من الوليد، فهدم البناء القديم وأعاد بناءه بعد أن وسّعه بإدخال حجرات أزواج الرسول ﷺ فيه، ودور أخرى اشتريت لهذا الغرض.

عهد سليمان بن عبد الملك (من ٩٦-٩٩هـ):

ارتقى سليمان عرش الخليفة بعد أخيه الوليد.. طبقًا للنظام الذي كان قد وضعه والده عبد الملك لولاية العهد. وقد بدأ سليمان عهده بالانتقام من رجال الوليد الذين أيدوه فيما كان يرغب فيه من أن يجعل ولاية العهد لابنه عبد العزيز من بعده. وكان الحجاج قد توفي قبل الوليد فحبس محمد بن القاسم في بلدة واسط، وانتهى أمره أخيرًا بالقتل، كذلك عزل قتيبة بن مسلم، وأساء معاملة موسى بن نصير رغم كبر سنه وسوء صحته وجهاده في الفتوحات الغربية، وفرض عليه مبلغًا كبيرًا من المال، وما لبث أن سجنه حتى مات، وأرسل إلى بلاد الأندلس مَنْ قتل عبد العزيز بن الوليد. وكانت مأساة الانتقام هذه نقطة سوداء في تاريخه، وفيما عدا هذه النقطة، نجد بعض المؤرخين- رغم الفساد- يذكرونه بخير، فيقول أحدهم: إن الناس كانوا يقولون عن سليمان أنه مفتاح الخير، أطلق الأسارى، وعفا عن المسجونين، وأحسن إلى الناس، واستخلف عمر ابن عبد العزيز ابن عمه بدلاً من أحد أبنائه.. لأنهم كانوا صغارًا.

عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ)

والده هو عبد العزيز بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أما والدته (ليلى) فهي بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، فهو من جهة الأب ينتمي إلى الفرع المرواني من بني أمية، وهو بيت الحكم آنذاك، ومن جهة الأم ينتمي إلى الفاروق عمر بن الخطاب. ومن ثم فإن عمر بن الخطاب هو جد أمه، كما أن الفقيه الجليل عبد الله بن عمر هو عم أمه، إلا أن ابن عبد العزيز كان يحلو له أن ينادي عبد الله بن عمر: يا خالي.

وُلد عمر بمصر أثناء ولاية أبيه عبد العزيز بن مروان عليها، وهناك من يقول إنه ولد بالمدينة المنورة وهو قول ضعيف لا يوجد ما يسانده، ومهما يكن من أمر فقد قضى طفولة سعيدة في مصر. وقد وقع في عهد والده وباء الطاعون، فترك العاصمة (الفسطاط)- مصر القديمة حاليًا- ومضى بأهله إلى حلوان، فأعجبه طيب هوائها، فأنشأ فيها مدينة جميلة ذات حدائق، واتخذها عاصمة.

وفي حلوان دخل عمر حظيرة الخيل، فركضه جواد، فشجه وأدماه، وما كانت أمه تبصره حتى أخذها الروع، واستدعي أبوه فجاء على عجل، ورأى الدم يغطي وجهه، وقبل أن يغشاه الأسى، طوّفت بخاطره ذكرى ألقت على محياه تهللاً وابتسامة، وراح يقول لولده: إن تكن أشَجَّ بني أمية.. إنك إذًا لسعيد.

ذلك أن عمر بن الخطاب ﷺ نام يومًا، وقام من نومه متسائلاً: «**من هذا الذي من ولد عمر يسمى عمر يسير بسيرة عمر؟!!**». وقال مرة أخرى: «ليت شعري.. من هو ذو الشين (الشجَّة) من ولدي الذي يملأ الدنيا عدلاً بعد أن مُلئت جورًا؟!!».

وتحققت نبوءة ابن الخطاب، فولي عمر بن عبد العزيز حفيد عاصم بن عمر، فملأ الدنيا عدلاً، كما ملأ الدنيا علمًا.

وعندما شب وكبر أرسله والده إلى المدينة ليتزود من العلم، وفي المدينة عرف عمر كثيرًا من الحقائق التي لم يتسنى له أن يعرفها في مصر. وكان وهو في المدينة تحت رعاية والده الحازم اليقظ.

فعرف لأول مرة حقيقة الصراع بين عليّ (كرم الله وجهه) وبين معاوية، وكيف آل الحكم إلى معاوية ثم إلى الفرع المرواني، وعلم ما فعله الحجاج

وزبانيته في أهل الحجاز، وسوء معاملته وتعسفه معهم، وأنه قال وهو يبرح المدينة متجهًا إلى العراق، الحمد لله الذي أخرجني منها، أهلها أخبث أهل بلد، وأغشه لأمير المؤمنين، وأحسدهم له على نعمة الله، والله لولا ما كانت تأتيني من كتب أمير المؤمنين فيها لجعلتها مثل جوف الحمار، أعواد يعوذون بها (يتهكم على منبر الرسول) ورمة قد بليت (يسخر من قبر الرسول)!!. فلما سمع عمر بما قاله الحجاج وما صنعه امتلأ قلبه بغضًا لهذا الجبار، وتمنى لو أمكن تخليص الأمة منه ومن جبروته.

ومات عبد العزيز بن عبد الملك بعد أن حكم مصر عشرين عامًا، فأرسل عبد الملك إلى عمر، فأقام معه في دمشق، وخلطه بأولاده، وكان يحبه حتى يكاد يفضله على أولاده، وقال في ذلك: «وما لي لا أحبه، وهو أشج بني مروان.. وسيلي الخلافة يومًا فيرفع ذكر بني مروان».. وقد كان. ثم زوجه عمه من ابنته فاطمة.

وكان أسلوب الأمويين في الحكم ضرب عنق من يرفض البيعة لهم، وهو الأسلوب الذي كان يؤثره عبد الملك، حتى لقد اختار عماله ممن يفضلون هذا الحل ويطبقونه، وفي طليعتهم الحجاج، وهي أمور كان عمر ينكرها، ولكن لا حيلة له في منعها. وقد حاول عمر مرارًا إزاحة الحجاج من منصبه، وكلم عمه في ذلك فلم يفلح، فقد كان الحجاج محل ثقة عبد الملك بن مروان.

وتولى عمر إمارة المدينة المنورة سنة ٨٦هـ، وفي سنة ٩١هـ ضُمَّت إليه ولاية مكة والطائف، فأصبح عمر بذلك أميرًا على الحجاز كله.

وعندما نتحدث عن عمر بن عبد العزيز فإنما نتحدث عن **رجل عاد بالحكم إلى العمل بكتاب الله، وسنة رسوله، ورفع المظالم، ونهض بحقوق الإنسان**. وفترة حكمه- رغم قصرها- كانت امتدادًا لعصور الخلفاء الراشدين.

عمر أمير الحجاز:

بمجرد أن استلم عمله شرع عمر في إصلاحاته، **فأطلق السجناء الذين سُجنوا في المدينة ومكة والطائف** في عهد الظلم والبغي، ومعظمهم من أصحاب الرأي والعقيدة التي يخالف فيها أصحابها ما عليه بنو أمية، وأراد أن يكون **الحكم بالشورى**، فوقع اختياره على عشرة من أئمة العلم والورع والفضل في المدينة، فجعلهم مجلس شوراه، فكان لا يقطع أمرًا إلا بمشورتهم، وتمسك بذلك في كل الأمور وفي كل الأوقات.

وصار عمر - في سرعة فائقة - مهوى أفئدة النـــاس وموضـــع حـــبهم العميق، ذلك لأنه لم يلتمس مجده في صلف المنصب وجبروته، بل في **تواضعه الشديد للناس، وفي العدل يتحراه ويقيم موازينه بالقسط، والرحمة ينشر ظلّهـــا في كل مكان من ولايته.**

وعزل عمر القاضي، لأنه كان فاسد الذمة، وكان لا يحكم بالعدل بل بما يرضي الأمير، **وعيَّن قاضيًا جديدًا ورعًا من علماء المدينة**.. قائلاً: «لا ينبغي للمرء أن يكون قاضيًا حتى يكون فيه خمس خصال! أن يكون عالمًـــا قبـــل أن يُستعمل، مستشيرًا لأهل العلم، ملقيًا للطمع، منصفًا للخصم، مقتديًا بالأئمة». وقد حرَّج عليه أن يحكم في حالة الغضب أو القلق أو التعب، وأمره ألا يقطع في أمر قضية حتى يسأل سعيد بن المسيب ليدله على رأي عمر بن الخطاب فيها أو في أشباهها.. فيعمل بالقياس، وقال له: «الأمور ثلاثة: أمر استبان رشـــده فاتبعـــه، وأمر استبان ضره فاجتنبه، وأمر أشكل أمره فردّه إلى الله».

وأراد الحجاج أن يرد كيد عمر، فأرسل إلى الوليد يخبره أن خبيب بـــن عبد الله بن الزبير، يُعد للثأر لأبيه، وللوثوب على الملك، وعمر بن عبد العزيـــز على الرغم من ذلك يوادعه!! فغضب الوليد، وأرسل إلى عمر يأمره أن يضرب خبيب، ويصب على رأسه ماءً باردًا (وكان ذلك في الشتاء البـــارد). واســـتجابة لهذا الأمر، أمر عمر بضرب خبيب خمسين سوطًا، وصب علـــى رأســـه مـــاءً باردًا، ووقفه على باب المسجد، فمات من يومه.

وحين أبلغوا عمر خبر موته، نزل الخبر عليه كالصاعقة، وغشّاه حزن شديد، فأغلق على نفسه باب داره سبعين يومًا، لابسًا مسوحًا سوداء، ضارعًا إلى الله أن يغفر له ويعفو عنه. **وكشف له هذا الحادث عن خطر السلطة والإمـــارة، وتذكر قول الرسول: «إنها في الدنيا إمارة، وإنها يوم القيامة خزي وندامـــة.. إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»**. رأى كيف وهـــو يتحـــرى العـــدل والرحمة أعظم التحري، قد ورطته السلطة في آثامها. **وظل طوال حياته بعـــد ذلك لا ينسى حادثة خبيب هذه، لدرجة أنه وهو خليفة كان يطيل البكاء، فيقول له المقربون: فيم بكاؤك وقد وفقك الله لعمل أهل الجنة؟! فتزداد دموعه انهمارًا ويقول: وكيف بخبيب؟ وكيف بخبيب؟ ثم يصيح كالثكلى: إن نجوت من خبيـــب فأنا بخير!!**

وترك عمر الحجاز في عهد ابن عمه الوليد، ومن بعد عمـــل مستـــشارًا

لسليمان بن عبد الملك، وكان يقيم في دمشق.

ولما كان سليمان بن عبد الملك في مرض الموت، نظر فوجد أولاده ما زالوا صغارًا، فأوصى بالخلافة من بعده (في كتاب سري) لعمر بن عبد العزيز، وبعد وفاته تم إعلان مضمون الكتاب، وكانت مفاجأة لعمر بن عبد العزيز.. لم يسعد بها. وفي صباح اليوم التالي دخل عمر المسجد وصعد المنبر وخطب الناس:

«أما بعد، فقد ابتليت بهذا الأمر على غير رأي مني فيه، وعلى غير مشورة من المسلمين.. وإني أخلع بيعة من بايعني.. فاختاروا لأنفسكم». ولعله قدَّر أن المفاجأة ستذهل الناس، فتعقد ألسنتهم عن الكلام ولو للحظات، يستطيع هو من خلالها أن ينجو بنفسه، مبررًا صمتهم بقبول تنازله! بيد أنه لم يكن يفرغ من نطق هذه العبارة: فاختاروا لأنفسكم.. حتى كان المسجد يهتز بدمدمة رهيبة، أطلقتها الحناجر الصائحة الصادحة: بل إياك نختار، يا أمير المؤمنين!

واندفعت الجموع التي بداخل المسجد، والجموع التي كانت خارجه، صوب المنبر الذي كادت تصهره أنفاسهم الحارة، وهبط درج المنبر، محاولاً أن يجد له وسط الجموع طريقًا. **وكانت مبايعة كاملة في المسجد، أعادت إلى الأذهان المبايعات الصادقة للخلفاء الراشدين، وراح هو يجهش بالبكاء.**

عمر خليفة للمسلمين (من ٩٩-١٠١هـ)

وبدأ عمر يقوم بمسئوليات الحكم، ولا يكاد يضع قدميه على الطريق، حتى يرى موكبًا فخمًا من الجياد المطهمة، تتوسطها فرس زُينت كالعِروس، ليمتطِي الخليفة ظهرها، فيسأل مستنكرًا: ما هذه؟ فيجيبونه: هذه جياد لم تُركب قط، تعد لموكب كل خليفة جديد، فينادي عمر: يا مزاحم (وهو تابعه): ضُم هذه إلى بيت المال.

وفعل نفس الشيء بالنسبة لسرادق أُعد لاستقباله، وثياب جديدة يلبسها الخليفة الجديد، كلها يضمها إلى بيت المال. ثم يُعرض عليه الجواري ليختار منها وصيفات قصره، فينهض فزعًا، ويقبل عليهن واحدة واحدة يسألها عن اسمها وبلدها، بعدها يطلب إرجاع كل واحدة منهن إلى بلدها وذويها.

تروي زوجته فاطمة بنت عبد الملك هذه الواقعة:

«دخلت عليه يومًا وهو جالس في مصلاه، واضعًا خده على يده ودموعه تسيل، فقلت له: ما بالك؟ وفيم بكاؤك؟ فقال: ويحك يا فاطمة! **إني قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت، ففكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، واليتيم المكسور، والمظلوم المقهور، والغريب، والأسير، والشيخ الكبير، والأرملة الوحيدة، وذي العيال الكثيرة والرزق القليل.. وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة، وأن خصمي دونهم يومئذٍ محمد ﷺ، فخشيت ألا تثبت لي حجة، فلذلك أبكي».**

الخليفة الزاهد:

هناك عبارة يرددها مؤرخو سيرة عمر بن عبد العزيز، تستوقفنا كثيرًا، وتبهرنا كثيرًا، أما العبارة فهي:

«ثم بويع عمر بن عبد العزيز.. فقعد للناس على الأرض».

إن هذه العبارة الموجزة، كما يقول الأستاذ خالد محمد خالد تفتح بصائرنا على قوة «القداسة» التي أنعم الله بها على عبده الصالح عمر بن عبد العزيز، ولما كان جوهر السلطة في نظر القداسة، الخضوع المطلق لحقوق الناس الذين يلي الخليفة أمرهم، ويحمل مسئولية مصائرهم، فإن مكانه إذًا أن يكون بين أيديهم، وليسوا هم الذين بين يديه.. والشكل الذي رآه عمر ملائمًا للتعبير عن هذه الحقيقة، هو جلوسه للناس على الأرض.

أجل.. ليس مجرد الجلوس على الأرض، الأمر الذي كان يعنيه، إنما هي الحقيقة المجيدة التي يمثلها هذا الجلوس.. حقيقة أن السلطة خضوع كامل لحقوق الناس تجاهها..!! ومن أجل هذا قعد الخليفة على الأرض، لا يفصله عن ترابها سوى حصير متواضع. قعد على الأرض، ليهدم كل ما للسلطة من بذخ واستغلال، ولينزلها عن عرشها الصلف، وكبريائها الزائف، إلى أرض البساطة، والتواضع، والمرحمة.

وبمجرد أن تولى الخلافة، غادر أمير المؤمنين عمر قصور الخلافة، وأوى إلى دار متواضعة، لا تشهد إيقاد النار إلا لماما، وأخذ على نفسه عهدًا ألا يستحدث لنفسه شيئًا من عَرَض الدنيا ومتاعها حتى يلقى ربه.

وتفتحت بصيرته على الحقيقة العارية، أن الثراء الفاحش الذي يرفل فيه أمراء بني أمية- وهو معهم- لم يبلغوه بعرق الجبين، وما هذه الثروة المتمركزة في أيدي حفنة من الأمراء، إلا حقوق الملايين من أفراد الشعب، سلبت منها بغير حق.

ومن ثم اتخذ قراره الحاسم بإلغاء كافة مخصصات الأمراء، ومخصصات حرسهم وخدمهم، وقراره بنزع الإقطاعيات الزراعية منهم جميعًا، وردها إلى بيت المال، وبدأ بنفسه فتخلى عن جميع أملاكه وأمواله، حتى أرض فدك في خيبر، وكانت خير ممتلكاته وأثمنها، ولم يكن أحد أقطعه إياها وإنما ورثها عن أبيه، وكتب لواليه على المدينة يأمره أن يضمها لملكية الدولة، وأن يصرف ريعها ونتاجها.. حيث كان يصرف على عهد الرسول وخلفائه، واكتفى لنفسه بقطعة أرض صغيرة كان قد اشتراها بحر ماله، ولم تكن تغل أكثر من مائتي دينار في العام، راح يعيش بها هو وأسرته الكبيرة، بل ويعطي منها للفقراء والمعوزين. وهنا موضع الدهشة! مائتا دينار في العام، لرجل كان دخله منذ أيام لا غير أربعين ألف دينار.

ونظر إلى ما تقتنيه زوجته فاطمة من مال وحلي وجواهر، وصلتها من والدها الخليفة عبد الملك بن مروان، فاقتنع أنها كلها جاءت من مصدر غير مشروع، فقال لزوجته: وهي بنت خليفة، وزوجة خليفة، وأخت خلفاء: «إن أردتني يا فاطمة.. فردي ما معك من مال وحلي وجواهر إلى بيت المال فإنه للمسلمين، وإني لا أجتمع أنا وهو في بيت واحد، فردّته جميعًا. ومن عجب أنه لما تولى أخوها يزيد، بعد وفاة زوجها عمرٍ، رد عليها جواهرها، فلم تأخذها وقالت: «ما كنت لأطيعه حيًّا.. وأعصاه ميتًا»، ففرقها على نسائه وجواريه.

الخليفة العادل :

الحق.. العدل.. الإنصاف.. المساواة بين الرعية.. رفع الظلم.. محو الباطل.. الاستماع إلى الشكاوى، كلها كلمات مضيئة، تحمل أسمى المعاني، وأرفع المضامين، وقد تجمعت كلها حول عمر بن عبد العزيز، وأصبح بحق يتصف بها جميعًا. وكانت فترة حكمه من أزهى عهود التاريخ.

وبين يدي عزمه القدير، راحت كلماته تقرع أسماع الظالمين.. حيث يقول: «والله لو لم ينهض الحق ويدحض الباطل إلا بتقطيع أوصالي وأعضائي، لأمضيت ذلك وأنا سعيد». «والله لو لبثت فيكم خمسين عامًا، ما أقمت إلا ما أريد من العدل».

كتب إليه واليه على خراسان- في أقصى شرق الدولة- يستأذنه في أن يرخص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها، قائلاً في رسالته للخليفة: «إنهم لا يصلحهم إلا السيف والسوط».

فكان رد عمر التقي الحازم: «كذبت.. بل يصلحهم العدل والحق، فابسط ذلك فيهم، واعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين».

ويتضح الهدف الأسمى الذي كان يرمي إليه عمر من كتابه إلى عماله الذي جاء فيه:

«لابد لكل رجل من مسكن يأوي إليه، وخادم يكفيه، وفرس يجاهد عليه، وأثاث في بيته، فإذا كان غارمًا (أي مدينا) فاقضوا عنه ما عليه من دين».

وهذا هو التطبيق السليم لشريعة الإسلام، فالإسلام لا يوفر للفرد حد الكفاف، أي ما يكفيه ليومه من ملبس ومأكل، وإنما يوفر للناس حد الكفاية.. كما جاء في كتاب عمر. ولما توفرت الأموال في بيت المال أصبح من الممكن سداد الدين عن كل مدين.

هذه هي تعاليم الإسلام.. بل هذه هي روعة الإسلام، وعظمة الإسلام.

وظل عمر أيامًا وشهورًا، لا يمضي يوم إلا تلقى فيه شكوى من مظلوم سلبه أحد أفراد بني أمية حقًا!!

جاء رجل بعد صلاة الجمعة فقال: يا أمير المؤمنين أعنّي على هذا، وأشار إلى رجل بناحية المسجد، فإذا هو أحد أقارب عمر من بني أمية، قال عمر: فيم؟ قال الرجل: أخذ أرضي وضرب ظهري، فدعا به عمر فقال: ما يقول هذا؟ قال: صدق، إنه كتب إليّ الوليد بن عبد الملك بهذا، وطاعتكم فريضة. قال عمر: «كذبت، لا طاعة لنا عليكم إلا في طاعة الله». وردَّ الأرض المغتصبة على صاحبها، وسأله إن كان يريد أن يقتص ممن ضربه: سوطًا بسوط، ولكن الرجل عفا في فرحة بعودة أرضه إليه.

ومن أمارات عدله وإنصافه أنه قرر أن ينصف بني هاشم، بعد أن حُرموا من العطاء منذ عهد معاوية، فرأى باجتهاده.. وبعد مدارسة الفقهاء، أن لهم حق أولي القربى- وهم أولو قربى الرسول- وهذا الحق يعطيهم خمس الفيء.

وحسبوا قدر العطاء الذي حرموا منه منذ عهد معاوية فوجدوه آلافًا مؤلفة. وكان بنو هاشم أيضًا قد بلغ تعدادهم عشرات الألوف انتشروا في الأمصار. فأمر عمر بحصرهم.. وإيتاءهم حقوقهم حيث كانوا. فنال كل واحد منهم خمسين دينارًا، وبنو أمية لا ينال الواحد منهم غير عشرة دنانير.

ثم إنه زيادة عن دفع الظلم عن آل البيت صعد المنبر، وأعلن أنه يمنع خطباء المساجد في كل أنحاء الدولة من سب عليّ وفاطمة، في نهاية خطبة الجمعة، وأمرهم أن يضعوا آخر الخطبة مكان السب، الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

ذلك أن معاوية بن أبي سفيان كان هو وولاته على البلاد، يسبُّون عليّ بن أبي طالب على المنابر آخر الخطبة كل يوم جمعة، وعُتب على معاوية في ذلك، وأنكره عليه جماعة، فامتنع من تركه وقال: «والله ما تركته حتى يكبر عليه الصغير، ويشيب عليه الكبير، فإذا ترك قيل تركت السنة». فاستمر الحال على ذلك مدة خلفاء بني أمية.. حتى تولى الحكم عمر بن عبد العزيز.

وقد رثاه لذلك واحد من آل البيت.. هو الشريف الرضي بقوله:

يا ابن عبد العزيز لو بكت	العين فتى من أمية لبكيتك
أنت أنقذتنا من السب	والشتم فلو أمكن الجزاء جزيتك

ومع أهل الذمة من اليهود والنصارى عاد عمر إلى أصول الحكم التي وضعها الإسلام، استنادًا إلى أن الرسول في أكثر من حديث طالب بحسن معاملة أهل الذمة، وعليه فقد قرر عمر أن يجعل لجميع من يعيش في أرض الإسلام حقوقًا وواجبات متساوية.. شأنهم في ذلك شأن المسلمين، وأحيا القاعدة التي تقرر لأهل الذمة بأن «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».

ولما كانت أحكام الدين تقضي برفع الجزية عمن أسلم من أهل الكتاب، فكان من الواجب تطبيق هذه القاعدة على طول الخط، وفي جميع العهود، إلا أن الدولة الأموية أبت تطبيق شرع الإسلام، وأبقت الجزية فوق كواهل الذين أسلموا، مسوغة ذلك بأنهم إنما أسلموا فرارًا من الضريبة، ويجيء الخليفة العادل فيرفض هذا التسويف الزائف.

وكانت سياسة الأمويين قبله تقوم على التفرقة بين العرب والموالي، فكانوا يرفعون من شأن العرب، ويحطون من شأن الموالي وهم أهل البلاد المفتوحة الذين أسلموا ومعظمهم من فارس، بل إنهم كانوا يعتبرون العرب طبقات، الطبقة الأعلى والأعز هم بنو أمية، يليهم غيرهم من قريش، ثم باقي العرب. ولا شك أن هذه التفرقة تتعارض مع أحكام القرآن الكريم والسنة المشرفة، لذا فإن عمر عاد إلى القاعدة الشرعية التي التزمها الخلفاء الراشدون،

والتي تتبني على ما ورد في القرآن الكريم ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ، وما ورد في السنة المشرفة: «الناس سواسية كأسنان المشط، وأن لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى». وقد طبق عمر سياسة المساواة بين الجميع.. بغض النظر عن الأصل أو الجنس أو اللون، ووضع عن الموالي إصرهم، وصحح وضعهم، ورفع عنهم الضرائب التي كانت ترهق كاهلهم، وسادت المساواة بين الجميع، والوحدة بين كافة طوائف الدولة.

الخليفة الراشد :

في الحق أن عمر بن عبد العزيز بالغ في الزهد والتقشف والصلاح، ليستنقذ الأمة من إسراف الذين سبقوه، ومن الوقوع في هاوية الفساد والمظالم، ومن الانغماس في أنواع الترف والمتاع.

وقد استقر في عقول الصالحين أن عمر بن عبد العزيز قد بعثه الله تعالى على رأس أول مائة عام من الهجرة.. ليجدد لهذه الأمة دينها، مصداقًا لقوله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة.. من يجدد لها دينها».

واستقر في عقول الصالحين أن عمر بن عبد العزيز قد وصل في صلاحه واستقامته إلى مستوى الخلفاء الراشدين، وأطلقوا عليه «الخليفة الخامس».. بعد أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي.. رضي الله عنهم أجمعين.

وإذا تتبعنا كتبه إلى ولاته.. لوجدنا من آيات يقظته وشمول نظرته وفطنته ما يبهر الألباب، ولنقرأ معًا بعض فقرات منها:

- اتبعوا ما أحلَّ الله.. وحرموا ما حرَّم.. واعترفوا بحقه تعالى، واحكموا بما أنزل.
- افتحوا للمسلمين باب الهجرة.
- دعوا الناس يتجروا بأموالهم في البر والبحر، لا تحولوا بين عباد الله ومعايشهم..
- كافحوا التطفيف في المكيال، والبخس في الميزان.
- لا تتجروا وأنتم ولاة، فإن الأمير إذا اشتغل بالتجارة استأثر، وأصاب ظلمًا، وإن حرص ألا يفعل.
- لا تأخذوا من أموال الناس إلا الحق الذي شرعه الله، وما عدا ذلك فدعوه كله.. لا أفرق بين مسلم وأهل كتاب..

- ضعوا السخرة عن الناس، وليكن لكل عمل أجره.
- لا تتخذوا على أبوابكم حجابًا يمنعون ذوي الحاجات والمظلومين.
- اقمعوا صوت العصبية والقبلية، ولا تدعوا الناس يقول أحدهم أنا مضري، ويقول الآخر أنا يمني، فالمؤمنين إخوة..
- قاتلوا هواكم.. كما تقاتلون أعداءكم.
- تحروا الحق، ثم اعملوا به بالغًا ما بلغ بي وبكم.. حتى وإن ذهب بحياتنا وبمهج أنفسنا.

(وفعلاً.. وبالتأكيد.. فإن عمر ظل يتحرى الحق، ويتمسك بنفاذه، حتى ذهب بحياته.. بسبب كراهية بني أمية له، وسخطهم عليه).

ولقد كان من حق حكام الأقاليم- قبل عهده- أن ينفذوا حكم القتل فيمن يشاءون، عدلاً.. أو ظلمًا..، فلما ولي عمر حرمهم هذا الحق، وأصدر أمره ألا ينفذ حكم القتل في أحد، حتى يطلع بنفسه على قضيته، ويرى فيها رأيه، وراح يتجنب كل عنف وقسوة قائلاً: والله لا أصلح الناس بهلاك ديني.

وقد كتب لواليه على اليمن: عروة بن محمد:

«أما بعد، فقد كتبت إليّ تذكر أنك قدمت اليمن، فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج ثابتة في أعناقهم كالجزية.. يؤدونها على كل حال، إن أخصبوا أو أجدبوا، إن حيوا أو ماتوا.

فسبحان الله رب العالمين! ثم سبحان الله رب العالمين!

إذا أتاك كتابي هذا، فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق، واعلم أنك إن لم ترفع إليّ من جميع اليمن إلا حفنة من كتم (بودرة رخيصة) فقد علم الله أني سأكون بها مسرورًا.. ما دام في ذلك إبقاء على الحق والعدل.

وقد اهتم عمر أكثر ما اهتم بنظام الحكم كما شرعه الإسلام، ودرس سُنّة الرسول في ذلك، فصمم على إحيائها بعد أن أماتها الحكام السابقون. واضعًا نصب عينيه أن الشورى كانت نظامًا يجري عليه عمل الرسول ﷺ ومن بعده الخلفاء الراشدون. فرأى أن يعود إلى إحياء الشورى، كما فعل عندما كان أميرًا على الحجاز، واعتبرها النظام الأساسي لسياسة الرعية، وقاعدة الحكم. ولقد أحاط نفسه بالأبرار الذين لا يخافون في الله لومة لائم، والذين لا يزيفون اقتناعهم، ولا يلبسون الحق بالباطل، وإن قطعت منهم الرقاب.

لذلك، وتمشيًا مع هذا المنطق.. فقد حسر ذلك المد الطغياني لدولة الشعر والشعراء التي كانت قائمة يومذاك، فقد اصطنع الأمويون الشعراء لتزييف الحق، وإنهاض الباطل، ولتمكين سلطانهم على حساب القيم والأخلاقيات، حتى لقد كانوا عقبة كؤدا في سبيل معرفة الحقيقة.

ولم يكن عمر يكتفي باستشارةٍ من هم بالقرب منه، بل كان ينشد مشورة أهل الصلاح والتقوى ولو بُعدت الشقة. فها نحن نراه يطلب المشورة والنصح من العابد الناسك: الحسن البصري، إذ كتب له يطلب النصح في صفات الإمام العادل.

وإنه ما من شيخ عرف عمر أنه مضطر إلى العمل ليعيش إلا جعل له عمر فريضة، وكفاه حاجته، ليحيا شيخوخة كريمة، وهي قاعدة- ولا شك- تضاهي أرقى نظم التأمينات الاجتماعية المعروفة في وقتنا الحاضر تحت عنوان: تأمين الشيخوخة.

وقد كان ﷺ مع وداعته وحلمه وتواضعه، شديدًا أيما شدة في الدفاع عن الحق، وفي نصرة الضعفاء، فإنه يتحول إلى إعصار مدمر أمام جبروت الباطل أنى يكون، وقد ظهر هذا جليًا في موقفه من إمبراطور الروم، فقد أخبر أن أحد جنود الجيش الذي كان يحاصر القسطنطينية، وكان مقاتلاً شديد البأس، قد وقع أسيرًا في أيدي الرومان، وحمل إلى الإمبراطور.. الذي حاولِ إكراهه على الخروج من دينه: الإسلام، ورفض الأسير، فأمر الإمبراطور أن تسمل عيناه. بلغ النبأ أمير المؤمنين، فهب حزمه الشديد ليعالج الموقف، فكتب إلى إمبراطور الروم رسالة قال فيها: «إني أقسم بالله.. لئن لم ترسله إليّ من فورك لأبعثن إليك من الجند ما يكون أولهم عندك وآخرهم عندي». فعاد الأسير إلى وطنه.

في الساعات الأولى من خلافته أصدر أمره للجيش الذي أنهكه حصار القسطنطينية بالعودة. وقد افتدى بعد ذلك جميع الأسرى على كثرتهم، وهيأ لهم السبيل للعودة إلى ديارهم ووطنهم. وقرر أن يضع حدًا لكل الأعمال العسكرية التي كانت تقوم بها الدولة، وأعلن أن الإسلام قد صار عزيزًا منيعًا بما تم له من فتوحات، وأن على جيش الدولة ألا يتحرك لقتال إلا دفاعًا عن حدود الدولة إذا هوجمت، وعن سلامة الأمة إذا تعرضت للأخطار.

واستعاض عن زحف الجيوش بأمور في غاية الأهمية منها:

(أ) الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، لا بالفتوحات والحروب ولغة السيف، وقد أثمرت هذه السياسة بدخول الكثيرين في دين الإسلام.. خاصة في الهند.

(ب) توجيه الأموال التي تخصص لإعداد الجيش وتسليحه وتموينه إلى الإصلاح الداخلي ورفع مستوى المعيشة.

(ج) الاهتمام بتحقيق الوحدة الوطنية، ونبذ الانقسام الداخلي، وإقناع الفئات الشاردة من الشيعة والخوارج والمعتزلة والقدرية وغيرها إلى الالتئام والاتحاد، عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة، وتبادل الاتصالات والحوارات.

وقد لاحظ عمر اختفاء بعض الأحاديث الصحاح واندثارها بموت حُفاظها، ورأى شيوع بعض الأحاديث المدسوسة على النبي ﷺ. فأمر بجمع الأحاديث والسنة الصحيحة، لأنه كان حريصًا على أن يلزم الرعية بالعمل بالسنة الشريفة. والواقع أنه أول من بذل محاولة جادة لجمع الأحاديث وتنقيتها، والوقوف على صحيحها وباطلها، وهو الذي فتح الطريق لمن جاءوا بعده من أمثال البخاري ومسلم وابن حنبل.

النهاية :

وبينما هو بين إنجازاته، وعظمة جهاده وبلائه، كانت هناك مؤامرة تُحاك، وجريمة تُدبر، هنالك دبروا مؤامرة، ودسوا له السم في الطعام، وانتهى بموته العصر الذهبي للدولة الأموية.

وتعاقب على الحكم بعده أفراد من بني أمية نبذوا سياسات عمر بن عبد العزيز، وعادوا إلى سياسات سابقيه، وأعادوا الممتلكات والأموال إلى الأمراء والمحسوبين، وحرمان الفقراء والمساكين والمحرومين والملهوفين، وكانت هذه السياسات وبالاً عليهم، وهلاكًا لهم(١).

---

(١) المرجع: كتاب ما بين العمرين: عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، تأليف محمد أحمد خضر.

الفصل الثاني
العصر العباسي الأول

لم يكن خلفاء الدولة الأموية يسيرون سيرة حسنة، ولم يكونوا يعملون بكتاب الله وسنة رسوله، وإنما كان كل همهم الرئاسة والعظمة والإثراء على حساب الكادحين من أفراد الشعب.

وقد تجمعت أسباب حطت من قدر الأمويين وزلزلت الأرض تحت أرجلهم، وأنزلتهم من عروشهم، وهذه الأسباب هي:

١- التفرقة بين العرب والموالي: فقد كانت سياسة الأمويين تقوم على التفرقة بين العرب والموالي- كما سبق لنا القول- فكانوا يرفعون من شأن العرب، ويحطون من شأن الموالي، وهم أهل البلاد المفتوحة الذين أسلموا.. ومعظمهم من فارس، بل إنهم كانوا يعتبرون العرب طبقات، الطبقة الأعلى والأعز هم بنو أمية، يليهم غيرهم من قريش، ثم باقي العرب. وهي تفرقة تتعارض مع أحكام القرآن الكريم وسنة نبيه الكريم، وعمل الخلفاء الراشدين.

٢- خلافة عمرِ بن عبد العزيز (من ٩٩-١٠١) التي أشاعت العدالة، وملأت النفوس اطمئنانًا، وتذوق الناس طعم الحرية، وأفاقوا على حقوقهم التي سلبها الأمراء الأمويون، وهيأت للمعارضة أن تتكلم دون خوف.

٣- مقتل الإمام الحسين- عترة رسول الله ﷺ- بأيدي الأمويين، الذين حاصره جنودهم عند كربلاء، وطلبوا منه أن يستسلم ويبايع يزيد بن معاوية بالخلافة، ولما رفض قتلوه، وقضوا على ذرية رسول الله ﷺ وذوي قرباه، ولمَّا يمض على وفاة الرسول ﷺ أكثر من خمسين عامًا. وقد استشهد يوم الجمعة الموافق للعاشر من المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة، وكان عمره إذ ذاك ٥٦ عامًا وقيل ٥٨ عامًا. وقد قامت ثورات في مكة والمدينة احتجاجًا على مصرع الحسين، أخمدها الأمويون بالعنف والقوة المسلحة، فازداد الناس في الحجاز كراهية لبني أمية، ثم قامت ثورة التوابين في العراق انتقامًا لمقتل الحسين. ومن جديد ظهر زعيم للتوابين هو «المختار بن أبي عبيد الثقفي» سنة ٦٦هـ، الذي استطاع أن يجمع الشيعة من جديد، وأرسل إلى الكوفة جيشًا بقيادة «إبراهيم بن الأشتر» لقتال ابن زياد (الحاكم الأموي الذي أمر بقتل الحسين)، والأخذ بثأره، وسار إبراهيم حتى لقي ابن زياد في جيشه، واستطاع ابن الأشتر أن يضرب ابن زياد ضربة شطرته نصفين، وكان يوم قتله هو العاشر من المحرم.. وهو اليوم الذي استشهد فيه الإمام الحسين قبل خمس سنوات.

ولم يترك المختار واحدًا ممن اشتركوا في قتل الحسين إلا أسقاه الردى بعد تعذيبه والتنكيل به. واستمرت الشيعة تكبر ويزداد عدد أعضائها في انتظار يوم الانقلاب على السلطة والتخلص من بني أمية.

٤- تذكير المسلمين بفضل آل البيت، وضرورة حبهم والالتفاف حولهم ومناصرتهم، بعد كل ما لقوه من عسف وضغط وإذلال وتقتيل من بني أمية.



انتقال الخلافة إلى العباسيين :

العباسيون هم سلالة العباس عم النبي ﷺ، وهم لم يسعوا إلى الخلافة بداية، ولكنهم كرسوا جهودهم لمناصرة أبناء عليّ وتمكينهم من الوصول إلى الخلافة.. لأنهم أحق بها من معاوية وذريته. وكان العباس شديد الرغبة في أن تؤول الخلافة إلى عليّ بن أبي طالب بعد وفاة الرسول ولم يطلبها لنفسه، وقد سار ابنه عبد الله بن عباس على نهج أبيه في الإيمان بحق عليّ ابن أبي طالب بالخلافة.

وتابع عليّ بن عبد الله بن العباس السير على سياسة جده في تأييد أبناء عليّ، والانصراف إلى حياة العلم والعبادة.

وساند عليّ العباسي أبناء عليّ وعلى رأسهم أبو هاشم بن محمد بن الحنفية الذي ظهر على مسرح السياسة آنذاك بشكل سري. ونجح أبو هاشم في بث دعوته لأبناء علي بن أبي طالب عن طريق الدعاة الذين أرسلهم إلى الكوفة مهد التشيع لأبناء عليّ، بعد مقتل الحسين، وكذلك خراسان بأرض شرق فارس، حيث الموالي الحاقدين على البيت الأموي.

ولما أحسّ أبو هاشم بدنو أجله بعد دس السم له من قِبَل الأمويين، تنازل عن حقه في الخلافة إلى علي العباسي، وكان هذا التنازل نقطة تحول في التاريخ الإسلامي، إذ بدأ العباسيون يعملون على نقل الخلافة إلى بيتهم بعد أن كان نشاطهم من قبل قاصرًا على مناصرة ذرية عليّ ابن أبي طالب. وبعد وفاة علي العباسي انتقلت القيادة إلى ابنه محمد، الذي خلفه إبراهيم.

وقد خطا إبراهيم خطوات واسعة في سبيل تحقيق أهداف العباسيين، فجعل أحد الموالي وهو «**أبو سلمة الخلال**» على الكوفة، وجعل على خراسان من يُعرف باسم «**أبي مسلم الخراساني**». ولما علم إبراهيم أن الأمويين يضيقون عليه الخناق، وأن مصيره إلى القتل، أوصى إلى أخيه أبي العباس بالإمامة.

وقد وجه أبو العباس السفاح جهوده عقب مبايعته بالخلافة للقضاء على مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، إذ التقت جيوش العباسيين الوافرة العدد

بقيادة أبي مسلم الخراساني بجيوش الأمويين بقيادة مروان بن محمد، وذلك عند نهر الزاب الأعلى وهو أحد فروع دجلة بالقرب من الموصل، ودارت رحى معركة حامية الوطيس في آخر شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٢هـ/ يناير ٧٥٠م انتهت بهزيمة مروان بن محمد، ثم انتهى الأمر بفرار مروان إلى مصر، وتمكنت القوات العباسية من متابعة مسيره والقبض عليه عند قرية بوصير قرب الفيوم وقتله في شهر ذي الحجة سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، وتم إرسال رأس مروان ابن محمد ومعها شارات الخلافة إلى أبي العباس السفاح، اعترافا بقيام الدولة العباسية الجديدة.

تأسيس الدولة العباسية :

تولى أبو جعفر المنصور مقاليد الخلافة العباسية سنة ١٣٦هـ/٧٥٤م، وذلك بعد وفاة أخيه أبي العباس السفاح. ويُعد أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، ويرجع السبب في ذلك إلى الجهود التي بذلها أبو جعفر المنصور لتدعيم الأسرة العباسية في الحكم، وإعلاء شأن الخلافة، وإعطاء الدولة الجديدة الهيبة والإجلال في الداخل والخارج.

وتجلت جهود أبي جعفر المنصور في إعلاء شأن الخلافة في القضاء على أبي مسلم الخراساني، ذلك القائد الذي استبد به الزهو، بسبب الدور الذي أسهم به في قيام الدولة العباسية. وكان أبو جعفر يرى أن خلافته وخلافة أسرته من بعده مهددة بالزوال طالما كان أبو مسلم حرًا طليقًا، ومن ثم أمر سنة ١٣٧هـ، بقتل هذا القائد الواسع الأطماع، وصار الخليفة يعتبر نفسه بعد ذلك الحاكم الفعلي للبلاد.

وقام أبو جعفر المنصور بتأسيس مدينة بغداد سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م، واتخاذها عاصمة له، وكانت قرية صغيرة على نهر دجلة، وقد جاء بناؤها على شكل مستدير، وكان لها أربعة أبواب وعلى أبعاد متساوية.

وزاد في منعة خط الحدود بين المسلمين والبيزنطيين أنه كان يتكون من جباس طوروس والجبال التي تليها، فبادر إلى تقوية خط الحدود هذا، ودعم الحصون العديدة التي يضمها هذا الخط الدفاعي.

وقد اشتهرت الدولة العباسية من بين الدول التي عرفها التاريخ الإسلامي بأنها أطول عمرًا، وأشدُّها صراعًا من أجل البقاء والحياة، فقد تبوأ بنو العباس عرش الخلافة سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م. وبلغ عدد خلفاء بني العباس نحو ٣٧ خليفة. ويرجع السبب في تلك الظاهرة التي انفردت بها الدولة العباسية إلى أنها

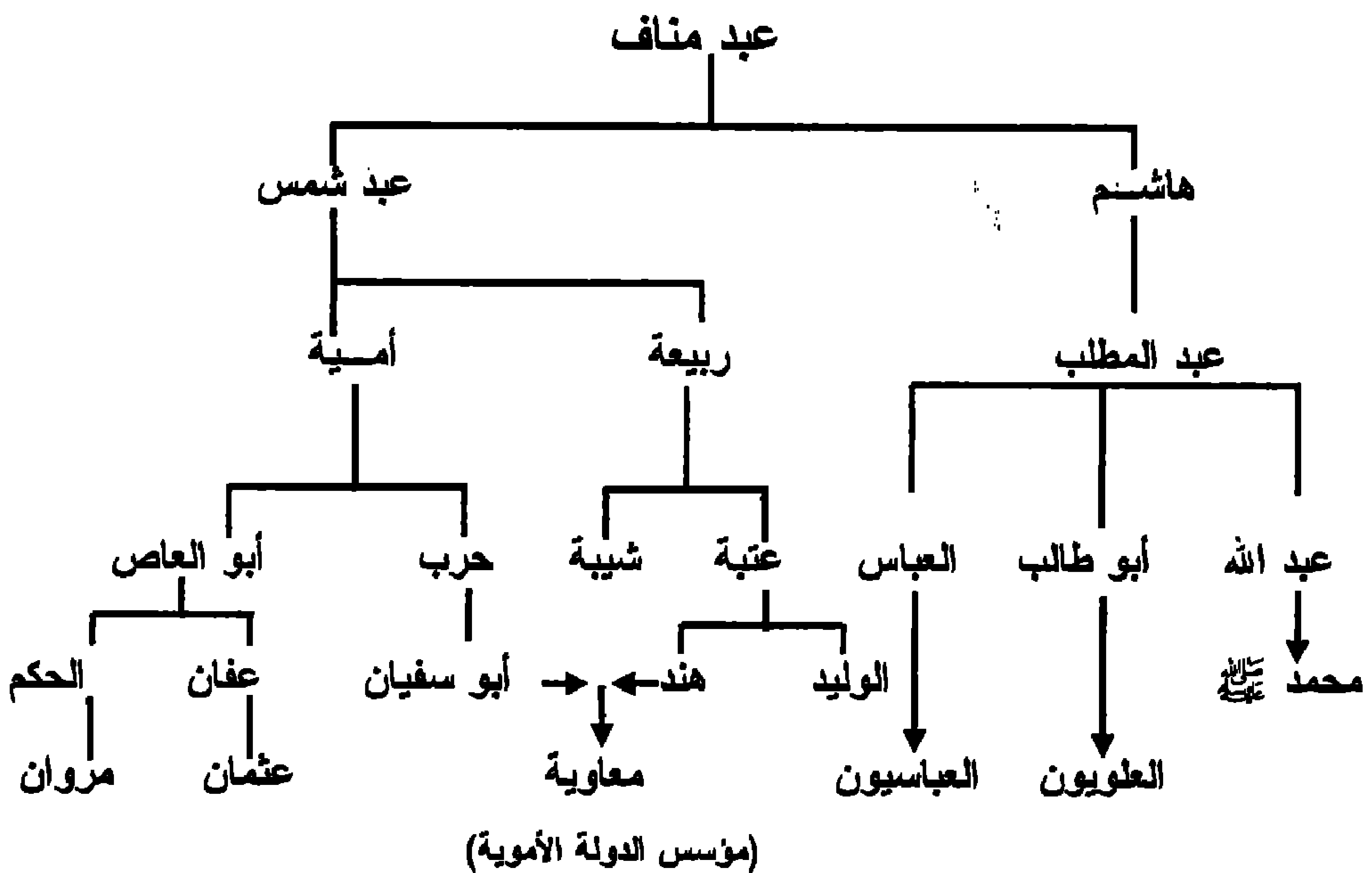
قامت باعتبارها خير تمثيل لفكرة الخلافة ولشعائر السلطة الدينية، وذلك على حين كان مُلك بني أمية مُلكًا دنيويًا.

وقد انقسمت الدولة العباسية إلى عصرين، لكل منهما مميزاته وسماته.

أما العصر العباسي الأول: فهو يشتهر في التاريخ الإسلامي بأنه العصر الذهبي للدولة العباسية، ويشتمل العصر العباسي الأول على عهود تسعة خلفاء، يبدأ حكمهم بأبي العباس السفاح، وينتهي بتاسع الخلفاء العباسيين وهو الواثق الذي توفي سنة ٢٣٢هـ/٨٤٧م.

ويبدأ العصر العباسي الثاني بخلافة المتوكل سنة ٢٣٢هـ/٨٤٧م، وينتهي بالخليفة السابع والثلاثين وهو المستعصم؛ الذي لاقت الدولة العباسية نهايتها مع نهايته على أيدي المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، واتسم هذا العصر العباسي الثاني بالتدهور المستمر في سلطة الخلفاء العباسيين، وما اقترن بذلك من أخطر ظاهرة أصابت العالم الإسلامي.. وهي ظاهرة الانقسام والتفتت.

ونقدم هنا مخططًا لأحفاد عبد مناف الذين كونوا الأسر التي حكمت الدولة الإسلامية في عصورها الأولى:



مخطط لأحفاد عبد مناف الذين كونوا الأسر التي حكمت الدولة الإسلامية في عصورها الأولى.

منجزات الدولة العباسية :

تمكن خلفاء العصر العباسي الأول من تحقيق أربع منجزات كبرى، هي:

١- تأكيد شرعية الخلافة العباسية وإقامة الحكم الإسلامي، والقضاء على المحاولات التي استهدفت النيل من تلك الخلافة وسلطانها.

٢- إقامة حكم إسلامي، توافرت فيه المساواة بين جميع شعوب الدولة الإسلامية.

٣- تأمين حدود الدولة العباسية ضد الإمبراطورية البيزنطية.

٤- رعاية الحضارة العربية الإسلامية، وإتاحة كافة الفرص أمامها للازدهار والانتشار.

وكانت أهم الإغارات التي قام بها **هارون الرشيد** على الإمبراطورية البيزنطية تستهدف تأديب السلطات الحاكمة فيها على رفضها أداء الجزية التي كانت تدفعها سنويًا لبغداد، إذ كتب الأمير البيزنطي، وهو نقفور، كتابًا إلى هارون الرشيد يطلب فيه إعادة الأموال التي كانت تدفعها الإمبراطورة إيريني، وكانت قائمة على شئون الإمبراطورية قبل نقفور. وجاء خطاب الإمبراطور إلى الرشيد جافًا، بعيدًا عن الذوق السليم. وقد أعد الرشيد جيوشه لتأديب هذا الإمبراطور، وبعث إليه بهذا الكتاب الشهير: «بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم: قرأت كتابك.. والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام». وانتهت إغارة الرشيد على الأراضي البيزنطية بحمل الإمبراطور على إعادة دفع الجزية إقرارًا منه بقوة الخلافة العباسية، وأنها صاحبة الكلمة العليا في الخارج.

وتابع خلفاء العصر العباسي الأول سياسة هارون الرشيد في تأديب الإمبراطورية البيزنطية.. كلما أرادت أن تشق عصا الطاعة، أو تعمل على النيل من هيبة الخلافة العباسية، وجاء خير مثال على قوة الخلافة العباسية زمن **الخليفة العباسي: المعتصم**(١).

وفي غمرة أحداث وثورات محلية بالمنطقة أراد إمبراطور الروم ثيوفيل أن يستغل الفرصة، وينتقم ويحرز انتصارًا على المسلمين، فاتخذ «زبطرة» مسقط رأس المعتصم هدفًا لهجومه، ويحدثنا ابن الأثير في كتابه «الكامل»

---

(١) د. إبراهيم العدوي، مرجع سابق، ص٢٠٣.

فيقول: أنه قتل من بها من الرجال، وسبى الذرية والنساء، وأغار كذلك على «ملطية» وغيرها من حصون المسلمين، ومثّل بمن صار في يده من المسلمين، وسمل عيونهم، وقطع أنوفهم وآذانهم. وكان من بين من أسر من النساء امرأة هاشمية كبر عليها الضيم والقسوة، فصاحت: «وامعتصماه»، ونقل بعض الحاضرين خبر هذه الصيحة إلى المعتصم بأجاب: لبيك يا أماه. وسأل المعتصم: أيّ بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل: «عمورية»، لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام، وهي عين النصرانية، وأشرف عندهم من القسطنطينية، وهي مسقط رأس ثيوفيل، فتجهز المعتصم جهازًا لم يتجهزه خليفة قبله، وصار بنفسه ومعه خيرة قواده ورجاله سنة ٢٢٣هـ. ولم تستطيع عمورية أن تقف في وجه هذا الجيش القوي، فخرت صريعة، وثأر المعتصم لمن نكل بهم من المسلمين والمسلمات، وأكل اللهب هذه المدينة فلم يترك منها إلا حطاما، وتم تحرير أسرى المسلمين(١).

وقد خلّد الشاعر أبو تمام قصة هذه الواقعة في قصيدة قال فيها:

السيف أصدقُ أنباءً من الكتب ... في حدِّهِ الحدُّ بين الجدِّ واللعب

بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ في ... متونهن جلاءُ الشكِّ والرِيَبِ(٢)

رعاية الحضارة العربية الإسلامية وحقوق الإنسان:

- عوامل قيام الحضارة العربية(٣):

كان الاستقرار الذي حققه خلفاء العصر العباسي الأول لدولتهم في الداخل والخارج، هو القاعدة العريضة التي قامت عليها الحضارة العربية، وما

---

(١) د. أحمد شلبي في كتابه عن «الخلافة العباسية» وهو الجزء الثالث من موسوعة التاريخ الإسلامي، ص٢٥٨.

(٢) بيض الصفائح هي السيوف، وسود الصحائف يعني بها الكتب.

(٣) في هذا الجزء الخاص بالحضارة، تمت الاستعانة بمجموعة من المراجع من أهمها:

١- كتاب الدكتور إبراهيم أحمد العدوي بعنوان: تاريخ العالم الإسلامي.

٢- كتاب الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور بعنوان: حضارة الإسلام.

٣- كتاب الدكتور حسن إبراهيم حسن بعنوان: تاريخ الإسلام.

٤- كتاب الدكتور علي إبراهيم حسن بعنوان: التاريخ الإسلامي العام.

٥- كتاب الدكتور أحمد شلبي بعنوان: الخلافة العباسية.

حفلت به من شتى معالم التقدم الفكري والمادي. ثم إن خلفاء هذا العصر قد شملوا تلك الحضارة العربية النامية برعايتهم، وقدموا لها كل ما يكفل لها الازدهار والانتشار. وتمثلت تلك الرعاية في النواحي التالية:

١- توفير المال اللازم لما يتطلبه للتقدم العلمي والمادي في الدولة.

٢- ممارسة الحرية الفكرية.

٣- تيسير سبل المعرفة أمام جميع أبناء الدولة.

٤- اتخاذ اللغة العربية أساسًا لتلك الحضارة، والتعبير عن معالمها.

١- توفير المال اللازم :

كانت خزائن الدولة في العصر العباسي الأول هي المعين الذي استمدت منه الحضارة العربية نشاطها وقوتها على الانطلاق. وكانت خزائن العباسيين تفيض بما يرد إليها من أحمال الذهب والفضة من سائر أطراف الدولة. فكان دخل بيت المال سنويًا على عهد الرشيد نحو سبعين مليونًا من الدنانير، وبلغ من ثراء الرشيد حد أن ينظر إلى السحابة في السماء ويقول لها: اذهبي أنى شئت فسوف يأتيني خراجك. وقد خصص الخلفاء قدرًا كبيرًا من تلك الأموال للعلماء والأطباء والشعراء، وغيرهم من القائمين على نهضة العلوم والآداب والفنون. وقد كفلت هذه الأموال لأصحابها مئونة العيش في بحبوحة، وكان منهم كثيرون ينالون رواتب شهرية أو سنوية بشكل منتظم. وقد تبارى الخلفاء ووزراؤهم في هذا الإنفاق.. حتى بلغ الثراء بالعلماء درجة عالية.

وعندما كثرت أعداد العلماء في بغداد أنشأ لهم هارون الرشيد «**بيت الحكمة**» ليكون بمثابة أكاديمية علمية، وحرص على تزويد البيت بالكتب التي نُقلت من القسطنطينية ومصر والشام وغيرها. وفي بيت الحكمة عكف المترجمون على ترجمة أمهات الكتب في شتى العلوم والفنون إلى اللغة العربية، وازدادت عناية الخليفة المأمون ببيت الحكمة، فوسع من نشاطه، وأرسل البعوث إلى الخارج لاستحضار ما يمكن الحصول عليه من المؤلفات اليونانية.. في شتى أنواع المعرفة.

٢- الحرية الفكرية :

هيأ خلفاء العصر العباسي الأول للحضارة العربية كافة أسباب الحرية الفكرية أيضًا. ذلك أن الدولة العباسية ضمت شعوبًا ذات ماض عريق في

الحضارة، ولها اتجاهاتها الفكرية الأصيلة، ووجد الخلفاء العباسيون أن أمثل السبل لهضم هذه التيارات الفكرية العديدة هي إتاحة الحرية أمام أصحابها للتعبير عنها، واتخاذ تلك الحرية سبيلاً للإطاحة بالفاسد منها، وتنمية ما تثبت صلاحيته.

ولا شك في أنه كان للإسلام أثر بالغ في الحياة العقلية للمسلمين، وبفضله نشأت بين المسلمين من عرب وغير عرب وحدة فكرية رائعة، ومن آياتها علوم التفسير والحديث والفقه.

الفقه في الدولة الإسلامية العباسية :

اختلف أئمة الفقه في فهم النصوص الدينية واستنباط الأحكام منها، مما أدى إلى تعدد المذاهب الدينية. واشتهر من هذه المذاهب أربعة هي:

مذهب الإمام مالك (من ٩٥-١٧٩هـ): إمام أهل الحجاز، وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة أهل الحديث. وقد ظهرت في ميدان الفقه مدرستان: مدرسة أهل الحديث في المدينة، وعلى رأسها الإمام مالك.. الذي كان يأخذ بمبدأ التوسع في النقل عن السنة، ومراعاة سوابق الخلفاء الراشدين وعمل أهل المدينة، الذين عاصروا الرسول والخلفاء الراشدين. وقد وُلد مالك سنة ٩٥هـ/٩٧م، وتوفي سنة ١٧٩هـ. وقضى حياته في المدينة المنورة. وهو أول من كتب في العلوم الدينية في العصر العباسي، وكتابه «الموطأ» أول كتاب ظهر في الفقه الإسلامي وجمع الأحاديث، ومن كتبه «المدونة» وهي مجموعة رسائل من فقه مالك، جمعها تلميذه أسد بن الفرات النيسابوري. وممن اشتهر بالفقه من تلاميذه محمد بن الحسن في العراق، ويحيى بن يحيى الليثي في الأندلس.

الإمام أبو حنيفة (من ٧٠-١٥٠هـ): هو النعمان بن ثابت، فارسي الأصل، لُقب بالإمام الأعظم، وهو إمام الرأي في العراق، وبلغ منزلة في الفقه لم يصل إليها غيره، واشتهر بسعة علمه، وتوسعه في إعمال العقل، واستعمل القياس والاستحسان، ولم يؤثر عنه كتب في الفقه، ولكن تلاميذه وأتباعه هم الذين ألفوا في الفقه، ودونوا في مؤلفاتهم آراء الإمام وأقواله، وأصول المذهب الحنفي، وكان أوسع المذاهب انتشارًا، فقد كان هو المذهب الغالب في عهد الدولة العباسية. ويعتمد المذهب الحنفي على الأصول الآتية في استنباط الأحكام: الكتاب ثم السنة.. وبصفة خاصة المشهورة منها، ثم الإجماع ثم القياس، ثم الاستحسان والعُرف. ومن أشهر تلاميذه: أبو يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني، وسبق وذكرنا أنه رفض تولي القضاء، وبسبب رفضه ضُرب بالسياط.

الإمام الشافعي (من ١٥٠-٢٠٤هـ): هو أبو عبد الله محمد بن إدريس ابن العباس بن شافع، يجتمع مع رسول الله ﷺ في جده عبد مناف، وهو قرشي الأب والأم، ويُنسب إلى شافع جد والده، فيقال له «الشافعي»، واشتهر بذلك حتى غلب على اسمه. وقد جمع بين مدرستي النقل والعقل بما أوتي من سعة العقل والقدرة على الابتكار، وهو أول من تكلم في أصول الفقه، وأول من أخذ في وضع مبادئه. وقد نشأ في الحجاز، وزار اليمن، ثم توجه إلى العراق لمقابلة فقهاء مدرسة أبي حنيفة والتحاور معهم، وكان كثير المناقب، جم المفاخر، منقطع النظير. اجتمع له من علوم القرآن والسنة وغيرها من علوم الدين ما لم يجتمع لغيره، قال عنه أحمد بن حنبل: ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعي، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي؟ فإني سمعتك تكثر من الدعاء له، فقال: «يا بني.. كان الشافعي كالشمس للدنيا.. وكالعافية للبدن، هل لهذين من خلف أو عنهما من عوض؟!!».

ترك العراق سنة ٢٠٠هـ، وقصد مصر حيث مات بها سنة ٢٠٤هـ.

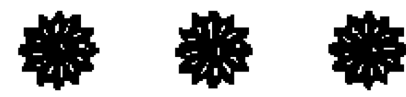
الإمام أحمد بن حنبل (من ١٦٤-٢٤١هـ): قال فيه الإمام الشافعي: «خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل» إلا أن مذهبه قليل الأتباع، وأكثرهم في الشام ونجد والبحرين. وقد شهد له أئمة عصره بالانفراد بالزهد والورع والتقوى. ويتصف المذهب الحنبلي بالتشدد في أمور العقيدة، ويتميز بأنه أبعد المذاهب عن الأخذ بالرأي، وأكثرها تمسكًا بالنصوص من الكتاب والسنة، وأنصار المذهب يأخذون بالحديث المرسل والحديث الضعيف ويقدمونه على القياس، ولا يأخذ بالقياس إلا للضرورة أي إذا لم يجد نصًا في الكتاب أو السنة. وله كتاب شهير هو «مسند ابن حنبل» جمع فيه قرابة أربعين ألف حديث.. في ستة أجزاء.

هؤلاء هم كبار الفقهاء أصحاب المذاهب الأربعة الكبرى، ويهمنا أن نشير- فضلاً عن هؤلاء- إلى اثنين كان كل واحد منهما عالمًا ضليعًا في الفقه هما:

الإمام أبو يوسف: وهو أبو يوسف يعقوب ابن إبراهيم، وكان مولده بالكوفة، ومن تلاميذه الإمام أبي حنيفة، وأصبح قاضي القضاة في بغداد في عهد الرشيد، وكان أول من تولى هذا المنصب، وأول من ألف في أصول الفقه على المذهب الحنفي، ومن أشهر مؤلفاته كتاب «الخراج».. الذي وضعه بناء على طلب الرشيد، وقد تأثر فقهه بعمله كقاض، فقد اهتم بالجانب العملي للقضايا

والأمور محل البحث، وتوسع في العمل بالاستحسان، وتغيـر الأحكـام بتغيـر الزمان. وله دور بارز في نشر المذهب الحنفي.

ومن أشهر فقهاء هذا العصر: **الليث بن سعد**: وُلد ببلدة قلقشنده بمـصر (في محافظة القليوبية)، واشتهر بالكرم والثراء، وبلغ دخله خمسة آلاف دينار في السنة.. كان يفرقها على أهل العلم من أصحابه، وقد أطنب العلماء في الإشـادة بعلمه، روي عن الشافعي أنه قال: أن الليث أفقه من مالك.. إلا أن أصحابه لـم يقوموا به (يقصد لم ينشروا علمه). وقال ابن وهب: ما رأينا أحدًا قط أفقه مـن الليث، كان الشافعي يتأسف على فوات لقائه، وتوفي الليث سنة ١٥٧هـ.



بعد هذا الاستطراد **نعود إلى موضوع حرية الفكر**، فنقول:

إن الإسلام يحث على النظر والتفكير في الكون الذي نعيش فيه، وفي ظـواهره المختلفة، فأدى ذلك إلى الاشتغال بالعلوم الكونية على اختلافها: وهي الجغرافيـا والكيمياء والفيزياء (الطبيعة) والفلك والطب والرياضيات، فالإسلام هو الينبـوع الأول والأعظم للثقافة الإسلامية، وهو الذي انطبعت حياة المـسلمين بطابعـه، سواء في ذلك نظمهم العامة والسياسية والإدارية والمالية، وأحـوالهم الخاصـة والعامة، وكذلك فنونهم وآدابهم.

وكانت مجالس الخليفة المأمون العباسي مثالاً عاليًا لهذه الحرية الفكرية، فقد كان هذا الخليفة مثقفًا ثقافة عالية، عميقًا في العلوم الدينية واللغوية، وبالفلسفة وعلوم الأمم العريقة في الحضارة، فجعل من مجالسه- في دار الخلافة- ندوات علمية، تتناول كل فروع المعرفة، وساحات للجدل والمناظرة، وكانت الحرية في تلك المجالس مكفولة لجميع الحاضرين، ويدلون بـآرائهم دون خـوف، وكـان سلطان العقل هو الحكم على صحة الآراء، ونبذ ما يتعارض منهـا مـع الـدين والعقيدة، أو ما يؤدي إلى الضلال.

وقد ظهر آنذاك الفلاسفة والمتكلمون نتيجة اتصالهم بـالفكر اليونـاني، ووقوفهم على كتابات وآراء فلاسفة اليونان، وكان أن استغل مفكرو المـسلمين أساليب فلاسفة اليونان في الجدل والمنطق، للرد على مجـادليهم مـن اليهـود والنصارى، وفي تفسير بعض آيات القرآن الكريم التي لم يكـن مـن الـسهل تفسيرها بغير هذا الأسلوب، وأدى ذلك إلى ظهور علم الكلام الذي يعتبر مدخلاً لظهور الفلسفة الإسلامية الحقة.

ومن أبرز فرق المتكلمين **جماعة المعتزلة**.. الذين أمعنوا في تحكيم العقل في المسائل الدينية، وخاصة ما يرتبط بصفات الله ﷻ وبخلق القرآن، وغير ذلك من الأمور المرتبطة بالفكر الديني. ومن منطق المبالغة في تحكيم العقل، قللوا من تفسير القرآن الكريم بالمأثور والمنقول، لأنهم أقاموا تفسيرهم على أساس من العقل والمنطق وحرية الإرادة، الأمر الذي جعلهم ينكرون بعض الأحاديث التي تتعارض وتفسيرهم، مما أوقعهم في خصومة مع أنصار مدرسة الحديث. هذا وقد انتشر مذهب المعتزلة في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث الهجري (أواخر الثامن وأوائل التاسع الميلادي) وخاصة في عهد الخليفة العباسي المأمون (من ١٩٨-٢١٨هـ) الذي تحمس له حماسة زائدة. وكان من القضايا الكبرى التي أُثيرت آنذاك: الرد على السؤال: هل القرآن أزلي أم مخلوق؟! أزلي أي لا بداية له، أي موجود من قبل سيدنا محمد ﷺ أما المخلوق بمعنى أنه خلق بعد بعثة الرسول، وقد نادى المعتزلة بهذا الرأي الأخير وقالوا أن القرآن مخلوق لما فيه من أوامر ونواهي. وعارضهم في هذا الرأي غالبية أهل السنة والجماعة، كما سيأتي بيانه فيما بعد. ومن أعلام المعتزلة: واصل بن عطاء المؤسس الأول للجماعة، وأبو الهذيل حمدان بن الهذيل العلاف، وأبو إسحق إبراهيم بن سيار بن هانئ البلخي المشهور بالنظام، وأبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب المشهور بالجاحظ.

ولا شك في أن **فلاسفة المسلمين** قد تأثروا بالفلسفة اليونانية القديمة تأثرًا واضحًا، فعكفوا على دراسة ما وصل إلى أيديهم من كتابات سقراط وأفلاطون وأرسطو، ونقدوا ما جاء في هذه الكتابات من آراء، وتناولوها بالشرح المستفيض والمقارنة البناءة التي تدل على فهم واستيعاب. وقد اشتهر من فلاسفة المشرق الإسلامي: الكندي، والفارابي، وابن سينا. وابن سينا هو العالم المتعدد المواهب، فقد أجاد في الفلسفة مثلما أجاد في الحكمة والطب وغيرهما. وكان للأندلس هو الآخر فلاسفته العظماء الذين يصعب حصرهم، ومن أمثلة هؤلاء: ابن باجة، وابن طفيل، وابن رشد. ويعتبر ابن رشد هو أعظمهم على الإطلاق، وأعمقهم فكرًا، وأوسعهم أثرًا في الغرب الأوربي. وسوف نتحدث عن فلاسفة الأندلس فيما بعد.

تيسير سبل المعرفة أمام الجميع :

ارتبط بالحرية الفكرية في العصر العباسي الأول تيسير سبل المعرفة والثقافة، وجعلها في متناول الجميع، فكانت أبواب المساجد مفتوحة على

مصاريعها لكل الواردين، ولا تطلب مصاريف للتعليم.. الذي كان مجانًا من حق الجميع. وكان لذلك أعظم الأثر في بناء الحضارة العربية، إذ نعمت بها طبقة من أبناء العامة، الذين لم يكن بينهم وبين الثقافة والمعرفة حجاب، فكانوا يترددون على المساجد، وينهلون من ينابيع المعرفة. وقد ظهر في العصر العباسي الأول جمهور من العلماء والشعراء ينتمون إلى أبناء العامة.

سيادة اللغة العربية :

أسهمت عروبة الخلفاء العباسيين في جعل اللغة العربية هي لغة الحضارة الناشئة وسياجها الحامي لها. ومع اتساع رقعة الدولة العربية، فإن هذه الرقعة كانت تضم أوطانا كثيرة، يعيش فيها منذ القدم شعوب متباينة في الجنس واللغة والثقافة، غير أن هذه الأجناس بدأت منذ العصر العباسي الأول، تنصهر في الوعاء العربي، حتى غدت جنسًا واحدًا. وظهرت قوة اللغة العربية وسيادتها في هذا العصر حيث شجع الخلفاء حركة الترجمة إلى اللغة العربية، فلم يأت القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) حتى تطورت اللغة العربية، وهي لغة القرآن الكريم، وأصبحت لغة حية قوية، دقيقة البناء، سهلة المنال، تطاوع إرادة الكتاب للتعبير عن الفكر العلمي، كما أصبحت لغة السياسة والتخاطب في جميع أرجاء الوطن العربي الإسلامي.

النظام القضائي

(أ) القضاء :

تطور النظام القضائي في العصر العباسي الأول تطورًا كبيرًا، لأن روح الاجتهاد في الأحكام ضعفت بسبب ظهور المذاهب الأربعة، فأصبح القاضي يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب، فكان القاضي في العراق يحكم وفق مذهب أبي حنيفة، والشام والمغرب وفق مذهب مالك، وفي مصر وفق المذهب الشافعي، وإذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع في بلد من البلاد أناب عنه قاضيًا يحكم بمذهب المتخاصمين.

وقد عمد بعض الخلفاء العباسيين إلى حمل القضاة على السير وفق رغباتهم ليكسبوا أعمالهم صبغة شرعية، حتى امتنع كثير من الفقهاء عن تولي القضاء خشية أن يحملهم الخليفة على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية. وهناك كثير من الأمثلة تدل على أن الخلفاء العباسيين نقضوا العهد مع كثير من القادة العلويين وغيرهم بعد أن أعطوهم الأمان، وذلك عن طريق فتاوى القضاة، كما فعل أبو العباس السفاح مع ابن هبيرة، وأبو جعفر المنصور مع أبي مسلم الخراساني وعمه عبد الله بن علي، وهارون الرشيد مع يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوي.

وقد اتخذ الخلفاء العباسيون نظام «قاضي القضاة»، وكان يقيم في بغداد عاصمة الدولة، ويولي من قبله قضاة ينوبون عنه في الأقاليم والأمصار، وأول من تلقب بهذا اللقب أبو يوسف صاحب كتاب الخراج (وقد ورد اسمه من قبل) في عهد هارون الرشيد. على أن أهم ما امتاز به العصر العباسي.. أنه أصبح في كل ولاية قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، ينظر كل منهم في النزاع الذي يقوم بين من يدينون بعقائد مذهبه.

وفي العصر العباسي الأول اتسعت سلطة القاضي، فبعد أن كان عمله مقصورًا على الفصل بين الخصوم، أصبح يفصل في الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأولياء. وممن نبغ من القضاة في هذا العصر يحيى بن أكثم الذي قاد الجنود في عهد المأمون لمحاربة الروم، وأحمد ابن أبي داؤد قاضي القضاة في عهد الواثق.. الذي أخذ الفقه عن يحيى بن أكثم. ومما هو جدير بالذكر أنهم كانوا يطبقون القاعدة التي تقضي بأن: البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، فضلاً عن أن القضاة كثيرًا ما كانوا يعتمدون على شهادة الشهود، ويحدثنا الكندي بأن القاضي إذا شهد عنده أحد كان معروفًا بالسلامة، قبله القاضي، وإذا كان

غير معروف بها أوقف، وإذا كان الشاهد مجهولاً لا يُعرف سُئل عنه جيرانه[١].

(ب) النظر في المظالم :

من الوظائف التي تعتبر من وظائف السلطة القضائية في النظام الإسلامي وظيفة والي المظالم أو صاحب المظالم، كما كان يُطلق عليه في بعض العهود. وقضاء المظالم كما يعرفه الماوردي هو: قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة.

ويقول فضيلة المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة في بحث له عن ولاية المظالم: «إن ولاية المظالم كولاية القضاء، جزء مما يتولاه ولي الأمر الأعظم، ويقيم فيه نائبًا عنه، مما يكون فيه الكفاية والهمة لأدائه، ويسمى المتولي لأمر المظالم ناظرًا ولا يسمى قاضيًا، وإن كان له مثل سلطان القضاء، ومثل إجراءاته في كثير من الأحوال، ولكن عمله ليس قضائيًا خالصًا، بل هو قضائي وتنفيذي، فقد يعالج الأمور الواضحة بالتنفيذ أو بالصلح أو بالعمل الخيري، يرد لصاحب الحق حقه، فهو قضاء أحيانًا وتنفيذي إداري أحيانًا».

فوظيفة ناظر المظالم تستند إلى قوة من يتولاها وسطوته، ولذلك يقول الماوردي: إنه «من شروط الناظر فيها أن يكون جليل القدر، نافذ الأمر، عظيم الهيبة، ظاهر العفة، قليل الطمع، كثير الورع، لأنه يحتاج في نظره إلى سطوة الحماة، وثبت القضاة».

ولعل السبب الأساسي في وجود هذا النوع من القضاء هو العمل على رفع المظالم الواقعة على الأفراد من ذوي النفوذ والسلطان في الدولة، من حكام وولاة، مما يعجز معه القضاء العادي عن إيصال الحق إلى صاحبه، لاقتصار وظيفته على القضاء، وافتقارها إلى سلطة التنفيذ.

وقد جلس لنظر المظالم من خلفاء العصر العباسي جماعة، فكان أول من جلس لها المهدي، ثم الرشيد، ثم المأمون، فآخر من جلس لها المهتدي.

وهذا النظام يشبه نظام القضاء الإداري في التنظيم القضائي المعاصر، حيث يفصل هذا القضاء في منازعات الأفراد مع السلطة فيما يتعلق بمصالحهم، وذلك لرفع ما يقع عليهم من ظلم[٢].

---

(١) المرجع: كتاب تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ص٢٣٨.

(٢) المرجع: كتاب نظم الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية للمستشار عمر حافظ شريف، ص١٤٢.

(ج) الحسبة :

كانت سلطة القاضي موزعة بينه وبين المحتسب وقاضي المظالم. فوظيفة القاضي فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام، ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنايات أحيانا، مما يستدعي الفصل فيها إلى السرعة، ووظيفة قاضي المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضي والمحتسب. وكان القضاء والحسبة يسندان في بعض الأحيان إلى رجل واحد مع ما بين العملين من التباين. فعمل القاضي مبني على التحقيق والأناة في الحكم، أما عمل المحتسب فمبني على الشدة والسرعة في العمل.

وكان عمر بن الخطاب أول من مارس عمل الحسبة، ولو أن هذا اللفظ لم يستعمل إلا في عهد الخليفة المهدي العباسي (١٥٨-١٦٩هـ).

فالمحتسب إذًا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحافظ على الآداب والفضيلة والأمانة، وينظر في مراعاة أحكام الشرع، ويشرف على نظام الأسواق، ويحول دون بروز الحوانيت حتى لا يعوق ذلك نظام المرور، ويستوفي الديون، ويكشف على الموازين والمكاييل تجنبًا للتطفيف، ويعاقب من يعبث بالشريعة أو يرفع الأثمان، ويمنع التعدي على حدود الجيران، وارتفاع مباني أهل الذمة على مباني المسلمين(١).

الخلاصة :

ومجمل القول أن الدولة العباسية الأولى استهانت بإزهاق الأرواح، وتخلصت من أعدائها.. أو ممن اعتبرتهم أعداءها، خاصة من العلويين والفرس، بوسائل شتى، من القتل بالسيف، أو بدس السم، أو الحبس في الجب، وإن كانت ترفع رايات التمسك بالدين، والعمل بكتاب الله وسنة الرسول ﷺ.

ومع ذلك فإن العصر العباسي الأول يعتبر- في رأي المؤرخين- أزهى عصور الدولة الإسلامية قاطبة، فقد نجحت هذه الدولة في نشر العلم، وتشجيع العلماء والفقهاء ونبذ التفرقة والتمييز، **وتعزيز حقوق الإنسان**، ورعاية الحضارة العربية الإسلامية، ونشر العدل بين الناس بثلاث وسائل يسند بعضها بعضا، من تثبيت أركان القضاء، إلى النظر في المظالم، إلى إقامة نظام المحتسب، الذي كان يباشر، في المقام الأول، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتصدي للمخالفات والمساوئ، والمحافظة على الآداب العامة، والأمانة والفضيلة.

---

(١) المرجع: كتاب الدكتور حسن إبراهيم حسن، السابق الإشارة إليه، ص٢٤٤.

الفصل الثالث
العصر العباسي الثاني

يُعد العصر العباسي الثاني في بغداد والذي يمتد لأكثر من أربعة قرون، عصر ضعف وانحلال، كان فيه الخلفاء العباسيون تحت سيطرة الأتــراك أولاً، وبني بوية ثانيًا، ثم السلاجقة الأتراك ثالثًا وأخيرًا. وكان الخلفاء بذلك كالريــشة في مهب الريح، يتوقف بقاء كل منهم على العرش حــسب رغبــة المــسيطرين عليهم من الأتراك وسلاطين البويهيين والسلاجقة. وكثر التغيير والتبــديل فــي وظائف الحكومة، وانتشرت الرشوة في سبيل الوصول إلى المناصب الكبــرى، وشمل الضعف معظم مظاهر الحياة في بغداد، وزال بقيامــه ســنة ٢٣٢هــــ، العصر الزاهر للدولة العباسية.

فقد اتضح نشاط الفرس وعلو مركزهم علــى عهــد الخليفــة المــأمون العباسي، إذ استعان بهم علنا في التخلص من أخيه الأمين وأنصاره من العرب، وجعل منهم قادة للجيش، واشتهر من أولئك القادة الفرس: طاهر بن الحسين الذي عيّنه المأمون واليًا على خراسان، ثم لم يلبث هــذا القائــد أن أغفــل الخلافــة العباسية، وأسقط اسم الخليفة من خطبة الجمعة، وأسس هــو وأخلافــه **الدولــة الطاهرية** (من ٢٠٢-٢٥٩هــ) التي غدت أول دولة فارسية في آسيا لها استقلال ذاتي عن الخلافة العباسية.

ثم أدى التنافس بين الفرس والعرب إلى اتجاه الخليفة المعتصم العباســي إلى التخلص من هذين الحزبين معًا، والاعتماد على الأتراك في إدارة الدولــة، فاشترى الأتراك من بلاد ما وراء النهر، ولقنهم التعاليم الإسلامية واللغة العربية.

غير أن نفوذ الأتراك لم يلبث أن طغى على عهد المعتصم نفــسه، فلــم يحترموا الخلافة، وضاقت بهم بغداد وأهلها، فانتقل المعتصم بهم إلــى ســامرا، وجعل منها عاصمة الخلافة. واستخف الأتراك بالخلفاء بعــد وفــاة المعتــصم، فعزلوا الخليفة الذي لا يرضون عنه، وقتلوا الخليفة الذي يعترض أعمالهم، وغدا الأتراك أصحاب الكلمة العليا في سامرا وبغداد، ومنحهم الخلفــاء إدارة معظــم الولايات الإسلامية، وتركوا لهم الحق في تصريف شئونها. وأدى ذلك إلى تفكك الدولة الإسلامية، إذ فضل بعض السادة الأتراك الإقامة فــي المقــر الرئيــسي للحكم.. في بغداد، وأوفدوا نوابًا عنهم لإدارة هذه الولايات، وصاروا بــذلك ولاة متغيبين عن ولاياتهم، وتطلع أولئك النواب وأشباههم من الولاة إلى الاســتقلال

بهذه الولايات لضعف الرقابة عليهم، ولم يلبثوا أن جعلوا مناصبهم وراثية في أبنائهم، فنشأت دويلات عديدة لا تربطها بالخلافة العباسية سوى تبعية اسمية، وأخرى مستقلة عنها تمام الاستقلال أو تكاد، **ومن أمثلة هذه الدويلات: دولة الطولونيين ثم الإخشيديين بعدهم في مصر.**

ثم انتشرت العداوة والبغضاء بين أفراد البيت العباسي، ولا سيما بين ولي العهد وإخوته وأقاربه، فلم يكد وليّ العهد يصل إلى عرش الخلافة حتى يعمل على التنكيل بهؤلاء وهؤلاء. ودخل الأتراك في الدسائس والمؤامرات بين أبناء الخلفاء، وذاعت الفوضى عندما جعل الخليفة المتوكل العباسي (٢٣٢هـ/٨٤٧م) لأولاده الثلاثة: المنتصر والمعتز والمؤيد ولاية العهد، ثم قدم المتوكل ابنه الثاني وهو المعتز على المنتصر في ولاية العهد، وانتهز الجند الترك هذه الفرصة، وشجعوا المنتصر على قتل أبيه فقتله وتولى الخلافة بعده.

وقد ظلت **الدولة الطاهرية** التي أسسها طاهر بن الحسين قائمة حتى سنة ٢٥٩هـ. وقامت أشباهها في مختلف الأقاليم العباسية، ومنها الدولة الصفارية، والدولة السامانية، والدولة البويهية، وكلها دول شيعية قامت في فارس.

ونوضح فيما يلي الحكام الذين ظهروا في بغداد وما حولها، ثم نثني بالحديث عن الدول أو الدويلات التي استقلت عنها، ففي بغداد تسلط بنو بويه على الحكم رغم أنف الخلفاء.. حسبما يلي:

بنو بويه (الشيعة)

اتجهت نوايا أمراء الدول المستقلة إلى السيطرة على العراق نفسها، مقر الخلافة العباسية، وضمها إلى سلطانهم متخذين لأنفسهم لقب أمير الأمراء، ومن أولئك بنو بويه الشيعة، وأصلهم يرجع- فيما يقال- إلى ملوك ساسان الفارسيين. وتزعم قبائل البويهيين في خلافة الراضي العباسي: «**أبو شجاع بويه**»، وبدأ باحتلال شيراز وجعلها عاصمة لدولة جديدة، ثم امتدت فتوحاته إلى الأهواز (وهي الآن خوزستان) ثم إلى إقليم كرمان.

وفي سنة ٣٢٤هـ/٩٤٥م، اتجه أحمد ابن أبو شجاع بويه نحو بغداد بقوة حربية، فلم تستطع حاميتها المكونة من الحرس التركي مقاومته، ودخل المدينة في سهولة ويسر، واستقبل الخليفة المستكفي زعيم بني بويه، وأنعم عليه بلقب «معز الدولة» تشريفًا له وبرهانًا على الاعتراف بسطوته، ثم أصر أحمد على ذكر اسمه مع اسم الخليفة على المنابر في خطبة الجمعة، وأن يُسك اسمه على

العملة أيضًا، وأصبح الحاكم الفعلي لبغداد دون أن يتعرض للخليفة. غير أنه لم يلبث أن كشف عن نياته نحو المستكفي فقبض عليه وسمل عينيه سنة ٩٤٦م، واختار بدله المطيع خليفة. ودلَّ الخليفة الجديد على أنه جدير باسمه، إذ أمسى مطيعًا لكل ما أراده البويهيون منه، وبات أداة طيعة في أيديهم.

وبلغ البويهيون أقصى قوتهم أيام **عضد الدولة** الذي اتخذ لنفسه لقب شاهنشاه (أي ملك الملوك)، على حين اكتفى بنو بويه قبله بألقاب التبجيل والتفخيم، ومن ثم فاق عضد الدولة أسلافه قوة وعظمة، وتزوج من ابنة الخليفة الطائع، وظلت شيراز عاصمة البويهيين منذ وصوله إليها، ومع ذلك فقد اتخذ هو وخلفاؤه قصورًا لهم في بغداد، كما أنشأ كثيرًا من العمائر في بغداد، مثل المستشفى المشهور باسم «البيمارستان العضدي» نسبة إليه، وضم هذه المستشفى أربعة وعشرين طبيبًا، وصارت هذه المجموعة هيئة للتدريس والأبحاث الطبية.. فضلاً عن علاج المرضى، وتغنى الشعراء خاصة **المتنبي** بعظمة عضد الدولة، وأهدى المؤلفون مؤلفاتهم إليه، مثل العالم النحوي: أبي علي الفارسي صاحب كتاب الإيضاح.

وأورث عضد الدولة أبناءه من بعده سياسة مرسومة لتشجيع العلم، فبنى ابنه شرف الدولة دار الرصد ببغداد، وأسس بها بهاء الدولة أخو شرف الدولة، مجمعًا علميًا سنة ٩٩٣م، واحتوت مكتبة هذا المجمع ١٠,٠٠٠ كتاب، انتفع بها **أبو العلاء المعري** أيام دراسته في بغداد. وازدهرت في عهد شرف الدولة **جماعة إخوان الصفا**. وهي إحدى الفرق السلفية في الدولة الإسلامية.

غير أن الدولة البويهية أخذت في الانهيار بسبب النزاع على السلطة بين الأخوين بهاء الدولة وشرف الدولة، وامتد هذا النزاع إلى سائر أفراد الأسرة، وعجل بالقضاء على البويهيين أنهم كانوا على مذهب الشيعة، بينما أهالي بغداد وما حولها كانوا على المذهب السني. ولذا أخذت هذه الدولة تتضاءل تدريجيًا بسبب حركة السلاجقة وزعيمهم طغرل بك الذي قضى على البويهيين سنة ١٠٥٥م.

السلاجقة (السُنَّة)

السلاجقة قبيلة من قبائل الغز التركية، رأسها زعيم اسمه **سلجوق**، وقبيلته من براري التركستان، واستقر به الترحال في بخارى، حيث اعتنق الإسلام على المذهب السني، وانتشر الإسلام بين السلاجقة الذين لم يلبثوا أن

أخذوا على أنفسهم الانتصار للسنة دون الشيعة. واستطاع **طغرل** أحد أحفاده أن يستولي سنة ١٠٣٧م على إقليم خراسان في الشمال الشرقي من فارس. وفي سنة ١٠٥٥م وقف طغرل على رأس جماعةٍ من جنده الأتراك أمام بوابة بغداد، كما وقف أحمد بن شجاع من قبله، فسلّمت له المدينة دونٍ مقاومة، واستقبل الخليفة القائم طغرل زعيم السلاجقة استقبالاً حارًا لأنه خلصه من سلطان الشيعة من بني بويه. وقد تمكن السلاجقة من بسط ثم تقوية سلطانهم على البلاد.

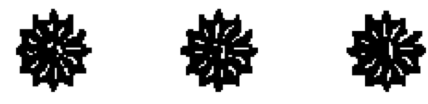
وتولى **ألب أرسلان** السلجوقي، ابن أخي طغرل، القيادة العليا للجيوش السلجوقية سنة ١٠٦٣م، فسيَّر شعبة منها نحو الشام، وشعبة ثانية إلى بلاد العرب، وكلتاهما كانتا تابعتان للدولة الفاطمية الشيعية التي تأسست في مصر، وسيَّر شعبة ثالثة قام هو على رأسها نحو أرمينيا الصغرى من أملاك الدولة البيزنطية، وآسيا الصغرى وهي من بلاد الروم. واستولت الجيوش السلجوقية على حلب سنة ١٠٧٠م، وانتزعت مكة والمدينة بعد ذلك بقليل، على حين انتصر ألب أرسلان على الإمبراطور البيزنطي رومانوس يوجين سنة ١٠٧١م، في وقعة منزكرت (بلاز كرد) في الشمال الشرقي من بحيرة فان، وأباد معظم الجيش البيزنطي حتى باتت آسيا الصغرى تحت رحمته، فانتشرت جيوشه فيها إلى قرب البوسفور والدردنيل، ومن هذه الفتوح تأسست دولة السلاجقة الروم فيما بعد.

وقد ظل السلاطين السلاجقة في مدينة أصفهان، ولم ينتقلوا إلى بغداد ويتخذوها عاصمة إلا سنة ١٠٩١م على عهد **ملكشاه السلجوقي** الذي حكم من ٤٦٦-٤٨٥هـ. وفي عهد هذا السلطان بلغت الدولة السلجوقية أقصى عظمتها، فبنى ملكشاه المساجد، وأنشأ الخانات (الفنادق) على طريق القوافل لنزول المسافرين، وعبَّد طرق الحجاج إلى مكة وزودها بالحراس. وأمر بتجميل بغداد وتنظيمها، وذكر عنه أنه كان أحسن الملوك سيرة، وكان يلقب بالسلطان العادل، وكان يجلس للمظالم بنفسه، ويقضي بين الناس بالقسطاس المستقيم.

وساعد ملكشاه في إدارة المملكة وزيره **«نظام الملك»**، وهو من أعظم شخصيات التاريخ الإسلامي، إذ شجع الشخصيات المشهورة في العلوم والآداب، فتمتع **عمر الخيام**، الشاعر الفارسي والفلكي الكبير بعطفه، وتوج الوزير مجده بإنشاء المجامع العلمية في بغداد، وأشهرها: **«المدارس النظامية» التي بدأ بناؤها في بغداد سنة ١٠٦٧م**. ثم تأسست في نيسابور، ومرو، والموصل،

وأصفهان وغيرها، وكانت تقابل الأزهر الذي بناه الفاطميون في مصر. وبينما كان التدريس في الأزهر يقتصر على المذهب الشيعي، فإن التدريس في المدارس النظامية كان يتسع لتدريس المذاهب السنية الأربعة: المذهب المالكي، والمذهب الحنفي، والمذهب الشافعي، والمذهب الحنبلي، علاوة على دراسة علوم الدنيا إلى جانب علوم الدين، من علوم الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، والطب والكيمياء، وعلم الحساب والجبر وغيرها. ومن تلاميذ هذه المدارس: السعدي الشاعر الفارسي، وعماد الدين الأصفهاني، وبهاء الدين بن شداد، وهما اللذان خدما صلاح الدين والدولة الأيوبية في مصر، وعبد الله بن تومرت، الذي أسس دولة الموحدين في أفريقيا، وأبو إسحق الشيرازي مؤلف كتاب المذهب والتنبيه، والغزالي العالم المتصوف الكبير مؤلف كتاب «إحياء علوم الدين».

غير أن عظمة الدولة السلجوقية استندت إلى شخصية سلاطينها، ولذا أخذت هذه الدولة في التفكك بعد وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢م، ومن بعده تطلع أبناء البيت السلجوقي إلى الاستقلال بما يملكونه من ولايات إقليمية، كأن الدولة إرث ينبغي تقسيمه أنصبة بين أبناء الأسرة. وغدت الدولة السلجوقية مضطربة الأحوال لكثرة الحروب الداخلية، فحلت محلها دول الأتابكة بالعراق وفارس، كما حلت دولة الأتراك العثمانيين محل سلاجقة الروم بآسيا الصغرى سنة ١٣٠٠م[١].



والملاحظ أنه أثناء سردنا للأحداث في العصر العباسي الثاني، برزت أمامنا بعض الأسماء الساطعة رأينا الوقوف عندها، وتقديم لمحة عن كل منها.. وهي:

(أ) جماعة إخوان الصفا :

هي فرقة سرية تأسست في البصرة في القرن الرابع الهجري وأواخر القرن العاشر للميلاد، وكونوا مدرسة فكرية استقت آراءها من تعاليم أرسطو والأفلاطونية الحديثة، فضلاً عن آراء المعتزلة والإسماعيلية الشيعية.. وغيرهم، وكانوا يعتقدون أن الروح لها أصل سماوي مستمد من الله عز وجل، ولكي يبنو آراءهم على أسس علمية ألفوا: ٥٢ رسالة، منها ١٤ تبحث في الرياضيات

---

(١) من كتاب الدكتور إبراهيم أحمد العدوي (مرجع سابق) بعنوان: تاريخ العالم الإسلامي، ص٢٨١.

والمنطق، ١٧ في العلوم الطبيعية وعلم النفس، ١٠ في الميتافيزيقا، والبقية وهي ١١ رسالة في موضوعات متفرقة مثل التصوف والسحر والتنجيم وغيرها. ومن الثابت أن معظم أعضاء هذه الجماعة من الإسماعيلية الشيعية[1].

(ب) الشاعر أبو الطيب المتنبي:

من فحول شعراء العصر العباسي الثاني وهو: أبو الطيب أحمد بن الحسين، المعروف بالمتنبي (٣٠٢-٣٥٤هـ)، وُلد ونشأ بالكوفة وتوفي بها، رحل إلى الشام واتصل بسيف الدولة الحمداني، وأصبح لسانًا ناطقًا يشيد بمديحه، من قصائده في ذلك الحين:

وما الدهرُ إلا من رواةِ قصائدي ... إذا قلت شعرًا أصبح الدهرُ مُنشدا

وقال يعاتب سيف الدولة الحمداني:

يا أعدل الناسِ إلا في معاملتي ... فيك الخصامُ وأنت الخصمُ والحكَمُ
إذا نظرتَ نيوبُ الليثِ بارزة ... فلا تظننن أنَّ الليثَ يبتسمُ
فالخيلُ والليل والبيداءُ تعرفني ... والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ
يا مَن يعز علينا أن نفارقهم ... وجداننا كل شيء بعدكم عدمُ
شرُّ البلاد بلادٌ لا صديق به ... وشر ما يكسب الإنسان ما يصمُ

فارق المتنبي سيف الدولة غاضبًا، وقصد مصر وامتدح كافورًا بأحسن المدائح طمعًا في أن يوليه بعض أعمال مصر، وقد كرمه كافور وحمل إليه كثيرًا من المال، ولكنه لم يوله عملاً من الأعمال، فانقلب مدح أبي الطيب هجاء، فاستعد للرحيل، وأنشد في يوم عرفة سنة ٣٥٠هـ قبل مفارقته مصر بيوم واحد قصيدة هجا فيها كافور، وقال فيها:

عيد بأية حال عُدت يا عيد ... بما مضى أم لأمر فيك تجديدُ؟
لا تشترِ العبدَ إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاسٌ مناكيد

ومن شعره في الحكمة قوله:

إذا كنتَ ترضى أن تعيش بذِلَّةٍ ... فلا تَستَعِدَّنَ الحُسام اليمانيا
فما ينفع الأُسدَ الحياءُ من الطَوَى ... ولا تتقى حتى تكونَ ضواريا

كما قال أيضًا:

يرى الجبناءُ أن الجبن حزمٌ ... وتلك خديعة الطبع اللئيم

---

(١) من كتاب الدكتور سعيد عاشور (مرجع سابق) بعنوان: حضارة الإسلام، ص١٠٢.

(ج) أبو العــلاء المعري:

وُلد أبو العلاء المعري في سنة ٣٦٣هـ بمعرة النعمان، وهي بلدة صغيرة ببلاد الشام على مقربة من حماة وشيزر، تُنسب إلى النعمان بن بشير الأنصاري، وسُمي المعري نسبة إلى هذه البلدة. وقد أصيب بالجدري في السنة الرابعة من عمره، وذهب الجدري ببصره، وعاش معظم حياته في المعرة. سمى نفسه رهين المحبسين للزومه بيته وذهاب بصره، ألف شعرًا جزلاً يمتلئ حكمة وبلاغة، من ذلك قوله:

غيرُ مُجْدٍ فـي ملتـي واعتقـادي ... نَوْحُ بـاكٍ ولا تَـرَنُّمُ شـادِ
وشبيهٌ صوتُ النعيِّ إذا قِيـ ... سَ بصوتِ البشير في كل نادِ
أبَكَتْ تِلكُمُ الحمامةُ أم غنت ... على فرعِ غصنها الميادِ
صاحِ.. هَذِي قبورنا تملأ الرحْـ ... بَ فأين القبورُ من عهدِ عادِ؟
خففْ الوطءَ ما أظنُّ أديمَ الأ ... رضِ إلا من هذه الأجسادِ
وقبيحٌ بنا وإن قَدُمَ العهـ ... دُ هوانُ الآباءِ والأجدادِ
إن حزنا في ساعةِ الموتِ أضعافُ ... سرورٍ في ساعةِ الميلادِ

(ج) عمر الخيام :

كان الإمام الموفق.. الذي يُطلق عليه: النيسابوري.. نسبة إلى موطنه، إمامًا فقيهًا عالمًا، جليلاً ورعًا، كان يلتقي بطلاب العلم في ناحية من مسجد مدينة نيسابور حاضرة خراسان، ويتولى إلقاء دروس التفسير والحديث لخليط من طلبة العلم ذوي الأصول المختلفة، وإن كانوا يتحدثون العربية. وكان من بين من تلقى العلم على يديه ثلاثة من النجباء هم: علي بن إسحاق، وعمر الخيام، والحسن بن الصباح، وكانوا في صف واحد، ومن المبرزين بين الطلاب، ولهذا توطدت بينهم أواصر صداقة متينة.

وبعد انتهاء دراستهم على يد الإمام الموفق النيسابوري، انتحوا جانبًا من المسجد وحدهم، وقال الحسن بن الصباح: لقد صحَّ في أذهان الناس قاطبة، أنه ليس من تلميذ يتخرج على الإمام الموفق إلا مصيبًا عزًّا وإقبالاً، وثروة وجاهًا. فهب أن ذلك لم يتفق لنا نحن الثلاثة جميعًا، فإنه لابد أن يقع لواحد منا، فماذا يكون حق الباقين على ذلك الفائز الظاهر؟

رد عمر الخيام وعلي بن إسحق في صوت واحد: اقترح ما تشاء!

قال الحسن: فلنتعاهد الآن على أنه من أصاب منا الثراء فعليه أن يقسمه

فيما بيننا نحن الثلاثة على السواء، لا يؤثر نفسه بشيء دون أخويه. فأجابا: ليكن ذلك كما قلت وتعاهدوا، ثم تفرقوا كلٌ يبحث عن مستقبله. ومن بين الثلاثة بـرز أولاً علي بن إسحق، وبعد فترة من دراسته أُسندت إليه بعض أعمال الدولة، ثـم أخذ يترقى في المراكز، حتى اتصل بالسلطان ألب أرسلان.. الذي خلف طغرل بك كما ذكرنا، فأسند إليه أعماله أول الأمر، ثم أصبح وزيرًا له ومشيرًا عليـه. وبعد أن تسلم الوزارة أصبح يُطلق عليه «نظام الملك». وكان عالمًا في الـدين، جوادًا كريمًا، عادلاً حليمًا، كثير العفو، طويل الصمت، واشتهر ببناء المـدارس التي سميت باسمه وهي المدارس النظامية.

وعندما كان نظام الملك على رأس عمله، وفد عليه عمر الخيام (زميـل الدراسة) فاستقبله بفرح شديد، وأنزله منزلة طيبة وقال له: إن إنسانًا مثلك يمتلك ناصية العلوم والآداب والمعارف، عليه أن يساهم في خدمة السلطان، فإذا رغبت فإني على استعداد لإعطاء السلطان معلومات تقربك منه، بحيث يسند إليك إحدى وظائف الدولة، فرفض الخيام الوظيفة، وآثر الابتعاد عن الملوك أو الدخول فـي خدمتهم، واكتفى بأن طلب من الوزير نظام الملك تخصيص راتب يكفيه، ويكون عونًا له لمتابعة تحصيله للعلوم والآداب. إزاء ذلك نزل نظام الملك عند رغبته، وخصص له راتبًا سنويًا مقداره ألف ومائتي مثقال ذهـب، فعـاد الخيـام إلـى نيسابور واستمر في دراساته في العلوم والفلك، وفي وضع الأشعار.

ولا زلت أتذكر من رباعيات الخيام.. قوله:

أفِق خفيف الظل هذا الـسَحَر ... نادَى دَعْ النومَ وناغي الـوَتَر
فما أطـال النـوم عُمـرًا ولا ... قصَّر في الأعمار طول السهرَ

(هـ) أبو حامد الغزالي:

هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، وُلد بطوس سنة ٤٥٠هـ. الموافق ١٠٥٨م. وطوس مدينة بإقليم خراسان شمال فارس (إيران). بها قبر علي بـن موسى رضا.. الشهير بعلي الرضا (أحد أئمة الشيعة)، وبها أيضًا قبر هـارون الرشيد. وقد خرج من طوس عدد كبير من العلماء أشهرهم أبو حامد الغزالـي، وخرج منها كذلك الوزير نظام الملك.

وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس، ومنها عُـرف أبـو حامد بالغزّالي نسبة إلى صنعة والده، كما أنه كان له ولد اسمه حامد فعُرِف بأبي حامد، إلا أن ابنه هذا مات وهو صغير. وقد تعلم محمد وأخوه أحمد في كتّـاب

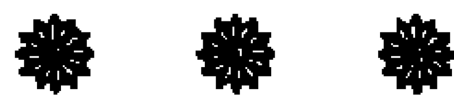
المدينة، ثم توجه إلى نيسابور عاصمة الإقليم ودخل المدرسة النظامية عام ٤٧٣هـ، ولازم إمام الحرمين «أبو المعالي عبد الملك الجويني» رئيس هذه المدرسة.. الذي كان يعطف على محمد، ويقربه منه، ويشهد له بسعة العلم، ويقول عنه إنه «بحر مغرق» ويتنبأ بأنه سيكون ذا شأن.

وبعد أن تخرج من المدرسة النظامية عُيِّن معيدًا بها ثم أستاذًا ومعلمًا بارزًا. وبعد فترة توجه إلى الوزير نظام الملك فقدم نفسه له على أنه من طوس أيضًا.. أي أنهما «بلديات» وأنه أستاذ بالمدرسة النظامية، فأعجب به الوزير وقربه منه.

وقد سطع نجم محمد الغزالي وأصبح إمامًا يُشار إليه بالبنان في علوم الدين، وفي علم الكلام، والفلسفة، والتصوف.. وغيرها، وألّف عددًا كبيرًا من الكتب أهمها: إحياء علوم الدين.

وقد تقلد أعلى المناصب، وأصبح موضع احترام وتقدير أولي الأمر والنهي في الدولة العباسية الثانية، وكانوا يرجعون إليه في طلب الفتيا فيما أشكل عليهم من أمور الشرع.

وقد هداه تفكيره إلى أن الزهد والتصوف هما طريق النجاة والفلاح، فترك المجد والفخار، وهجر المناصب الكبرى، بل وهان عليه أن يفارق الأهل والأصحاب، وبناته الصغيرات.. اللاتي كن في أمس الحاجة إليه في تربيتهن ورعايتهن، وذهب بعيدًا.. في إقليم غير الإقليم، وديار غير الديار، ولجأ إلى الخلوة والعزلة، وعكف على الصلاة والصيام، والذكر والقيام، متفرغا للعبادة والتأمل، والفكر والتدبر، اشتغالاً بتزكية النفس، وتصفية القلب.. لذكر الله تبارك وتعالى، رافضًا السعي إلى بلوغ الغايات، متمثلاً قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.



الدولة الأموية في الأندلس

رأى العباسيون منذ إعلان خلافتهم سنة ١٣٢هـ/٧٥٠هـ أن استمرارهم في الخلافة يتطلب القضاء على البيت الأموي، فتربصوا بهم وقتلوهم جماعات وفرادى، غير أن أحد أفراد بني أمية، واسمه **عبد الرحمن بن معاوية**- وهو حفيد هشام عاشر الخلفاء الأمويين- استطاع الهرب من المذبحة التي أقامها العباسيون للأمويين، ودخل عبد الرحمن بن معاوية فلسطين، ومنها إلى شمال أفريقيا، وأخذ ينتقل من برقة إلى مراكش، ويفكر في إحياء الدولة الأموية، وتطلع إلى الأندلس العربية لتنفيذ ذلك، ورحب أنصار بني أمية الأندلسيون بدعوة عبد الرحمن، ورأوا فيه شخصًا جديرًا بتولي زعامتهم بدلاً من الحكم العباسي البغيض إليهم.

وعبّر عبد الرحمن البحر إلى شاطئ الأندلس، وهناك انضم إليه أنصار بني أمية، فاستولى على مدن البلاد الأندلسية الجنوبية دون مقاومة، ثم استولى على قرطبة عاصمة ولاية الأندلس سنة ١٤١هـ/٧٥٦م بعد هزيمة الحاكم العباسي، وأعلن نفسه أميرًا، كما أصدر عفوًا عامًا غداة دخوله قرطبة ليمكن نفسه في البلاد، وتم بذلك- بعد بضع سنوات فقط من اعتلاء العباسيين عرش الخلافة في بغداد- انفصال ولاية الأندلس رسميًا عن الخلافة العباسية. وظل عبد الرحمن الأموي يعمل دائمًا مدة حكمه التي بلغت ثلاثة وثلاثين عامًا على تأمين مركزه في أجزاء دولته. وتمكن عبد الرحمن من صد هجمات العباسيين، كما تمكن من صد تهديدات دولة الفرنجة (فرنسا الحالية) فضلاً عن بقايا المقاومة المسيحية الأسبانية التي انكمشت إلى حين في الشمال الغربي من شبه جزيرة أيبريا، وعُرف عبد الرحمن بـ«صقر قريش».

وظلت إمارة الأندلس مهيبة الجانب مدة عبد الرحمن الأموي، وبدت دولته عند وفاته سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م وطيدة الأركان، وعاشت بعده قرنين وثلاثة أرباع قرن من الزمان.

وخلف عبد الرحمن **ابنه هشام الأول** (١٧٢-١٨٠هـ)، وكان أبوه قد أعده للحكم، وكان يأنس فيه الحزم ويثق به. وقد شبهه المقري (أحد كتّاب السير) **بعمر بن عبد العزيز في عدله واهتمامه بشئون الرعية**، حتى إنه قرب إليه الفقهاء الذين تمتعوا في عهده بنفوذ عظيم، وأصبحت لهم مكانة كبيرة في الدولة. وكان هشام يبعث بثقاته إلى الكور يسأل الناس عن سير عماله، فإذا انتهى إليه

أن أحدهم ظلم أحدًا عزله عن عمله وأنصف المظلوم، كما عيّن في المدن عسسًا لمنع الشجار وارتكاب الجرائم، وكان يعود المرضى، ويقود جيوشه بنفسه لمحاربة نصارى الشمال، ولقبه الناس بالشفيق والعادل. وكان هشام نقيًا صالحًا، صرف عهده بما يعود على بلاده بالخير والرفاهية، وكان أبوه قبل وفاته قد بنى الجامع الكبير في قرطبة ليضاهي به الجامع الأموي بدمشق، وأتم هشام بناء هذا المسجد بعد وفاة والده، وعني بنشر اللغة العربية حتى أصبحت تدرس في مدارس اليهود، وبلغ من تواضعه أنه كان يطوف في شوارع قرطبة، ويختلط برعيته، وينظر في المظالم بنفسه، ويشهد الجنائز. وتوفي هشام سنة ١٨٠هـ، وكان من أهل الخير والصلاح، كثير الغزو والجهاد.

ثم وَلِيَ **الحَكَم الأول** بعد أبيه هشام، وكان يختلف عن أبيه اختلافًا كبيرًا في سياسة الحكم. في هذه الأثناء، حاول شرلمان ملك الفرنجة (فرنسا) الاستفادة من الخلاف الذي ساد بين العباسيين في المشرق.. والأمويين في بلاد الأندلس، فتقرب من الخليفة المهدي العباسي ليكسب شيئًا من النفوذ في بلاده، ويهدد بذلك منافسه إمبراطور الدولة البيزنطية، وقد جنى شرلمان ثمار هذه السياسة، فاكتسب محبة هارون الرشيد، وكانت العلاقة بينه وبين إمبراطور الفرنجة تقوم على الود والصفاء، بخلاف ما كانت عليه مع إمبراطور الدولة البيزنطية، وتبادل الاثنان الكتب والهدايا والوفود، على أن هؤلاء السفراء وتلك الكتب لم تؤد إلى غرض مادي يُذكر، اللهم إلا ما كان من إرسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شرلمان، ولا غرو فقد أصبح شرلمان حامي المسيحيين الذين يفدون إلى هذه المنطقة لأداء فريضة الحج، ومع أن الرشيد لم ينظر إلى هذا الأمر بعين الاعتبار، فقد أدى ذلك إلى نتائج خطيرة في المستقبل، لأنه أكسب ملك الفرنجة حق حماية الأماكن المقدسة في فلسطين.

عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ):

مات الحكَم في سنة ٢٠٦هـ فخلفه ابنه عبد الرحمن الثاني، الذي امتاز عهده بالهدوء والسكينة، وكثرت الأموال في خزائنه، واتخذ القصور والمتنزهات، وجلب إلى قرطبة المياه من الجبال، وأقام الجسور، ونظم شوارع قرطبة، وزاد في بناء جامعها، كما أنشأ المساجد في أكثر مدن الأندلس، **وجعل إلى جانب كل مسجد مدرسة ومستشفى، كما شجع العلوم والآداب والفلسفة، فظهر في بلاد الأندلس في أيامه نوابغ العلماء من كل فن.**

وقد منح عبد الرحمن ومن جاء قبله من الأمراء الأمويين أهل بلاد الأندلس **الحرية لإقامة شعائرهم الدينية، وكثيرًا ما حارب المسيحيون مع المسلمين جنبًا إلى جنب، كما كانوا يعينون في أرقى المناصب الحربية والسياسية، ومن ثم اعتنق كثير منهم الإسلام.**

عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ):

لما مات عبد الرحمن الثاني سنة ٢٣٨هـ خلفه ثلاثة من أفراد البيت الأموي هم: محمد الأول، والمنذر، وعبد الله. وعلى الرغم من أن هؤلاء حكموا هذه البلاد اثنتين وسبعين سنة، لم يكن لهم أثر يُذكر في تاريخ الأندلس، إلى أن تولى عبد الرحمن الناصر الحكم سنة ٣٠٠هـ فتغيرت الأمور. إذ كانت بلاد الأندلس عند اعتلاء عبد الرحمن العرش، كما قال بعضهم: «مضطربة بالمخالفين، مضطرمة بنيران المتغلبين، فأطفأ عبد الرحمن تلك النيران، واستنزل أهل العصيان، وخضعت له الأندلس في سائر جهاتها بعد نيف وعشرين سنة من أيامه». واتجهت إليه أنظار الشعب لتخليصه من عصابات اللصوص والمجرمين، فخضع أكثر الولايات وسلموا حين رأوا أميرهم الشاب يتقدم الجيوش في شجاعة وثقة واعتزاز بالنفس. وقد استرد عبد الرحمن ما فقده أسلافه من بلاد الأندلس، وغدا نفوذه قويًا بين العرب والبربر والأسبان والمولدين (وهم من كانوا من أب عربي وأم أجنبية).

وكانت بلاد الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر يحيط بها الأعداء من كل جانب، فكان الفرنجة في الشمال يطمعون في توسيع أملاكهم جنوبًا، ولا سيما بعد استيلائهم على برشلونة، وكانت الإمارات المسيحية في الأقاليم الجبلية المسيحية تهدد بلاده. أضف إلى ذلك منافسة العباسيين والفاطميين. وقد عمل عبد الرحمن الثالث على تقوية دولته ماديًا وأدبيًا، فبنى أسطولاً من مائتي سفينة، وتلقب بلقب خليفة. **ومن ثم أصبح في العالم الإسلامي ثلاث خلافات: الخلافة العباسية في المشرق، والخلافة الفاطمية في بلاد المغرب، والخلافة الأموية في بلاد الأندلس.** وساعده على ذلك ضعف الخلافة العباسية، وازدهار دولته، وارتفاع شأنها في الداخل والخارج[١].

---

(١) المصدر: كتاب تاريخ الإسلام، الجزء الثاني، ص١٨٥، تأليف الدكتور حسن إبراهيم حسن (مرجع سابق).

وكان عبد الرحمن الناصر آخر عظماء أمراء بني أمية في الأندلس، وخلفه في الحكم أمراء في منتهى الضعف، وحدثت خلافات بين الأمراء أدت إلى تجزئة الدولة، وظهور نظام الطوائف الذي قضى على دولة الأندلس قضاءً نهائيًا في سنة ١٤٩٢م.

حضارة الأندلس وحقوق الإنسان

سار الأمويون في حكم الأندلس وفق نظم لا تختلف كثيرًا عن نظم العباسيين التي شرحناها من قبل، فالإمارة وراثية في أبناء البيت الأموي، فلا بيعة.. ولا شورى.. ولا حكم بالشعب. واتخذ كل حاكم لنفسه لقب: أمير، إذ لم يظهر لقب خليفة أو أمير المؤمنين للأمويين في الأندلس إلا في عهد عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (٣٠٠هـ/٩١٢م)، ذلك أن عبد الرحمن الثالث هذا رأى أن مركزه في قرطبة يفوق مركز خلافة العباسيين في بغداد، بل يفوق خلافة الفاطميين التي قامت في شمال أفريقيا قبل انتقالها إلى مصر، لذا عقد عبد الرحمن مجلسًا من العلماء ورجال الدولة سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م للنظر في هذا الرأي، وتم إعلانه خليفة أمويًا بالأندلس في تلك السنة.

وسار الخليفة في حكم البلاد عن طريق الوزراء، واشتهر الوزير الأول في الأندلس باسم الحاجب، وهو الذي يتلقى التعليمات من الخليفة، ويبلغها إلى سائر الولاة والموظفين. **وتمتع القضاة في الأندلس بمركز سام، وتسمى رئيس القضاة باسم «قاضي الجماعة» وأقام في قرطبة**. ومن أهم وظائف الدولة كذلك وظيفة: «**المحتسب**»، ومهمة صاحبها لا تختلف عن مهام الحسبة في الدولة العباسية، أو غيرها من الدول الإسلامية.

وتجلى ازدهار الحضارة في الأندلس في ميدان العلم، فبلغ عدد مدارس قرطبة سبعًا وعشرين مدرسة، تلقى فيها الناس العلم بالمجان، **كما اشتهرت جامعة قرطبة**- التي اتخذت مقرها في الجامع الكبير- بعظمة علمائها وسعة معارفهم، **وهي تسبق في تأسيسها الجامع الأزهر بالقاهرة، والمدرسة النظامية في العراق**. ووفد إلى جامعة قرطبة كثير من أساتذة الشرق للتدريس بها، فضلاً عن أساتذتها من الأندلسيين. واجتذبت جامعة قرطبة الطلاب من المسلمين والمسيحيين على السواء من أوربا وأفريقيا. **وامتاز علماء الأندلس بحب البحث والارتحال في طلب العلم**، فرحل كثير منهم إلى مصر والشام والعراق وفارس، وبلغ بعضهم بلاد ما وراء النهر والصين في طلب العلم والمعرفة(١).

(١) المصدر: كتاب الدكتور إبراهيم أحمد العدوي (مرجع سابق)، ص٢٤٨.

وقد وصل التقدم ذروته في الفلسفة بصفة خاصة، فإذا كان المشرق الإسلامي قد امتاز بفلاسفته العظماء الذين يصعب حصرهم، فإن الأندلس كان له هو الآخر فلاسفته الذين ضربوا المثل في حرية الفكر، وتركوا أبعد الأثر في الحياة الفكرية في غرب أوربا، ومن أمثلة هؤلاء: ابن ماجة، وابن الطفيل، وابن رُشد.

أما ابن ماجة (ت ١١٣٩م): فقد عاش في الوقت الذي أشاع فيه المرابطون جوًا من التشدد الفكري مما رجح كفة القول بالمنقول والمأثور والحديث على كفة تحكيم العقل، وفي هذا الجو تعرض الفلاسفة لموجة من الاضطهاد لم يسلم منه ابن ماجة فاتهم بالزندقة والإلحاد حتى مات مسمومًا بأيدي أعدائه. ويتصف عصر ابن ماجة (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) أنه الوقت الذي أخذت فيه آثار التبادل الفكري، وانتقال العلماء والكتب بين المشرق والمغرب الإسلاميين قد أخذت تؤتي أكلها، فظهر تأثر علماء الأندلس بعلماء المشرق الإسلامي، فضلاً عن الأثر اليوناني الذي انتقل مباشرة إلى الأندلس نتيجة لحسن العلاقات بين أباطرة القسطنطينية من ناحية، وخلفاء بني أمية في الأندلس من ناحية أخرى.

ويبدو أن ابن ماجة اشتغل أيضًا بالطب والرياضيات والفلك والموسيقى، ولكن معظم كتاباته فقدت، ولم يبق إلا أسماؤها، مثل شرح كتاب «السماع الطبيعي» وكتاب «النفس» وهو تعليق على كتاب الفارابي في الصناعة الذهنية.

أما ابن الطفيل المتوفى سنة ١١٨٥م فقد اشتغل بالطب والفلك والفلسفة، وبقيت له رسالة حي بن يقظان، وهي قصة جميلة جمعت بين سمو الأدب وعمق الفلسفة، ويبدو ابن الطفيل في هذه القصة متأثرًا بآراء الأفلاطونية الحديثة، ومن خلالها **يظهر أن الدين لا يتعارض مع العقل**، وأن الإنسان إذا بلغ أقصى درجات الرقي اتصل بالله عز وجل.

ومهما يكن من أمر فلاسفة الأندلس، فإن **ابن رشد المتوفى سنة ١١٩٨م** يعتبر أعظمهم إطلاقًا، وأعمقهم فكرًا، وأوسعهم أثرًا في الغرب الأوربي. وقد بدأ حياته بتعلم علوم الدين، من تفسير وحديث وفقه وشريعة، ومن ثم فقد تولى القضاء لفترة ليست بالقصيرة، ثم انتقل إلى الطب، ومنه التفت إلى الفلسفة. وفي اشتغاله بالفلسفة أعجب بأرسطو إعجابًا شديدًا، فوضع شروحًا لفلسفته تعتبر أعظم ما كُتب في تفسير فلسفة أرسطو. وفي تفسيره لفلسفة أرسطو أطلق ابن رشد العنان لفكره، فضرب مثلاً في حرية الفكر، ولم يبال بتهم الزندقة

والكفر والإلحاد التي وجهت إليه، حتى اعتبره الغربيون أكبر مثل لحرية الفكر في العصور الوسطى. وقد اختار ابن رشد أن يعبر عن آراء أرسطو تعبيرًا أمينًا صادقًا كما فهمها، فأنكر الخلود والبعث، وصرح بأن على المرء ألا ينتظر ثوابًا أو عقابًا غير ما يلقاه في الحياة الدنيا، وتعرض للفلسفة الخلقية الاجتماعية، فأعلن كرهه للاستبداد، ورأى عدم وجود خلاف بين الرجال والنساء في الطبع، إنما الاختلاف بينهم في الكم. وقد قيل أنه إذا كان أرسطو هو الفيلسوف الأكبر، فإن ابن رشد هو الشارح الأعظم. وقد خالفت شروح ابن رشد آراء الكنيسة في كثير من اتجاهاتها، مما أثار نقمة رجال الدين في غرب أوربا على أرسطو وابن رشد جميعًا[(١)].

وقد بيَّن ابن رشد في بداية كتابه «فصل المقال» أن النظر في كتب القدماء أمر واجب بالشرع ما دام الهدف الذي يقصدون إليه هو ذات المقصد الذي حثنا عليه الشرع وهو: النظر العقلي في الموجودات، وطلب معرفتها واعتبارها، غير أن النظر في كتب القدماء يتطلب عقلية ناقدة، لا تعتمد إلا ما يوافق الحق الذي جاء به الدين.

وفي ذلك يقول ابن رشد: «**ننظر في الذي قالوه من ذلك، وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرناهم منه وعذرناهم**».

وقد كان ابن رشد على اقتناع تام **بعدم وجود تناقض بين الحقيقة الفلسفية والحقيقة الدينية**، وقد دافع عن اقتناعه هذا بكل ما يملك من قوة. ولم يشأ ابن رشد أن ينتقص من إحدى الحقيقتين لحساب الحقيقة الأخرى، ولذلك ظلت علاقة كل من الحقيقتين بالأخرى علاقة متزنة ترتفع فيها كل التناقضات.

فالحكمة كما يقول: «صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة... وهما المصطحبتان بالطبع، المتحابتان بالجوهر والغريزة».

ومن المعروف أن أوربا في العصور الوسطى كانت تعيش في حالة من الظلام الفكري الدامس، وكانت واقعة تحت ضغط سلطة كنسية طاغية، تتعقب المفكرين أينما كانوا، وقد ظل الصراع محتدمًا بين العلم والدين، وبين المفكرين واللاهوتيين قرونًا عديدة، وقد تمخض هذا الصراع عن انتصار الفكر وتقلص السلطة الكنسية، واستقلال العلم عن الدين.

---

(١) المرجع الدكتور سعيد عاشور في كتاب: حضارة الإسلام، ص١٠٤.

وكان ابن رشد فيلسوفًا تنويريًا على المستويين العقلي والديني على السواء، كما أن التنوير الرشدي يختلف في أهدافه ووسائله عن التنوير الأوربي في القرن الثامن عشر، نظرًا لاختلاف الظروف والملابسات التي سادت كلاً من المجتمع الأوربي والمجتمع الذي عاش فيه ابن رشد، ومن هنا اتخذ التنوير الأوربي طريق العقل مبتعدًا عن الدين، في حين انصهر الدين والعقل في بوتقة التنوير الرشدي في تركيبة فريدة، وفي تآخ منقطع النظير، وقد ساعدت العقيدة الإسلامية ابن رشد على اتخاذ هذا الموقف. وهذا ما أكده الشيخ محمد عبده في «رسالة التوحيد» حين قال: «وتآخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس على لسان نبي مرسل بتصريح لا يقبل التأويل»[1].

ولابن رشد كتب هامة هي: فصل المقال، مناهج الأدلة، تهافت التهافت، بداية المجتهد ونهاية المقتصد.

---

(١) مقتبسات من كتاب: مقدمة في الفلسفة الإسلامية، للدكتور محمود حمدي زقزوق، ص١٠٠ وما بعدها.

الفصل الرابع
الدول التي قامت في مصر

في هذه الفترة- فترة ضعف الخلافة العباسية- قامت في مصر دول قد ترتبط بالخلافة العباسية ارتباطًا قويًا أو ضعيفًا، وقد لا يجمعها بالخلافة العباسية أي ارتباط، بل على العكس قد تكون العلاقة عدائية بين الاثنين. وهذه الدول هي على الترتيب:
الدولة الطولونية، الدولة الإخشيدية، الدولة الفاطمية، الدولة الأيوبية، دولة المماليك.

وكانت هذه الدول إلى حد ما تابعة للدولة العباسية، وتتبع المذهب السني مثلها، باستثناء الدولة الفاطمية التي كانت مستقلة تمام الاستقلال، وتأخذ بمذهب الشيعة. وسوف نتحدث عن هذه الدول فيما يلي:

١- الدولة الطولونية:

كانت الديار المصرية، منذ الفتح الإسلامي إلى مقدم أحمد بن طولون، وتأسيسه الدولة الطولونية، لا تعدو أن تكون إمارة تابعة للخلافة الإسلامية في المدينة المنورة ثم في دمشق، ومن بعد في بغداد. وكان الخلفاء يرسلون إلى مصر الأمراء للولاية عليها، وكان اعتمادهم على خراج مصر كبيرًا في تعمير بيت المال للدولة الإسلامية. وفي سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م عين الخليفة العباسي واليًا على مصر هو: «باكباك» الذي آثر أن يبقى في عاصمة الخلافة للوقوف على الأحداث، وأرسل صهره نائبًا عنه إلى مصر، وهو أحمد بن طولون.

وقد دخل أحمد بن طولون الفسطاط في رمضان سنة ٢٥٤هـ، ولم يلبث صهره أن توفي، فصارت إليه الولاية، وسنحت له الفرصة لتكوين جيش خاص به، وصل عدده إلى مائة ألف جندي من الأتراك والسودانيين والروم وغيرهم. وقد سكن أول قدومه إلى مصر «العسكر»، فلما زاد عدد جنوده بنى لهم ضاحية من الفسطاط سُميت «القطائع». ثم تمكن من ضم الشام إلى مصر.

واشتهر ابن طولون بالإنفاق في أوجه الخير، فكان يوزع الأطعمة والصدقات على الناس، ووصل أمر ثرائه إلى أنه خلف عند وفاته في خزائنه من الذهب عشرة ملايين دينار، ومن المماليك سبعة آلاف. وبنى مسجدًا فريدًا في طرازه وفي مئذنته.

وكان ابن طولون قد أوصى لابنه خمارويه بالإمارة من بعده، وبايعه الجند بعد وفاة أبيه في ذي الحجة سنة ٢٧٠هـ. وكان الخليفة العباسي قد حاول استعادة مصر، وتنحية الأسرة الطولونية، إلا أن لأحوال استقرت فيما بعد بين الجانبين، وتأكد الصلح بعد وفاة الخليفة المعتمد وتولية المعتضد.. الذي خطب لنفسه قطر الندى بنت خمارويه. ومات خمارويه- بعد ذلك- قتيلاً على أيدي خدمه وجواريه في دمشق في ذي القعدة سنة ٢٨٣هـ، وخلفه ابنه أبو العساكر جيش، وهكذا كانت الإمارة وراثة بين الأبناء.

وعادت مصر تابعة تبعية كاملة للخلافة العباسية، على إثر سقوط الدولة الطولونية سنة ٢٩١هـ، على يد القائد العباسي محمد بن سليمان الكاتب. فكأن الدولة الطولونية لم يزد عمرها عن ٣٨ سنة.

٢- الدولة الإخشيدية :

حاول الخلفاء العباسيون السيطرة على مصر بعد الأسرة الطولونية من خلال كثرة تغيير الولاة، واقتطاع جزء من اختصاصاتهم ومنحه إلى صاحب الخراج الذي يعينه الخليفة مباشرة ولا يتبع الوالي، وكان عدد الولاة الذين تولوا مصر أحد عشر واليًا في مدة ثلاثين عامًا. ولكن محمد بن طغج الإخشيد- وهو أحد القادة- تمكن من أن يؤسس في مصر دولة شبه مستقلة، ذات قوة لا يستهان بها، وأورثها لأربعة من أسرته.

وفي سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م حاول الفاطميون غزو مصر للمرة الثانية، فصدهم محمد بن طغج، وانتصر عليهم، فعهد إليه الخليفة العباسي «المتقي» بولاية مصر في سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م. وبعد سنتين من قيام الدولة الإخشيدية ضم الإخشيد إليه الشام، وفي العام التالي مد الإخشيد نفوذه إلى مكة والمدينة ليكون له الإشراف على الحرمين الشريفين بهما.

وكان الإخشيد يحاول التشبه بأحمد بن طولون، وإن كان الفارق بينهما كبيرًا، فالصفات والإمكانات التي أوتيت لابن طولون كانت تفوق ما أوتي الإخشيد، الذي يذكر عنه المؤرخون أنه لم يكن على ثقافة أو اتساع ذهن أو طموح بعيد، بل كان بخيلاً أميل إلى الجبن وسوء التصرف والجشع إلى المال، وإن كان شديد التقى والورع.

توفي محمد الإخشيد في دمشق سنة ٣٣٤هـ/٩٤٦م، وكان قد عهد بولاية العهد من بعده لولديه أونوجور وعلي، وأن تكون الوصاية عليهما لغلامه

كافور. ونظرًا لصغر سن أونوجور فقد سيطر كافور على زمام الأمور، ولم يكن كافور إلا عبدًا حبشيًا أو نوبيًا من عبيد الإخشيد، أخلص له بشدة، فرفعه وعهد إليه بتربية ابنيه. ولما توفي أونوجور نودي بأخيه علي بن الإخشيد أميرًا على مصر، وظلت الأمور كلها في يد كافور، وكان يقال له الأستاذ أبو المسك كافور، وصمد كافور في الحفاظ على كيان الدولة، وصد عنها العدوان الفاطمي أكثر من مرة وقد توفي سنة ٣٥٧هـ/٩٦٧م. وسقطت مصر في أيدي الفاطميين بعد وفاته بعام واحد[١].

حضارة مصر في عهد الطولونيين والإخشيديين :

أسهمت مصر بنصيب وافر في النهضة الثقافية التي عمت العالم الإسلامي منذ القرن الثالث الهجري، وقد كان قيام الدول المستقلة في مصر إيذانًا ببدء مرحلة هامة في تطور الثقافة العربية في مصر، **ذلك أن الأمراء من الطولونيين والإخشيديين عملوا على تشجيع الحركة العلمية**، وأصبحت قصورهم محط أنظار العلماء والفقهاء والأدباء.

ففي العلوم الدينية، كان للمدرسة الدينية باع طويل في علوم الحديث والفقه والقراءات، وأصبحت لها شخصيتها المستقلة المتميزة عن المدارس الإسلامية الأخرى، وكان العلماء يفدون إلى مصر من مختلف الأمصار الإسلامية يلقون ويتلقون، وكان جامع عمرو بن العاص في الفسطاط، وجامع أحمد بن طولون في القطائع مركز إشعاع للثقافة الدينية، ليس في مر وحدها بل في العالم الإسلامي بأسره.

وقد اشتهر من المحدثين والفقهاء كثيرون، فمن فقهاء الشافعية في العهد الطولوني، الربيع بن سليمان تلميذ الشافعي، الذي كان محدثًا فقيهًا، ويرجع إليه الفضل الأكبر في نشر المذهب الشافعي في مصر، واشتهر عن فقهاء الشافعية في عهد الإخشيديين: أبو بكر بن الحداد الذي كان موسوعة دينية وثقافية. أما فقهاء المالكية فقد لمع منهم في عهد الطولونيين محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، كما لمع أيضًا محمد بن مهدي الأسواني.. الذي ولي قضاء مصر سنة ٣٤٠هـ، وابن مسكين، وأبو إسحق وغيرهم.

---

(١) المرجع: كتاب المجمل في تاريخ مصر، تأليف الدكتور ناصر الأنصاري، ص٩٩ وما بعدها.

ومع أننا لا نجد شعراء مرموقين من المصريين في هذه الفترة، إلا أننـا لا ننكر تشجيع الأمراء للشعر والشعراء، ويكفي أن قصائد المتنبي في كافور قد خلّدت ذكره بأكثر مما خلدته أعماله بكثير. **وازدهر النثر الفني خصوصًا بعد أن أنشأ الطولونيين «ديوان الإنشاء» بمصر.** وكان أشهر أدباء مصر في العـصر الإخشيدي: أبو بكر محمد بن موسى الكندي المعـروف بـسيبويه المـصري، لبراعته في النحو، لكنه، لم يكن مجرد نحوي، بل كان موسوعة أدبية كاملة.

وكانت هناك حركة علمية فلسفية من بقايا مدرسة الإسكندرية القديمـة، وكانت العلوم الفلسفية تشمل الطب والنجوم والإلهيات، لذلك كان أغلب علمائهـا من النصارى، فاشتهر منهم سعيد بن نوفل النصراني طبيب ابن طولون، وسعيد بن البطريق المؤرخ، على أن بعض علماء المسلمين اتصل برجال هذه الحركـة وتأثر بهم.. كابن الداية وغيره[١].

---

(١) المرجع: كتاب في تاريخ مصر الإسلامية، تأليف الدكتور محمد بركات البيلي، ص٨٣.

٣- الدولة الفاطمية

نبذة عن المذهب الشيعي:

سُميت هذه الدولة «الفاطمية» نسبة إلى السيدة «فاطمة الزهراء» بنت رسولنا سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وقد أسسها أصحاب المذهب الشيعي.

والمقصود بالشيعة تلك الطائفة التي شايعت الإمام علي بن أبي طالب، وقالت بحصر الخلافة- وتسمى عندهم الإمامة- في عليّ وذريته. وكان يجمع بين أنصار عليّ عاطفة المحبة نحو آل البيت، والإعجاب بشخصية الإمام عليّ وصفاته، وبعد مقتل الإمام عليّ (عام ٤٠هـ) بايع أنصاره ابنه الحسن، ولكنه سرعان ما نزل عن الخلافة لمعاوية عام ٤١هـ.

والواقع أن استحداث نظام ولاية العهد، ومبايعة يزيد بن معاوية بها، أدى إلى توارث الحكم في البيت الأموي، والخروج على مبدأ الشورى، ورفض الحسين بن علي مبايعة يزيد بالخلافة بعد موت معاوية، وعمد الأمويون بدورهم إلى اضطهاد الشيعة وسحق ثوراتهم، ومن أبرزها واقعة كربلاء (عام ٦١هـ) والتي انتهت بمقتل الحسين، وكل من كان معه من آل البيت.

وبالرغم من أن الدولة العباسية قامت بمعاونة الشيعة إلا أنها تنكرت لهم وأذاقتهم من الاضطهاد ما يزيد عما لاقوه في العصر الأموي، ومن ثم فقد نظر الشيعة إلى العباسيين، مثلهم مثل الأمويين، على أنهم مغتصبون للخلافة.

وآراء الشيعة على اختلاف فرقهم تتلاقى حول أن الإمامة ركن في الدين، ويرون أن من لا يقر بإمامة علي والأئمة من ذريته من بعده فهو كافر، ونتيجة لذلك لا يعترفون بخلافة بني أمية وبني العباس، ولكنهم يعترفون بخلافة الفاطميين في مصر. ويتعين على الإمام- في رأيهم- أن يوصي بالإمامة لخلف له، كما فعل رسول الله حينما أوصى بها للإمام علي (على حد قولهم) ومن هنا يصفون عليًا بأنه «الوصي» أي أوصى به الرسول. ونتج عن ذلك أنهم يعتبرون الإمام معصومًا من الخطأ، وكان الاعتراف بالإمام وطاعته جزءًا من الإيمان، فهو قد ورث علم الظاهر وعلم الباطن عن الرسول، وورّثه لمن يجيء بعده.

وأكثرهم يقول بعودة الإمام المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً ونورًا بعد أن مُلئت ظلمًا وجورًا، وهو المهدي المنتظر.. الغائب غيبة مؤقتة، وينوب عنه نائب يسمى أحيانًا «باب». كما أن من المبادئ المسلمة جواز التقية أي المداراة،

إذا ما تغلب أهل القوة على أهل الحق، وخشي الإمام على نفسه وعلى مذهبه. وقد انعكست أفكار الشيعة السياسية والدينية على مسلكهم في الفقه، فهم لا يستشهدون إلا بآراء وأقوال أئمتهم، ويجمعون أحاديث نبوية مشكوك في صحتها ترفع من شأن الإمام علي، مثل حديث: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها»، كما أنهم يرفضون كلاً من الإجماع والقياس كدليل للأحكام.

وأكثر الشيعة قالوا بحصر الإمامة في ذرية الإمام عليّ من زوجته السيدة فاطمة الزهراء، واعترفوا بإمامة علي زين العابدين بن الحسين (توفي عام ٩٤هـ)، وكان هو الإمام الرابع، ثم اختلفوا في الأئمة بعد ذلك، وانقسموا إلى الفرق الرئيسية الآتية: الزيدية، والاثنى عشرية، والإسماعيلية، وهذه الفرقة الأخيرة كانت على درجة كبيرة من التنظيم، فهم يخضعون في تنظيم ونشر تعاليمهم لهيئة من الدعاة يرأسها كبير الدعاة، وتتميز بما قدمته من تفسير رمزي لآيات القرآن الكريم يسمونه تأويل الباطن، واتبعت الإسماعيلية مبدأ التقية، فقاموا بنشر تعاليمهم في سرية تامة بعد أن يقسم المريد يمين الكتمان.

تأسيس الدولة الفاطمية :

ظهر إمام الإسماعيلية المستور من الاختباء، واتخذ لنفسه **لقب المهدي**، وأعلن نفسه خليفة للمسلمين عام ٢٩٧هـ في المغرب. وقد استطاع أحد أبناء المهدي وهو: **المعز لدين الله الفاطمي** فتح مصر، فأرسل قائده: جوهر الصقلي، وتم له الاستيلاء على مصر سنة ٣٥٨هـ. بفضل ضعف الإخشيديين الذين كانوا يحكمون مصر، وذلك فضلاً عن ضخامة الجيوش الفاطمية وحسن استعدادها. وأسس جوهر الصقلي مدينة القاهرة إلى الشمال من الفسطاط والقطائع، وذلك قبل قدوم الخليفة المعز لدين الله إليها سنة ٣٦٢هـ. وغدت القاهرة بذلك عاصمة للدولة الفاطمية وأجزائها الممتدة من مراكش (المغرب) إلى أطراف الديار المصرية، كما أنشأت الدولة الفاطمية في بداية تأسيسها **الجامع الأزهر**.

وأدى استقرار الخلافة الفاطمية بالقاهرة إلى اشتداد المنافسة بين الفاطميين والعباسيين، فأخذ المعز لدين الله الفاطمي وخلفاؤه يعملون على امتداد دولتهم شرقاً حتى اشتملت على الشام، ثم استقر نفوذ الفاطميين هناك على عهد العزيز بالله (٣٦٥هـ)، إذ ورث الفاطميون ممتلكات الإخشيديين في الحجاز والشام، وغدا اسم الخليفة الفاطمي يُذكر في خطب الجمعة من جميع المساجد من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر.. واليمن والحجاز والشام.

وقد توفي المعز في شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ، بعد أن حكم أربعًا وعشرين سنة، وخلفه ابنه **العزيز بالله الفاطمي**، وكان عهده عهد يسر ورخاء وتسامح ديني، وثقافة واسعة، وهو أول من حوّل الجامع الأزهر إلى جامعة بمعناها المعروف الآن، بعد أن كان معهدًا خاصًا بدراسة الفقه الشيعي، ومسجدًا لإقامة الصلاة.

وفي عهد العزيز نبغ طائفة من الشعراء والكُتّاب والأطباء والمؤرخين، فمن الشعراء نبغ أبو حامد الأنطاكي، ونبغ في الطب علي بن رضوان.. الذي ألّف عدة كتب في الطب والفلسفة والمنطق، ونبغ في التاريخ الحسن بن إبراهيم ابن زولاق، وأبو الحسن علي الشابشتي الذي ولاه العزيز خزانة كتبه، واتخذه من جلسائه وندمائه.

وكان العزيز كريمًا محبًا للعفو، **واشتهر بالتسامح الديني، فكان يعطف على النصارى واليهود..** كما كان أبوه من قبله. وتزوج بنصرانية، وتوالى عطفه على الكنيسة القبطية، وقلّد عيسى بن نسطور النصراني الوزارة، كما عيّن منشأ بن إبراهيم اليهودي على بلاد الشام. ومات العزيز ببلبيس سنة ٣٨٦هـ، وهو في الرابعة والأربعين من عمره.

وفي فترة ضعف الخلافة العباسية، وصلت الخلافة الفاطمية إلى مركز الصدارة في العالم الإسلامي، وغدت الدولة الوحيدة صاحبة السلطان والنفوذ في شرق البحر المتوسط.

غير أن الدولة الفاطمية على عظمتها واتساع مساحتها وعنايتها بالترفيه عن الشعوب الخاضعة لها، وتدريس المذهب الشيعي في الأزهر الشريف، لم تستطع أن تجتذب إليها أهل السُّنة، بل ابتعد عنها علماء السُّنة وفقهاؤها، حتى إذا جاء الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦هـ وادعى الألوهية لنفسه، وأحاطت به طائفة الدروز تشجعه وتناصره، أخذت الدولة الفاطمية تفقد هيبتها في قلوب الناس. إلى أن تم اغتياله ليلاً في صحراء المقطم في ظروف غامضة على يد رجل سني بإيحاء من سيدة الملك أخت الحاكم بأمر الله، وذلك سنة ٤١١هـ. إلا أنه في عهد الحاكم أُنشئت «**دار الحكمة**»، وألحق بها مكتبة أُطلق عليها دار العلم، حوت كثيرًا من أمهات الكتب مما أُلِّف في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية.

وتولى «**الظاهر**» السلطة بعد أبيه وكان في السادسة عشرة من العمر،

فقامت عمته ست الملك بإدارة شئون الخلافة، ولما ماتت أمسك الظاهر بتقاليد الأمور بمساعدة الوزراء الذين بدأ نفوذهم في الظهور، وقد عاد الظاهر إلى السياسة التقليدية للخلفاء الفاطميين التي تقوم على التساهل، خلافًا للسياسة المتشددة التي كان يمارسها أبوه الحاكم. وتوفي الظاهر سنة ٤٢٧هـ، وتبعه الخليفة المستنصر.

الحضارة وحقوق الإنسان في الدولة الفاطمية :

زار أحد المؤرخين مصر وكتب يقول أنه: في مصر استقبله كبار رجال الدولة بحفاوة، وأجرى الكثير من الاتصالات بكبار الشخصيات، كما قام بزيارة الأماكن الهامة في مصر، وتنقل في أرجائها للوقوف على أحوالها.

فكان حريصًا على زيارة **الجامع الأزهر**.. الذي يعتبر أهم آثار الدولة الفاطمية، وقد وضع أساسه سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م، وانتهى جوهر الصقلي من بنائه بعد سنتين، وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة في شهر رمضان سنة ٣٦١هـ. ولم يلبث أن تطور الجامع الأزهر إلى جامعة تلقى فيها الدروس والمحاضرات في علوم الدين على المذهب الشيعي، ليكون للدولة الفاطمية مركز علمي يفد إليه الطلاب من ممتلكاتها ومن مختلف أرجاء العالم الإسلامي للدراسة. وقد اجتذبوا الطلاب إلى الدراسة في الأزهر، وقدموا لهم المأكل والمسكن.

وكان يُدرس بالأزهر الفقه الشيعي، والحديث، والتاريخ الإسلامي، وأنباء الأنبياء، واللغة، والنحو، وفي وقت لاحق كان يُدرس به الطب. وبالأزهر ٢٩ رُواقًا للصعايدة، والشراقوة، والبحاروة، ثم للحرمين، والأتراك، والأكراد، والهنود، والشوام.. وغيرها. وبه ١٣ محرابًا، و٦ مآذن، و٩ أبواب.

وكان يجلس به قاضي القضاة والمحتسب. وبعد أن تحول إلى جامعة للدراسة توقفت إقامة الصلوات فيه.. باستثناء صلاة الجمعة من كل أسبوع.

كما زار «**دار الحكمة**» التي أنشأها الحاكم بأمر الله، واطلع على ما بها من كتب نفيسة زاخرة، واسترعى انتباهه إقبال طلاب العلم عليها، وأنها تضم خيرة العلماء في جميع الفنون والعلوم، وأنه قد وضعت تحت إمرة هؤلاء وغيرهم من الطلاب والمطالعين أرزاق كافية، ووضع تحت تصرفهم الأوراق والمداد.

وقد استقبله «**داعي الدعاة**» وهي من الوظائف المهمة التي استحدثها

الفاطميون، وهي تشبه وزارة الدعاية والإعلام في الدول الحديثة، وكان يُختار لها الضالعون في الفكر الشيعي، والعارفون بأسرار الدعوة. وكان داعي الدعاة يشرف على الدعاية للمذهب، ونشره في العاصمة والأقاليم عن طريق المجالس والندوات والمحاضرات والمؤلفات، بل كان يسعى لنشر المذهب خارج حدود الدولة الفاطمية، وكثيرًا ما كان داعي الدعاة هو قاضي القضاة.

وكان العاضد هو آخر الخلفاء الفاطميين، وكان ضعيفًا مريضًا، وتوفي العاضد سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، وانتهز وزيره صلاح الدين الأيوبي الفرصة فأعلن انتهاء الخلافة الفاطمية، بعد أن حكمت مصر ما يربو على مائتي عام.

وهكذا انتهت الخلافة الفاطمية في غير جلبة أو ثورة أو حرب، وهي الخلافة التي عجزت الدولة العباسية عن إزالتها بالحرب أو السياسة.

٤- الدولة الأيوبيـة

وُلد صلاح الدين يوسف الأيوبي، مؤسس هـذه الدولـة، سـنة ١١٣٨م بمدينة تكريت (بشمال العراق) على نهر دجلة، واتصل والده نجم الدين أيـوب وعمه شيركوه بالأتابك زنكي[١]، فنشأ صلاح الدين في ظل البيت الزنكي، وتعلم علوم أولاد الأمراء، وهي حفظ القـرآن ودراسـة الفقـه والأدب، والتـدريب العسكري والفروسية والفنون الحربية المختلفة، واشترك صلاح الدين مع عمـه شيركوه في الحملات التي أنفذها السلطان نور الـدين، لمنـع الـصليبيين مـن الاستيلاء على مصر أواخر أيام الدولة الفاطمية. وأسفرت هذه الحمـلات عـن تولي شيركوه.. ثم صلاح الدين الوزارة بالقاهرة في أواخر عهد الدولة الفاطمية، ولم يكد صلاح الدين يستقر بشئون وظيفته المزدوجة، وهي عمله وزيـرًا فـي الدولة الفاطمية الشيعية، ونائبًا لمملكة سنية يرأسها نور الدين زنكي، حتى أخـذ رجال القصر الفاطمي يحيكون له المؤامرات.

وقد توفي الخليفة الفاطمي سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، ثم توفي نور الـدين سنة ١١٧٤م، فاستطاع صلاح الدين أن يعلن نفسه سلطانًا على مصر، وعلـى جميع مملكة نور الدين تدريجيًا، ووافق الخليفة العباسي في بغداد على أن يكون صلاح الدين سلطانًا على مصر. والتفت صلاح الدين أولاً إلى القضاء على الفتن التي قامت ضده في مصر، وقام بكثير من الأعمال الداخلية، فبنى القلعة الحالية، وأحاط القاهرة والفسطاط معًا بسور واحد، وشجع على إقامة معاهـد الدراسـة الفقهية السنية وهي المعروفة بالمدارس، ومنها مدرسة الإمام الشافعي الذي كان مذهبه هو الأكثر ذيوعًا وانتشارًا في مصر، وأنشأ صلاح الدين في مصر كذلك مستشفى هو الثاني من نوعه في مصر في تلك العصور. وقضى على كثير من مظاهر المذهب الشيعي، فأزال من أذان الصلاة عبارة: «حي على خير العمل.. محمد وعليّ خير البشر»، ثم أمر بأن تُذكر أسماء الخلفاء الراشدين: أبـو بكـر وعمر وعثمان وليس «علي» فقط. كما عزل صلاح الدين قـضاة مـصر مـن الشيعة، وولى قاضي قضاة سني شافعي المذهب.

نهاية الدولة الأيوبية :

غير أن أبناء البيت الأيوبي في مصر والشام اختلفوا فيمـا بيـنهم بعـد

---

(١) كلمة أتابك في الأصل كلمة تركية معناها المعلم أو المربي، ثم أصبحت تُطلق على صاحب السلطان.

صلاح الدين، وانقسموا وتحاربوا، واستعان ملوك الأيوبيين سواء بمصر أو الشام بجنود من المماليك المجلوبة من مختلف البلاد المجاورة، وازداد نفوذ أولئك الجند المماليك بسبب استمرار الحروب بين أبناء البيت الأيوبي، حتى أضحى هؤلاء الجند المماليك أصحاب الأراضي والأملاك والسلطة والنفوذ، فضلاً عن القوة الحربية.

وفي سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٩م استولى على السلطنة الملك الصالح نجم الدين أبو الفتوح أيوب، الذي كانت مدة حكمه تسع سنوات ملك فيها مكة وغزا بلاد اليمن، واستكثر من شراء المماليك وإعتاقهم وتأميرهم ليكونوا تعزيزًا لجيشه، وكان من بينهم شجرة الدر التي اتخذها زوجة له. وكان موته بالمنصورة أثناء الحملة الصليبية السابعة على مصر، قبيل المعركة التي تم فيها أسر الملك الفرنسي لويس التاسع، وأودع في دار ابن لقمان في المنصورة.

ولما مات السلطان الصالح أخفت زوجته شجرة الدر الخبر.. حتى لا يؤثر خبر موته على معنويات الجند في القتال الدائر مع الصليبيين، وقامت بنقل الجثمان إلى القاهرة من غير أن يشعر به أحد، وأخذت بزمام الأمور إلى حين، وسارت الأمور سيرًا طبيعيًا، وتوهم الناس أن السلطان مريض، وأرسلت إلى ابنه توران شاه للحضور من حصن قرب العراق، فسلمت إليه شجرة الدر مقاليد الأمور، ولكن هذا الأخير أساء التدبير، وعكف على السُكر والملاهي والملذات، فنفرت منه قلوب الناس، كما أنه اختلف مع أرملة أبيه شجرة الدر ولم يصن جميلها، فحنق عليه مماليك أبيه وقاموا عليه وقتلوه سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ولم يقم في السلطة سوى شهرين، وبموته انتهت دولة بني أيوب في مصر، بعد أن ظلت في الحكم حوالي ثمانين عامًا.

الاهتمام بالعلم في العصر الأيوبي:

كان أهم ما اتصفت به الحياة الدينية في العصر الأيوبي هو القضاء على آثار المذهب الشيعي، وتدعيم المذهب السني في أنحاء البلاد. وثمة ظاهرة دينية أخذت تزداد وضوحًا في العصر الأيوبي، وهي ظاهرة التصوف، والإكثار من بناء منازل للصوفية عُرفت باسم «الخانقاوات». ويُفهم مما كتبه المقريزي أن صلاح الدين أنشأ أول خانقاه بمصر، وهي خانقاه سعيد السعداء (٥٦٩هـ/١١٧٣م) وولى عليها شيخًا عُرف بشيخ الشيوخ، ووقف عليها الأوقاف للإنفاق على من فيها من الفقراء (الصوفية).

واشتهر سلاطين الأيوبيين بحبهم للعلم والعلماء، فكان صلاح الدين- وكذا خلفاؤه- يجمع حوله رجال العلم، ويحضر مجالسهم ليستمع إليهم ويشاركهم في أبحاثهم. لذلك لا عجب إذا اشتهر من بني أيوب أنفسهم أعلام في مختلف ضروب المعرفة، منهم المؤرخ الشهير أبو الفداء، وهو إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه، المتوفى سنة ٧٣٢هـ (١٢٣١هـ) وهو صاحب كتاب: «المختصر في أخباء البشر». وإذا كانت هذه هي رغبة سلاطين بني أيوب في العلم، فإننا لا نعجب لكثرة ما أسسوه من مدارس دُرست فيها العلوم الدينية وغير الدينية. وقد بنى صلاح الدين مدرسة للشافعية سنة ٥٦٦هـ. وقد عُرفت هذه المدرسة باسم الناصرية، أما المدرسة الثانية فكانت للمالكية، وقد عُرفت باسم المدرسة القمحية.. نسبة إلى القمح الذي كانت تحصل عليه من الوقف، ثم أنشأ صلاح الدين ثلاث مدارس أخرى، وبلك بلغ عدد المدارس التي بناها بمصر خمس، خلاف ما أقامه من مدارس في دمشق والقدس.

وكانت المدارس في ذلك العصر أشبه بالجامعات، فهي معاهد للتعليم العالي، ولكل مدرسة مذهبها الذي تتبعه، وإن كان بعضها يشمل أربع كليات للمذاهب الأربعة. وإذا كان المفروض في المدرسة أن تكون مركزًا للعلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير غيرها، فإن الوضع لم يلبث أن تطور حتى غدت المدارس مراكز لتدريس النحو والفلسفة والعلوم الطبيعية، فضلاً عن العلوم الدينية. ومع إنشاء المدارس عني الأيوبيون عناية كبيرة بالمكتبات، هذا مع ملاحظة أن المكتبات في ذلك العصر لم تكن قاصرة على المدارس فحسب، بل وجدت بالجوامع مكتبات كبيرة، فضلاً عن المكتبات الخاصة.

وإلى جانب المدارس التي كانت تمثل نوعًا من التعليم العالي، وجدت في العصر الأيوبي كتاتيب لتعليم الصغار القراءة والكتابة، وتحفيظ القرآن. وقد لجأ سلاطين الأيوبيين إلى تدعيم مدارسهم بالأوقاف الغنية التي أوقوفها عليهم.

وقد نشطت الحياة الأدبية في عصر الأيوبيين، وإن كانت الأحداث التي ألمت بالعالم الإسلامي آنذاك قد صبغت الآداب صبغة خاصة، فكسدت سوق الشعر، واتجهت القرائح إلى الأدعية ومدح النبي ﷺ وكذلك المعاني الصوفية. ومن أشهر شعراء مصر في العصر الأيوبي ابن سناء الملك المصري، وعمر بن الفارض، وقد اتصف شعره بمسحة واضحة من التصوف. كما اتصف النثر بإتقان الصناعة اللفظية، والمبالغة في التحقيق، كما يبدو ذلك بوضوح في كتابة

عماد الدين الأصفهاني، والقاضي الفاضل، وكان وزير صلاح الدين، وكتب عددًا ضخمًا من الرسائل.

أما عن التاريخ فقد شهد نشاطًا كبيرًا في العصر الأيوبي، ومن مؤرخي هذا العصر أبو علي الجواني المصري، والملك المعظم عيسى الأيوبي، وشهاب الدين أبو شام صاحب كتاب «الروضتين»، وجمال الدين القفطي صاحب كتاب: «إخبار العلماء بأخبار الحكماء».

ويتضح مما سبق أن صليل السيوف في ذلك العصر لم يوقف تيار التقدم الحضاري، ففي الوقت الذي كان بنو أيوب يخوضون أضخم معركة للجهاد دخلها المسلمون منذ قيام دولتهم الكبرى: إذًا بالمدارس تُفتح، والمكتبات تُنشأ، والصناعات والحرف والفنون تواصل تقدمها[1].

---

(١) المرجع: الدكتور سعيد عاشور وآخر في كتاب: مصر في العصور الوسطى، ص٣٨٩.

الباب الرابع
المماليك والغزو الأجنبي

الفصل الأول
دولة المماليك

أقام المماليك شجرة الدر سلطانة، وعيّنوا أحدهم وهو أيبك التركمان إلى جانبها. غير أن الخلافة العباسية صاحبة السيادة الاسمية على مصر لم ترض بتعيين شجرة الدر سلطانة على البلاد، فأقام المماليك **أيبك** سلطانًا، وخلعت شجرة الدر نفسها وتزوجت من أيبك، بعد أن انفردت بمقاليد البلاد مدة بلغت ثمانين يومًا فقط. ويُعد أيبك أول سلاطين المماليك (٦٤٨هـ/١٢٥٠م). وجرى العمل على تقسيم عهد المماليك إلى قسمين، وهما: دولة المماليك البحرية (١٢٥٠-١٣٩٠م) ودولة المماليك البرجية أو الشركسية (١٣٨٢-١٥١٧م). والمماليك البحرية كانوا من حرس السلطان الصالح أيوب، وأُطلق عليم هذا الاسم لأنهم كانوا يعسكرون في الروضة بجوار بحر النيل (نهر النيل) أما البرجية فنشأوا حرسًا للسلطان المملوكي قلاوون، وتعود تسمية هذه الأسرة بالبرجية إلى سكناهم في أبراج قلعة الجبل، أما لفظ الشركسية يدل على البلاد الأصلية التي وفدوا منها، وهي جورجيا الحالية التي يُنسب إليها الشركس. وجاء هؤلاء وأولئك من أجناس مختلفة، فمنهم التركي والشركسي والمغولي والإيطالي والألماني واليوناني، وإن كانت النسبة القليلة وردت من دول أوربية.

وتداول عرش مصر من سلاطين المماليك المعروفين باسم المماليك البحرية أربعة وعشرون سلطانًا، ومن المماليك المعروفين باسم المماليك البرجية ثلاثة وعشرون سلطانا. ولم يحترم المماليك مبدأ وراثة العرش لأنهم اعتبروا أنفسهم أسوياء، لا فضل لمملوك على آخر إلا بالشجاعة والقوة والمقدرة على استمالة التابعين من المماليك، فكان الأقوى والأكثر أتباعًا هو الذي يستأثر بالحكم.

وقد بلغت مصر مبلغًا عظيمًا من القوة والثراء والأبهة على عهد سلاطين دولة المماليك الأولى والثانية، وصدَّت كثيرًا من الأخطار الجسيمة التي هددت البلاد الإسلامية عامة، والشرق العربي خاصة.

وبعد وفاة أيبك اتفقوا على تولية ابنه على السلطة.. وله من العمر إحدى عشرة سنة، ولقّب بالمنصور، على أن يتولى الوصاية على العرش «الأمير سيف الدين قطز» وكان نائب أبيه في السلطنة، ولم تلبث أن اضطربت الأمور عندما بدأ هولاكو ملك المغول يهدد بغزو مصر، فكانت هذه فرصة **الأمير قطز**

لاغتصاب المُلك، فأعلن أن المنصور صغير السن، ولا يستطيع أن يقود البلاد في القتال ضد المغول دفاعًا عن مصر، فقبض على المنصور وحبسه في قلعة الجبل، وأعلن نفسه سلطانًا على مصر سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وتلقب بالملك المظفر. **وأبلى قطز بلاءً حسنًا في حربه ضد المغول، وانتصر عليهم في «عين جالوت»** بالشام (فلسطين) سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م وأسر منهم الكثيرين، وذلك بعد أن كانوا قد استولوا على بغداد سنة ٦٥٦هـ، وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله، وأزالوا دولة بني العباس في بغداد وخربوها. ووصلوا إلى حلب ودمشق في الشام، واستعدوا للزحف إلى مصر.

وأثناء عودة قطز منتصرًا، لقي مصرعه على يد جماعة أخرى من المماليك بزعامة الأمير بيبرس، وذلك لأسباب شخصية ترجع إلى عدم تعيينهم في مناصب كانوا يطمحون إليها قبل اشتعال المعارك. واتفق المماليك على تولية بيبرس السلطنة خلفًا لقطز.

وعندما تولى بيبرس عرش مصر عمل على إعادة الخلافة العباسية إلى مكانتها لهدف خفي، هو أن تضفي هذه الخلافة على ملكه الشرعية المطلوبة، فيقوى بذلك عرشه في مواجهة القوى المناوئة له داخليًا وخارجيًا. وعندما علم بيبرس بوصول رجل إلى دمشق يدعي أنه أحمد ابن الإمام الظاهر ابن الإمام الناصر العباسي، وجدها بيبرس فرصة سانحة لتحقيق غايته في إحياء الخلافة العباسية، فأحضره إلى مصر محاطًا بمظاهر تكريم لائقة، ثم عقد الظاهر بيبرس مجلسًا دعا إليه القضاة والعلماء والأمراء وسائر أرباب الدولة ليشهدوا بإثبات نسب هذا الإمام، وكذلك بايعه القضاة ولقبوه: «المستنصر بالله». وكان الدعاء لهما معًا على المنابر يوم الجمعة، ونقشت السكة في مصر باسميهما معًا كذلك.

واستقرت الخلافة العباسية في مصر أكثر من قرنين ونصف، إلى أن تمكن السلطان العثماني سليم الأول من فتح مصر، وانتقلت الخلافة من الأسرة العباسية إلى الأسرة العثمانية سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م.

ثم التفت بيبرس إلى الشام التي كانت قد انفصلت عن المملكة المصرية، واستقل بها بعض الأمراء الأيوبيين، فاستعاد أغلبها إن حربًا وإن صلحًا. ثم واجه خطرين خارجيين: هما الخطر المغولي (أو التتاري)، والخطر الصليبي الذي كان يكمن في بعض الإمارات اللاتينية التي استقرت على السواحل الشامية للبحر المتوسط.. وبعد أن أعد بيبرس جيشه إعدادًا جيدًا قام بمواجهة المغول، وتمكن من ردهم عن مصر والشام، ثم بدأ بالهجوم على الإمارات الصليبية

اللاتينية، فلا تكاد تخلو سنة من حكم بيبرس إلا بمواجهة من إحدى هذه الإمارات، وقد تمكن من هزيمتهم في أماكن متفرقة، حتى تمكن من استخلاص البلاد من الأمراء الصليبيين.

وقد خلف بيبرس في المدة الباقية من أسرة المماليك البحرية اثنان وعشرون من سلاطينهم، منهم اثنين من أبنائه. ثم آل الحكم إلى سلطان آخر لا يقل عن بيبرس فيما قدمه للبلاد، وهو السلطان المنصور **سيف الدين قلاوون**، الذي اهتم بشئون مصر الداخلية، فبنى المساجد، وأنشأ المستشفى التي تعرف باسمه، وعمل على إعداد جيش قوي آخر بعد أن أنهكت المعارك جيوش بيبرس، وورثه في الحكم اثنان من أبنائه أيضًا، وأحد عشر آخرين من سلالته، حتى انتهاء حكم أسرة المماليك البحرية سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م. حيث انتقلت مقاليد الحكم إلى أسرة المماليك البرجية أو الشركسية. وقد استمرت أسرة المماليك البحرية في الحكم ١٣٢ سنة.

أسرة المماليك البرجية :

استمرت هذه الأسرة في الحكم ١٣٤ سنة، وتُعرف أيضًا باسم المماليك الشركسية كما ذكرنا من قبل، وكانوا يشتهرون بالشجاعة والفروسية بالإضافة إلى الجمال والوسامة، وكانت تجارة الرقيق بينهم شائعة. **وأشهر سلاطين هذه الأسرة هو مؤسسها السلطان برقوق بن أنس**، الذي تولى السلطنة مدة تقرب من سبعة عشر عامًا من ١٣٨٢-١٣٩٩م، أسس خلالها دولة قوية عسكريًا، وذات ثقل سياسي في المنطقة، ومتسعة الأطراف.

وترتب على وصول الأمراء الأقوياء إلى عرش السلطنة أن اتسعت أطراف الدولة، وامتدت حدودها، فوصلت أقصى اتساع لها خلال القرن الخامس عشر الميلادي، فأضافت إلى أقاليمها المعروفة قبرص، وحاولت ضم رودس، كما قضت على الصليبيين في المنطقة، ثم بسطت نفوذها على أعالي الفرات وأطراف آسيا الصغرى الشرقية.

وشهدت مصر فترة رخاء وازدهار كبير، ونشطت التجارة والصناعة في الداخل، كما نشطت التجارة الخارجية، نتيجة لرسوم المرور التي كانت تحصلها مصر على البضائع التي تمر عن طريقها من البحر الأحمر إلى البحر المتوسط، إلا أنه تم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في هذه الفترة، مما أدى إلى القضاء على موارد مصر من هذه الرسوم.. التي كانت تدر دخلاً كبيرًا.

وقد أدى هذا الضعف الاقتصادي للمماليك مع زيـادة القـوة الـضاربة العثمانية في المنطقة إلى مواجهات عسكرية بين الطرفين، إلـى أن كـان اللقـاء العسكري بين **السلطان الغوري** من جهة، وسليم الأول العثماني من جهة أخـرى سنة ١٥١٦م، **وكان النصر في «مرج دابق»** قرب حلب للجيش العثماني، وفي هذه المعركة قُتل السلطان الغوري، ثم اتجه الجيش العثماني ناحية مـصر للاسـتيلاء عليها، وكانت الموقعة الأخيرة في «الريدانية» ثم «العباسية» بين المماليك بقيـادة طومان باي وسليم الأول سنة ١٥١٧م، وبهزيمة المماليك انهار حكم أسرة المماليك البرجية، وبدأ عهد جديد في مصر باستيلاء العثمانيين عليها(١).

حقوق الإنسان في عصر المماليك :

ساءت حالة الدولة في عصر المماليك البرجية نتيجة الصراع بين أمراء المماليك داخليًا، وانقطاع رسوم المرور التي كانت تجبى من التجـار الأجانـب نتيجة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح من جهة أخرى. وفي هذه الظـروف ولي السلطان الأشرف قنصوه الغوري السلطة، فعمل في سرعة علـى إعـادة الأمن والاستقرار إلى العاصمة، وملأ مناصب الدولة بمن يثق فيهم مـن كبـار الأمراء، ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية بعد أن أفلست خزانة الدولـة، فجمـع ضرائب عشرة أشهر مقدمًا دفعة واحدة، ولم يكتف بفرض هذه الضرائب علـى الأراضي والحوانيت والعقارات، وإنما تجاوز ذلك إلى الطـواحين والمعـديات والسفن ودواب النقل، هذا إلى أنه تلاعب في العملة لتستفيد الدولة من الفارق بين العملة الجيدة والعملة الرديئة، وضاعت المكوس والرسوم الجمركية، مما أنـزل بالتجار على وجه الخصوص أضرارًا بالغة، وكانت النتيجة أن حقـق الغـوري أغراضه، وحصل على ما كان يطمع فيه من الأموال.. ولكن على حساب شعب محطم، أثقلت كاهله الالتزامات والاحتكارات والضرائب.

وقد أدرك سلاطين المماليك أهمية الزراعة للبلاد، بوصفها عماد الثروة القومية، فعنوا بها عناية فائقة، فأنشأوا الجسور وشقوا الترع لتوفير مياه الـري للأراضي التي يتعذر وصول الماء إليها. وقد قسمت أرض مصر الزراعية إلى أربعة وعشرين قيراطًا، اختص السلطان منها بأربعة قراريط، والأمراء بعشرة، وما تبقي خصص للأجناد. وقام بفلاحة الأرض جمهرة الفلاحين الذين عاشوا في

---

(١) المرجع: كتاب: المجمع في تاريخ مصر للدكتور ناصر الأنصاري، ص١٥٣.

حال من الفقر والحرمان، فالفلاح ظل في ذلك العصر مربوطًا إلى الأراضي التي يفني حياته في خدمتها دون أن يتمتع بنصيب يُذكر من خيراتها، وقد تعرض الفلاحون لكثير من العسف من جانب أمراء المماليك من ناحية، ومن جانب الأعراب الذين طغوا عليهم من ناحية أخرى.

وقد عاش المماليك في مصر كطائفة منفصلة عما حولها، واحتفظوا بشخصيتهم، ولم يختلطوا بأي عنصر من عناصر السكان، ولم يسمحوا لسكان مصر بالانخراط في صفوفهم، ولم يتزوجوا منهم إلا فيما ندر. وقد عاش المماليك طبقة ارستقراطية تتمتع بالجزء الأكبر من خيرات البلاد دون أن يحاولوا الامتزاج بأهلها. أما المصريون فقد استطاعت بعض فئاتهم- مثل الموظفين والمعلمين والتجار- أن يحتفظوا لأنفسهم بمكانة مرموقة في المجتمع، ومستوى لائق من المعيشة، في حين ظل غالب أهل البلاد من العوام والفلاحين يحيون حياة أقرب إلى البؤس والحرمان.

وفي عصر المماليك ارتقت الصناعة رقيًا كبيرًا، حتى أصبحت مصنوعات ذلك العصر تكون في مجموعها إنتاجًا فنيًا رائعًا تزدان به متاحف العالم اليوم، وحسبنا الأقمشة الفاخرة المصنوعة من الحرير والصوف والكتان والقطن، وانتشرت في هذا العصر الصناعات المعدنية التي تتمثل في عدد كبير من الأواني النحاسية والطاسات الدقيقة الصنع ذات النقوش والكتابات الجميلة. أما الزجاج فقد صُنعت منه أنواع جميلة، بعضها من البللور، والبعض الآخر من الزجاج الملون المستخدم في النوافذ، وكذلك الخزف الذي صُنعت منه أواني متقنة جميلة، ولم تكن الصناعات الخشبية أقل تقدمًا في عصر المماليك.

ومهما يكن من أمر، فإن جميع الشواهد تدل على أن التجارة كان لها المقام الأول في النشاط الاقتصادي، وكانت مصر تقوم بدور الوسيط في التجارة بين الشرق والغرب. على أن الجشع سرعان ما دفع سلاطين دولة المماليك الجراكسة إلى اتباع سياسة احتكارية عنيفة، فاحتكروا تجارة التوابل والبخور، وبالغوا في تحديد أثمانها، إلى أن ضاق الأوربيون ذرعًا بسياسة سلاطين المماليك واحتكاراتهم، فجدوا في البحث عن طريق آخر إلى أن اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح.

وقد اهتم المماليك بشئون الدين، وخير ما يدل على اتساع دائرة النشاط الديني في عصر المماليك كثرة المنشآت الدينية التي أُقيمت في ذلك العصر، وما

زالت القاهرة وكثير من المدن في مصر والشام تمتلئ بالجوامع الجميلة الرائعة التي تنسب إلى سلاطين المماليك، حتى قيل إن عدد المساجد بمصر والقاهرة على عهد المماليك وصل إلى أكثر من ألف مسجد، وقلما نجد سلطان من سلاطين المماليك لم يؤسس مسجدًا أو أكثر، ولم تستخدم المساجد في العبادة فحسب، بل استخدمت أيضًا كمدارس يقصدها المعلمون والمتعلمون.

على أن أهم ظاهرة اتصفت بها الحياة الدينية في عصر المماليك كانت انتشار التصوف، ومن الثابت أنه وفد على مصر في القرن السابع الهجري كثير من مشايخ الصوفية، معظمهم من المغرب والأندلس، مثل أبو الحسن الشاذلي، وأبي العباس المرسي، والسيد أحمد البدوي. وهؤلاء وجدوا في مصر تربة صالحة لنشر تعاليمهم ومذاهبهم.

الحركة العلمية :

ازدهرت الحركة العلمية في مصر على عهد سلاطين المماليك ازدهارًا واسعًا، فغدت البلاد محورًا لنشاط علمي متعدد الأطراف، ويرجع السبب في ذلك إلى ما أصاب أنحاء العالم الإسلامي في العراق على أيدي المغول، وفي الأندلس على أيدي الصليبيين، فضلاً عما أصاب بلاد الشام من أضرار على أيدي الصليبيين والمغول جميعًا، وفي وسط هذه الغمة لم يجد علماء المشرق والمغرب بلدًا عربيًا آمنًا تطيب لهم فيه الحياة سوى مصر التي غدت مركزًا للخلافة العباسية، وصارت محل سكن العلماء، ومحط الرجال الفضلاء.

وخير ما يدل على ازدهار الحياة العلمية في عصر المماليك، هو عظم الثروة العلمية التي وصلتنا من ذلك العصر بالذات، وما زالت دور الكتب في جميع أنحاء العالم مشحونة بمئات المخطوطات التي ترجع إلى عصر سلاطين المماليك بمصر، والتي تناولت معظم ألوان المعرفة: الأدب والتاريخ والجغرافيا، والعلوم الدينية، والطب، والفلاحة، والمعارف العامة وغيرها.

وقد اشتهر من شعراء مصر في ذلك العصر الإمام البوصيري صاحب البردة، وتعرف باسم: «الكواكب الدرية في مدح خير البرية». وقد توفي سنة ٦٩٥هـ/١٢١٦م. أما الأدباء الذين اشتغلوا بالنثر فهم عديدون، منهم القلقشندي، وله كتب عديدة منها موسوعة «صبح الأعشى في صناعة الإنشا». وفي ذلك العصر كثر الاشتغال باللغة وعلومها، وظهر من علماء اللغة كثيرون على رأسهم ابن منظور المصري، وله كثير من المؤلفات على رأسها: «لسان العرب» المعجم الشهير، كذلك اشتهر من علماء اللغة ابن هشام المصري.

على أن أبرز العلوم في عصر سلاطين المماليك كان بحق علم التاريخ، إذ ظهر فيه عدد كبير من المؤرخين تركوا لنا تراثًا ضخمًا، منهم من أصحاب السير ابن عبد الظاهر. وهناك أيضًا من كتاب السير ابن سيد الناس، والقسطلاني.. وغيرهم كثيرون، علاوة على مؤرخي كتب الطبقات، مثل ابن خلكان صاحب كتاب «وفيات الأعيان»، وابن حجر العسقلاني صاحب كتاب «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، وشمس الدين السخاوي صاحب كتاب: «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع»، والسبكي صاحب كتاب: «طبقات الشافعية». ومن المؤرخين المشهورين: تقي الدين المقريزي صاحب كتاب: «المواعظ والاعتبار» وكتاب: «السلوك، وأبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي.. وهو من أصل مماليكي، ومن كتبه: «النجوم الزاهرة» وكتاب: «المنهل الصافي» وغيرهم كثيرون. وثمة ظاهرة امتازت بها الحياة الفكرية في عصر المماليك، هي الإقبال على تأليف الموسوعات الضخمة التي تحوي الموسوعة الواحدة منها كثيرًا من المعلومات المتنوعة. وبالإضافة إلى كتب «صبح الأعشى في كتابة الإنشا» للقلقشندي، هناك كتاب: «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري، وهو موسوعة كبيرة تقع في نيف وثلاثين مجلدًا، هذا فضلاً عما كتبه السيوطي وغيره من عديد المؤلفات التي يضيق البحث عن ذكرها. كما ظهر كُتّاب في التصوف مثل: تاج الدين بن عطاء الإسكندري.

ووُجد من العلماء من كتب في الهندسة والنجوم والفلك، والحيوانات، والنباتات وغيرها.

أما عن شئون القضاء والعدالة: فقد أولاها سلاطين المماليك جانبًا كبيرًا من اهتمامهم وعنايتهم، وكان أهم تطور حدث في النظام القضائي، هو ما قام به السلطان الظاهر بيبرس من تعيين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، بعد أن كان الوضع يقتصر على قاضي واحد هو الشافعي، وقد امتدت اختصاصات القاضي إلى جميع القضايا المدنية والجنائية. وقد وجُدت محكمة عليا تُعقد في دار العدل برئاسة السلطان، وعُرفت باسم محكمة المظالم. أما رجال الجيش فكان لهم: «قضاة العسكر» وهم مختصون بشئون الجند وليس لهم ولاية على غيرهم[1].

---

(١) المرجع: كتاب: مصر في العصور الوسطى، للدكتور سعيد عاشور وآخر، ص٥٣٩.

الفصل الثاني
الحملات الصليبية

إن قيام الدولة السلجوقية في بغداد في القرن الحادي عشر الميلادي، أعاد إلى المسلمين بعض الهيبة التي بددتها مظاهر الضعف في الخلافة العباسية، وبفضل السلاجقة غدت دار الإسلام قبلة أنظار العالم مرة أخرى. وجاورت هذه الدولة السلجوقية السنية غربًا دولة الخلافة الفاطمية الشيعية، فامتد سلطان الفاطميين على مصر وجنوب الشام. وعلى الرغم من العداء المستحكم بين السلاجقة والفاطميين لاختلافهما من حيث المذهب الديني، لم تستطع إحداهما أن تقضي على الأخرى، مع كثرة الحروب بينهما، ولذا بدت كل منهما ذات مكانة هامة في العالم الإسلامي. فضلاً عن الدولة الأموية في الأندلس، وهي دولة عظيمة الهيبة والمدنية في الجزء الجنوبي الغربي من أوربا. وهكذا بدا العالم الإسلامي في نظر العالم الأوروبي المسيحي على الأقل يقبض بيديه على أوربا من الشرق ومن الغرب.

أما أهم دول أوربا وقتذاك، فأولاهما الإمبراطورية الغربية الألمانية، التي اشتملت على ألمانيا وإيطاليا وأجزاء من بلجيكا وهولندا والنمسا والمجر، وهي التي صار اسمها الرسمي: الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وإمبراطورها وقتذاك هنري الرابع (من ١٠٥٦-١١٠٦م). وقامت في فرنسا مملكة قوية تولى عرشها ملوك من أسرة هيوكابيه، التي اشتهر منها وقتذاك الملك فيليب الأول (من ١٠٦٠-١١٠٨م). وفي إنجلترا أسس النومانيون مملكة قوية تولى عرشها إذ ذاك الملك وليم الثاني (من ١٠٨٧-١١٠٠م)، وفي أسبانيا المسيحية قامت ممالك نافار وأرجونة وقشتالة، وهي الممالك التي نهضت لحرب المسلمين في الأندلس أجيالاً عديدة.

وفي أقصى الشرق الأوربي قامت الدولة البيزنطية التي هزم السلاجقة إمبراطورها رومانوس ديوجينيس في موقعة منزكرت سنة ١٠٧١م (ذكرنا ذلك من قبل). وتولى عرش الدولة البيزنطية بعد هذه الموقعة الفاصلة الإمبراطور ميخائيل السابع (من ١٠٧١-١٠٧٨) وهو الذي استصرخ البابا جريجوري السابع لصد الزحف السلجوقي، وعبأ الشعور في غرب أوربا للحرب الصليبية.

ونتحدث هنا بإيجاز عن الحملات الصليبية ثم نعقب بالغزو المغولي.

بداية الحملات الصليبية

أصل هذه الحملات أنه منذ استولى المسلمون على فلسطين، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، أشرفت الخلافة الإسلامية على الأماكن المسيحية المقدسة بها مثل بيت المقدس وبيت لحم والناصرة والجليل، وأثارت هذه السيادة الإسلامية غضب الحجاج الأوربيين، منذ كثرت أعداد الوافدين منهم إلى بيت المقدس. على أن الحج فتح باب علاقات سياسية بين الدول الإسلامية وبعض الدول المسيحية الكبرى في أوربا مثل دولة الفرنجة، إذ حرصت هذه الدولة على دعم علاقاتها بالأماكن المقدسة لتستمد منها مركز الزعامة في العالم المسيحي، فبعث شرلمان إمبراطور الفرنجة (فرنسا)، ومنافس الإمبراطورية البيزنطية سفارة إلى الخليفة العباسي هارون الرشيد لتسهيل زيارة الحجاج الفرنجة لبيت المقدس، وأرسل هارون الرشيد سفارة إسلامية إلى شرلمان، وبعث معها- فيما يقال- مفاتيح كنيسة بيت المقدس، مفضلاً إياه على قسطنطين السادس إمبراطور البيزنطيين، وأصبح شرلمان في نظر المعاصرين حامي المسيحيين الذاهبين إلى الأماكن المقدسة. وظل الحجاج المسيحيون يلقون معاملة حسنة آنذاك سواء من السلاجقة أو من الفاطميين.. لكن تفكك الدولة السلجوقية، وكثرة حروبها الداخلية وقلة الأمن فيها بسبب هذه الحروب، حرم الحجاج المسيحيين من الاطمئنان على أنفسهم وأموالهم، فعادوا إلى بلادهم ووصفوا المتاعب التي يلقونها في كثير من المبالغة، ونادوا بانتزاع الأراضي المقدسة من المسلمين، وغدت تلك الروايات المختلفة عاملاً من العوامل التي أثارت الناس في أوربا نحو الحروب الصليبية.

ومما زاد الأمور اشتعالاً وقتذاك، سيطرة المسلمين على التجارة بين الشرق والغرب، إذ كفل الموقع الجغرافي للمسلمين إشرافًا على حركة التبادل التجاري الدولي.. برغم تعدد القوى السياسية التي تولت أمورهم، وذلك أن التبادل التجاري الرئيسي في العالم تدفق في العصور الوسطى من الشرق الأقصى والهند إلى البحر المتوسط، حيث هيمنت مصر والشام وآسيا الصغرى وإيطاليا على جميع الطرق التجارية. وأشرف المسلمون على هذه الطرق الواقعة كلها في أراضيهم. وجاءت السفن الأوربية إلى موانئ المسلمين بشواطئ البحر المتوسط- الإسكندرية ودمياط وطرابلس الشام- للحصول على منتجات الشرق الأقصى وغيرها مما تحتاج إليه من منتجات البلاد الإسلامية، وقامت الإمبراطورية البيزنطية بدور العميل الأول مع الدولة الإسلامية، تستورد منها البضائع وتتولى تصريفها إلى سائر بلدان أوربا الغربية.

الدعوة إلى الحرب في أوربا :

أخذت بعض الجهات الأوربية تروج أخبار المعاملة السيئة التي يلقاها الحاج إلى بيت المقدس، ووصلت بعض هذه الأخبار من ناحية الإمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع سنة ١٠٧٣م، إذ استغاث بالبابا لصد تيار السلاجقة الذي تدفق على آسيا الصغرى بعد انتصارهم في موقعة منزكرت. ورأى البابا في هذه الأخبار وسيلة لإعلاء شأن الكنيسة، وإعادة وحدتها بين الشرق والغرب، لأن الكنيسة الشرقية في القسطنطينية كانت قد انفصلت عن كنيسة روما قبل موقعة منزكرت.. لذا بدا الطريق ممهدًا لتأكيد الزعامة التي فقدتها البابوية بسبب هذا الانفصال، عندما استغاث الإمبراطور البيزنطي بالبابا جريجوري السابع. وفكر البابا في الدعوة إلى إعداد حملة صليبية من دول غرب أوربا لتحقيق مآرب شتى، هي طرد السلاجقة من آسيا الصغرى، وإعادة البيزنطيين إلى ممتلكاتهم بها، في مقابل عودة الاتحاد بين الكنيسة الشرقية والغربية.

وجدد الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كونين سنة ١٠٩٥م الاستغاثة مرة أخرى بالبابا أربان الثاني، ونجح أربان الثاني فيما عجز جريجوري السابع عن تحقيقه، إذ انتهز فرصة وجوده في مدينة كليرمونت بفرنسا سنة ١٠٩٥م، وألقى خطبة حماسية دعا فيها لإعداد حملة قومية ترمي إلى طرد السلاجقة الأتراك من آسيا الصغرى، وتخليص الأراضي المقدسة في القدس وما حولها من أيدي المسلمين، واستطاعت البوبية بذلك أن تصبح القوة الأولى والعامل الفعال الذي حوّل استغاثة الإمبراطور البيزنطي إلى حرب عامة مقدسة.

ولبى الأمراء الأوربيون دعوة البابا، وهم الطبقة الحرة العسكرية، وأصحاب الإقطاعيات الكبيرة من الأرض، وذوو النفوذ السياسي الكبير، ويرجع نفوذ هؤلاء الأمراء إلى ما هو معروف في غرب أوربا وقتذاك بالنظام الإقطاعي، الذي جعل المجتمع الأوربي ثلاث طبقات: طبقة رجال الدين، وطبقة المحاربين، وطبقة الفلاحين. وأطلق اسم الفرسان على طبقة المحاربين عمومًا لاعتمادهم في ذلك العصر على الخيل في القتال، ولا يدخل الرجل في طبقة الفروسية إلا بعد اجتياز شعائر خاصة تتولاها الكنيسة، بعدها يتلو عليه القس واجبات طبقته، وأهمها: الدفاع عن الدين، وإيواء الأرامل والأيتام، فضلاً عن الخدمة العسكرية في حروب السيد الإقطاعي الذي يتبعه.. ولو كانت هذه الحروب ضد ملك البلاد.

ومن دواعي الحروب الصليبية كذلك، صرف الإقطاعيين عن التنافس والشحناء، فضلاً عن الرغبة في تأسيس إمارات لهم أو إقطاعيات في الشرق، وذهب مع أولئك السادة وفرسانهم كثير من الناس فرارًا من البؤس والفقر أو حبًا في خدمة المسيحية.

ولقي الصليبيون من المدن البحرية الإيطالية مساعدة كبيرة في تموينهم وحملهم في السفن إلى الشام، ولم تكن مدن إيطاليا تقصد أن تخدم الدين فحسب، بل أسهمت في إعداد الحملات الصليبية لتحقيق أغراضها التجارية كذلك، كما تجلى في مطامع البندقية وجنوة وبيزا، إذ عمل كل منها على توسيع سلطانها ودعم نفوذها التجاري في بلاد الشرق الإسلامي والمسيحي، واستطاعت البندقية- بفضل موقعها الجغرافي- أن تنشر تجارتها في قارة أوربا، وسارت أساطيل البندقية إلى مصر والشام، واستبدلت بمنتجات أوربا حاصلات الشرق من التوابل والعطور وغيرها. وبذا غدا العامل التجاري سببًا من الأسباب الكثيرة التي أدت إلى استمرار الحروب الصليبية.

تكوين الإمارات اللاتينية :

جعل الصليبيون مدينة القسطنطينية ملتقى جيوشهم قبل العبور إلى آسيا الصغرى والشام، وقبل وصول هذه الجيوش اجتمع بالقسطنطينية سنة ١٠٩٦م أعداد شتى من الرجال والنساء في غير نظام أو خبرة بالقتال، وعبرت إلى الشاطئ الآسيوي، بزعامة رجل اسمه بطرس الناسك، فأُبيد معظم هؤلاء الناس، ما عدا بطرس نفسه، على أيدي السلاجقة المسلمين.

ثم وصلت الجيوش الصليبية إلى القسطنطينية سنة ١٠٩٧م بقيادة زعماء متعددين، وعبروا إلى الشاطئ الآسيوي في مايو سنة ١٠٩٧م. وبدأ الزحف الصليبي على آسيا الصغرى والشام في وقت ليس فيه قوة إسلامية تستطيع الوقوف في وجه الجيوش الصليبية، فالدولة السلجوقية الكبرى باتت بعد وفاة سلطانها ملكشاه سنة ١٠٩٢م دويلات متناثرة لا رابطة بينها سوى الحروب المستمرة. ولم يكن في استطاعة الخلافة الفاطمية- وهي صاحبة بيت المقدس وغيرها من المدن في جنوب الشام- أن تقوم بعمل كبير ضد الصليبيين، إذ عاش الخليفة الفاطمي بالقاهرة مسلوب السلطان، بسبب تنازع المصالح والأطماع بين الوزراء الفاطميين. ومن الواضح أن هذه العوامل سهلت على الصليبيين هزيمة المسلمين، كما سهلت عليهم تأسيس إمارات لاتينية (صليبية) في الشام.

وعندما أخذت الجيوش الصليبية تسير من آسيا الصغرى إلى الشام. سارت الإغارات والاحتلال على الوجه الآتي:

أ - **احتلال الرُّها** سنة ١٠٩٨م، وتأسيس أول إمارة لاتينية بها.

ب - **احتلال أنطاكية** في يونيو ١٠٩٨م عن طريق الخيانة، وتأسيس إمارة لاتينية بها.

ثم سارت القوات الصليبية الرئيسية جنوبًا إلى بيت المقدس «أورشليم» بقيادة جودفري[(١)].

جرائم الاستيلاء على بيت المقدس :

لم يحل يوم ٧ يونيو سنة ١٠٩٩م/٤٩٢هـ، إلا وكان الصليبيون جميعًا أمام أسوار بيت المقدس، وأخذوا يهاجمون المدينة معتمدين على عدد كبير من آلات الحصار والهدم، وفي حوالي منتصف يونيو وصلت ميناء يافا بعض السفن الجنوية التي استطاعت الاستيلاء على المدينة في سهولة بعد أن هجرها أهلها من المسلمين. ومن الثابت أن تلك السفن أحضرت للصليبيين كثيرًا مما كانوا يحتاجون إليه من عدد الحصار ومواد التموين، الأمر الذي جعلهم أمام بيت المقدس يحرصون على تأمين الطريق بينهم وبين يافا ليتمكنوا من الحصول على المساعدات التي تجلبها لهم الأساطيل الغربية، في الوقت الذي كانت فيه الحامية الفاطمية محصورة داخل أسوار بيت المقدس ومقطوعة الصلة عن العالم الخارجي تمامًا، وكان أن طال حصار الصليبيين لبيت المقدس، واشتدت حرارة الصيف مما أثار أعصابهم. وقد عمل الصليبيون برجين يطلان على سور المدينة، فأحرق المسلمون البرج الأول، أما البرج الثاني فقد زحف به الصليبيون، حتى ألصقوه بالسور، واستحكمت قبضتهم على البلد، وكشفوا من كان به من المسلمين، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد، فانهزم المسلمون.

وقد حدث هذا الهجوم الشامل الذي قام به الصليبيون على بيت المقدس ليلة ١٤ يوليو سنة ١٠٩٩م، ثم اشتد الهجوم واتخذ طابعًا عنيفًا صباح اليوم التالي، أي الجمعة ١٥ يوليو، وهو اليوم الذي استطاعوا فيه اقتحام المدينة بعد

---

(١) كتاب الدكتور إبراهيم العدوي (مرجع سابق)، ص٢٩٥.

حصار دام نيفًا وأربعين يومًا، ولم يسع الجند المدافعون عن بيت المقدس من المسلمين سوى الفرار عندئذ للاحتماء بالمسجد الأقصى والدفاع عنه، **فتبعهم الصليبيون واقتحموا المسجد، وأحدثوا بداخله مذبحة وحشية رهيبة، حتى أن الجنود كانوا يخوضون حتى سيقانهم في دماء المسلمين!!** وقام البعض باحتلال قبة الصخرة، وكانت غنية بما فيها من تحف ثمينة سال لها لعاب الصليبيين فنهبوها عن آخرها.

وقام الصليبيون بإطلاق سراح حاكم بيت المقدس، ومع ذلك فإن إطلاق سراح هذا الحاكم لم يكف لمحو أثر الجريمة البشعة التي اقترفها الصليبيون في بيت المقدس، وقتلهم آلاف الأبرياء من المسلمين بغير ذنب، **ذلك أن الصليبيين لم يتركوا مسلمًا في الطرقات أو البيوت أو المساجد إلا قتلوه واستباحوا دمه، دون أن يفرقوا بين رجل وامرأة وطفل، ولم يرع الصليبيون حُرمة المسجد الأقصى، فأجهزوا على كل من احتمى به من المسلمين وعددهم ما يزيد على سبعين ألفًا منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبَّادهم وزهَّادهم**، ممن فارق الأوطان وجاور هذا الموضع الشريف. ومهما يكن في الرقم الذي ذكره المؤرخون من مبالغة، فإن جميع الدلائل تشير إلى وحشية وعظم الجرم الذي اقترفه الصليبيون في بيت المقدس. **ولم يكن اليهود أحسن حالاً من المسلمين، إذ جمعوا اليهود في الكنيس (المعبد اليهودي) وأحرقوه عليهم**[١].

وعلى أثر هذا الفتح انتخب جوفري ملكًا على بيت المقدس لما امتاز به من الجسارة والإقدام، فاكتفى بلقب حامي قبر المسيح.

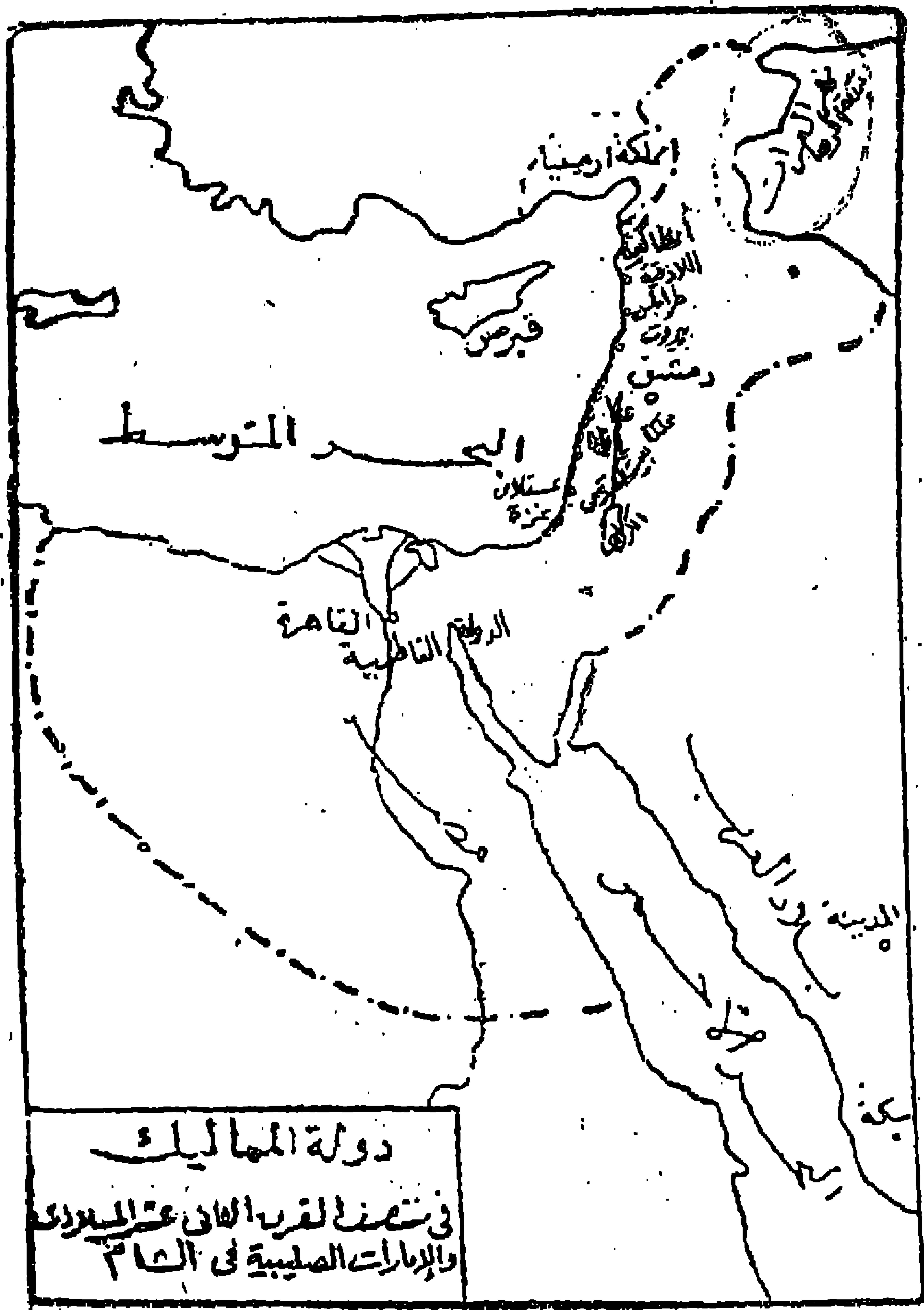
اقتحام مدن فلسطين :

ثم أخذ الصليبيون يقتحمون المدن الباقية في فلسطين، وسهَّل عليهم هذه المهمة تلك المساعدات التي كانت تقدمها أساطيل المدن الإيطالية، **فاستولوا على عكا، ثم على صور، وأنشأوا إمارة طرابلس** وولوا عليها ريموند. وعلى أثر استيلاء الصليبيين على بيت المقدس عاد عامة جنودهم إلى أوطانهم، وبذلك انتهت الحرب الصليبية الأولى. وتجددت الحملات الصليبية بعد ذلك حتى أن البعض يقدر عددها بتسع حملات، توجهت الأخيرة منها إلى مصر لإخضاعها.

ومرفق خريطة توضح دولة المماليك والإمارات الصليبية في الشام.

---

(١) الدكتور سعيد عاشور في كتابه عن الحركة الصليبية، الجزء الأول، ص١٩٠.



دولة المماليك

في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي والإمارات الصليبية في الشام

ولما مات جودفري جاء أخوه بلدوين أمير الرها، ونودي به ملكًا على بيت المقدس يوم عيد الميلاد، في سنة ١١٠٠م. ووسع بلدوين مملكته جنوبًا للحصول على ميناء على البحر الأحمر، ابتغاء الاستيلاء على جزء من التجارة مع الهند، فبنى إلى الجنوب من البحر الميت سنة ١١١٥م حصن الشوبك ليتحكم أولاً في طريق القوافل من دمشق إلى مصر والحجاز، ثم حاول بلدوين غزو مصر أكثر من مرة، أولاً عن طريق الطور، وثانيًا عن طريق العريش، ومات سنة ١١٠٨م أثناء محاولته الثانية داخل الأراضي المصرية، قرب مكان لا يزال يحمل اسمه محرفًا حتى العصر الحاضر، وهو سبخة البردويل (بحيرة البردويل) على البحر المتوسط شرقي بورسعيد، وبلغت مملكة بيت المقدس أقصى اتساعها زمن بلدوين، فامتدت من العقبة إلى بيروت على البحر المتوسط.

الجهاد الإسلامي

تطورت الحركة الإسلامية- بعد ذلك- لطرد الصليبيين إلى جهاد نهضت به دولة الأتابكة في شمال العراق والشام، وظهر من أمراء هذه الدول أتابك قوي، هو عماد الدين زنكي أمير الموصل (من ١١٢٧-١١٤٦م)، ثم بسط زنكي سلطانه على حلب، وغدا مؤسس دولة كبيرة تهدد ممتلكات الصليبيين في شمال العراق والشام. واستهل عماد الدين زنكي أعماله ضد الصليبيين بحصار مدينة الرُّها، وهي المعقل الأول للصليبيين في شمال سوريا والعراق، وبعد حصار دام أربعة أسابيع استولى زنكي على الرها سنة ١١٤٤م، ثم بدأ زحفه على مناطق الصليبيين الأخرى المجاورة، وأعانه في معظم حروبه أخوان من أصل كردي كانا في خدمته، وهما نجم الدين أيوب، وأسد الدين شيركوه. على أن زنكي مات قتيلاً سنة ١١٤٦م وترك لابنه نور الدين محمود زنكي إتمام الدور الأول من الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين.

جعل نور الدين عاصمته مدينة حلب، واصطدم نور الدين بمحاولة الصليبيين استرداد الرها، فقد أدى استيلاء المسلمين على هذا المعقل الهام إلى قيام الحملة الصليبية المعروفة بالثانية (من ١١٤٧-١١٤٩م) من أوربا بقيادة ملك ألمانيا وملك فرنسا، غير أن اختلاف المصالح الشخصية بينهما حوّل هذه الحملة إلى حصار دمشق بدلاً من استعادة الرها، وقاوم المسلمون هذا الحصار الصليبي على دمشق، وظل الصليبيون أمامها عاجزين عن اقتحامها، فاضطر الصليبيون إلى رفع الحصار، وعاد الملكان إلى أوربا، بعد فشل الصليبيين في تحقيق شيء

من أغراضهم في دمشق والرها، وانتهز نور الدين الفرصة وقام بضم دمشق سلميًا إلى مملكته.

واتجهت أنظار كل من نور الدين محمود في حلب، والصليبيين في بيت المقدس إلى مصر، وجاءت أحوال الخلافة الفاطمية نفسها عاملاً ساعد نور الدين على الفوز بمصر والاستيلاء عليها، إذ استنجد الوزير الفاطمي شاور بنور الدين ليساعده على منافسه في الوزارة الفاطمية وهو ضرغام، الذي استنجد بدوره بالصليبيين، وانتهى التسابق بين جيوش نور الدين ومملكة بيت المقدس إلى فوز قوات نور الدين بالبقاء في مصر، وغدت مصر محور الارتكاز، الذي يوشك أن تدور عليه أحداث المراحل المستقبلية من جهاد المسلمين ضد الصليبيين، ولا سيما بعد أن زالت الخلافة الفاطمية من مسرح التاريخ بالشكل الذي أوضحناه من قبل.

جهاد صلاح الدين الأيوبي

استطاع صلاح الدين الأيوبي أولاً توحيد الجبهة الإسلامية، بضم دمشق وحلب والموصل، وبذلك تم له تطويق ممتلكات الصليبيين من جهة مصر والشام، ثم اشتبك مع الصليبيين في معارك صغيرة، بسبب حركات صليبية مناوئة له، وأهمها حركة أرناط أمير حصن الكرك التابع لمملكة بيت المقدس، الذي تحكم بحصنه في طرق القوافل بين مصر والشام، ولم يهتم بالمهادنات التي عقدها صلاح الدين مع بيت المقدس. وقد قام أرناط بخرق الهدنة في محاولة فاشلة للاستيلاء على مكة والمدينة، ثم عاد إلى خرق الهدنة عندما تصدى سنة ١١٨٦م لإحدى القوافل الإسلامية المارة بحصنه، واستولى على جميع متاعها، وأسر كل أفرادها.

والواقع أن صلاح الدين لم يستطع أن يكظم غيظه أمام غدر أرناط، فأقسم على أن ينتقم من أرناط، بل إنه نذر دمه وأعطى الله عهدًا «إن ظفر به أن يستبيح مهجته». وكان أن قام صلاح الدين بحركة تعبئة شاملة لجميع قوى المسلمين ومواردهم البشرية والمادية استعدادًا لخوض معركة الجهاد الكبرى، وقد استقر صلاح الدين في دمشق، ومنها أخذ ينظم تعبئة قواته من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر. وعندما اكتملت استعداداته غادر دمشق إلى حوران حيث ترك فيها ابنه الأفضل في حين اتجه صلاح الدين نفسه إلى بصرى لحماية قافلة الحجاج الآتية من الحرمين سنة ١١٨٧م، خوفًا عليها من غدر أرناط، وهذه

القافلة هي التي كانت فيها إحدى أخوات صلاح الدين وابنها محمد بن عمر لاجين. ولم يكد صلاح الدين يطمئن على وصول القافلة بسلام، حتى شرع في مهاجمة أرناط. وقد حاولت قوات صليبية التصدي للمسلمين قرب «صفورية»، فدارت معركة رهيبة في أوائل شهر مايو سنة ١١٨٧م سقط فيها معظم الصليبيين بين قتلى وأسرى، وعاد المسلمون سالمين غانمين، وهم يحملون رؤوس أعدائهم على أسنة الرماح، وكانت هذه أول معركة حقيقية بين الطرفين.

ثم انتظر صلاح الدين قرب طبرية، ولما علم بتحرك الصليبيين صوبه، تقدم نحو خمسة أميال حيث رابط غربي طبرية **عند قرية حطين**، وهي قرية غنية المرعى وفيرة الماء. وكان يوم ٣ يوليو يومًا شديد الحرارة راكد الهواء عندما أدرك الصليبيون سطح جبل طبرية المشرف على سهل حطين، وبوصول الصليبيين إلى هذه الهضبة كانوا قد بلغوا حالة سيئة من الإنهاك، واشتد بهم العطش، وحال صلاح الدين بينهم وبين الوصول إلى الماء.

وعندما أشرقت شمس يوم السبت ٤ يوليه سنة ١١٨٧م، وجد الصليبيون أن صلاح الدين استغل ستار الليل ليحيط بهم، إحاطة الدائرة بقطرها، **وبذلك بدأ هجوم المسلمين على الصليبيين في ظروف هي أسوأ ما تكون بالنسبة للجيش الصليبي، واستمات المسلمون في القتال، وشددوا هجماتهم على الأعداء**، أما الصليبيون فقد تعذر عليهم الصمود طويلاً وهم على تلك الدرجة من الإنهاك والعطش، فأخذتهم سهام المسلمين، وكثر فيهم الجراح، وقوي الحر وسلبهم العطش القرار، ومنعهم الإعياء والحصار من الفرار. بينما أحاط المسلمون بالجبل، وظلوا يطاردون الصليبيين من أسفل، وهؤلاء يتراجعون أمامهم نحو أعلى الجبل، والقتل والأسر يعملان في فرسانهم، **حتى بقي ملك بيت المقدس وحوله مائة وخمسون من الفرسان، فقبض عليهم المسلمون جميعًا، وهم متساقطون على الأرض لا يستطيعون حراكًا من الإنهاك والعطش والخوف.**

ولم يلبث أن سيق ملك بيت المقدس جاي لوزجنان، وأرناط صاحب حصن الكرك، وغيرهما من أكابر الصليبيين إلى صلاح الدين في خيمته، وبعد أن صلى صلاح الدين صلاة شكرٍ على هذه النعمة، أمر بإحضار ملك الفرنجة وأمرائهم، فاستقبلهم استقبالاً حسنًا، وأجلس الملك إلى جانبه، وقدم ماءًا باردًا إلى الملك الذي أهلكه العطش. بعد ذلك التفت صلاح الدين نحو أرناط وذكّره بجرائمه وخيانته، وقرعه بذنوبه، وعدد عليه عثراته، وقال له كم تحلف وتحنث؟

فرد عليه أرناط بوقاحة على لسان المترجم: «قد جرت بذلك عـادة الملـوك». عندئذ أمسك صلاح الدين بسيفه وأطاح برأسه، وفاءً لنذره.

ثم أمر صلاح الدين رجاله برعاية أمراء الصليبيين وأسراهم. وبعد ذلك النصر المبين، انصرف صلاح الدين من حطين، في حين سيق الأسـرى إلـى دمشق حيث حبس الأمراء، وبيع عامة الفرسان والجند في أسواق الرقيق.

استرداد بيت المقدس وانهيار مملكة الصليبيين :

كانت حطين أعظم من مجرد نصر حربي أحرزه المسلمون، لقد كانـت في حقيقة أمرها بشيرًا بنجاح المسلمين في القضاء على أكبر حركة اسـتعمارية شهدها العالم في العصور الوسطى. وهكذا أصبحت بلاد الشام الـصليبية غـداة موقعة حطين تحت رحمة صلاح الدين، فشرع في فتح البلاد والمدن الـصليبيين واحدة بعد أخرى فتحًا متواصلاً، ويسترعي الانتباه اعتدال صلاح الدين وبُعـده عن التطرف، وتمسكه بمبادئ الأخلاق والرحمة والتسامح، وهو الأمر الذي شهد به الكافة من المؤرخين الغربيين والشرقيين على السواء.

وقد اختار صلاح الدين أن يبدأ أولاً على المدن الصليبية الساحلية، ليحرم الصليبيين من اتصالهم بالعالم الخارجي، وبما يمكن صلاح الدين مـن تحقيـق الاتصال البحري السريع بين شطري دولته في مصر والشام.

وقد نجح صلاح الدين في استرداد عكا وصيدا وبيروت، ثم استولى على جبيل، وهناك نلاحظ أنه إذا كان صلاح الدين قد استولى علـى معظـم المـدن والقلاع والمراكز الساحلية في جنوب بلاد الشام، إلا أنه ترك مـن فيهـا مـن الصليبيين أحرارًا، كما ترك لهم حرية البقاء أو الخروج. وقبل أن يتجه صـلاح الدين إلى بيت المقدس اختار أن يستولي أولاً على عسقلان، وفي طريقه استولى على مواقع عديدة كالرملة ويبنا والداروم.

ولم يبق أمام صلاح الدين في داخلية فلسطين سوى بيت المقدس، فأخـذ يستعد للاستيلاء عليها، وعرض صلاح الدين على ممثلي الصليبيين تسليم المدينة بالشروط نفسها التي استسلمت بها بقية المدن الصليبية، أي يؤمنهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم، ويسمح لمن يشاء منهم بالخروج من المدينة سالمًا، ولكن أهل بيت المقدس رفضوا ذلك العرض أول الأمر، وقالوا أن الموت أيـسر عليهم من أن يملك المسلمون بيت المقدس، ثم عادوا بعد فترة واستعطفوا صلاح الدين وطلبوا منه تنفيذ ما سبق أن عرضه عليهم، وفي النهاية تمت الموافقة على

ترك المسيحيين يغادرون المدينة مقابل فداء عشرة دنانير للرجل، يستوي فيها الغني والفقير، وخمسة للمرأة، وواحد للطفل، أما الفقراء والمعدمون الذين عجزوا عن دفع الفدية، فقد أعفاهم صلاح الدين. وأما اليتامى والشيوخ والأرامل من الصليبيين فإن صلاح الدين لم يكتف بإطلاق سراحهم دون فداء، بل منحهم مساعدات مالية من ماله الخاص! **وهكذا بدا الفارق عظيمًا بين سلوك صلاح الدين عندما استرد بيت المقدس سنة ١١٨٧م، وبين ما فعله الصليبيون بالمدينة وأهلها عندما سقطت في أيديهم سنة ١٠٩٩م**[١].

بعد استرداد بيت المقدس :

سلمت مدينة بيت المقدس في أكتوبر سنة ١١٨٧م بعد حصار دام أسبوعًا واحدًا. ثم استمر صلاح الدين في هجومه على مدن الصليبيين في الشام وفلسطين، فبلغ مدينة اللاذقية شمالاً، وحصن الكرك جنوبيًا، ولم تأت سنة ١١٨٩م حتى سقطت معظم المدن الصليبية التي هددت المسلمين، وبدا كأن الصليبيين سيخرجون جميعًا من الشام، لأنه لم يبق في حيازتهم سوى أنطاكية وصور، وبعض المدن الساحلية الصغيرة.

وقد أفزع سقوط مدينة بيت المقدس ملوك أوربا وأمراءها، وأدى ذلك إلى تجهيز الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة، التي تزعمها أكابر ملوك أوربا وقتذاك، وهم فردريك برباروسا إمبراطور ألمانيا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أجسطس إمبراطور فرنسا، وقد توفي الإمبراطوري فريدريك وهو في الطريق، أما ريتشارد فأبحر إلى قبرص، واستولى عليها في طريقه، ليجعل منها قاعدة حربية يستمد منها المعونة، ثم وجد ريتشارد أن الصليبيين في الشام يحاصرون ميناء عكا، فانضمت السفن والجيوش الإنجليزية والفرنسية إلى القوات الصليبية حول عكا سنة ١١٨٩م، وشددوا عليها الحصار حتى سقطت في أيديهم بعد سنتين من حصارها، وجعلوا منها قاعدة رمزية لمملكة بيت المقدس، بعد أن ذهبت مدينة بيت المقدس نفسها إلى المسلمين. ورحل ملك فرنسا بعد سقوط عكا، على حين بقي ريتشارد ملك إنجلترا سنة كاملة في الشام. فحارب ريتشارد صلاح الدين مرة أخرى، وهزم جيوش المسلمين في أرسوف، وامتلك يافا وحصنها. ثم عمد ملك إنجلترا إلى فكرة المفاوضة والمصالحة، ليصل إلى

---

(١) المرجع كتاب الحروب الصليبية (الجزء الثاني) تأليف الدكتور سعيد عاشور، ص٦٢٧.

تسوية مرضية للطرفين، وتخلل المفاوضات اقتراح قدمه ملك إنجلترا بأن يكون لملك إنجلترا بيت المقدس والثغور البحرية المجاورة له، مقابل أن تبقى المدن الداخلية للمسلمين، وانتهت المفاوضات بعقد صلح الرملة في ديسمبر سنة ١١٩٢م. وقد اتفق فيه على أن تبقى البلاد الداخلية للمسلمين، وأن تبقى المدن الساحلية للصليبيين.

وفاة صلاح الدين :

توفي صلاح الدين في دمشق بعد صلح الرملة بقليل سنة ١١٩٣م، وهو في الخامسة والخمسين من عمره، دون أن يضع نظامًا لولاية العهد، ونجم عن ذلك قيام نزاع بين أفراد أسرته على خليفته. ثم استطاع العادل أخو صلاح الدين أن يضم إليه الشطر الأكبر من الدولة الأيوبية بسبب استمالته للجيش، وغدا سلطانًا بمفرده على مصر ومعظم أجزاء الشام سنة ١٢٠٠م.

وقد فضل السلطان العادل وخلفاؤه من بعده، مسالمة الصليبيين بأي ثمن. وقد أدرك الصليبيون منذ أيام انتصارات صلاح الدين أن سر هذه الانتصارات يرجع إلى إمداد الجيوش الأيوبية في الشام بالرجال والسلاح والمال من مصر، ولذا ينبغي أن يكون الهدف الحقيقي لجهودهم مصر لا الشام.

اتجاه الحملات إلى مصر :

اتجهت حملات الصليبيين بعد ذلك إلى مصر، ودخلت الحملة الصليبية فرع النيل الشرقي وحاصرت دمياط سنة ١٢١٨م واستولت عليها، ثم أخذ الصليبيون في التوغل في الدلتا والفيضان بالغ أقصاه، وفتح المسلمون الجسور والسدود وأغرقوا الأراضي، ولم يلبث الصليبيون أن وجدوا الماء يعزلهم عن قاعدتهم الحربية في دمياط، فلم يستطيعوا التقهقر ولقوا هزيمة فادحة على أيدي المصريين. عند ذلك رضي الصليبيون بالجلاء التام عن الأراضي المصرية سنة ١٢٢١م بلا قيد ولا شرط.

وفي سنة ١٢٤٤م أعد أشهر ملوك أوربا وقتذاك: لويس التاسع ملك فرنسا حملة صليبية جديدة معظمها من الفرنسيين سنة ١٢٤٨م اتجهت إلى مصر، ونزلت قريبًا من دمياط، ثم استولت عليها دون مقاومة في يونيو سنة ١٢٤٩م، وأسرع السلطان الصالح أيوب من دمشق إلى مصر حين بلغه الخبر، ولكنه توفي دون أن يقوم بعمل دفاعي لصد الصليبيين، وبسبب ظروف الحرب

أخفت زوجته شجرة الدر نبأ وفاة زوجها (كما ذكرنا من قبل). على أن الملك لويس المعروف بالقديس لويس وقع في نفس الغلطة إذ جاء الزحف في موسم الفيضان، ولذا تعثرت جيوش الحملة في طريقها، حتى تجمع الجيش الأيوبي ومعظمه من المماليك البحرية عند المنصورة، وهناك نزلت الهزيمة بالصليبيين، كما نزلت بهم مرة أخرى عند فارسكور، وهم يحاولون العودة إلى قاعدتهم بدمياط. ووقع القديس لويس أسيرًا في أيدي القوات المصرية، بعد أن حلت هزيمة ساحقة بالصليبيين، ووقع الجيش الصليبي بأكمله تقريبًا بين قتلى وأسرى، وقدّر المؤرخون قتلى الصليبيين في معركة فارسكور بثلاثين ألفا، وقد سُجن لويس التاسع في دار القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان، ولم يُطلق سراحه إلا سنة ١٢٥٠م بعد أن دفع فدية كبيرة قامت زوجته بجمع نصفها بسرعة، وعهد هو بتأدية النصف الثاني بعد مدة قصيرة من إطلاق سراحه.

ولم تقع أحداث كبيرة بعد ذلك سوى ما سبق أن أشرنا إليه عن دور سلاطين المماليك في الجهاد ضد الصليبيين، خاصة ما قام به السلاطين: بيبرس، وقلاوون، ثم السلطان خليل الذي استولى على معقل الصليبيين في عكا سنة ١٢٩١م.

الفصل الثالث
الغـــزو المغـــولي

عاش المغول في الهضبة الآسيوية الشاسعة، التي تمتــد مــن أطــراف الصين إلى أواسط آسيا، وتشمل جغرافيتها عددًا من خطوط الطول والعــرض، ولذا تختلف فيها البيئة وأنواع المناخ والتضاريس، وتكثر فيها المراعي، ومن ثم احترف المغول الرعي، والانتقال في سرعة هائلة على ظهور الخيل. ثم استطاع أحد زعماء المغول المسمى «**جنكيز خان**» (ومعناها حاكم الحكام) أن يجعل من التجمعات المغولية وقبائلها دولة مغولية واحدة، مرهوبة الجانب، لها عاصمة في مدينة «**قرة قورم**». وأخذ جنكيز خان بعد تتويجه إمبراطورًا على المغول ســنة ١٢٠٦م يعمل على فتح الأقاليم المجاورة له من إمبراطورية الصين، فاســتولى على معظم أجزاء الإمبراطورية الصينية المتداعية سنة ١٢١٥م.

واتجه جنكيز خان إلى الأطراف الشرقية من إيران، واتبع وسائل وحشية في حروبه في بلاد الخوارزمية في إقليم ما وراء النهر، ولقيت بخارى وغيرها من المدن الإسلامية أشنع ألوان الدمار، وصل إلى حد أن اتخــذ المغــول مــن مساجدها إسطبلات لخيولهم. ومات جنكيز خان سنة ١٢٢٧م، وهو فــي ســن الرابعة والستين.

هولاكو يـخلف جنكيز خان:

وزحف المغول نحو إيران بعد اجتياحهم خوارزم، فأوغل هولاكو فــي إيران، حيث قضى أولاً على قلاع طائفة الإسماعيلية ومدنهم، مثل قلعة الموت، ولم يلق في إيران سوى مقاومة أولئك الإسماعيلية، وبذا تفرغ هولاكو للزحــف على بغداد بعد أن تم لهم فتح أواسط آسيا وإيران وجورجيا والقوقاز وأجزاء من روسيا وبولندا.. وغيرها.

سقــوط بغــداد :

أرسل هولاكو سنة ١٢٥٧م إلى الخليفة العباسي المستعصم يدعوه إلــى التسليم قبل فوات الأوان، وأعقب تهديده بحصار بغداد، وظلت مجانيق المغــول تقذف قلاع بغداد وحصونها مدة أربعين يومًا، حتى أحدثت فجوة في أســوارها، وعندئذ أذعن الخليفة، وخرج لمقابلة هولاكو، ومعه أقاربه، وسلمه مدينة بغداد.

ثم طلب هولاكو من الخليفة أن يأمر أهــل بغــداد بوضــع ســلاحهم

والخروج من مدينتهم بحجة عمل تعداد لهم. وما أن تم تلبية طلبه حتى أمر هولاكو جنده، فانقضوا عليهم وقتلوهم شر قتلة. ولما استقر هولاكو في قصر شرقي بغداد سمح لجنده بدخول المدينة فعاثوا فيها فسادًا أسبوعًا كاملاً، وهدموا مساجدها ليحصلوا على ذهب قبابها، وجردوا القصور مما بها من تحف نادرة، وأتلفوا عددًا كبيرًا من الكتب القيّمة في مكتباتها، وأهلكوا كثيرًا من رجال العلم فيها.

وقد أعمل جند المغول السيف في رقاب أهل بغداد أربعين يومًا، سلبوا فيها أموالهم وأهلكوا كثيرين من رجال العلم، وقتلوا أئمة المساجد وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والمدارس والربط، وأصبحت المدينة قاعًا صفصفًا ليس بها إلا فئة قليلة مشردة الأذهان، وكان القتلى في الطرقات كأنها التلال. ولما نودي بالأمان خرج من تحت الأرض من اختفوا في المطامير والمقابر، ومن لجأ إلى الآبار والحشائش كأنهم الموتى قد نبشت قبورهم، وقد أنكر بعضهم البعض، فلم يعرف الأب ابنه، ولا الأخ أخاه. ثم انتشر الوباء فحصدهم بمنجله حصدًا ذريعًا، وفسد الهواء وعم البلاء.

وقد انتهت هذه الحوادث المحزنة بقتل الخليفة المستعصم واثنين من أولاده، وأسر ابنه الأصغر وأخواته الثلاث. وقد اختلف المؤرخون في عدد الأنفس التي أزهقها المغول على أثر دخولهم بغداد، فذهب بعضهم إلى أنها بلغت ثمانمائة ألف، وقدّرها السبكي المؤرخ بتسعمائة ألف، وذهب ابن كثير إلى أنها بلغت مليونًا وثمانمائة ألف، عدا من غرق أو هرب. على أنه لا شك في أن هذه المدينة فقدت معظم سكانها في هذه الكارثة، وضاعت الثروة الأدبية والفنية التي عني الخلفاء العباسيون بجمعها منذ بنى أبو جعفر المنصور بغداد واتخذها حاضرة لدولته.

تعقيب مهم:

أين هذا الغزو الهمجي المغولي الوحشي الآثم، من الفتح العربي الإسلامي للعراق بقيادة خالد بن الوليد على عهد الصديق أبي بكر والفاروق عمر بن الخطاب. فقد زحف خالد ابن الوليد سريعًا على العراق بمجرد تلقيه الأوامر، وفاجأ الحاميات العسكرية الفارسية بها، واستولى بمساعدة المثنى بن حارثة على «الحيرة» التي تقع على الشاطئ الغربي من نهر الفرات. وبعد أن تم له الفتح عاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة على ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة

ولا قصرًا يتحصنون فيه، وعلى ألا يُمنعوا من ضـــرب نواقيـــسهم أو إخـــراج الصلبان في يوم عـــيدهم.

وتابع خالد انتصاراته في وادي الفرات الأدنى، واستولى علـــى بعـــض مدنه الهامة، ولكن وصله أمر الخليفة أبي بكر بأن يترك جبهة العراق ويـــذهب إلى جبهة الشام، لمساعدة الجيوش العربية هناك، وتولى المثنى بن حارثة القيادة، حتى بعث الخليفة عمر بن الخطاب بالإمدادات إلى العراق بقيادة سعد بن أبـــي وقاص، وانتصر القائد الجديد على الفـــرس فـــي **موقعـــة «القادســـية»** ســـنة ١٦هـ/٦٣٧م. وفي الشام عاهد خالد بن الوليد أهل دمشق على الأمـــان علـــى أنفسهم وأموالهم.. وكنائسهم.. وسور مدينتهم لا يُهدم. ولا يُـــسكن شـــيء مـــن دورهم، ولا يُعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية، لهم بذلك عهـــد الله وذمـــة رسوله ﷺ وذمة الخلفاء والمؤمنين.

وكانت عهود الأمان وعقود الصلح تتضمن أول ما تتضمن منح أهـــالي البلاد المفتوحة الأمان، فلا قتل، ولا ذبح، ولا حرق، ولا تعـــذيب، ولا تنكيـــل، ولا ترويع، وإنما سلام وأمان، لكل من دخل في عهد الصلح، فلم يكن العـــرب المسلمون يلجئون إلى الوحشية التي كان يلجأ إليها الغالب في الحروب الـــسابقة عليهم، ولجأ إليها المغول في الغزوات التي شنها هؤلاء التتار على العراق بعـــد الفتح الإسلامي بمئات السنين. بينما المفترض أن تكون الإنسانية في هذه الفتـــرة من الزمان قد نمت ونضجت وتهذبت، وتركت الوحشية والعدوان الغادر.

ولم يكن لدى المسلمين زهو بانتصارهم، ولا استعلاء على من غلبوهم، إنما أعطوهم الأمن والأمان، وضمنوا لهم حمايتهم والدفاع عنهم ضد أي عدوان خارجي، أو ظلم داخلي، وحماية أموالهم وأعراضهم من أي محاولـــة للاعتـــداء عليهم، فضلاً عن المساواة التامة بين الغالبين والمغلوبين في الحقوق والواجبات، طبقًا لقاعدة أن أهل الذمة: **«لهم ما لنا وعليهم ما علينا»**. والأهم من هذا كله أن الإسلام كفل لهم حرية العبادة، والمحافظة على دور العبادة مـــن أن تُنتهـــك أو تتعرض لأي تخريب.

وما هذه الحريات والضمانات والحقوق الإنسانية إلا إعمـــالاً لأحاديـــث الرسول ﷺ التي نهى فيها عن ظلم أي معاهـــد أو توجيـــه الأذى لـــه. يقـــول الرسول الكريم: «من قتل معاهدًا لم ير رائحة الجنة». ويقول: «من ظلـــم مـــن أمتي معاهدًا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه» أي خصمه. وكان فيما تكلـــم بـــه

عمر بن الخطاب عند وفاته أن قال: «أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ، أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوهم فوق طاقتهم».

هذه هي وحشية وهجمية وعدوانية المغول في غزواتهم...

وهذه هي سماحة الإسلام، وعدالة الإسلام، ورحمة الإسلام.. بل وعظمة الإسلام.. في كل فتوحاته.

زوال الخلافة العباسية :

بسقوط بغداد، وقتل الخليفة العباسي المستعصم زالت الخلافة العباسية، ولكن إلى حين، وأصبح العراق الإسلامي تابعًا للمغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م.

وقف الزحف المغولي :

إن خطر المغول لم يكن مجرد خطر على الشرق الإسلامي فحسب، فقد عجزت الدولة الخوارزمية في فارس والدولة العباسية عن مقاومة المغول أو مدافعتهم، وانهارت القوى المسيحية أمام الزحف المغولي على أجزاء من روسيا وبولندا والمجر، ومن ثم كان من الضروري وقف هذا الزحف الهائل والفاجر.

وبعد هذه الغزوات عزم هولاكو على السير نحو الشام، فزحف شمالاً، وأعمل السيف في سكان الموصل وحرّان والرُّها. ثم أرسل هولاكو إلى ملوك الأيوبيين بالشام يتوعدهم، ويهددهم بالفناء التام، إذا هم لم يمهدوا لزحفه بالإسراع إلى طاعته، وانتشر - من ثم - الذعر بالبلاد الشامية والمصرية كذلك. وجاء هولاكو فاستولى على حلب ثم دمشق وغيرها من بلاد الشام الواقعة بينهما، وبعث إلى السلطان قطز في مصر سفارة، تحمل الوعيد والتهديد، وتطلب الطاعة المطلقة، وأجاب قطز - الخوارزمي الأصل - إجابة غير متوقعة، إذ قتل السفراء المغول، انتقامًا يائسًا لما أحدثه جنكيز خان بالدولة الخوارزمية.

وغادر هولاكو الشام بسبب وفاة شقيقه، وللاشتراك في اختيار الخاقان الجديد، وتولى أبغا قيادة الجيوش المغولية المحتلة لبلاد الشام. أما السلطان قطز فلم يهمل استعداداته الحربية، بل أرسل طلائعه من القاهرة، فاستطاعت أن تصد طلائع مغولية قرب غزة، مما يدل على أن الخطر المغولي أضحى قريبًا جدًا من مصر. واستطاع قطز بالجيش الرئيسي أن يصل إلى مدينة بيسان في سهولة وسرعة، وأن يأخذ المغول على حين غرة عند «**عين جالوت**» سنة ١٢٦٠م.

وانتصر قطز انتصارًا كبيرًا على أبغا.. بعد أن كادت الكثرة المغولية تغلب هجوم المماليك. وفي أثناء هذه الواقعة الدامية سقط أبغا قتيلاً، وتقهقر المغول إلى دمشق وحلب، فتعقبتهم الفرق المملوكية حتى أخرجتهم من بلاد الشام.

وهكذا تمكن الجيش المصري بقيادة المماليك من إنقاذ العالم من شر مستطير، فمما لا شك فيه أن المغول لو تقدموا في أوربا أكثر مما وصلوا إليه، واستقروا فيها بمدنيتهم الهمجية، لكان لهم تأثير في منتهى السوء على الحضارة في كل ركن من أنحاء العالم. لذا حلت موقعة عين جالوت العقدة التي سادت الناس جميعًا عن خطورة المغول، وأن لديهم جيش لا يُقهر، ومن ثم فقد فتحت عيون الناس في كل مكان عن إمكان هزيمة الجيوش المغولية مهما كانت أعدادها، وتبوأت سلطنة المماليك مركز الصدارة بين حكام المسلمين، كما استقامت لمصر زعامة جديدة في العالم الإسلامي، بعد أن انتصرت على الحملات الصليبية والغزوات المغولية.

الباب الخامس

الدولـة العثمـــانية

تمهـــــيد :

كانت أراضي تركيا وقت الفتح الإسلامي تتبع الدولة الرومانية الـشرقية (البيزنطية) وظلت كذلك طوال عهد الخلفاء الراشدين، والعهود الأموية والعباسية والفاطمية، ولم يتمكن العرب من فتح آسيا الصغرى على مدى عدة قرون.

وفي أواخر القرن السابع الهجري هاجرت إحدى عشائر الأتراك من بلاد التركستان في آسيا الوسطى وحطت رحالها في آسيا الصغرى، وأسس رئيـسها عثمان بن أرطغرل (عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م) إمارة صغيرة انتزعها مـن أرض دولة السلاجقة أبناء عمومتهم، وإليه تُنسب الدولة، إذ سميت الدولـة العثمانيـة، واعتنقوا الإسلام وتخلوا عن وثنيتهم. وتمكّن العثمـانيون مـن تحريـر آسـيا الصغرى بعد معارك حاسمة مع البيزنطيين، وقامت دولة حديثة هناك. ولم يمض قرنان من الزمان إلا وبسطت هذه الإمارة سلطانها على أجزاء كبيرة من الدول المحيطة بها. وفي عام ١٤٥٣ تمكّن أحد خلفاء عثمان وهو محمد الثاني (الفاتح) من غزو عاصمة الدولة البيزنطية وهي القسطنطينية التي كان المضيق يفصلها عن آسيا الصغرى، وبفتح القسطنطينية تلاشت البقية الباقية من الدولة البيزنطية، وأصبحت القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية تحت اسم جديد هو الأستانة ثـم استانبول، ومعناها بالتركية: دار السعادة. ويقال أنها سميت في البداية «إسـلام بول» أي مدينة الإسلام.

في غضون ذلك امتدت فتوحات الدولة العثمانية غربًا حيـث اسـتولت تدريجيًا على شرق أوربا، وتوقف زحفهم عند فيينا عاصمة النمسا، التي كـادوا يستولون عليها، ولكن تحالف ألمانيا وبولندا مع النمسا أنقذ فيينا من السقوط. ثـم اتجهت جيوشهم نحو الشرق، فاستولوا على سوريا ومصر بعد هزيمة المماليـك في معركة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م، ودخلوا في معارك مع الـصفويين حكام إيران (فارس) بعد الاستيلاء على العراق، وفي مراحل أخرى تم لهم بسط سلطانهم على باقي الدول العربية باستثناء مراكش (المغـرب). وبـذلك بلغـت الإمبراطورية العثمانية أقصى اتساعها من بودابست غربًا إلى العراق شرقًا ثـم إلى اليمن جنوبًا.

وعند احتلال تركيا للدول العربية رفعت شعارًا تعلن فيهـا أنهـا دولـة

الخلافة الإسلامية، وأن الخلافة- مع مرور الزمن- انتقلت إلى اسـتانبول، وأن حكام تركيا هم الآن خلفاء المسلمين الجدد، وقد لقيت هـذه الدعايـة اسـتجابة وتصديقاً، واستنامت الدول الإسلامية لهذا الوضع الجديد ورضيت بالتبعية للحكم الإسلامي في تركيا.

الفصل الأول
حكـام الدولة العثمانية

توالى على حكم الدولة العثمانية سلاطين عظام لمدة قرنين ونصف تقريبًا أمثال أورخان ابن عثمان.. الذي أنشأ فرق الانكشارية للمساعدة فـي محاربـة جيوش الإمبراطورية البيزنطية، والانكشارية تكونت من أفراد يتـدربون منـذ الصغر عسكريًا، معظمهم من أسر مسيحية، بحيـث تنقطـع صـلتهم بأسـرهم ويتفرغون للجندية بعد ذلك. وقد نزلت قواته لأول مرة في الأراضي الأوربيـة واستولت على «تراقيا» ومات عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م.

ومراد الأول ابن أورخان دخلت قواته مدينة «أدرنة» واستولى عليها من أيدي القوات البيزنطية، وأصبحت هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية ابتداء من عام ٧٦٨هـ/١٣٦٦م، إلى جانب الاستيلاء على مقدونيا وسـالونيك، ومدينـة صوفيا حاضرة بلغاريا، كما استولى مراد الأول على كل الإمارات الباقية، والتي قامت على أنقاض الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى، ومنها أنقـرة وقونيـة وقرمان وقرمه سي.

وعندما قُتل مراد الأول غدرًا على يد أمير صربي، خلفه ابنه: «**بايزيـد الأول**» عام ٧٩٢هـ/١٣٨٩م، الذي هـزم تحـالف الـصليبيين مـن الألمـان والفرنسيين والروس بقيادة ملك المجر «سيجموند»، وتوفي عام ١٤٠٣م.

وبوفاة بايزيد خلفه ابنه «**محمد الأول**»، ثم «**مراد الثاني**» الذي قـضى مدة حكمه في القضاء على ثورة القرمانليين في آسيا الصغرى، وفـي محاربـة أمراء الصرب والبشناق والأفلاق والمجر، تلك الحروب التي انتهت عام ١٤٤٨م بخضوع الصرب كلها للسلطان العثماني.

وكان «محمد الثاني» المشهور باسم الفاتح قد خلف أبوه مـراد عـام ١٤٥١م، وعزم على فتح القسطنطينية ليتخلص مـن مـؤامرات الإمبراطـور البيزنطي، وقد استطاعت الجيوش العثمانية دخول المدينة من فتحة بالسور، وبعد الفتح تحولت كنيسة أيا صوفيا إلى مسجد (خلافًا للتعاليم الإسلامية وسنة الخليفة عمر بن الخطاب) وأطلق على المدينة اسم «إسلام بول» أي مدينـة الإسـلام، ورفع عليها العلم التركي ذو الهلال، كما نجح محمد الثاني في إخـضاع بـلاد المورة وبلاد الصرب وألبانيا، كما سلمت له كل جزر الأرخبيل اليوناني، واهتم بأعمال العمران والعلم والفن.. حتى توفي عام ١٤٨١م.

وبعد وفاة محمد الثاني خلفه ابنه «**بايزيد الثاني**»، الذي قام الأسطول العثماني في عهده بنجدة مسلمي غرناطة الفارين بدينهم من ملاحقة الأسبان الكاثوليك المتعصبين، والدخول في حرب مع أساطيل البندقية وأسبانيا والبابوية.

وفي أوائل القرن السادس عشر الميلاد، **قفز** «**سليم**» ابن بايزيد إلى الحكم بعد أن خلع والده من عرش السلطنة العثمانية، وكانت أهم أحداث عهده ما يلي:

١- تعقب معتنقي المذهب الشيعي في أملاك الدولة الشرقية وقضى عليهم.

٢- تخلص من منافسيه على الحكم: إخوته وأمراء الأسرة.

٣- شنَّ حربًا ضد الشاه إسماعيل الصفوي شاه فارس الشيعي عام ١٥١٤م، وهزم الأخير في موقعة «جالديران» وتقدم إلى العاصمة الفارسية «تبريز»، ثم عاد إلى استانبول.

٤- شنَّ حربًا ضد سلطنة المماليك، واستولى على الشام عام ١٥١٦م، وقتل «قنصوه الغوري» سلطان المماليك في مرج دابق قرب حلب، ثم تقدم إلى مصر واستولى عليها عام ١٥١٧م، وشنق السلطان طومان باي عند باب زويلة.

بعد وفاة سليم الأول خلفه في السلطنة ابنه «**سليمان**» **المشهور باسم سليمان القانوني** عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م، وقد شهدت الدولة في عهده عدة أحداث أهمها:

١- الاستيلاء على جزيرة رودس، وطرد محتليها من فرسان القديس يوحنا.

٢- اقتحام مدينة بلغراد عاصمة الصرب.

٣- الاستيلاء على بلاد المجر وعاصمتها «بودابست» عام ١٥٢٦م.

٤- وحاول الاستيلاء على مدينة فيينا عاصمة النمسا بعد أن هزم النمساويين عام ١٥٢٩م.. ولكنه فشل بسبب تحالف ألمانيا وبولندا مع النمسا.

٥- تأييد عمليات الجهاد البحري الإسلامي ضد الأسبان، وفرسان القديس يوحنا، في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

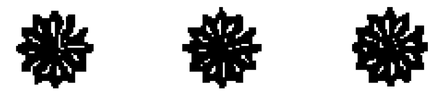
٦- إرسال سفن حربية عثمانية لمساعدة مسلمي الهند ضد البرتغاليين.

٧- وضع نظام حكم للدولة بتقسيمها إلى ولايات(١).

ثم اتجه سليمان إلى الشمال الأفريقي وشبه الجزيرة العربية، فاحتلت قواته الجزائر عام ١٥١٨م ثم تونس عام ١٥٣٤م وطرابلس (الغرب) عام ١٥٥١، وهكذا دخل الشمال الأفريقي تحت سلطان العثمانيين ما عدا مراكش (المغرب الأقصى).

وقبيل منتصف القرن السادس عشر، قامت حملة بحرية فاحتلت عدن عام ١٥٣٨م، ثم واصلت زحفها حتى احتلت صنعاء عام ١٥٤٧م، وبعدها احتلت مسقط عام ١٥٥١م، وسارت حملة من مصر فأكملت احتلال اليمن عام ١٥٦٨م. وبذلك بلغت الإمبراطورية العثمانية أقصى مداها، فقد امتدت من بودابست غربًا إلى نهر الفرات شرقًا، ثم إلى باب المندب جنوبي الجزيرة العربية.

وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر توقف نشاط العثمانيين على أثر خلاف بين أبناء السلطان سليم على السلطة، وتجمعت عوامل متعددة أوقفت تقدم العثمانيين، ثم جعلتهم هدفًا لهجمات الآخرين، فانتقلوا من الهجوم إلى الدفاع، ثم تقهقروا أمام زحف أعدائهم، وأخذت الإمبراطورية تتقلص وتنهار(٢).



ثم بدأ عهد الضعف في الدولة العثمانية :

فبعد وفاة «سليمان القانوني» في معركة مع المجريين، خلفه ابنه «**سليم الثاني**»، الذي تم في عهده الاستيلاء على جزيرة قبرص، بعد هزيمة أساطيل أسبانيا والبندقية والبابوية، وإن اتسم عهده بالضعف، حتى ترك لليهود التحكم في الأمور الاقتصادية.

وجاء بعده ابنه «**مراد الثالث**». ورغم استمرار مظاهر الضعف في عهده، إلا أن الجيش العثماني حقق انتصارات على الفرس بعد اختراق القوقاز، والاستيلاء على تفليس، مما اضطر الشاه «عباس الكبير» إلى التنازل للعثمانيين عن أذربيجان والكرج، وإلزامه بالكف عن مهاجمة الخلفاء الراشدين الثلاثة: أبو بكر وعمر وعثمان في بلاده.

---

(١) المرجع: كتاب تاريخ العرب الحديث للدكتور رأفت الشيخ، ص١٩.

(٢) المرجع: كتاب رقم (٥) في موسوعة التاريخ الإسلامي للدكتور أحمد شلبي، ص٨١٣ من الجزء الخاص بالإمبراطورية العثمانية.

وخلف مراد الثالث سلاطين ضعاف لم يسجل لهم التاريخ أحداثًا مهمة. ثم تولى الأمر السلطان «مراد الرابع» الذي قضى على ثورة الجند الانكشارية، واسترد بغداد من الفرس، وقضى على ثورة الدروز في لبنان، وتوفي عام ١٦٤٠م. وبعده عاشت الدولة عصرًا من الهزائم.

وكانت الدولة العثمانية محاطة بالأعداء من كل جانب، الأمر الذي كان يدفعها إلى الدخول في معارك مستمرة مع هؤلاء أو مع هؤلاء.. وهم:

أ - جيوش الدول والجزر التي فتحتها الدولة العثمانية، وفي مقدمتها الدولة البيزنطية، علاوة على دول البلقان والمجر والنمسا.

ب - جيوش الدولة الصفوية الفارسية في إيران.. التي تعتنق المذهب الشيعي، وتسول لها نفسها الطعن في أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ.

ج - روسيا التي تقف للدولة العثمانية بالمرصاد، فهي من جهة تريد الوصول إلى المياه الدافئة في البحر المتوسط على حساب الأراضي التركية، وهي من جهة أخرى تتظاهر بحماية المسيحيين من المذهب الأرثوذكسي.

د - ثم ظهرت بعد ذلك مجموعة دول أوربا الغربية.. وفي مقدمتها إنجلترا وفرنسا.. التي تطمع في أن تحصل كل منها على أكبر نصيب من كعكة الرجل المريض «تركيا» كما كانوا يطلقون عليها.

نظام الحكم والإدارة

منذ عهد سليمان القانوني، توزعت السلطة في البلاد على النحو التالي:

أولاً: السلطان وحكمه المطلق:

كان السلطان العثماني يحكم حكمًا مطلقًا، وهو اتجاه يخالف الإسلام خلافًا واضحًا صريحًا، وكان سببًا من أسباب الكوارث، وقد قامت محاولات لوضع دستور والسير على هدي أحكامه، ولكنها كانت محاولات عقيمة، أبرزها تلك المحاولة التي قام بها «مدحت باشا» وكان مآلها إلى الفشل، وسوف نتحدث عنها فيما بعد. وكان السلطان يحس أن هذه المحاولة حرمته من اكتمال سلطته، فكان يسعى للتمرد عليها والعودة لنظام حكم الفرد المطلق، مع أن الشورى التي رسمها الإسلام تخفف العبء عن الرؤساء، وتشرك بعض أولي الأمر معهم في المسئولية، ولكن مُتعة السلطة كثيرًا ما أعمت الرؤساء المستبدين.

ويعتذر بعض الباحثين عن السلاطين العثمانيين، بدعوى أن الحكم المطلق كان أسلوب ذلك العصر، ولم تكن الغالبية العظمى من دول أوربا يُمارَس فيها الحكم النيابي الذي هو من معالم الديمقراطية. ولكننا لا نوافق على هذا الرأي، فملوك أوربا لم يكن عندهم كتاب الله المُنزل من السماء، الملزم على العمل بالشورى، ولم يكن عندهم التاريخ الشامخ والسوابق العظيمة للرسول وصحبه الذين استمسكوا بالشورى وعملوا بها، وكونوا حولهم مجالس للشورى قبل العثمانيين بمئات السنين. والاستبداد الذي مارسه السلاطين لم يكن استبدادًا مقيدًا، بل كان استبدادًا مطلقًا.

وكان سلاطين العثمانيين قسمين: قسم يمكن تسميتهم: «السلاطين العظام»، وعددهم عشرة يبدأون بعثمان أول السلاطين، وينتهون بالسلطان سليمان القانوني، وقد حكموا ٢٦٧ سنة من ١٢٩٩-١٥٦٦م، وقامت على سواعد هؤلاء عظمة الدولة.

والقسم الثاني هم السلاطين الضعاف، وعددهم ٢٦ سلطانًا، أولهم سليم الثاني ابن السلطان سليمان القانوني، وقد حكموا حوالي ٣٥٧ سنة، من ١٥٦٦-١٩٢٤م، وفي عهود أكثر هؤلاء تدخلت سيدات القصر في أمور الدولة، ومال الخلفاء إلى الترف وإلى الدعة، وأصبح «الصدر الأعظم» (رئيس الوزراء) في كثير من الأحوال هو صاحب السلطة الفعلية في الدولة، وسمي المقر الذي يقيم فيه الصدر الأعظم: «الباب العالي».

ثانيًا: ولي العهد:

لم يكن هناك قانون ينظم ولاية العهد في الإمبراطورية العثمانية، وهذا فتح لصراع دامٍ لشغل منصب السلطان عقب خلوه لأي سبب من الأسباب. وكانت المطامع في شغل هذا المنصب قوية وواضحة، وبخاصةً أن من يتولى السلطنة يمكنه أن يتخلص من منافسيه بالقتل أو النفي أو الإبعاد، ومعنى هذا أن المنصب كان هو الذي يحمي الإنسان من القتل، ومن هنا نشط الكثيرون لنيله حتى يحظوا بمتع القصور من جانب، وضمان السلامة من جانب آخر.

وقد وصلت مشكلة إراقة الدماء قمتها وفظاعتها عندما أصدر محمد الفاتح (من ١٤٥١-١٤٨١م) قانونًا يتيح لمن يتولى العرش أن يقتل من يرى من إخوته تأمينًا لسلامة الدولة. ولم يقف الأمر عند قتل الإخوة بل تعداهم إلى قتل

الأبناء ومن يُحتمل أن ينافسوه بوجه عام. ومن ذلك الحين صار قتل السلطان إخوته عادة شبه مضطردة، فلما جاء محمد الثالث أمر بقتل إخوته الذكور، وكان عددهم تسعة عشر أميرًا، وأمر بإغراق نساء أبيه وجواري أبيه الحوامل، وكان عددهم عشر نساء.

وعندما توقفت إراقة الدماء استجابة للاستنكار الإسلامي وللشعور العالمي، اتجه السلاطين اتجاهًا جديدًا لحماية أنفسهم من منافسيهم، وكان هو أن يحددوا إقامة الإخوة والأبناء، بأن يوضع كل منهم في قصر صغير، تحيط به حديقة، وتكثر به الجواري والقيان، ويكون له سور مرتفع، بحيث لا يراه أحد بالخارج، وتوضع مع هذا المسكين بعض الكتب الدينية، وبخاصة التي تحث على طاعة ولي الأمر. وكانت هذه القصور الصغيرة تسمى «أقفاصًا»، وطالما تحول السجين فيها إلى معتوه أو تصيبه علة صحية أو نفسية[1].

ثالثًا : الولاة :

إلى جانب السلطان وولي العهد والصدر الأعظم والوزراء، وضع السلطان سليمان القانوني لحكم الولايات العثمانية، نظامًا للحكم يقوم على توزيع السلطة بين ثلاث قوى على النحو التالي:

١- **الوالي:** ويُلقب بالباشا وهو نائب السلطان في حكم الولاية، وله سلطة تنفيذ أوامر السلطان، والرئاسة على جميع الموظفين العثمانيين في الولاية، وإن كانت سلطته مقيدة، بوجود قوى أخرى تشاركه في السلطة، مثل رؤساء الجند والعصبيات المحلية، كما أن سلطته محددة بفرمان يصدر من السلطان بالتعيين لمدة سنة قابلة للتجديد.

٢- **رؤساء الجند:** وهم قادة الفرق الموكول إليها الدفاع عن الولاية ضد الغزو الخارجي، وحفظ النظام والأمن الداخلي، خاصةً بالتصدي للثورات التي قد يقوم بها أهالي الولاية ضد الحكم العثماني. ومن اجتماع قادة الفرق يتألف مجلس شورى الوالي المسمى بالديوان الذي له السلطة الكبرى في إدارة الحكومة، إذ لا يستطيع الوالي أن يبرم أمرًا إلا بموافقة أعضائه.

٣- **العصبية المحلية:** وخير مثل للعصبية وسلطتها في حكم الولاية

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي (٥) للدكتور أحمد شلبي (مرجع سابق)، ص٨٣٨.

المماليك في مصر، حيث أصبح لهم حكم الأقاليم المختلفة للولاية بحكم أنهم أعرف بأهل البلاد وظروفها، وفي وقت ضعف الدولة وجندها تقوى شوكة العصبية المحلية، حتى يصير في إمكانهم عزل الوالي، أو الاستئثار بالنفوذ دونه، ونعطي مزيدًا من البيانات عن المماليك في مصر.. فيما يلي[1]:

المماليك :

أدَّت كثرة تغيير الولاة العثمانيين إلى عدم بسط نفوذهم في مصر، وإلى استرجاع المماليك الكثير مما فقدوه من قوتهم أول الحكم العثماني لمصر، وساعد المماليك في القبض على زمام الأمور أنهم اتحدوا في قوة واحدة، واختاروا لهم زعيمًا من بينهم، هو «**شيخ البلد**» وهو حاكم القاهرة، وتطور نفوذ المماليك نتيجة لسيطرتهم على ثروة البلاد وامتلاك الأراضي، وتكوين الوجاق السابع القوي منهم.

وقد تركت الحكومة التركية الضعيفة البلاد على هذه الحالة دون محاولة للتدخل للحد من استبداد المماليك بالبلاد، حتى وصل الأمر إلى عدم إرسال الخراج السنوي إلى الباب العالي في الأستانة. وبدأ المماليك يتنازعون السلطة فيما بينهم، والوالي العثماني يقف موقف المشاهد، لا حول له ولا قوة.

وفي عام ١٧٦٣م تمكّن أحد المماليك، وهو علي بك الكبير، من القبض على زمام الأمور، بل وصل طموحه إلى محاولة الاستقلال بمصر عند نشوب الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا سنة ١٧٦٨م، فأعلن استقلال مصر، وامتنع عن دفع الجزية، وقام ببعض الفتوحات في الحجاز حتى الحرمين الشريفين، وحاول فتح الشام، وظل على تلك الحال إلى أن اختلف مع قائد جيوشه، محمد بك أبو الدهب، سنة ١٧٧٢م، وانتصر عليه هذا الأخير، فكافأه الباب العالي بمنحه لقب «شيخ البلد». إلا أن الفوضى لم تلبث أن عمّت البلاد مرة أخرى، بسبب نزاع اثنين من كبار المماليك على السلطة، وهما مراد بك وإبراهيم بك، إلى أن اتفقا على تولي أكبر منصبين بالتناوب فيما بينهما، وهما منصب «شيخ البلد» ومنصب «أمير الحج». وقد بقيا قابضين على مقاليد الأمور إلى أن أغار الفرنسيون على مصر سنة ١٧٩٨م، ما عدا الفترة من ١٧٨٦-١٧٩٠م التي عاد فيها النفوذ للعثمانيين مرة أخرى، عندما أرسلت الدولة العثمانية حملة عسكرية

(١) د. رأفت الشيخ في كتاب: تاريخ العرب الحديث (مرجع سابق)، ص٣٤.

للقضاء على الفتن المنتشرة في البلاد آنذاك، وعند وصول الحملة للقـاهرة فـر إبراهيم بك ومراد بك هاربين إلى الصعيد، وبعد فترة عادا إلى القاهرة، وحكمـا البلاد بحزم إلى وقت مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨م(١).

مهمة الدولة ومسئولياتها :

كان فهم العثمانيين يقوم على أن مهمة الدولة ومسئولياتها تتمثل في ثلاثة أمور فقط هي:

١- الدفاع عن الولايات ضد أية اعتداءات خارجية، وهذا يستلزم وجود قوات عثمانية تدافع عن البلاد، فمهمتها عسكرية بوليسية في آن واحد لكي تضمن بقاء الولايات تحت تبعيتها.

٢- تحصيل الأموال الأميرية (الضرائب) على تنوعها، ثم توزيعها على وجوهها المختلفة عن طريق إدارة مالية. وأهم وجوه إنفاق هذه الأموال هو إرسال الجزية السنوية للسلطان التي تعرف بالميرى، ولم يكن ذلك يتطلب أكثر من الإشراف على الموظفين الذين يجمعون الضرائب والملتزمين، ولا يهم ما يقع على الرعايا من ظلم أو إجحاف.

٣- الفصل في الخصومات بين الناس، وهذا يستلزم من الدولة إقامة نظام قضائي حسب ما تقضي به الشريعة الإسلامية، وهذا أمر له أهمية عند السلطان العثماني باعتباره خليفة المسلمين في نفس الوقت.

ولم يكن فهم العثمانيين لوظائف الدولة ومسئولياتها يدرك أن هناك أمورًا أخرى على درجة من الأهمية تدخل في وظائف الدولة، مثل التعليم والـصحة، والتنمية الاقتصادية، ورفع مستوى المعيشة، والرعاية الاجتماعيـة.. وغيرهـا، ولذلك فقد تركت الدولة العثمانية هذه الأمور للأفراد والهيئات تقـوم بالـصرف عليها، باعتبارها خارجة عن مسئولياتها.

الإقطـــاع :

كانت الدولة العثمانية تقوم على نوع من النظام الإقطاعي، يختلف عـن ذلك الذي كان سائدًا في أوربا في هذه العصور الوسطى، إنما كان أخف وطـأة، وكان على درجات أو مستويات، فالمستوى الأصغر يمنح لـبعض الطمـوحين،

---

(١) المرجع: كتاب المجمل في تاريخ مصر للدكتور ناصر الأنصاري، ص١٨٥.

ويظل الفلاح يزرع لصاحب الأرض ويقدم له إما إيجارًا وإما الحاصلات فيما عدا ما يمسك حياته، وعلى صاحب الإقطاع أن يقدم للدولة نظير ذلك عددًا من الفرسان يتراوح بين اثنين وأربعة، أو عددًا من البحارة لخدمة الأسطول، بالإضافة إلى بعض الضرائب المالية.

وهناك إقطاع أكبر، ويُمنح لمن يقدمون خدمة شخصية للخليفة أو للدولة، ويقدم صاحب الإقطاع، مالاً للسلطة المركزية وجنودًا للجيش يتزايد عددهم تبعًا لإيراد القطاع. وكان النوعان السابقان يخضعان لتفتيش رجال الإدارة المركزيين.

وهناك إقطاع أعلى هو (الخاص) ويمنح للولاة ولا يخضع للتفتيش.

ولما اتسعت الإمبراطورية كثر الباشوات الذين كانوا يُعيَّنون حكامًا للأقاليم، وكان الإقليم كإقطاع لكل منهم، يتولى هو توزيعه قطعًا صغيرة على أتباعه وعبيده. وظل الحال كذلك حتى أصدر السلطان سليمان «قانون نامه» سنة ١٥٣٠م الذي جعل حق منح الإقطاع في يد الباب العالي (ديوان الصدر الأعظم)، وأصبح الباشا يقترح أسماء من يستحقون الإقطاعات، وتصدر البراءات لهم من ديوان الصدر الأعظم، وكثير من الباشوات كانوا يتحايلون على هذا القانون. وطالما حاولوا التهرب من الالتزامات العسكرية والمالية التي يفرضها عليهم النظام الإقطاعي.

الالتزام :

وبجوار هذا النوع من الإقطاع وُجد في الإمبراطوزية العثمانية نظام الإلتزام في الأقاليم والمناطق التي لا تتبع نظام الإقطاع، وبمقتضى هذا النظام تُسلَّم مساحة من الأرض المملوكة للدولة لمن يديرها ويشرف عليها، ويجبي هذا خراجها، ويلتزم بتسليم الدولة مقدارًا معينًا منه يتفق عليه. ويصور المقريزي (المؤرخ) هذا النظام تصويرًا دقيقًا حين يقول: إن متولي الخراج في مصر يجلس في مسجد عمرو بن العاص في الوقت الذي تتهيأ فيه الأرض للزراعة (أوائل شهر سبتمبر) ويجتمع الناس من المدن والقرى، ويقوم رجل ينادي على البلاد صفقات صفقات، وكُتَّاب الخراج يكتبون ما تنتهي إليه المزايدة، وعلى من يرسو الالتزام.

ويلاحظ أن الذين يدخلون المزايدات كان يجامل بعضهم بعضًا في الغالب، وكان لكل منهم منطقة يندر أن يقتحمها غيره، وكان هذا يجعل المزايدة صورية في أكثر الأحوال.

الفصل الثاني
الحضارة والأحوال الاقتصادية والاجتماعية

إن حضارة العثمانيين- في الأصل- كانت مزيجًا من عناصر متنوعة، بعضها من الفرس، وبعضها من أواسط آسيا، وبعضها من البيزنطيين كذلك، ولكن العرب كانوا قبل الجميع معلمي الأتراك، كما كان اليونان معلمي الرومان، فقد أخذ الترك من العرب علومهم ودينهم بما فيه من المبادئ الاقتصادية والاجتماعية والتشريعات المقدسة، وأخذوا أيضًا الحروف العربية للكتابة، فظلت شائعة الاستعمال حتى سنة ١٩٢٨، عندما قرر مصطفى كمال أتاتورك أن تكون كتابة الكلمات التركية بحروف لاتينية.

ويرى البعض أن الأتراك تعلموا من الإسلام ومن العرب الكثير، ولكنهم لم يعملوا بها في كل الأحوال، وغلبت عليهم أحيانًا نزعة البداوة والهمجية في سلوكهم السياسي والعسكري.

ويلاحظ في الآثار المعمارية التركية أنها ذات صلة بالدين، بين مساجد ومدارس دينية، وربط وزوايا في معظم الأحيان، وليس في الآثار المعمارية التركية شق طرق أو إقامة سدود، فإن الأتراك لم يبذلوا عناية تذكر بالزراعة والصناعة وغيرها مما يرفع شأن الرعية، ويمنحها الرفاهية.

ومالية الدولة فاسدة، فلا ميزانية، ولا إصلاحات، والرشوة تملأ كل مكان.. كأنها قانون لا يعترض عليه، والحرية مفقودة، والمصادرات تهدد كل مالك، حتى لم يعد أحد يحس بالاطمئنان لغده، والدولة تستدين من الخارج- رغم ضخامة دخلها- حتى بلغت ديون الدولة في عهد السلطان عبد العزيز ٥٣٠ مليون ليرة، والفقر الشائع والجوع المنتشر يدفعان الناس للسرقات وقطع الطرق.

وصحة أبناء الشعب تتدهور، والجهل يتفشى، والذكاء يضر صاحبه، والثقافة ينظر إليها على أنها تدفع للتمرد والعصيان، والجواسيس ينتشرون في كل مكان، حتى أصبح أهل البيت يخشى بعضهم بعضًا، والسلطان لا يهمه إلا هواه، وإلا الموسيقى واللهو، والبذخ والنعيم. وأما العدالة فليست كاملة، فالمحاكم كثيرًا ما تحكم في القضايا المهمة، كما تريد شهوة الحكام، لا كما يقضي القانون.

وقد ثبت أن الحكم العثماني لم يسفر عن إنشاء شيء يُذكر من الطرق أو المستشفيات أو المدارس، ولم توجد بالدولة متاجر للكتب، كذلك لم يولي الأتراك

اهتمامًا يُذكر بتحسين حال الزراعة والري، أو صيانة المرافق، وقد هجر الفلاحون الكثير من القرى، وانكمشت رقعة المدن، حتى انتقلت الإسكندرية من مدينة زاهرة عامرة بالسكان إلى بلدة لا يكاد يبلغ تعداد سكانها ١٠٠٠٠ نفس.

وكان طبيعيًا أن تؤثر كثرة الحروب على الجانب الاقتصادي للدولة، وبالتالي على مستوى معيشة الفرد في الإمبراطورية العثمانية بوجه عام والشعوب العربية بوجه خاص، فمن الثابت تاريخيًا أن العالم العربي عانى اقتصاديًا خلال تبعيته للعثمانيين، فقد كانت العاصمة العثمانية تتطلب من الضرائب أكثر مما يطيقه الشعب، ولم تكن تقدم خدمات ذات بال في المرافق نظير هذه الضرائب، ومن هنا فإن مستوى معيشة الفرد في العالم العربي أصبح هابطًا للغاية، بل إن كثيرين من القادرين اضطروا أن يخفوا أموالهم حتى لا تتعرض للمصادرة أو السلب، وتظاهر هؤلاء بالفاقة، مما جعل الفقر يسيطر على القادر والمسكين على حد سواء.

مدحت باشا ومحاولة الإصلاح

جاء مدحت والدنيا مدبرة عن الدولة العثمانية، وحركة الجزر تلي حركة المد، والمملكة تنقص من أطرافها، ويدب الفساد في داخلها. فلا الأوضاع المالية صالحة، ولا الإدارة رشيدة، ولا الجيش مستعد، ولا الأمة متحدة النوازع والآمال والآلام.

في عهد السلطان عبد العزيز:

زاد الأمر سوءًا أن السلطان عبد العزيز جاء ناقمًا على الحالة التي وصلت إليها البلاد، وانتقد أخاه، السلطان السابق عبد المجيد، في إسرافه وفي تصرفاته، وأعلن أنه آت لإصلاح المفاسد، والأخذ بيد الشعب، والاقتصار على زوجة واحدة، والاقتصاد في نفقات الحريم. ولكن سرعان ما تبددت هذه الوعود، وخطا في سبيل البذخ والترف والنعيم والإسراف أضعاف ما كان ينتقده من أخيه! وارتكب في عهده غلطتين كبيرتين: الأولى بالتفرقة بين المسلمين والمسيحيين، وتقوية عواطف رعاياه المسلمين في أنهم أولى بالتفضيل في المعاملة وشغل المناصب، فأوقد بذلك شعور البغضاء والحقد بين طوائف الأمة.

والغلطة الثانية: وقوعه في الدَّين من المصارف الأجنبية.. لكثرة إسرافه. نعم إن بعض المال أنفق في إصلاح الجند والبحرية، ولكن كثيرًا منه أنفق في

بناء قصوره الفخمة الكثيرة، وما تحوي من أسباب الترف والنعيم. هذا إلى اعتداده بنفسه، واستبداده برأيه، وتركيز أعمال الحكومة كلها في شخصه، فهو مرجع كل شيء، لا يسمع نصيحة ناصح، ولا رأي مجرب، ويخشى الذكاء والعلم والثقافة الواسعة ومعرفة بواطن الأمور، لأنها كلها تؤدي إلى مراقبة أعماله ومحاسبته على إسرافه.

وقد رأى مدحت أن يوسع ثقافته ويرتقي بها، بأن يقوم بسياحة في أوربا، لدرس النظم السياسية والاجتماعية التي أصلحت من شأنها، وعالجت بها أمثال المفاسد التي تعاني منها تركيا، فسافر وأنفق في سياحته نحو ستة أشهر، زار فيها باريس، ولندن، وفيينا، وبلجيكا (بروكسيل). وكانت زيارة دراسة واستطلاع لأوضاع هذه الدول ونظم الحكم فيها.

وقامت ثورة تمرد في البلقان، فوقع الاختيار على مدحت لإخمادها، فسافر ومعه قوة عسكرية، وقضى ستة أشهر في قمم الجبال ومغاورها يقبض على أشقيائها، وأثبت إدانة أربعة من الثوار وأعدمهم، وحبس ثمانين أرسلهم إلى الأستانة، وهدأت الفتنة ونجح مدحت في مهمته، فكان ذلك مما لفت الأنظار إلى قوته وحزمه.

كما لفت الأنظار إلى حُسن إدارته عندما عُين واليًا في الصرب وبلغاريا، وقضى فيها أربع سنوات كان فيها مجددًا حقًا، يختلف عن سائر الولاة العثمانيين، بث المدارس في أنحاء الولاية، وأنشأ المستشفيات، وأصلح من الطرق نحو ألفي ميل، وبنى نحو ١٤٠٠ جسر. وأهم ما امتازت به إدارته- مما كان جديدًا في نظر العثمانيين- عدم تفرقته في سياسته وإدارته، وعدله بين مسلم ومسيحي، ثم شدته المتناهية على العصاة ومثيري الشغب، ومعاقبته لهم بما يؤمن البريء، ويردع المسيء.

وجاءت عدوى القوميات- بما تضمه تركيا آنذاك من عناصر مختلفة- فأثارت نوازع كل عنصر نحو الاستقلال، فكيف ذلك من ألاعيب الدول المختلفة وإثارتها لهذه العناصر؟ هذا إلى تعدد المذاهب الدينية النصرانية، وما بين كنائسها من خلافات لا تنتهي، فنشأ عن هذا كله ما سمي «**المسألة الشرقية**»، ويعنون بها: «النزاع بين عناصر الأمم التركية من جهة، ودخول الدول العظمى في هذا النزاع لتحقيق مصالحها المتناقضة من جهة أخرى».

وفي هذا الوسط الشائك جدًا حاول مدحت باشا أن يتقدم بمقترحاته، فرأى

أن الإصلاح الذي يجب أن يسود المملكة العثمانية هو الحكم الديمقراطي على نمط ما رأى في إنجلترا وفرنسا، ومظهر هذا الحكم هو الدستور، وإنشاء المجالس النيابية، وتمثيل لكل عنصر من عناصر الدولة، وكل قطر من أقطارها في هذه المجالس، وبعبارة أخرى أن تحكم الأمة نفسها بنفسها، لا أن يحكمها السلطان بإرادته ونوازعه والمقربين إليه الذين يخدمون مصالحهم وأغراضهم.

وجاء وقت تصادم الآراء، إذ يرى مدحت أن الدستور لابد منه، فهو يعيد إلى الأمة حقها في الإشراف على الحكم، ويضمن العدل والمساواة، ويبعث الإخاء، ويوحد بين عناصر الأمة المختلفة، بينما يرى عبد العزيز وحاشيته وكثير من رجال الدين، وبعض رجال السياسة، أن الحكم النيابي لا يصلح للدولة العثمانية لاختلاف العناصر فيها وعدم التجانس، وميل كثير من الطوائف المسيحية إلى ترويج مصالح الدول التي ترتبط بها، وعدم بلوغ الأمة حدًا من العلم يهيئها لهذا الحكم، وتفضيل مصلحة الوطن على المصلحة الشخصية... الخ.

إذ ذاك ظهر الصراع بأجلى مظاهره، وانجلى الغبار عن معسكرين متميزين، هذا معسكر مدحت باشا على رأس حزب كبير من الكبراء والوزراء والأمراء وطائفة كبيرة من الشباب، وهذا معسكر على رأسه السلطان عبد العزيز وحوله الحاشية، والصدر الأعظم محمود باشا نديم، الذي يمد السلطان بكل ما يحتاج إليه من أموال الدولة، ينفق أقله في المصلحة العامة، وأكثره في شهواته، ويؤيده كثير من المعمَّمين من رجال الدين، قد اشتريت ذممهم بما أُغدق عليهم من أموال الأمة، فهم يسمون كل حركة تدعو إلى الإصلاح بدعة، ويقولون: كل بدعة فتنة، وكل فتنة ضلالة، كما يقولون: سلطان غَشوم.. خير من فتنة تدوم.

وتحت ضغط الحوادث أُبعد الصدر الأعظم محمود باشا نديم، وعُين مدحت باشا صدرًا أعظم. فما استقر على كرسيه حتى أعاد المنفيين الذين نفوا لاتهامهم بمشايعة حركة الإصلاح، وأعاد وضع ميزانية الدولة على أساس ثابت لا أساس صوري، وضيق على السلطان عبد العزيز وحاشيته، فلم يمدهم بالمال الذي يشتهون، وبث في المشاكل الخارجية بما أصلحها، وتوجه إلى الإصلاحات الداخلية، فاهتم بربط البلاد البعيدة بالدولة، فوضع مشروع خطر حديدي يربط العراق بالدولة، كما وضع مشروع إنشاء الخطوط التلغرافية في بلاد الحجاز، ومد الأسلاك التلغرافية بين دمشق والحجاز واليمن. ووضع المكاييل والموازين على أساس عشري، ووحدها بين أجزاء الدولة، وعارض أشد المعارضة في منح

الخديو إسماعيل باشا فرمانًا يبيح له عقد قروض من الدول الأجنبية، خشية تدخل الأجانب في شئون القطر المصري.

نمط جديد من الوزراء لم يألفه السلطان عبد العزيز، فقد ألف أن طاعته غُنم، وإشارته حكم، ولذلك لم يلبث مدحت في الوزارة إلا خمسة وسبعين يومًا، اعتزل العمل بعدها وضاعت كل مشروعاته.

ثم كان وزيرًا للعدل في وزارة أسعد باشا، ثم في وزارة شرواني زاده، فمكنته هذه الوزارة الأخيرة من أنٍ يعكف على وضع النظم واللوائح لإصلاح الدولة. وكتب مدحت باشا كتابًا لينا في مظهره، شديدًا في جوهره، يلتمس فيه من السلطان عبد العزيز أن يصدر خطًا همايونيًا جديدًا يحدد احترام القوانين والنظم، والمساواة بين أفراد الشعب، ووضع قيود على صرف أموال الدولة، وجعل الوزراء مسئولين عن نتائج أعمالهم... الخ.. وعرض مدحت باشا هذا الكتاب الموجه للسلطان على الوزراء، فاتفقت كلمتهم عليه، وعلى أنٍ يرفعه الرئيس إلى السلطان. وعندما عرض الكتاب عليه، وسماعه كلمة الإصلاح والشورى والدستور هاج هائجه، وأصدر أمره في الحال بعزل مدحت باشا من الوزارة، وإبعاده بتعيينه واليًا على سالونيك، وبعد أيام عزل شرواني الصدر الأعظم وعينه واليًا لحلب، وبذلك أبعد الاثنين اللذين يذكران الإصلاح. ولم يمكث مدحت طويلاً في سالونيك فعُزل بعد ثلاثة أشهر[1].

خلع عبد العزيز وتولي عبد الحميد:

اتفق كبار المسئولين على خلع عبد العزيز، وفي يوم معين اجتمعت العساكر حول القصر، وأبلغوه الخبر، وأنزلوه من السراي ووضعوه في قصر فخم ومعه والدته وثلثمائة أنثى، بين زوجات وجوار ومملوكات ووصيفات وخادمات. وبعد بضعة أيام وُجد السلطان مقتولاً، وقيل أنه قد انتحر. ومهما كان فقد بويع السلطان مراد، فلم تمض عليه أيام حتى ظهر جنونه واختلط عقله. فولِّيَ السلطان عبد الحميد بعد ثلاثة أشهر. وتولى مدحت باشا الصدارة، وبعد أربعة أيام من صدارته بادر السلطان إلى إقرار القوانين، وإصدار «خط همايوني» جاء فيه:

«وأول ما يلزم لإصلاح الحال هو أن نبدأ بنقطة مهمة هي أن يكوِّن مجلس

---

(١) المرجع: كتاب زعماء الإصلاح في العصر الحديث، تأليف أحمد أمين، ص١٧.

عموم تكون أفعاله وآثاره مستوجبة لثقة العموم واعتمادهم، ويكون موافقًا لقابلية مملكتنا وأخلاق أهلها.. ينظر كذلك في موازنة واردات الدولة ومصاريفها...».

ويعتبر عبد الحميد الثاني من أشهر سلاطين العثمانيين، وممن أطالوا لهم خلافة. ومن فقرات هذا المنشور الذي قدمنا بعضه، يتبين أن أمراض الدولة كانت معروفة، وأن وسائل العلاج كانت معروفة كذلك وفي مقدمتها الحياة الدستورية، والاعتراف بحقوق الإنسان والعمل بها.

وأعلن الدستور المؤسس على الشورى، وعلى اشتراك جميع الرعايا في شئون تحسين الدولة من غير تفرقة بين عنصر ودين، ونظم الدولة بمجلسين مجلس منتخب من الأهالي ويسمى «مجلس المبعوثان»، ومجلس تعين الدولة أعضاءه ويسمى «مجلس الأعيان». وتُلي هذا الدستور المشتمل على ١١٩ مادة بالأستانة في محفل عام في ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦م، وأطلقت المدافع، واستبشر الناس خيرًا. وكان هذا الدستور يتضمن حقوق الدولة، وواجبات الوزراء ورجال الإدارة، واختصاص كل من المجلسين، وتنظيم المحاكم، والمحاسبات العمومية، والمالية... وغيرها. ومن أهم ما جاء به من تفصيلات أنه ضمن لجميع رعايا الدولة الحرية والمساواة أمام القانون، وأباح حرية التعليم مع جعله إجباريًّا، وضمن حرية المطبوعات، وبين حق الانتخاب وكيفيته، وأن الدين الرسمي هو الإسلام، واللغة الرسمية هي التركية، وقرر إبطال المصادرة في الأموال، والتعذيب في التحقيق، وإبطال السخرة، ووضع ميزانية سنوية تعرض على المجلسين التشريعيين، وإذا أقرها المجلسان تصبح نافذة. ونص على عدم جواز عزل القضاة إلا بسبب شرعي.

وهكذا نرى أن الدستور جاء مطابقًا لأحكام حقوق الإنسان على أعلى مستوى! ولكن ماذا تم بشأنه بعد ذلك؟

قبل أن يتم المجلس دور انعقاده الأول أصدر السلطان عبد الحميد قرارًا في ١٤ فبراير سنة ١٨٧٨م بفض المجلس وتأجيل اجتماعاته إلى أجل غير مسمى. وظل الدستور معطلاً إحدى وثلاثين سنة، مما يؤكد أن تعطيله لم يكن لمواجهة حالة طارئة، بل لتحقيق رغبة السلطان في الحكم المطلق، ورغبة أعوانه الذين يستفيدون من انطلاق الحكام بدون قيود وبدون رقابة.

ومع تعطيل الدستور تقرر عزل مدحت باشا وإبعاده إلى خارج الدولة فورًا من غير أن يعرج على أهله، فأذعن للأمر وركب الباخرة متوجهًا إلى أسبانيا.

وبعد ضغوط شعبية قوية، أسرع السلطان وأعلن إعادة الدستور في ٢٤ من يوليو سنة ١٩٠٨، وأصدر أمره بإجراء الانتخابات. وبعد تسعة شهور من الإعلان الثاني للدستور، اندلعت ثورة بالعاصمة تنادي بإلغاء الدستور والعودة للشريعة الإسلامية. وكانت هذه الثورة بقيادة الدراويش وانضم لها بعض الجنود.

أما مدحت باشا فأخذ ينتقل من أسبانيا إلى لندن إلى باريس إلى فيينا محاولاً الدعاية لقضية بلاده. وكان في إنجلترا.. عندما قابله سفير الدولة العثمانية هناك، وأبلغه أن السلطان سمح له أن يقيم مع أسرته في جزيرة «كريت»، فذهب إليها وعاش فيها نحو شهرين. ثم عُيِّن واليًا لسورية ثم لأزمير. وظهر نشاطه في سوريا حيث شكل الجمعيات، وجمع الإعانات، وفتح المدارس، وأصلح المساجد، ووضع عقوبة لولي الأمر إذ بلغ ابنه السادسة ولم يرسله إلى المدرسة، واستعان بأموال الأوقاف في أمور التعليم.

وأخيرًا، نُقل إلى أزمير. وكانت المؤامرة. فبعد خمس سنوات من وفاة السلطان عبد العزيز تحركت مسألة وفاته من جديد، وترددت إشاعات بأنه لم ينتحر وإنما قُتل بإيعاز من مدحت وأصحابه، وتم القبض عليه ليلاً، وأُجريت لهم محاكمة عاجلة، وبعد محاكمة صورية حُكم عليه بالإعدام، وتوسط بعض السفراء فاستبدل بالإعدام النفي، ووضعوه وصحبه في باخرة ذهبت بهم إلى جدة ومنها إلى الطائف، ولقوا معاملة سيئة، وتم التضييق على مدحت حتى مات في الحبس.. بعيدًا عن الديار.. التي طالما رهن حياته من أجل رقيها وتقدمها[١].

(١) المرجع: كتاب: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، تأليف: أحمد أمين، ص٢٦.

الفصل الثالث
الدين في الدولة العثمانية

مع كثرة فتوح العثمانيين وسرعة تقدمهم في أوربا، انزعج معظم الأوربيين، وقامت ضجة دينية للحض على حربهم، فقام البابا يدعو الناس باسم الدين إلى مقاتلتهم، وخرج لذلك جيش أوربي عظيم بقيادة ملك المجر، ضم بين كتائبه كثيرًا من فرسان فرنسا وألمانيا، وكان السلطان بايزيد إذ ذاك غائبًا في آسيا، ففاز الأوربيون في بادئ الأمر، واستردوا من الترك كثيرًا من المدن، ثم شرعوا في حصار مدينة «نيقوبولس» وهي من أمنع المدن على نهر «الطونة». فلما علم بايزيد بذلك أسرع للقائهم، فهزمهم هزيمة تعد من أنكر الهزائم التي دوّنها التاريخ، بحيث لم ينج من جيوشهم إلا النزر اليسير، وكانت هذه الموقعة سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٦م.

والواقع أن سلاطين آل عثمان ظلوا جديرين بحمل لقب الخلافة حتى أواخر القرن السابع عشر. فقد ساروا على نهج الإسلام في حكمهم للرعية من مسلمين وغير مسلمين، وفي سلوكهم الشخصي. ولكن الأحوال تبدلت منذ ذلك التاريخ لأسباب عديدة، منها أن العثمانيين حاولوا تتريك البلاد المفتوحة، فضلاً عن أنهم اعتبروا أنفسهم ورثة الإمبراطورية البيزنطية، بعد أن اتخذوا القسطنطينية- وأسموها الأستانة- عاصمة لهم، فأخذوا بعاداتهم ومصطلحاتهم، وتشبهوا بهم في أبهة الحكم. فأصبح الحكم إسلاميًا في شكله، بعيدًا عن الإسلام في جوهره. ومع ذلك قبل العلماء تسمية السلطان العثماني خليفته حفاظًا على وحدة الأمة الإسلامية.

الإسلام والتسامح الديني:

بعد فتح القسطنطينية عاد محمد الفاتح إلى أدرنه، وأمر ببناء جميع الحصون الخربة ليجعل من هذه المدينة عاصمة لإمبراطوريته، وعمل السلطان على تنظيم أحوال اليونان (الروم) المغلوبين للتو والساعة، واعترف- وفقًا للتعاليم الإسلامية- بجميع السلطات الدينية اليونانية، بل إنه زادها قوة بأن وكل إليها أمر القضاء المدني، وتطبيق أحكامه على أتباعه.

ويصف فولتير الفيلسوف الفرنسي الشهير موقف المنتصر المسلم من المهزوم المسيحي بقوله: «إن الأتراك لم يسيئوا معاملة المسيحيين كما نعتقد نحن، والذي يجب ملاحظته أن أمة من الأمم المسيحية لا تسمح أن يكون

للمسلمين مسجد في بلادها.. بخلاف الأتراك، فإنهم سمحوا لليونان المقهورين بأن تكون لهم كنائسهم... ومما يدل على أن السلطان محمد الفاتح كان عاقلاً حليمًا تركه للنصارى المقهورين الحرية في انتخاب البطريرك. ولما انتخبوه ثبّته السلطان وسلمه عصا البطارقة وألبسه الخاتم، حتى صرح ذلك البطريق بقوله: إني خجل مما لاقيته من التبجيل والحفاوة، الأمر الذي لم يفعله ملوك النصارى من أسلافي».

ولعل من الخير أن نشير هنا إلى الفرق بين هذا التصرف وتصرف غير المسلمين مع المسلمين عندما يحظى غير المسلمين بأية انتصارات ضد المسلمين، كانتصارات المسيحيين المدمرة في الحرب الصليبية الأولى، وكانتصاراتهم على المسلمين في أسبانيا، وكالانتصارات الزائفة لليهود ضد العرب في فلسطين، فقد كانت دائمًا انتصارات فيها غل وحقد، ودماء ودمار.

ولقد بذل العثمانيون جهودًا مشكورة في الدفاع عن الأرض الإسلامية التي تعرضت لمحاولات غربية للسيطرة عليها، سواء من قِبَل البرتغال للسيطرة على الإمارات العربية الساحلية وعمان بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، أو من قبل الزحف الصليبي لاجتياح الحجاز في أوائل القرن السادس عشر، أو من الفرنجة عقب انتصارهم على المسلمين في الأندلس، ومحاولتهم احتلال أجزاء واسعة من الشمال الأفريقي.

وقد حرص العثمانيون على نشر الإسلام بالبقاع التي دخلوها بأوربا، إذ كانت حملاتهم العسكرية يصحبها الوعاظ والمعلمون الذين يقومون بنشر الإسلام في الامتدادات التي وصلت لها الدولة، كما السلاطين والأمراء والأثرياء العثمانيين اهتموا اهتمامًا كبيرًا بإقامة المساجد والمعاهد والخوانق (جامع خانقاه) لتعليم الإسلام والدعوة له، مما جعل عددًا كبيرًا من الأوربيين يعرفون الإسلام ويرتبطون به.

الجامعة الإسلامية :

عندما أحس **السلطان عبد الحميد** بصوت الجماهير الأحرار يثير عليه الناس، أراد بذكائه ودهائه أن يقوم بعمل مضاد يشغل به الناس ويحببهم فيه، ويتظاهر به أنه راغب في الإصلاح، ليؤجل بذلك العاصفة المثارة أو يقضي عليها قضاءً مبرمًا، فكان أن هبَّ يدعو للجامعة الإسلامية، معلنًا أنه يرمي لربط المسلمين في شتى البلاد بآصرة قوية هي آصرة الدين، متخليًا عن عصبية

الجنس واللغة، وأنه ينوي أن يهيئ للبلاد الإسلامية صنوف الحرية والرخاء. ووجد هذا الاتجاه صدًى كبيرًا في نفوس المسلمين، وتأييدًا عظيمًا.

وقد بدأ السلطان نداءه للجامعة الإسلامية باتجاه ذكي ماهر، هو أن أحاط نفسه بلفيف من المفكرين المسلمين في طليعتهم السيد **جمال الدين الأفغاني**.. الذي استدعاه السلطان لينزل ضيفًا عليه في الأستانة، وقرَّبه إليه، وأغدق عليه المال، وأفسح له صدره ليتكلم ويقترح وينقد. وكان السلطان بذلك يرمي إلى إبعاد جمال الدين عن جماعة ناهضة هي «تركيا الفتاة» إذ كان جمال الدين قد اجتمع بهم في باريس. ويقال: إن جمال الدين ما أن وضع قدمه في الأستانة حتى كان في قفص من ذهب أحكم بابه. وقد افتتن بهذه الدعوة كثيرون من رجالات العرب، وروج لها الدعاة الذين انتشروا في كل البقاع، يحاولون إقناع الناس بأن الخلافة هي أملهم الوحيد والسبيل الأوحد لإنقاذ الشرق من براثن الغرب. وكان لهذه الدعوة أثر بالغ في مصر، تمثل فيما كتبه المجاهد «**مصطفى كامل**» عندما قال: «الخلافة الإسلامية هي لكل مسلم السلطة العالية التي يستمد منها القوة والنور والهداية، وهي الحصن الحصين الذي يصان به الإسلام ويعتز به المسلمون..»[١].

ولكن إلام انتهت هذه الدعوة؟ انتهت إلى لا شيء !!

الاتجاهات الدينية :

مرّت الدولة العثمانية- كما سبق القول- بمرحلة من الضعف أدت إلى تفككها وتجزئتها إلى دويلات، ومع ذلك ظلت الوحدة الثقافية الإسلامية قائمة، وظلت الشريعة الإسلامية هي وحدها القانون الواجب التطبيق. ولكن هذا الضعف والتفكك ظهر أثره في الفقه، فقد استكان الفقهاء إلى ما خلفه أئمة المذاهب الكبرى وتلاميذهم من تراث فقهي، ولم يحاولوا الابتكار والإبداع، لأنهم وجدوا في كتب السابقين من الحلول ما يكفي لمواجهة ما يجد في المجتمع من مشاكل.

وقد ألزم العثمانيون الناس باتباع مذهب أبي حنيفة، ونتج عن ذلك أن توحَّد القضاءَ كما توحد القانون. واعتمد سلاطين آل عثمان على مبدأ السياسة الشرعية في إصدار قوانين أو أوامر، فيما لم يرد فيه نص في الشريعة، وقد

---

(١) الدكتور أحمد شلبي في كتابه عن الإمبراطورية العثمانية (مرجع سابق) في مواضع مختلفة من الكتاب.

صاغت مجلة **«الأحكام العدلية»** هذا المبدأ بقولها (م١٨٠١): «لو صدر أمر سلطاني بالعمل برأي مجتهد في مسألة، لأن رأيه بالناس أرفق ولمصلحة العصر أوفق، فليس للحاكم (القاضي) أن يعمل برأي مجتهد آخر منافٍ لرأي ذلك المجتهد، وإذا عمل فلا ينفذ حكمه». وكانت القوانين الصادرة في الدولة العثمانية نافذة في كل البلاد العربية عدا مصر والمغرب والجزيرة العربية.

وانطلاقًا من هذا التصور بدأ خلفاء آل عثمان في إصدار تشريعات لتنظيم الأمور المالية والإدارية والدواوين الحكومية، وكانت تعرف باسم **«قانون نامه»** تمييزًا لها عن الشرع الحنيف، وكانت تصدر في شكل: «الفرمان، أو الخط الشريف، أو الخط الهمايوني، أو الإرادة السنية». وأول تشريع صدر من آل عثمان هو قانون نامه الذي أصدره السلطان محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية ببضع سنوات، تضمن تنظيمًا للإدارة، وأحكامًا متعلقة بالعقوبات. ثم توالت قوانين نامه في عهد خلفائه، وكانت كلها تعتمد على الشريعة والعُرف الجاري.

وفي هذا الصدد اشتهر السلطان سليمان الأول (من ١٥٢٠-١٥٦٦م) بما أصدره من تشريعات، وقد تم جمعها في مجموعة عُرفت باسمه، كما ظهرت في عهده أيضًا مجموعة عُرفت باسم «معروضات أبو السعود أفندي» نسبة إلى أبو السعود ابن محمد بن العماد.. شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، وتشمل مجموع ما أصدره من فتاوى. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر صدرت عدة قوانين لتنظيم ملكية الأراضي مستمدة بصفة أساسية من الشريعة الإسلامية أشهرها قانون الأراضي الصادرة عام ١٨٥٨م.

وبلغت حركة التقنين لأحكام الشريعة ذروتها بصدور مجلة **«الأحكام العدلية»** بين عامي ١٨٦٩ و١٨٧٦م. وكان صدورها حدثًا هامًا في تاريخ الشريعة الإسلامية، وطُبقت في سائر أجزاء الدولة العثمانية عدا مصر، لأن مصر كانت لها قوانينها الخاصة بها، إذ طبقت القوانين المختلطة الصادرة عام ١٨٧٥م ثم القوانين الأهلية الصادرة عام ١٨٨٣م. وظلت مطبقة في باقي الدول حتى بعد استقلالها، إلى أن استبدلت بها التقنينات الحديثة (مثل سوريا ولبنان والأردن والعراق... الخ) كما طُبقت على كل رعايا الدولة العثمانية من مسلمين وغير مسلمين.

وقد جمع واضعو مجلة الأحكام العدلية عددًا من القواعد الكلية في الشريعة الإسلامية، بلغت تسعًا وتسعين قاعدة، خصصوا لكل منها مادة في

المجلة، وأشهر هذه القواعد خمس هي:
١- الأمور بمقاصدها.
٢- لا ضرر ولا ضرار.
٣- المشقة تجلب التيسير.
٤- العادة محكمة.
٥- اليقين لا يُزال بالشك.

واقتصرت المجلة على تقنين أحكام المعاملات ولم تتعرض للعبادات، كما أنها لم تتعرض للأحوال الشخصية من زواج وطلاق وغيره، بالنظر لارتباط هذه الموضوعات بالعقيدة الدينية، وتباين أحكامها بين المسلمين وغير المسلمين تبعًا لتباين العقائد[١].

في مواجهة الصهيونية:

اتجه الصهاينة منذ عهد بعيد للسيطرة على فلسطين وبخاصةً المناطق المقدسة بها، وكان مولد الحركة الصهيونية الجديدة معاصرًا للنشاط العثماني في الأرض العربية. وقد تجددت محاولة الصهاينة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (من ١٨٧٦-١٩٠٩م) ولكنه رفض بقوة السماح بإقامة وطن يهودي للصهاينة في فلسطين، ويروى أنه بعد عقد مؤتمر بال بسويسرا سنة ١٨٩٧م الذي قرر إقامة وطن لليهود في فلسطين، ذهب أحد قادة التنظيم الصهيوني واسمه «قره صو» إلى الخليفة عبد الحميد، وذكر له أن الحركة الصهيونية مستعدة أن تقدم قرضًا للدولة قدره خمسون مليونًا من الجنيهات، وأن تقدم هدية لخزانة السلطان الخاصة قدرها خمسة ملايين من الجنيهات.. نظير منح اليهود الحق في إقامة وطن قومي لهم بفلسطين، وكان أن صرخ السلطان في حاشيته قائلاً: «من أدخل عليّ هذا الخنزير؟»، وطرده من البلاد، وأصدر أمرًا بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين، ويقال إن هذا الصهيوني كان ضمن الذين أعلنوا إقصاء الخليفة من السلطة سنة ١٩٠٩م، كما سيأتي بيانه لاحقًا[٢].

---

(١) المرجع: الدكتور صوفي أبو طالب في كتابه بعنوان: تطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد العربية، ص٢٢٦، ٢٢٩، ٢٥٤ وما بعدها.
(٢) الدكتور أحمد شلبي، (المرجع السابق)، ص٨٦٣.

أتاتورك والعلمانية

يذكر المؤرخون أن الدول الاستعمارية الغربية لم تنجح في تحقيق غاياتها نحو احتلال الدول العربية إلا بعد أن ضعفت الدولة العثمانية، وانتشر فيها الظلم وسوء الإدارة وفساد الحكم، وبعد أن استمرت الدولة العثمانية تسيطر على المنطقة حوالي خمسة قرون متصلة.

وهذه الأوضاع المتردية التي وصلت إليها الإمبراطورية العثمانية شجعت الدول الغربية للعمل على احتلال أجزاء من الدول التابعة للإمبراطورية العثمانية، وتقطيع أوصالها وتجزئتها.. بما لا يسمح بقيام وحدة إسلامية. بل إن اليونان التي كانت خاضعة للحكم العثماني، تمكنت من طرد القوات العثمانية من أراضيها واستعادة استقلالها، بل وطمعت في احتلال أجزاء من أراضي الدولة التركية ذاتها، فتصدت لها وحدات من الجيش التركي بقيادة أحد القادة العسكريين هو «**مصطفى كمال**» الملقب بـ «أتاتورك» أي أبو الترك، وتمكنت من صدها والانتصار عليها وطردها خارج البلاد، الأمر الذي رفع أسهم مصطفى كمال وخلق له شعبية ومركزًا متميزًا. وقد استغل كمال هذه الظروف، وبنى لنفسه صرحًا كبيرًا، وقدم نفسه للشعب التركي على أنه هو «الغازي» والمنقذ، وقام بترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية، وحصل على ثقة البرلمان سنة ١٩٢٣م وفي ذات الوقت تقرر إلغاء الخلافة العثمانية، وتم اختيار كمال رئيسًا لتركيا مدى الحياة، ثم أعيد انتخابه سنة ١٩٢٧، ١٩٣١، ١٩٣٥. وقد تمكن مع طول مدة حكمه أن يتجه بتركيا نحو الغرب، **وأن يبتعد تمامًا عن الإسلام وعن الدول العربية والإسلامية**. واتخذ عدة تدابير قاسية لتحقيق ذلك.. منها:

١- إلغاء الخلافة الإسلامية نهائيًا في تركيا، وإبعاد آخر الخلفاء العثمانيين عن البلاد هو وأسرته وتابعيه.

٢- قطع كل صلة بالإسلام، وفي سبيل ذلك أباح زواج المسلمة من غير المسلم، وترك الحلف باسم الله في الأيمان الرسمية، وعرقل سفر الأتراك للحج، ومنع حجاب المرأة، وألغي التقويم الهجري، وغيَّر أحكام المواريث فسوى بين الذكر والأنثى، وجعل أصحاب الحق في الإرث هم الفروع دون غيرهم، وأصبح تعدد الزوجات محرمًا.

٣- استبدال الدستور العثماني القائم على الإسلام بدستور مدني بحت، وألغى النص في الدستور على أن دين الدولة هو الإسلام، وألغى العمل بالشريعة

الإسلامية، واستبدل بالتشريع الإسلامي القانون المدني السويسري والقانون الجنائي الإيطالي.

٤- تجميد وشل جميع العناصر الإسلامية في تركيا، بتحريم الزي الديني (الجبّة والعمامة) إلا على رجال الدين، وفرض الزي الأوربي بلبس البدلة والقبعة، وتحريم جميع الطرق الصوفية، وإغلاق زوايا الدراويش، وقضت الحكومة التركية في قسوة وعنف على أي نقد لتدابيرها، وألغيت الكتابة بالحروف العربية واستبدلت بها الحروف اللاتينية، وحذف من مناهج المدارس تعليم اللغة العربية، وأوصد أبواب أشهر مساجد استانبول ليحول أحدهما إلى متحف والآخر إلى مستودع (مسجد أيا صوفيا ومسجد الفاتح).

والخلاصة أنه اتخذ كل ما من شأنه أن يلقي بتركيا في أحضان العلمانية:

وقد اختلف المفكرون في تعريف المقصود بالعلمانية:

فقال الدكتور صوفي أبو طالب في أحد كتبه: أن «التيار العلماني يتبنى الحضارة الأوربية التي تقوم على الفصل بين الدين والدولة، وتعتمد على التراث الكلاسيكي (الإغريقي- الروماني)، ويتنكر أصحاب هذا الاتجاه للحضارة العربية والإسلامية».

وقال الدكتور أحمد شلبي في أحد كتبه: أن «المعنى الشائع للعلمانية يكاد يعادل معنى اللادينية، وذلك المعنى هو الذي اتبع بالنسبة إلى تركيا».

أما الدكتور حازم الببلاوي فله رأي آخر نشره في جريدة الأهرام، فهو يرى أن «العلمانية لا تدعو إلى الفصل بين الدين والدولة، وإنما فقط إلى رفض مفهوم «السلطة الدينية» المعصومة من الخطأ والتي تحتكر الحديث باسم الدين بتفويض من خارج البشر. ويضيف بأنه ليس صحيحًا القول بأن العلمانية معارضة للأديان، فالحقيقة أن العلمانية هي الاعتراف للجميع- دون تمييز- بحرية ممارسة عقائدهم دون تمييز بين عقيدة وأخرى».

من هذا يتضح أن الدكتور حازم الببلاوي (الاقتصادي الضليع) يختلف في الرأي مع اثنين من كبار المفكرين الإسلاميين، وإذا رجعنا إلى الواقع الذي فرضه أتاتورك على تركيا، تبين لنا أن العلمانية بها تقوم على الفصل بين الدين والدولة، وأن لا محل للتمسك بالدين الإسلامي كمصدر للتشريع في تركيا، في ظل الأوضاع التي فرضها أتاتورك، مع ملاحظة أن الوضع يختلف في ظل الدين المسيحي الذي يقر بالفصل بين الدين (الكنيسة) والدولة.

القسم الثالث

حقـوق الإنـسان فـي الغـرب

تمهيد :

نقدم في هذا القسم عرضًا لحقوق الإنسان في الغرب، متوخين التطور التاريخي لقارة أوربا.

ومن ثم سوف يتضمن هذا القسم الأبواب الآتية:

الباب الأول : الإغريق والرومان والدولة البيزنطية.

الباب الثاني : أوربا في العصور الوسطى.

الباب الثالث : عصر النهضة الأوربية.

الباب الرابع : حقوق الإنسان في الغرب.

الباب الأول

الإغـريق والـرومان والإمبراطورية البيـزنطية

(أ) عصـــر الإغـريق

الفصل الأول

التاريخ الإغريقي القـديم

كانت أشعار «**هوميروس**» المصدر الأساسي لمعرفة الماضي في بـلاد اليونان، وهي أشعار ارتبطت بملاحم أخرى كانت تتناول **حرب طروادة** بأسلوب شعري، وقد عُرف هذا الشعر بالشعر الملحمي، ولم تُعَمِّر الأشعار الأخرى مثلما عمرت أشعار هوميروس.

وكانت الرواية المتواترة.. الأكثر شهرة في بلاد اليونـان هـي حـرب طروادة، وتدور حول قصة باريس بن بربام ملك طروادة، الذي خطف هيلـين، الزوجة الجميلة لمينلاوس ملك أسبرطة، لذا اجتمع كل رؤسـاء بـلاد اليونـان وطالبوا باستردادها، وأقسموا أن يعاقبوه على فعلته النكراء. استغرقت الحـرب أكثر من عشر سنوات، شكّل جزء من العام العاشر موضوع «الإلياذة».

يقول «هيرودوت» المؤرخ الإغريقي: أن كلاً من هوميروس وهزيـود عاشا أربعمائة سنة.. لا أكثر من هذا، وهيرودوت نفسه وُلد حوالي سـنة ٤٨٤ قبل الميلاد. وتحتوي الإلياذة كما في الأوديسا حوادث وتواريخ مختلفة، القصائد كانت فنية بدرجة عالية، ولم تصنف مع القصائد الشعبية الراقصة.

أقـدم دسـتور سـياسـي :

كان لليونان– منذ القدم– دستور سياسي يتشكل من عناصر ثلاثة هـي: الملك، والمجلس، والجمعية. ويعتبر الملك رئيس العشيرة، وهو– في اعتقادهم– ينحدر مباشرة من «**الإله زيوس**»، أو من رب الأرباب، وارتبط به الناس علـى أنه المعبود الحارس. وكانت وظائف الملك ثلاثية، حيث كـان هـو: القاضـي الأعلى، والكاهن الأعلى.. الذي يقدم القرابين للآلهة نيابة عن النـاس، والقائـد الأعلى في الحرب. وطبقًا للقاعدة التي تعتبر أن الملك مقدس، فإن ذلك يعطيـه الحق في أن يدعي أنه يستلهم الأحكام والقرارات التي يصدرها مباشرة من الإله زيوس، وبالتالي لا توجد قوانين، لذلك كانت الأوامر والمراسيم الملكية ملزمـة للجميع على أساس ديني.

وكانت مجموعة مميزة من رؤساء العشائر تشكل الأساس الثـاني فـي التنظيم، ألا وهو «مجلس الكبار» (بوليه)، وظل الوضع على ذلك حتى ظهـرت

طبقة النبلاء. ويسمى المجلس (جيروسيا) أي مجلس الشيوخ. ومارس المجلس دور الرقابة على الملك، وكان على الملك أن يستشيره وأن يهتدي بقراراته، لذلك دار صراع بين المجلس والملك، وكان محور هذا الصراع الدائم هو الرغبة في تحديد سلطات الملك.

أما العنصر الثالث في هذا التنظيم الدستوري فهو جمعية الشعب التي يسمونها «الأجورا»، وكان حضورها حق لكل الرجال الأحرار، ولهم الحق في ممارسة التهليل عند الاقتراع على مشروعات الملك بالموافقة أو المعارضة. ولم يكن لها أوقات محددة تجتمع فيها، بل تجتمع إذا دعاها الملك للانعقاد. وكان ذلك خلال القرن الثامن قبل الميلاد. والكلام الشائع أنه تم إلغاء الملكية في بلاد اليونان بعد ذلك، وتولت العائلات النبيلة التي كانت تشكل المجلس الملكي عمل الحكومة.

النشاط البحري والاتصال بالفينيقيين:

فيما بين سقوط الإمبراطورية البحرية اليونانية التي كان مركزها كريت، وبين تقدم سيادة الإغريق في بحر إيجه، توجد فترة خالية فيما بين عامي ١٠٠٠ و ٧٠٠ قبل الميلاد تقريبًا، كانت التجارة في بحر إيجه خلالها في أيدي الفينيقيين من صيدا وصور بدرجة كبيرة. ولقد أقام الفينيقيون بعض المراكز التجارية في نقط ملائمة على الشاطئ اليوناني وفي بعض الجزر. وكان نتيجة هذا الاتصال والاحتكاك بعض التأثيرات على الديانة اليونانية، مثال ذلك إدخال عبادة أفروديت «عشتارت» Astarte الفينيقية في أماكن عديدة، وكذلك عبادة الربة «ملكارت»، ولكن الهدية الأعظم من الفينيقيين إلى الإغريق هي: الأبجدية.

تدريجيًا أكدت الروح البحرية للإغريق نفسها، حيث وجد الفينيقيون أنفسهم مطرودين من بحر إيجه، وأصبح اليونانيون أسياد مياههم، وبدأوا في الاندفاع نحو حوض البحر المتوسط، بدأ ذلك من النصف الأول للقرن الثامن ممتدًا حتى منتصف القرن السادس قبل الميلاد، إذ في هذه الفترة حدث الانتشار العجيب لليونانيين، وكان هذا الانتشار يتمثل في التقدم التجاري، وخاصةً التجارة البحرية، فنجد أن المستعمرات في الشاطئ الشمالي للبحر الأسود كانت يونانية، حيث لم يوجد مستعمر غيرهم، وكانوا يتاجرون في السلع التي تشمل الغلال والمواشي والأسماك الموجودة في هذه الأقاليم، وأدى تقدم التجارة عبر البحار

إلى تطور فن صناعة السفن. وكان تزايد السكان وما نتج عنه من صعوبات اقتصادية سببًا في الهجرة أيضًا.

وتوجد حقيقة هامة هي أن مستقبل بلاد اليونان كان يقع في أيدي المدن الثلاث: إسبرطة، وأثينا، وطيبة.

اتصال الإغريق بمصر:

كان فتح مصر أبوابها أمام التجار الإغريق يعتبر فصلاً من فصول حركة الاستعمار اليوناني، وكانت أبواب مصر مغلقة لفترة طويلة أمام التجار الإغريق، لكن عندما ثار الإمير الوطني حاكم مصر السفلى «بسماتيك»[1] ضد الملك الآشوري أشور بانيبال الذي احتل مصر، فإن الإغريق قاموا بمساعدة بسماتيك، وكانوا من أقوى المحاربين، حيث تمكن الملك المصري من طرد المحتلين والسيطرة على مصر والاستقلال بها، وقد أقام بسماتيك للمرتزقة الإغريق معسكرًا في دفنه على فرع للنيل، ونتج عما سبق أن فتح بسماتيك مصر على مصراعيها للإغريق، وتبعه في ذلك خلفاؤه: نخاو، وبسماتيك الثاني، وأبريس، وأمازيس، وسمحوا لهم بالاستقرار بها.

وقام الإغريق بتأسيس مركز تجاري لهم على فرع النيل، وأصبح هذا المركز يُعرف فيما بعد باسم نقراطِيس، وكان في داخل هذا المركز معابد الإغريق ومحلات أعمالهم، وظهرت نقراطيس كمستعمرة يونانية عام ٦٥٠ ق.م. تقريبًا. وكانت هذه المستعمرة مركز التقاء الحضارتين المصرية واليونانية، وفي هذه المنطقة واجه الإغريق لأول مرة في حياتهم حضارة رفيعة الشأن، وأعظم من حضارتهم.

جهود الملك فيدون :

ظهر في التاريخ القديم للإغريق، الملك فيدون في منتصف القرن السابع ق.م. تقريبًا، وقد بذل جهودًا في مجالات داخلية متعددة، فقد أعاد تنظيم الألعاب

---

(١) كان بسماتيك رابع ملوك الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية، ويفضل المؤرخون اعتباره مؤسسًا لأسرته، لأنه هو الذي نجح في تطهير الدلتا من الأشوريين (من سوريا)، ثم وحد مصر كلها تحت زعامته في الفترة من ٦٦٤-٦١٠ق.م، كما فعل أحمس الأول من قبل عندما طرد الهكسوس عام ١٥٦٧ق.م.

الأولمبية التي تهتم بها اليونان من قديم، وترك بصمته على الحضارة اليونانية بما فعله في المجال التجاري، فقد اخترع الأوزان، والمقاييس، والعملة (النقود)، وكان يصنعها من الذهب والفضة، وكانت تأخذ شكل المستطيل. ويقال أنه لم تكن توجد عملة يونانية قبل عصر فيدون[١].

---

(١) المرجع: كتاب «تاريخ اليونان والرومان» للدكتور محمد فهمي عبد الباقي (في مواضع مختلفة).

الفصل الثاني
حضارة الإغريق

كان للإغريق حضارة عظيمة فترة ما قبل الميلاد، فعلاوة على ما ذكرناه آنفًا، ظهر في اليونان شخصيات عملاقة خلاقة، في مختلف العلوم والفنون، والحكمة أو الفلسفة، فقد ظهر أبقراط في الكيمياء والصيدلة، وظهر جالينوس في الطب، وكان لكل منهما أبحاث ومؤلفات استفاد منها العلماء العرب، أول اهتمامهم بالعلوم، في العصر العباسي الأول، كما سبق أن ذكرنا.

على أن أوسع مجال اهتم به الإغريق هو مجال الفلسفة، فإن أسماء فلاسفة اليونان كانت وما زالت تتردد حتى الوقت الحاضر، ولا يسعنا إلا أن نعطي موجزًا عن نشاط فلاسفة اليونان وأفكارهم.

ونقول في البداية أن كلمة «فلسفة» في الأصل كلمة يونانية، وتتركب من كلمتين هما: (فيلو – صوفيا) بمعنى محبة الحكمة حسب لغتهم، ولم يشأ العرب أن يستبدلوها بكلمة أخرى، بل استبقوا الأصل اليوناني بعد أن أخضعوه للنطق العربي. والحكمة هي المعرفة التي نسعى إلى طلبها والحصول عليها، والفيلسوف هو طالب الحكمة ومحبها.

وقد نشأت الفلسفة في المحيط الإغريقي (أو الهيليني أو اليوناني)، إذ كان اليونانيون القدماء هم أسبق الناس في مناقشة المسائل الفلسفية، واستخدام العقل والتفكير الحر للوقوف على الحقائق.

وأقدم فلاسفة اليونان هما: «أنباذوقليس» و«ديموقريطس»، وهما يقولان أن المادة قديمة، وهي مركبة من أجزاء لا تتجزأ، وهذه الأجزاء أو الذرات دائمة التحرك في الفضاء اللانهائي، ومن اجتماعها تتكون الأجسام وبافتراقها تفنى. وهكذا استمر الأمر من الأزل، وسيبقى إلى الأبد بدون غاية ولا هدف، إنها الآلية البحتة. وهؤلاء يُطلق عليهم: «**الدهريون**» وهم طائفة أنكروا الصانع المدبر، العالم القادر، ومن ثم فإن فلسفتهم وثنية بلا شك.

ثم جاء بعدهم «**الطبيعيون**» وهم قوم في مقدمتهم «**سقراط**»، وهو مؤسس فلسفة الأخلاق، وإلى مدارسه الأخلاقية التي شيدها تلاميذه من بعده ترجع أكثر الأفكار الأخلاقية. عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وجاهد في سبيل الحق، حتى لقي مصرعه على أيدي حاسديه من أنصار الباطل، فكان

مصرعه مأساة دامية، لا تزال حتى اليوم تثير أشجان أنصار الحق في كل زمان ومكان، وتوحي إلى أنفسهم بأسمى مثل للبطولة والشجاعة والثبات على الحق. ومنهجه في البحث كان يدور على أساس الحوار للوصول إلى الحقيقة.

ثم جاء «**أفلاطون**» وهو تلميذ سقراط، وُلد سنة ٤٢٩ وتوفي سنة ٣٤٧ق.م. ويُطلق عليه أفلاطون الإلهي، ذلك أن الروحانية تحتل من فلسفته المركز الرئيسي، فقد كان يدعو إلى المثاليات، وتحدث عن المدينة الفاضلة.. التي يحلم بها كل متطلع إلى العدل والصدق والأخلاق الفاضلة، وقسم الناس فيها طبقات، وحدد لكل طبقة مهمة محددة، بحسب استعداد كل طبقة منهم، ففي «جمهوريته» طبقة المنتجين، وهي الطبقة ذات المعدة الشرهة، والشهوات الغلابة، وطبقة الجند ذات العاطفة القوية، وطبقة القادة معدن العقل والحكمة، والبصيرة والإشراق.

وكان ثالثهم هو «**أرسطو**»، وُلد سنة ٣٨٤ وتوفي سنة ٣٢٢ق.م. وهو أعلم فلاسفة اليونان الأقدمين، ويعده بعض الناس أعظم شخصية فلسفية وُجدت حتى الآن. وهو مقدوني الأصل، ثم رحل إلى أثينا جنوبًا، وتتلمذ على أفلاطون ولازمه، ويسمى أتباه بالمشائين (لأنه كان يعلمهم وهو يمشي في حديقة مدرسته). ويُلقب بالمعلم الأول لأنه أول من رتّب المنطق ونظّمه وكونه علمًا له حدوده وأهدافه. وقد طلب إليه الملك فيليبس المقدوني تعليم ابنه الاسكندر (الأكبر) فأخذ يعلمه ثلاث سنوات(١).

(١) وردت في كتاب: العالم الصوفي أبو حامد محمد الغزالي، تأليف: محمد أحمد خضر.

الفصل الثالث
الاسكندر الأكبر

ذكرنا من قبل أن مستقبل بلاد اليونان كان يقع قديمًا في أيدي المدن الثلاث: إسبرطة، وأثينا، وطيبة.

وقد نشأ شباب إسبرطة نشأة عسكرية صارمة، في حين قام بفلاحة الأرض وتوفير أسباب العيش عدد كبير من الرقيق.. الذين عاشوا عيشة حرمان، ولم يتمتعوا بأية حقوق، ولم تلبث إسبرطة أن غدت قوة حربية كبيرة مما مكنها من خوض عدة حروب والانتصار في معظمها.

أما الدولة الثانية التي نافست إسبرطة وفاقتها في تاريخ بلاد اليونان الحضاري والفكري، فكانت أثينا. وقد ظلت أثينا حتى القرن السادس قبل الميلاد مدينة في الدرجة الثانية من الأهمية، ولكنها ازدهرت في القرن الخامس قبل الميلاد. ويرتبط ازدهار أثينا في هذا الدور بمشرع فذ اسمه «**سولون**»، وضع دستورًا شاملاً لأثينا أصلح به أوضاعها الاقتصادية، والاجتماعية والسياسية، ويعتبر المؤرخون دستور سولون الحجر الأساسي في الحرية اليونانية، وظهر الاتجاه الديمقراطي قويًا واضحًا في مجلس العامة، فقد كانت له من السلطات وقوة التمثيل الشعبي ما جعل منه رقيبًا فعليًا على أجهزة الحكومة، كذلك سنَّ سولون تشريعات اجتماعية أخرى تتعلق بنظام الوراثة، وعلاقة أفراد المجتمع بعضهم ببعض، ووصاية الآباء على الأبناء.

وكان أن تمكنت أثينا بفضل هذه الوثبة من تزعم قوى اليونان المشتتة في صراعها مع الفرس، ذلك أن ملوك الفرس أخذوا يتوسعوا توسعًا سريعًا في آسيا الصغرى، واصطدموا بالمستوطنات اليونانية فيها. على أن ملك الفرس دارا الأول أعدَّ قوة ضاربة عبر بها البسفور سنة ٥١٠ق.م. وغزا تراقيا، مما اضطر ملك مقدونيا إلى إعلان ولائه للفرس. وفي ذلك الصراع بين الفرس واليونان، أبلت أثينا بلاءً حسنًا، فأحرز الأثينيون انتصارًا كبيرًا على الفرس في موقعة سهول ماراثون ٤٩١-٤٩٠ق.م. وفي موقعة سلاميس البحرية انتصر اليونانيون انتصارًا كبيرًا، ثم أعقبوا هذا النصر بنصر آخر بري في موقعة بلاتياي سنة ٤٨٠ق.م. ونتيجة لهذه الانتصارات انكمش نفوذ الفرس في آسيا الصغرى، كما زال سلطانهم عن كثير من الجزر اليونانية في بحر الأرخبيل، وأهم من هذا وذاك ازداد نفوذ أثينا وارتفع شأنها.

وقد ارتبطت عظمة أثينا في القرن الرابع قبل الميلاد بعدد من المشرعين والمصلحين، أولهم كليستنيز وأهمهم بركليز، وكان «**بركليز**» هذا رجلاً عظيمًا،

وجّه سياسته في الداخل نحو دعم الديمقراطية، وتقليم أظافر الأرستقراطية، وفي الخارج نحو تأليف حلف من المدن اليونانية ضد أسبرطة، وهي التي غدت العدو اللدود لأثينا، ولم تلبث أثينا بفضل هذه الإصلاحات أن بلغت أقصى درجات عظمتها حوالي منتصف القرن الرابع قبل الميلاد. وفي سلسلة الحروب الطويلة التي خاضتها أثينا بعد ذلك ضد أسبرطة، منيت أثينا بالفشل والخراب، وقد حاولت أسبرطة فرض سيادتها على بلاد اليونان ولكنها فشلت، وكذلك مدينة طيبة التي تصدت لأسبرطة، وبذلك غدا المسرح معدًا لسيادة مقدونيا وبطلها الكبير الإسكندر الأكبر.

الإسكندر الأكبر ونشر الحضارة اليونانية :

ظهرت قوة جديدة في شمال البلاد، أي في مقدونيا، قُدر لها أن تكتسح القوى المتنافسة في تلك البلاد، وأن توحد اليونانيين جميعًا للقيام بحركة توسعية ضخمة في الشرق الأوسط، وهي الحركة التي حملت لواء الحضارة اليونانية بعيدًا وراء الحدود.

وترتبط نهضة مقدونيا إلى حد كبير «**بالملك فيليب الأول**» (٣٨٢-٣٣٦ق.م) وهو الذي بذل جهدًا كبيرًا في إصلاح شئون بلاده السياسية والحربية والاجتماعية، وأنشأ جيشًا قويًا استطاع به أن يقضي على عوامل التفكك والتفرقة التي سادت العالم اليوناني عندئذٍ. وقد حاول تجميع اليونانيين تحت زعامته، ولكنه توفي سنة ٣٣٦ق.م. وخلفه ابنه العظيم الإسكندر المقدوني أو الأكبر.

والواقع أنه يصعب على المرء أن يتصور كيف استطاع الإسكندر الأكبر في مدى ثلاثة عشر سنة أن يقوم بالعمل الضخم الذي قام به فعلاً، ولكنه بفضل ما اتصف به من سرعة، وذكاء، وشجاعة، نجح فعلا في تأديب الولايات والمدن اليونانية، التي استغلت فرصة وفاة أبيه ورفعت رأسها في وجهه. وبعد أن فرغ من مشاكله الداخلية، بدأ الإسكندر يتفرغ للقيام بأضخم حركة توسع خارجية عرفها التاريخ، وكان عندئذٍ في الثانية والعشرين من عمره.

وسرعان ما بدأ الملك الشاب فتوحاته العسكرية الكبرى بعد سنتين من توليه الحكم، فقد عبر مضيق الدردنيل على رأس ٣٠ ألفًا من المشاة، و٥ آلاف من الفرسان، مصطحبًا معه عددًا من المهندسين والموظفين والمؤرخين. وتم أول لقاء مع الفرس عبر الدردنيل، ومنى جيش الملك الفارسي دارا الثالث بهزيمة سريعة، فتحت الطريق أمام الإسكندر لدخول معظم مدن غربي آسيا الصغرى، ثم سار جنوبًا بمحاذاة الساحل السوري، والتقى بجيش دارا للمرة الثانية عند موقع إسكندرونة حاليًا (في الحدود بين سوريا وتركيا)، وسرعان ما هرب الملك

الفارسي من الجبهة تاركًا وراءه أفراد عائلته الذين وقعوا أسرى بين يدي الإسكندر، وسقطت دمشق كما سقطت معظم المدن الفينيقية، عدا مدينة صور التي اضطر الإسكندر للوقوف أمامها في حصار دام سبعة أشهر حتى استسلمت. وتابع الإسكندر مسيرته جنوبًا بمحاذاة الساحل دون مقاومة إلا في غزة، حيث اضطر إلى خوض معركة عنيفة مع الجيش الذي كان يحميها، إلا أنها سقطت في النهاية. وعندما وصل الإسكندر إلى مصر في نوفمبر سنة ٣٣٢ق.م. استقبله المصريون بالترحاب.. رغبة في التخلص من الحكم الفارسي، واضطر الوالي الفارسي إلى الاستسلام.

وقد أخذ المصريون الإسكندر إلى مدينة منف، حيث قام الكهنة بتتويجه ملكًا على مصر، وترك الإسكندر حامية عسكرية في منف، ثم ذهب إلى شاطئ البحر المتوسط غربي رشيد، حيث وضع الأساس لمدينة الإسكندرية التي أرادها أن تكون نقطة وصل بين مصر واليونان. وقبل أن يغادر مصر ليستكمل معاركه مع الفرس، قام الإسكندر بزيارة معبد آمون بواحة سيوة، حيث أجرى الكهنة طقوس التبني ليصبح الإسكندر ابنا لآمون.

وفي العام التالي من فتح مصر سار الإسكندر إلى سوريا وبلاد ما بين النهرين، والتقى بدارا عند نهر دجلة، ومني الجيش الفارس بهزيمة ساحقة عند نينوى بشمال العراق، فهرب دارا إلى بلاد فارس، فتبعه الإسكندر، واستولى الجيش اليوناني على بلاد فارس، واستمر في زحفه حتى وصل إلى الهند وأواسط آسيا.

ثم أصيب الإسكندر بمرض مفاجئ عام ٣٢٣ق.م. بينما كان عند منطقة الخليج العربي، ولم يدم مرضه طويلاً بل مات بعد ذلك بعشرة أيام وهو لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من العمر، ونقل جثمانه إلى مصر لدفنه بها. ولم يكن للإسكندر ابن شرعي عند وفاته، فقام قادته العسكريون باقتسام الإمبراطورية فيما بينهم.

وكانت سياسة الإسكندر تستهدف نشر الحضارة اليونانية في الشرق، وتطعيم الشرق بحضارة اليونان تطعيمًا قويًا، يضمن نجاح فكرة قيام إمبراطورية يونانية- آسيوية، لذلك حرص الإسكندر على تشجيع التزاوج بين اليونانيين والآسيويين، واهتم بإنشاء المدن الحرة ذات الحكومات المستقلة في مختلف أجزاء إمبراطوريته الفسيحة، لتكون هذه المدن مركز إشعاع للحضارة اليونانية في الشرق، ويقال إن الإسكندر أقام في الشرق أكثر من عشرين مدينة نسبت إليه وعرفت بالإسكندريات، أشهرها إسكندرية مصر، وإن كانت توجد حتى اليوم في الشام والعراق وفارس مدن أخرى أقل أهمية تحمل الاسم نفسه.

وهكذا أدت سياسة الإسكندر إلى انتشار الحضارة اليونانية في الشرق، وخاصةً في آسيا الصغرى ومصر والشام، إذ غدت الصبغة اليونانية قوية في هذه البلاد الثلاثة، لقربها من قلب الحضارة اليونانية، فبقيت اللغة اليونانية لغة رسمية فيها أمدًا طويلاً، كما قامت فيها المدارس والجامعات والمكتبات، مثلاً مدرسة الإسكندرية المشهورة ومكتبتها، لتصبح مراكز ضخمة ازدهرت فيها علوم اليونان وفلسفتهم وحضارتهم(١).

خلفاء الإسكندر الأكبر

بعد وفاة الإسكندر الأكبر قام قادته العسكريون باقتسام الإمبراطورية فيما بينهم، فكانت سوريا وبابل من نصيب «**سلوقس**»، أما مصر فخضعت لحكم «**بطليموس**». وقد ظلت المنطقة بعد ذلك في صراع بين سيطرة السلوقيين في الشمال، والبطالسة في مصر. وأصبحت مدينة الإسكندرية بعد بنائها عاصمة للبطالسة. ثم جاء بطليموس الثاني المعروف باسم: «**فلاديلفيوس**» وكان له شغف شديد بالعلم والمعرفة، **فأقام مكتبة الإسكندرية الشهيرة**، التي كانت تضم آنذاك مجلدات بلغت نصف مليون كتاب.

واستمر الصراع بين المملكتين خاصة حول إخضاع كلاً من سوريا وفلسطين لحكم أي منهما. ومن بين المعارك الكثيرة التي دارت بين الطرفين تلك المعركة الفاصلة التي دارت عند مدينة رفح عام ٢١٧ق.م. وانتصر فيه البطالسة والمصريون، واضطر السلوقيون إلى الانسحاب إلى شمال سوريا. ولكن لم يدب اليأس إلى نفس السلوقيين، فأعادوا الكرة بعد ذلك، وتمكنوا من طرد المصريين من كل بلاد الشام عند بداية القرن الثاني قبل الميلاد.

وكانت العائلة البطلمية نفسها قد انقسمت إلى قسمين، في حين احتفظ القسم الأول بعرش مصر، استقل الآخر بحكم قبرص، إلا أن بطليموس التاسع هاجم قبرص، واستولى عليها بعد قتل ملكها، فهرب ولي العهد سولا إلى الخارج، وعندما مات بطليموس التاسع عاد سولا إلى مصر، فاعتلى العرش باسم بطليموس الحادي عشر، ولم يدم حكم هذا الملك طويلاً فقد خضعت مصر بعد ذلك لحكم الرومان.

---

(١) المرجع: كتاب أوربا العصور الوسطى، الجزء الأول، تأليف: الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، ص١٢.

(ب) عصر الرومان

الفصل الأول
ظهور روما

تجمع الروايات على أن روما بدأت تاريخها عام ٧٥٤ ق.م (أو ٧٥٣ ق.م) بالنظام الملكي، وفي ذلك العصر استطاعت أن تنتصر على أعدائها المجاورين وتستولي على أملاكهم، وبذلك ازداد عدد سكانها، واتسعت مساحتها، وقوي نفوذها، ومن بين ملوك روما الكبار يحفظ التاريخ اسم **سرفيوس تايوس**، وهو الملك الذي قام بإصلاحات مهمة، منها العمل على إزالة - أو تقليل - الفوارق بين البطارقة والعامة، كذلك قام الملك بتوزيع الأعباء المالية على الناس وفق ممتلكاتهم.

وكانت العشيرة هي الخلية الاجتماعية الأصلية للشعب الروماني، فقد كان هذا الشعب يتكون من عدة عشائر، وتتكون العشيرة من عدة أسر (أسرات) تنتظم مئات الأفراد أو الآلاف منهم في بعض الأحيان، وهي ترتبط برابطة الخضوع لرئيس مشترك هو رب الأسرة، ويعتبر الخاضعون لرب أسرة واحد أعصابًا. ومع الزمن ضعفت رابطة العشيرة، وأصبحت الأسرة هي الوحدة الاجتماعية عند الرومان، واختفت العشائر نهائيًا بعد ذلك في بداية الإمبراطورية. ثم أصبحت المدينة هي الوحدة السياسية، أي جعلوا من الدولة (وفق الاصطلاح الحديث) صاحبة السلطان على جميع الرعايا، فخضعت العشائر والأسر لهذا السلطان.

النظام السياسي في العهد الملكي :

تكوّن النظام السياسي في العصر الملكي من ثلاثة عناصر هي: الملك، ومجلس الشيوخ، ومجلس الشعب.

أولاً : كان **الملك** على رأس المدينة، وصاحب السلطة العامة فيها، ويتولى هذه السلطة لمدى الحياة. ولا يمكن القول بأن الملكية كانت وراثية، أو كانت بالانتخاب بواسطة مجلس الشعب أو مجلس الشيوخ (مجلس السناتو)، بل كان المبدأ السائد هو اخيار الملك بواسطة سلفه. وكانت للملك سلطات واسعة، وإن كانت مقيدة بحكم العرف وبوجود مجلس الشعب ومجلس السناتو. فالملك له حق إصدار الأوامر، وتنحصر سلطاته في ثلاث: فهو الرئيس الأعلى، والرئيس

الديني، والرئيس القضائي، وهو بصفته الرئيس الأعلى يقود الجيش، ويرأس السلطات الإدارية، وهو الذي يدعو مجلس الشعب ومجلس السناتو للانعقاد. وبصفته الرئيس الديني كان يقوم بالعبادة العامة للمدينة، ويقدم القربان للآلهة باسم المدينة كلها. وبصفته الرئيس القضائي، كان الملك هو الذي يعاقب على الجرائم العامة أي التي تعتبر موجهة ضد المدينة كلها، وسلطته في ذلك تصل إلى حق الحياة والموت على الأفراد.

ثانيًا : مجلس الشيوخ أو السناتو: وهو مجلس الرؤساء، ويختار أعضاؤه وفقًا للرواية التقليدية بواسطة الملك. ولكن الراجح أنه كان يضم رؤساء العشائر، وكان هذا المجلس هو المجلس الاستشاري للملك، فكان يستشيره قبل اتخاذ القرارات الخطيرة، ولكن لم يكن الملك ملزمًا باتباع رأيه، ولم يصبح رأي هذا المجلس واجب الاتباع إلا بعد تطور في العصر الجمهوري.

ثالثًا : الشعب ومجلس الشعب: يُطلق على سكان المدينة اسم الشعب الروماني، وفي العصر الملكي كان الشعب الروماني منقسمًا إلى ثلاثين وحدة، وعلى رأس كل وحدة رئيس، وتقتسم هذه الوحدات القبائل الثلاث التي تكونت منها روما، فكل قبيلة تتضمن عشرًا من هذه الوحدات. وهذه الأقسام الثلاثين هي أساس النظام السياسي والإداري والحربي والديني، وعلى أساسها تجبى الضرائب، وتجند الجيوش، ويلاحظ أن مجلس الشعب لم يكن له حق التعديل فيما يعرضه عليه الملك، وليس له أيضًا حق الاقتراع، وكل ما له هو إبداء رأيه بالموافقة أو الرفض على سؤال الملك.

الفصل الثاني
النظام السياسي في العهد الجمهوري

استمرت الهيئات السابقة قائمة في العصر الجمهوري، إلا أنه حل محل الملك الحكام الذين يختارهم الشعب، وإلى جانب الحكام وجد مجلس الشيوخ (السناتو) ومجلس الشعب.

إذ حل محل الملك في رئاسة الدولة حاكمان ينتخبان سنويًا. وقد سمي الحاكم باسم البريتور، ثم سمي بعد ذلك بالقنصل وقد كانت سلطتهما في الواقع أقل من سلطة الملك بكثير. وكان اختيار القناصل يُجرى سنويًا، لضمان عدم إساءة السلطة، فضلاً عن توزيع السلطة بين اثنين بدلاً من فرد واحد، وكل قنصل منهما له مطلق السلطة، ولكن يستطيع القنصل الآخر الاعتراض على أي قرار يتخذه، فيتعطل بذلك القرار، وتقيدت سلطة القناصل كذلك بإنشاء وظائف جديدة لحكام اختصوا ببعض سلطات القناصل، من بينهم البريتور، فقد أُنشأت في عام ٢٦٧ق.م. وظيفة البريتور ليتولى القضاء بين المواطنين، الذي يتولى النظر في الدعوى قبل إحالتها إلى القاضي أو الحَكَم.

وقد ازدادت سلطة السناتو تبعًا لهذا التغيير، فأصبح سلطة تشريعية بالمعنى المعروف.

قانون الألواح الاثني عشر :

اعتبر الرومان قانون الألواح الاثني عشر شاملاً لكل قانونهم المدني (قانون المدينة) أي القانون الخاص والعام، والمرافعات، والقانون الجنائي، والحقيقة أن قانون الألواح ليست له أهمية من ناحية القانون العام. هذا إلا أن الرومان اعتبروا دائمًا العُرف كأساس لكل نظامهم القانون، أما التشريع فاعتبروه الاستثناء.

ونوضح فيما يلي النظم القانونية التي كانت سائدة في روما في القرن الخامس قبل الميلاد، أي عند وضع قانون الألواح الاثني عشر، وهي:

١- نظام الأسرة. ٢- نظام الملكية. ٣- نظام نقل الملكية.
٤- نظام الالتزامات والعقود. ٥- نظام الجرائم. ٦- نظام الدعاوى.

الحالة الاقتصادية والاجتماعية :

منذ القرن الثاني قبل الميلاد، انتقلت روما وإيطاليا من الاقتصاد

الزراعي إلى الاقتصاد التجاري، وقد كان لهذا الانتقال أثر عميق في الحياة الاجتماعية، فقد ظهرت في روما طبقة رأسمالية هي طبقة كبار التجار، وكبار أصحاب الأموال، وكبار الملاك الزراعيين، واختفت طبقة صغار الملاك، فقد اضطر هؤلاء- بسبب الأزمة الاقتصادية- إلى بيع أراضيهم إلى أصحاب رؤوس الأموال، وبهذا اختفت الطبقة المتوسطة من روما نهائيًا، وكان كبار الملاك يملكون الضياع الواسعة، واستغنوا عن فلاحي الرومان لما كثر عدد الأرقاء، وقد زاد عدد هؤلاء الأرقاء زيادة كبيرة على إثر الحروب، حتى أن عددهم كان يزيد على عدد الأحرار، وذلك لأنهم كانوا يعاملون أسرى الحروب على أنهم أرقاء.

ولهذه الأسباب اختفى التقسيم القديم للشعب إلى أشراف وعامة، ولكن حل محله تقسيم جديد أساسه الثروة والغنى، فهناك طبقة أرستقراطية غنية تملك الثروة والغنى، فهي التي تملك الأرض الواسعة، والأرقاء الذين يستخدمون في فلاحة الأرض، وتملك الذهب والفضة والماشية. وإلى جانب الطبقة الأرستقراطية وجدت طبقة العامة الجديدة، وتشمل الزراع والعتقاء والصناع، وكثيرًا ما كان أفرادها يعيشون كتابعين لأسر أعضاء مجلس الشيوخ.

سقوط الجمهورية وقيام الإمبراطورية :

يمكن القول بأنه منذ سنة ٧٠ق.م. صار زمام الأمور بيد كل قائد منتصر يعود من ميدان القتال على رأس جنده ليسيطر على أداة الحكم. وفي هذه الأثناء كان **قيصر** يتقدم الصفوف بخطى سريعة، بفضل ما كان له من شعبيته، وإزاء الانتصارات الكبيرة التي أحرزها كل من بمبي وقيصر، أخذت مكانة كل منهما تزداد في روما، وصار لكل واحد عدد كبير من الأنصار يؤيدونه، مما جعل المعركة المقبلة تتأكد بين بمبي وقيصر، وقد مرَّ التنافس والصراع بين الرجلين بأدوار طويلة، وانتهى بأن زحف قيصر على روما سنة ٥٠ق.م، وعندئذٍ فرَّ بمبي من وجهه، وكذا عدد كبير من النبلاء وأعضاء السناتو واتجهوا إلى بلاد اليونان، وفي مارس سنة ٤٩ق.م. دخل قيصر روما وأصبح سيد إيطاليا.

وبعد أن أخضع يوليوس (Ceasar) قيصر لسلطانه ولاياته الغرب- خاصةً أسبانيا- اتجه إلى الشرق لخوض المعركة الفاصلة مع بمبي الذي كان يقوي مركزه في إبيروس. وعندما حلت الهزيمة بجيوش بمبي فرَّ إلى مصر مؤملاً أن يجد مساعدة من ملكها الصغير.. ولكنه قتل. ورغم ذلك تبعه قيصر

إلى الإسكندرية سنة ٤٨ق.م. وهكذا ظل قيصر ينتقل من نصر إلى آخر حتى غدت سلطته مطلقة، الأمر الذي أثار حقد بعض أعضاء السناتو، فقُتل في المجلس سنة ٤٤ق.م. ولا شك في أن مقتل قيصر ترك فراغًا كبيرًا مفاجئًا في الحياة السياسية في روما لكن قريبه **أوكتافيوس** كان قادرًا على سد ذلك الفراغ، فعاد سريعًا إلى روما، على أن الأمن لم يستقر لأوكتافيوس بهذه السهولة، إذ كان عليه أن يواجه منافسة قوية، خاصةً من جانب أنطونيوس. وفي المعركة التي دارت بين المتنافسين، أخذ **أوكتافيوس** يحقق نصرًا بعد آخر، وأخيرًا حقق أوكتافيوس نصره النهائي على خصمه أنطونيوس في موقعة أكتيوم في البحر المتوسط سنة ٣١ق.م. وبذلك أصبح الزعيم الأول والقائد الأعلى الذي لا ينافسه منافس في الإمبراطورية الرومانية مشرقها ومغربها، وكان أن أنعم عليه السناتو بلقب «**أوغسطس**» سنة ٢٧ق.م، مما أذن بغروب شمس الجمهورية، وقيام الإمبراطورية الرومانية.

الفصل الثالث
الإمبراطورية الرومانية

لا شك في أن الإمبراطورية الرومانية كانت أعظم وحدة حضارية وسياسية عرفها التاريخ، إذ لم يقدر لإمبراطورية أخرى في تاريخ البشر القديم أو الحديث أن تبلغ ما بلغته الإمبراطورية الرومانية من قوة واتساع، ذلك أن هذه الإمبراطورية ضمت بين حدودها الحضارات القديمة- باستثناء فارس والهند- وذلك عندما بلغت أقصى اتساعها على عهد **الإمبراطور تراجان (Imperator)** (٩٨-١١٣م)، فقد امتدت الإمبراطورية الرومانية عندئذٍ من المحيط الأطلسي غربًا حتى الفرات شرقًا، الأمر الذي تطلب من الحكومة الرومانية إصدار قوانين وتشريعات تناسب ذلك العدد الضخم من الشعوب التي اختلفت بعضها عن بعض.

وكانت الإمبراطورية الرومانية في أزهى عصورها- وهي الفترة الواقعة من قيام **أوغسطس (Augustus)** سنة ٢٧ق.م، ووفاة **ماركس أورليوس** سنة ١٨٠م- تمثل بناءً اجتماعيًا سليمًا مترابط البنيان. والحكومة الرومانية في أوائل عصر الإمبراطورية كانت ملكية مع احتفاظها بكثير من مظاهر العصر الجمهوري السابق، وهكذا ظل السناتو يباشر سلطاته الواسعة، ولذلك يبدو من الخطأ أن تنظر إلى هذه الحكومة على أنها كانت عسكرية بحتة، أو استبدادية مطلقة. صحيح أنها لم تكن ملكية دستورية، ولكنها امتازت- ولا سيما في العصر الأول للإمبراطورية- بسيادة العُرف، والتقاليد، والقانون، كما تمسكت بكثير من مظاهر العصر الجمهوري، مما أكسب الحكومة الرومانية وقتئذٍ مظهرًا دستوريًا واضحًا.

على أن ضعف الإمبراطورية الرومانية أخذ يظهر واضحًا في القرن الثالث، عندما انعدم النظام، وتحكمت القوات العسكرية في عزل الأباطرة وإقامة غيرهم، بعد أن كان الجيش خادمًا مخلصًا للإمبراطور، ولم تلبث الفرق الإمبراطورية في مختلف الولايات أن أخذت تتحكم في اختيار قادتها وفق مشيئتها لا وفق رغبة الإمبراطور والسناتو، مما جعل الأباطرة وأعضاء السناتو ألعوبة في أيدي رجال الجيش، واشتهر من أباطرة هذه الفترة **كاراكلا** (٢١١-٢١٧م) بسبب القانون الذي منح به الجنسية الرومانية لجميع أهالي الإمبراطورية من الأحرار.

وفي وسط الفوضى الشاملة والحروب الأهلية التي عمَّت الإمبراطورية

عقب انتهاء حكم أسرة سفروس سنة ٢٣٥، ظهر جندي من أصل متواضع هو **الإمبراطور دقلديانوس** (٢٨٤-٣٠٥) ليتدارك الموقف، ويعالج مشاكل الإمبراطورية في عزم وإصرار، فأحدث ثورة ضخمة في نظم الحكومة الرومانية جعل عهده من أهم عصور تاريخ الإمبراطورية. ففي الداخل تفاقمت المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، وفي الخارج اشتد خطر الجرمان والفرس، وضغطهم، وبعبارة أخرى فإن العوامل التي أدت إلى اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ثم سقوطها، ظهرت واضحة في أواخر القرن الثالث. وأولى هذه المشاكل هي كيفية احتفاظ الإمبراطورية الرومانية بوحدتها سليمة كاملة، بعد أن اتجهت بعض الولايات- في الشرق والغرب- نحو الانفصال عن جسم الإمبراطورية، وقامت فيها فعلاً حركة ثورية انفصالية.

وقد ساءت الناحية الاقتصادية في الإمبراطورية، نتيجة لكثرة الحروب الأهلية التي فرقت وحدة الدولة، وجعلت طرق التجارة غير مأمونة في البر والبحر، وزاد الطين بلة ثقل عبء الضرائب في القرن الثالث، سواء تلك التي فرضتها الحكومة المركزية، أو التي جمعتها السلطات المحلية. ومهما يكن من أمر فإن العبء الأكبر للضرائب وقع على الأراضي والمزارعين.

وبالإضافة إلى هذه المفاسد والمشاكل الداخلية، تعرضت الإمبراطورية الرومانية لأخطار خارجية جسيمة، نتيجة لهجمات أعدائها على حدودها وتوغلهم داخل الحدود في القرن الثالث، فقد أغار عليها الفرنجة والقوط والجرمان من أماكن مختلفة. فضلاً عن تهديدات الفرس، الذين تمكنوا في إحدى المعارك من إنزال الهزيمة بالإمبراطور فالريان وأسره سنة ٢٥٩.

دقلديانوس وقسطنطين :

لم يستطع أحد من أباطرة القرن الثالث أن يقوم بما قام به دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥) من إصلاح شامل في مختلف مرافق الإمبراطورية، فقد بدأ بإقرار الأمن والنظام في مختلف الولايات الإمبراطورية، فأخضع الثورات المتأججة في غاليا (فرنسا)، ومصر، وولاية أفريقية، وبريطانيا، كما صد البرابرة على امتداد جبهتي الراين والدانوب، ولم يكد يفرغ من ذلك حتى هاجم الفرس سنة ٢٩٧، واسترد منهم بلاد ما بين النهرين (العراق)، وبذلك امتدت الحدود الرومانية شرقاً مرة أخرى حتى نهر دجلة، كما عادت رقعة الإمبراطورية من جديد إلى ما كانت عليه سنة ١١٧ باستثناء إقليم أو إقليمين. وقد فكر دقلديانوس في حماية

العالم الروماني من الأخطار الجسيمة التي تهدده، وذلك بإنشاء قوة حربية متنقلة سريعة الانتشار - أي غير مرتبطة بجهة واحدة - لتتحرك في أي وقت إلى أية جهة حسب الظروف ووفق مشيئة الإمبراطور.

ولقد مهَّد دقلديانوس لما فعله **الإمبراطور قسطنطين** فيما بعد، فاتخذ عاصمة جديدة للإمبراطورية في الشرق، هي مدينة «نيقوميديا» في الشمال الغربي من آسيا الصغرى على أحد خلجان بحر مرمرة، هذا فضلاً عما تطلبته الاعتبارات العسكرية من نقل عاصمة إيطاليا من روما إلى ميلان، وهي المدينة التي تتحكم في معظم ممرات جبال الألب، مما جعل من السهل انتقال الجيوش الإمبراطورية منها إلى غاليا أو جبهة الراين، لصد هجوم أو إخماد فتنة.

ومن الثابت أن الفضل في انتشار المسيحية في أركان الإمبراطورية الرومانية يرجع إلى القديس بولس، فأخذت المسيحية تنتشر انتشارًا حثيثًا بحيث لم يكد ينتهي القرن الأول الميلادي إلا وكانت كل ولاية رومانية من الولايات المطلة على البحر المتوسط تضم بين جوانبها جالية مسيحية. على أن التعارض لم يلبث أن ظهر حادًا بين تعاليم المسيحية وعقائدها من جهة، والنظم والقواعد التي قامت عليها الدولة الرومانية من جهة أخرى، هذا إلى أن فكرة قيام منظمة دينية أو كنسية منفصلة عن الدولة جاءت غريبة عن العقلية الرومانية والفكر الروماني جميعًا.

ومع ذلك فلم يكد يحل القرن الثالث إلا وكانت المسيحية قد أصبحت قوة خطيرة، نتيجة لازدياد عدد أتباعها ازديادًا مضطردًا، مما دفع الإمبراطور دقلديانوس إلى التطرف في قمعها في أوائل القرن الرابع، لا سيما بعد أن أدى ازدياد نفوذ المسيحية بين رجال الجيش إلى تهديد بالقضاء على ولاء الجند للإمبراطورية. وقد أصدر هذا الإمبراطور عدة مراسيم منع فيها صلاة المسيحيين وأمر بهدم كنائسهم، وإحراق كتبهم، وحبس قساوستهم، وطردهم نهائيًا من الوظائف الحكومية، إلى غير ذلك من الإجراءات المشددة التي جعلت المسيحيين يطلقون على الفترة الأخيرة من حكمه «عصر الشهداء».

ومهما يكن من أمر فإن المسيحية خرجت من جميع هذه المعارك ظافرة مرفوعة الرأس، لا سيما بعد أن أخذ **الإمبراطور قسطنطين** بسياسة الأمر الواقع، فأصدر مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣ معترفًا بوضع الديانة المسيحية كإحدى الشرائع المصرح باعتناقها داخل الإمبراطورية، بمعنى أن يتمتع المسيحيون في الإمبراطورية بجميع الحقوق التي يتمتع بها غيرهم من أتباع الديانات الأخرى.

ثم كان أن تنحى دقلديانوس عن عرش الإمبراطورية سنة ٣٠٥ بعد أن بلغ الستين من عمره، واستبد به المرض. وقد أعقب نـزول دقلـديانوس عـن منصب الإمبراطور، قيام حرب أهلية استمرت سبع عشرة سنة، برزت خلالهـا شخصية قسطنطين، الذي استطاع أن يتغلب على خصومه ومنافسيه واحدًا بعـد الآخر، حتى تم توحيد الإمبراطورية الرومانية مرة أخرى سنة ٣٢٣، وعندئـذٍ أخذ الإمبراطور على عاتقه مهمة إتمام الإصلاحات التي بدأها دقلديانوس.

والواقع أن الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦-٣٣٧) يتمتع بأهمية خاصة في التاريخ، نظرًا للأعمال المهمة التي قام بها، والتي كان لها أثر واضح في تغيير وجه التاريخ، ذلك أن هذا الإمبراطور قام بخطوتين علـى جانـب كبيـر مـن الأهمية: الأولى: اعترافه رسميًا بالديانة المـسيحية، والثانيـة: نقلـه عاصـمة الإمبراطورية من روما القديمة على ضفاف التيبر في إيطاليا إلى روما جديـدة شيدها على ضفاف البسفور. على أن أهم تغيير أدخله قسطنطين كان تطبيق مبدأ الحكم الوراثي، فأصبح المنصب الإمبراطوري وراثيًا في أسرته التي اعتمـدت على تأييد الجيش من جهة، وعلى الدعامة الدينية الجديدة من جهة أخرى. أما من الناحية العسكرية فقد اتجهت تنظيمات قسطنطين نحو إنقاص عدد أفراد الفـرق العسكرية، كما استمر في سياسة فتح الباب أمام الجرمان، للانخراط فـي سـلك الجيش الروماني كجند نظاميين.

وقد شيّد قسطنطين العاصمة الجديدة محل بلدة «**بيزنطة**» القديمة علـى ضفاف البسفور، وسمَّاها القسطنطينية، هذا إلى أن القسطنطينية صارت مركـزًا تجاريًا ممتازًا، إذ غدت ملتقى الطرق التجارية العظيمة، ولم يدخر وسعًا في أن يجعل هذه المدينة الجديدة التي سميت باسمه روما ثانيـة، فأقـام بهـا قـصرًا إمبراطوريًا، وسوقًا، ومحاكم، ودارًا للسناتو، وحمامات، وملعبًا عظـيمًا.

ومرفق خريطة توضح الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي:

الامبراطورية الرومانية
في القرن الثاني الميلادي

الفصل الرابع
الإمبراطورية الرومانية بعد قسطنطين

ثم حدث بعد وفاة قسطنطين سنة ٣٣٧ أن قسمت الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة، حتى استطاع أحدهم وهو قسطنطيوس، توحيدها مرة أخرى سنة ٣٥٠ تحت حكمه الذي استمر حتى سنة ٣٦١. هذا في الوقت الذي أخذت فيه الكنيسة تظهر على درجة من القوة والثروة، حتى أصبحت المسيحية ديانة الإمبراطورية الرسمية على عهد الإمبراطور «**ثيودسيوس**» (٣٧٨-٣٩٥). وبذلك أمسى مصير الإمبراطورية الرومانية معلقًا بين أيدي الجرمان من جهة، ورجال الكنيسة من جهة أخرى. وقد انتهى الأمر عند وفاة ثيودسيوس سنة ٣٩٥ بتقسيم الإمبراطورية الرومانية الكبرى بين ولديه إلى قسمين شرقي وغربي، فكان القسم الشرقي من نصيب ابنه أركاديوس، في حين صار القسم الغربي من نصيب ابنه هونريوس.

إلا أن عوامل الانحلال اشتد خطرها في النصف الأخير من القرن الرابع، عندما ازداد الفساد الإداري، وتضاعف عبء الضرائب، وتفاقم الخلل الاجتماعي، بعد أن تكاثر عدد الرقيق المشتغلين بالزراعة، وتناقص عدد الأحرار، وانحطت أحوال المدن بوجه عام.

الانقسام المسيحي :

المشكلة الكبرى التي قسمت المسيحيين وبالتالي العالم الروماني إلى معسكرين، وأثارت البغضاء الدينية والسياسية بينهما لمدة قرنين من الزمان، كانت مشكلة تحديد العلاقة بين المسيح الابن والإله الأب، ذلك أنه حدث خلاف بين اثنين من رجال الكنيسة بالإسكندرية حول تحديد هذه العلاقة، فقال أريوس- وهو كاهن سكندري مثقف- بأن المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن، ولما كان المسيح الابن مخلوقًا للإله الأب، فهو إذًا دونه، ولا يمكن بأي حال أن يعادل الابن الإله الأب في المستوى والقدرة. وبعبارة أخرى فإن المسيح مخلوق لا إله بمعنى هذه الكلمة المطلق، وإلا فإن المسيحيين يصبحون متهمين بعدم التوحيد وبعبادة إلهين، أما أثناسيوس فقال بأن فكرة الثالوث المقدس تحتم بأن يكون الابن مساويًا للإله الأب تمامًا في كل شيء، بحكم أنهما من عنصر واحد بعينه وإن كانا شخصين متميزين. ولم يلبث أن ساد المذهب الأثناسيوي بلاد الغرب اللاتيني، في حين غدت الغلبة في الشرق الهلليني للمذهب الأريوسي.

وعندما اشتد الجدل وتفاقم الخلاف بين الطرفين، خشي الإمبراطور قسطنطين أن يؤثر ذلك في وحدة الإمبراطورية، فحاول أن يوفق بين المذهبين، وأرسل مبعوثًا إلى الإسكندرية لهذا الغرض، ولكن جهود الإمبراطور لم تكلل بالنجاح، لذلك دعا قسطنطين إلى عقد مجمع ديني في نيقية سنة ٣٢٥ لحسم الخلاف، وكان هذا المجمع أول مجمع مسكوني- أي عالمي- في تاريخ الكنيسة، إذ حضره نحو ثلثمائة من رجال الدين من الشرق ومن الغرب، على رأسه الإمبراطور قسطنطين نفسه، على الرغم أنه لم يكن معمدًا، وقد أدان مجمع نيقية هذا أريوس، وبالتالي تقرر نفيه إلى اليريا، وإعدام كتاباته وتحريم تداولها، واضطهاد أتباعه من الأريوسيين. ومع ذلك فقد ظلت الأريوسية قائمة في الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية، وعن هذا الطريق انتقلت إلى الأمم الجرمانية بواسطة المبشرين ورجال الدين. ثم جاء **الإمبراطور ثيودسيوس** فأعلن نهائيًا عدم شرعية المذهب الأريوسي في مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١، كما فرض عقوبات مشددة على أتباع المذهب الأريوسي في جميع أنحاء الإمبراطورية.

وقد استمرت الحرب التي بدأها ثيودسيوس الأول ضد الوثنية مدة ثلاثين سنة بعد وفاة هذا الإمبراطور، أُقفلت فيها معابد الوثنيين، وأُعدمت كتبهم، ومنعوا من مباشرة طقوسهم الدينية حتى داخل منازلهم، بل إن **الإمبراطور أركاديوس** أصدر مرسومًا بتحطيم معابد الوثنية- لا إغلاقها فحسب- واستغلال أحجارها وموادها في إقامة منشآت عامة.

وأخذت ثروة الكنيسة تزداد، حتى امتلكت الأراضي والضياع الواسعة، التي قام الرقيق والأقنان بفلاحتها، هذا فضلاً عن الهبات التي أغدقها الأباطرة بسخاء من جهة، والتبرعات التي قدمها الأهالي عن طيب خاطر من جهة أخرى.

سقوط الإمبراطورية في الغرب :

كان الجرمان يمثلون جزءًا من العالم البربري الواسع الذي أحاط بالإمبراطورية الرومانية من معظم نواحيها، والذين لم يلبثوا أن أثّروا في تغيير مصير هذه الإمبراطورية.. عندما أخذوا يهاجمونها منذ منتصف القرن الثاني. والواقع أنه كان من الممكن أن تعيش الإمبراطورية الرومانية في الغرب عمرًا أطول، وأن تموت موتًا بطيئًا، رغم الانحدار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي تعرضت له، لولا هجمات البرابرة التي أسرعت بالإمبراطورية نحو مصيرها المحتوم.

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن لفظ «بربرية» بالمعنى الذي نستعمله هنا، لا يرادف لفظ: «همجية» أو لفظ «وحشية» بأي حال، لأن المقصود بالبربرية مرحلة من التنظيم الاجتماعي القبلي، الذي لم يرق بعد إلى مرحلة الاستقرار المدني، وإقامة الدول ذات الحدود الثابتة. والشعوب التي أحاطت بالعالم الروماني كانت كثيرة ومتباينة، ففي الجنوب كان البربر في غرب أفريقية، وفي الجنوب الشرقي كان العرب، وفي الشرق وُجد الفرس، وفي الشمال الشرقي ربضت شعوب آسيوية رعوية (من الرعي) مثل الهون، والبلغار، والمجريين، والمغول، والأتراك، وإلى الغرب من هذه الشعوب- أي داخل الحدود الأوربية- وُجد السلاف والجرمان.

ولعله كان من المعلوم أن الغزوات التي قام بها البرابرة- من جرمان وغير جرمان- تركت أثرًا واضحًا في المجتمع الروماني، ذلك أن هذه الغزوات أدت إلى تحطيم الإمبراطورية الرومانية في الغرب سنة ٤٧٦م وضياع معظم أقاليمها غنيمة في أيدي الغزاة. حقيقة أن جستنيان إمبراطور الدولة البيزنطية (٥٢٧-٥٦٥) بذل جهدًا كبيرًا في استرداد هذه الأقاليم التي فقدتها الإمبراطورية الرومانية في شمال أفريقية، وإيطاليا، وأسبانيا، ولكن نجاحه كان مؤقتًا سريع الزوال.

أما في الناحية الاقتصادية، فقد رأينا أن الإمبراطورية الرومانية كانت تشكو أعراض التدهور الاقتصادي قبل أن تقوم جموع الجرمان بغزو أراضيها، ولكن هذه الغزوات جاءت لتزيد الطين بلة، لأن التدمير الشامل الذي نتج عنها، وما صاحبها من حرب بين الغزاة بعضهم وبعض، أو بينهم وبين الجيوش الرومانية، أدت إلى توقف التجارة والزراعة والصناعة، بل إلى تدهور مستوى المعيشة بوجه عام، ولا شك في أن الأثر النفسي الذي تركته غزوات البرابرة وسقوط الإمبراطورية الغربية في نفوس المعاصرين، كان عظيمًا.. حتى اعتبر البعض هذه الأحداث نذيرًا بنهاية العالم.

وإذا كانت هناك ثمة ناحية من نواحي الحياة في الإمبراطورية قدر لها البقاء والاستمرار في ظل التطورات الجديدة، فإنها كانت الكنيسة الكاثوليكية التي تركها الجرمان تباشر نشاطها حتى ازدادت في ذلك العصر قوة ونفوذًا. والواقع أن الأخطار التي ألمت بالعالم الروماني من جهة، وسقوط الإمبراطورية الغربية من جهة أخرى، جعلت الكنيسة الغربية تبدو في صورة القوة الوحيدة التي يمكنها

إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراث الماضي، كما غدا القساوسة مثل الزعماء الطبيعيين الذين التف حولهم الناس وسط الأزمة الحادة التي أحاطت بهم(١).



يتبين مما تقدم ما يلي:

- أن روما كانت سيدة العالم لعدة قرون، وأنها أسست إمبراطورية عظيمة، لم يقدر لإمبراطورية أخرى أن تبلغ ما بلغته هذه الإمبراطورية من قوة واتساع.
- أن الإمبراطورية الرومانية كانت أسبق دول العالم في ممارسة الديمقراطية، وإنشاء المجالس الشعبية، وأن المجتمع كان ينقسم إلى طبقتين: طبقة الأشراف وطبقة العامة.. التي ناضلت لتحقيق المساواة.
- كثرة الأرقاء في هذه الدولة، نتيجة انتصار القوات الرومانية في معاركها مع أعدائها، وأسر أعداد كبيرة من جنودهم.
- أن قانون الألواح الاثني عشر كان أقدم القوانين المكتوبة التي استمرت قواعدها سارية، والأساس الذي اعتمد عليه قانون بونابرت.. الذي هو في الواقع المصدر الرئيسي للقوانين الحديثة للدول، بما فيها أولى القوانين المصرية الأهلية.
- أن الإمبراطورية الرومانية كانت مهد المذاهب المسيحية، وأفسحت المجال لانتشار المسيحية واتساع نفوذها.

---

(١) المرجع: كتاب «أوربا العصور الوسطى»، الجزء الأول، تأليف: الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، ص١٨ وما بعدها.

(ج) الإمبراطـورية البيزنطـية

الفصل الأول

بداية الإمبراطورية البيزنطية

ذكرنا أن الإمبراطورية الرومانية قد انقسمت إلى قسمين: شرقي وغربي في أواخر القرن الرابع، والقسم الشرقي أو البيزنطي قدر له البقاء والاستمرار، في حين لم تلبث الإمبراطورية الغربية أن سقطت قبل أن يمضي قرن على هذا التقسيم.

ومهما يكن من أمر، فإن تقسيم ثيودسيوس للإمبراطورية سنة ٣٩٥ جعل هناك إمبراطوريتين: إحداهما شرقية الطابع والكنيسة.. يونانية الحضارة واللغة والتراث، والثانية غربية الطابع، لاتينية اللغة والحضارة، كاثوليكية المذهب. والواقع أن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ظل تاريخ القسطنطينية بحضارتها الهللينية (اليونانية)، في حين أمسى تاريخ الإمبراطورية الغربية في العصور الوسطى مزيجًا من حضارة الشعب الروماني والشعوب الجرمانية التي غزت الغرب واستقرت فيه.

وقد خلف الإمبراطور ثيودسيوس في حكم الإمبراطورية الشرقية ابنه أركاديوس (٣٩٥-٤٠٨) ثم ثيودسيوس الثاني (٤٠٨-٤٥٠)، وليست هناك أهمية خاصة لهذه الفترة سوى ما قام به **ثيودسيوس الثاني** من جمع القانون الرومان وتبويبه، مما نتج عنه صدور المجموعة التي عُرفت بمجموعة ثيودسيوس سنة ٤٣٩، وترجع أهمية هذا العمل إلى أن الشعوب الجرمانية تأثرت بهذه المجموعة أكثر من تأثرها بأي مصدر روماني آخر، حتى أصبحت هذه المجموعة أساس التشريع الإداري في كل من إيطاليا وأسبانيا.

الإمبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥):

أخيرًا تولى جستنيان عرش الإمبراطورية البيزنطية سنة ٥٢٧ ليبدأ صفحة مهمة في تاريخها. وقد استطاع أن يخلد اسمه في التاريخ، بفضل الأعمال الواسعة التي قام بها في الداخل والخارج. فعندما اعتلى جستنيان العرش كانت الإمبراطورية الرومانية تمر بمرحلة قاسية، إذ انتزع الجرمان معظم ولاياتها في الغرب، في حين أخذ خطر الفرس يتفاقم في الشرق، ولا سيما عندما تولى حكمهم كسرى الأول أنوشروان (٥٣١-٥٧٩) أعظم ملوك بني ساسان، وكانت سياسة جستنيان الحربية تقوم على أساس الدفاع في الشرق والهجوم في الغرب.

وقد بدأ جستنيان بحرب قصيرة ضد الفرس (٥٢٧-٥٣٢) انتهت بصلح سريع بين الطرفين. ثم أخذ يحول قواته جهة الغرب ضد الوندال الذين اغتصبوا ولاية شمال أفريقية، وأسسوا فيها مملكة خاصة بهم، وقد صادفت حملته ضدهم توفيقًا كبيرًا.

ولم يكد جستنيان يفرغ من أمر شمال أفريقية حتى بدأ يوجه نظره نحو إيطاليا التي اغتصبها القوط الشرقيون، وقد استمرت الحرب في إيطاليا سنوات طويلة، أظهر فيها القوط عنادًا شديدًا، إلى أن انهارت أمامه قوة القوط نهائيًا سنة ٥٥٢ عندما أنزل بهم هزيمة ساحقة، وقتل آخر ملوكها. وهكذا انسحب القوط الشرقيون من إيطاليا حيث اختفوا بعد ذلك نتيجة اندماجهم في بعض الشعوب البربرية الأخرى. وبعد أن فرغ جستنيان من أمر إيطاليا، أخذ يوجه جهوده نحو استرداد أسبانيا من القوط الغربيين، إلا أن عدة عوامل حالت دون تمكين جيوش الإمبراطورية البيزنطية من الاستيلاء على أسبانيا استيلاءً تامًا، فاكتفت سنة ٥٥٤ بالسيطرة على بعض المدن المهمة في الركن الجنوبي الشرقي مثل: إشبيلية، ومالقة، وقرطاجنة، وقرطبة.

والواقع أن سلامة البلقان كانت أكثر أهمية للإمبراطورية الشرقية من استرداد أفريقيا وإيطاليا وأسبانيا، لذلك أقام جستنيان سلسلة من القلاع لحماية الحدود.

على أن أعمال جستنيان السلمية كانت مهمة وعظيمة، وعلى رأس هذه الأعمال جميعًا مجموعة القوانين Corpus Juris التي تمت تحت إشراف جستنيان وبفضل تشجيعه، فقد صدرت سنة ٥٢٩ مجموعة القوانين الإمبراطورية التي نسبت إليه، وهي تشمل جميع الدساتير والمراسيم التي أصدرها الأباطرة فضلاً عن تشريعات السناتو، وفي سنة ٥٣٣ صدر موجز يحوي المبادئ الأساسية للتشريع الروماني، حتى يكون مرجعًا لطلاب القانون، وبعد ذلك بأيام صدرت الموسوعة Digesta التي تقع في خمسين كتابًا ينقسم كل منها إلى فقرات، أما بقية تشريعات جستنيان الخاصة فكانت تصدر بين حين وآخر تباعًا، وأطلق عليها المتجددات، وقد نشرت جميعها باليونانية سنة ٥٦٥.

أما سياسة جستنيان الدينية فقد استهدفت السيطرة على شئون الدولة والكنيسة معًا، بحيث يصبح جستنيان بمثابة إمبراطور أو بابا شرقي في الوقت نفسه. ويبدو أن جهود جستنيان اتجهت نحو توحيد جميع رعايا العالم الروماني في ظل كنيسة واحدة يسيطر هو عليها، إلا أن هذه السياسة لم تحقق نجاحًا. أما

اليهود فقد أُبعدوا عن جميع مناصب الدولة، ومثلهم كل من لم يستطع إثبات صدق عقيدته، في حين حرم الهراطقة من جميع الحقوق المدنية، فضلاً عن العقوبات الرادعة.

وقد نشطت تجارة القسطنطينية وصناعتها نشاطًا كبيرًا على عهد جستنيان حتى نافست الإسكندرية بل تفوقت عليها، ذلك أن القسطنطينية غدت في ذلك العصر من أهم مراكز التجارة بين الشرق والغرب، فكانت ترد إليها من الصين والهند الحراير والأحجار الثمينة والبخور والعطور والتوابل، ومن روسيا الدقيق والخيل والفراء والجلود والقمح، هذا في الوقت الذي استمرت فيه أرض البلقان في إنتاج خيراتها المعدنية والنباتية، كما ساد الرخاء ولايات آسيا الصغرى، وازداد سكانها، كما أن جستنيان أكثر من شق الطرق، وبناء الجسور والقصور، والمستشفيات، والقلاع، والمسارح، والحمامات، وعلى رأس هذه المنشآت جميعًا تأتي كنيسة آيا صوفيا بفنها الرائع وقبتها الفريدة، مما جعلها من أعظم التحف الفنية الخالدة.

الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١):

تولى هرقل حكم الإمبراطورية في ظروف صعبة ليجد نفسه في مركز لا يُحسد عليه حاكم، إذ كان قد ولي الإمبراطورية بعد جستنيان حكام في غاية الضعف، فوجد هرقل البلاد فوضى، والخزانة خاوية، وخطر الفرس على الإمبراطورية لا يزال قائمًا، بل ازداد وضوحًا وعنفًا عندما اجتاح الفرس بلاد الشام سنة ٦١٤، واستولوا على بيت المقدس، ثم على مصر بعد ذلك بعامين. وهكذا أتى على الإمبراطورية البيزنطية حين من الدهر فقدت فيه جميع أراضيها الآسيوية ما عدا شريطًا ضيقًا في غرب آسيا الصغرى، فضلاً عن ضياع مصر، وهي المخزن الرئيسي الذي كان يمد الإمبراطورية بالقمح حينذاك، أما في الغرب فقد تقدم البربر حتى وصلوا بلاد اليونان نفسها، بحيث لم يبق للإمبراطورية سوى القسطنيطينية، وجزر بحر إيجه، وجنوب إيطاليا، وولاية شمال أفريقيا حول قرطاجة، فضلاً عن جزء محدود من آسيا الصغرى.

وقد كان لانتصار الفرس على الروم رد فعل شديد في مكة المكرمة، إذ فرح الكفار أن انتصرت دولة وثنية (هي الفرس) على دولة مسيحية (هي الروم) وهم أهل كتاب، هنالك نزل قوله تعالى في بداية سورة الروم: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ

سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

وقد صدق الله سبحانه وعده، فانتصرت الروم على الفرس بعد سنوات قليلة.

وقد ساعدت عدة عوامل هرقل على إنزال ضربة قاصمة بالفرس، فتقدم سنة ٦٢٦ عبر سهول دجلة والفرات نحو قلب الإمبراطورية الفارسية حيث أنزل بكسرى الثاني هزيمة ساحقة في ديسمبر سنة ٦٢٧ قرب أطلال نينوى، وعندما فرّ كسرى الثاني من ميدان المعركة لحق به هرقل إلى المدائن عاصمة الفرس، وعقد خليفة كسرى صلحًا مع هرقل، حيث وافق الفرس على إخلاء جميع الأراضي التي انتزعوها من الإمبراطورية البيزنطية، ورد صليب الصلبوت، وإطلاق سراح الأسرى.

وبعدها بسنوات تعرضت الدولة الفارسية لخطر خارجي جديد غير خطر الروم، هو خطر العرب المسلمين الذين أجهزوا على بني ساسان في موقعة نهاوند سنة ٦٤١، وبذلك دالت دولة الفرس المستقلة لتصبح جزءًا من الدولة العربية الإسلامية.

الفصل الثاني
الفتوح الإسلامية

إن العجيب في أمر الفتوح الإسلامية هو أن العرب غزوا فارس في الوقت نفسه الذي غزوا دولة الروم، وأحرزوا انتصاراتهم الضخمة على الدولتين في وقت واحد. ذلك أن الاحتكاك بين المسلمين والروم بدأ فعلاً في بادية الشام سنة ٦٢٩، أي في العام التالي مباشرة لانتهاء الحرب بين الروم والفرس، ولقد أخذت الجيوش العربية بقيادة أبي عبيدة بن الجراح تعمل في الشام ضد الروم، في حين كان القسم الثاني من هذه الجيوش بقيادة خالد بن الوليد يعمل في العراق ضد الفرس، وقد حاول هرقل إرسال قوة بقيادة أخيه تيودور لإنقاذ الموقف في فلسطين، ولكن القائد العربي- خالد بن الوليد- ذهب مسرعًا من العراق، لنجدة إخوانه في الشام، وبذلك أمكن إنزال هزيمة ساحقة بالقوات البيزنطية في موقعة أجنادين سنة ٦٣٤، وقد اتسعت الفتوح الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب، فاستولى المسلمون علي دمشق سنة ٦٣٥ ثم على حمص بعد قليل، وعندئذٍ ثار هرقل وحشد ثمانين ألفا من رجاله لقتال العرب، ولكن خالد أنزل هزيمة جديدة ساحقة بالجيوش البيزنطية عند اليرموك سنة ٦٣٦. وإذا كان هرقل قد أمضى سنتي ٦٣٥، ٦٣٦ في جبهة الشام، إلا أنه سرعان ما أيقن صعوبة مقاومة العرب، فترك بيت المقدس تقع في أيديهم (٦٣٧-٦٣٨). ويُروى أن هرقل عندما يأس من أمر الشام خرج إلى الرها، حيث وقف على مرتفع والتفت إلى الشام وقال: «السلام عليكِ يا سوريا، سلام لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي بعدها إلا خائفًا». ثم عاد إلى القسطنطينية.

ولم تكن انتصارات العرب على الفرس أقل سرعة وأثرًا من انتصاراتهم على الروم، ففي سنة ٦٣٧ كان العرب قد فتحوا العراق، وفي سنة ٦٤١ أحرز العرب انتصارًا عظيمًا على الفرس عند نهاوند، مما فتح أمامهم الطريق إلى قلب بلاد فارس. ولم تُجد مقاومة الفرس العنيفة في وجه العرب الذين تم لهم القضاء على يزدجرد الثالث آخر ملوك بني ساسان سنة ٦٥٢، وبذلك اختفت الملكية الفارسية من الوجود، وتم للعرب فتح فارس.

وبعد ذلك جاء دور مصر وشمال أفريقية، ذلك أن العرب فتحوا مصر سنة ٦٤١ أي قبل أن ينتهوا من فتح فارس، وبعد أن فتح العرب برقة سنة ٦٤٣ توقفت موجة الفتوح العربية قليلاً، وبعد قيام الخلافة الأموية استأنف العرب

فتوحاتهم بالقوة والنشاط نفسهما. وكان أن أخذ العرب في فتح ولاية أفريقية سنة ٦٦٤، حيث أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان، لتخلف قرطاجة حاضرة للبلاد. وكانت حروب المسلمين في شمال أفريقية طويلة وشاقة، وقد سقطت قرطاجة أخيرًا في يد حسان بن النعمان سنة ٦٩٧، وإن كان نفوذ الخلافة الإسلامية لم يستقر تمامًا في شمال أفريقيا قبل سنة ٧٠٨ بفضل جهود موسى بن نصير.

على أن العرب لم يقنعوا بفتح شمال أفريقيا حتى المحيط الأطلسي غربًا، وإنما تمكنوا من الاستيلاء على سردينية سنة ٧١١، كما عبر طارق بن زياد المضيق المعروف باسمه، واستطاع فتح أسبانيا فيما بين سنتي ٧١١، ٧١٣. وفي جميع هذه البلاد أقبلت نسبة كبيرة من الأهالي على اعتناق الإسلام، عن اختيار وإرادة حرة.

أما في البلقان، فقد حدث في تلك الأثناء أن توغلت جماعات من الصرب والكرواتيين في تراقيا ومقدونيا، كما في اليريا واليونان والمورة، وأصبح مصير الإمبراطورية البيزنطية كلها معلقًا في كفة القدر عندما حاصروا القسطنطينية سنة ٦٢٦. وفي خلال هذه المدة بذلت الإمبراطورية جهودًا يائسة لوقف الخطر الجديد الذي واجهها من جانب العرب، كما ذكرنا.

في أعقاب وفاة هرقل :

في أعقاب وفاة هرقل سنة ٦٤١، أحدقت بالدولة الشرقية الفوضى والأخطار الداخلية والخارجية، ولكن وجدت الإمبراطورية حاكمًا شجاعًا في شخص **ليو الثالث الأيسوري** (٧١٧-٧٤١). وقد حدث في السنة نفسها التي اعتلى فيها ليو عرش الإمبراطورية أن أرسل الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك جيشًا يبلغ ثمانين ألفًا يسانده أسطول من ألف وثمانمائة سفينة للاستيلاء على مدينة القسطنطينية، فحاصرها المسلمون بقيادة مسلمة بن عبد الملك لمدة سنة كاملة، ارتدوا بعدها سنة ٧١٨ دون أن يحققوا غرضهم بفضل مهارة ليو الثالث.. التي حالت دون إحكام الحصار الإسلامي حول القسطنطينية، فظلت العاصمة تتلقى الإمدادات من إقليم البحر الأسود، ويعتبر صمود ليو الثالث أمرًا على جانب كبير من الأهمية، مما أنذر بتغيير وجه شرق أوربا بأكمله في حالة استيلاء المسلمين على هذه القلعة الحصينة. كما أن النار الإغريقية لعبت دورها في تشتيت سفن المسلمين، في الوقت الذي أغرى الإمبراطور ليو الثالث البلغار بمهاجمة المسلمين من الخلف. وعندما سمع الخليفة عمر بن عبد العزيز بحرج

موقف المسلمين أمر بالانسحاب سنة ٧١٨ بعد أن ظلوا يحاصرون القسطنطينية أكثر من عام.

وقد حقق ليو الثالث انتصارات في المجال الحربي، ساعده عليها تحالفه مع مملكة الخرز ضد الخطر المشترك من جانب المسلمين. ولم تكن إصلاحات ليو الثالث المدنية أقل أهمية من جهوده الحربية، فقد نظم الشئون المالية والضرائب، وأصلح بعض النظم الكنسية، وحدّ نفوذ كبار ملاك الأراضي، هذا عدا عنايته بتحسين الزراعة، وترقية التجارة والصناعة. أما في ميدان التشريع فقد أصدر مرجعًا قانونيًا سنة ٧٢٦ يُعرف باسم الإكلوجا Ecloga (أي المختار)، يشتمل على مختارات من أهم قواعد القانون المدني والجنائي، مع العناية بالنواحي المتعلقة بالأسرة والميراث والملكية، وكان الغرض من إصدار هذا الكتاب، إمداد القضاة بمرجع واف مركز يغنيهم عن بقية المراجع المطولة التي كان من الصعب الرجوع إليها.

وقد خلف ليو الثالث قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥) الذي ورث عن أبيه نشاطه ومثابرته.

وخلف قسطنطين أكبر أبنائه **ليو الرابع**، وبدأ عهده بأن هاجم المسلمين شرقي الأناضول سنة ٧٧٨ فردّ عليه الخليفة المهدي العباسي بمهاجمة أراضي البيزنطيين في العام التالي، ولم يلبث أن توفي سنة ٧٨٠ فانتقلت السلطة الفعلية إلى أرملته إيرين التي قامت بالوصاية على ابنها الصغير قسطنطين السادس عدة سنوات. وفي هذه الأثناء اجتاحت جيوش **الخليفة العباسي هارون الرشيد** آسيا الصغرى سنة ٧٨٦ حتى وصلت البسفور، في حين عجزت إيرين عن مواجهة الخطر، فرضيت بأن تشتري الصلح من المسلمين مقابل مبلغ ضخم تعهدت بدفعه سنويًا. وفي وسط هذه الظروف بلغ قسطنطين السادس سن الرشد، ولكنه لم يستغن عن أمه، التي حقدت على ابنها وكرهت أن يشاركها الحكم بعد أن تذوقت طعم السلطان، ويبدو أن الانتصارات التي أحرزها قسطنطين السادس في تلك المرحلة، وخاصة عندما انتصر على المسلمين عند أنطاكيا، أثارت الحقد في نفسها على ابنها حتى أعمى بصيرتها، فدبرت مؤامرة في القصر سنة ٧٩٧ انتهت بالقبض على ابنها وسمل عينيه، وبالتالي عزله وإرساله إلى أحد الأديرة ليقضي عشرين سنة محرومًا من نعمة البصر. إلا أن الفترة القصيرة التي قضتها إيرين في الحكم بعد ذلك- وهي لا تتجاوز خمس سنوات- جاءت مليئة

بالكوارث الداخلية والخارجية. وقد عادت جيوش هارون الرشيد إلى تهديد الأقاليم الآسيوية للإمبراطورية حتى وصلت أفسوس غربًا، ولم تستطع الإمبراطورة أن تتلخص من هذا الخطر إلا عن طريق تجديد العهد بدفع جزية سنوية ضخمة للمسلمين سنة ٧٩٨.

وأخيرًا أدرك كبار رجال الدولة أن الكيل قد طفح، فدبروا مؤامرة ضد إيرين سنة ٨٠٢- بزعامة نقفور أمين الخزانة- ونجحت هذه المؤامرة في القبض عليها وحبسها في أحد الأديرة.. وعلى هذا الوجه انتهى البيت الأيسوري بعد أن ظل في حكم الدولة البيزنطية خمسًا وثمانين سنة.

وقد خلف إيرين في الحكم **الإمبراطور نقفور الأول (٨٠٢-٨١١)** الذي عُرف بالمهارة والكفاية عندما كان وزيرًا للمالية في السنوات السابقة لاعتلائه العرش، لذا وجه جزءًا كبيرًا من جهوده لإصلاح الأوضاع المالية بعد أن اختلت وأوشكت الدولة على الإفلاس على في العهد السابق. وقد رفض نقفور دفع الجزية التي تعهدت بها الإمبراطورية إيرين للخليفة هارون الرشيد، مما جعل جيوش الدولة العباسية تجدد هجماتها على أراضي الإمبراطورية البيزنطية، وقد أسرع نقفور إلى شراء السلم من الخليفة العباسي مقابل مبلغ كبير من المال.

وقد تولى ميخائيل الثاني الحكم، ومن بعده **ابنه ثيوفيل (٨٢٩-٨٤٢)**، وقد استفز ثيوفيل **الخليفة العباسي المأمون** بإيواء بعض الهاربين من وجه الخليفة، مما أثار حربًا بين الطرفين استمرت أكثر من ثلاثين سنة، دون أن يستطيع أحدهما إنزال ضربة قاسمة بخصمه. وفي عصر **الخليفة المعتصم** تحول ثيوفيل من الدفاع إلى الهجوم، فهاجم أعالي الشام وبلاد ما بين النهرين، وتجرأ البيزنطيون فهاجموا مدينة زبطرة ذات المكانة الخاصة عند الخليفة العباسي المعتصم، الأمر الذي استثار الخليفة فنزل بنفسه إلى ميدان المعركة سنة ٨٣٨ على رأس جيش كثيف بعد أن أقسم على تدمير مدينة عمورية مسقط رأس الإمبراطور ثيوفيل وأسرته انتقامًا لمدينة زبطرة، وقد حلت الهزيمة بجيش الإمبراطورية، واستطاع المسلمون الاستيلاء على عمورية وقتل عدة آلاف من أهلها، فضلاً عن عدد كبير من أعيان الروم ساقهم المعتصم أسرى إلى سامرا.

الفصل الثالث
السلاجقة والدولة البيزنطية

لا شك أن الضعف والانحلال الذي أصاب الدولة الإسلامية في العصر العباسي الثاني، هو الذي مكن أباطرة الدولة البيزنطية منذ منتصف القرن التاسع من الوقوف موقفًا أكثر صلابة من جيرانهم المسلمين، حتى أصبحت الغلبة في القرن العاشر لجيوش الدولة البيزنطية، في حين التزم المسلمون موقف الدفاع بقدر المستطاع، ولكن الموقف بين المسلمين والبيزنطيين أخذ يتبدل في القرن الحادي عشر نتيجة لظهور قوة الأتراك السلاجقة، الذي يعتبر ظهورهم فاتحة عصر جديد، لا في التاريخ الإسلامي فحسب، بل في تاريخ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بوجه عام.

ولقد قام **السلطان ألب أرسلان السلجوقي** بالإغارة على أطراف الدولة البيزنطية.. حتى استولى على قيصرية، وقد هبَّ إمبراطور الدولة البيزنطية عندئذٍ- **وهو رومانوس الرابع** (١٠٦٧-١٠٧١)- للدفاع عن بلاده ضد هذا الخطر المستفحل، واستطاع أن يحصل بالفعل على بعض انتصارات سهلة في أول الأمر، حتى كانت المعركة الفاصلة بين السلاجقية والبيزنطيين عند ملازكرت (أو مانزكرت)، فدارت معركة مانزكرت الشهيرة سنة ١٠٧١، وكان القتال عنيفًا وطويلاً، حتى حلَّت الهزيمة ساحقة بالبيزنطيين، وتمزق الجيش البيزنطي شر ممزق، في حين جرح الإمبراطور نفسه ووقع أسيرًا.

نهاية الدولة البيزنطية :

منذ أواخر القرن الحادي عشر، كانت الإمبراطورية البيزنطية تعيش وسط بحر متلاطم من الأعداء الطامعين فيها، فكان على أباطرة هذه الإمبراطورية تحديد موقفهم من الأتراك السلاجقة من جهة، ومن الصليبيين المارين بأراضي الدولة نحو الأرض المقدسة من جهة أخرى، ثم من الإمارات الصليبية التي تأسست في الشرق على أرض كانت الدولة البيزنطية تعتبرها أجزاء من كيانها من جهة ثالثة.

وفي هذه الأثناء غزا النورمان مقدونيا، واستولوا على سالونيكا سنة ١١٨٥، وكان لاستيلاء النورمان على سالونيكا- وهي ثاني مدن الإمبراطورية بعد القسطنطينية- رد فعل قوي في العاصمة، فثار الأهالي، واتهموا الإمبراطور بالتقاعس والإهمال في الدفاع عنها، حتى انتهى الأمر بعزله.

أما في الخارج فقد حالف الفشل جيوش الإمبراطورية، إذ ثار البلغار بسبب قسوة الضرائب، ونفضوا أيديهم من ولائهم للإمبراطورية، بعد أن ظلوا خاضعين لها مائتي سنة. وفي ذلك الوقت أيضًا استولى ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا على قبرص في طريقه إلى فلسطين، وفصلها نهائيًا عن جسم الإمبراطورية. ثم كان أن تلاحقت الحوادث التي تمخضت عن استيلاء الصليبيين على زارا سنة ١٢٠٢، ثم على القسطنطينية سنة ١٢٠٤، فسقطت الإمبراطورية البيزنطية وقامت على حطامها إمبراطورية لاتينية (١٢٠٤-١٢٦١). وجاء سقوط القسطنطينية في أيدي الصليبيين ضربة لم تستطع الإمبراطورية الشرقية أن ترفع رأسها من بعدها.

وقد تم إحياء الإمبراطورية البيزنطية سنة ١٢٦١ عن طريق استرداد القسطنطينية على يد أحد حكام نيقية البيزنطيين. وإذا كانت الإمبراطورية البيزنطية قد استطاعت الحياة نحوًا من قرنين منذ بعثها سنة ١٢٦١، فإن الفضل في ذلك لا يرجع إلى قوتها، أو إلى كفاية حكامها وبطولة شعبها، بقدر ما يرجع إلى الملابسات التي صرفت أعداءها عنها طوال هذه الفترة، زيادة على حصانة القسطنطينية نفسها ومناعة موقعها. وليس في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية في تلك الفترة ما يستحق العناية، أو يسترعي اهتمام الباحث، سوى ظاهرة واحدة، هي أن ضعف الإمبراطورية في عصرها الأخير ساعد على نمو دولة الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى نموًا سريعًا. فاستولوا سنة ١٣٢٦ على بروسة واتخذوها عاصمة لدولتهم.

ولما تولى **مراد الأول** الحكم في الدولة العثمانية، أخذ يبتلع مدينة بعد أخرى في الجانب الأوربي، حتى استولى على أدرنة سنة ١٣٦١ لتصبح أعظم مركز للعثمانيين على الأرض الأوربية وقتذاك. على أن وصول العثمانيين إلى الحدود الشمالية للإمبراطورية العثمانية في البلقان، جرهم إلى الاشتباك في حرب ضد بلغاريا والبوسنة والصرب، وهنا أيضًا صادف العثمانيون توفيقًا كبيرًا، حتى نجحوا في إخضاع أجزاء واسعة من هذه البلاد، وأجبروا أهلها على دفع الجزية.

أما الممالك السلافية في شمالي القسطنطينية وغربيها فقد أظهرت عنادًا في مقاومة العثمانيين، حتى كونت فيما بينها حلفًا دفاعيًا سنة ١٣٨٧ تحت زعامة ملك البوسنة، وقد نجح هذا الحلف- أول الأمر- في وقف تقدم العثمانيين، ولكن السلطان مراد الأول استطاع أن ينزل هزيمة ساحقة بقوى الحلف في كوسوفا سنة ١٣٨٩، وخرَّ ملك الصرب نفسه قتيلاً في المعركة، في حين قُتل السلطان

مراد هو الآخر بيد أحد نبلاء الصرب بعد الموقعة. وامتدت الأملاك العثمانية حتى الدانوب. وعندما حاول الأوروبيون عمل حلف جديد من بعض الأمراء الفرنسيين وملك هنغاريا (المجر) ضد العثمانيين، أنزل بهم **بايزيد الأول** هزيمة ساحقة في معركة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦.

بعد بايزيد الأول جاء السلطان مراد الثاني.. الذي قضى سنوات حكمه في إخماد بعض الثورات في آسيا الصغرى وألبانيا، حتى توفي سنة ١٤٢١، وعندئذٍ اعتلى عرش السلطنة **ابنه محمد الثاني أو الفاتح** الذي احتفظ لنفسه في التاريخ بشرف عظيم.

وقد أحسَّ الإمبراطور البيزنطي حينذاك، وهو قسطنطين الحادي عشر (١٤٤٩-١٤٥٣) بخطر الاستعدادات التي يبذلها العثمانيون للاستيلاء على عاصمته، فحاول أن يستجدي معونة الغرب، ولكن دون جدوى، مما ترك الإمبراطور البيزنطي وحيدًا دون معونة تذكر سوى مساعدة يسيرة من البنادقة والجنوية وغيرهما من ذوي المصالح التجارية في الشرق، ولكن حتى هذه المعونة التافهة لم تحل دون تحقيق المصير المحتوم، فسقطت القسطنطينية في أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣.

وهكذا زالت الدولة البيزنطية، وحلَّ سلاطين آل عثمان محل قياصرة الروم في القسطنطينية، وهي المدينة التي بدأت أولى صفحات تاريخها بالإمبراطور قسطنطين الأول أو العظيم، واختتمت آخر صفحاتها في العصور الوسطى بقسطنطين الحادي عشر. ولا شك أن سقوط القسطنطينية وما أعقبه من توسع العثمانيين سريعًا في شرق أوربا ووسطها كان من العوامل الأساسية التي أسهمت في تغيير الصورة التي كانت عليها أوربا في العصور الوسطى(١).

فما هي الصورة التي كانت عليها أوربا في العصور الوسطى؟

(١) المرجع: كتاب «أوربا العصور الوسطى»، الجزء الأول، تأليف: الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور.

الباب الثاني
أوربا في العصور الوسطى

تمهـــــيد:

ذكرنا من قبل أن الغزوات التي قام بها البرابرة تركت أثرًا واضحًا فـــي المجتمع الروماني، وأن هذه الغزوات أدت إلى تحطيم الإمبراطورية الرومانيـــة في الغرب سنة ٤٧٦م، وضياع معظم أقاليمها في أيدي الغزاة.

وقد قُدر للقسم الشرقي (البيزنطي) البقاء والاستمرار، وظـــل تـــاريخ الإمبراطورية البيزنطية هو تاريخ القسطنطينية العاصمة، وظل الأمر على هـــذه الحال عدة قرون، إلى أن استطاع السلطان العثماني محمد الثاني (الفـــاتح) مـــن غزو القسطنطينية.. التي سقطت في أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣، وهكذا زالـــت الدولة البيزنطية، وحل سلاطين آل عثمان محل قياصرة الروم في القسطنطينية.

على أنه في أعقاب سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية برزت- فـــي أوربا الغربية- عدة دول كبرى هي: فرنسا، ألمانيا، إنجلترا، أسبانيا. وسنتحدث عن هذه الدول تباعًا.

الفصل الأول
امبراطورية الفرنـجة (فرنسا)

لم يمض على قيام دولة الفرنجة ثمانون عامًا حتى كفت عن التوسع والنمو، ودخلت دورًا من الفوضى والحروب الأهلية استمرت قرابة قرن ونصف، في الوقت الذي انقسمت فيه دولة الفرنجة إلى ثلاث ممالك صغرى هي: أوستراسيا، ونستريا، وبرجنديا. وكان يُطلق على دولة الفرنجة اسم «غاليا».

شارل مارتل :

وفي أواخر القرن السابع، استطاع **شارل مارتل** أن يدعم نفوذه، حتى غدت السلطة الفعلية في يديه سنة ٧١٩م، وعندئذٍ وجد دولة الفرنجة في حالة يُرثى لها، بسبب التنافس الطويل بين رؤساء البلاد في أوستراسيا ونستريا من جهة، والأخطار الخارجية التي أحاطت بدولة الفرنجة عندئذٍ من جهة أخرى، وهنا أسرع شارل مارتل إلى القيام بسلسلة من الحروب لتأمين الدولة من ناحية الشرق. على أن الخطر الأكبر الذي هدد دولة الفرنجة في ذلك العصر جاء من ناحية الجنوب، أي من جانب المسلمين الذين زحفوا من الأندلس حتى استولوا على ناربون سنة ٧٢٠ ثم أوغلوا في برجينديا. وقد وجد شارل مارتل نفسه أمام خطر جسيم يستلزم تعبئة كل قواه، فحشد قوى أتباعه من النبلاء وغير النبلاء، واستعان باللمبارديين في إيطاليا، كما استولى على بعض أراضي الكنيسة، هذا كله في الوقت الذي كان فيه المسلمون بقيادة عبد الرحمن الغافقي قد استولوا على بوردو سنة ٧٣٢، وأخذوا بعد ذلك يزحفون شمالاً. وأخيرًا دارت موقعة بلاط الشهداء بين بواتيه وتور، واستمرت سبعة أيام، قُتل فيها عبد الرحمن وارتد أتباعه من المسلمين.

أما شارل مارتل فقد أضفى عليه هذا النصر قوة أكسبته لقب مارتل Martel أي المطرقة، بعد أن بدا في نظر العالم الغربي بطل المسيحية الأول الذي حمى غرب أوربا من الغزو الإسلامي.

توفي شارل مارتل سنة ٧٤١ وخلفه ابنه **بيبين القصير** في رئاسة البلاط، وقد عمل على إصلاح ذات البين مع الكنيسة، ثم اعتلى بيبين عرش الفرنجة (٧٥٢-٧٦٨)، وفي عهده دخلت دولة الفرنجة (غاليا) دورًا جديدًا في تاريخها لتصبح أعظم قوة سياسية في غرب أوربا، بفضل تحالفه مع البابوية، وهو التحالف الذي كان له أبعد الأثر بالنسبة لمستقبل غرب أوربا في العصور

الوسطى. وقد استمر بيبين القصير في الحكم حتى وفاته سنة ٧٦٨، وعندئذٍ قسمت مملكته بين ولديه.

الإمبراطور شارلمان :

قسم بيبين مملكته بين ولديه- وفقًا لتقاليد الفرنجة- وبوفاة أحدهما وهو كارلومان سنة ٧٧١، خلا الجو للآخر وهو **شارلمان**، وأتيح له فرصة توحيد جميع مملكة الفرنجة تحت سيادته. وقام شارلمان العظيم بسلسلة من الحروب ضد السكسون، ومسلمي أسبانيا، والعناصر السلافية الرابضة على نهر الألب، وقد حققت هذه الحروب قسطًا كبيرًا من النجاح، وأدت إلى حماية غرب أوربا من العناصر الوثنية المجاورة، فضلاً عن نشر المسيحية في هذه المناطق. على أن أعنف حروب شارل وأطولها كانت ضد السكسون، فقد قام بثماني عشرة حملة ضدهم، كان غرضه الأول منها حماية حدود بلاده من خطرهم، ثم لم يلبث أن أصبح الغرض تحويلهم إلى المسيحية وإخضاعهم بالقوة.

ولم يكد ينتهي القرن الثامن إلا كان شارل العظيم قد قام بأعمال لم يستطع القيام بها أحد غيره من المعاصرين، ذلك أنه لم ينجح في تكوين دولة عظمى في غرب أوربا فحسب، بل نجح أيضًا في حماية البابوية ونشر المسيحية، وإحياء كثير من مظاهر الحضارة الرومانية في الغرب، هذا كله مع شدة رعايته للعلوم، وجهوده في إنعاش الحضارة في الغرب.

ومهما يكن من أمر فقد قُدر لشارلمان أن يحيي الإمبراطورية الرومانية في الغرب، بعد أن ظل العالم الغربي بلا إمبراطور منذ أواخر القرن الخامس. أما البابوية فقد قطعت- بتتويج شارلمان إمبراطورًا- الرباط الواهي الذي كان يربطها بالإمبراطورية البيزنطية، وفي الوقت نفسه دعمت الرباط الذي كان يربطها بمملكة الفرنجة، وأكسبت هذا الرباط طابعًا دينيًا مقدسًا، هذا فضلاً عن أن الطريقة التي تم بها تتويج شارلمان جعلت التاج الإمبراطوري يبدو في صورة منحة من البابا، وهي العقيدة التي أصبح لها شأن كبير في النزاع بين الإمبراطورية والبابوية فيما بعد.

على أن أهمية شارلمان في التاريخ لا تبدو في حروبه الطويلة، أو تتويجه إمبراطورًا لأول مرة بين ملوك الجرمان فحسب، بل تبدو هذه الأهمية أيضًا في إصلاحاته الواسعة التي تناولت مختلف المرافق والاتجاهات حتى أدت إلى ما يُعرف في التاريخ باسم: النهضة الكارولنجية. ففي ميدان الثقافة أظهر

شارلمان اهتمامًا كبيرًا بالدراسات العلمية، فشجع الأدباء والعلماء الذين وفدوا على بلاطه من مختلف أنحاء أوربا، ولا سيما أيرلندا وإنجلترا وإيطاليا. واهتم بإصلاح نظم المدارس الدينية، ونشر التعليم ورفع مستوى رجال الدين الثقافي. لذلك لا عجب إذا انتشر التعليم، وارتفع مستواه بفضل جهود شارلمان ومساعديه، فضلاً عن العناية بالمكتبات، ونسخ الكتب، ورعاية اللغة اللاتينية وأسلوبها، مما أدى إلى نهضة علمية شاملة تناولت كثيرًا من ضروب العلم والمعرفة.

أما إصلاحات شارلمان في ميادين التشريع والقضاء والإدارة، فكانت هي الأخرى على جانب كبير من الأهمية، من ذلك أن شارلمان استحدث كثيرًا من التشريعات لإقرار النظام الإداري، وتنظيم العدالة والمحاكم عن طريق تقوية العنصر الشعبي في دور القضاء. وقد قسم شارلمان إمبراطوريته الواسعة إلى أقسام إدارية أشرف على كل منها كونت يعتبر نائبًا عن شارلمان نفسه في منطقته، ويتمتع تبعًا لذلك باختصاصات وسلطات واسعة سواء في النواحي المالية أو القضائية أو الإدارية. **وأنشأ شارلمان المجلس العام لدولة الفرنجة** L'assemblée générale.. الذي كان بمثابة المجلس الاستشاري، ينعقد وفق إرادة شارلمان، ويتألف من مندوبين عن مختلف أنحاء الإمبراطورية وشعوبها- لا الفرنجة فحسب- فضلاً عن الأساقفة ورؤساء الأديرة والكونتات.

ولم يغفل شارلمان الناحية الاقتصادية في إمبراطوريته: فاهتم بالزراعة ونهض بها، وقام بتقوية الجسور، أما الصناعة فكانت مراكزها الأساسية في الأديرة، التي اشتهرت بإنتاج خير الصناعات المعدنية والجلدية والخشبية وغيرها، كما انتشرت في الضياع والقرى. كما بدت جهود شارلمان واضحة في ميدان التجارة، حيث اهتم بتنظيم التجارة الداخلية والخارجية وتشجيعها، من ذلك أنه نظم الموازين والمكاييل والمقاييس، والعملة المتداولة، هذا فضلاً عن عنايته بالطرق التجارية والمحافظة عليها وتأمينها، على أن التجار في ذلك العصر فضلوا دائمًا استخدام الطرق النهرية والبحرية لسهولتها وقلة تكاليفها.

وتناوب أبناء وذرية شارلمان المُلك بعد وفاته سنة ٨١٤، إلى أن انتقلت السلطة الفعلية إلى أيدي أودو كونت باريس، الذي استطاع أن ينتزع المُلك، ويؤسس أسرة جديدة هي أسرة كابيه سنة ٨٨٨.

أسرة كابيه في فرنسا :

كان **فيليب أوغسطس** الذي اعتلى عرش فرنسا سنة ١١٨٠ من أهم

ملوك أسرة كابيه، وقد تنبأ له معاصروه منذ طفولته بالقوة والعظمة، وقد بدأ يستأنف سياسة جديدة في التمكين للملكية في الدخل والتوسع في الخارج. هذا إلى أن فيليب حكم مدة قاربت أربعًا وأربعين سنة، وهي مدة طويلة تبدل خلالها معظم كبار أمراء الإقطاع في فرنسا، مما أتاح للملك فرصة تأكيد حقوقه الإقطاعية قبل الأمراء الجدد.

وقد اشترك فيليب أوغسطس مع ريتشارد الأول ملك فرنسا، وفردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا في الحملة الصليبية الثالثة سنة ١١٩٠، ولم تطل إقامة فيليب بالأراضي المقدسة إذ اعتذر بسوء حالته الصحية، وعاد إلى بلاده سنة ١١٩١، وهي حجة شكلية بينما كانت عودته لإنجاز بعض المصالح الهامة في فرنسا، وأولها أنه انتهز فرصة غياب ريتشارد في الأراضي المقدسة، وحاول الهجوم على نورمنديا إحدى ممتلكات التاج البريطاني في فرنسا.

ولم تكن الانتصارات العسكرية لفيليب أوغسطس هي المصدر الوحيد لشهرته وأهميته في التاريخ، لأن إصلاحاته لا تقل أهمية عن تلك الانتصارات. أما في الناحية الإدارية، فإنه كان محاربًا وسياسيًا أكثر منه إداريًا ومشرعًا، وهكذا كان دوره الرئيسي في تاريخ فرنسا تقوية الملكية ومضاعفة سلطانها، لا تنظيم المملكة وشئون الحكم، وقد ساعد فيليب في الناحية الإدارية عدد من كبار الموظفين، وإلى جانب هذه الفئة وجدت مجموعة من المستشارين العلمانيين والدينيين، روعي فيهم أن يكونوا من أتباع الملك المخلصين، حتى يظلوا بمثابة «مجلس استشاري»، وكان الملك يضيف إلى هؤلاء مجموعة أخرى من النبلاء والأساقفة في حالة الضرورة. وعند دعوة هذا المجلس، روعي في الدعوة تحديد مكان الاجتماع وزمانه والغرض منه، وكان هذا المجلس بمثابة هيئة تشريعية وقضائية عليا، بحيث لا يتدخل في المسائل التي تدخل في الروتين الحكومي العادي، وكان بمثابة هيئة استشارية بحتة لا يوجد ما يلزم الملك بقبول قراراتها أو تنفيذها.

وخلاصة القول أن فيليب أوغسطس استطاع- عن طريق القوة والسياسة- أن يجعل من فرنسا دولة عظمى، وأن يجعل الملك على جانب من النفوذ والسلطان دونهما نفوذ أي أمير إقطاعي آخر في فرنسا، ويكفي أن أول ملك من أسرة كابيه استطاع أن يتصدى للحلفاء الذين تجمعوا ضده من ألمانيا وإنجلترا وآخرين، وانتصر عليهم في موقعة بوفان Bouvines في يوليو

سنة ١٢١٤. وجاء هذا الانتصار ليحمي ملوك فرنسا من أي خطر أو تهديد من جانب إنجلترا لاسترداد أملاكها المفقودة في غرب فرنسا.

وقد خلف فيليب ابنه لويس الثامن (١٢٢٣-١٢٢٦) ثم **لويس التاسع** (١٢٢٦-١٢٧٠). ولم يحاول لويس التاسع أن يستفيد من الدروس التي تلقاها أسلافه، فدفعته حماسته الدينية إلى القيام بالحملة الصليبية الشهيرة المعروفة بالسابعة.. والتي انتهت بهزيمة جيوشه ووقوعه أسيرًا في أيدي المصريين.

وقد امتاز عهد لويس التاسع بإصلاحات متعددة في النواحي الإدارية والقضائية والمالية. وكان محور السلطة المركزية في ذلك العصر- سواء في فرنسا أو إنجلترا- هو المجلس الإقطاعي للملك، الذي تألف في جوهره من مجموعة من الوزراء الدائمين، وينضم إليهم أفصال الملك في حالة الشروع في إعلان الحرب أو زيادة الضرائب أو غيرها من المسائل المهمة، وعندما ازداد عدد أعضاء هذا المجلس في القرن الثالث عشر أخذ ينقسم إلى عدة لجان لكل منها مهمته. وقد تمسك لويس التاسع بحقه في أن تُستأنف أمامه جميع القضايا، على أن يكون رأيه نهائيًا وملزمًا حتى لكبار الأمراء الإقطاعيين. أما في الناحية المالية فقد جعل العملة الملكية صالحة للتداول في جميع أنحاء فرنسا، في حين لا تسري العملات الخاصة التي أصدرها كبار الأمراء الإقطاعيين إلا في إقطاعاتهم وحدها، الأمر الذي ضمن البقاء والفوز النهائي للعملة الملكية، كذلك اهتم لويس التاسع برعاية التجارة، ونشر الأمن والسلام، مما يمكن التجار من البيع والشراء في يُسر وطمأنينة، هذا فضلاً عن عدة مدن أقامها لويس التاسع في الجنوب. وقد توفي سنة ١٢٧٠.

وقد خلف لويس التاسع ابنه فيليب الثالث (١٢٧٠-١٢٨٥) ومن بعده **فيليب الرابع** (١٢٨٥-١٣١٤)، وكان أهم حدث يهمنا في فترة حكمه أنه وجه الدعوة **لمجلس طبقات الأمة** للانعقاد لأول مرة سنة ١٣٠٢، وهو المجلس الذي كان له أثر خطير في تاريخ فرنسا، ذلك أن فيليب الرابع دعا ممثلين لطبقات المجتمع الثلاث: رجال الدين، والنبلاء، والبرجوازيين. وتكررت هذه الدعوة أكثر من مرة، مثلما حدث سنة ١٣٠٣ أثناء نزاعه مع البابا بونيفيس الثامن، وسنة ١٣٠٨، وسنة ١٣١٤ عندما احتاج إلى أموال للحرب، ويبدو من حرص هذا الملك على دعوة المجلس أنه كان يقدر ما للرأي العام من أهمية وقوة، وعلى الرغم من أنه لم يسمح لمجلس طبقات الأمة بمناقشة القوانين، إلا أنه سمح لهم

برفع آرائهم إلى الملك. وقد حدث أثناء انعقاد المجلس سنة ١٣١٤ أن اعترض الأعضاء على إحدى الضرائب، فاضطر فيليب الرابع إلى إلغائها، وإلى عدم التلاعب في العملة بعد ذلك.

وعند وفاة فيليب الرابع سنة ١٣١٤ خلفه أكبر أبنائه لويس العاشر لمدة عامين، وبعد ذلك اعتلى العرش ابن آخر لفيليب الرابع هو فيليب الخامس (١٣١٦-١٣٢٢). وبعد فيليب الخامس تولى الحكم أخوه شارل الرابع (١٣٢٢-١٣٢٨) الذي لم يترك وريثًا في الحكم، مما أدى إلى انتهاء عهد أسرة كابيه.

الفصل الثاني
ألمانيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة

اختلف الجزء الشرقي من الإمبراطورية الكارولنجية (ألمانيا) عن الجزء الغربي (فرنسا في بنائه السياسي وتراثه الحضاري، فالجزء الشرقي لم يكن معظمه في يوم من الأيام داخل حدود الإمبراطورية الرومانية القديمة. وقد أخذت شعوب ألمانيا تتمسك بتراثها القديم، وتبحث عن زعامة محلية، عندما بدا لها عجز الملكية الكارولنجية عن دفع الفيكنج Vikings[(١)] والمجريين، فظهر زعماء محليون من كبار الأمراء في كل من سكسونيا وفرانكونيا وسوابيا وبافاريا، وهي الأجزاء الرئيسية التي تألفت منها مملكة الفرنجة الشرقية أو ألمانيا.

وكان «**أرنولف**» هو أهم حكام ألمانيا من البيت الكارولنجي في أواخر القرن التاسع (٨٨٧-٨٩٩)، وقد امتاز حكمه بالحيوية والقوة، حتى استطاعت ألمانيا في تلك الفترة التغلب على أعدائها في الشمال والشرق، فضلاً عن حصولها على نوع من الزعامة بين بقية الدول المسيحية في غرب أوربا. ولعل خير دليل على قوة أرنولف هو نجاحه في دفع خطر الفيكنج عن بلاده بطريقة جعلت منهم فيما بعد أقل أعداء الدولة الألمانية خطرًا عليها.

ومن ناحية أخرى فقد رحب أرنولف بفرصة أُتيحت له للتدخل في إيطاليا بناء على استغاثة أحد حكامها في صراعه مع خصم له، فعبر الألب سنة ٨٩٤ حيث أخضع حوض نهر البو، وفي العالم التالي عاد مرة أخرى إلى إيطاليا ودخل روما حيث رحب به البابا وتوَّجه إمبراطورًا. وهكذا وضع أرنولف أساس سابقة خطيرة أمام حكام ألمانيا الذين وزعوا جهودهم بين ألمانيا وإيطاليا، دون أن يحصلوا على أية فائدة من وراء التدخل في شئون إيطاليا، سوى إضعاف نفوذهم في ألمانيا وبعثرة قواهم.

وقد توفي أرنولف في نهاية سنة ٨٩٩، فأجمع أمراء ألمانيا وأساقفتها على اختيار لويس الطفل ملكا عقب وفاة أبيه أرنولف. وبوفاة لويس هذا انتهت سلالة البيت الكارولنجي من الذكور في ألمانيا، ولم يعد هذا البيت ممثلاً إلا في شخص

---

(١) الفيكنج هم العناصر الشمالية التي سكنت شبه جزيرة اسكندناوة (السويد والنرويج) وشبه جزيرة جتلاند (الدانمرك)، والتي أغارت على وسط وغرب أوربا، واتخذت إغاراتها ضغطًا خطيرًا في القرن التاسع، وكانت هذه الإغارات تتخذ شكلاً بحريًا أقرب إلى القرصنة منه إلى الزحف البري.

شارل البسيط في فرنسا. ولم يكن هناك سوى أحد طريقين أمام النبلاء الألمان للتغلب على مشكلة ملء العرش، فإما اختيار ملك من سلالة الفرع الفرنسي للبيت الكارولنجي، وإما أن ينتخب النبلاء الألمان أحدهم لشغل هذا المنصب، وبعد كثير من الجدل والتردد تغلب الرأي الأخير، فاجتمع زعماء الأقسام الأربعة لألمانيا واختاروا سنة ٩١١ **كونراد الأول** ملكا عليهم، وهكذا أصبحت الملكية الألمانية انتخابية، فيشترك في انتخاب الملك كبار الأمراء فضلاً عن رؤساء الأساقفة، مما جعل عملية الانتخاب هي مصدر خلافات وحزازت لا تنقطع.

وبعد وفاة كونراد الأول اجتمع كبار الأمراء والأساقفة، واستقر رأيهم على اختيار **هنري دوق سكسونيا** ملكا على ألمانيا سنة ٩١٩. والمعروف أن الفضل يرجع إلى هنري الأول في وضع أسس الملكية الألمانية وتثبيت هذه الأسس تثبيتا ظهر أثره واضحًا بعد ذلك في عهد ولده وخليفته أوتو.

أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦-٩٧٣) :

أوصى هنري الأول قبل وفاته في يوليو سنة ٩٣٦ باختيار ابنه ملكًا من بعده، وكان أن اختير أوتو ملكا بعد أبيه وهو في العشرين من عمره. ويعتبر أوتو الأول أو العظيم مؤسس الإمبراطورية المقدسة بالمعنى الذي يعبر عنه اسم هذه الإمبراطورية، والذي يشير إلى ارتباط إيطاليا وألمانيا تحت سيادة حاكم واحد يسيطر على شئونهما معًا.

وقد لجأ أوتو الأول بحكم اتجاهه نحو الاعتماد على الكنيسة ورجالها إلى التوسع في منح الأساقفة ومقدمي الأديرة الإقطاعات الكبيرة، كما نصب نفسه حاميًا للكنيسة وأملاكها، وسرعان ما أصبح كبار رجال الدين في ألمانيا على درجة واسعة من النفوذ والسلطان، كما أخذوا يباشرن سلطات واسعة في النواحي القضائية والمالية والإدراية، على أنه يلاحظ أن الكنيسة دفعت الثمن غاليًا، لأن تحول الأساقفة إلى أمراء إقطاعيين يتمتعون بسلطات علمانية واسعة، جعلهم خاضعين للملك خضوعًا مباشرًا، كما جعل تقليدهم مهام مناصبهم الدينية من حق الملك وحده، وهكذا أخذ أوتو الأول يتحكم في تعيين الأساقفة وعزلهم، مما أضرّ ببناء الكنيسة ونظامها أبلغ الضرر.

وكان أوتو يرغب التدخل في شئون إيطاليا للسيطرة على البابوية، ولم تلبث الظروف نفسها أن هيأت له فرصة مواتية لتحقيق ها الغرض، وذلك عندما توفي لوثر ملك إيطاليا، وفرت أرملته إلى ملك ألمانيا طالبة مساعدتها ضد ملك

إيطاليا الجديد، لذلك أسرع أوتو الأول إلى غزو لمبارديا سنة ٩٥١.. حتى تزوج من الأرملة الحسناء، وأجبر ملك إيطاليا على الاعتراف بالتبعية له. وجاء هذا التوفيق الذي صادفه في إيطالية بمثابة نصر ثالث له، بعد أن أجبر ملك آرل على الاعتراف بالتبعية له سنة ٩٤٦، وبعد أن هزم التشيك في بوهيميا سنة ٩٥٠ وأجبر ملكهم على الاعتراف بسيادة ملك ألمانيا، وبذلك مد أوتو الأول نفوذه حتى الرون غربًا وإيطاليا جنوبًا، على أن الثورة لم تلبث أن تجددت في إيطاليا سنة ٩٥٣ بسبب كراهية الإيطاليين لسيطرة حكام ألمانيا، وعندئذٍ لم يستطع أوتو الذهاب لإخمادها بسبب كثرة مشاغله الداخلية والخارجية.

وفي هذه الأثناء غزا الهنغاريون ألمانيا وأوغلوا بعيدًا في بافاريا، ولكن أوتو العظيم أنزل بهم هزيمة ساحقة في موقعة ليخفيلد Lechfeld سنة ٩٥٥ مما جعلهم لا يجرءون على غزو ألمانيا مرة أخرى. وأخيرًا عبر أوتو جبال الألب إلى إيطاليا، ودخل روما سنة ٩٦٢ حيث توَّجه البابا حنا الثاني عشر إمبراطورًا في فبراير من العام نفسه، وفي المكان ذاته الذي توج فيه شارلمان إمبراطورًا من قبل. ومن الواضح أن تتويج أوتو الأول إمبراطورًا بيد البابا، واستمرار تدخل الملوك الألمان في شئون إيطاليا، إنما يعني مواصلة هؤلاء الملوك جهودهم في سبيل بسط سيطرتهم على جانبي الألب.

وهنا ينبغي أن نشير إلى أن أوتو العظيم شهد عهده نهضة فكرية كبرى، وأن الإحياء الديني في ذلك العصر جاء مصحوبًا بإحياء ثقافي، حتى غدا القصر الملكي في ألمانيا مركزًا للنشاط الفكري، وظهر من الأدباء كثيرون كتبوا في مختلف ألوان الشعر والنثر باللاتينية. وأخيرًا توفي أوتو الأول فجأة في ربيع سنة ٩٧٣.

وقد اختلف **أوتو الثاني** الذي اعتلى عرش الإمبراطورية سنة ٩٧٣ اختلافًا كبيرًا في اتجاهه وآرائه عن أبيه أوتو الأول، فبينما التزم الأب سياسة في صالح ألمانيا، إذا بالابن ينتهج سياسة أوسع أفقًا، امتدت إلى خارج حدود ألمانيا بكثير، فإيطاليا كانت لا تقل أهمية في نظر أوتو الثاني عن ألمانيا، ولذلك أخذ يعمل على الربط بين البلدين برباط الإمبراطورية القوي، وفي الوقت نفسه آمن إيمانًا قويًا بفكرة الإمبراطورية العالمية، وبأن سيطرة الإمبراطورية على العالم يجب أن تصبح حقيقة ملموسة في كل مكان.

وعندما توفي أوتو الثاني تولى العرش من بعده **أوتو الثالث** (٩٨٣-١٠٠٤). وتوفي أوتو الثالث دون أن يترك ولدًا يرثه في العرش، فانتقل الحكم

من السلالة المباشرة لأوتو العظيم إلى فرع آخر من البيت السكسوني نفسه، وعندما تولى العرش **هنري الثاني** دوق بافاريا.. بطريقة سلمية. وبوفاة هنري الثاني انتهى البيت السكسوني الذي حكم ألمانيا مدة تزيد على قرن من الزمان، استطاع فيها أن يجنبها الفوضى الشاملة التي ترديت فيها دول أخرى في المنطقة.

وفي سنة ١٠٢٤ انتخب **كونراد الثاني** دوق سوابيا ملكًا، على الرغم من معارضة أهالي اللورين، واستمر في الحكم حتى توفي فجأة سنة ١٠٣٨، فخلفه ابنه **هنري الثالث** (١٠٣٩-١٠٥٦). وقد أدت سيطرة الإمبراطورية على الكنيسة ورجالها من جهة، ومحاولة الكنيسة التحرر من هذه السيطرة من جهة أخرى، إلى نزاع حاد بين الإمبراطورية والبابوية، ظهر أول فصوله على مسرح العصور الوسطى بعد وفاة الإمبراطور هنري الثالث سنة ١٠٥٦.

تدهور الملكية الألمانية :

إن الملكية الألمانية بدأت تتدهور فعلاً منذ القرن الحادي عشر، على الرغم من الجهود الإحيائية التي قام بها الأباطرة العظام من أسرة هوهنشتاوفن مثل فردريك بربروسا، وهنري السادس، وفردريك الثاني، وبسقوط أسرة هوهنشتاوفن انحدرت الإمبراطورية والملكية الألمانية، فسادت الفوضى والمنازعات ألمانيا أثناء فترة الشغور (١٢٥٠-١٢٧٢). وبعد انتهاء هذه الفترة تم انتخاب **رودلف- كونت هابسبورج**- ملكًا، فتم تتويجه في أكتوبر سنة ١٢٧٣، وبذلك قامت أسرة هابسبورج- لأول مرة- في حكم ألمانيا.

على أن ثمة عامل أسهم في إضعاف الإمبراطورية الألمانية، هو أنها ظلت انتخابية بوجه عام في تقاليدها وفكرتها، وبذلك حُرمت الملكية الألمانية من مميزات التقليد الوراثي الذي استغله ملوك إنجلترا وفرنسا المعاصرين في التمكين لأنفسهم، ودعم سلطاتهم المركزية. حقيقة أن الحياة دبت في الملكية الألمانية من جديد عقب انتهاء فترة الثغور، ولكن بقاء هذه الملكية لا وراثية (انتخابية) حرمها من أية فرصة جديدة لفرض نفوذ السلطة المركزية على الأمراء المحليين، وهكذا ظلت ألمانيا بعد سنة ١٢٧٢ عبارة عن مجموعة من الدويلات الصغيرة، مع بقاء إمبراطور أو ملك على رأس الدولة يتمتع بسلطة اسمية، حتى سميت الفترة بين سنتي ١٢٧٢، ١٥١٩ في التاريخ الألماني باسم: «عصر الأمراء».

الفصل الثالث
إنـجلترا بعد الغزو النورماني

إن تاريخ إنجلترا- في العصور الوسطى- عـامر بالأحـداث، ملـيء بالأسماء، فقد تعاقب كثيرون على العرش الإنجليـزي، ولكـل مـنهم أعمالـه وسياساته، التي تتفق حينًا، وتختلف أحيانًا، وليس من الصواب، في مثـل هـذا البحث تتبع الأحداث كلها، أو ذكر الملوك جميعًا، وإنما قـد يكـون الأصـوب الاكتفاء بتقديم الخطوط العريضة في هذا المجال.

فإن الفتح النورماني لإنجلترا سنة ١٠٦٦ كان أخطر من مجرد غـزوة حربية قام بها فريق من المغامرين للسيطرة على البلاد وإدخالها تحت حكمهـم. حقيقة أن غالبية هؤلاء المغامرين الذين نجحوا في فـتح إنجلتـرا وفـدوا مـن نورمانديا، ولكنهم جروا في ركابهم عددًا كبيرًا من الناطقين باللاتينية، وهـؤلاء شاركوا في عملية الفتح، هذا إلى أن النورمان أنفسهم الذين غزوا إنجلتـرا فـي القرن الحادي عشر، كانوا قد أصبحوا فعلاً- قبل ذلك الغزو- جزءًا من الأمـة الفرنسية الناشئة بعد أن استقروا في نورمنديا، وتأثروا بعوامل البيئـة الجديـدة وحضارتها، حتى صار الغزو النورماني لإنجلترا في حقيقتـه غـزوًا فرنـسيا حضاريًا. ولا عجب فقد زود هذا الغزو إنجلترا بأسرة حاكمة فرنسية، وهيئة من النبلاء وكبار رجال الدين الفرنسيين، وطبقة من الناطقين بالفرنسية باشرت شئون الحكم والنشاط التجاري.

ولـيم الـفاتـح :

كان أول الملوك في هذه الحقبة هو وليم الفاتح، وقد حكم إنجلترا حكمًـا استبدادًا مطلقًا بكل معاني الكلمة. والواقع أن أولى المهام التي واجهتـه كانـت العمل على توطيد نفوذه ودعم سلطان الملكية دعمًا قويًا، ولتحقيق ذلك أخـضع الثورات والفتن التي نشبت ضده، كما قام بإحصاء شامل لثروة البلاد وتوزيعها، وعدد الأفراد وممتلكاتهم. وقد مكن هذا الإحصاء وليم الفاتح من الوقوف علـى أحوال بلاده بدرجة لم تتح لملك آخر من ملوك أوربا العصور الوسطى. وأعلن نفسه المالك لجميع أراضي البلاد بحق الفتح.

وكان لملوك إنجلترا- قبل الفتح النورماني- مجلـس استـشاري يـضم بعض رجال الدين والنبلاء، ولكن هذا المجلس كان مفككًا فاستبدل به وليم الفاتح مجلس الملك الذي تألف من كبار الأمراء، وجعل اختصاصه قضائيًا زيادة على

بعض الأعمال الأخرى. ولما كان هذا المجلس الكبير يجتمع عادةً في فترات متقطعة متباعدة، فإن الملك أنشأ هيئة أخرى أصغرٍ تجتمع بصفة مستمرة منتظمة، كما عين على رأس الجهاز القضائي موظفًا دائمًا.

ثم تعاقب على الملك وليم الثاني (١٠٨٧-١١٠٠)، وهنري الأول (١١٠٠-١١٣٥)، ثم **هنري الثاني** (١١٥٤-١١٨٩) وامتاز هذا الملك الجديد بالذكاء والطموح وقوة العزيمة، فنشر الأمن في إنجلترا، ومنع الأمراء من شحن حصونهم بالمقاتلين دون إذنه، وأدخل بعض الإصلاحات المالية والقضائية، فكان اثنا عشر رجلاً يقسمونٍ مشتركين على التصريح بما يعرفونه عن الجرائم المالية، مما يعتبر أصلاً لنظام المحلفين الذي اشتهر به القضاء الإنجليزي.

ريتشارد الأول (قلب الأسد) :

ثم كان أن خلف ريتشارد الأول أباه في الحكم (١١٨٩-١١٩٩)، وعُرف هذا الملك الجديد بشجاعته وحبه لأعمال البطولة والقتال، مع اتصافه بالعنف والقسوة، وفي خلال السنوات العشر التي تولى فيها الحكم لم يقض في إنجلترا أكثر من سنة، إذ تردد عليها مرتين قضى في كل مرة بضعة أشهر لجمع الأموال، ذلك أنه بعد الاحتفال بتتويجه الذي كان مصحوبًا بسفك دماء اليهود القادمين لتقديم الهدايا له، أبحر ريتشارد إلى الأراضي المقدسة ليشترك في الحملة الصليبية الثالثة، على أن سوء النوايا لم يلبث أن استحكم بين ريتشارد وفيليب أوغسطس في الأراضي المقدسة، فعاد الأخير إلى فرنسا، وعاد الأول- بعد ذلك- إلى إنجلترا ليجمع الأموال ويستعد لمنازلة ملك فرنسا، وعندما أكمل ريتشارد استعداداته أبحر إلى فرنسا حيث حارب ببطولة لإنقاذ ممتلكات التاج الإنجليزي في فرنسا، حتى انتهى الأمر بإصابته بجرح خطير في ليموسان، ووفاته متأثرًا بجراحه سنة ١١٩٩.

الملك حنا والعهد الأعظم (Magna Carta):

خلف ريتشارد أخوه حنا (١١٩٩-١٢١٩) الذي استطاع غريمه فيليب أوغسطس سلب معظم أملاكه في فرنسا سنة ١٢٠٤. بعد ذلك انضم حنا إلى الحلف الكبير الذي ألّفه الإمبراطور الألماني أوتو الرابع وكونت فلاندر ضد فيليب أوغسطس ملك فرنسا، وعندما رفض أمراء إنجلترا مساعدة ملكهم في حربه الجديدة، أبحر هو إلى فلاندر على رأس طائفة من الجند المأجورين، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى بلاده بعد أن أنزل فيليب أوغسطس الهزيمة بجيوش الحلفاء

في موقعة بوفان سنة ١٢١٤. وكان استياء البارونات الإنجليز قد بلغ أشده عندئذٍ، ولاسيما عندما طالب حنا بفرض ضريبة جديدة تساعده على استئناف الحرب ضد فرنسا، لذلك تكتل الأمراء وقدموا قائمة بمطالبهم إلى الملك حنا.. الذي أخذ يماطل في أول المر، حتى استبان عجزه عن إغراء رجال الكنيسة أو أهالي لندن لمساعدته، وعندئذٍ احتل البارونات لندن واضطروا الملك حنا إلى الموافقة على العهد الأعظم ودمغه بالخاتم الملكي في ١٥ يونيه سنة ١٢١٥.

والواقع أن العهد الأعظم هذا لا يعتبر وثيقة جديدة في موضوعها تحقق الحرية للشعب، كما يبدو لأول وهلة، أو كما قد يتبادر إلى الذهن، وحسبنا أن العهد الأعظم لم يتعرض لذكر أهل الريف الذين ألفوا ثلاثة أرباع سكان إنجلترا في ذلك الوقت، وربما كان أقرب إلى الصواب أن نعتبر العهد الأعظم وثيقة إقطاعية.. تتجه في جوهرها نحو تنظيم العلاقة بين الملك وكبار الأمراء الإقطاعيين، ذلك أن العهد أورد حقوق الأمراء القديمة مفصلة، كما نص على احترام حقوق الكنيسة ولا سيما فيما يتعلق بانتخاب القساوسة، وحرم عل الملك جمع إتاوات دون موافقة المجلس الكبير، باستثناء عدة حالات مثل أسر الملك، أو الاحتفال بتدشين أكبر أبنائه، أو زواج كبرى بناته، أما لندن وغيرها من المدن فقد ضمن لها العهد الأعظم حقوقها وامتيازاتها القديمة، كما سمح للتجار بدخول البلاد ومباشرة نشاطهم دون أن يتعرضوا لشيء من الإزعاج والمضايقات. وفي حالة استيلاء الدولة على بعض الممتلكات للصالح العام، فإن أصحابها يجب أن يُعوضوا تعويضًا كافيًا. أما في الناحية القضائية فقد نص العهد الأعظم على عدم الاكتفاء بالشبهات والأقاويل لإلصاق تهمة بشخص معين، وإنما يتحتم أن يأتي الشهود بأدلة دامغة على هذه التهمة، كذلك نص على أن تتناسب العقوبة مع الجريمة، مع إبطال بعض العقوبات الوحشية.

على أن أهم مادتين في العهد الأعظم هما المادتان التاسعة والثلاثون والأربعون، فالمادة التاسعة والثلاثون تنص على أنه لا يجوز القبض على أي شخص حر أو سجنه أو سلبه ممتلكاته أو حرمانه من حماية القانون أو نفيه أو إيذائه بأي وجه من الوجوه إلا بعد محاكمته أمام محكمة من أنداده وفق أحكام القوانين المعمول بها. وأما المادة الأربعون فيتعهد فيها الملك بألا يبيع حقًا لأحد الأفراد أو ينكره أو يماطل فيه. وربما كان أهم من هذا كله ما يُفهم ضمنًا من العهد الأعظم من أن الملك خاضع للقانون، وأن القانون فوق الملك الذي لا يملك حق الخروج عليه، فإذا حاول الملك الخروج على القانون وجب استعمال القوة

لإخضاعه. والواقع أنه على الرغم من عدم استطاعة البارونات استخدام القانون ضد الملك، وعلى الرغم من أن نظرية (القانون فوق الملك) كثيرًا ما تتوسيت، إلا أنها ظلت دائمًا تمثل ركنا مهمًا في الدستور البريطاني، كما ظل العهد الأعظم يذكر ملوك إنجلترا على الدوام بأن ملكيتهم مقيدة.

خلفاء الملك حنا :

توفي الملك حنا سنة ١٢١٦، أي في العام التالي لصدور العهد الأعظم، وخلفه ابنه **هنري الثالث** (١٢١٦-١٢٧٢)، والخطوط العريضة للسياسة الإنجليزية في هذه الفترة تتلخص في أمرين: في السياسة الخارجي قيام حروب بين إنجلترا وفرنسا استمرت مائة عام دون أن تسفر عن غالب أو مغلوب، وفي السياسة الداخلية تعزيز الديمقراطية وزيادة حقوق واختصاصات المجلس النيابي تدريجيًا.. وعلى الدوام.

فإنه عندما اشتدت حاجة هنري الثالث إلى المال، لم يجد مفرًا من الالتجاء إلى البرلمان- وهو الاسم الذي بدأ يُطلق على المجلس الكبير- طالبًا منه المعونة. ولم يلبث أن اضطر هنري الثالث إلى أن يحني الرس أمام البرلمان، فوافق على طرد جميع الأجانب الدخلاء على المملكة، وأن يتولى شئون الحكم جماعة من البارونات، على أن يكونوا بمثابة وزراء مسئولين أمام البرلمان، وهكذا نهض البارونات بحكم البلاد فترة من الزمن تحت زعامة كبيرهم سيمون دي مونتفوت، فعُقدت معاهدة مع فرنسا لإنهاء حالة الحرب بين الدولتين سنة ١٢٥٩، كما تم وضع حد لكثير من المفاسد.

وعندما تجددت الفتن والخلافات مرة أخرى، استطاع سيمون أن يهزم القوات التي التفت حول الملك، حتى تم عقد البرلمان الشهير سنة ١٢٦٥.. وهو الذي مُثلت فيه المدن لأول مرة، عن طريق اشتراك ممثلين عن كل مدينة، مما أعطى هذا البرلمان طابعًا شعبيًا قويًا، وجعل سيمون هذا صاحب الفضل الأول في نشأة فكرة مجلس العموم.

ومات هنري الثالث سنة ١٢٧٢ في الوقت الذي كان ابنه الأمير إدوارد متغيبًا في حملة صليبية.

تولى **إدوارد الأول** الحكم (١٢٧٢-١٣٠٧) وهو في السابعة والثلاثين من عمره، فكان رجلاً ناضجًا واسع التجربة، على قسط وافر من التعليم؛ يجمع بين القوة وحب العدالة والرغبة في الإصلاح. وكان أكبر نجاح أحرزه هو ضم

إمارة ويلز إلى التاج البريطاني، وفي سنة ١٣٠١ أضفى إدوارد الأول على أكبر أبنائه لقب أمير ويلز، وهو اللقب الذي لازم ولي العهد في إنجلترا منذ ذلك الوقت. وفي عهده تم غزو اسكتلنده، وأقام إدوارد حكومة موالية له، ولكن هذا الإجراء قوبل باستنكار من جانب شعب اسكتلنده، فقام بثورة ضده، وتوفي إدوارد سنة ١٣٠٧ وهو يستعد لإخماد الثورة.

وعمل إدوارد خلال فترة حكمه على الحد من نفوذ وأملاك الكنيسة. ثم لاحظ إدوارد ازدياد نفوذ اليهود وسيطرتهم على الحياة الاقتصادية في إنجلترا، فاستغل كراهية الناس لليهود، نتيجة لموقفهم العنيد من المسيحية والمسيحيين، وأسلوبهم الاستغلالي المقيت، وبدأ يضطهدهم، ففرض عليهم زيًا خاصًا الغرض منه تحقيرهم، ثم عاد فطردهم من بلاده سنة ١٢٩٠، ومنذ ذلك الوقت حتى عهد كرمويل لم يستطع اليهود دخول إنجلترا.

وقد دعا إدوارد الأول البرلمان إلى الانعقاد سنة ١٢٩٥ لحاجته إلى المال، وامتاز البرلمان الذي عُقد في تلك السنة بأنه ضم جميع العناصر التي صار يتألف منها البرلمان الإنجليزي فيما بعد، من نبلاء وأساقفة ورؤساء أديرة، فضلاً عن اثنين من فرسان كل مقاطعة، وممثلين يمثلون أهالي المدن وغيرهم، حتى أُطلق عليه في التاريخ: البرلمان النموذجي Model Parliament، وفي ها الاجتماع انضم الفرسان إلى البرجوازيين وممثلي المدن ليؤلفوا مجلس العموم، في حين انضم النبلاء إلى الأساقفة ليتكون منهم مجلس اللوردات. وكان أن أخذ النبلاء يضغطون على الملك لتحديد سلطاته، فطلبوا منه سنة ١٢٩٧ تأكيدًا للعهود التي تحرم الملك من حق جمع الأموال دون موافقتهم.

ثم تولى عرش إنجلترا **إدوارد الثاني** (١٣٠٧-١٣٢٧) الذي كان ضعيفًا فاسدًا، مما أوقع البلاد في فوضى كبيرة انتهت بأن عزله البرلمان وأعدمه سرًا سنة ١٣٢٧. وتعاقب على حكم إنجلترا ملوك ليست لهم أعمال بارزة. إلا أنه **في عهد ريتشارد الثاني** نشبت **الثورة العظمى** سنة ١٣٨١ التي اشترك فيها العمال والفلاحون احتجاجًا على التطرف في جمع الضرائب منهم، وقد زحفوا على لندن حيث استقبلهم الملك ووعدهم برفع المظالم التي شكوا منها.

الفصل الرابع
أسبانيا بين المسلمين والمسيحيين

الأندلس بعد الفتح الإسلامي:

يمكن القول بأن أحوال الأندلس بعد الفتح الإسلامي لم تستقر وتنتظم إلا في **عهد عبد الرحمن الثالث** (٩١٢-٩٦١)، ذلك أن عبد الرحمن الناصر استغل الظروف المواتية من جهة، وكفايته الشخصية من جهة أخرى في إخضاع المدن والمنشقين عليه والخارجين على نفوذه، فدانت له أشبيلية، أما طليطلة فقد اضطرت إلى الاستسلام سنة ٩٣٠ بعد حصار طويل.

ومهما يكن من أمر فإن الخليفة عبد الرحمن الناصر يعتبر آخر عظماء بني أمية في الأندلس. وقد خلفه في الحكم ابنه **الحكم الثاني الملقب بالمستنصر بالله** (٩٦١-٩٧٦) الذي استأنف سياسة أبيه، مع تركيز الجزء الأكبر من نشاطه في جمع الكتب وتجليدها وحفظها. وعندما توفي الحكم المستنصر سنة ٩٧٦ خلفه ابنه هشام، وكان طفلاً في العاشرة، فقام بالوصاية عليه أحد اليمانية ويدعى **ابن أبي عامر**.. الذي أصبح فيما بعد صاحب الكلمة العليا في قرطبة، وسرعان ما أظهر كفاية في الحكم، فصد هجمات الدويلات المسيحية في شمال أسبانيا، وبعد أن أنزل ابن أبي عامر الهزيمة بقوات التحالف الثلاثي الذي ألّفه ملوك ليون، وقشتالة، ونافارى، لقب نفسه **المنصور بالله**.

ويلاحظ أنه على الرغم من نجاح المنصور، إلا أن سياسته عادت بأوخم العواقب على الحياة الاقتصادية في أسبانيا الإسلامية، ذلك أن تقويته للجيش واعتماده على عناصر البربر والصقالبة سرعان ما أدت إلى سلسلة من الفتن والاضطرابات والحروب الأهلية في جوف الدولة، وفي تلك المدة تعاقب على عرش الخلافة عدة خلفاء، ولكنهم كانوا جميعًا أشبه بالدمى في أيدي القرطبيين أو الصقالبة أو البربر، وظل الأمر كذلك حتى سنة ١٠٢٧، عندما تولى منصب الخلافة هشام الثالث الملقب بالمعتد (أو المعتمد)، وتعتبر الثورة التي أحاطت بهذا الخليفة الأخير سنة ١٠٣١ نهاية للخلافة الأموية في الأندلس، إذ تفككت دولة المسلمين في أسبانيا بعد ذلك، وانقسمت إلى عدد من الوحدات والإمارات، بحيث لم تقم لهم وحدة سياسية تربطهم وتجعل منهم دولة واحدة متماسكة.

على أن نقطة الضعف الأساسية في دولة المسلمين بالأندلس هي أن هذه الدولة ضمت عناصر متباينة من ناحية الجنس والأصل، وظل أفراد كل عنصر متكتلين متعصبين لجنسهم، فكان منهم العرب، ومنهم البربر المهاجرون من

شمال أفريقيا، الذين نظروا إلى العرب في الأندلس نظرة الحقد والكراهية، أما فئة الصقالبة فكانت تشمل عددًا كبيرًا من جموع الأسرى والرقيق الذين يرجع أصلهم إلى مختلف العناصر الأوربية، ولم تلبث أن ازدادت أعداد الصقالبة في الأندلس حتى بلغوا أكثر من ثلاثة عشر ألفًا في قرطبة عند نهاية عهد عبد الرحمن الناصر.

وفيما عدا هؤلاء فقد وُجد بدولة الأندلس الإسلامية عدد كبير من أهالي البلاد الأصليين الذين احتفظوا بديانتهم المسيحية، مع تأثرهم بلغة العرب وعلومهم وعاداتهم، حتى أُطلق عليهم اسم: المستعربين، وقد عاملهم المسلمون بلطف وتسامح، مما أدى بنسبة كبيرة من المستعربين إلى اعتناق الإسلام، في حين اعترف الذين ظلوا على مسيحيتهم بأنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الفرنج أو القوط (الذين كانوا يحكمون أسبانيا قبل الفتح العربي).

أما اليهود فكانوا أول فريق من سكان أسبانيا رحب بالفتح الإسلامي بعدما لقوه من عسف واضطهاد في عهد القوط الغربيين، وسرعان ما وجد يهود أسبانيا في الحكم العربي نوعًا من التسامح والحرية لم ينعموا بها منذ أمد بعيد، فانصرفوا إلى مباشرة نشاطهم الاقتصادي والعلمي في سكينة واطمئنان.

والواقع أن الرُقي الحضاري الذي بلغته اسبانيا في ظل الحكم الإسلامي يعتبر أبرز ظاهرة في تاريخها طوال العصور الوسطى، وقد سبق أن تناولنا هذا الجانب بالشرح في حديثنا تحت عنوان: «حضارة الأندلس وحقوق الإنسان». وإذا كنا قد ركزنا في حديثنا وقتذاك عن التعليم والقضاء والفلسفة، فإنا نضيف إلى ما سبق جانب العلوم والزراعة والصناعة، فقد كان مسجد قرطبة بمثابة جامعة علمية ضخمة من الطراز الأول، تدرس فيها جميع أنواع المعرفة من علوم دينية إلى الأدب شعرًا ونثرًا، إلى علوم بحتة كالطب والفلك والجغرافيا والطبيعة والكيمياء والفلسفة. وقد اشتهر من علماء الفقه واللغة في جامع قرطبة أبو علي القالي، وأبو بكر ابن معاوية القرشي، وابن القوطية. ومن علماء الطب والجراحة خلف بن عباس الزهراوي، وأبو مروان بن زهر، والحفيد أبو بكر بن زهد، ومن علماء النبات ابن البيطار.

وقد عرفت أسبانيا في ظل الحكم الإسلامي الحقول الزراعية المثمرة، وانتشرت فيها أشجار التين والزيتون والنخيل، في حين أُدخلت زراعة قصب السكر والأرز في الأجزاء الشرقية، والقطن والكتان في الأقاليم المحيطة بأشبيلية، والتوت وصناعة الحرير في الجنوب، وقد صحب هذا النشاط الزراعي

في الأندلس اهتمامًا كبيرًا بالري ووسائله. أما المدن فقد صارت مراكز لنشاط تجاري وصناعي واسع، إذ كان يتم فيها تصنيع وبيع وشراء الجزء الأكبر من المحاصيل الزراعية، وكانت أهم المصنوعات صناعة المعادن والخزف والزجاج، والمنسوجات القطنية والكتانية والحريرية، وقد اشتهرت قرطبة بصناعة الخزف والفخار، كما اشتهرت بالجلود التي نسبت إليها، في حين عُرفت طليطلة بالسيوف والأسلحة.

التوسع المسيحي في الأندلس :

ظلت القوى المسيحية في غرب أوربا تعمل من وقت مبكر على استرداد هذا الجزء من الوطن المسيحي. ولكن يبدو أن استقرار المسلمين في الأندلس وازدياد قوتهم من جهة، واضطراب أحوال أوربا بعد شارلمان من جهة أخرى، حال دون قيام العالم المسيحي الغربي بجهد جدي شامل ضد المسلمين في الأندلس في القرنين التاسع والعاشر، بحيث لم يتعد الأمر بعض الاشتباكات بين المسلمين في الأندلس والممالك المسيحية في شمال أسبانيا. ثم كان أن أخذت عوامل الضعف تسري حثيثًا في جسم خلافة قرطبة من أوائل القرن الحادي عشر، حتى أن وفاة الملك المنصور سنة ١٠٠٢ تعتبر نهاية المرحلة التي وصلت فيها تلك الخلافة أقصى درجات عظمتها وقوتها؛ بحيث لم تنته سنة ١٠٣١ إلا كانت الخلافة الأموية في الأندلس قد سقطت فعلاً.

وقد ظهر في أوربا اتجاه يرمي إلى حث نبلاء فرنسا على محاربة المسلمين في الأندلس منذ أوائل القرن الحادي عشر، وفي ذلك الوقت كانت الكنيسة تسعى جاهدة لوقف الحروب في أوربا بين الأمراء وإقرار السلام، فلم تجد وسيلة خير من أن توجههم نحو محاربة المسلمين. وكان أن صادفت هذه الدعوة قبولاً في نفوس كثير من الأمراء المغامرين، فنزح بعضهم إلى أسبانيا سنة ١٠١٨، وتوجهت جماعات أخرى في سنوات ١٠٣٣، ١٠٦٣، ١٠٧٣ حتى كانت سنة ١٠٨٥، وهي السنة التي شهدت وصول قوة ضخمة إلى أسبانيا بزعامة بعض الأمراء البرجنديين.. وكونت تولوز.

وفي الوقت الذي سقطت فيه الخلافة الأموية في قرطبة، كانت هناك أربع دويلات مسيحية في شمال أسبانيا، هي مملكة ليون ومملكة نافارى (نواره) وكونتية برشلونة، وكونتية قشتالة. وكانت الزعامة آنذاك لمملكة نافارى، ثم ظهرت مملكة أرغونة، ولم يلبث فردناند الأول ملك قشتالة أن ضم إليه مملكة ليون القديمة. وقد استمر ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة في توسعه حتى

سقطت طليطلة نفسها في يده سنة ١٠٨٥، وبذلك خسر المسلمون معقلاً من أعظم معاقلهم في الأندلس، مما كان له دوي هائل في جميع أنحاء العالم المسيحي، وما أثار شعور المسلمين الذين هزتهم الصدمة، وانتابتهم بسببها المخاوف، ورأى ملوك الطوائف المسلمون الاستعانة بالمرابطين في شمال أفريقية، وهم أقرب قوة إسلامية يمكنها نجدتهم. فاستجاب **يوسف ابن تاشفين ملك المرابطين** للصرخة، وعبر مضيق جبل طارق سنة ١٠٨٦ على رأس عدد ضخم من رجاله البربر الأشداء الذين اجتاحوا الندلس، والتقى مع القوات المسيحية بقيادة ألفونس السادس في **موقعة الزلاقة** (في أكتوبر ١٠٨٦) فنزلت هزيمة ساحقة بالمسيحيين، وفر ألفونس السادس في شرذمة قليلة من جنده، تاركًا خلفه بضعة آلاف من القتلى والأسرى. ولكن لم تلبث أن أتيحت الفرصة من جديد لألفونس السادس، وذلك بعد عودة يوسف بن تاشفين إلى شمال أفريقية من جهة، وتجدد الخلاف بين المسلمين في الأندلس من جهة أخرى. وأخيرًا توفي يوسف ابن تاشفين سنة ١١٠٦، ولحق به ألفونس السادس سنة ١١٠٨.

ولم تلبث أن عصفت الأحوال بشمال أفريقية عندما ثارت قبائل أطلس (١١٢١-١١٢٥) **لتقضي على دولة المرابطين وتقيم محلها دولة الموحدين**، وبعد أن تمت للموحدين السيادة على شمال أفريقيا، فكروا في ضم الأندلس بوصفهم ورثة المرابطين في ملكهم، فعبروا إلى أسبانيا سنة ١١٤٦، واستولوا على أشبيلية ومالقة ثم على قرطبة بعد أربع سنوات، حتى دانت لعبد المؤمن قائد الموحدين معظم بلاد الأندلس الإسلامية.

وفي ذلك الوقت كان المسيحيون قد وجدوا بطلاً جديدًا في شخص ألفونس الأول ملك أرغونة، والذي يعتبر المؤسس الحقيقي لهذه المملكة (١١٠٤-١١٣٤)، وبعد أن استطاع ألفونس الأول أن يسترد لأرغونة عاصمتها الطبيعية- سرقسطة- سنة ١١١٨، أخذ يشن غاراته في جوف بلاد الأندلس الإسلامية، وكان يعود من تلك الغارات مصطحبًا معه كثيرًا من المستعربين ليعيشوا وسط إخوانهم المسيحيين في الشمال. وأخيرًا توفي ألفونس سنة ١١٣٤ بعد أن غدت أرغونة ثانية ممالك أسبانيا المسيحية بعد قشتالة. أما في الجانب الغربي فقد اتحدت عدة كونتيات لتتكون منها جميعًا البرتغال سنة ١٠٥٩. وقد تمكن ألفونس الأول سنة ١١٤٧ من طرد المسلمين من لشبونة التي أصبحت منذ ذلك الحين عاصمة لمملكة البرتغال الناشئة.

وهكذا لم يقتصر ميدان الحروب الصليبية على المشرق والأراضي المقدسة، بل شمل أيضًا المغرب وأسبانيا، فأخذ الصليبيون الوافدون من إنجلترا وألمانيا يساهمون في فتح لشبونة، كما اشترك الصليبيون الفرنسيون في مساعدة كونت برشلونة وبروفانس.

وفي تلك الحرب أظهر **الموحدون** مقاومة عنيفة منذ البداية، حتى أنزلوا هزيمة ساحقة بألفونس التاسع ملك قشتالة في موقعة الأرك سنة ١١٩٥ (٥٩١هـ)، وهي الموقعة التي انتهت بمقتل آلاف المسيحيين، وحصول الموحدين على أعداد من الأسرى وكميات من الغنائم لا حصر لها. ويبدو أن هذه الضربة كان لها أثرها في وقف تقدم المسيحيين.

البابا يعلن الحرب ضد مسلمي الأندلس :

كان البابا أنوسنت الثالث صاحب الفضل في إثارة الحماسة الصليبية في أسبانيا، وتشجيع جماعات عديدة من أهالي البلاد الغربية على عبور جبال البرانس (ألبرت) للمشاركة في الحرب المقدسة ضد المسلمين، وفي ذلك الوقت كان ألفونس التاسع ملك قشتالة يسعى في أواخر عهده لتحقيق بعض الانتصارات الكفيلة بمحو الهزيمة التي حلت به في موقعة الأرك، وقد اجتمع في شمال أسبانيا عدد كبير من فرسان أوربا عند طليطلة، ولم يجدوا أول الأمر ما يفعلونه لإشباع حماستهم الصليبية سوى ذبح يهود المدينة في صورة وحشية. وأخيرًا دارت **موقعة العقاب** الشهيرة سنة ١٢١٢ بين الحلفاء المسيحيين وجيش الموحدين، وفي هذه الموقعة حلّت الهزيمة بالموحدين، فلم تقم لهم قائمة في الأندلس بعد ذلك، وأخذت المدن الإسلامية تتساقط في أيدي المسيحيين واحدة بعد أخرى، بحيث لم يتبق للمسلمين في أسبانيا عند منتصف القرن الثالث عشر سوى **مملكة غرناطة** الصغيرة في الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة. وفي هذه الرقعة الضيقة عاش المسلمون نحو قرنين ونصف من الزمان.

وقد تم فتح قرطبة- عاصمة الأمويين من قبل- سنة ١٢٣٦، وتحويل مسجد قرطبة الجامع إلى كاتدرائية.

عصر فردناند وإيزابيلا :

يعتبر فردناند الكاثوليكي ملك أرغونة، من أهم الملوك المعاصرين، لا لأنه تزوج إيزابيلا ملكة قشتالة، وبذلك تم الربط بين أقوى مملكتين في أسبانيا

فحسب، بل أيضًا للتطورات التي طرأت على أسبانيا في تلك الفترة، ذلك أن هذا العصر يعتبر نقطة تحول مهمة في انتقال أسبانيا من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، لأن توحيد قشتالة وأرغونة إنما يعني مولد أسبانيا في التاريخ الحديث. ولا شك في أن إيزابيلا مسئولة إلى حد بعيد عن ظهور محاكم التفتيش في أسبانيا منذ سنة ١٤٨٣، وهي المحاكم التي تفتش عن غير المسيحيين وتضطهدهم، وتنزل بهم أقصى التعذيب، وتخيرهم بين الدخول في المسيحية أو النزوح ومغادرة البلاد، وفي أثناء ذلك تعرض كثيرون لفقد حياتهم نتيجة همجية وتشدد محاكم التفتيش، وقد بدأت هذه المحاكم في قشتالة ثم امتدت إلى أرغونة حيث صادفت معارضة شديدة من الأهالي، ولكنها ظلت في عملها بفضل إرادة فردناند الخامس القوية. وسرعان ما ظهر أثر سياسة التعصب الديني في خطوتين: الأولى طرد اليهود، والثانية طرد المسلمين من أسبانيا.

ثم بدأ الهجوم على غرناطة آخر معقل للمسلمين سنة ١٤٨١، فأخذت المدن والقلاع الإسلامية تتساقط واحدة بعد الأخرى. وكان استخدام البارود والأسلحة النارية قد أخذ ينتشر حينذاك في أوربا، فاستخدم المسيحيون هذا السلاح الجديد في الاستيلاء على الحصون، بعد معركة اشترك فيها متطوعون من مختلف جنسيات أوربا كالسويسريين، والإنجليز، والألمان، أما مالقة فقد قاومت مقاومة عنيفة بفضل قوة مراس قائدها، حتى نفدت الأقوات في المدينة فاستسلمت للغزاة. وفي سنة ١٤٨٨ جدد فردناند الخامس هجماته على المسلمين، فهاجم بسطة التي استمرت تقاوم الحصار ستة أشهر، أنزلت خلالها كثير من الخسائر بالمهاجمين حتى سقطت أخيرًا سنة ١٤٨٩. وبسقوط بسطة أيقن المسلمون أنه لا فائدة من المقاومة، وأن دولة المسلمين بالأندلس قد دالت. وقد اضطرت غرناطة إلى إلقاء السلاح أخيرًا قرب نهاية سنة ١٤٩١ بعد أن وجدت نفسها وحيدة وسط بحر من المسيحيين، وبعد أن طال انتظارها دون جدوى لوصول النجدة الموعودة من مماليك مصر أو سلاطين العثمانيين.

وقد أعقب سقوط غرناطة موجة من التعذيب الوحشي الذي حلَّ بمن بقي في البلاد من المسلمين، ولم تنته هذه الموجة إلا في القرن السابع عشر.. بعد أن عُذب منهم من عُذب، وشرد منهم من شرد، وقتل من قتل، حتى لقد ثبت أن جملة من نفوا من مسلمي الأندلس في المدة الواقعة بين سقوط غرناطة وأوائل القرن السابع عشر بلغت ثلاثة ملايين نسمة.

الباب الثالث
عصـر النهضة الأوربيـة

تمهـــــــيد :

عصر النهضة يمثل فترة الانتقال من العصور الوسطى إلــى العــصور الحديثة، ويمكن القول بأن بذور النهضة ظهرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، لتبلغ أشدها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ثم تستمر ذيولها في صورة حركات الإصلاح الديني والنزاع المذهبي في القرن السادس عشر، وبعد ذلك ينتهي عصر النهضة لنجد أنفسنا في عصر حديث يختلف في معالمه ومُثله وآفاقه وحضارته المعنوية والفكرية والمادية عما كان عليــه عــالم العــصور الوسطى.

على أن من أهم الفوارق بين العصور الوسطى والحديثة، هــي انتــشار الجهل والجمود في الأولى، واتساع نور المعرفة ونطاق التفكير فــي الأخــرى. فالكنيسة ومؤسساتها ورجالها هم الذين احتكروا العلم والتعلــيم طــوال الــشطر الأكبر من العصور الوسطى في غرب أوربا.. وليس بخافٍ أن الكنيــسة كــان تفرض قيودًا شديدة على حرية الفكر وحرية البحث العلمي، حتى انتهى مــصير كل من حدثته نفسه بشيء من التحرر الفكري إلى اتهامــه بالهرطقــة، وبــئس المصير. فالجمال إثم، والمرح وزر، والحياة عرض زائل، والجهل برهان على الخضوع لله والرضا بأحكامه.. وهكذا حتى جاءت النهضة فسعت لتحرير العقل البشري من هذه المعتقدات لتجعله طليقًا يسبح حرًا في دنيا التأمل والفكر.

والواقع أن الجزء الأخير من العصور الوسطى شهد تغييرات وتطورات على جانب كبير من الأهمية، منها اضمحلال الإمبراطورية والبابوية معًا، ونمو الأمم الفرنسية والإنجليزية والأسبانية، وظهور اللغات القومية، وانهيار النظــام الإقطاعي ونظام الفروسية نتيجة لنمو الصناعة ونشاط التجارة وتحرر المــدن. ولابد أن نضيف إلى هذه التغييرات ما تم في ذلــك العــصر مــن اختراعــات واستكشافات عظيمة، فاستخدام البوصلة والإسطرلاب وما ترتب عليهما من تقدم الملاحة البحرية، أدى إلى الكشف عن طريق الهند البحري والكشف عن العــالم الجديد، مما ساعد على انتشار المعرفة، وإحداث ثورة شاملة في طرق التجــارة في العالم أجمع، هذا بالإضافة إلى استكشاف البارود وما ترتب عليه من ثــورة في نظم الحرب وآلاته، واستكشاف الطباعة، وما أدى إليه مــن انتــشار العلــم

والمعرفة، وأخيرًا جاء سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣ ليدفع كثيرًا من علمائها إلى الفرار نحو الغرب حاملين معهم قسطًا كبيرًا من علوم اليونان وحضارتهم.

وفي بحثنا عن عصر النهضة سوف نركز على بعض الجوانب الهامة وبصفة خاصة عن:

١- عصر النهضة في إيطاليا.

٢- البرتغال وحركة الكشوف.

٣- نشأة المذهب البروتستانتي.

الفصل الأول
عصر النهضة في إيطاليا

الواقع أن إيطاليا تستطيع أن تفخر بأنها الدولة التي شهدت مولد النهضة الأوربية العظيمة وتولت زعامتها، وهي النهضة التي ظهرت جلية في القرن الخامس عشر. ولا عجب، فإن إيطاليا امتلكت عندئذٍ لغة قومية وجوًا معتدلاً وحرية سياسية ورخاءً اقتصاديًا. وفيما يتعلق بالأدب والفنون- بصفة خاصة- فإن إيطاليها لم تشهد حركة إحيائهما فحسب، وإنما تعهدتهما بالرعاية والعناية حتى اكتمل نموهما وازدهرا بين ربوعها، وبعد ذلك أخذت بقية الدول الأوربية تتلقى من إيطاليا أصول النهضة، وتطبق هذه الأصول الجديدة التي نمت في مختلف ميادين المعرفة.

وإذا كانت روما لم تعد حاضرة إمبراطورية ضخمة كما كان الحال في سالف الزمان، فإنها أضحت في العصور الوسطى مركز البابوية وقبلة العالم المسيحي الغربي بأكمله، مما أضفى على إيطاليا مكانة خاصة لم تتوافر لغيرها من الدول الأوربية، هذا بالإضافة إلى أن موقع إيطاليا الجغرافي على جانب عظيم من الأهمية، في عصر كان البحر المتوسط مركزًا للتجارة العالمية، وهكذا أدى النشاط التجاري ووفرة الإنتاج إلى زيادة ثروة المدن الإيطالية الشهيرة مثل البندقية وجنوة وفلورنسا، وهل هناك شك في أن ازدياد ثروة الأفراد والجماعات تؤدي إلى الاعتزاز بالنفس، والرغبة في تنوير الفكر، والتحرر من كافة القيود والأغلال؟!

على أن كل ما كان يهتم به الإيطاليون حينئذٍ هو أن يبقى الكرسي البابوي في روما، وأن تظل إيطاليا مركزًا للكنيسة الغربية، حتى تتدفق عليها الأموال التي يجمعها رجال البابا من مختلف بلاد العالم الغربي، ولم يلبث البابوات أن أخذوا يسابقون الأمراء الإيطاليين في تشجيع الآداب ورعاية الفنون، وهرع الأدباء والفنانون إلى البلاط البابوي طامعين في حسن الجزاء وكرم العطاء. وهكذا وُجد من البابوات مثال نيقولا الخامس (١٤٤٧-١٤٥٥) وليو العاشر (١٥١٣-١٥٢١) من أسهم في بناء النهضة وعمل على تشجيع رجالها.

النهضة الأدبية :

لا ترجع أهمية إحياء الآداب والفنون في ذلك العصر إلى أن هذا الإحياء

أثار موجة من التقدم الفكري قضت على الجهل والخرافات فحسب، بل إن هذا الإحياء جاء خطوة كبرى على طريق تحرير الفرد من قيود العصور الوسطى، وكان **دانتي** (١٢٦٥-١٣٢١) الذي احتل مكانة بارزة عند مدخل النهضة الإيطالية أول رجل عظيم في العصور الوسطى وقف بمفرده، واعتمد على نفسه وعلى مواهبه في الوصول إلى قمة الشهرة، دون أن يرتبط بهيئة دينية أو علمانية، ذلك أن «**الكوميديا الإلهية**» التي وضعها دانتي صبغت أولى اللغات الأوربية الحديثة بطابعها الأدبي، ومن ثم أصبح هذا الإنتاج بالغ الأهمية بالنسبة لإيطاليا.

وبعد دانتي جاء **بترارك** (١٣٠٤-١٣٧٤) الذي أثرت قصائده الغزلية في جميع البلاد الغربية، وقد عاصر بترارك عبقري آخر على جانب كبير من الإلهام وقوة الابتكار هو **بوكاشيو** Boccaccio (١٣١٣-١٣٧٥) الذي حاكى بترارك في ولعه بدراسة آداب القدماء، حتى أنه فعل الكثير من أجل إدخال دراسة اللغة اليونانية في إيطاليا. والحق أن هؤلاء الأعلام الثلاثة: دانتي، وبترارك، وبوكاشيو، هم الذين أعادوا لإيطاليا حريتها الفكرية. وقد أعقب هؤلاء الثلاثة مجموعة من الجامعيين، وهم الذين أخذوا يتنقلون بين مختلف أنحاء أوربا- بل وخارجها- للبحث عن مخطوطات القدماء وجمعها، بفضل ما صادفوه من تشجيع بعض الأمراء والبابوات.

ثم كان أن دخلت الدراسات الكلاسيكية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر في دور جديد- خلاف دور الجمع- هو دور النقد. فبعد أن انتهى المعاصرون من جمع أكبر قدر ممكن من التراث القديم، أخذوا يتفهمون هذا التراث ويدرسونه، ويحاولون تطبيق تعاليم القدماء على الأوضاع والمشاكل التي يعيشون وسطها.

النهضة الفنية :

إذا كانت حركة النهضة قد بدأت بإحياء الدراسات الكلاسيكية على أيدي الإنسانيين الإيطاليين، فإنها استؤنفت بواسطة الفنيين الذين كشفوا النقاب عن جمال الآثار القديمة، وعملوا على محاكاتها في روحها وتعبيراتها. وبعبارة أخرى فإنه إذا كان الإيطاليون أصحاب الفضل الأول في نشأة الأدب الحديث، فإنهم يستطيعون أن يفخروا أيضًا، وعلى مقياس أعظم بأنهم مبتكرو الفن الحديث، وبصفة خاصة فن التصوير، أما في الرسم والزخرفة من ناحية والنحت

من ناحية أخرى، فإن الإيطاليين احتفظوا بشرف إحيائها جميعًا، والنهوض بها إلى مستوى الجمال والكمال، بعد أن أصبح الجمال غاية لا وسيلة، يُقدس ويحترم لأنه شيء جميل، لا لأنه يعبر عن مجرد فكرة دينية.

أما عن **فن التصوير**، فقد كان في العصور الوسطى مقيدًا بقواعد جعلته غير جدير باسم فن، ذلك أن الرسم الذي اقتصر على الأغراض الدينية، صار مفروضًا أن يطابق الروح الدينية في اتجاهاته، بحيث غدت الزخرفة تخضع لتقاليد معينة ثابتة تحدد موضع الرسم وطريقة معالجته، بل ونوع الألوان التي يجب أن يتقيد بها الرسام في رسمه، فإذا تغاضى الرسام عن إحدى هذه القواعد أو أهمل اتباعها في رسمه، اعتبر ذلك خروجًا عن الدين، وهكذا صارت مذابح الكنائس في العصور الوسطى لا تكسوها إلا صور جامدة للقديسين أو لمريم العذراء، مما جعل لها أهمية تقليدية دون أن تتمتع بمستوى فني معين. وكان من أهم مظاهر التطور ازدياد تعلق الناس بالطبيعة وجمالها، وفي تقديرهم لذات الإنسان، ثم في ضعف الأثر الديني في الفن. وتتمثل أهم التطورات الفنية التطبيقية في إدخال التصوير الجصي (Fresco) على الجدران، واستكشاف التلوين بالزيت، واستخدام الألواح النحاسية، وحفر الخشب وطبعه.

وترجع بداية النهضة في فن التصوير إلى القرن الرابع عشر عندما برزت في هذا الفن مدينتان في إيطاليا هما فلورنسا وسينا Siena، وأول رسام فلورنسي عظيم هو **كيمابو** Cimabue الذي عاصره في مدينة سينا الرسام **دوتشيو** Duccio فإننا نلمس في إنتاجهما تناسقًا بين أعضاء الجسم وجمالاً في شكل الوجه، ثم كان أن جاء بعد هذين العالمين مجموعة من الفنانين بلغوا غاية الشهرة، فظهر في فلورنسا **جيوتو** Giotto (١٢٦٦-١٣٣٦) الذي اشتهر في ميادين الرسم والنحت والعمارة، هذا علاوة على تلاميذه من أعلام الرسم والزخرفة.

على أن فلورنسا لم تكن الميدان الوحيد لتلك الثورة الفنية، إذ تجلى هذا التطور بوضوح في غيرها من المدن، وظهر مجموعة من الفنانين مهدَّت الطريق أمام أعلام القرن السادس عشر مثل: **ليوناردو دافينشي، وميخائيل أنجلو، وروفائيل، وأندريا دل سارتو، وتيتيان تنطورتو**، حقيقة أن هؤلاء الفنانين استمروا يسخرون مواهبهم في أغراض دينية، ولكنهم عالجوا هذه الموضوعات في روح إنسانية دنيوية، فجعلوا الرغبة في الكمال الفني هي الأساس، ثم يأتي التعبير الديني على هامشها.

ومع ذلك فإن السمو الفني الذي امتازت به النهضة يبدو في **ميدان النحت** أكثر منه في ميدان التصوير والرسم، وإذا كان الفنانون بوجه عام قد ثاروا في عصر النهضة ضد تقاليد العصور الوسطى وقيودها، وتحرروا من هذه القيود ليخرجوا إنتاجًا أوفر جمالاً وأعظم ابتكارًا، فإن النحاتين بوجه خاص تأثروا إلى حد كبير بالدراسات والنماذج الكلاسيكية، وأول من يصور لنا هذا العهد الجديد في تاريخ النحت هو **نيقولا البيسنو** (Niccola da Pisano). ثم جاء بعده في القرن التالي عدد كبير من النحاتين الذي انتمى معظمهم إلى فلورنسا مثل **لورنزو غيبرتي** (Lorenzo Ghiberti) الذي نحت أبواب كنيسة فلورنسا، وهي الأبواب التي قال عنها ميخائيل أنجلو أنها تستحق أن تكون أبوابًا للجنة. وبعد ذلك تأتي مجموعة من أعلام فن النهضة في النحت، وعلى رأسهم **بنيفنيتو شليني** (Benvenuto Cellini) **وميخائيل أنجيلو** (Michael Angelo).

أما **فن العمارة** فقد شهد هو الآخر تقدمًا مستمرًا في عصر النهضة، وهو تقدم كانت الزعامة فيه لإيطاليا أيضًا.

وتعتبر كاتدرائية فلورنسا بقبتها العظيمة التي قام **فيليبو برونلسكو** (Filippo Brunellesco) بإنشائها أعظم نموذج لمباني الشطر الأول من عصر النهضة، ويمكن أن نتتبع هذا التطور العظيم بعد ذلك في كاتدرائية القديس بطرس بروما التي وضع تصميمها **برامانت** (Bramante)، ثم بعد ذلك في القصور التي شيدها **بلاديو** (Polladio) في فيتشنز وفيرونا، ويمتاز فن العمارة في أواخر عصر النهضة بشدة العناية بالمناظر والتناسق والانسجام.

أما عن الآثار الطيبة لحركة النهضة فأهمها تنوير الفكر وانتشار التعليم، ذلك أن ازدهار المعارف الجديدة وإصلاح الكنيسة أدى في كل بلد إلى إنشاء مدارس وجامعات جديدة، فضلاً عن التقدم بالنظم التعليمية في المعاهد القائمة فعلاً. وبفضل انتشار التعليم تحققت أعظم نتائج النهضة وأكثرها استمرارًا، وهي إيجاد نوع من الوحدة الخلقية والثقافية بين بلدان غرب أوربا. ولاشك في أن هذه الوحدة التي قامت على أساس حرية الفكر والضمير الفردي كانت أقوى أثرًا وأكثر استمرارًا من وحدة قامت في العصور الوسطى تحت ضغط قيود فرضتها الكنيسة لتضمن سيطرتها على الناس داخل دائرة معينة(١).

---

(١) المرجع: كتاب أوربا العصور الوسطى (الجزء الثاني)، تأليف: الدكتور سعيد عاشور، الباب الرابع عشر والأخير.

الفصل الثاني
البرتغال وحركة الكشوف

كانت نشأة البرتغال مرتبطة بطريق النضال ضد المسلمين في شبه جزيرة إيبريا، مثلها مثل بقية دول أسبانيا المسيحية، ولم تلبث الظروف الجغرافية أن شجعت على تقوية النزعة الانفصالية، وساعدت على تكوين شخصية مستقلة لهذه الدولة الوليدة، وإن كان أهلها لا يختلفون من الناحية العنصرية أو اللغوية عن بقية أهل أسبانيا المسيحيين.

وكان لعهد **حنا الأول** (١٣٨٣-١٤٣٣) أهمية كبيرة في التاريخ، لا بسبب جهوده في دعم دولته في الداخل والخارج فحسب، بل أيضًا لأن البرتغال بدأت في ذلك العهد تهتم بكشف سواحل أفريقية الغربية، وهي الحركة التي سرعان ما عادت على البرتغال بالثروة الطائلة والشهرة الواسعة، وكان ثالث أبناء حنا الأول، وهو المشهور باسم **الأمير هنري الملاح** (١٣٩٤-١٤٦٠) مؤمنًا بإمكان الطواف حول أفريقيا، وبأنه من الممكن الوصول إلى الهند عن هذا الطريق، وبالتالي الحصول على الأرباح الطائلة التي تستأثر بها مدن إيطاليا البحرية، لاحتكارها التجارة مع الشرق، ومن المعروف أن الدافع الأساسي للأمير هنري الملاح في جهوده الاستكشافية لم يكن اقتصاديًا بحتًا، وإنما كان دينيًا أيضًا، على أساس أنها تتيح فرصة لتحطيم سيطرة المسلمين على طرق التجارة مع الشرق.

الوصول إلى رأس الرجاء وكلكتا :

حقيقة أن آمال هنري الملاح لم تتحقق في حياته، ولكن يكفي أنها ساعدت بعد وفاته في تحقيق الوصول بحرًا إلى الهند، ويكفيه أنه أمضى أربعين عامًا في إعداد الحملات الاستكشافية وإرسالها إلى شواطئ أفريقيا الغربية، حتى تم كشف بعض الجزر المهمة في المحيط الأطلسي مثل جزيرة ماديرا (سنة١٤٢٠) وجزر كاناري (سنة١٤٣١) وجزر آزور (سنة١٤٤٤) هذا زيادة على بعض المراكز على شاطئ أفريقيا مثل الرأس الأبيض (سنة ١٤٤١) والرأس الأخضر (١٤٤٦).

وقد أثرت وفاة هنري الملاح (سنة ١٤٦٠) في حركة الكشف الجغرافي، ولكنها لم توقف هذه الحركة بعد أن أثبتت التجارب للبرتغاليين **أن أفريقيا تهيئ لهم موردًا غنيًا بالرقيق**، في وقت وجد البرتغاليون في تجارة الرقيق بالذات مصدرًا مهمًا للثروة، حتى أن هنري الملاح يعتبر مؤسس هذه التجارة في

أوربا[١]. وهكذا ازدادت الرحلات البحرية إلى شاطئ أفريقيا، وكلما كثرت الخبرة ازدادت الرحلات طولاً، ولاسيما بعد أن أخذت الرغبة تشتد في العثور على طريق آخر جديد إلى الهند، نتيجة لاتساع نفوذ العثمانيين وسيطرتهم على طريق أعالي الفرات والقسطنطينية من جهة، ولتحكم المماليك في طريق البحر الأحمر ومصر والشام من جهة أخرى. لذلك أخذت مخاوف أوربا تشتد كلما تقدم الوقت بالقرن الخامس عشر، وبات الأوربيون في خطر من منع المحصولات الشرقية عنهم في وقت اشتد فيه حاجتهم إلى هذه المحصولات، وكان أن اشتد التنافس بين مختلف دول أوربا وعناصرها حول استكشاف طريق بحري مباشر يربط أوربا بالهند، حتى حازت البرتغال أخيرًا قصب السبق، ذلك أن بارثلميو دياز استطاع الوصول سنة ١٤٨٦ إلى خليج ألجوا Algoa على الشاطئ الجنوبي الشرقي لأفريقيا بعد أن دار حول الرأس التي أسماها الرأس العاصف، والتي أصر مليكه **حنا الثاني** على تسميتها رأس الرجال الصالح، وبعد هذه الخطوة باثنتي عشر سنة تمكن **فاسكو دي جاما** سنة ١٤٩٨ من إتمام الرحلة من لشبونة إلى كلكتا (بالهند) بمساعدة بعض الملاحين العرب الذين أرشدوه إلى الطريق، ثم عاد إلى لشبونة في سبتمبر سنة ١٤٩٩، وبذلك حققت أوربا غرضها ووصلت إلى الهند عن طريق البحر. ثم كان أن تنازلت البرتغال لقشتالة سنة ١٤٧٩ عن جزيرة كناري مقابل احتفاظها بحقها في جميع الاستكشافات على شواطئ أفريقيا في الماضي والمستقبل.

كريستوفر كولمبس :

وبينما اتجهت البرتغال في حركتها الاستكشافية جنوبًا على امتداد الساحل الأفريقي، اتجهت أسبانيا غربًا في المحيط الأطلسي، وهنا فكر **كريستوفر كولمبس**- وهو أحد الجنوية الذين دخلوا خدمة قشتالة- في الوصول إلى آسيا والهند عن طريق الاتجاه غربًا في المحيط الأطلسي، حتى وصل سنة ١٤٩٢ إلى أرض أصرَّ على تسميتها الهند الغربية، دون أن يعلم أنها جزء من العالم الجديد (أمريكا).

---

(١) اتسعت تجارة الرقيق بعد ذلك، خاصةً بعد أن كانوا يخطفون الشبان الأفريقيين غصبًا وعدوانًا ويرسلونهم كالحيوانات إلى الولايات المتحدة ليعملوا عبيدًا في الحقول والبيوت، ويكونون سلعة تباع وتشترى، وللسيد حق مطلق على عبده في التعذيب وسوء المعاملة يصل إلى حد القتل.

ولعل هذين الكشفين، كشف أمريكا وكشف الطريق البحري إلى الهند، هما أعظم ما تمخض عنه القرن الخامس عشر من أحداث، ذلك أنهما أثارا في وجه العالم القديم مشاكل جديدة، وفتحا أمامه آفاقًا جديدة، أدت جميعها إلى نقلة من طور إلى آخر، وعلى وجه التحديد من طور العصور الوسطى إلى طور العصور الحديثة. على أن هذه الاستكشافات الجغرافية لم تكن العامل الوحيد في هذا التطور، وإنما كانت في الواقع تمثل جانبًا واحدًا مهمًا من جوانب حركة كبرى شاملة نعرفها في التاريخ باسم: حركة النهضة.

الفصل الثالث
نشأة المذهب البروتستانتي

مارتن لوثر :

في ٣١ أكتوبر سنة ١٥١٧ قام أستاذ اللاهوت «مارتن لوثر» بتعليق لائحة من ٩٥ قضية على باب كنيسة قصر «ويتنبرج» بألمانيا، وكانت القضايا موجهة تحديدًا ضد بيع صكوك الغفران. وفي البداية لم تكن لدى لوثر أية نية للانفصال عن كنيسة روما، وكان يريد إصلاحًا دينيًا، ولكن الإدارة البابوية أجبرته على الاختيار عندما وقفت منه موقفًا متشددًا. فقد أنذره المجلس العام في روما بأن يعود عن أقواله عام ١٥١٨، ولكنه رفض ذلك، ثم استدعي للوقوف أمام محكمة البابوية في روما، فرفض ذلك أيضًا.. مستندًا إلى دعم أمير ساكس له. وفي نهاية الأمر تم التحقيق معه في أكتوبر سنة ١٥١٨، وظل النقاش دائرًا طيلة أربعة أيام، بيد أن لوثر ازداد تمسكًا بموقفه، مؤكدًا أن سلطة الكتاب المقدس أعلى من سلطة البابا، ثم لم يلبث أن غادر روما سرًا. وأمام هذا الإصرار من لوثر فصله الباب «ليون العاشر»، وألغى ٤١ اقتراحًا لوثريًا في منشور له، وأثناء إحراق مؤلفاته في بروكسل وكولونيا كانت ردة فعل لوثر في ١١ ديسمبر ١٥٢٠ إحراق المنشور البابوي جهارًا. في غضون ذلك حدد مذهبه في مؤلفين رئيسيين: «في حرية المسيحي» عرض ثلاثة مبادئ اعتبرها إنجيلية (الكهنوت الشامل، وضوح الكتاب المقدس بالنسبة لكل مؤمن، مسئولية جميع المؤمنين عن سلطة الكنيسة) منتقدًا الاعتقاد بوجود المسيح في القربان المقدس، مفتتحًا بذلك نزاعًا حادًا قسّم العالم المسيحي بصورة جذرية. وكان أن ارتسمت ملامح ما يمكن أن تكون عليه الكنيسة الإنجيلية. تقوم على أساس المشاركة الروحية بين الذين يؤمنون بالمسيح، بحيث يتساوون بصورة أساسية فيما بينهم، وبحيث تكون قضايا التنظيم ثانوية.

الانفصال :

في إبريل ١٥٢١ طلب خصوم مارتن لوثر مقاضاته أمام دييت الإمبراطورية، ويذهب مارتن لوثر إلى هناك مزودًا بتصريح أمان، ولما طلب منه التراجع عن مواقفه وأقواله رفض ذلك.. استنادًا إلى الكتاب المقدس وحده، ثم غادر غير مبالٍ بأي شيء. وفي ٢٦ مايو ١٥٢١ نفته الإمبراطورية من أراضيها، وأصبح- منذ ذلك الوقت- لكل امرئ الحق في قتله، فيعمل أمير

ساكس على إخفائه في قصر وارتبورج، وقد أتاح غيابه لأتباعه أخذ مبادرات مهمة. خاصة فيما يتعلق بإلغاء القداس، واستبداله بموعظة يتبعها عشاء سري، وفي هذا الوقت قام لوثر بترجمة التوراة إلى الألمانية. وقد أطلق على أنصار لوثر تسمية المحتجين (بروتستانت- Protestant) ولم يحتفظ بهذا المذهب الجديد سوى باثنين من الأسرار المقدسة: التعميد، وسر القربان المقدس، كما أنه ألغى شفاعة مريم العذراء والقديسين. أما القداس فقد استبدل باحتفال كنسي باللغة الألمانية مصحوبًا بالصلاة والتراتيل والوعظ، يترافق عند الحاجة مع الاحتفال بالعشاء السري المقدس. أخيرًا تم التخلي عن عزوبية الكهنة، وأُلغيت النذور الكهنوتية.

وقد انتشر المذهب سريعًا في محيط دول البلطيق (فنلندا والسويد والنرويج والدانمرك)، وغزت الأفكار اللوثرية أيضًا منطقة نهر الدانوب (المجر والنمسا)، فكان مجتمع الأرياف يرى في انتصار الإصلاح اللوثري نهاية الاستبداد الإقطاعي، وفجر عالم جديد. وقد ساهمت ظروف في خلق جمهور يتقبل الرسالة اللوثرية، علمًا بأن اختراع الطباعة آنذاك أدى إلى انتشار مكثف وسريع لأفكار لوثر التي تدور حول:

أ – الحاجة إلى دين أكثر خصوصية، وأقل شكلية، وأقل طقوسًا، حتى أن الحركة وجدت جذورًا لها في إيطاليا نفسها.

ب – يقين راسخ بالرسالة اللوثرية: التبرئة بواسطة الإيمان، فقد أصبح الإيمان ضروريًا وكافيًا للخلاص والنجاة من عذاب الأبدية، لهذا وقف لوثر ضد استخدام صكوك الغفران.

ج – نمو علوم الإنسان التي انتقلت من إيطاليا إلى أواسط أوربا بعد عام ١٤٥٠، فقد دلفت إلى الجامعات الجديدة في أوربا الوسطى، في حين اصطدمت في باريس بالمقاومة الشرسة التي شنها رجال اللاهوت في السوربون.

ولقد حفَّزت الثورة اللوثرية قوة أدبية كامنة، وأيقظت في ألمانيا كل الاتجاهات المعادية للأجانب والرومان.

ظهور جان كالفن :

وعلى غرار مارتن لوثر كان جان كالفن مكرسًا لخدمة الكنيسة، وتنقل بين عدة مدن، ثم جعل جنيف ملجأ للبروتستانت الفرنسيين، وحاضرة روحية للإشعاع الأوربي حوالي ١٥٥٩، وكان شديد التشاؤم إذ يرى أن الخطيئة

الأساسية أبعدت الإنسان عن الله، وفقد الإنسان مشيئة فعل الخير. كذلك فــإن الله نفسه هو الذي خلّص الإنسان من العبودية، وكان يشدد على العنايـــة الإلهيـــة، وينكر على الأعمال أية فعالية، بيد أن الإنسان نفسه هو هبة من الله، وهذا التأكيد على المبادرة الإلهية يؤدي إلى القدرية التي اتخذت في تفكير كالفن مكانة متزايدة الأهمية. وفي هذا يختلف مع لوثر الذي يؤمن بحرية الإنسان، وبمشيئته في صنع خلاصه. إن الله بالنسبة لكالفن هو صاحب القرار منذ البداية (بداية الخلق)، وهو الذي يمنح نعمته أو يحجبها، تبقى المشكلة الوحيدة هي وثوق الإنسان بأنه خاضع للقدر، وهذا اليقين يمنح الإنسان قوة هائلة، ويؤدي إلى التفاؤل الكالفيني. وإثــر وفاة كالفن سنة ١٥٦٤ كان انتشار الكالفينية سريعًا جدًا، إذ تغلغلت في فرنـــسا، والمجر، وإيرلنده، وترانسلفانيا، ومن إنجلترا ينطلق المذهب ليستقر في أمريكـــا الشمالية، وفي ألمانيا راحت الكالفينية تزاحم اللوثرية.

مذبحة في فرنسا ضد البروتستانت :

في عام ١٥٣٥ تحايل ملك فرنسا على تجميع البروتستانت، وحوصروا في «مونستر» وأبيدوا بالآلاف غدرًا على يد جنود أسقف كاثوليكي، أما الناجون فتفرقوا ولجأوا إلى المجر وبنسلفانيا، وكان هذا الحدث سبة عار في تاريخ فرنسا أمام الدول الأوروبية الأخرى، وقد ترتب على هذه المذبحة أن أصبحت فرنسا- منذ ذلك الوقت- خالية تمامًا من البروتستانت، وأصبحت معقلاً للكاثوليك مثــل إيطاليا، بينما أضحت كل من ألمانيا وبريطانيا تعتنق البروتستانتية كما سنوضح فيما يلي.

الإصلاح الإنجليكـاني :

انطلاقًا من العصر الوسيط، طُرحت مسألة الاستقلالية النسبية للكنيـــسة الإنجليزية إزاء روما، ففي القرن الرابع عشر طالب «**جون ويكليف**» بترجمـــة التوراة إلى الإنجليزية، وكانت قد انتشرت آنذاك نزعة تطعن في غنى الرهبـــان الفاحش، وبالنظام الضرائبي البابوي، كما اشتد الإقبال على أفكـــار المـــصلحين خاصةً: «**إراسم**»، و«**توماس مور**»، وأصبح الفكر المـــستنير يتمنـــى التغييـــر والإصلاح، بيد أن مسألة الطلاق الملكي هي التي أضرمت نار الصراع، إذ كان «**هنري الثامن**» قد تزوج من «كاترين» الأرغونية التي لم تلد له ســـوى ابنـــة واحدة هي ماري التي أصبحت فيما بعد الملكة «ماري تودور»، والحال كـــذلك كان هنري يتمنى من أجل استمرارية السلالة الحاكمة أن يُرزق بوريث ذكـــر،

لكن كاترين رفضت الانفصال، مما سبب نزاعًا بين هنري الثامن وابن أخيه شارلكان (ولي العهد المؤقت)، بيد أن البابا «كليمان السابع» رفض الطلاق عام ١٥٢٩، رغم أنه كان يتساهل عند الضرورة، وبعد تردد طويل قرر هنري الثامن الانفصال عن كنيسة روما عام ١٥٣١ بعد حصوله على دعم الجامعات الإنجليزية والبرلمان، وأصبح هنري الرئيس الأعلى للكنيسة في إنجلترا، واستأثر بكل السلطة، ولكنه بقي على ولائه للعقيدة الكاثوليكية، وحصل من البابا على لقب «المدافع عن الدين» الذي ظل خلفاؤه يحملونه من بعده. ولم يقم بأي إجراء للاستيلاء على أملاك الأديرة، بينما كان يرسل اللوثريين إلى المشنقة، وهكذا حقق هنري الثامن- بمناسبة طلاقه- ما كان ملوك فرنسا يحاولون القيام به أيضًا، ومن ثم لم تكن الإنجليكانية غير كاثوليكية رومانية مبنية على قاعدة قومية مستقلة، تحت سلطة الدولة وحدها.

ثم بدأت النزعات الراديكالية في الظهور، إذ أخذ «**توماس كرايمر**» أسقف كانتربري بالأفكار اللوثرية، ويفرض نفوذه على الملك الشاب «**إدوارد السادس**» (١٥٤٧-١٥٥٣)، ولم تحتفظ هذه العقيدة الجديدة سوى باثنين من الأسرار المقدسة هما: العماد والعشاء السري، وأنكرت استحالة القربان أي السر المقدس القائل بتحويل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه، كما حظرت عبادة الصور، وألغت مذابح الكنائس، وسمح للرهبان بالزواج، وبصفة عامة قوبلت أفكار كرايمر بالترحاب في إنجلترا، باستثناء قلة من الأساقفة.

وطيلة خمس سنوات اعتبارًا من عام ١٥٥٣، اعتبر عهد «**ماري تيودور**» زوجة «فيليب الثاني» عاهل أسبانيا نوعًا من العودة الحاسمة إلى الكاثوليكية، وتم عزل عدد من الأساقفة، وأرسل أهم المطالبين بالإصلاح إلى المحرقة، ومنهم كرايمر نفسه، وقد تم في عهدها إهلاك حوالي ٣٠٠ ضحية، قضوا نحبهم بتهمة الهرطقة. بيد أن هذا الفاصل الزمني العنيف كان قصيرًا، لأن ارتقاء إليزابيث العرش (وهي ابنة هنري الثامن وآن بولين) أعاد إلى سدة الحكم ملكة مؤيدة للبروتستانتية، وكان أن انتشرت البروتستانتية الإنجليكية في بريطانيا، وأصبحت هي دين الدولة الرسمي والشعبي[١].

---

(١) المرجع: كتاب: موسوعة تاريخ أوربا العام (الجزء الثاني)، تأليف أربعة من الكُتّاب هم: جان بيرنجيه، فيليب كونتامين، إيف دوران، فرنسيس راب، ترجمة: وجيه البعيني، مراجعة: أنطوان أ. الهاشم، من منشورات عويدات- بيروت.

الباب الرابع
حقـوق الإنسان في الغرب

تمهـــــيد :

بعد هذا العرض للأوضاع السياسية ونظم الحكم في أوربا منذ الإغريق حتى عصر النهضة، نستطيع أن نستخرج بيانات كافية عن حقوق الإنسان في الغرب.

ورأينا أنه يمكن تقسيم الموضوع إلى الفروع أو العناصر الأساسية الآتية:

أولاً : الحقوق والحريات العامة:

(وتشمل الحرية والعقيدة الدينية، والحرية السياسية، والحياة النيابية، والحقوق المدنية).

ثانيًا : الحياة الفكرية وما يرتبط بها:

(وتشمل التعليم والمدارس والجامعات، فضل الحضارة العربية على أوربا، القانون والتشريع).

ثالثًا : النظم الاجتماعية والاقتصادية:

(وتشمل النظام الإقطاعي.. والرق، أثر الحروب الصليبية على الإقطاع، المدن والتجارة والمصارف).

ونتحدث عن كل فرع منها على حدة في الصفحات التالية.

الفصل الأول
الحقوق والحـريات العامة

(أ) الحرية والعـقيـدة الديـنيـة

وجدت الكنيسة الغربية في جمع شملها، وتركيز إرادتها تحت زعامة البابوية، خير وسيلة لتحقيق رغبتها في السمو. وهكذا أصبح البابا رأس الكنيسة الكاثوليكية، ومصدر ولايتها، والحارس الأول على قوانينها ونظمها وعقائدها، ومعلم أتباعها.. المعصوم من الخطأ. هذا فضلاً عن كون البابا نائب المسيح، لأنه يستمد سلطته من تعيين المسيح له مباشرة، فالبابا خليفة القديس بطرس في كرسيه الأسقفي بروما، وهذا الأخير زعيم الحواريين ومقدم الرسل، الذي اتخذه المسيح أساسًا بنى عليه كنيسته (هكذا يقولون). وبعبارة أخرى فإن البابوية وجدت سندًا قويًا في قول المسيح للقديس بطرس: «وأنا أقول لك أيضًا أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيتك مفاتيح ملكوت السماوات، فكل ما تربطه علي الأرض يكون مربوطًا في السماوات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماوات».

لذلك لا عجب أن أصبح البابا- وهو خليفة القديس بطرس- رأس الجهاز السياسي في أوربا العصور الوسطى، حتى اعتبره المعاصرون ملك الملوك وأمير الأمراء، ومن هنا أخذت البابوية تنظم سيادتها على أسس إقطاعية فعَّالة شأنها شأن الملوك والأمراء، مما جعل التطابق محكمًا بين الكنيسة والجهاز السياسي في غرب أوربا، إلى أن جاء سقوط الإمبراطورية الغربية في القرن الخامس، ليجعل من البابوية القوة الوحيدة في غرب أوربا التي تستطيع حماية التراث الروماني، وسط الفوضى التي عمَّت أوربا حينئذ. ذلك أن البابا جريجوري الأول أو العظيم (٥٩٠-٦٠٤) أخذ يعمل على تقوية نفوذ البابوية السياسي، ويجعل هذا النفوذ حقيقة ملموسة في مختلف بلاد الغرب بل والشرق المسيحي.

ثم جاء الانشقاق المذهبي والسياسي بين الشرق والغرب، وهو الانشقاق الذي نجم عن الخلاف حول تفسير العديد من المسائل العقائدية والدينية. أما المشكلة الكبرى التي قسَّمت المسيحيين وبالتالي العالم الروماني إلى معسكرين، وأثارت البغضاء الدينية والسياسية بينهما فكانت مشكلة تحديد العلاقة بين المسيح الابن والإله الأب، ذلك أنه حدث خلاف بين اثنين من رجال الكنيسة بالإسكندرية

حول تحديد هذه العلاقة، فقال أريوس- وهو كاهن اسكندري مثقف- بأن المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن، ولما كان المسيح الابن مخلوقًا للإله الأب فهو إذا دونه، ولا يمكن بأي حال أن يعادل الابن الإله الأب في المستوى والقدرة، وبعبارة أخرى فإن المسيح مخلوق لا إله بمعنى هذه الكلمة المطلق، وإلا فإن المسيحيين يصبحون متهمين بعدم التوحيد وبعبادة إلهين، أما أثناسيوس فقال إن فكرة الثالوث المقدس تحتم بأن يكون الابن مساويًا للإله الأب تمامًا في كل شيء بحكم أنهما من عنصر واحد بعينه، هذا وإن كانا شخصين متميزين. ومن الواضح أن المذهب الأريوسي يتفق مع منطق المثقفين، لأنه أراد أن يقيم العقيدة المسيحية على أساس من المنطق والتعقل، في حين كان المذهب الأثناسيوسي يستقيم مع تفكير عامة الناس من البسطاء، الذين يحكمون عواطفهم قبل عقولهم. ولم يلبث أن ساد المذهب الأثناسيوسي بلاد الغرب اللاتيني، في حين غدت الغلبة في الشرق الهلليني للمذهب الأريوسي، هذا فضلاً عما نلحظه من أن معظم المفكرين، والفلاسفة، والأدباء كانوا من أنصار المذهب الأريوسي الموحد، في حين كانت معظم الطبقات الوسطى والدنيا التي انتمى إليها رجال الدين من أنصار إثناسيوس.

وعندما اشتد الجدل وتفاقم الخلاف بين الطرفين، خشي الإمبراطور قسطنطين أن يؤثر ذلك في وحدة الإمبراطورية، فدعا إلى عقد مجمع ديني في نيقية سنة ٣٢٥ لحسم الخلاف، وكان هذا المجمع أول مجمع مسكوني- أي عالمي- في تاريخ الكنيسة، إذ حضره نحو ثلثمائة من رجال الدين من الشرق والغرب على رأسه الإمبراطور قسطنطين نفسه، على الرغم أنه لم يكن معمدًا، وقد أدان مجمع نيقية هذا أريوس، وبالتالي تقرر نفيه، وإعدام كتاباته وتحريم تداولها، واضطهاد أتباعه من الأريوسيين، ومع ذلك فقد ظلت الأريوسية قائمة في الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية، وعن هذا الطريق انتقلت إلى أماكن أخرى في الغرب.

ولعل بقاء المذهب الأريوسي قويًا في الشرق كان من العوامل التي أدت بالإمبراطور قسطنطين إلى تغيير رأيه، فاستدعى أريوس من منفاه سنة ٣٢٧. وتم عقد مجمع ديني جديد في صور سنة ٣٣٤ ألغى قرارات مجمع نيقية السابق، وقرر العفو عن أريوس وأتباعه.. وبذلك دارت الدوائر على إثناسيوس الذي عُزل في العام التالي، ونفي إلى فرنسا حيث ظل حتى أطلق الإمبراطور جوليان سراحه (٣٦١-٣٦٣)، الذي كان بحكم وثنيته لا يهتم بأمر هذا الانشقاق. ثم لم

يلبث الإمبراطور ثيودسيوس (٣٧٩-٣٩٥) أن أعلن نهائيًا عدم شرعية المذهب الأريوسي في مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١، كما فرض عقوبات مشددة على أتباع المذهب الأريوسي في جميع أنحاء الإمبراطورية.

وهكذا سارت الأمور حتى تحققت للبابوية سيادتها الفعلية في صورة عملية عالمية على عهد البابا جريجوري الأول أو العظيم، الذي دانت لنفوذه الكنيسة الغربية بأكملها أما الشرق فقد ظل على عناده، مستقلاً بإمبراطوريته وكنيسته عن الغرب. وهنا نلاحظ أن الخلاف حول تفسير المسائل الدينية، كان دائمًا من العوامل التي زادت من اتساع الفجوة بين الكنيستين الشرقية والغربية، ومن أمثلة ذلك: الخلاف الذي قام حول تفسير طبيعة المسيح، إذ أدان مجمع أفسوس سنة ٤٣١ الرأي القائل بفصل طبيعة المسيح الإلهية عن طبيعته البشرية. ومنذ ذلك الوقت ظهرت جماعة من رجال الكنيسة تزعمهم أقطاب الكنيسة المصرية، تمسكوا بمبدأ الطبيعة الواحدة للمسيح، ومن ثم أطلق على هذا المذهب مذهب «الطبيعة الواحدة» (Mono physite). وعلى الرغم من أن مجمع خلقدونيا المنعقد سنة ٤٥١ أدان مذهب الطبيعة الواحدة، وأخذ برأي البابا ليو الأول بأن للمسيح طبيعتين، فهو إله من طبيعة أبيه، وبشر من طبيعة أمه- وهو المذهب الملكاني- إلا أن هذه المشكلة ظلت قائمة لتمثل سببًا جديدًا للخلاف الديني، والتباعد بين الشرق والغرب.

وهنا نذكر ما أشارت إليه المصادر التاريخية من أن ملوك الغرب سعوا إلى إجبار الناس إلى اعتناق المسيحية بالقوة، وكان من بين هؤلاء الإمبراطور شارلمان الذي وجه حملات إلى المناطق والدول المجاورة لنشر المسيحية، وإخضاعهم بالقوة.

التطورات الدينية في المشرق العربي

خضعت الدول العربية في المشرق سنوات طويلة للاحتلال الروماني، وكانت ترزح تحت هذا الاحتلال وديعة مستسلمة دون قلاقل أو ثورات، وكانت هي الأسبق في اعتناق المسيحية على يد مرقص الرسول.

ولكن ظهر في الأفق بعد ذل عامل جديد حوّل الشعوب المغلوبة في مصر وفلسطين وسوريا من شعوب وديعة مسالمة إلى شعوب عنيدة مقاومة، هذا العامل هو ظهور المسيحية في القرن الأول الميلادي، إلا أن الأباطرة الروم كانوا لا يزالون وثنيين، ومن ثم ناصبوا المسيحية العداء، وظلت المسيحية تلقى اضطهادًا في الشعوب المغلوبة، إلى أن ولي عرش الإمبراطورية «**دقلديانوس**» (من ٢٨٤-٣٠٥م)، فبلغ اضطهاد المسيحيين أقصاه، إذ نكل بالقبط في مصر، ونفى كثيرًا منهم، وقتل آخرين بالسيف، أو أحرقوا بالنار أو الذبح قربانًا للآلهة، ورُمي بعضهم للوحوش الضارية في حلقة الألعاب على مشهد من النظارة الوثنيين، وألقى في السجون بآلاف منهم، وهدم كنائسهم، وبلغ عدد الذين قتلوا في عهده نحو مائة وأربعين ألفا. وما زال القبط في مصر يذكرون هذا العصر ويسمونه عصر الشهداء، ويتخذونه مبدأ تقويمهم الخاص، الذي يبدأ بحكم دقلديانوس وبعام الشهداء سنة ٢٨٤م[١].

ولم تلبث المسيحية أن أحرزت نصرًا مبينًا لاعتراف الإمبراطور قسطنطين الأول (حكم من ٣٢٣-٣٣٧م) بها دينًا مسموحًا به.. ضمن الديانات الأخرى في الدولة الرومانية. ثم أصبحت المسيحية الدين الرسمي الوحيد في جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية بقرار من الإمبراطور «تيودوسيوس الأول» (٣٧٩-٣٩٥م). وأتبع ذلك بأن حرّم العبادات الوثنية. وكان المعتقد أن اعتراف الدولة الرومانية رسميًا بالدين المسيحي سوف يزيل الخلاف العقائدي بينها وبين الشعوب المغلوبة، ولكن ما حدث كان عكس ذلك تمامًا، وعلى سبيل المثال: فقد اختلفت الكنيسة المصرية مع الكنيسة القسطنطينية حول طبيعة المسيح، فذهبت الكنيسة المصرية إلى القول بأن للمسيح طبيعة واحدة، أما كنيسة القسطنطينية قالت بأن للمسيح طبيعتين إلهية وبشرية، ولم يقبل القبط توجهات الكنيسة الرومانية، ورفضوا اتباع مذهبها، وأطلقوا على أنفسهم الأرثوذكس (أي

(١) ورد في كتاب «سماحة الإسلام» تأليف: الدكتور أحمد محمد الحوفي.

أتباع الديانة الصحيحة). أما أتباع الكنيسة البيزنطية، فقد عُرفوا بعد الفتح العربي باسم الملكانين (من الكلمة العربية ملك) لأتباعهم مذهب إمبراطور الروم. كما تعرف الكنيسة المسيحية في مصر باسم الكنيسة اليعقوبية، نسبة إلى يعقوب البرادعي.. أسقف مدينة الرُها (في شمال شرقي سوريا) الذي زار مصر في القرن السادس الميلادي ونشر مذهبه.

وكان البطريق بنيامين (بطريرك القبط) يكره الروم ويبغضهم بغضًا شديدًا، وبحكم مركزه الديني كان يحض نصارى مصر على التمسك بالمذهب الأرثوذكسي، لذلك لما قدم هرقل إلى مصر بعد هزيمته للفرس، طلب بنيامين ليقتله فلم يظفر به لفراره إلى الصحراء، ولكنه ظفر بأخيه مينا.. الذي صبَّ عليه جام غضبه، فقد مثَّلوا به أشنع تمثيل، فأشعلوا المشاعل وأحرقوه بها حتى تساقط الدسم من جبينه على الأرض، ورغم ذلك لم يزدد إلا إصرارًا على مذهبه، فاقتلعوا أسنانه، ثم وضعوه في حقيبة ملأى بالرمل وحملوه إلى الشاطئ وعرضوا عليه إنقاذ حياته ثلاث مرات إذا اعترف بمذهب هرقل، فأبى ثلاث مرات، فأغرقوه في البحر. وإلى هذا الحد كان التعذيب والقتل وسفك الدماء، وإلى هذا الحد المحزن كان حكم الروم في مصر.

وجهدت الدولة البيزنطية في أن تفرض مذهبها الملكي، وأصرّ القبط على مذهبهم، فنكلت بهم الدولة تنكيلاً، كأنما حق على القبط أن ينصب عليهم طغيان الدولة وهي وثنية لاختلاف الدين، وأن ينصب عليهم طغيانها وهي مسيحية لاختلاف المذهب أو الملة في الدين الواحد.

وقد أمر الإمبراطور فوقاس (٦٠٢-٦١٠م) بعزل الأقباط من الحكومة، وإجبارهم على طاعة الكنيسة الرسمية في القسطنطينية، ولم يكونوا أسعد حظًا في عهد خلفه هرقل (٦١٠-٦٤١م)، ولا أهدأ بالاً، لأن النزاع بينهم وبين الإمبراطورية كان على أشده، وتبادل الفريقان تهمة الكفر والخيانة، وكانت أيسر تهمة لمخالفي مذهب الإمبراطور أنهم وثنيون خونة، وحُرِّم عليهم التمتع بالحقوق التي يتمتع بها أتباع الكنيسة الرسمية، وحُرِّم عليهم الاشتغال بالمهن الحرة، وتقرر هدم كنائسهم، وحظر الاجتماعات العامة عليهم.

في الحروب الصليبية:

كانت هذه هي الأوضاع، ومعاملة المحتل لأهالي البلاد قبل ظهور الإسلام، ومع ذلك فإنه بعد انتشار الإسلام وقعت أحداث توضح- في المقابلة-

الفرق بين معاملة المسلمين ومعاملة غير المسلمين.. في حالة النصر والغلبة في القتال.

ففي فترة الحروب الصليبية اجتاحت الحملة الصليبية آسيا الصغرى قادمة عبر مضيق البوسفور، وبعد أن سقطت أنطاكية في شمال سورية، أصبح الطريق مفتوحًا أمام الصليبيين للزحف على القدس، وفي طريقهم لتحقيق هذا الهدف أقاموا إمارات لهم في أنطاكية وفي الرُها، وتقدموا نحو القدس.

وبعد حصار دام أربعين يومًا دخل الصليبيون مدينة القدس.. المدينة المقدسة عند اليهود والنصارى والمسلمين، واقتحمها القائد الفرنسي: «**جود فروي**»، فانهال الصليبيون المنتصرون على المدينة عربدة ونهبًا وذبحًا مدة أسبوع، حتى قتلوا بحد السيف سبعة آلاف من المسلمين، وإن كان البعض يرتفع بالعدد إلى سبعين ألفًا، ولم يفرقوا بين رجل وامرأة، أو بين شيخ وصبي، ولا بين جنس وجنس، أو دين ودين، وسدَّ الصليبيون كل منافذ المدينة، ثم كدسوا حزم الأخشاب حولها، وأشعلوا فيها النيران، فلم يكتفوا بالقتل وذبح الناس بالآلاف، بل أرادوا أن يحولوا العمار خرابًا. ونصب جود فروي نفسه ملكًا على القدس.

بعدها ظهر **صلاح الدين الأيوبي** على الساحة، وبدا واضحًا أنه هو القائد الإسلامي الوحيد القادر على توحيد القوى الإسلامية المتفرقة، والقادر- من ثم- على مواجهة الصليبيين، وتمكن صلاح الدين من استعادة الكثير من القلاع والحصون من أيدي الصليبيين، واستولى على طبرية، ثم زحف منها حتى بلغ مكانًا يسمى «**حطين**» في يوليو سنة ١١٨٧م، وفي اليوم الرابع من يوليو دارت معركة كبرى بين المسلمين والصليبيين، انتصر فيها المسلمون، ونزل بالصليبيين من ألوان الهزائم ما لم يعهدوه من قبل.

وبعد معركة حطين قام صلاح الدين بتحرير أورشليم (القدس) في الأول من أكتوبر سنة ١١٨٧م ولم يلجأ إلى أي وسائل قمعية أو انتقامية، وترك الكنائس النصرانية مفتوحة للعبادة، وأعاد فتح المعابد اليهودية، وعامل الناس جميعًا بالحُسنى والتسامح، دون تفرقة بين دين ودين.

هنا يلاحظ الفارق الكبير بين سياسة القائد الفرنسي جود فروي.. الذي أعمل السيف في سكان القدس ذبحًا وتقتيلاً، وحرقًا وتخريبًا، دون تفرقة بين رجل وطفل وامرأة، ولا بين مسلم ويهودي، وبين جود فري وصلاح الدين الأيوبي.. الذي احترم أهل الذمة من نصارى ويهود، وعاملهم معاملة طيبة،

وترك لهم حرية العبادة كلّ حسب دينه، وعلى أساس القاعدة التي تقرر أن «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».

اضطهاد البروتستانت :

لجأ الكاثوليك إلى أقصى درجات العنف والقسوة والتعذيب في اضطهاد البروتستانت فقد ذكرنا من قبل أنه في عصر النهضة، تحايل ملك فرنسا على تجميع البروتستانت في عام ١٥٣٥، حيث تمت محاصرتهم في «مونستر»، وأبيدوا بالآلاف على يد أسقف كاثوليكي بتحريض من الملك الفرنسي، وكان هذا الحادث سبة في جبين فرنسا أمام باقي دول العالم، أما الناجون فتفرقوا ولجأوا إلى المجر وبنسفاليا، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت فرنسا خالية تمامًا من البروتستانت وتدين بالكاثوليكية مثلها مثل إيطاليا، بينما كان للبروتستانت ملاذ في كل من ألمانيا وإنجلترا بصفة خاصة.

ومن صور الاضطهاد الديني البغيض والعنيف، ظهور محاكم التفتيش في أسبانيا منذ سنة ١٤٨٣، فبدأت هذه المحاكم في المجتمعات المسيحية التي طردت المسلمين، فبدأت في قشتالة ثم امتدت إلى أرغونة، وظلت في عملها بفضل إرادة فرديناند وإيزابيلا، وكانت هذه المحاكم تفتش عن غير المسيحيين، وتقوم بطردهم من البلاد أو إبادتهم. وسرعان ما ظهر أثر سياسة التعصب الديني في خطوتين: الأولى: طرد اليهود، والثانية: طرد المسلمين من أسبانيا.

أما اليهود فقد صدر مرسوم سنة ١٤٩٢ بطردهم من أسبانيا، الأمر الذي ترتب عليه تشريد أكثر من مائة وخمسين ألف يهودي في حين اعتنق خمسون ألف يهودي المسيحية. أما المسلمون فقد تعرضوا لاضطهاد شديد، إذ أعقب سقوط غرناطة- آخر معاقل المسلمين- موجة من التعذيب الوحشي الذي حل بمن بقي في البلاد من المسلمين، بينما كان المسيحيون في الأندلس أحسن معاملة تحت حكم المسلمين، وتقدموا بأداء شعائر دينهم في حرية ودون أدنى تضييق، ولم تنته موجة اضطهاد المسلمين في أسبانيا إلا في القرن السابع عشر، بعد أن عُذب منهم من عُذب، وشُرد منهم من شُرد، وقُتل من قُتل، حتى لقد ثبت أن جملة من نفوا من مسلمي الأندلس في المدة الواقعة بين سقوط غرناطة وأوائل القرن السابع عشر بلغ ثلاثة ملايين نسمة.

ونرى من المناسب هنا أن نعيد الكلام عن الانشقاق والنزاع الديني في إنجلترا، فإن الملك «هنري الثامن» كان كاثوليكيًا، وبرغم اختلافه مع البابا، فإنه

تمسك بالكاثوليكية، وكان يرسل اللوثريين إلى المشنقة، ثم بدأت النزعات الراديكالية في الظهور بعد وفاته، إذ أخذ «توماس كرايمر» أسقف كانتربري بالأفكار اللوثرية (مذهب البروتستانت)، ويفرض نفوذه على «إدوارد السادس» الشاب.. الذي حكم إنجلترا (من ١٥٤٧-١٥٥٣)، وقد قوبلت أفكار كرايمر بالترحاب، باستثناء قلة من الأساقفة. وطيلة خمس سنوات اعتبارًا من عام ١٥٥٣ اعتبر عهد «ماري تيودور» نوعًا من العودة الحاسمة إلى الكاثوليكية، وتم عزل عدد من الأساقفة البروتستانت، وأرسل أهم المنادين بالإصلاح إلى المحرقة.. ومنهم كرايمر نفسه، وقد تم في عهدها إهلاك حوالي ٣٠٠ ضحية من المفكرين، قضوا حتفهم بتهمة الهرطقة. بيد أن هذا الفاصل الزمني العنيف كان قصيرًا، لأن ارتقاء إليزابيث العرش (وهي ابنة هنري الثامن وآن بولين) أعاد إلى سدة الحكم ملكة مؤيدة للبروتستانتية، وكان أن انتشر هذا المذهب في بريطانيا بعد ذلك.

تعقيب هام:

يتضح مما سبق، ومن الأدلة التاريخية التي قدمناها، أن أهل المسيحية خرجوا على تعاليم المسيح التي تدعو إلى التسامح والحب والمودة، ولجأوا إلى منتهى القسوة والعنف وسفك الدماء، لمن يخالفهم في المذهب الديني أو العقيدة الدينية، وصدق الحق ﷻ إذ يقول في ذلك عن النصارى، في الآية ١٤ من سورة المائدة: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ صدق الله العظيم.

الإسلام.. والتفرقة العنصرية

تفوقت الحضارة العربية الإسلامية على ما سبقها ولحقها من حضارات في الأمور الآتية:

أولاً: إلغاء نظام الطبقات الجامد، الذي قسم أبناء المجتمع الواحد إلى طبقة من السادة الأحرار، طبقة من العبيد المسلوبة حقوقهم في الحياة الحرة، وأنهم مختلفون فيما بينهم في حقوق الإنسان وطبيعة العمل. وعبَّر أرسطو نفسه عن هذه النظرية القديمة حيث قال ما معناه أن العبد شيء من المتاع ويشبه أثاث المنزل. غير أن الحضارة العربية الإسلامية أزالت، بفضل تعاليم الإسلام السمحة، الحاجز العالي الذي قرر أن لا فرق بين شخص وآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح.

ثانيًا: وانفردت الحضارة العربية باحترامها لأصحاب العقائد الدينية المخالفة لها، وتركتهم يمارسون شعائرهم حسب تعاليمهم، وتجلى ذلك في نظام التسامح الذي شرعه نبي الإسلام، وسار على نهجه الخليفة عمر بن الخطاب في معاملته لأهل الذمة، وهم أهل الكتاب من النصارى واليهود، وبذلك تمتع أهل الذمة بقسط كبير من الحرية، ولم يدفعوا إلا الجزية مقابل حماية الدولة لهم. ثم إنهم خضعوا لقوانينهم الخاصة في مسائل الأحوال الشخصية، حيث تولى رؤساؤهم الروحانيون تطبيقها دون تدخل أو ضغط السلطات العربية. ونال أهل الذمة كذلك حق بناء الكنائس والمعابد والهياكل الخاصة بهم، مع حماية الدولة لهم من كل اعتداء.

وكشفت أحوال اليهود خاصة عن مدى ما نعموا به من حرية ورفاهية في ظل الإسلام، بالقياس إلى أحوال إخوانهم اليهود في أوربا منذ أيام الدولة الرومانية القديمة إلى القرن التاسع عشر الميلادي.

ثالثًا: كان علماء اليهود والنصارى والصابئة موضع رعاية وتشجيع من جانب السلطات الإسلامية والمجتمع الإسلامي، بل كان منهم الوزراء والحكام ورجال الإدارة وأطباء القصور وغيرهم من أرباب الثقافة، وقد ساعدتهم الدولة الإسلامية بمختلف الوسائل: بالتشجيع والمعونات المالية، ومن الأدلة على ذلك، أنه بينما امتلأت أرجاء أوربا بمشاريع الحملة الصليبية الأولى، اتجهت جماعات من جنود تلك الحملة إلى كولونيا بألمانيا الحالية، وأوقعوا مذابح هائلة باليهود، اعتقادًا منهم أن الدماء اليهودية خير تمهيد لنجاح القضية الصليبية في فلسطين،

على حين كان اليهود أنفسهم يعيشون في المجتمع العربي الإسلامي عيشة راضية، ويشتركون في الحياة اشتراكًا فعليًا في كثير من الاطمئنان.

رابعًا: العدالة الاجتماعية: وقام آخرون من الجنود الصليبيين، وهم يخترقون بلاد البلقان الحالية، بمذابح متعددة في السكان المسيحيين أصحاب المذهب الأرثوذكسي المختلف عن مذهبهم الكاثوليكي المسيحي، وظنوا بذلك أنهم يمهدون لنجاح المسيحية، وتوحيد الكتلتين تحت التاج البابوي الكاثوليكي.

أما المسلمون فعاملوا الكاثوليك والأرثوذكس سواء بسواء.. على أنهم جميعًا أصحاب كتاب، وفي هذا دليل إضافي على عمق مبدأ التسامح العربي الإسلامي نحو أصحاب الديانات الأخرى.. أينما كانت، وفي أي عصر من العصور[١].

(ب) الحرية السياسية والحياة النيابية

ذكرنا من قبل (في القسم الأول) أن الحرية السياسية يُقصد بها أن تكون الأمة مصدر السلطات، ومن أهم الحقوق التي يجب أن تمنحها الأمة حتى تكون مصدرًا للسلطات أن يكون لأفرادها- عن طريق مباشر أو عن طريق ممثليهم- الحق في اختيار الحاكم، والحق في مراقبته ومحاسبته على أعماله. وقد تبين لنا أن الإسلام كان حريصًا على الحرية السياسية، عندما كانت دعائم الحكم تبنى على أساس من الشورى والحرية السياسية. وكان هذا هو المعمول به في العهد النبوي، وعهود الخلفاء الراشدين، ولكن عندما تحولت الأمور من الخلافة إلى الملك، وأصبح الحكم ملكًا عضوضًا، غابت الحرية، وغابت الشورى، وأصبح يتولى أمر الحكم ملكًا تحت مسمى خليفة أو أميرًا أو سلطانًا ينفرد بالرأي، وأصبح يستبد برأيه ولا يشرك في حكمه أحدا. كان هذا في عهد الدولة الأموية، ثم في عهد كل من الدولة العباسية الأولى، والدولة العباسية الثانية، ورأينا كيف جرت محاولات للإصلاح ولكنها باءت بالفشل، حتى جاء مصطفى كمال أتاتورك وأنهى الخلافة العثمانية، ثم قام هو نفسه بحكم البلاد حكمًا دكتاتوريًا، تمكن به من تحويل تركيا من نظام حكم يقوم على الإسلام إلى نظام حكم علماني.

---

(١) المرجع: الدكتور إبراهيم أحمد العدوي في كتاب تاريخ العالم الإسلامي (مرجع سابق) ص٢٣٠.

والحق يُقال، فإن الغرب كان أسبق منا في معرفة الديمقراطية والتمسك بها، منذ أن كانت له دولة ثابتة ذات شعب وذات حدود معترف بها. وإن شئت فقل منذ أقام فليب المقدوني دولة في شمال اليونان، وقام ابنه الاسكندر الأكبر بالفتوحات العظيمة في آسيا، ونشر حضارة الإغريق.

وقد عرف الغرب الديمقراطية والحياة النيابية منذ زمن بعيد، فقد تحدث عنها فلاسفة اليونان خاصةً أفلاطون في مهد قيام الدول والشعوب، ونمت وظهرت على السطح في عهد الإغريق، ومن بعد في العصر الروماني، وسوف نتحدث عن الديمقراطية والحياة النيابية في الغرب منذ القدم، مراعين التطور التاريخي كما يلي:

تطور الإغريق السياسي :

تشكل أقدم دستور سياسي للإغريق من عناصر ثلاثة هي:

أ – **الملك:** وكانت وظائفه ثلاثية، حيث كان هو القاضي الأعلى، والكاهن الأعظم، والقائد الأعلى في الحروب.

ب– **مجلس الكبار:** ويتكوّن من مجموعة رؤساء مميزين للعشائر، حتى ظهرت طبقة النبلاء، وهو يسمى أيضًا مجلس الشيوخ، ومارس المجلس دور الرقابة على الملك، وكان على الملك أن يستشيره ويهتدي بقراراته، لذلك دار صراع بين المجلس والملك على السلطة.

ج– **جمعية الشعب:** وكان حضورها حق لكل الرجال الأحرار، ولهم الحق في ممارسة التهليل عند الاقتراع على مشروعات الملك، بالموافقة أو المعارضة. ولم يكن لها أوقات محددة تجتمع فيها، بل تجتمع إذا دعاها الملك للانعقاد.

النظام السياسي عند الرومان :

يقسم المؤرخون التاريخ الروماني إلى ثلاثة مراحل هي:

عهد الملوك: يبدأ بتأسيس مدينة روما عام ٧٥٣ق.م، ويستمر حتى عام ٥١٠ق.م.

عهد الجمهورية: يبدأ من آخر ملك في روما بتاريخ ٥١٠ق.م، ويستمر حتى تأسيس الإمبراطورية في عام ٣١ق.م.

عهد الإمبراطورية: يبدأ من عام ٣١ق.م، ويستمر حتى سقوط روما عام ٤٧٦م.

وقد تبنى الرومان التنظيم السياسي اليوناني تقريبًا، إذ تشكل النظام السياسي الروماني كالآتي:

(أ) **الملك:** ولم تكن الملكية في روما وراثية مطلقة، بل كانت وراثية محددة بشروط، وهي أن يكون أحد أفراد الأسرة المالكة، وأن يكون صالحًا مؤهلاً، ويتم اختياره عن طريق مجلس الشيوخ، والملك هو مصدر القانون، ولا يحد سلطاته سوى سلطة رب الأسرة، وكان يشكل لجنة محكمين للفصل في القضايا بين المواطنين بالغرامة، أما سلطاته الجنائية فهي غير محددة أيضًا، وكان القضاء يحكم بالجلد والنفي والإعدام، وله حق التخفيف من الأحكام، وهو الذي يعلن الحرب ويحقق السلم.

(ب) مجلس الشيوخ: وكان في أول أمره يضم «الآباء» أي كبار السن المحنكين، ثم تطور فيما بعد ولم يعد شرطًا أن يكون العضو مسنًا. ولم يكن رأي مجلس الشيوخ (Senato) إلزاميًا، بل استشاريًا. وهو الذي يختار الملك، ويختار الحاكم المؤقت عند وفاة الملك. وكان عدد أعضاء المجلس في العهد الملكي مائة، ثم زاد العدد إلى مائتين. وفي عهد الجمهورية زاد العدد مرة أخرى إلى ثلاثمائة. وقد احتكرت عائلات أعضاء الشيوخ الوظائف الهامة في عهد الجمهورية، لذلك كان منهم القنصل والبريتور، وحرموا العامة من هذا الشرف العظيم، لذلك كان الصراع بينهما هو الموضوع الرئيسي لتاريخ الجمهورية السياسي، وفي بعض الأوقات زاد عدد الأعضاء زيادة كبيرة فبلغ ما يربو على ثلاثمائة.

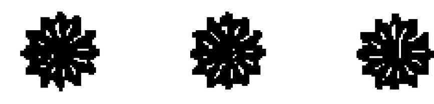
ولا شك في أن الشيوخ اثبتوا جدارتهم فيما أوكل إليهم، وترتب على ذلك بلا شك ازدياد مكانتهم رفعةً وعلوًا، ولقد تحكم مجلس الشيوخ في المال وفي العتاد وفي السلطة على الرغم من أنه هيئة استشارية في الأصل، لكنه تولى مسئوليات لم يتولاها أحد من قبل. فقد استطاع السناتو أن يمد سلطته إلى كل مكان، ويأتي ذلك من خبرته الناضجة ومعرفته العريضة، واهتمامه الدائم بشئون الدولة، ويتضمن البيان الطويل لأنشطته كل الشئون الخاصة بالمالية (الضرائب)، وكان هو الذي يقرر كيفية صرف الإيرادات، وكيفية سحب المصروفات لموظفي الدولة. وكان لأعضاء المجلس الحق في مراقبة الملكيات العامة للجمهورية: مثل

الأراضي العامة، والمناجم، وبيع وتوزيع غنائم الحرب، وإدارة سك العملة. وكان لهم دور واضح وبارز في الشئون الخارجية، بسبب معرفتهم بكل المعاهدات والاتفاقات التي وقعتها روما مع الدول الأخرى، ولذلك كانت المفاوضات الدبلوماسية في أيديهم[١].



على أن النظام الجمهوري لم يلبث أن حلَّ محل النظام الملكي في روما، أما عماد الدستور الجمهوري فكان اثنين من الموظفين يتجدد انتخابهما سنويًا، ويتوليان مباشرة السلطة التنفيذية التي كانت للملك من قبل، وهذان الموظفان أو القنصلان كانا مسئولين عن تصرفاتهما أمام الشعب الروماني ممثلاً في مجلس السناتو.

وفي وسط تلك الأحداث المتلاحقة، ظهر قنصل اسمه «سُلا»، استطاع على رأس جيشه أن يقتحم روما ويقر الأمور فيها، وبذلك كان سلا هو أول من استعمل الجيش في تحقيق أغراض سياسية، فضلاً عن سحق خصومه السياسيين، والواقع أن أخطر نتيجة لحكم سلا هي أنه أكد- في محيط السياسة الرومانية- نجاح فكرة الحاكم الفرد المطلق الذي يعتمد على قوة الجيش، وهي الفكرة التي لم تفارق خيال كل طموح من الساسة الرومان. وهكذا غدا السيف هو مصدر السلطة في روما. وطالما كان قادة الجيش على وفاق مع السناتو، احتفظ السناتو بنفوذه وسلطانه، لأن الجنود صاروا يدينون بالطاعة لقائدهم لا للسناتو، وهذا هو التطور الخطير الذي أدى إلى سقوط الجمهورية وقيام الإمبراطورية.



من سنة ٧٠ق.م أصبح زمام الأمور بيد كل قائد منتصر يعود من ميدان القتال على رأس جنده ليسيطر على أداة الحكم، وقد حدث سنة ٧١ق.م أن عاد قيصر منتصرًا، وزحف على روما سنة ٥٠ق.م، وعندئذٍ فرَّ من وجهه بمبي القائد المنافس، وعدد كبير من النبلاء وأعضاء السناتو واتجهوا إلى اليونان. وظل قيصر ينتقل من نصر إلى نصر حتى غدت سلطته مطلقة، الأمر الذي أثار حقد بعض أعضاء السناتو، فقتل قيصر في المجلس سنة ٤٤ق.م. وكان قريبه أوكتافيوس قادرًا على سد الفرغ. خاصةً بعد أن انتصر على خصمه أنطونيوس

---

(١) المرجع: كتاب تاريخ اليونان والرومان للدكتور محمد فهمي عبد الباقي، ص٣٨ وما بعدها.

في معركة أكتيوم بالبحر المتوسط سنة ٣١ق.م، وكان أن أنعم عليه السناتو بلقب «أوغسطس» سنة ٢٧ق.م.، مما أذن بغروب شمس الجمهورية وقيام الإمبراطورية الرومانية.

أما عن طابع الحكومة الرومانية في أوائل عصر الإمبراطورية، فيلاحظ أن هذه الحكومة كانت ملكية مع احتفاظها بكثير من مظاهر العصر الجمهوري السابق، وظل السناتو يباشر سلطته الواسعة في ظل النظام الجديد، إلا أن سلطاته التشريعية، والقضائية، والإدارية تناقصت بصورة واضحة، كما أصبح يتألف من أعضاء يختارهم الإمبراطور من مختلف أنحاء الإمبراطورية، بعد أن كان في العصر الجمهوري يمثل أقلية ممتازة محدودة.

والواقع أن الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦-٣٣٧) يتمتع بأهمية خاصة في التاريخ، نظرًا للأعمال المهمة التي قام بها، ذلك أن هذا الإمبراطور قام بخطوات على جانب كبير من الأهمية: الأولى اعترافه رسميًا بالديانة المسيحية، والثانية نقله عاصمة الإمبراطورية من روما القديمة إلى روما جديدة شيدها على ضفاف البسفور هي القسطنطينية، والثالثة هي تطبيق مبدأ الحكم الوراثي، فأصبح المنصب الإمبراطوري وراثيًا في أسرته.

وقد انتهى الأمر عند وفاة الإمبراطور ثيودسيوس سنة ٣٩٥ إلى تقسيم الإمبراطورية الرومانية الكبرى بين ولديه إلى قسم شرقي من نصيب ابنه أركاديوس، وقسم غربي من نصيب ابنه هونريوس.

والحق أن الإمبراطورية الرومانية كانت أسبق دول العالم في ممارسة الديمقراطية، وإنشاء المجالس الشعبية.

ولم يكد ينتصف القرن الخامس، حتى كانت الإمبراطورية الرومانية في الغرب قد مُزقت إربًا بضياع معظم أجزائها، فإن الغزوات التي قام بها البرابرة تركت أثرًا واضحًا في المجتمع الروماني، ذلك أن هذه الغزوات أدت إلى تحطيم الإمبراطورية الرومانية في الغرب، وضياع معظم أقاليمها غنيمة في أيدي الغزاة، وسقطت الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦.

وقد ظل العالم الغربي بدون إمبراطور منذ ٤٧٦ حتى تتويج شارلمان سنة ٨٠٠. فماذا كان وضع الديمقراطية خلال حكم شارلمان.

الديمقراطية في فرنسا :

كانت لشارلمان إصلاحات في ميادين التشريع والقضاء والإدارة، من ذلك أن شارلمان استحدث كثيرًا من التشريعات لإقرار النظام الإداري، وتنظيم العدالة والمحاكم.. عن طريق تقوية العنصر الشعبي في دور القضاء، وأنشأ **المجلس العام** (أو الجمعية العامة) لدولة الفرنجة L'assemblée Générale ، الذي كان بمثابة المجلس الاستشاري، ينعقد وفق إرادة شارلمان، ويتألف من مندوبين عن مختلف أنحاء الإمبراطورية وشعوبها- لا الفرنجة فحسب- فضلاً عن الأساقفة ورؤساء الأديرة والكونتات. وقد توفي سنة ٨١٤.

ثم جاء فيليب أغسطس الذي أحاط نفسه بمجموعة من المستشارين العلمانيين والدينيين، روعي فيهم أن يكونوا من أتباع الملك المخلصين، حتى يظلوا بمثابة «**مجلس استشاري**». وكان الملك يضيف إلى هؤلاء مجموعة أخرى من النبلاء والأساقفة في حالة الضرورة. وكان هذا المجلس بمثابة هيئة تشريعية وقضائية عليا، وكان بمثابة هيئة استشارية بحتة، لا يوجد ما يلزم الملك بقبول قراراتها أو تنفيذها.

وامتاز عهد **لويس التاسع** بإصلاحات متعددة، وكان محور السلطة المركزية في ذلك العصر- سواء في فرنسا أو إنجلترا- هو **المجلس الإقطاعي للملك**، الذي تألف في جوهره من مجموعة من الوزراء الدائمين، وينضم إليهم أفصال الملك في حالة الشروع في إعلان الحرب، أو زيادة الضرائب، أو غيرها من المسائل المهمة. وقد تمسك لويس التاسع بحقه في أن تُستأنف أمامه جميع القضايا، على أن يكون رأيه فيها نهائيًا وملزمًا حتى لكبار الأمراء الإقطاعيين.

وحكم **فيليب الرابع** من ١٢٨٥-١٣١٤، وفي فترة حكمه وجه الدعوة **لمجلس طبقات الأمة** للانعقاد لأول مرة سنة ١٣٠٢، وهو المجلس الذي كان له أثر خطير في تاريخ فرنسا، ذلك أن فيليب الرابع دعا ممثلين لطبقات المجتمع الثلاث: رجال الدين، والنبلاء، والبرجوازيين، وتكررت هذه الدعوة أكثر من مرة، ويبدو من حرص هذا الملك على دعوة المجلس أنه كان يقدر ما للرأي العام من أهمية وقوة. وبالرغم من أنه لم يسمح لمجلس طبقات الأمة بمناقشة القوانين، إلا أنه سمح لهم برفع آرائهم إلى الملك، وقد حدث أثناء انعقاد المجلس سنة ١٣١٤ أن اعترض الأعضاء على إحدى الضرائب، فاضطر فيليب الرابع إلى إلغائها.

من هذا يتضح أن الحكم في فرنسا كان خاضعًا لنوع من أنواع الديمقراطية تعزّز مع مرور الزمن.

الديمقراطية في إنجلترا :

حكم الملك حنا إنجلترا في الفترة من ١١٩٩-١٢١٩، وفي عهده صدر العهد الأعظم الذي وافق فيه الملك على منح حقوق عديدة للشعب ممثلاً في **المجلس التشريعي**، ويكفي أنه حرّم على الملك جمع ضرائب أو إتاوات دون موافقة المجلس كقاعدة عامة، وقرر أنه في حالة استيلاء الدولة على بعض الممتلكات للصالح العام، فإن أصحابها يجب أن يُعوضوا تعويضًا كافيًا، كما قضى بأنه لا يجوز القبض على أي شخص حر أو سجنه أو سلبه ممتلكاته أو حرمانه من حماية القانون أو نفيه أو إيذائه بأي وجه من الوجوه إلا بعد محاكمة عادلة، وربما كان أهم نص في العهد (Magna Carta) هو أن القانون فوق الملك.. الذي لا يملك الخروج عليه، وذكرنا بنود العهد بشيء من التفصيل من قبل عندما تحدثنا عن تاريخ إنجلترا بعد الغزو النورماني.

وعندما تجددت الفتن والخلافات في عهد الملك هنري الثالث، تم عقد **البرلمان** سنة ١٢٦٥، وهو الذي مُثلت فيه المدن لأول مرة عن طريق اشتراك ممثلين عن كل مدينة، مما أعطى هذا البرلمان طابعًا شعبيًا قويًا، ونشأة فكرة **مجلس العموم**.

وقد دعا إدوارد الأول البرلمان إلى الانعقاد سنة ١٢٩٥ لحاجته إلى المال، وامتاز البرلمان الذي عُقد في تلك السنة بأنه ضم جميع العناصر التي صار يتألف منها البرلمان الإنجليزي فيا بعد من نبلاء وأساقفة ورؤساء أديرة، فضلاً عن اثنين من فرسان كل مقاطعة، وممثلين عن المدن وغيرهم، حتى أُطلق عليه في التاريخ: البرلمان النموذجي (Model Parliament)، وفي هذا الاجتماع انضم الفرسان إلى البرجوازيين وممثلي المدن ليؤلفوا مجلس العموم، في حين انضم النبلاء إلى الأساقفة ليتكوّن منهم **مجلس اللوردات**. وكان أن أخذ النبلاء يضغطون على الملك لتحديد سلطاته، فطلبوا منه سنة ١٢٩٧ تأكيدًا للعهود التي تحرم الملك من حق جمع الأموال دون موافقتهم.

وهكذا، استقر في إنجلترا نظام برلماني عتيد، صار محل تعديل إلى الأفضل في قادم السنين.

(ج) الحقـوق المدنيـة

الحرية المدنية يُراد بها أن يكون للإنسان حرية التصرف في أموره الشخصية والمالية، بحيث يكون أهلاً لإجراء العقود، وتحمل الالتزامات، وتملك العقار والمنقول، والتصرف فيما يملك.

وقد أرسى الإسلام دعائم هذه الحرية، وجعل الناس سواسية كأسنان المشط. وقال الرسول ﷺ «كلكم لآدم وآدم من تراب»، وقال الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ، فالإسلام جعل لكل فرد سيادة ذاتية، يملك ويرث ويبيع ويشتري، ويرهن ويكفل، ويهب ويوصي ويتصدق ويتزوج، ويباشر كل التصرفات التي تحقق المصلحة الفردية ومصلحة الجماعة، ذلك كله دون تفرقة بين جنس وجنس، وبين أبيض وأسود، فالرسول الكريم أعلن أنه لا فضل لعربي على عجمي، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى.

هذه هي مبادئ الإسلام السامية منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنًا من الزمان، أما الغرب فكان يعيش على التفرقة والتمييز الواضح.

رأينا كيف اعتبر الرومان قانون الألواح الاثني عشر شاملاً لكل قانونهم المدني (قانون المدينة) أي القانون الخاص والعام والمرافعات، والقانون الجنائي. وكان القانون الروماني هذا يرفض الاعتراف بالشخصية القانونية لغير المواطنين، فالوطنيون هم وحدهم الذين يتمتعون بالشخصية القانونية، يستوي في نظر الرومان أن يكون الشخص غير حر أو أجنبيًا، فالنظرة القديمة للأجانب تتلخص في اعتبارهم أرقاء، يمكن للروماني الاستيلاء عليهم، طالما أنه لا يوجد لهم من يحميهم من الرومان.

وإلى جانب هؤلاء الأجانب، وُجد داخل الدولة الرومانية بعض الأجانب الذين تحميهم الدولة مباشرة، وهؤلاء هم اللاتينيون وبعض الأجانب الذين اعترفت لهم روما ببعض الحقوق بموجب معاهدات عقدتها معهم. ولما توسعت الدولة الرومانية أصبح الأجانب هم سكان الولايات الرومانية.. فيما عدا الوطنيين واللاتينيين، وأصبحوا بذلك عنصرًا هامًا من العناصر المكونة للدولة الرومانية.

الشخصية القانونية عند الرومان :

كانت دولة الروم دولة وثنية، وكان أهلها وثنيين، ويعتقدون أنهم سادة العالم، وأن لهم امتيازات ومكانة خاصة لا يتمتع بها غيرهم. والقانون الروماني- كما ذكرنا سلفًا كان تطبيقه- أول الأمر- قاصرًا على روما فقط، فهو لا ينطبق

في غيرها. وبموجب قانون صدر سنة ٩٠ق.م. امتد تطبيقه على كل الأحـــرار من أبناء إيطاليا. وكان هذا القانون يعترف بالشخصية القانونية- كقاعدة عامة- للإنسان بشروط معينة، هي أن يجمع بين صفات ثلاث:

١- **الحرية:** أي أن يكون الإنسان من الأحرار، فلا يتمتع الرقيق بالشخصية القانونية، إذ كان المجتمع ينقسم إلى سادة وعبيد.
٢- **الجنسية الرومانية:** أي أن يكون روماني الجنسية، فأبناء البلاد التي تخضع لسلطانهم في مصر وسوريا وفلسطين وغيرها لا يتمتعون بالشخصية القانونية؛ ومن ثم فهم في الدرجة الدنيا من السلم الاجتماعي.
٣- **أن يكون رب أسرة:** لأن الأسرة هي الوحدة التي يخاطبها المشرع في القانون الروماني، فالأبناء ليس لهم شخصية قانونية أيًا كانت أعمارهم، لأنهم أعضاء في الأسرة ويخضعون لرب الأسرة، وليس لهم ذمة مالية مستقلة، وذات الشيء ينطبق على الزوجة، التي تخضع لسلطان الأب قبل الزواج، وسلطان الزوج بعد الزواج(١).

طبقة الأشراف وطبقة العامة :

منذ العصور الأولى لروما نجد الشعب منقسمًا إلى طبقتين: طبقة الأشراف وطبقة العامة. وكانت طبقة العامة أدنى بكثير من طبقة الأشراف، فبينما أفراد هذه الطبقة الأخيرة يتمتعون بجميع الحقوق العامة والخاصة، نجد أفراد الطبقة العامة محرومين من مباشرة معظم هذه الحقوق، فلم يكن لهم حق عضوية المجالس القديمة، أو حق تولي المناصب العامة، ولم يكن لهم حق الزواج من الأشراف، ولكن كان لهم حق التعامل، أي استعمال الطرق الرومانية في تصرفاتهم كالإشهاد وحق التقاضي.

وتتميز القرون الثلاثة الأولى من العهد الجمهوري بتلك الحركة التي قام بها العامة للمساواة بالأشراف، من حيث الحقوق العامة والحقوق الخاصة على السواء. وبدأت حركة العامة بثورتهم واعتصامهم في سنة ٤٩٤ق.م، فتفاوض الأشراف معهم، وقبلوا أن يكون للعامة حاكمان يمثلانهم رسميًا، ويسميان بحاكمي العامة، وكان لهما حقان هامان: أولهما حق الاعتراض على أي قرار يصدره الحكام ويكون فيه إجحاف بمصالح العامة، وثانيهما أن لشخصية الحاكم

---

(١) المرجع: الدكتور صوفي أبو طالب في كتابه: تطبيق الشريعة الإسلامية في الدول العربية، ص٣٢٣.

ذاتًا مصونة لا تُمس، فأي اعتداء عليه عقوبته الإعدام. وقام حكم العامة بقيادة طبقتهم في حركة للمطالبة بالمساواة بالأشراف.

واعتبارًا من عام ٤٨٦ق.م. حصل العامة على مجموعة من الحقوق، منها حقهم في الاجتماع داخل مجلس لهم، وبحق هذا المجلس في اتخاذ قرارات بناء على اقتراح حكام العامة. وفي عام ٤٦٢ق.م. طالب العامة بتشكيل لجنة لوضع مجموعة قوانين على أساس المساواة بينهم وبين الأشراف، ولكن ظل مجلس السناتو معارضًا لهذا الاقتراح عشر سنوات، وأخيرًا قَبِل السناتو الاقتراح. وبالفعل شُكلت في سنة ٤٥١ق.م. لجنة من عشرة أفراد لوضع التجميع المطلوب، وأُعيد تشكيل اللجنة في العام التالي (٤٥٠ق.م) وانتهى الأمر بوضع قانون الألواح الاثني عشر.

قانون الشعوب :

كان الأجانب لا يتمتعون بالحقوق المستمدة من القانون المدني، فليس لهم حق الزواج، ولا حق التعامل، ولا حق التقاضي، فالقانون المدني هو قانون خاص بالرومان وحدهم. فالأجنبي إذا جاء إلى روما لم يكن لقانونه أي قوة، ولم يستفد من أحكام القانون المدني الروماني.

ولقد لجأت روما- في أول الأمر- إلى منح بعض الأجانب حق الزواج أو حق التعامل، أو حق اختيار بعض المحكمين للفصل في منازعاتهم. ولكن منح هذه الحقوق لم يسوِ الأجانب بالوطنيين لأن أثر هذه المنحة مقصور على الحقوق المستفادة منها دون سواها، فمثلاً منح حق الزواج لا يترتب عليه تمتع الأجنبي بحقوق الأسرة المستمدة من القانون الروماني، كالسيادة الزوجية والسلطة الأبوية والوصاية الشرعية.

ولم تكن الامتيازات التي منحتها روما لسكان بعض المدن إلا علاجًا جزئيًا، وذلك لأنه مع اتساع المدينة، كثر فيها الأجانب النازحون من الشرق على وجه الخصوص، ولم يكن هؤلاء قد منحوا حق التعامل، وأصبح منح هذا الحق غير ضروري عندما ظهرت قواعد قانونية جديدة هي قواعد قانون الشعوب، وقد ظهرت هذه القواعد نتيجة لدخول الرومان مع غيرهم في معاملات تجارية في القرن الثالث قبل الميلاد، مما أدى بالرومان إلى إنشاء وظيفة قضائية جديدة هي وظيفة بريتور الأجانب (عام ٢٤٢ق.م.). وقد تحدد اختصاص بريتور الأجانب بتلك المنازعات التي تنشأ بين الرومان والأجانب أو بين الأجانب المقيمين في روما.

وقد كانت قواعد الإجراءات في قانون الشعوب أبسط منها في القانون الروماني القديم، ومن ثم فإنه- مع مرور الزمن- انتقلت قواعد قانون الشعوب إلى القانون المدني نفسه، لتطبق على علاقات الرومان أنفسهم وأمام البريتور المدني، واستطاع الشراح أن يقرروا أن قانون الشعوب هو جزء من القانون المدني، وأصبحت المقابلة بين القانون المدني وقانون الشعوب لا تعني أكثر من أن قواعد الأول لا تُطبق إلا في علاقات الرومان، بينما قواعد الثاني تطبق على علاقات الرومان وعلاقات الأجانب على السواء. وقد كان قانون الشعوب متقدمًا على قواعد القانون المدني الضيق، فبينما القاعدة في القانون المدني العتيق الضيق أن الإرادة لا تنتج أثرها إلا إذا صيغت في إحدى الصور الرسمية المقررة، أصبحت العبرة وفقًا لقانون الشعوب هي بالإرادة في ذاتها، مهما كانت الصورة التي ظهرت فيها[1].

---

(١) المرجع: كتاب تاريخ القانون الروماني، تأليف: الدكتور عبد المنعم البدراوي، ص٢٩وما بعدها.

الفصل الثاني
الحياة الفكرية وما يرتبط بها

(أ) التعليم والمدارس والجامعات

يلاحظ أن التعليم العام في العصور الوسطى ورث النظم الرومانية، وذلك عن طريق المؤسسات الكنسية والديرية التي احتفظت بالطابع العام للتعليم القديم، حتى قيل أن نمو الكنيسة في الغرب جاء مصحوبًا بتدهور سريع في الدراسات الكلاسيكية. فكانت هناك في أوائل الإمبراطورية الرومانية مرحلتان من المدارس تساعدهما الدولة في المدن الكبرى، أما المرحلة الأولى أو الابتدائية من المدارس فكانت تلقن فيها القراءة والنحو والحساب والموسيقى، في حين اهتمت مدارس المرحلة الثانوية أو العليا بالبلاغة والخطابة والأدب مع شيء من الدراسات القانونية والفلسفية. ومن المعروف أن العصر الذي أعقب غزوات البرابرة وسقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب كان أحلك العصور في تاريخ أوربا الثقافي.

على أن أهم ما ميّز ها العصر هو أن التعليم أخذ يخضع خضوعًا تامًا لسيطرة الكنيسة، نتيجة اتساع نفوذها تدريجيًا، وكانت الدراسات آنذاك تنقسم إلى مجموعة ثلاثية تشمل النحو والبلاغة والمنطق، ومجموعة رباعية تشمل الحساب والهندسة والفلك الموسيقى. وقد ظلت المدارس في الغرب حتى سنة ٦٠٠ تهيئ تعليمًا ابتدائيًا عامًا لإعداد الأفراد للحياة، ولكنها لم تلبث أن تحولت كلية لإعداد رجال الدين للمستقبل، ويلاحظ أن الجرمان أظهروا نفورًا قويًا من التعليم، حتى أن ثيودريك ملك القوط الشرقيين حرّم إرسال أبناء القوط إلى المدارس محتجًا بأن الصغار الذين يشبون على الخوف من عصا المعلم لن تكون لديهم في المستقبل الشجاعة الكافية لمواجهة السيوف والحراب. وهكذا لم يكد ينتهي القرن السابع إلا كان التعليم في أوربا قد أصبح دينيًا بحتًا داخل مدارس ديرية وأسقفية، وأصبح التعليم منصبًا على الإنجيل واللاهوت، والاهتمام بسير القديسين المليئة بالمعجزات والخرافات، **وظلت أوربا جميعها تعيش في هذا الظلام الدامس حتى القرن الثاني عشر.**

وهكذا لم يقدر البقاء للدراسات الراقية والثقافة الإنسانية- بما فيها معرفة اللغة اليونانية- إلا في أيرلندا، التي انبثق نور المعرفة من أديرتها إلى اسكتلنده، ثم بقية أنحاء إنجلترا، ولم يلبث أن امتد بريق هذه الحركة العلمية إلى صلب

القارة عن طريق المؤسسات والأديرة الأيرلندية التي قامت في فرنسا وألمانيا ولمبارديا. وفي الحقيقة فإن التقدم الثقافي كان محدودًا في تلك الفترة، **وظلت أوربا تحت رحمة العصور المظلمة**، إلى أن قام شارلمان بإصلاح المدارس، وإثارة الحركة الفكرية الكبرى التي تُعرف باسم النهضة الكارولنجية.

فقد اهتم شارلمان بنشر التعليم ورفع مستواه والإكثار من المدارس في فرنسا، فكتب إلى رؤساء الأديرة والأساقفة يشكو من جهل رجال الدين، وكثرة الأخطاء المتواترة في المخطوطات الدينية، بل في الإنجيل نفسه، ويأمرهم بالعناية بالمدارس والتعليم لإصلاح هذه الأوضاع. وهكذا انتشرت المدارس الأسقفية والديرية في جميع أنحاء فرنسا، وقد قدر لبعض هذه المدارس البقاء والاستمرار في تأدية رسالتها بعد سقوط هذه الإمبراطورية. وقامت المدارس الديرية فيما بين سنتي ٨٠٠-١١٠٠ برسالتها كاملة، إذ أضحت المراكز الأساسية لحفظ الحضارة الغربية، كما تخرج في مدارِسها عدد كبير من رجال المعرفة المبرزين، لذلك اختار بعض المؤرخين والكتّاب أن يطلقوا اسم «العصر البندكتي» على الفترة الواقعة بين وفاة شارلمان والقرن الحادي عشر، على أساس هذه الفترة تمثل العصر الذي أضحى زمام التعليم فيه في أوربا بأيدي رهبان الأديرة البندكتية.

ويبدو أن تيار النشاط العلمي في أوربا بدأ يتحول- منذ أواخر القرن التاسع- من فرنسا إلى ألمانيا، التي أخذت تفيض حيوية في عهد حكامها من ملوك الأسرة السكسونية، والنهضة الأوتية. على أن هذه النهضة كانت أضعف أثرًا وأضيق دائرة من النهضة الكارولنجية السابقة لها.



تعقيب هام :

بينما كانت أوربا تغط في نوم عميق وظلام دامس فترة العصور الوسطى، وكان التعليم الأجوف قد أصبح دينيًا بحتًا داخل مدارس ديرية وأسقفية، ينصب على الإنجيل واللاهوت، والاهتمام بسير القديسين المليئة بالمعجزات والخرافات، بينما كان الأمر كلك في أوربا، كان الوضع مختلفًا تمامًا في الدولة العربية الإسلامية، فقد تجلى ازدهار الحضارة في الأندلس في ميدان العلم، فبلغ عدد **مدارس قرطبة** وحدها سبعًا وعشرين مدرسة، تلقى فيها الناس العلم بالمجان، كما اشتهرت **جامعة قرطبة**.. التي اتخذت مقرها في الجامع الكبير

بعظمة علمائها وسعة معارفهم، ووفد إلى جامعة قرطبة كثير من أساتذة الشرق للتدريس بها.

واجتذبت جامعة قرطبة الطلاب من المسيحيين والمسلمين على السواء من أوربا وأفريقيا، وامتاز علماء الأندلس بحب البحث والارتحال في طلب العلم، فرحل كثير منهم إلى مصر والشام والعراق وفارس، وبلغ بعضهم بلاد ما وراء النهر والصين في طلب العلم.

ثم تأسس **الجامع الأزهر** بالقاهرة على يد الفاطميين، ووضع الحجر الأساسي له سنة ٩٧٠م، وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة في رمضان سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م. ولم يلبث أن تطور الجامع الأزهر إلى جامعة تُلقى فيها الدروس والمحاضرات في علوم الدين على المذهب الشيعي، ليكون للدولة الفاطمية مركز علم يفد إليه الطلاب من ممتلكاتها لدراسة العلوم الدينية ومبادئ الشيعة، واجتذب الخليفة العزيز وخلفاؤه الطلاب إلى جامعتهم، وقدموا إليهم المأكل والملبس، ولم يفقد الجامع الأزهر مكانته العلمية بعد زوال الخلافة الفاطمية، بل كان محل عناية صلاح الدين الأيوبي وخلفائه من الدولة الأيوبية، وتحول إلى تدريس المذاهب السنية، كما تولاه سلاطين مصر من المماليك بالرعاية والعناية، وحفظوا له هيبته وسمعته.

وفي العصر العباسي الثاني، اهتم السلاجقة بالعلم خاصة في عهد ملك شاه (٤٦٦-٤٨٥هـ) ووزيره نظام الملك، الذي شجع الشخصيات المشهورة في العلوم والآداب، وتوَّج الوزير مجده **بإنشاء المجامع العلمية في بغداد، وأشهرها المدرسة النظامية** التي تم بناؤها سنة ١٠٦٧م في بغداد، ثم أسس مدرسة نظامية في نيسابور، وفي المدن الكبرى بالعراق، وكانت هذه المعاهد تدرس مختلف المواد الدينية والعلمية بما في ذلك الفلسفة وعلوم القرآن والحديث والطب والكيمياء والهندسة وغيرها.

من هذا يتبين أن المجتمع العربي الإسلامي لم يخضع لفترات ظلال وجهل مثلما حدث في أوروبا، بل إن العلم كان منتشرًا، والثقافة كانت ذائعة مزدهرة، في كافة أرجاء الوطن العربي.



والحق يقال: فإن أوربا شهدت نهضة فكرية في القرن الثاني عشر، ولكنها جاءت متأخرة، وقد ساعد على هذه النهضة الانتعاش الاقتصادي،

والاستقرار الاجتماعي والسياسي، وازدياد اتصال الأوربيين بالثقافة الإسلامية عن طريق الأندلس وصقلية والشام، كما سيأتي بيانه لاحقًا. وقد ترتب على هذه النهضة الحضارية اتساع نطاق المعرفة في غرب أوربا، بحيث لم تعد تتسع لها المدارس الأسقفية أو الديرية بنظمها التي كانت عليها في أوائل القرن الثاني عشر، مما تطلب نظامًا جديدًا للتعليم العالي يفي بحاجات العلوم الجديدة، ولم يكن ذلك إلا بنشأة الجامعات.

نشأة الجامعات في أوربا:

ظهرت أولى الجامعات الأوربية في القرن الثاني عشر في بولونيا بإيطاليا، وفي باريس بفرنسا، وقد تفرعت عن الأولى بقية الجامعات الأوربية في حوض البحر المتوسط، في حين تفرعت عن الثانية جامعات شمال أوربا وغربها.. التي ظهرت في أواخر العصور الوسطى. والمعروف أن لفظ رابطة أو جامعة لم يعن في الأصل أكثر من مجموعة من الأساتذة أو الطلاب اجتمعوا في صعيد واحد لمباشرة النشاط الثقافي. على أن الطلاب خطوا خطوة السبق في بولونيا عندما نظموا أنفسهم في هيئة نقابة أطلقوا عليها لفظ «جامعة». أما في جامعة باريس فاتخذ التنظيم اتجاهًا عكسيًا لما كان عليه الحال في بولونيا، إذ بدأ الأساتذة بتكوين رابطة أو جامعة، في حين انقسم الطلبة إلى أربع مجموعات أو أروقة حسب أصولهم والشعوب التي ينتمون إليها، لكل مجموعة وكيل أو قائم بأعمالها، وهؤلاء يختارون الرئيس أو المدير الأعلى للجامعة، الذي كان بطريقة آلية رئيس أساقفة باريس، لأن جامعة باريس نشأت وتدرجت في مدرستها الأسقفية.

والواقع أنه لم توجد جامعة في ذلك الدور الأول من تاريخ الجامعات استوفت كل الأقسام العلمية، والذي حدث بالضبط هو أن كل جامعة تخصصت في ميدان أو أكثر من ميادين المعرفة، فاشتهرت باريس بالفلسفة واللاهوت والقانون الكنسي والآداب، وتخصصت بولونيا في القانون الروماني، وعُرفت سالرنو بالتفوق في دراسة الطب.. وهكذا.

ولم تلبث الجامعات أن انتشرت في أوربا، مستمدة نظمها من جامعة باريس في الغرب وجامعة بولونيا في الجنوب، ففي إنجلترا ظهرت جامعة أكسفورد في القرن الثاني عشر، وإن كانت لم تتخذ صفتها الرسمية إلا حوالي سنة ١٢٠٠، وكانت أكسفورد في الواقع وليدة جامعة باريس لأن مؤسسيها كانوا

من الطلبة والأساتذة الذين درسوا في باريس. أما كمبردج فقد تأسست سنة ١٢٠٩ عن طريق هجرة بعض طلاب وأساتذة أكسفورد إليها، الأمر الذي جعل بعض الكتّاب يشبهون انتشار الجامعات في العصور الوسطى بتكوين خلايا النحل الجديدة، إذ يكفي أن يهاجر بعض الأساتذة والطلبة من جامعة قديمة إلى مكان جديد ليضعوا أساس جامعة أخرى جديدة. وفي اسبانيا ظهرت جامعة شلمنقة قبل سنة ١٢٣٠، أما أولى الجامعات التي ظهرت شمال الألب فكانت جامعة براغ في بوهيميا التي أسسها شارل الرابع سنة ١٣٤٧، وفي سنة ١٣٨٥ قامت جامعة هيدلبرج وهي أولى الجامعات الألمانية. وإذا كانت معظم هذه الجامعات قد اختلفت بعضها عن بعض في جوانب متعددة، إلا أنها اتفقت في الطريق الطويل الذي سارت فيه نحو التحرر من كافة القيود، حتى حققت استقلالها عن السلطات الكنسية والعلمانية جميعًا(١).

(ب) فضل الحضارة العربية على الحضار الحديثة

لم يقتصر فضل الحضارة العربية الإسلامية على تهذيب التراث الحضاري والإضافة إليه، بل أسهمت كذلك بحضاراتها ودراساتها في وضع حجر الأساس للحضارة الأوربية وغيرها من حضارات العصر الحديث. وانتشرت أضواء الحضارة العربية إلى أوربا من ثلاث مراكز رئيسية كبرى هي: الشرق العربي زمن الحروب الصليبية، والأندلس زمن الخلافة الأموية به، ثم صقلية حيث نشأت دولة عربية ظلت حضارتها قائمة بين أبناء صقلية زمنًا طويلاً بعد زوال تلك الدولة.

وتركت الحضارة العربية في اللغات الأوربية ألفاظًا تدل على مقدار ما أفادته الحضارة الحديثة من تراث عربي في شتى العلوم، وأعظم الأمثلة على ذلك، أن معظم أسماء **النجوم السماوية** في اللغات الأوربية، لا تزال تنطق بصيغها العربية، ومنها العقرب والجدي والطائر والذنب، ولا تزال **المصطلحات الفكرية والرياضية** حافظة لصيغتها العربية في اللغات العربية، بل إن **الأرقام الحسابية** مأخوذة عن الأرقام العربية، ولم تعرف أوربا الصفر والكسور إلا عن طريق العرب. ونقلت أوربا أيضًا الكثير من أبحاث العلماء العرب **في ميدان**

---

(١) المرجع: كتاب الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور بعنوان «أوربا العصور الوسطى» (الجزء الثاني)، ص١١٩ وما بعدها.

الطبيعة، فنقل روجر بيكون إلى الغرب الأوربي دراسات ابن الهيثم ونظرياته **في البصريات وعلم الضوء**.. وغيرها من هذه الأمور، وأفاد من أبحاث ابن الهيثم بعد ترجمتها إلى اللاتينية العالم الأوربي كبلر، واتخذها مرجعًا اعتمد عليه في بحوثه الفلكية، وعرف العالم والفنان الإيطالي ليوناردو دافنشي أعمال ابن الهيثم واستخدمها.

واستفادت الدراسات الطبية **في أوربا من مؤلفات الأطباء والعلماء العرب**.. ومنهم الرازي وابن سينا والزهراوي، واعتبروا الرازي حجة في الجراحة والكيمياء، ومن أهم مؤلفاته كتاب «الحاوي» الذي ترجم إلى اللاتينية، وصار هذا الكتاب مرجعًا في دراسات الطب في جامعات أوربا قرونًا عديدة، وحسب الرازي اليوم أن جامعة ونستون الأمريكية أطلقت اسمه على أكبر أجنحتها اعترافًا بفضله في مجالات العلوم الطبية. وكذلك تمت ترجمة كتاب «القانون» في الطب لابن سينا. وظل هذا الكتاب دليل المشتغلين بالطب في أوربا حتى القرن السابع عشر الميلادي. وما زالت كلية الطب في جامعة باريس تحتفظ في كبرى قاعاتها بصورتين كبيرتين: إحداهما للرازي، والأخرى لابن سينا، تخليدًا لذكرى هذين العالمين، واعترافًا بفضلهما.

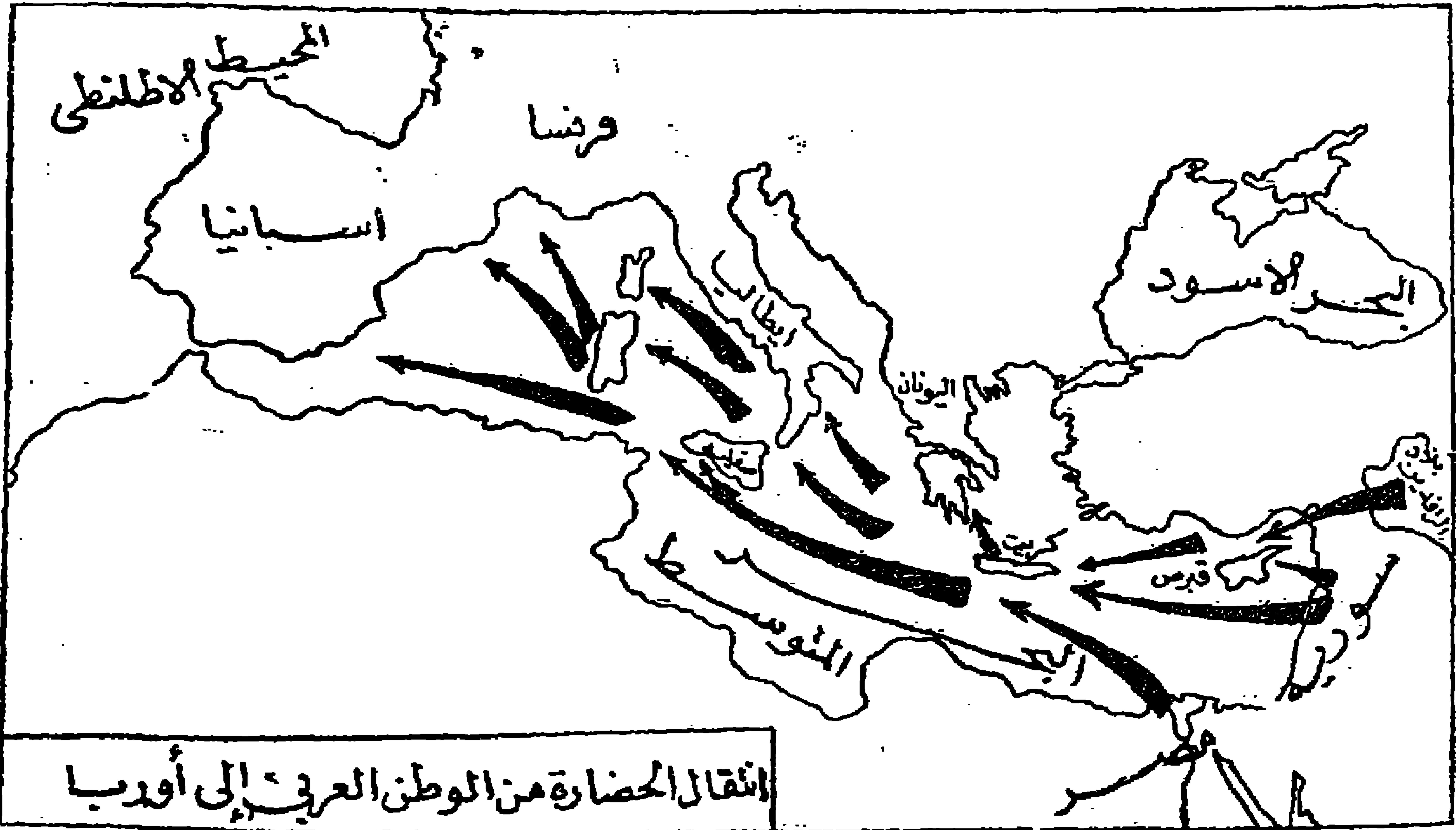
أما **الزهراوي** فكان من أشهر الجراحين العرب بالأندلس، فهو صاحب كتاب كبير عنوانه: «التصريف لمن عجز عن التأليف» والجزء الأخير من هذا الكتاب في علم الجراحة، وترجم هذا الجزء الأخير، وجعلته جامعة أكسفورد بإنجلترا المرجع لدراسة الجراحة حتى القرن الثامن عشر الميلادي. والواقع أنه لولا الكنوز العربية في الطب والفلك والرياضيات والكيمياء والفيزياء والبيطرة والزراعة لاستحالت حركة إحياء العلوم المشهورة.

ولا تزال كثير من المؤلفات العربية هي المرجع الوحيد الذي يمكن أن يستمد منه **أوصاف كثير من بقاع الأرض** التي كان للعرب الفضل الأول في ارتيادها، ومن هذه المراجع الخالدة كتاب البيروني «وصف الهند»، وكتاب ياقوت الحموي «معجم البلدان»، وكتاب «رحلة ابن بطوطة».

ومن هنا نستطيع أن ننتقل إلى شرح فضل العرب **في ميدان الكشف الجغرافي**، فكان العرب هم الذين اكتشفوا أسرار الملاحة في المحيط الهندي وجزر الهند الشرقية وشواطئ الصين، والراجح أنهم بذلوا محاولات لعبور الأطلنطي لما هو معروف الآن باسم أمريكا. ولا شك أن ما كتبه الجغرافيون

العرب الذين عاشوا في صقلية والأندلس كان مادة استرشد بها البرتغاليون فـــي كشف طريق رأس الرجاء الصالح، وخرستوف كولمبس في اكتشاف أمريكا.

وفي الصفحة التالية خريطة توضح انتقال الحضارة من الوطن العربي إلى أوربا.



انتقال الحضارة من الوطن العربي إلى أوربا

(ج) القانون والتشريع

اعتبر الرومان **قانون الألواح الاثني عشر** شاملاً لكل قانونهم المدني، أي قانون المدينة، وقد عالج هذا القانون النظم القانونية التي كانت سائدة في روما في القرن الخامس قبل الميلاد، وذلك على الترتيب الآتي:
نظام الأسرة، والملكية، ونقل الملكية، والالتزامات والعقود، والجرائم، ونظام الدعاوى، ويعتبر قانون الألواح هو الأساس لكل النظم القانونية التي وُضعت بعد ذلك، وكان تطبيقه قاصرًا على المواطنين الرومان.

وعندما صارت روما عاصمة لعالم البحر المتوسط، اضطرت المحاكم الرومانية إلى أن تكمل القانون المدني الخاص بقانون آخر عام أكثر شمولاً ومرونة، ولا يختص بالمواطنين الرومان وحدهم، وقد روعي في هذا القانون الأخير أن يتناول العلاقات بين أهالي جميع بلاد الإمبراطورية. ولما كان هذا القانون العام أوسع أفقًا وأكثر شمولاً، فإنه أخذ يؤثر في قانون المواطنين (الأقدم) تأثيرًا سريعًا، وسرعان ما تداخل القانونان بعضهما في بعض، نتيجة للتوسع في منح الجنسية الرومانية لأهالي الولايات الرومانية.

وثمة تطور طرأ على القانون الروماني عندما حاول **دقلديانوس** إصلاح مرافق الإمبراطورية، وإنقاذها من الهوة التي انزلقت إليها، فجعل إرادة الإمبراطور- ممثلة في مراسيمه- هي الإرادة العليا التي يجب أن تسمو على جميع ما عداها من تشريعات وقوانين، وقد تطلب كثرة الأوامر والمراسيم جمعها منذ عهد **الإمبراطور قسطنطين** وتبويبها، وهي المجموعة التي تمت وصدرت في عهد **الإمبراطور ثودسيوس الثاني** سنة ٤٣٨ ونسبت إليه.

على أن أهم عمل قانوني شهدته أوربا العصور الوسطى ارتبط باسم **جستنيان** إمبراطور الدولة الشرقية (٥٢٧-٥٦٥). والحق أن ما جاء به هذا الإمبراطور من جمع القانون الروماني وتبويبه وتنظيمه، حقق لاسمه الخلود على صفحات التاريخ، وتشمل المجموعة التي صدرت سنة ٥٢٩ أكثر من أربعة آلاف وستمائة وخمسين مرسومًا أو تشريعًا، بعضها أصدره جستنيان والباقي أصدره أسلافه من الأباطرة. ولما كان الإمبراطور جستنيان قد استمر في إصدار كثير من التشريعات والأوامر الإمبراطورية بين حين وآخر، فإن هذه الأوامر المستحدثة أطلق عليها اسم المتجددات (المستجدات) أو القوانين الحديثة. ثم بذل جستنيان مجهودًا ضخمًا حتى صدرت الموسوعة (Digesta) سنة ٥٣٣، وهي

تجمع خلاصة ما كتبه فقهاء العصر العلمي، وتقع في خمسين كتابًا. على أن هذه الموسوعة كانت أضخم من أن يستطيع طلاب القانون الرجوع إليها في سهولة ويسر، لذلك أصدر جستنيان موجزًا يسهل على الطلاب استخدامه، وسُمي هذا الموجز: القواعد (Intuitions)[1].

وكان أكثر المهتمين بالتشريع بعد ذلك الإمبراطور ليو الثالث، إذ أنه في ميدان التشريع أصدر مرجعًا قانونيًا سنة ٧٢٦ يُعرف باسم: الإكلوجا (Ecloga) أي المختار، يشتمل على مختارات من أهم قواعد القانون المدني والجنائي، مع العناية بالنواحي المتعلقة بالأسرة والميراث والملكية. وكان الغرض من إصدار هذا الكتاب إمداد القضاة بمرجع واف مركز يغنيهم عن بقية المراجع المطولة.

وقد اهتم **شارلمان** إمبراطور فرنسا بالقانون، إلا أن تشريعات عصره لم تكن كثيرة، وكل ما صدر منها اثنان متعلقان بسكسونيا وثمانية تتعلق بإيطاليا. كما أصدر مجموعة من الأوامر والمراسيم المتباينة هدفها إقرار النظام والعدالة في الدولة، وقد تناولت هذه التشريعات إصلاح نظام المحاكم عن طريق تقوية العنصر الشعبي في دور القضاء، بعد أن صارت المحاكم في أيدي قضاة غير مسئولين، يجهلون القانون ويخشون بأس الكونت أو حاكم الإقليم ويعملون لحسابه، لذلك استبدل شارلمان هؤلاء القضاة بهيئات أخرى يُختار أعضاؤها بدقة وعناية، ويُشترط فيهم حسن السمعة والدراية بالقانون.

القانون الروماني والشريعة الإسلامية:

العالم القدير الدكتور صوفي أبو طالب ﷺ، أجرى بحثًا متعمقًا قارن فيه بين القانون الروماني والشريعة الإسلامية، رد فيه على بعض المستشرقين وفقهاء الغرب الذين ادعوا أن الشريعة الإسلامية أخذت الكثير من قواعدها من القانون الروماني، فقال إن القانون الروماني بدأ بمجموعة قليلة العدد من القواعد العرفية دُوِّن بعضها في قانون الألواح الاثني عشر في القرن الخامس قبل الميلاد، وانتهى به الحال بتقنين ضخم في مجموعة جستنيان الشهيرة في القرن السادس الميلادي، وقد تميز خلال تطوره بظهور العديد من المصادر بجانب العُرف، ثم انتهى به الحال في أواخر عصر تطوره بحصر مصادر القاعدة

---

(١) المرجع: كتاب «تاريخ القانون الروماني» للدكتور عبد المنعم البدراوي في صفحات متفرقة.

القانونية في مصدر وحيد هو إرادة الإمبراطور. وكان العُرف هو المصدر الرئيسي حتى وفاة جستنيان في عام ٥٦٥م.

وقد اعتمد القانون الروماني منذ أقدم العصور على العقل البشري، فقد انفصل القانون عن الدين منذ صدور قانون الألواح الاثني عشر، وظل كذلك طيلة عصور تطوره حتى بعد انتشار المسيحية واعتبارها دينًا رسميًا للدولة. ومن ناحية أخرى فصل القانون الروماني فصلاً يكاد يكون تامًا بين الأخلاق والقانون، سواء من حيث مجال التطبيق أم من حيث الجزاء، لأن مقاصد القانون الرومي نفعية محضة. وهكذا يبين أن القانون الروماني كان دائمًا وأبدًا يعبر عن ضمير الجماعة، ولذلك كان العُرف مصدره الرئيسي ثم اعتمد على مصدر وحيد- من عصر الإمبراطورية السفلى- هو إرادة الإمبراطور.

أما الشريعة الإسلامية فقد بدأت بتشريع منزل من عند الله تعالى، وظلت كذلك طيلة عصور تطورها، ولذلك انحصرت مصادرها في مصدر واحد هو الوحي الإلهي سواء بطريق مباشر (القرآن) أم بطريق غير مباشر (السنة)، أما الإجماع فهو وسيلة من وسائل تطور التشريع الإسلامي، وقيمة الحكم الذي تقرر بالإجماع ترجع إلى الأدلة التي بُني عليها، سواء كانت تفسير النص في الكتاب أو السنة، أو قياسًا على نص ورد في أحدهما، ولا مجال للإجماع في حالة وجود نص. أما القياس، فهو وسيلة استدلال عقلية لازمة لتطور القانون، ولا يستغني عنها أي نظام قانوني، واعتماد الفقه الإسلامي على الوحي الإلهي يعتبر من صفاته ومميزاته الرئيسية.

يتضح مما تقدم أنه بينما يعتمد القانون الإسلامي على الوحي الإلهي، يعتمد القانون الروماني على العقل البشري، فكيف يتصور التوفيق بين نظامين قانونيين وصلا إلى هذه الدرجة من الاختلاف. ولذلك فإن ما نادى به بعض المستشرقين، الذين قالوا بتأثر الفقه الإسلامي بالقانون الروماني عن طريق المصادر وطرق التفسير اعتمادًا على التماثل في معنى بعض المصطلحات العلمية أصبح لا يحظى بتأييد المستشرقين المعاصرين[١].

وهذا علاوة على اختلاف المقاصد في الشريعة الإسلامية عن اختلاف المقاصد في القانون الروماني.

---

(١) المرجع: كتاب الدكتور صوفي حسن أبو طالب بعنوان: تطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد العربية، ص٣٠٣.

الفصل الثالث
النظم الاجتماعية والاقتصادية

(أ) النظام الإقطاعي.. والرق

إن التطور الإقطاعي يرتبط ارتباطًا قويًا بالحياة الأوربية في العصور الوسطى من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية بل والدينية، وقد بلغ النظام الإقطاعي في غرب أوربا في القرن التاسع مرحلة حاسمة واضحة المعالم من مراحل نموه وتطوره، ذلك لأن تاريخ دولة الفرنجة في فرنسا (غاليا) يكشف عن كثير من العادات والتقاليد التي يمكن تسميتها إقطاعية، والتي تعتبر جذورًا للنظام الاجتماعي. واستمر الوضع على ذلك حتى حاول شارل مارتل أن يتوسع في نظام الخيالة، ليجعل جيشه قوة فعالة في ميدان الحرب، وعندما تبين أن تعميم هذا النظام يتطلب منه نفقات ضخمة لإعداد ما يحتاج إليه الفارس من حصان ودرع وسلاح، فضلاً عن أن هذا النوع من الفرسان يجب أن يتوافر لهم مورد يعيشون عليه حتى يتفرغوا لشئون الحرب والقتال. ولما كانت موارد الدولة محدودة في القرن الثامن بحيث لا تفي بكل هذه المطالب، فإن شارل مارتل لجأ إلى حل يتفق وتقاليد ذلك العصر، فسجل أسماء المحاربين وجعلهم يقسمون له يمين الولاء، ثم أعطى كلاً منهم إقطاعًا يكفي لسد مطالب معيشته، على أن يبقى هذا الإقطاع في حوزته ما دام يقوم بالخدمة العسكرية. وعندما وجد شارل مارتل أنه من الصعب توافر الأراضي اللازمة لهذا العدد الكبير من الفرسان، بدأ يتطلع إلى أراضي الكنيسة فوضع يده على بعضها ليوزعها على هيئة قطاعات من الأرض على فرسانه، وعن هذا الطريق كوَّن جيشًا قويًا من الفرسان، استغله في طرد المسلمين من جنوب غاليا، وفي محاربة السكسون في الشمال.

وهكذا أخذت تتكون في القرن التاسع طبقة من السادة الإقطاعيين والأفصال، فصار المحارب أو الفارس الصغير الذي لا يمتلك من الأرض إلا قدرًا بسيطًا فصلاً لمالك أكبر- ربما كان كونت الإقليم- في حين صار هذا الكونت فصلاً لمالك أعظم قد يكون الدوق أو الملك. ومن الواضح أن عملية التطور الإقطاعي تعني تنازل السلطة المركزية في الدولة عن حقوقها وواجباتها، بسبب ضعفها وعجزها عن مواجهة الأخطار المحيطة بها، مما دفع الملك إلى اختيار بعض ذوي النفوذ والبأس لينعم عليهم بحقوق وامتيازات في مناطق معينة مقابل شروط خاصة. لذلك لا ينبغي أن يقتصر تفسيرنا لهذه العملية على جانبها

الاقتصادي لأنها تمس في الواقع جميع أركان النظام السياسي في الدولة. فإذا أعلن الملك مثلاً تنازله عن حق جباية الضرائب في منطقة معينة لسيد معين، فليس معنى ذلك أن الفلاحين في هذه المنطقة استراحوا من عبء تلك الضرائب، لأن الذي حدث فعلاً أنهم استمروا يدفعون الضرائب المقررة نفسها، ولكن للسيد الذي عينه الملك، ومثل هذا الوضع يمكن أن يقال عن العدالة والقضاء، لأن تنازل الملك عن حقوقه القضائية في منطقة معينة من بلاده لفرد من أفصاله، يعني قيام هذا الفرد بما كان ينبغي أن تقوم به السلطة الملكية في هذا الميدان، فضلاً عن قيامه بجمع الرسوم القضائية من المتقاضين.

وكانت أهم مظاهر تطور العلاقات الإقطاعية بين السادة الإقطاعيين وأفصالهم هي تحول الإقطاع إلى منحة وراثية بعد أن كانت هذه المنحة في أول أمرها مؤقتة مرهونة بمدى الحياة. ومن الواضح أن هذه الخطوة جاءت نتيجة طبيعية لتعذر منع ابن الفصل من الاستيلاء على إقطاع أبيه بعد وفاته. ولذلك حرص القانون الإقطاعي- بخلاف القوانين الرومانية والجرمانية- على أن ينص على انتقال الإقطاع كاملاً في حالة وفاة صاحبه إلى أكبر أبنائه.

ومن الطبيعي أن يكون التعاون في ميدان الحرب هو المحور الأساسي للعلاقات الإقطاعية بين السيد وأفصاله، لأن المهمة الأولى للسيد الإقطاعي كانت حماية أفصاله وأراضيهم، في حين كان الواجب الأول على هؤلاء الأفصال هو الخدمة في جيش سيدهم. وهكذا غدا المجتمع الإقطاعي يدور حول محور واحد هو الفارس المحارب، فيتعهد الأمير الإقطاعي بالحضور فورًا على رأس عدد معين من الفرسان لمساندة الملك متى طلب منه ذلك، وبالتالي يتعهد أفصال ذلك الأمير بمساندته وقت اشتباكه في حرب مع عدو له. ويرتبط بالخدمة العسكرية التي يؤديها الفصل لسيده قيام الأول بنصيبه في حراسة قلعة السيد، ولم تكن هناك حصون إقطاعية في غرب أوربا قبل القرن العاشر، ولكن هذه الحصون أخذت تنتشر منذ ذلك الوقت حتى صار لكل أمير إقطاعي- في القرن الحادي عشر- قلعة على الأقل، يأوي إليها أفصاله وذووهم وقت الخطر، ويتناوب هؤلاء الأفصال حراستها على مدار السنة. فإذا تركنا الواجبات الحربية والاجتماعية المفروضة على الأفصال تجاه سادتهم الإقطاعيين، فإننا نجد الأفصال أمام عبء ثقيل من الالتزامات المادية أو المالية، ذلك أنه أصبح لزامًا على الفصل أن يؤدي لسيده عدة مقررات ومكوس إقطاعية صارت بمثابة حقوق ثابتة للسيد، ومن هذه الضرائب المفروضة.

وثمة ملاحظة أخرى على النظام الإقطاعي في غرب أوربا، هي أن الكنيسة كان لها أثر واضح في تطور هذا النظام، لا سيما فيما يتعلق بالإقلال من الحروب والمنازعات بين الأمراء الإقطاعيين، وتوجيه نشاط هؤلاء الأمراء وجهة أخرى تتفق وصالح المجتمع المسيحي، من ذلك ما نادت به الكنيسة من تحريم الحروب في أوقات معينة أُطلق عليها «هدنة الله» (Treve de Dieu). ويبدو أن رجال الكنيسة آمنوا عندئذٍ بأن هدفًا واحدًا هو الذي يستأثر بجهود أمراء أوربا وفرسانها، ولم يكن هذا الهدف سوى الحرب الصليبية في الأندلس ثم في بلاد الشام. وأخيرًا نلاحظ أن النظام الإقطاعي أدى إلى وجود وحدات اقتصادية تكفي نفسها بنفسها، فالضيعة الإقطاعية كانت في حد ذاتها وحدة مكتفية اكتفاءً ذاتيًا، الأمر الذي عاق تقدم الحياة الاقتصادية في بلدان غرب أوربا.

المجتمع الأوربي في ظل النظام الإقطاعي :

انقسم المجتمع الأوربي في العصور الوسطى إلى ثلاث طبقات: طبقة رجال الدين، وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان، وطبقة الفلاحين، أما الطبقتان الأولتان فكانتا تمثلان الهيئة الحاكمة من وجهة النظر السياسية، في حين كانت طبقة الفلاحين تمثل جموع الكادحين المغلوبين على أمرهم، المحرومين من النفوذ والثروة.

وإذا كان النظام الإقطاعي هو الذي حدد وضع طبقة المحاربين ونظم حياتهم العامة، فإن هناك نظام آخر هو النظام السنيوري أو نظام السيادة حدد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للفلاحين والعمال، مع ملاحظة الرباط الوثيق الذي يربط النظامين ويصل بينهما، وهو رباط الأرض. فالنظام السنيوري الخاص بالفلاحين لا يدخل في صلب التنظيمات الإقطاعية وإنما يأتي على هامشها، ذلك أن النظام الإقطاعي قام على أساس العلاقة بين حر وحر وتبعية سيد لسيد آخر أقوى منه، وذلك في ظل نظام محكم من الحقوق والواجبات المتبادلة. أما النظام السنيوري فعلى العكس يمثل علاقة سيد حر يمتلك الأرض بمزارعين مرتبطين بالأرض، فالعلاقة هنا بين سيد حر وفلاح خاضع مقيد بالأرض غير حر، وكان على الفلاح أو المزارع القيام بخدمات معينة ودفع ضرائب معلومة للسيد الإقطاعي المالك، فإذا عجز عن الوفاء بهذه الخدمات والأموال- مهما كانت شاقة وباهظة- فإنه في هذه الحالة يكون عرضة للاستبدال أو الطرد أو غير ذلك. وتكونت طبقة الفلاحين في أساسها من الرقيق Slaves

والأقنان Serfs الذين تقاربت ظروفهم جميعًا، فاختلطوا عن طريق ذوبان الرقيق وانصهارهم وسط محيط الأقنان.

وكانت الضيعة (Manor) وحدة نظام الملكية الزراعية في تلك العصور، وكان الإقطاع يتألف من ضيعة أو من عدة ضياع، وكانت أشبه شيء بمملكة أو عالم صغير يحكمها سيد يتمتع بسلطة شبه مطلقة، وتمتلك جميع مقومات الاكتفاء الذاتي، وتنتج جميع المواد الغذائية وغير الغذائية اللازمة لاستهلاك أهلها، وكان لكل ضيعة حدادها ونجارها، كما كانت لكل ضيعة كنيستها وقسيسها، وكان يحدث أن تتجمع بعض القرى المتقاربة لينشأ من تجمعها ضيعة واحدة، ولعل هذه الاستثناءات هي التي دفعت بعض الكتّاب المحدثين إلى تفضيل اسم القرية للدلالة على الوحدة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الريفي في أوربا العصور الوسطى بدلاً من اسم الضيعة.

ونستطيع القول بأن القن لم يكن رقًا ولا حرًا، وإنما كان بين هذا وذاك، فهو لا يتمتع إلا بقليل من الحقوق المدينة قِبَل سيده، ولكنه خارج نطاق علاقته بسيده، يعتبر في نظر الدولة والكنيسة حرًا، له ما للأحرار من حقوق وإرادة، وحرية في عقد أي اتفاق مع غيره.

ثم كان أن أخذ نظام الأقنان في الانهيار نتيجة للتطورات الاقتصادية والاجتماعية التي بدأت أوربا تجتازها منذ أواخر القرن الحادي عشر. وقد بدأت هذه التطورات في الظهور قبيل الحروب الصليبية، ولكن هذه الحروب عجلت بها نحو الأمام، حتى أن الحملة الصليبية الأولى وحدها فتحت الباب أمام عشرة آلاف قن تركوا أرضهم التي ارتبط بها آباؤهم وأجدادهم بحجة الاشتراك في النشاط الصليبي، ثم كانت نشأة المدن وتطورها.. مما فتح بابًا جديدًا أمام الأقنان لهجرة الأرض والنزوح إلى المدن. ولم يلبث أن تبين أصحاب الضياع أن نظام الرقيق والأقنان غير اقتصادي، وأنه من الأوفر لهم والأجدى عليهم استخدام عمال مأجورين من الأحرار في فلاحة أرضهم، لأن هؤلاء الأخيرين يعملون بعزيمة أقوى وروح أسمى، وبالتالي يأتون بإنتاج أوفر. وهكذا أخذ كبار الملاك يحررون أقنانهم بالجملة وفق شروط خاصة تصدر بها براءة من المالك. هذا إلى أن النشاط التجاري في القرن الثاني عشر وما ترتب عليه من التوسع في استخدام النقود، أدى تدريجيًا إلى أن أخذ الفلاحون يدفعون ما عليهم من التزامات نقدًا لا عينًا، وإن ظلت بعض الضرائب والمكوس محتفظة بأسمائها القديمة. وإذا

كان نظام الأقنان قد ظل قائمًا في جميع أنحاء أوربا في القرن الثالث عشر، إلا أنه كان آخذًا آنذاك في الاحتضار السريع[1].

الاتجار في الرقيق واستعبادهم :

جاء الدين المسيحي فأقر الرق الذي أقره اليهود من قبل، ونص القديسون على شرعية خدمة الرقيق لسادتهم. وليس في الإنجيل نص يحرمه أو يستنكره. ومن الغريب أن المؤرخ «وليم مور» يعيب على سيدنا محمد ﷺ بأنه لم يبطل الرق حالاً، مع تغاضيه عن موقف الإنجيل من الرق، حيث لم يُنقل عن السيد المسيح، ولا عن الحواريين، ولا عن الكنائس.. شيئًا من هذه الناحية.. بل كان بولس (الداعية المسيحي) يوصي في رسائله بإخلاص العبيد في خدمة سادتهم، فقال في رسالته إلى أهل أفسس: «أيها العبيد، أطيعوا سادتكم حسب الجد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح، ولا بخدمة العين كما يرضى الناس، بل كعبيد للمسيح. عاملين مشيئة الله من القلب، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس. عالمين أنه مهما عمل كل واحد من الخير، فذلك يناله من الرب عبدًا كان أم حرًا».

وأوصى الرسول بطرس بمثل هذه الوصية. وأوجبها آباء الكنيسة.

وأضاف القديس الفيلسوف «توما الأكويني» رأي الفلاسفة إلى رأي الرؤساء الدينيين، فلم يعترض على الرق بل زكاه، لأنه على رأي أستاذه أرسطو حالة من الحالات التي خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية. وأقر القديسون أن الطبيعة جعلت بعض الناس أرقاء.

وفي المعجم الكبير للقرن التاسع عشر «لاروس»، «لا يعجب الإنسان من بقاء الرق واستمراره بين المسيحيين إلى اليوم، فإن نواب الدين الرسميين يقرون صحته ويسلمون بمشروعيته». وفيه: «الخلاصة أن الدين المسيحي ارتضى الاسترقاق تمامًا إلى يومنا هذا، ويتعذر على الإنسان أن يثبت أنه سعى في إبطاله».

وجاء في قاموس الكتاب المقدس للدكتور «جورج يوسف»: إن العالم

---

(١) المرجع: كتاب الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور عن أوربا العصور الوسطى (الجزء الثاني)، ص٤٥، ٦٣.

«شاق» قال: «إن المسيحية لم تعترض على العبودية من وجهها السياسي، ولا من وجهها الاقتصادي، ولم تحرض المؤمنين على منابذة جيلهم في آدابهم من جهة العبودية، حتى ولا على المباحثة فيها، ولم تقل شيئًا ضد حقوق أصحاب العبيد، ولا حركت العبيد إلى طلب الاستقلال، ولا بحثت عن مضار العبودية، ولا قسوتها، ولم تأمر بإطلاق العبيد حالاً. وبالإجماع لم تغير النسبة الشرعية بين المولى والعبد بشيء، بل بعكس ذلك فقد أثبتت حقوق كل من الفريقين وواجباته».

ومن العبث أن نقارن بين تعاليم الأسماء التقية والسنية- التي شرحناها من قبل- وبين هذه التعاليم:

ونسأل أخيرًا: ماذا صنعت أوربا للرقيق؟

إن أوربا لا تعرف الدين إلا وسيلة لإشباع آثامها، وإرضاء أطماعها. وهي قلما تستوحي روحه أو نصوصه فيما تشرعه من سياسات لمعاملة الآخرين، وليس لديها من بأس في أن تنتفع بالعقائد الدينية أو برجال الدين، إذا كان ذلك يشوه الإسلام، وينتقص من قدره.

عندما اتصلت أوربا بإفريقيا السوداء، كان هذا الاتصال مأساة إنسانية، عرضت الزنوج لبلاء هائل طوال خمسة قرون. فإن الدول الأوربية نظمت اختطاف هؤلاء المساكين واجتلابهم إلى بلادها لتكلفهم بأشق الأعمال. فلما اكتشفت أمريكا آخر القرن الخامس عشر، ازداد البلاء النازل بهؤلاء السود التعساء، لأن عبء الخدمة المنوط بهم أصبح يمتد إلى قارتين بدل قارة واحدة. وتقول دائرة المعارف البريطانية: جزء٢، ص٧٧٩ تحت مادة (Slavery) أي «الرق»: إن اصطياد الرقيق من قراهم المحاطة بالأدغال، كان يتم بإيقاد النار في الهضيم الذي صُنعت منه الحظائر المحيطة بالقرى، حتى إذا نفر أهل القرية إلى الخلاء يصيدهم الإنجليز بما أعدوا لهم من وسائل. وعدا من كانوا يموتون من هذا القنص الآدمي في الرحلة إلى الشاطئ الذي ترسو عليه مراكب الشركة الإنجليزية وغيرها، كان ثلث الباقين يموت بسبب تغير الطقس، ويموت في أثناء الشحن حوالي ٤,٥% منهم و١٢% في أثناء الرحلة. وكثر عدد الزنوج في أمريكا حتى بلغ عددهم حوالي عشرين مليونا، هاجر أكثرهم منذ أعلن تحريرهم، وأسسوا لهم مملكة في أفريقيا تعرف الآن باسم «ليبريا» الذي يحمل معنى الحرية (Librty).

وكان احتكار تجارة الرقيق على سواحل أفريقيا مقصورًا على البرتغاليين في القرن الخامس عشر، حتى أن هنري الملاح يعتبر مؤسس تجارة الرقيق في أوربا، ثم انتقل إلى الأسبان في أواخر هذا القرن. وتسابقت الدول الأوربية إلى هذه التجارة بعد ذلك. وتذكر دائرة المعارف البريطانية أيضًا أن التجار البريطانيين كانوا يوردون الرقيق إلى المستعمرات الأسبانية في أمريكا، ومكثت هذه التجارة مدة طويلة في أيدي شركات حصلت من الحكومة البريطانية على حق احتكارها، ثم أطلقت فيها أيدي جميع الرعايا البريطانيين، ويقدر مجموع ما استولى عليه البريطانيون من الرقيق، واستعبدوه من المستعمرات خلال المدة (١٦٨٠-١٧٨٦) بحوالي ٢,١٣٠,٠٠٠ شخص. وبلغت هذه التجارة أوج اتساعها قبل حرب الاستقلال الأمريكية، وكانت قواعدها في ليفربول، ولندن، وبريستول، ولانكشير.

الملكة إليزابيث وتجارة الرقيق :

كانت الملكة الإنجليزية إليزابيث الأولى تشارك في تجارة الرقيق، وأعارت التجار بعض أساطيلها، وقد حكمت هذه الملكة (من ١٥٥٨-١٦٠٣)، وكانت شريكة لجون هوكنز أعظم نخاس في التاريخ، وقد رفعته إلى مرتبة النبلاء إعجابًا ببطولته، وجعلت شعاره رقيقًا يرفل في السلاسل والقيود.

ومن المفارقات الغريبة أن السفينة التي أعارتها لجون هوكنز، كانت تسمى «يسوع». وكان مخصصًا للإبحار بالرقيق من المرافئ المذكورة إلى مواطن الاستعباد ١٩٢ سفينة، تتسع حمولتها في الرحلة الواحدة لحوالي ٤٧,١٤٦ رقيقًا، وتعطلت تجارة البريطانيين فيه أثناء الحرب الأمريكية قليلاً، ثم تزايدت بعدها تزايدًا كبيرًا.

وقد طلبت ملكة إنجلترا من رجال الدين مبررًا لهذه التجارة فأسعفوها بنصوص التوراة التي تبيح الرق. ذلك أن نصوص التوراة تقول أن حام بن نوح- وهو أبو كنعان- كان قد أغضب أباه، فلعنه وقال كما في التوراة- سفر التكوين: إصحاح ٩: ٢٥، ٢٦: «ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته»، وقال: «مبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبدًا لهم». وفي الإصحاح نفسه: ٢٧: «ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام، وليكن كنعان عبدًا لهم».. وبمقتضى هذه الفتوى التي تبدو فيها الصفة العنصرية واضحة- رغم الستار الديني الشفاف- كان استعباد الزنوج مباحًا بل واجبًا عند الأوربيين، لأنهم سلالة

حام بن نوح، وظلوا على هذه العقيدة حتى القرن العشرين.

وقد بلغت معاملة الأرقاء منتهى القسوة في هذه الفترة، ولم يعد الرقيق مجرد خادم في المنزل أو عامل يزاول بعض الشئون العامة للدولة، أو فلاحًا يعمل في زراعة الأرض وتربية الحيوان، بل أرهق بالعمل وأهمل شأنه كل الإهمال، مما كان يودي بحياة الكثير منهم. وكانت توضع بعض القوانين لمعالجة أمر الرقيق، غير أنها كانت دائمًا ضده، كانت مُنَظِمة للاستعباد لا قاضية عليه، وكان أول قانون صدر بهذا الخصوص- وظل معمولاً به- هو قانون «بترونيا» الروماني، وكان مما جاء فيه: «أنه يحرم على السادة إلزام العبيد بمقاتلة الوحوش إلا بإذن القاضي».

القانون الأسود :

في ١٧ مارس سنة ١٦٨٥ صدر القانون الأسود لتنظيم أحوال الأرقاء في المستعمرات البريطانية، ولكنه مع صرامته وشدته لقي معارضة شديدة. ومما جاء فيه: «من اعتدى منهم (الأرقاء) على السادة بأقل اعتداء قتل، وإذا سرق عوقب أشد العقاب، وإذا أبق العبد قطعت أذناه ورجلاه وكوي بالحديد المحمي، وإذا أبق للمرة الثانية قتل».

وكان الإنجليز في مستعمرة «جامايكا» يعدمون من أبق أكثر من ستة أشهر. وللسيد إذا قتل عبده أمكن أن يوجد مبررًا للقتل ويبرأ، وحُرم على الملونين وظائف البيض، كما حرَّم التزاوج بينهم، ومنع تمكين الأسود من التعليم.

وفي عهد لويس الرابع عشر إمبراطور فرنسا كان القانون ينص على احتقار الجنس الأسود مهما كانت منزلته، ولا يعطون مميزات الجنس الأبيض بأية حال.

وفي الولايات الجنوبية بالولايات المتحدة كان الرقيق مهانًا جدًا، وإذا تجمع منهم سبعة في الطريق عُد ذلك جريمة، ويجوز للأبيض إذا مر بهم أن يقبض عليهم ويجلدهم عشرين جلدة. وكثيرًا ما كان العبد يقيد ويُربط إلى شجرة ويُجلد بقسوة لأتفه الأسباب. وقد نص القانون على أن العبيد لا نفس لهم ولا روح، وليست لهم فطانة ولا ذكاء ولا إرادة، وأن الحياة لا تدب إلا في أذرعهم فقط. ويمثل هذه القوانين الظالمة كانت حرية الزنجي وهمًا لا حقيقة، ولكنه إذا أذنب كانت مسئوليته جسيمة، فهو من جهة الواجبات إنسان عاقل مسئول، ومن

جهة الحقوق شيء لا روح له، والحياة لا تدب إلا في أذرعهم[١].

فهل هناك وجه للمقارنة بين وضع الرقيق في المجتمع الإسلامي، ووضعهم في المجتمع الغربي؟!!

(ب) أثر الحروب الصليبية على الإقطاع

لم تقتصر الحروب الصليبية على المعارك الدامية، والعداوات المتصلة، بل شهد رجالها من المسلمين والمسيحيين اتصالات حضارية بعيدة المدى في التجارة والصناعة والثقافة. فقد عرفت أوربا علوم الشرق الإسلامي وفلسفته عندما استقر الصليبيون في ممالكهم بالشام، فأقبل رجال العلم الأوربيون على حضارة مدن الشام ومصر، ونقل الكتب المفيدة منها إلى بلادهم. وترجم إلى اللاتينية منذ أيام الحروب الصليبية كثير من المؤلفات العربية في الفلك والهندسة والجبر، وبعض مؤلفات أرسطو التي سبق للعرب أن ترجموها إلى العربية[٢].

ولا شك في أن الحروب الصليبية قد أحدثت هزة عنيفة في الغرب الأوربي، ظهرت آثارها بوضوح في النواحي الاجتماعية والسياسية. فمن ناحية بناء المجتمع ساعدت الحروب الصليبية على إضعاف النظام الإقطاعي وتفككه، وهو النظام الذي قامت على أساسه الحياتين الاجتماعية والسياسية بل والاقتصادية في ذلك العصر في الغرب الأوربي. والمعروف أن النظام الإقطاعي في الغرب اعتمد على قاعدة ضخمة من الأقنان[٣] والرقين الذين قاموا بفلاحة الأرض لسادتهم من الفرسان والأمراء، ولكن الحروب الصليبية فتحت الباب على مصراعيه لهؤلاء الأقنان ورقيق الأرض لكي يتخلصوا من أوضاعهم، ويتركوا الأرض التي ارتبط بها آباؤهم وأجدادهم بحجة المشاركة في النشاط الصليبي. وكان السيد الإقطاعي لا يستطيع أن يمنع الفلاحين من الخروج لخدمة الدين والكنيسة، فوجد ملاك الأراضي أنفسهم فجأة أمام عجز خطير في الأيدي العاملة، بعد أن استوعبت الحملة الصليبية الأولى وحدها أكثر من عشرة آلاف قن، تركوا الأرض التي يقومون بفلاحتها واتجهوا إلى الشرق بحثاً عن

---

(١) المرجع: فضيلة الشيخ محمد الغزالي في كتاب: حقوق الإنسان في الإسلام، ص٩٨.

(٢) دكتور إبراهيم العدوي، مرجع سابق، ص٣٢٢.

(٣) الأقنان هم العبيد، ومفردها قين، والقينة هي الأمة، وغلب إطلاقها على المغنية وجمعها قيان.

حياة جديدة. وهكذا اضطر كبار الأمراء والسادة الإقطاعيين إلى البحث عن رجال أحرار يقومون بفلاحة أرضهم، مما أدى إلى تصدع الجهاز الإقطاعي، وانقراض طبقة الأقنان والرقيق تدريجيًا من المجتمع الأوربي(١).

ثم إن وفاة كثير من زعماء الصليبيين بالشرق أثناء الحملات الصليبية، أدى بدوره إلى ضعف البيوت الإقطاعية الأوربية التي جاءوا منها، وأفسح المجال لتكوين الطبقة الوسطى المشتغلة بالتجارة، وهي الطبقة التي اعتمد عليها الملوك بمختلف الدول الأوربية لتحل في وظائف الدولة محل أبناء البيوت الإقطاعية، وساعد ذلك كله على ظهور الدول الحديثة في أوربا.

ومن جانب آخر فإن الأوربيين كانوا يسمعون أفكارًا مغلوطة عن المسلمين، ولكن هاهم المسلمون أصبحوا في مرأى العين بالنسبة للصليبيين، فوجدوا فيهم إنسانية عالية، وشرفًا وشجاعة وسماحة، ووفاء بالوعد، وغير ذلك من الصفات التي لم يكونوا يسمعون بها وهم في ديارهم، وقد ساعد ذلك على تكوين الناحية الإنسانية في الأوربيين، ولم تكن هذه الناحية من قبل ذات بال عندهم.

ويرى معظم المراقبين أن الحرب الصليبية وضعت نواة الاستشراق، إذ اتجه الرهبان إلى دراسة اللغة العربية والفكر الإسلامي، لمعرفة اتجاهات المسلمين في مختلف الأمور، وقد أسست كلية للرهبان سنة ١٢٧٦م في ميراما لدراسة اللغة العربية، كما أنشئت الكراسي للغات الشرقية في باريس.. وفي غيرها من المدن.

ومن النتائج القائمة للحروب الصليبية أنها فتحت عيون الأوربيين للاستعمار، فقد كانت هذه الحروب أول تجربة من الاستعمار الغربي قامت بها الأمم الأوربية خارج أوربا لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق، وقد ظلت الأطماع الاستعمارية باقية حتى اليوم(٢).

---

(١) الدكتور سعيد عاشور في كتاب: الحركة الصليبية، الجزء الثاني، ص١٠٠٧.

(٢) الدكتور أحمد شلبي في كتاب: مصر وسوريا، والحروب الصليبية، والإمبراطورية العثمانية (جزء ٥ من موسوعة التاريخ الإسلامي)، ص٧٩٣.

(ج) المدن والتجارة والمصارف

إحياء المدن والتجارة :

من الثابت أن الاقتصاد الأوربي اتخذ طابعًا زراعيًا بحتًا منذ نهاية القرن الثامن، فأصبحت الأرض المصدر الرئيسي للثروة، واعتمدت جميع طبقات المجتمع على ما تُدره الأرض من خيرات، وبذلك ذبلت التجارة أو كادت تنعدم، بعد أن غدت الأرض وحدها هي الأساس الذي قام عليه بناء الحياة الاقتصادية والحياة الاجتماعية كذلك في أوربا. أما النشاط التجاري الذي وُجد في أوربا بين القرنين الثامن والعاشر، فقد اقتصر على التجارة المحلية الضيقة من جهة، والعلاقات التجارية بين بعض المدن الإيطالية والدولة البيزنطية من جهة ثانية. **وربما ساعد على انحطاط التجارة في تلك الفترة موقف الكنيسة نفسها التي ظلت تنظر إلى الكسب التجاري على أنه غير حلال**، وأن الأرض الزراعية وحدها هي المورد الطيب الذي يجب أن يعيش عليه الإنسان.

ثم بدأ النشاط يدب في المجال التجاري، وكان الفضل في إحيائه لا يرجع إلى مجتمعات العصر الإقطاعي، بقدر ما يرجع إلى التجار الجائلين وبخاصة اليهود، الذين قاموا باستيراد السلع والبضائع لبيعها للنبلاء وأتباعهم. وقد بلغ من سيطرة اليهود على التجارة الأوربية في ذلك العهد المظلم من العصور الوسطى أن لفظ يهودي (Judaeus) أصبح مرادفًا للفظ تاجر (Mercator). وكان هؤلاء التجار في أول الأمر متنقلين لا يعرفون حياة الاستقرار في منطقة بعينها، ولكنهم أخذوا يستقرون تدريجيًا بعد ذلك ليجعلوا من بيوتهم مخازن تجارية حقيقية.

ولم يلبث الأمراء المحليون أن سمحوا لهؤلاء التجار بالإقامة بجوار حصونهم، نظرًا للفائدة التي تعود عليهم من وراء فرض ضرائب على تجارتهم من ناحية، وإثارة نوع من النشاط والحركة في المنطقة من ناحية أخرى. وكان أن أقام التجار في القرن الحادي عشر شبه حظائر مسورة متاخمة لحصون الأمراء، تمتعوا فيها بقسط من الحرية الشخصية لم يتوافر للأقنان في الضياع المجاورة، وهكذا أخذت هذه المجتمعات التجارية تتطور، سواء كانت مرتبطة بإحدى المدن الأسقفية، أو خارج سور دير من الأديرة، أو بالقرب من بعض الحصون الإقطاعية، لتنشأ منها مدن العصور الوسطى. ومعنى ذلك أن المدينة الأوربية مرت بأدوار شاقة قبل أن تصبح مركزًا تجاريًا وصناعيًا واضح المعالم، لأنها ظلت أمدًا بعيدًا تصور الطابع العام للمجتمع الزراعي الذي ساد

العصور الوسطى.

ثم كان أن سادت حالة من السلام والاستقرار في القرن الحادي عشر مكنت التجار من مباشرة نشاطهم، وبالتالي ساعدت على ازدهار المدن. وأخيرًا جاءت الحروب الصليبية لتضيف عاملاً قويًا إلى العوامل التي أدت إلى تحطيم نظام الضيعة، وتشجيع التجارة والصناعة، بحيث لم تعد الأرض المصدر الوحيد للثروة والنشاط الاقتصادي.

ومع هذا فإنه يمكن القول بأن النشاط التجاري في غرب أوربا انحط إلى أسفل درجاته في القرن العاشر، وظل على ذلك حتى بدأت الحروب الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر لتضاعف من النشاط التجاري للمدن البحرية، فظهرت أمالفي وجنوة وبيزة ومارسيليا وبرشلونة لتنافس البندقية في ذلك النشاط، وكان البنادقة بوجه خاص يحملون إلى أسواقٍ مصر والشرق: الرقيق والجواري من الصقالبة المجلوبين من الشواطئ، فضلاً عن الأخشاب والحديد، ويستوردون بدلاً منها مختلف الحاصلات الشرقية.

ويمكننا أن نفسر انتعاش مدن لمبارديا وفلاندرز[١] في القرن الثاني عشر والثالث عشر، إذ تقع الأولى بين الشرق والغرب، في حين تقع الثانية بين الشمال والجنوب، وهكذا أخذت قوافل التجار المسافرين بطريق البر أو النهر أو البحر تزداد، ولم يعد هؤلاء التجار من اليهود وحدهم، وإنما شاركهم آخرون من مختلف البلاد الأوربية، كذلك استتبع هذا النشاط التجاري كثرة المعارض والأسواق في مختلف أنحاء أوربا، بعد أن أضحت الأسواق المحلية الصغيرة لا يمكنها النهوض بمطالب المستهلكين والتجار.

ومن الناحية الاقتصادية، فإن نشأة المدن في القرن الحادي عشر، جاءت انقلابًا اقتصاديًا شاملاً، إذ جعلت المدينة من نفسها سوقًا مركزيًا محليًا، يتعارض مع الفكرة التي قامت عليها التكتلات الإقطاعية للضياع، مما ترتب عليه انهيار نظام الاكتفاء الذاتي للضيعة، وقيام العلاقات المتبادلة مع المدينة، فيرسل إنتاج الريف إلى أقرب مدينة ليُباع فيها بدلاً من إرساله إلى مقر المالك الإقطاعي. هذا بالإضافة إلى أن اقتصاد المدن استتبع التوسع في نظام الأجر النقدي بدلاً من

---

(١) تقع لمبارديا في شمال إيطاليا (شمال فلورنسا)، أما فلاندرز فتقع غرب فرنسا في مواجهة شاطئ إنجلترا.

نظام الخدمة الإقطاعية. حقيقة أن التقدم في استعمال النقود سار حثيثًا، بحيث لم يكن هناك حتى منتصف القرن الثالث عشر سوى القليل من النقود الفضية في غرب أوربا. ولكن الفضل يرجع إلى مدن العصور الوسطى في ابتداع كثير من العملات الأوربية الحديثة مثل الجنيه والشلن والبنس، أما النقود الورقية- في صورة تعهدات أو كمبيالات- فيرجع استخدامها في المدن إلى القرن الثالث عشر.. حتى عودلت بالنقود المعدنية حوالي سنة ١٢٥٠.

تعليق هام:

مرَّ بنا سلفًا أنه مما ساعد على انحطاط التجارة في العصور الوسطى موقف الكنيسة نفسها التي ظلت تنظر إلى الكسب التجاري على أنه غير حلال، وأن الأرض الزراعية وحدها هي المورد الطيب الذي يجب أن يعيش عليه الإنسان. كان هذا في الغرب الأوربي، بينما كانت تعاليم وتوجهات الإسلام تقضي بخلاف بل بعكس ذلك، فإننا نجد في أحاديث سيدنا محمد ﷺ الدعوة إلى كل أنواع العمل: التجاري والزراعي والصناعي، فنجده يحث على الأعمال التجارية فيقول: «كل بيع مبرور» ويقول «ثلاثة أرباع الرزق في التجارة» كما قال ﷺ: «التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين». والمعروف بين المسلمين أنه ما من نبي أرسله الله إلا كان له عملاً، وما من نبي إلا ورعى الغنم، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن إدريس عليه السلام علّم القدماء القراءة والكتابة والحساب والعمارة والمقاييس والموازين، وكان نوح نجارًا وكذلك كان زكريا عليهما السلام، وعمل يوسف عليه السلام أمينًا لخزائن مصر، وعمل موسى عليه السلام أجيرًا في مدين لدى حماه.. وهكذا.

نشأة المصارف:

وهذا ميدان كان للغرب فيه فضل السبق. فإنه لما كان كثير من الأمراء الإقطاعيين يتمتعون بحق سك العملة الخاصة بهم، فإن الأسواق الأوربية وجدت نفسها في حاجة إلى صيارفة يبدلون النقود للتجار، كل بالعملة التي يطلبها والتي يستطيع أن يتعامل بها في بلده، ويعتبر عمل هؤلاء الصيارفة النواة الأولى للنظام المصرفي الرأسمالي، وذلك لأن الصراف في العصور الوسطى كان يحتفظ عادة بصندوق قوي متين يضع فيه نقوده، مما جعل بقية الأفراد يلجئون إليه لإيداع أموالهم في مأمن عنده. ولم تلبث أن استخدمت في إيطاليا الحوالات والكمبيالات المالية كوسيلة لتجنب نقل المعادن النفيسة من ذهب وفضة، ثم أخذ موظفو

البابوية ينشرون هذا النظام في مختلف أنحاء أوربا، كذلك أخذ يظهر نظام الدفع بالإحالة أو الشيكات، بحيث إذا كان لاثنين من التجار ودائع مالية عند صراف واحد فإن أحدهما يستطيع دفع حساب الآخر بإرسال ورقة إلى الصرف يأمره بدفع المبلغ لزميله، ولم تستخدم هذه الوسيلة في المعاملات المالية داخل البلد الواحد، وإنما استخدمت بين مختلف البلدان. وعندما تبين للصراف أن الودائع التي لديه أكبر من حاجة عمله اليومي بدأ يفكر في استغلالها في الإقراض بفائدة، مما جعل الصيارفة يقومون بوظيفة أخرى من وظائف البنوك.

والمعروف أن اليهود انفردوا أول الأمر - في أوربا العصور الوسطى - بإقراض الأموال بفوائد، مما مكنهم من السيطرة على الحياة المالية في أوربا، لأن الكنيسة حاربت أكل الربا الذي نهى عنه الإنجيل والمسيح. وهكذا شاءت الظروف أن لا تنافس اليهود فئة أخرى في ميدان النشاط المالي في أول الأمر، ولكن اتساع نطاق النشاط التجاري جعل من الممكن التهرب من تعاليم الكنيسة الخاصة بتحريم الفوائد المالية. وقد استطاع الإيطاليون أن يشتغلوا بأعمال الصيرفة ليحلوا محل اليهود، لا سيما بعد أن أخذ الناس يفرقون بين نسبة الفائدة المعتدلة والربا الفاحش، وبعد أن أتت ثورة الحروب الصليبية كذلك بكثير من التشريعات والقوانين التي تستهدف الحد من نشاط اليهود، ذلك أنه لم يتيسر للإيطاليين أن يحلوا محل اليهود إلا بعد أن أخذت الدول الأوربية مثل إنجلترا وفرنسا ثم أسبانيا تضطهد اليهود وتطردهم بالجملة من بلادها.

وكان أن ظهرت عدة بيوت مالية كبيرة في إيطاليا أهمها بنك القديس جورج في جنوة.. الذي ربما كان أشهر البنوك الأوربية في العصور الوسطى. على أن البابوية فضلت دائمًا أن تعامل بنوك فلورنسا التي ظهر معظمها في القرن الثالث عشر، والتي تعتبر أولى نماذج البنوك الدولية، إذ كان لبعضها فروع امتدت من إنجلترا وفلاندرز غربًا حتى أطرف البحر المتوسط شرقًا، كما قامت بتقديم استشاراتها المالية للملوك والبابوات.

القسم الرابع

العصر الحديث.. والمواثيق الدولية

الباب الأول
الفكر والنظم الدستورية في العصر الحديث

تعتبر نظرية العقد الاجتماعي من المصادر الحقيقية لفلسفة المذهب الحر، فهي قد أكدت الأصل التعاقدي لسلطة الدولة. ومضمون النظرية في آخر تطوراتها- كما أعلنها جان جاك روسو في القرن الثامن عشر- أن الأفراد قد نزلوا عن جزء من حرياتهم المطلقة التي يتمتعون بها في حياتهم الطبيعية، وذلك في سبيل إنشاء سلطة جماعية تتولى حمايتهم وتنظيمهم، أما الجزء الآخر من الحريات التي احتفظوا بها، فتظل بمنأى من تدخل الدول فيها، وإلا فقدت سبب وجودها، وهو العقد الاجتماعي.

وبذلك أبرزت النظرية الصفة الرضائية للحكم، وحافظت على الحقوق المقدسة بمقتضى العقد ذاته، والتهديد بانفساخه إذا أخلّت السلطة بمضمون العقد من المحافظة على هذه الحقوق.

وهكذا أمكن التضييق على السلطة المطلقة سواء أكانت ذاتية أو موروثة. وقد آتت هذه المصادر ثمارها، واندلعت الحركة الثورية مطالبة بالحقوق والحريات العامة. فكان من آثارها في بريطانيا العهد الأعظم (Magna Carta) الذي تحدثنا عنه آنفًا، ولائحة حقوق الإنسان (Bill of Rights) لسنة ١٦٨٨، وفي الولايات المتحدة ظهر إعلان الاستقلال سنة ١٧٧٦، وفي فرنسا ظهر الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن سنة ١٧٨٩ (وهي سنة تفجر الثورة الفرنسية).

والحريات العامة كما يصورها المذهب الفردي في القرنين السابع عشر والثامن عشر هي الحقوق الطبيعية للفرد. وكون هذه الحقوق طبيعية، يعني أنها خاصة بالإنسان وأساسية له، كما أن وصفها بأنها طبيعية يفيد أنها من صنع الطبيعة، فهي مقدسة ولا تقبل التنازل عنها، كما أنها عالمية ومتساوية بالنسبة للجميع.

والحريات العامة لا يمكن تصورها مطلقة بلا حدود، فلا مناص من وضع قيود تحدها وتنظم ممارستها بحيث يكفل للآخرين ممارسة حقوقهم، إلا أن هذا التقييد لا يجوز أن يصل إلى حد يهدر معه أصل الحرية أو أصل الحق.

والحقوق العامة- كما يصورها المذهب الفردي- هي حقوق فردية

وليست جماعية، فهي ترتبط بالخلية الأولى وهي الفرد، فلا توجد حقوق عامة تختص بها الجماعة سواء أكانت عائلة أو قبيلة أو مدينة أو نقابة.

ويذهب الفقه التقليدي إلى أن الحريات أو الحقوق التقليدية هي التي تتعلق بمصالح الأفراد سواء المادية أو المعنوية. ويدخل تحت النوع الأول: الحرية الشخصية، وحرية أو حق التملك، وحرمة المسكن، وحرية العمل.

ويدخل تحت النوع الثاني: حرية العقيدة، وحرية الرأي، وحرية التعليم، وحق تقديم العرائض. ويضيف بعض الفقهاء إلى الحريات التقليدية مبدأ المساواة، ويفرعونها إلى المساواة أمام القانون، والمساواة أمام القضاء، والمساواة أمام الوظائف العامة، والمساواة في الضرائب، والمساواة أمام الخدمة العسكرية.

تطور حقوق الإنسان :

بدت حقوق الإنسان منذ نشأتها ذات طبيعة فردية، وقد كانت المرحلة التي تمتد من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، تحمل وصف المرحلة «التحررية»، إذ أن حقوق الإنسان في هذه الفترة كان هدفها حرية الفرد، بينما ينطبق على المرحلة التي تبدأ من نهاية هذه الحرب وصف «الاجتماعية» إذ ظهر فيها الاتجاه الاجتماعي في الحقوق والحريات العامة.. ويمكن تقسيم التطور إلى مرحلتين (تبعًا للفترتين الزمنيتين المشار إليهما).

ففي الفترة الأولى: ظهرت عدة إعلانات فرنسية لحقوق الإنسان بدأت بإعلان الحقوق الصادر سنة ١٧٨٩، وانتهت بدستور سنة ١٨٤٨. بعد ذلك حدث تطور في التكوين الاقتصادي والاجتماعي نتيجة ظهور التصنيع في فرنسا ووقوع الأزمة الاقتصادية، وما ترتب عليها من مشاكل حلت بالعمال، مما أدى إلى نشأة ديمقراطية اقتصادية واجتماعية، وظهور مدرسة اشتراكية تنادي بحق العمل، وحرية العامل في العمل. فجاء في مقدمة دستور سنة ١٨٤٨ وجوب مشاركة المواطنين في الأموال العامة، والتعاون أخويًا فيما بينهم، كما اعتبرت الأسرة الأساس الأول للجمهورية، وأسسها الأخرى: العمل، والملكية، والنظام العام، والتزام الجمهورية بحماية المواطن وتعليمه ومساعدته.

وهكذا كانت مبادئ دستور سنة ١٧٨٩ لا تزال سائدة في الدساتير الفرنسية. فما هي مبادئ هذا الدستور.

وثيقة حقوق الإنسان الفرنسية لسنة ١٧٨٩:

اعتمدت الوثيقة فيما تضمنته من أفكار، على مصدر رئيسيين، هما: آراء

المفكر الفرنسي جان جاك روسو من جهة، وإعلان «حقوق الاستقلال الأمريكي» من جهة أخرى الصادر في يوليو ١٧٧٦، ناهيك عن إفادتها من التراث القانوني الإنجليزي ذي الصلة، وخاصةً ما عُرف بالعهد الأعظم الصادر سنة ١٢١٥.

إعلان الاستقلال الأمريكي:

ويُنسب إلى «**إعلان الاستقلال الأمريكي**» الصادر في عام ١٧٧٦ أنه تضمن إشارات صريحة ومهمة بشأن حقوق الإنسان، ومن ذلك: توكيده على لسان واضعيه على مبدأ المساواة بين البشر في الحقوق والواجبات: «إننا نؤمن بأن الناس جميعًا خلقوا سواسية، وأن خالقهم قد منحهم حقوقًا لا تقبل المساومة، منها: حق الحياة، وحق الحرية، والسعي لتحقيق السعادة».

أما عن المبادئ والحقوق التي تضمنتها **وثيقة حقوق الإنسان التي أعلنتها الثورة الفرنسية** فهي ما يلي على وجه الخصوص:

- أن الناس يولدون أحرارًا ومتساوين في الحقوق.
- أن حقوق الإنسان الطبيعية الخالدة هي: الحرية، والملكية، والأمن، ومقاومة الطغيان.
- أن السيادة للشعب، وأن القانون تعبير عن إرادته، ولكل مواطن حق الإسهام في وضعه.
- وأن لجميع المواطنين حقوقًا متساوية في كافة المناصب والوظائف العامة وفقًا لكفاياتهم، ولا تمييز بينهم إلا بفضائلهم ومواهبهم.
- وأن لا عقاب إلا على الأعمال التي يقرر العقاب عليها قانون سابق على تاريخ ارتكابها.
- أن كل متهم بريء حتى تثبت إدانته.
- أن لكل فرد حرية الرأي والعقيدة، ما لم تخل ممارستها بالنظام العام.
- أن لكل مواطن حق الكلام والكتابة، دون إسراف في استعماله.

وقد انتشرت هذه الأفكار في أوربا وعلى مستوى العالم، وسارت على نمطها دساتير كثير من دول أوربا الغربية مثل:

- دستور بلجيكا الصادر سنة ١٨٣١.
- دستور النمسا الصادر سنة ١٨٥٧.
- دستور أسبانيا الصادر سنة ١٨٧٦.

الفترة الثانية: وتسمى المرحلة الاجتماعية، ويمكن تقسيمها بالتالي إلى فترتين:

(أ) فترة ما بين الحربين العالميتين.
(ب) فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

(أ) فترة ما بين الحربين العالميتين:

تبدأ هذه الفترة من سنة ١٩١٤ وتنتهي سنة ١٩٤٥، وقد ظهرت في العالم بعد الحرب العالمية الأولى إعلانات ودساتير جديدة، اتفقت جميعها في مهاجمتها للحرية التقليدية، كما أعلنتها إعلانات القرن التاسع عشر، وإن كانت قد اختلفت في حدة هجومها عليها بين التشدد والتخفيف. ومن الإعانات والدساتير التي اشتدت في هجومها: الإعلان السوفييتي لحقوق الشعب العامل، وكذلك أول دستور للجمهورية الصادر في ١٠ يوليه سنة ١٩١٨، ودستور سنة ١٩٣٦.

ومن الدساتير التي خففت من حدة هجومها دساتير الدول غير الاشتراكية التي أخذت هذا الاتجاه، ومنها:

- دستور فنلندا الصادر في ١٧ يوليه سنة ١٩١٩.
- دستور فيمر الألماني الصادر في أغسطس سنة ١٩١٩.
- دستور تركيا الصادر سنة ١٩٢٤.
- دستور أسبانيا الصادر سنة ١٩٣١.

وهذه الدساتير تعترف اعترافًا واسعًا بحق العمل، وحق الأمن الاجتماعي، وحق تكوين النقابات، وبعض حقوق الأسرة.

(ب) فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية:

ويظهر التطور في مفهوم حقوق الإنسان خلال هذه الفترة في الدساتير الجديدة لدول المعسكر الغربي مثل:

- الدستور الفرنسي الصادر في ٢٧ أكتوبر ١٩٤٦، والدستور الصادر في سنة ١٩٥٨.
- الدستور الإيطالي الصادر في ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٤٧.
- الدستور السويسري الصادر في سنة ١٩٤٧.
- دستور ألمانيا الاتحادية الصادر في ٨ مايو سنة ١٩٤٩ (والمعدل بقانون اتحادي في ١٩ مارس سنة ١٩٥٦).

وقد سبق هذه الدساتير صدور إعلانات جديدة للحقوق، أو مقدمات للدستور تتضمن هذه الحقوق.

صدور بعض الوثائق الدولية :

في هذه الفترة صدرت بعض المواثيق الدولية، ومنها:

- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر من الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٤٨ (وسنتناوله بالتوضيح لاحقًا).
- المعاهدة الأوربية لحقوق الإنسان التي وقعت في روما في ٤ نوفمبر سنة ١٩٥٠.

المذاهب الاشتراكية

نشأت فلسفة المذهب الفردي لتقديس الحريات الفردية، وتحقيق مصالح المحكومين، وتأكيد حياد سلطة الدولة إزاء نشاط الأفراد. وقامت هذه الفلسفة على أساس أن الحرية ضمان للفرد ضد سلطة الحكم، وكان من آثار هذه الفلسفة أن ساد المذهب الاقتصادي الحر (الرأسمالي). فإذا كان المذهب الفردي هو الفلسفة السياسية للنظام الديمقراطي، فإن النظام الرأسمالي هو التطبيق العملي لهذه الفلسفة في المجال الاقتصادي. وقد استمر المذهب الفردي سائدًا في المجتمع الزراعي حيث لم تكن الحاجة ماسة إلى أفكار اشتراكية جديدة.

إلا أنه بعد ظهور الثورة الصناعية، عقب اكتشاف البخار واستخدام الآلات الصناعية، التي كان من نتيجتها وجود بطالة شديدة بين العمال تسببت في كوارث اجتماعية لهم، ظهرت النزعات الاشتراكية التي تطالب بتدخل الدولة في النشاط الاقتصادي لحماية الطبقات الكادحة، والوقوف في وجه الجماعات الضاغطة، وتعلق الأمل بتحقيق مساواة فعلية بعد أن ثبت أن المساواة القانونية والسياسية التي يستهدفها المذهب الفردي لا تحل مشاكل العصر. فأنكرت الأفكار الاشتراكية صفة الحياد التي أسبغها المذهب الفردي على سلطة الدولة، وطالبت بالتدخل خاصةً في الشئون الاقتصادية وحق الملكية. فالحرية السياسية لا وجود لها في مجتمع يسيطر فيه على الاقتصاد جماعة- أيًا كانت- بينما تعيش الأغلبية الكادحة في فقر مدقع، إذ ما معنى حرية السكن لشخص لا يجد مأوى يأوي إليه، وما معنى حرية العلم لمن لا يملكون نفقات التعليم.

لذلك نادت الأفكار الاشتراكية الجديدة بأن من واجب الدولة العناية بتنظيم

المجتمع، وتحقيق العدالة الاجتماعية بين الأفراد، وذلك بتحرير الفرد اقتـــصاديًا بعد أن حررته الديمقراطية سياسيًا. ووسيلة الدولة إلى ذلــك توجيـــه وتخطــيط النشاط الاقتصادي، والتدخل في تنظيم الملكية الخاصـــة، وإدارة المـــشروعات العامة الإنتاجية، وبذلك ظهر قصور المذهب الفرد، وأصبح لزامًا التحول إلـــى المذاهب الاشتراكية[١].

(١) المرجع: كتاب الحريات العامة، تأليف: الدكتور عبد الحكـــيم حـــسن العيلـــي، ص٧ وما بعدها.

الباب الثاني
المواثيق الدولية للأمم المتحدة

يستند نظام الأمم المتحدة لحقوق الإنسان إلى مصدرين أساسيين هما:

أ - ميثاق الأمم المتحدة.

ب - الميثاق الدولي لحقوق الإنسان.

أ - ميثاق الأمم المتحدة :

اهتم ميثاق الأمم المتحدة بحقوق الإنسان وحرياته الأساسية في مواضع كثيرة:

وهكذا تنص ديباجة الميثاق على أن شعوب الأمم المتحدة آلت على نفسها أن تؤكد من جديد إيمانها: «بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية».

وتضيف الديباجة عزم شعوب الأمم المتحدة على أن: «تدفع بالرُقي الاجتماعي قدمًا، وأن ترفع مستوى الحياة في جو من الحرية أفسح».

كذلك وضعت أهداف الأمم حقوق الإنسان في بؤرة اهتماماتها. فتنص المادة ٢/١ على أن من أهداف المنظمة: «إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق بين الشعوب وبأن يكون لكل منها تقرير مصيرها، وكذلك اتخاذ التدابير الأخرى الملائمة لتعزيز السلم العام».

وتضيف المادة ٣/١ أن من تلك الأهداف أيضًا: «تحقيق التعاون الدولي على حل المسائل ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإنسانية وعلى تعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للناس جميعًا والتشجيع على ذلك بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ولا تفريق بين الرجال والنساء».

من أجل ذلك تنص المادة ٥٥ من الميثاق على أنه: «رغبة في تهيئة دواعي الاستقرار والرفاهية الضرورية لقيام علاقات سلمية ودية بين الأمم مؤسس على احترام المبدأ الذي يقضي للشعوب بالتسوية في الحقوق بين الشعوب وبأن يكون لكل منها تقرير مصيرها، تعمل الأمم المتحدة على:

ج) أن يشيع في العالم احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين، ولا تفريق بين الرجال والنساء،

ومراعاة تلك الحقوق والحريات فعلاً».

وتنص المادة ٥٦ على أنه: «يتعهد جمع الأعضاء بأن يقوموا منفـردين أو مشتركين بما يجب عليهم من عمل بالتعاون مـع الهيئـة لإدراك المقاصـد المنصوص عليها في المادة الخامسة والخمسين».

معنى هذا النص جد واضح، إذ هو يتضمن التزامات قانونية جازمة من أجل احترام حقوق الإنسان وحرياته الأساسية. دليل ذلك الألفاظ التي استخدمها، مثل: «يتعهد»، «أن يقوموا منفردين أو مشتركين بما يجب عليهم من عمـل»، «لإدراك المقاصد المنصوص عليها في المادة الخامسة والخمسين».

كذلك تضمنت المادتان ٧٣، ٧٦ نصوصًا تتعلق بتعزيز واحترام حقوق الإنسان في إطار نظام الوصاية المطبق على الأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي.

وقد أراد واضعو الميثاق إعطاءه أهمية قانونية كبيرة بالمقارنة بغيره من المعاهدات الدولية، وذلك بتقرير أن الالتزامات الواردة فيه لهـا أولويـة علـى غيرها من المعاهدات الدولية. لذلك تنص المادة ١٠٣ من الميثاق على أنه: «إذا تعارضت الالتزامات التي يرتبط بها أعضاء الأمم المتحدة وفقـا لأحكـام هـذا الميثاق مع أي التزام دولي آخر يرتبطون به، فالعبرة بالتزاماتهم المترتبة علـى هذا الميثاق.

ب – الميثاق الدولي لحقوق الإنسان :

يستند نظام الأمم المتحدة لحماية حقوق الإنسان أيضًا إلـى ثلاثـة وثـائق أساسية تشكل ما يسمى بالميثاق الدولي لحقوق الإنسان The International Bill of Human Rights، وهي الإعلان العالمي لحقوق الإنسـان، والعهـد الـدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والعهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية.

وتُعد هذه الوثائق الثلاثة الأساس الذي اشتقت منـه مختلـف الأعمـال والوثائق القانونية الدولية الأخرى الصادرة عن الأمم المتحدة، كما أنها تتـضمن مبادئ وقواعد عامة تتعلق بأغلب، إن لم يكن كل حقوق الإنسان. لذلك سنـشير إليها دون إسهاب.

١ – الإعلان العالمي لحقوق الإنسان :

تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة الإعلان العـالمي لحقـوق الإنـسان بقرارها رقم ٢١٧/أ في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨، بأغلبية ٤٨ دولة، وامتناع ثمـان

دول، ولم يكن هناك أية دولة معترضة عليه، ويتكون الإعلان من ديباجة وثلاثين مادة[١]، تضمنت العديد من الحقوق والحريات الأساسية اللازمة للإنسان، سواء تعلقت بشخصه أم بتواجده في المجتمع الذي يعيش فيه.

وتتمثل أهم نصوصه في الآتي:

- بني البشر خلقوا أحرارًا ومتساوين في الكرامة والحقوق.

- لكل إنسان التمتع بالحقوق والحريات المنصوص عليها في الإعلان بلا تمييز يستند إلى الجنس أو اللون أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو الأصل الوطني أو الاجتماعي، أو الملكية أو الميلاد أو أي اعتبار آخر.

- لا يمكن أن يخضع الإنسان للرق أو العبودية.

- لا يمكن أن يخضع الإنسان للتعذيب أو العقوبات أو المعاملات القاسية أو اللا إنسانية أو المهينة.

- يتمتع كل إنسان بالشخصية القانونية.

- الكل سواء أمام القانون.

- لكل إنسان حق اللجوء إلى المحاكم الوطنية للطعن في الأفعال المنتهكة لحقوقه والتي يمنحها الدستور أو القانون.

- لا يمكن إخضاع الشخص للاعتقال أو الاحتجاز التعسفي أو النفي.

- لكل إنسان الحق في أن تنظر قضيته محكمة مستقلة ومحايدة.

- الإنسان بريء حتى تثبت إدانته، ولا يُسأل الشخص عن أي فعل لا يشكل جريمة وقت ارتكابه.

---

(١) استندت العديد من الاتفاقات الدولية إلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، مثل الاتفاقية الأوربية لحقوق الإنسان، الاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان، ومعاهدة السلام مع اليابان عام ١٩٥١، والصك الختامي لمؤتمر هلسنكي لعام ١٩٧٥ بخصوص التعاون والأمن في أوربا، والميثاق الإفريقي لحقوق الإنسان والشعوب. وجاء في إعلان طهران (١٩٦٨) الذي تبناه المؤتمر الدولي حول حقوق الإنسان، أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان يشكل فهمًا مشتركًا Common understanding لشعوب العالم لحقوق الإنسان، كما أنه يُعد التزامًا لأعضاء المجتمع الدولي.

- لا يجوز تعريض أي إنسان لأي تدخل تعسفي في حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته.

- لكل فرد حرية التنقل، ومغادرة أي بلد، بما في ذلك بلده، والعودة إليه.

- لكل إنسان حق الحصول على الملجأ في بلاد أخرى فرارًا من الاضطهاد.

- لكل إنسان الحق في الحصول على الجنسية.

- لكل النساء والرجال الذين بلغوا سن الرشد حقوقًا متساوية في الزواج.

- الأسرة هي الخلية الأساسية والطبيعية للمجتمع.

- لكل إنسان الحق في التملك، وفي عدم الحرمان منه بطريقة تعسفية.

- لكل إنسان حرية الفكر والوجدان والدين.

- لكل إنسان حرية الرأي والتعبير.

- لكل إنسان الحق في حرية التجمع السلمي.

- لكل إنسان حق المشاركة في حكومة دولته، وفي الاستفادة من المرافق العامة.

- إرادة الشعب هي أساس السلطة لأية حكومة.

- لكل إنسان الحق في الضمان الاجتماعي وفي التمتع بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

- لكل إنسان الحق في العمل والالتحاق بالنقابات العمالية.

- لكل إنسان الحق في الراحة وأوقات الفراغ.

- لكل إنسان الحق في مستوى معيشة كافٍ لصحته ورفاهه هو وأسرته.

- لكل إنسان الحق في التعليم.

- لكل إنسان الحق في المشاركة بحرية في الحياة الثقافية لمجتمعه.

- لكل إنسان الحق في التمتع بنظام اجتماعي ودولي تتحقق فيه، بطريقة كاملة، الحقوق المنصوص عليها في الإعلان.

٢- العهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية :

تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة هذا العهد في ١٦ ديسمبر عام ١٩٦٦، وأصبح نافذاً في ٣ يناير ١٩٧٦ (بعد إيداع وثيقة التصديق أو الانضمام رقم ٣٥، بالتطبيق للمادة ٢٧ من العهد).

وقد كان الاهتمام بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية قليلاً حتى عهد ليس ببعيد. ذلك أنه، إلى وقت قريب كانت، بؤرة اهتمامات الناس والدول منصبة على الحقوق المدنية والسياسية.

وقد جاء العهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ليؤكد أهمية هذا النوع من الحقوق من أجل التمتع الفعلي بكافة حقوق الإنسان.

وتتمثل أهم نصوص هذا العهد في الآتي:

- حق الشعوب في تقرير مصيرها.
- المساواة في الحقوق بين الرجال والنساء.
- الحق في العمل، وفي التمتع بظروف عمل صحيحة وملائمة، وحق تكوين النقابات والانضمام إليها.
- الحق في الضمان الاجتماعي والتأمينات الاجتماعية.
- الحق في مستوى حياة كاف.
- الحق في التمتع بصحة جسمية وعقلية سليمة.
- الحق في التعليم.
- الحق في الثقافة وفي الاستفادة من مزايا التقدم العلمي.

٣- العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية :

تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة هذا العهد أيضًا في ١٦ ديسمبر عام ١٩٦٦، وأصبح نافذاً في ٢٣ مارس ١٩٧٦ (بعد إيداع وثيقة التصديق أو الانضمام رقم ٣٥، بالتطبيق للمادة ٤٩ من العهد).

وقد تضمن العهد العديد من الحقوق، أهمها ما يلي:

- الحق في الحياة، والحرية، والأمن.
- حق عدم التعرض للتعذيب أو العقوبة أو المعاملة القاسية أو اللاإنسانية أو المهينة.

- حظر العبودية.
- حق عدم الاعتقال التعسفي.
- الحقوق الخاصة بحرية التعبير، والدين، والتجمع، والانخراط في الجمعيات، بما في ذلك النقابات.
- حرية التنقل والإقامة.
- حرية التصويت في الانتخابات المباشرة.
- الحق في محاكمة عادلة.
- حقوق الأقليات في الحماية.

هذا وقد ألحق بالعهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية، بروتوكولان:

- البروتوكول الاختياري الخاص بتمكين لجنة حقوق الإنسان، التي أنشأها العهد، من تلقي وبحث الإخطارات التي يقدمها الأفراد ضحايا انتهاكات الحقوق المنصوص عليها فيه (١٩٦٦).
- البروتوكول الاختياري الثاني الخاص بإلغاء عقوبة الإعدام (١٩٨٩).

مجلس حقوق الإنسان :

هناك العديد من الأجهزة في إطار الأمم المتحدة تعني بحقوق الإنسان، ومن بينها هذا المجلس.

وقد تم إنشاء مجلس حقوق الإنسان بقرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة في مارس ٢٠٠٦ (القرار ٢٥١/٦٠) ليحل محل لجنة حقوق الإنسان، وكجهاز فرعي من أجهزة الجمعية العامة. ويتم انتخاب أعضاء المجلس، وعددهم ٤٧ بواسطة الجمعية العامة. وفعلاً في ٩ مايو ٢٠٠٦ انتخبت الجمعية العامة هؤلاء الأعضاء.

ويختص المجلس، خصوصًا بالآتي:

- تعزيز الاحترام العالمي لحقوق الإنسان وحرياته الأساسية.
- مناقشة المواقف الخاصة بانتهاكات حقوق الإنسان، بما في ذلك الانتهاكات الجسيمة والمستمرة.
- أن يكون المجلس مكانًا للحوار بخصوص كل موضوعات حقوق الإنسان.

- للمجلس أن يصدر توصيات يرفعها إلى الجمعية العامة بخصوص تطوير القانون الدولي في مجال حقوق الإنسان.

وعلى المجلس، في مباشرته لعمله، أن يراعي مبادئ العالمية، والحيادية، والموضوعية، وعدم الانتقائية، والحوار والتعاون الدولي البنّاء من أجل رفعة شأن حقوق الإنسان وحمايتها.

كذلك يجتمع المجلس بصورة منتظمة خلال السنة، بما لا يقل عن ثلاث دورات في السنة، مع إمكانية عقده لدورات خاصة بناء على طلب عضو واحد يؤيده ثلث أعضاء المجلس.

وقد تبنى المجلس في أول اجتماع له وثيقتان مهمتان، هما: الاتفاقية الدولية لحماية كل الأشخاص ضد الاختفاءات القسرية، والإعلان الخاص بحقوق الشعوب الأصلية(١).

(١) المرجع: كتاب الحماية الدولية لحقوق الإنسان، تأليف: الدكتور أحمد أبو الوفا، وكتاب قانون حقوق الإنسان للدكتور الشافعي محمد بشير.

الباب الثالث
الوكالات المتخصصة وحقوق الإنسان

أنشأت الأمم المتحدة عددًا من الوكالات المتخصصة التي تتولى العمل في المجالات المختلفة، نذكر منها: منظمة الصحة العالمية، منظمة الأغذية والزراعة، منظمة العمل الدولية، منظمة التربية والعلوم والثقافة.. وغيرها.

وأكثر الوكالات الدولية المتخصصة اهتمامًا بحقوق الإنسان هما:

(أ) منظمة العمل الدولية (I.L.O).

(ب) منظمة التربية والعلوم والثقافة (يونسكو- Unesco).

ونتكلم عن كل منهما على التوالي:

أ - منظمة العمل الدولية

أُنشئت منظمة العمل الدولية عام ١٩١٩، بالتطبيق لمعاهدة فرساي، كمنظمة مستقلة مرتبطة بعصبة الأمم، وعندما أُنشئت الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ تقرر اعتبار منظمة العمل الدولية إحدى الوكالات المتخصصة للأمم المتحدة. وقد تكونت المنظمة على أساس التمثيل الثلاثي، إذ يحضر اجتماعاتها ويشترك في قراراتها ممثلون لجهات العمل الثلاث: الحكومة، والعمال، وأصحاب الأعمال.

وتثير مسألة حقوق الإنسان، في إطار منظمة العمل الدولية، ثلاث أمور جوهرية، هي دور المنظمة فيما يتعلق بتلك الحقوق، وأهم الوثائق الدولية الصادرة عنها.

وهو ما نبحثه- تباعًا- على النحو التالي:

١- دور منظمة العمل الدولية في إطار حقوق الإنسان:

يقع الاهتمام بحقوق الإنسان في بؤرة اهتمامات منظمة العمل الدولية.

ومن المعلوم أن منظمة العمل الدولية نشأت أساسًا من أجل الاهتمام بمشاكل العمل والعمال. ولما كانت المنظمة ذات طبيعة عمالية، لذا بات من الطبيعي اهتمامها، خصوصًا، بنوعين من الحقوق:

- الحقوق المدنية والسياسية، مثل: حرية التعبير، وحرية الاشتراك في النقابات، وحرية التجمع السلمي.

- الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، مثل: الحق في السكن،

الحق في العمل، وحق تشكيل النقابات Trade unions وحق الالتحاق بالنقابة التي يختارها الشخص بحريته، والحق في الضمان الاجتماعي، والحق في مستوى معيشة كافٍ وملائم.

ومن المعلوم أن دستور المنظمة يتضمن نصوصًا عديدة تخص العلاقة بين العمال وأرباب الأعمال، وظروف العمل، وتنظيم تشغيل الأيدي العاملة، وحماية العمال ضد إصابات العمل والأمراض المهنية، والدفاع عن مصالح العمال الذين يشتغلون في الخارج. كذلك من وظائف المنظمة مساعدة الدول الأعضاء على تحقيق التشغيل الكامل للأفراد الراغبين في العمل.

ومن النصوص ذات المغزى، بالنسبة لحقوق الإنسان، ما قررته ديباجة دستور المنظمة من أن: «السلام العالمي والدائم لا يمكن أن يقوم إلا على أساس من العدالة الاجتماعية».

كذلك جاء في الجزء الثاني من الإعلان الخاص بأهداف ومبادئ المنظمة، والذي تبناه المؤتمر العام لمنظمة العمل الدولية في فلادلفيا عام ١٩٤٤ (والذي أُلحق بدستور المنظمة باعتباره جزء لا يتجزأ منه)، أن التجربة أثبتت صحة ما جاء في دستور منظمة العمل الدولية أن: «السلام الدائم لا يمكن أن يقوم إلا على أساس من العدالة الاجتماعية».

لذلك أكد المؤتمر:

- أن كل الكائنات البشرية لها حق متابعة تقدمها المادي وتنميتها الروحية بحرية وكرامة، وفي أمن اقتصادي في إطار فرص متساوية.
- أن توفير الشروط التي توصل إلى هذا الهدف يجب أن يشكل الهدف المركزي لكل سياسة وطنية.
- يجب تقويم كل البرامج والإجراءات التي تتخذ للوصول إلى هذا الهدف على الصعيد الداخلي والدولي في ضوء تحقيقها، وليس إعاقتها، والوصول إليه.
- يقع على عاتق منظمة العمل الدولية اتخاذ الإجراءات المالية والاقتصادية في ضوء هذا الهدف.
- على منظمة العمل الدولية أن تدرج في قراراتها وتوصياتها، لتحقيق هذه المهمة، كل النصوص التي تراها ضرورية.

كذلك أعلن مؤتمر فيلادلفيا :

- أن العمل ليس سلعة.
- أن حرية التعبير والتجمع هي الشرط الضروري لأي تقدم مستمر.
- أن الفقر، أنّى وُجد، يشكل خطرًا على رفاهية الجميع.
- لكل الكائنات الإنسانية، أيًا كان أصلها أو اعتقادها أو جنسها، الحق في أن يتابعوا تقدمهم المادي وتنميتهم الروحية، في حرية وكرامة وأمن اقتصادي وبفرص متساوية.

٢- الوثائق الدولية الصادرة عن منظمة العمل الدولية بخصوص حقوق الإنسان:

يصدر عن منظمة العمل الدولية العديد من الأعمال القانونية الخاصة بحقوق الإنسان وحرياته الأساسية، خصوصًا حقوق العمال. وتتخذ هذه الأعمال ثلاثة أشكال أساسية، هي:

أولاً : الإعلانات :

مثال ذلك الإعلان الخاص بسياسة التمييز العنصري التي تتبعها جنوب أفريقيا (سابقًا) والذي تبناه المؤتمر العام في ٨ يوليه ١٩٦٤، والذي أدان فيه: «السياسة العنصرية المتدنية والإجرامية وغير الإنسانية لجمهورية جنوب أفريقيا، وهي سياسة تشكل انتهاكًا للحقوق الأساسية للإنسان وتتعارض مع أهداف منظمة العمل الدولية».

كما أصدر المؤتمر إعلانات في الموضوعات الآتية (على سبيل المثال):

- حرية التجمع والاعتراف الفعلي بحق المساومة الجماعية.
- القضاء على كل أشكال السخرة والعمل الإجباري.
- الإلغاء الفعلي لعمل الأطفال.
- القضاء على التمييز بخصوص التشغيل والتوظيف.

ثانيًا : التوصيات :

تصدر منظمة العمل الدولية أيضًا توصيات خاصة بحقوق الإنسان. من ذلك التوصية رقم ٨٦ الخاصة بالهجرة من أجل العمل، والملحق الإضافي

الخاص باتفاقية نموذجية بشأن الهجرة المؤقتة أو الدائمة من أجل العمل، بما في ذلك هجرة اللاجئين والأشخاص المهجرين.

ثالثًا : الاتفاقات الدولية :

تلعب الاتفاقات الدولية للعمل دورًا هامًا في كفالة حقوق العمال، وسنقوم بدراستها من ناحية: أهميتها، وأهم الاتفاقات الصادرة في هذا الخصوص.

- **أهمية الاتفاقات الدولية للعمل في مجال حقوق الإنسان:**

تبدو هذه الأهمية من نواحي ثلاثة:

- أن الاتفاق، إذا صدقت عليه الدولة، يصبح ملزمًا لها، وعليها -بالتالي- تنفيذه، بالتطبيق لمبدأ الوفاء بالعهد Pacta sunt servanda، وقاعدة أن الاتفاق رابط أو هو ملزم exconsensu advenit vinculum.

- لذلك، ورغبة، على ما يبدو، في عدم تحلل العضو من التزاماته الناجمة عن تصديقه على إحدى الاتفاقات الدولية الصادرة عن المنظمة، عن طريق الانسحاب من هذه الأخيرة، فقد نصت المادة ١/٥ من دستور المنظمة على أن العضو الذي ينسحب من المنظمة، ويكون قد صدق على أية اتفاقية عمل دولية، فإن هذا الانسحاب لا يؤثر على استمرارية سريان الالتزامات المنصوص عليها في الاتفاقية خلال المدة التي حددتها نصوصها.

- أخيرًا، وفقًا للمادة ٨/١٩ من دستور منظمة العمل الدولية لا يمكن أن تؤثر الاتفاقات على أي قانون أو عُرف أو اتفاق يعطي للعمال شروطًا أكثر تفضيلاً من تلك المنصوص عليها في الاتفاقية.

- **أهم الاتفاقات الدولية للعمل الخاصة بحقوق الإنسان:**

صدر عن منظمة العمل الدولية الكثير من الاتفاقات الدولية، والتي لا يمكن- بداهة- الإحاطة بها كلها في هذه الدراسة.

لذا سنكتفي- هنا- بالإشارة إلى أهمها، في عجالة سريعة وسرد مبسط، وهي:

- الاتفاقية رقم ١١ بشأن حق التجمع بخصوص عمال الزراعة (١٩٢١).

- الاتفاقية رقم ٢٩ بخصوص أعمال السخرة (١٩٣٠).
- الاتفاقية رقم ٨٧ بخصوص الحرية النقابية (١٩٤٨).
- الاتفاقية رقم ٩٨ بخصوص حق التنظيم والمفاوضات الجماعية (١٩٤٩).
- الاتفاقية رقم ٩٧، ورقم ١٤٣ بخصوص العمال المهاجرين (١٩٤٩، ١٩٧٥).
- الاتفاقية رقم ١٠٠ بخصوص المساواة في الأجر بين أي عمل ذي قيمة متساوية (١٩٥١).
- الاتفاقية رقم ١٠٢ بخصوص الضمان الاجتماعي (١٩٥٢).
- الاتفاقية رقم ١٠٣ بخصوص حماية الأمومة (١٩٥٢).
- الاتفاقية رقم ١٠٥ بخصوص إلغاء أعمال السخرة (١٩٥٧).
- الاتفاقية رقم ١١١ بخصوص التمييز في العمل والمهنة (١٩٥٨).
- الاتفاقية رقم ١١٧ بخصوص السياسة الاجتماعية (١٩٦٢).
- الاتفاقية رقم ١١٨ بخصوص المساواة في معاملة الوطنيين وغير الوطنيين بالنسبة للضمان الاجتماعي (١٩٦٢).
- الاتفاقية رقم ١٢١ بخصوص ما يتم تقديمه عند وقوع حوادث عمل وأمراض مهنية (١٩٦٤).
- الاتفاقية رقم ١٢٢ حول سياسة العمال (١٩٦٤).
- الاتفاقية رقم ١٢٨ بخصوص ما يُقدم عند العجز والشيخوخة (١٩٦٧).
- الاتفاقية رقم ١٣٠ بخصوص أوجه العناية الطبية وتعويضات المرض (١٩٦٩).
- الاتفاقية رقم ١٣٥ بخصوص ممثلي العمال (١٩٧١).
- الاتفاقية رقم ١٣٨ بخصوص الحد الأدنى لسن العمل (١٩٧٣).
- الاتفاقية رقم ١٤١ الخاصة بمنظمات العمال الريفيين (١٩٧٥).
- الاتفاقية رقم ١٤٣ الخاصة بالهجرة في ظروف مجحفة وتعزيز تكافؤ الفرص بين العمال المهاجرين (١٩٧٥).

- الاتفاقية رقم ١٥٤ الخاصة بالمفاوضات الجماعية (١٩٨١).
- الاتفاقية رقم ١٦٨ بشأن النهوض بالعمالة والحماية من البطالة (١٩٨٨).
- الاتفاقية رقم ١٦٩ بخصوص الشعوب الأصلية والقبلية في البلدان المستقلة.
- الاتفاقية رقم ١٨٢ الخاصة بأسوأ صور عمل الأطفال (١٩٩٩)(١).

ب- منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)

تقتضي دراسة اليونسكو وحقوق الإنسان أن نشير إلى: دوره في هذا المجال، وأهم الوثائق الصادرة عنه.

١- دور اليونسكو في مجال حقوق الإنسان:

يختص اليونسكو، في إطار أسرة الأمم المتحدة، أساسًا بالتربية والثقافة والعلوم بما يؤكد أهميتها لحقوق الإنسان، ويبدو ذلك واضحًا من ديباجة ميثاق المنظمة، والتي جاء فيها:

«ولما كان جهل الإنسان بعضها لبعض مصدر الريبة والشر بين الأمم على مر التاريخ وسبب تحول خلافاتها إلى حروب في كثير من الأحيان.

ولما كانت الحرب العظمى المروعة التي انتهت مؤخرًا قد نشبت بسبب التنكر للمثل العليا الديمقراطية التي تنادي بالكرامة والمساواة والاحترام للذات الإنسانية، وبسبب العزم على إحلال مذهب عدم المساواة بين الأجناس محل هذه المثل العليا عن طرق استغلال الجهل والانحياز.

ولما كانت كرامة الإنسان تقتضي نشر الثقافة وتنشئة الناس جميعًا على مبادئ الحرية والعدل والسلام، وكان هذا العمل بالنسبة لجميع الأمم واجبًا مقدسًا ينبغي القيام به في روح من التعاون المتبادل.

. ولما كان السلم المبني على مجرد الاتفاقات الاقتصادية والسياسية بين الحكومات لا يقوى على دفع الشعوب إلى الالتزام به التزامًا إجماعيًا ثابتًا

---

(١) المراجع: كتاب«الحماية الدولية لحقوق الإنسان» للدكتور أحمد أبو الوفا، وكتاب «قانون حقوق الإنسان» للدكتور الشافعي محمد بشير، ومطبوعات مكتب العمل الدولي.

مخلصًا، وكان من المحتم بالتالي أن يقوم هذا السلم على أساس من التضامن الفكري والمعنوي بين بني البشر.

لهذه الأسباب، فإن الدول الموقعة على هذا الميثاق، إذ تعتزم تأمين فرص التعليم تأمينًا كاملاً متكافئًا لجميع الناس، وضمان حرية الانصراف إلى الحقيقة الموضوعية والتبادل الحر للأفكار والمعارف، تقرر تنمية العلاقات ومضاعفتها بين الشعوب تحقيقًا لتفاهم أفضل بينها، ولوقوف كل شعب منها بصورة أدق وأصدق على عادات الشعوب الأخرى».

ويعمل اليونسكو على تحقيق ما تقدم، بمراعاة جملة أهداف، منها:

- **المساهمة في حفظ السلم والأمن الدولي:**

يتحقق ذلك عن طريق عمل المنظمة، بواسطة التربية والثقافة والعلوم، على توثيق عُرى التعاون بين الأمم لضمان الاحترام الشامل للعدالة والقانون وحقوق الإنسان والحريات الأساسية للناس كافة، دون تمييز بسبب العنصر أو الجنس أو اللغة أو الدين، كما أقرها ميثاق الأمم المتحدة لجميع الشعوب.

- **تحقيق بعض الأهداف العلمية والتربوية والثقافية :**

تقوم المنظمة، تحقيقًا للغايات السالف ذكرها، بالآتي:

– تعزيز التعارف والتفاهم بين الأمم بمساندة أجهزة إعلام الجماهير ولتسهيل حرية تداول الأفكار عن طريق الكلمة والصورة.

– تنشيط التربية الشعبية ونشر الثقافة بالتعاون مع الدول الأعضاء، بناء على رغبتها ومعاونتها على تنمية نشاطها التربوي، وبإقامة التعاون بين الأمم من أجل تحقيق تكافؤ فرص التعليم لجميع الناس دون تمييز بسبب العنصر أو الجنس أو بسبب الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي، وباقتراح الأساليب التربوية المناسبة لتهيئة أطفال العالم أجمع للاضطلاع بمسئوليات الإنسان الحر.

– حفظ المعرفة وتقدمها وانتشارها، بالسهر على صون التراث العالمي من الكتب والأعمال الفنية وغيرها من الآثار التي لها أهميتها التاريخية والعلمية، وبتشجيع التعاون بين الأمم في جميع فروع النشاط الفكري وتبادل المشتغلين في مجالات التربية والثقافة وتبادل المطبوعات والأعمال الفنية والمواد العلمية وسائر المواد الإعلامية.

كذلك صدر عن اليونسكو العديد من الأعمال القانونية التي تؤكد ضرورة

احترام وحماية حقوق الإنسان. يكفي أن نذكر أن المؤتمر العام لتلك المنظمة قرر في دورته رقم ١٨ أن: «الدفاع عن وتعزيز حقوق الإنسان والحريات الأساسية ومكافحة ما يشجع على الحرب، والاستعمار، والاستعمار الجديد، والعنصرية، والأبارتهيد، وكل الأشكال الأخرى التي تنطوي على الظلم والتمييز، تشكل بالنسبة لليونسكو واجبًا أساسيًا، لأن الاعتداءات على حقوق الإنسان هي مصدر للنزاعات، وبالتالي تهديدًا للسلم والأمن الدولي، ولأن المنظمة من مهامها خدمة احترام كرامة الإنسان».

كذلك جاء في الاتفاقية الخاصة بالتمييز في مجال التعليم لعام ١٩٦٠ (م٥): «يجب توجيه التعليم من أجل التطوير الكامل للشخصية الإنسانية ولتقوية احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية».

٢- أهم الوثائق الدولية الصادرة عن اليونسكو بخصوص حقوق الإنسان:

من المعلوم- بالضرورة- أن إصدار وثائق دولية خاصة بحقوق الإنسان وحرياته الأساسية يُعد من الوسائل الهامة لحماية تلك الحقوق والحريات، خصوصًا إذا كانت صادرة عن هيئات دولية لها ثقلها على الصعيد الدولي، كما هو الحال بالنسبة لمنظمة اليونسكو.

ولا نستطيع، بداهةً، أن نحيط خبرًا- في إطار هذه الدراسة- بكل أبعاد الدور الذي قام به اليونسكو في مجال حقوق الإنسان، خصوصًا ما صدر عنه من صكوك دولية في هذا الشأن.

لذا سنكتفي بالإشارة إلى أهم تلك الصكوك، على النحو التالي:

- **الاتفاقية الخاصة بالتمييز في مجال التعليم (١٩٦٠):**

تبنى المؤتمر العام هذه الاتفاقية عام ١٩٦٠، والتي تعهدت فيها الدول الأطراف بالآتي (المادتين ٣-٤):

- إلغاء كل النصوص التشريعية والإدارية، والممارسات الإدارية، التي تتضمن تمييزًا في مجال التعليم.

- اتخاذ كل الإجراءات الضرورية لمنع أي تمييز بشأن قبول التلاميذ في المؤسسات التعليمية.

- عدم قبول أية تفرقة بين المواطنين بخصوص المنح أو أية مساعدات بشأن مواصلة الدراسة بالخارج، إلا تلك التي تستند إلى الكفاءة والحاجات.

- عدم قبول أية معاملة تفضيلية، بخصوص ما يتم تقديمه من مساعدات، استنادًا إلى انتماء التلاميذ إلى جماعة معينة.

- منح الرعايا الأجانب المقيمين فوق إقليم الدولة إمكانية الالتحاق بالتعليم بطريقة متساوية مع المواطنين.

- كفالة تكافؤ الفرص égalité des chances أو المعاملة في مجال التعليم.

- جعل التعليم الأولي primary education مجانيًا وإلزاميًا(١).

وكان هذا هو مسك الختام

وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين ،،

---

(١) المراجع: كتاب «الحماية الدولية لحقوق الإنسان»، تأليف: الدكتور أحمد أبو الوفا. وكتاب «قانون حقوق الإنسان» للدكتور الشافعي محمد بشير.

أهم المراجع

أ - من القرآن الكريم والحديث الشريف

(١) تفسير القرآن العظيم: للإمام إسماعيل بن كثير (٤ أجزاء)، دار المعرفة- بيروت.
(٢) التفسير الوسيط: للإمام الدكتور محمد سيد طنطاوي (عدة مجلدات)، دار الرسالة- القاهرة.
(٣) تفسير الشعراوي: للإمام الشيخ محمد متولي الشعراوي (لم يكتمل)، دار أخبار اليوم- القاهرة.
(٤) صفوة التفاسير: للأستاذ محمد علي الصابوني (٣ أجزاء)، دار القرآن الكريم- بيروت.
(٥) أوضح التفاسير: للأستاذ محمد عبد اللطيف (ابن الخطيب)، المطبعة المصرية- القاهرة.
(٦) المنتخب في تفسير القرآن الكريم: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة.
(٧) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة- بيروت.
(٨) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للعلاّمة القسطلاني، المطبعة الأميرية- القاهرة.
(٩) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي: المطبعة الأميرية- القاهرة.
(١٠) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث- القاهرة.
(١١) مختصر سنن الترمذي: اختصار وشرح الدكتور مصطفى ديب البغا، اليمامة- دمشق.
(١٢) مختصر سنن أبي داود: اختصار وشرح الدكتور مصطفى ديب البغا، اليمامة- دمشق.
(١٣) مختصر سنن النسائي: للدكتور مصطفى ديب البغا، اليمامة- دمشق.
(١٤) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين: للإمام محيي الدين النووي، دار الخير- دمشق/ بيروت.

ب - باقي المراجع (وفق الترتيب الأبجدي لأسماء المؤلفين)

(١٥) إبراهيم أحمد العدوي: تاريخ العالم الإسلامي، معهد الدراسات الإسلامية- القاهرة.
(١٦) ابن الأثير (علي بن محمد) الكامل في التاريخ (عدة أجزاء)، دار صادر- بيروت.
(١٧) ابن جرير (محمد بن جرير الطبري) تاريخ الرسل والملوك (عدة أجزاء)، مؤسسة عز الدين- بيروت.
(١٨) ابن هشام (محمد بن عبد الملك) السيرة النبوية (٤ أجزاء)، مكتبة زهران- القاهرة.

(١٩) أبو الأعلى المودودي وآخرين: حقوق الإنسان (رؤى إسلامية)، مكتبة نهضة مصر- القاهرة.
(٢٠) أبو الحسن علي الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مصطفى الحلبي- القاهرة.
(٢١) د. أحمد أبو الوفا: الحماية الدولية لحقوق الإنسان، دار النهضة العربية- القاهرة.
(٢٢) د. أحمد الرشيدي: حقوق الإنسان (دراسة مقارنة)، الشروق الدولية.
(٢٣) د. أحمد سعد الدين البساطي: مقارنة الأديان والاستشراق، معهد الدراسات الإسلامية- القاهرة.
(٢٤) أحمد أمين: فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة.
(٢٥) أحمد أمين: ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة.
(٢٦) أحمد أمين: يوم الإسلام، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة.
(٢٧) أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة.
(٢٨) د. أحمد حسن البرعي: إعلان المبادئ والحقوق الأساسية في العمل، الأهرام الاقتصادي- القاهرة.
(٢٩) د. أحمد شلبي: محمد ﷺ في المدينة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة.
(٣٠) د. أحمد شلبي: المسيحية، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة.
(٣١) د أحمد شلبي: اليهودية، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة.
(٣٢) د. أحمد شلبي: السيرة النبوية العطرة، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة.
(٣٣) د. أحمد شلبي: الدولة الأموية، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة.
(٣٤) د. أحمد شلبي: الدولة العباسية، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة.
(٣٥) د. أحمد شلبي: تاريخ مصر وسوريا، الإمبراطورية العثمانية، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة.
(٣٦) د. أحمد شلبي: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة.
(٣٧) أحمد طاهر: الأناجيل (دراسة مقارنة)، دار المعارف- القاهرة.
(٣٨) أحمد عثمان: تاريخ اليهود (٣ أجزاء)، مكتبة الشروق- القاهرة.
(٣٩) د. أحمد محمد الحوفي: سماحة الإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
(٤٠) د. إسماعيل عبد الكافي وآخر: حقوق الإنسان العامة في الإسلام، مركز الإسكندرية للكتاب.
(٤١) د. أشرف اللمساوي: حقوق الإنسان وضماناته، المركز القومي للإصدارات القانونية- القاهرة.

(٤٢) السيد أمير علي: روح الإسلام (ترجمة أمين الشريف)، مكتبة الآداب- القاهرة.
(٤٣) د. الشافعي محمد بشير: قانون حقوق الإنسان، منشأة المعارف- الإسكندرية.
(٤٤) القفطي (جمال الدين علي بن يوسف): إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة الآداب- القاهرة.
(٤٥) ت. ج. جيميز: الحياة أيام الفراعنة (ترجمة أحمد زهير)، النهضة المصرية للكتاب- القاهرة.
(٤٦) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام (ترجمة د. حسن إبراهيم حسن)، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة.
(٤٧) جان بيرنجيه وآخرين: موسوعة تاريخ أوربا العام (ترجمة وجيه البعيني)، عويدات- بيروت.
(٤٨) جيمس هنري برستد: تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفارسي (ترجمة د. حسن كمال)، مكتبة مدبولي- القاهرة.
(٤٩) جوستاف لوبون: حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر)، الهيئة المصرية للكتاب- القاهرة.
(٥٠) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام (٤ أجزاء)، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة.
(٥١) د. حسن إبراهيم حسن وآخرين: النظم الإسلامية، المطبعة الأميرية- القاهرة.
(٥٢) د. رأفت الشيخ: تاريخ العرب الحديث، عين للدراسات والبحوث- القاهرة.
(٥٣) د. زكريا البري: حقوق الإنسان في الإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة.
(٥٤) د. سعيد عاشور: حضارة الإسلام، معهد الدراسات الإسلامية- القاهرة.
(٥٥) د. سعيد عاشور: المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة.
(٥٦) د. سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية- القاهرة.
(٥٧) د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية (جزءان)، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة.
(٥٨) د. سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى (جزءان)، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة.
(٥٩) سعيد حوى: الرسول ﷺ ، دار السلام- القاهرة.
(٦٠) د. سعيد توفيق: معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، دار النهضة العربية- القاهرة.
(٦١) سيد قطب: نحو مجتمع إسلامي، دار الشروق- القاهرة.

(٦٢) سيد قطب: السلام العالمي والإسلام، دار الشروق- القاهرة.
(٦٣) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق- القاهرة.
(٦٤) سيدة إسماعيل كاشف: مصر في فجر الإسلام، مكتبة الأسرة- القاهرة.
(٦٥) د. شوقي ضيف: عالمية الإسلام، دار المعارف- القاهرة.
(٦٦) د. صوفي أبو طالب: تطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد العربية، دار النهضة العربية- القاهرة.
(٦٧) د. طه حسين: الفتنة الكبرى (جزءان)، دار المعارف- القاهرة.
(٦٨) د. عائشة عبد الرحمن: القرآن وقضايا الإنسان، دار المعارف- القاهرة.
(٦٩) د. عادل محمد خير: الأجنبي وحقوق الإنسان، المؤلف- القاهرة.
(٧٠) عباس محمود العقاد: عبقرية عمر، دار الكتاب العربي- بيروت.
(٧١) عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية، نهضة مصر- القاهرة.
(٧٢) عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، نهضة مصر- اقاهرة.
(٧٣) عباس محمود العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء، دار الكتاب العربي- بيروت.
(٧٤) عباس محمود العقاد: الإنسان في القرآن، نهضة مصر- القاهرة.
(٧٥) عباس محمود العقاد: الديمقراطية في الإسلام، نهضة مصر- القاهرة.
(٧٦) د. عبد الجليل شلبي: اليهود واليهودية، دار أخبار اليوم- القاهرة.
(٧٧) د. عبد الحليم محمود: الجهاد في الإسلام، دار المعارف- القاهرة.
(٧٨) عبد الحميد جودة السحار: إبراهيم أبو الأنبياء، دار مكتبة مصر- القاهرة.
(٧٩) د. عبد الحكيم حسن العيلي: الحريات العامة، دار الفكر العربي- القاهرة.
(٨٠) د. عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم: مصر والعراق، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة.
(٨١) د. عبد العزيز صالح: حضارة مصر القديمة وآثارها، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة.
(٨٢) د. عبد العظيم المطعني: حقوق المرأة والطفل، دار الفاروق- القاهرة.
(٨٣) د. عبد المنعم البدراوي: تاريخ القانون الروماني، دار نشر الثقافة- الإسكندرية.
(٨٤) د. عبد الواحد محمد الفار: قانون حقوق الإنسان، دار النهضة العربية- القاهرة.
(٨٥) د. علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة.
(٨٦) د. علي حسني الخربوطي: الإسلام وأهل الذمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة.
(٨٧) د. علي عبد الواحد وافي: حقوق الإنسان في الإسلام، نهضة مصر- القاهرة.

(٨٨) م. عمر حافظ شريف: نظم الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية، معهد الدراسات الإسلامية- القاهرة.
(٨٩) د. كامل سعفان: اليهود تاريخاً وعقيدة، دار الاعتصام- القاهرة.
(٩٠) مايكل هارت: الخالدون مائة (تعريب أنيس منصور)، الزهراء للإعلام العربي- القاهرة.
(٩١) الأب متى المسكين: تاريخ إسرائيل، دار القديس أنبا مقار- مصر.
(٩٢) محمد أبو زهرة: خاتم النبيين (٣ أجزاء)، دار الفكر العربي- القاهرة.
(٩٣) محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، دار الفكر العربي- القاهرة.
(٩٤) د. محمد أحمد جاد المولى: محمد المثل الكامل، مكتبة دار المحبة- مصر.
(٩٥) د. محمد أحمد جاد المولى وآخرين: قصص القرآن، المكتبة التجارية- القاهرة.
(٩٦) محمد أحمد خضر: محمد أعظم البشر ﷺ، المؤلف- القاهرة.
(٩٧) محمد أحمد خضر: الخليل إبراهيم وذريته، المؤلف- القاهرة.
(٩٨) محمد أحمد خضر: شعب الله المختار، المؤلف- القاهرة.
(٩٩) محمد أحمد خضر: ما بين العُمَرين، الهيئة المصري للكتاب- القاهرة.
(١٠٠) محمد أحمد خضر: انتشار الإسلام، المؤلف- القاهرة.
(١٠١) محمد الخضري: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الفتح للإعلام العربي- القاهرة.
(١٠٢) د. محمد الطيب النجار: تاريخ الأنبياء، مكتبة المعارف- القاهرة.
(١٠٣) د. محمد الطيب النجار: القول المبين في سيرة سيد المرسلين، دار اللواء- الرياض.
(١٠٤) محمد الغزالي حقوق الإنسان في الإسلام، مكتبة نهضة مصر- القاهرة.
(١٠٥) محمد الغزالي وآخرين: المرأة في الإسلام، مكتبة دار أخبار اليوم- القاهرة.
(١٠٦) محمد حسني السيد: العمل في الإسلام، ملحق مجلة العمل- القاهرة.
(١٠٧) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد ﷺ، دار المعارف- القاهرة.
(١٠٨) د. محمد سيد طنطاوي: مباحث في علوم القرآن، المعاهد الأزهرية- القاهرة.
(١٠٩) الإمام محمد عبده: رسالة التوحيد، دار المعارف- القاهرة.
(١١٠) د. محمد فهمي عبد الباقي: تاريخ اليونان والرومان، المؤلف- القاهرة.
(١١١) محمد قطب: شبهات حول الإسلام، دار الشروق- القاهرة.
(١١٢) د. محمد يوسف موسى: الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة.
(١١٣) د. محمود حمدي زقزوق: الإسلام في مواجهة حملات التشكيك، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة.

(١١٤) د. محمود حمدي زقزوق: مقدمة في الفلسفة الإسلامية، معهد الدراسات الإسـلامية- القاهرة.

(١١٥) د. محمود حمدي زقزوق: الإسلام في مرآة الفكر الغربي، دار الفكر العربي- القاهرة.

(١١٦) د. محمود سلام زناتي: حقوق الإنسان في مصر الفرعونية، المؤلف.

(١١٧) الإمام الأكبر/ محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق- القاهرة.

(١١٨) د. مصطفى شاهين: النصرانية تاريخاً وعقيدة، دار الاعتصام- القاهرة.

(١١٩) مكتب العمل الدولي: خلاصة لبعض معايير العمل الدولية، جنيف/ القاهرة.

(١٢٠) مكتب العمل الدولي: منظمة العمل الدولية وأثرها في دعم التقدم الاجتماعي، جنيـف/ القاهرة.

(١٢١) مكتب العمل الدولي: إعلان منظمة العمل الدولية بشأن المبادئ والحقوق الأساسية في العمل ومتابعته (يونيو ١٩٩٨)، جنيف/ القاهرة.

(١٢٢) د. ناصر الأنصاري: المجمل في تاريخ مصر، دار الشروق- القاهرة.

(١٢٣) د. يحيى الشعراني: النظام القانوني لاتفاقيات وتوصيات منظمة العمل الدولية، ملحـق مجلة العمل- القاهرة.

(١٢٤) د. يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، مكتبة وهبة- القاهرة.

(١٢٥) د. يوسف القرضاوي: شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كـل زمـان ومكـان، دار الصحوة- القاهرة.

(١٢٦) الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل)، دار الكتاب المقدس- القاهرة.

الفهـــرس



السيرة الذاتية
للسيد/ محمد أحمد خضر

(١) التسلسل الوظيفي:

- حاصل على ليسانس الحقوق من جامعة القاهرة عام ١٩٥٣.
- أحب الأدب العربي والقراءة والكتابة منذ الصغر، واشترك مع أحد زملائه في إصدار مجلة مدرسة الخديو إسماعيل الثانوية وكذا مجلة الجامعة.
- اشتغل بالمحاماة في الفترة من ١٩٥٣/١٢/٩ حتى ١٩٥٦/٦/١١.
- عُين مفتش بمكاتب العمل الميدانية من ١٩٥٦/٦/١٢.
- في سبتمبر ١٩٦٢ نُقل إلى ديوان عام وزارة العمل (القوى العاملة) فعمل باحثًا بإداراتها، وتدرج في الوظائف حتى أصبح مديرًا لإدارة الهيئات والمؤتمرات الدولية، ثم مديرًا لإدارة التشريع، وفي هذه الأثناء أسندت إليه مهمة إعداد المذكرات والتقارير المهمة في الوزارة.
- انتدب لبعض الوقت للعمل بالاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب، تحت إشراف الدكتور فوزي السيد، ومن بعده السيد/ عبد اللطيف بلطية.
- اعتبارًا من أول فبراير ١٩٧٨ حصل على إجازة بدون مرتب حيث عمل مشرفًا على إدارة العمل بغرفة تجارة وصناعة الكويت لمدة خمس سنوات تقريبًا وحتى أخر مارس ١٩٨٣.
- بطريق الندب عُين مستشار عمالي بسفارة مصر في أثينا لمدة أربع سنوات (من أول يوليو ١٩٨٣- أخر يونيو ١٩٨٧).
- وقع عليه الاختيار ليكون مديرًا عامًا للعلاقات الدولية بالوزارة اعتبارًا من أول يوليو ١٩٨٧ أي بعد عودته من اليونان.
- وجمع بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية.
- ومن أول يناير ١٩٨٨ أصبح وكيلاً للوزارة لشئون العمل في محافظة القاهرة، ولكنه لم يستمر في هذا المنصب لأكثر من سنتين، فقد ترك العمل الحكومي، وتفرغ للعمل الحر: مستشارًا قانونيًا وكاتبًا.

(٢) البعثات الخارجية والمؤهلات الإضافية:

- أوفد في بعثة للتدريب على أعمال منظمة العمل الدولية بجنيف عام ١٩٦٤.
- سافر في منحة لدراسة "إدارة العمل" في بريطانيا عام ١٩٧٠، بعد فوزه في مسابقة أجريت لهذا الغرض.
- حصل على دبلوم معهد الدراسات الإسلامية العالية عام ١٩٩٨ بتقدير عام جيد جدًا.

(٣) المؤلفات (في مجال العمل):

بدأ التأليف في مجال العمل فقدم للمكتبة العربية:

١- كتاب عن "العلاقات النقابية الدولية" عام ١٩٧٢ (مرجع أساسي للثقافة العمالية).
٢- كتاب عن "منظمة العمل الدولية وحماية الحريات النقابية" صادر عن الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب عام ١٩٧٣.
٣- كتاب عن "العمالة المصرية في الخارج والتحديات التي تواجهها" صادر عن مجلة العمل المصرية عام ١٩٨٨.
٤- كتاب بعنوان "تشريعات وشخصيات في مسيرة العمل" صادر عن مجلة العمل المصرية عام ١٩٩٦.

(٤) المؤلفات في مجال التاريخ الإسلامي وما يرتبط به:

تحول إلى التأليف في مجال التاريخ الإسلامي وما يرتبط به، فصدرت له الكتب الآتية:

١- موسى والخضر عليهما السلام (عام ١٩٩٨).
٢- الخليل إبراهيم وذريته (عام ١٩٩٩).
٣- الأنبياء من بعد موسى وإفساد بني إسرائيل (عام ٢٠٠٣).

} ثلاثية تاريخ الأنبياء

٤- محمد ﷺ أعظم البشر (عام ٢٠٠٢).
٥- آل بيت النبي ﷺ (عام ٢٠٠٣).
٦- شعب الله المختار: حقائق التاريخ.. وادعاءات إسرائيل (عام ٢٠٠٤).
٧- الفُرقة في الإسلام: بين الشيعة وأهل السنة (عام ٢٠٠٥).
٨- ما بين العُمَرَين: عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز (عام ٢٠٠٦).
٩- العالم الصوفي: أبو حامد محمد الغزالي (عام ٢٠٠٦).
١٠- انتشار الإسلام وآداب الحرب (عام ٢٠٠٧).

(٥) الاشتراك في المؤتمرات والاجتماعات المشابهة:

- شارك في الكثير من المؤتمرات والاجتماعات.. دوليًا وإقليميًا وعربيًا.. عُقدت في جنيف ونيروبي والكويت وجدة وعمان والقاهرة والإسكندرية.

(٦) المهام الخارجية:

أوفد في مهام خارجية رسمية إلى المجر ويوغسلافيا ودول الخليج (قطر- البحرين الكويت- السعودية- الإمارات- سلطنة عمان).

(٧) الدراسات والبحوث والمقالات:

قدم العديد من الدراسات والبحوث باللغتين العربية والإنجليزية، ونُشرت له مقالات كثيرة في جريدة الأهرام وفي الأهرام الاقتصادي وكذا في مجلة العمل.

(٨) أنشطة وجهود أخرى:

- عمل أستاذاً محاضراً في المعاهد والمراكز الثقافية المتخصصة في مجالات العمل والعلاقات الدولية، ومستويات العمل الدولية، والنقابات في الدول الكبرى (بريطانيا، فرنسا، الولايات المتحدة، روسيا).
- قام بإعداد أول مشروع اتفاق لتنظيم استخدام العمالة المصرية في الخارج وكان مع دولة قطر (عام ١٩٧٤).
- مقرر لجنة إعداد مشروع قانون العمل المصري (القانون ١٣٧ لعام ١٩٨١).
- عضو مجلس إدارة الهيئة القومية للتأمينات الاجتماعية ممثلاً لوزارة القوى العاملة (١٩٨٨، ١٩٨٩).
- شارك في إعداد ومناقشة مشروع الاتفاقية الخاصة بالتأمينات الاجتماعية بين مصر واليونان (أثينا ١٩٨٥/١٩٨٦).
- عضو وفد مصر إلى المؤتمرات الأولى لمنظمة العمل العربية، وشارك في إعداد دستور المنظمة ولوائحها، ووقع عليه الاختيار ليكون مقرراً لأحد الموضوعات في كل دورة حضرها، إلى أن غادر مصر للعمل في الكويت ثم في اليونان.
- مقيد بجدول المشتغلين في نقابة المحامين، وعضو اتحاد الكتّاب.

(٩) تكريم خاص :

أ - حصل على وسام الصليب الذهبي من رئيس جمهورية اليونان خلال خدمته بالسفارة المصرية في أثينا (ديسمبر ١٩٨٤).

ب - حصل على نوط الامتياز من الطبقة الأولى سلمه له الرئيس محمد حسني مبارك بمناسبة الاحتفال بعيد العمال (آخر ابريل ٢٠٠٠).



رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠١٠/٩١١٠

الترقيم الدولي

٩٧٧-١٧-٨٨٢٩-٩

- تم النسخ بشركة الطــوبجي للنسخ والتصوير : ٣٦، ٤٠ ش خــيرت- لاظوغلي- القاهرة.
- الغلاف من إعداد: م/ محمد عبد المقصود- بمطبعة الجزيرة الدولية.
- طُبع بمطابع الطوبجي التجارية.
- حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف: ٤١ ش عبد العزيز جاويش- ميدان لبنان- المهندسين- الجيزة.
ت : ٣٣٠٣١٣٠٧


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين